دولة الإسلام في الأندلس

محمد عبد الله عنان


العصر الرابع


نهاية الأندلس

وتاريخ العرب المتنصرين



الناشر
مكتبة الخانجي للطبع والنشر والتوزيع





نهاية الأندلس

وتاريخ العرب المتنصرين

تأليف

محمد عبد الله عنان

وهو العصر الرابع

من كتاب دولة الإسلام في الأندلس

الطبعة الرابعة

الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة

الطبعة الرابعة

١٤٠٨ هـ – ١٩٨٧ م

مطبعة المدني
المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة - ت. ٨٢٦٨٥١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة[1]

صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب فى سنة ١٩٤٩ ، وصدرت طبعته الثانية فى سنة ١٩٥٨ ، مدعمة بكثير من المراجع والوثائق التى أتيح لى أن أجمعها خلال رحلاتى وبحوثى العديدة فى اسبانيا والمغرب وغيرهما .

وقد قمت حتى اليوم باثنتى عشرة رحلة دراسية فى شبه الجزيرة الإسبانية ، وزرت سائر المدن الأندلسية القديمة فى اسبانيا والبرتغال ، وعنيت بدراسة سائر ما بها من الآثار والأطلال والنقوش الأندلسية ، كما زرت سائر المدن الإسبانية النصرانية التى لها علاقة بتاريخ الأندلس ، فى قشتالة ، ونافار ، وليون وجليقية ؛ ووقفت خلال هذا التجوال الشامل فى أنحاء شبه الجزيرة ، على كثير من خواصها وطبائعها الجغرافية والإقليمية ، وكثير من تقاليدها وخواصها الاجتماعية والأدبية ، وقد كان لذلك كله ، أعمق الأثر فى نفسى ، وفى إمدادى بكثير من الآراء والفكر الجديدة ، المتعلقة بتاريخ الأندلس والأمة الاندلسية .

وهناك حقيقة سبق أن نوهت بها فى مقدمة الطبعة الأولى من هذا الكتاب ، وهى أن المصادر الإسلامية بالنسبة لهذه المراحل الأخيرة ، من حياة الأمة الأندلسية قليلة ضنينة . أجل لقد انتهت إلينا عن تاريخ مملكة غرناطة وأحوالها طائفة من المراجع القيمة ، فى مقدمتها كتب الوزير ابن الخطيب ، وما كتبه عنها ابن خلدون حتى حوادث عصره ؛ وكذلك انتهت إلينا طائفة حسنة أخرى ، عن تاريخ مملكة بنى مرين ، قرينة مملكة غرناطة ، وعضدها الأيمن فى الجهاد . ولكن هذه المراجع الإسلامية تقف بنا عند أواخر القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) ، ولا نكاد نظفر بعد ذلك ، خلال القرن التاسع الهجرى ، وهو بالنسبة لمملكة غرناطة ، عصر الانحلال والسقوط النهائى ، بأية مراجع إسلامية ذات شأن ،

---

(١) هذه هى مقدمة الطبعة الثانية مع تعديلات يسيرة .

وليس لدينا من تراث الرواية الإسلامية عن تلك المرحلة القاتمة ، من تاريخ دولة الإسلام فى الأندلس ، سوى رواية صاحب « أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر» عن سقوط غرناطة ، وما نقله إلينا المقرى من شذور قليلة متفرقة ، فى نفح الطيب ، وفى أزهار الرياض ، عن تلك المرحلة الأخيرة من حياة غرناطة .

أما عن مأساة الموريسكيين أو العرب المتنصرين ، وهم بقايا الأمة المغلوبة ، فلسنا نظفر من الرواية الإسلامية إلا بأقوال وشذور يسيرة ، معظمها أيضاً مما نقل إلينا المقرى فى كتابيه السابقين . ولهذا كان جل اعتمادنا فى استعراض هذه المرحلة الأخيرة ، من حياة الأمة الأندلسية ، على المصادر الغربية ، والإسبانية بنوع خاص ، ومنها بعض المصادر المعاصرة ، التى تروى لنا تفاصيل المأساة عن مشاهدة فعلية ؛ وإذا كانت المصادر الإسبانية ، يفيض معظمها بالمؤثرات القومية والدينية ، فإنه لما يشهد للبحث الغربى بالاعتدال والروية ، وروح الإنصاف ، ما يبديه فى مواطن كثيرة ، من تقدير مؤثر لعبقرية الأمة المغلوبة وحضارتها ، وروعة كفاحها للذود عن حياتها وكرامتها وتراثها ، وما يبديه بالأخص من عطف على محنتها وآلامها ، ومن استنكار لخطط السياسة الإسبانية ، وأساليب محاكم التحقيق فى العمل على إبادتها . ويكفى أن ننقل فى هذا الموطن تلك العبارة الموجزة القوية ، التى يجمل فيها الدكتور « لى » ، وهو من أحدث الباحثين فى هذا الموضوع ، مأساة العرب المتنصرين ، إذ يقول فى مقدمة كتابه : « إن تاريخ الموريسكيين لايتضمن فقط مأساة تثير أبلغ عطف ، ولكنه أيضاً خلاصة لجميع الأخطاء والأهواء ، التى اتحدت لتنحدر بإسبانيا فى خلال قرن ، من عظمتها أيام شارل الخامس ، إلى ذلتها فى عصر كارلوس الثانى » .

* * *

ومن ثم فقد وطنت النفس على ألا أدخر وسعاً ، فى تقصى المصادر والوثائق المتعلقة بهذه المرحلة الغامضة القاتمة ، من تاريخ الأمة الأندلسية — مرحلة الإنحلال والفناء — والسعى وراءها أينما وجدت ، سواء منها العربية أو القشتالية ؛ وأعتقد أننى بذلت فى هذا السبيل جهد المستطاع ، ووفقت إلى نتائج ذات شأن ، سواء بالنسبة لتاريخ مملكة غرناطة ، أو تاريخ الموريسكيين . ففى خلال الرحلات العديدة التى قمت بها حتى اليوم فى شبه الجزيرة الإسبانية ، لم أترك موطناً من

مواطن البحث والدرس ، أومستودعاً من مستودعات المصادر والوثائق المخطوطة أوالمطبوعة إلا قصدته ، ونهلت منه ؛ وقد أنفقت أوقاتاً عديدة فى البحث فى المجموعات العربية المخطوطة ، التى تحتفظ بها مكتبة مدريد الوطنية ، وأكاديمية التاريخ ، والإسكوريال ، وغرناطة ، وأنفقت كذلك أوقاتاً أوفى فى البحث والتنقيب وراء الوثائق المخطوطة ، الأندلسية ، والمغربية ، والمدجنية ، والمستعربية العربية ، والوثائق المخطوطة القشتالية ، وذلك سواء فى دار المحفوظات التاريخية بمدريد ، أو الإسكوريال ، أو دار المحفوظات العامة فى شنت منكش Simancas ، أو محفوظات التاج الأرجونى ببرشلونة ، أو محفوظات مملكة بلنسية ، أو بلدية غرناطة ، وكتدرائية سرقسطة ، وبلدية بنبلونة ، وغيرها من المجموعات المحلية الخاصة ، وقد ظفرت من وراء ذلك كله بمجموعة زاخرة من الوثائق التى تلقى أعظم ضوء ، على هذه المرحلة المشجية من تاريخ الأمة الأندلسية ، ومنها وثائق عديدة لم تر الضياء من قبل ، وهى تمدنا بكثير من الحقائق والتفاصيل .

وقد ألفيت بغيتى بنوع خاص ، فى دار المحفوظات الإسبانية العامة ، فى شنت منكش (سيمانقا) ؛ وشنت منكش هى قلعة أندلسية قديمة تحيط بها محلة صغيرة ، وتقع جنوب غربى مدينة بلد الوليد Valladolid ، على قيد عشرة كيلومترات منها ، وقد اتخذت منذ القرن السادس عشر دارا للمحفوظات الملكية الإسبانية ، وهى ما تزال إلى يومنا مستودع هذه المحفوظات الشهيرة ، التى تضم مجموعات عديدة زاخرة من أهم وأنفس الوثائق التاريخية والسياسية والقضائية ، ومنها عدد من الوثائق الأندلسية والمغربية النادرة . وقد اطلعت فيها على عدد كبير من الوثائق الأندلسية والقشتالية المتعلقة بتاريخ مملكة غرناطة ، ومجموعة كبيرة من المراسيم الملكية الصادرة إلى العرب المتنصرين ، ومن وثائق ديوان التحقيق المتعلقة بهم وبمحاكماتهم ، وحصلت على صور فوتوغرافية لهذه الوثائق ، التى استقينا من محتوياتها خلال هذا الكتاب ، كثيراً من الحقائق والتفاصيل ، ونشرنا لوحات من بعضها .

كما أوردت كثيراً من محتويات الوثائق المدجنية والمستعربية ، التى استطعت الحصول عليها من مختلف المجموعات الإسبانية التى سبق ذكرها ، وهى تلقى ضوءاً كبيراً على حياة المدجنين وأحوالهم فى العصور المتأخرة ، التى انقطعت فيها كل

صلاتهم بماضيهم القديم ، وبدينهم ولغتهم ، وأمتهم الأصيلة .

وبالرغم من أن مجموعة الإسكوريال الأندلسية ، لا تحتوى فيما يتعلق بتاريخ مملكة غرناطة ، عدا كتب ابن الخطيب ، على كثير من الآثار ، ولم يكن بها من قبل عن المرحلة الأخيرة سوى نسخة مخطوطة من كتاب « أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر » الذى عنى بنشره المستشرق ميللر ، ثم فقد بعد نشره ، فإنى وقفت خلال بحوثى بها على طائفة من النصوص الهامة ، وردت فى بعض الرسائل المغمورة ، مثل رسالة « أسنى المتاجر» عن هجرة المدجنين ، ورسالة ابن خاتمة عن الوباء الكبير . وقد ألفيت بالطبع فى كتب ابن الخطيب — ومنها بالإسكوريال عدة — مادة نفيسة ، وانتفعت بها فى كثير من المواطن . بيد أنى لم أجد مع الأسف هنالك شيئاً يتعلق بالموريسكيين أو العرب المتنصرين .

ووقفت خلال بحوثى بمكتبة الڤاتيكان الرسولية برومة ، على مؤلف مخطوط هام لرحالة ومؤرخ مصرى ، هو عبد الباسط بن خليل الحنفى ، عنوانه « الروض الباسم فى حوادث العمر والتراجم » وقد وردت به فقرات كثيرة عن حوادث غرناطة الأخيرة ، وقد شهدها الرحالة المذكور ، أو وقف عليها خلال زيارته لغرناطة أيام السلطان أبى الحسن . وعثرت هنالك فوق ذلك على وثيقة فقهية هامة بها نصائح وتوجيهات دينية للعرب المتنصرين ، وقد نشرت برمتها فى موضعها من الكتاب .

كما وقفت خلال بحوثى بالمغرب على بعض النصوص المفيدة ، ومنها رواية مخطوطة ضافية عن أحوال العرب المتنصرين وموقف السياسة الإسبانية منهم ، كتبها موريسكى هاجر وعاد إلى الإسلام فى أواخر العهد الموريسكى .

وقد كان لما تضمنته هذه الوثائق العديدة، وما تلقيه من أضواء هامة على كثير من الحوادث والتطورات ، المتعلقة بالمرحلة الأخيرة من تاريخ مملكة غرناطة وتاريخ العرب المتنصرين ، وحياتهم فى ظل الإستعباد الإسبانى المرهق ، المدنى والدينى ، نحو مائة عام — كان لذلك كله أثره العميق فى تصحيح كثير من النصوص والروايات المتواترة ، وفى إخراج قصة سقوط الأندلس، وقصة العرب المتنصرين واستشهادهم المؤثر ، فى ثوبها التاريخى الحق ، المدعم بالأدلة والنصوص التى لا شك فيها .

ورأيت إلى جانب هذه الوثائق التاريخية ، أن أتقصى المصادر القشتالية الكلاسيكية ، ومنها بعض الروايات المعاصرة للمأساة أو القريبة منها ، ولم أشأ أن أترك آراء المؤرخين القشتاليين وأحكامهم جانباً ، بالرغم مما يشوب هذه الآراء والأحكام فى كثير من الأحيان من التحامل . وقد انتفعت بثمار مراجعة دقيقة شاملة لأهم المصادر القشتالية ، ونخص فيما يتعلق بالرواية التاريخية بالذكر ثلاثة منها هى : رواية هرناندو دى بايثا المعاصرة عن أحداث الأعوام الأخيرة لمملكة غرناطة ؛ ورواية لويس دل مارمول المستفيضة عن سقوط غرناطة ، وثورة العرب المتنصرين وقد كتب روايته بعد سقوط غرناطة بنحو ثمانين عاماً ، وشهد ثورة العرب المتنصرين منذ بدايتها إلى نهايتها ؛ وتاريخ غرناطة للمؤرخ الغرناطى لافوئتى ألقنطرة ، وقد كتب فى القرن الماضى ، وهو زاخر بالمعلومات والتفاصيل القيمة ؛ ورجعت فيما يتعلق بالعرب المتنصرين ونفيهم ، إلى عدة من أكابر المفكرين والمؤرخين الإسبان الذين يعتد بآرائهم فى هذا الميدان ، وفى مقدمتهم موديستو لافوئتى ، وخانير ، وبيكاتوستى ، ومننديث إى پلايو ، ونقلت من تعليقاتهم على مأساة النفى ونتائجها فقرات طويلة ، تعرض آراءهم وأحكامهم بوضوح ، وحرصت على نقل آراء المؤيدين والمعارضين على السواء .

وقد عنيت عناية خاصة بالتجوال فى مملكة غرناطة القديمة ، فزرت سائر مدنها : غرناطة ، وألمرية ، والمنكب ، وبسطة ، ووادى آش ، ومالقة ، وبلش ، ولوشة ، والحامة ، ورندة ، وأركش ، والجزيرة ، وطريف ، وجبل طارق ، كما زرت كثيراً من بلدانها وقراها ، وزرت مدينة غرناطة ذاتها عشر مرات ، وشهدت فى بسائطها ونجودها وأحيائها ، كثيراً من الأماكن التى كانت مسرحاً لكثير من الحوادث والوقائع الشهيرة ، وتجولت فى مرجها الشهير ، وعلى ضفاف نهرها القديم شنيل ، وصعدت إلى جبال سيرا نفادا ذات الآكام الناصعة ، وشهدت بمدينة الحمراء — وهى التى ما زال قصرها المنيف ، وأبهاؤها الرائعة ، عنواناً لمجد غرناطة الإسلامية وحضارتها العظيمة — سائر الأماكن التى اختتمت فيها المأساة الأندلسية ، والتى تذكرها الرواية فى كثير من المناسبات المشجية .

وشغلت مدى أعوام ، بدراسة هذه المجموعة الزاخرة من الوثائق والمصادر ، وإعداد هذه الطبعة الجديدة من « نهاية الأندلس » ، أو بعبارة أخرى بكتابة

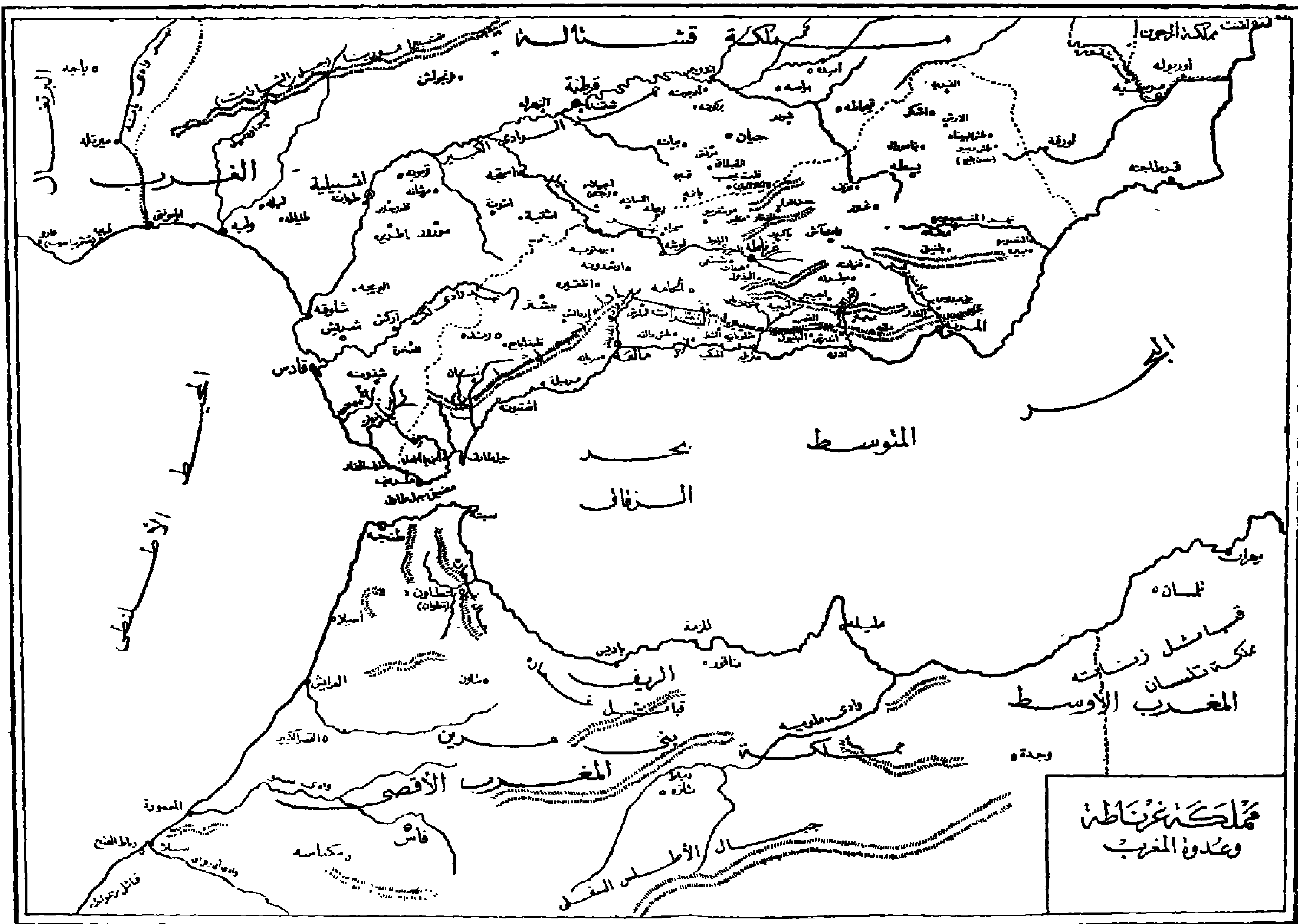
الكتاب من جديد ، بعد أن اجتمعت لدى سائر هذه العناصر الحية . ولقد كان لهذا التجوال المستفيض فى مواطن الحوادث ، وهذه المشاهدات العديدة ، للديار والربوع ، أعمق الأثر فى نفسى ، وفى ذهنى ، وفى تكييف قلمى ، حتى لقد كنت أشعر ، حين تدوين الحوادث ، وأمام مخيلتى تلك الأماكن والمشاهد ، أنى كأنما قد عشت فى تلك الأيام ، وفى تلك الربوع ، وبين أولئك الناس أبطال المأساة ، الذين أتتبع سيرهم ومصايرهم .

ولهذا كله ، وعلى ضوء كل ما تقدم من الوثائق والنصوص ، العربية والقشتالية ، التى اجتمعت لى منها أغزر مادة ، يمكن أن تجتمع لباحث فى هذا الميدان ، أرجو أن أكون قد وفقت لأن أضع اليوم بين يدى القارئ ، أوفى وأوثق رواية كتبت عن نهاية الأندلس ، وعن مأساة العرب المتنصرين .

وانى لأنتهز هذه الفرصة لأقدم جزيل الشكر إلى الآباء المحترمين القائمين على إدارة مكتبة الإسكوريال لما لقيت من جميل عونهم وعنايتهم خلال زياراتى العديدة لهذه المكتبة الجليلة . وإنى ما زلت أذكر بالأخص بعميق العرفان ما قدمه إلى صديقى المرحوم الأب الجليل نمسيو موراتا أمين مكتبة الإسكوريال السابق ، من معاونات قيمة ، كما أقدم وافر شكرى لمديرى وأمناء دور المحفوظات فى سيمانقا ومدريد وبرشلونة وبلنسية وغرناطة ؛ ومدير وأمناء مكتبة مدريد الوطنية ، لما لقيت من معاوناتهم القيمة خلال بحوثى بها مدى أعوام طويلة . وأود أخيراً أن أعرب عن وافر امتنانى وعرفانى ، لإخوانى القائمين على معهدنا المصرى بمدريد ، لما أسدوا إلى فى مختلف المناسبات من معاونات قيمة ، كان لها أكبر الأثر فى تسهيل مهمتى .

صفر سنة ١٣٧٨
الموافق أغسطس سنة ١٩٥٨

محمد عبد الله عنان


مملكة غرناطة
وعدوة المغرب
مملكة قشتالة
مملكة الجون
اوريوله
مرسية
لورقة
قرطاجنة
بسطة
جيان
قرطبة
الزهراء
الوادي الكبير
الغرب
اشبيلية
ميرتلة
باجة
لبلة
ولبة
استجة
اشونة
شاوقة
شريش
اركش
قادس
رندة
مربلة
مالقة
المرية
غرناطة
وادي آش
لوشة
الحامة
ادرة
بشتر
اشتبونة
جبل طارق
طريف
سبتة
طنجة
تطاوين
(تطوان)
أصيلا
العرائش
القصر الكبير
المعمورة
رباط الفتح
سلا
مكناسة
فاس
تازه
شاون
الريف
قبائل غمارة
بادس
المزمة
مليلة
وادي ملوية
مملكة بني مرين
المغرب الأقصى
جبال الأطلس
وجدة
تلمسان
وهران
قبائل زناتة
مملكة تلمسان
المغرب الأوسط
البحر المتوسط
بحر الزقاق
المحيط الأطلنطي

تصـــدير

صدرت الطبعة الثانية من هذا الكتاب فى سنة ١٩٥٨ ، أعنى منذ نحو سبعة أعوام . والآن ، وقد أنجزت كتابة مرحلة التاريخ الأندلسى ، التى تسبق مرحلة الإنهيار والسقوط ، وهى تاريخ « عصر المرابطين والموحدين » وتمت بذلك سلسلة تاريخ الأندلس . منذ الفتح حتى إخراج بقايا الأمة الأندلسية نهائياً من الأراضى الإسبانية . فانى أقدم هذه الطبعة الثالثة من « نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين » .

وقد كان فى مقدمة ما عنينا به فى هذه الطبعة الجديدة ، هو أن نراجع فصول الكتاب الأولى ، المتعلقة بسقوط القواعد الأندلسية الكبرى ، ونهوض محمد ابن يوسف بن الأحمر ، ونشوء مملكة غرناطة ، وأن نصل وأن ننسق بين هذه الفصول ، وبين ما ورد عن نفس الموضوعات فى القسم الثانى من كتابنا « عصر المرابطين والموحدين » ، وهو « عصر الموحدين وانهيار الأندلس الكبرى » . وقد اقتضى هذا التنسيق بعض التكرار فى سرد هذه الحوادث ، وهو تكرار يقصد به قبل كل شىء ، المحافظة على استقلال هذا القسم الأخير من تاريخ الأندلس ، بيد أننا توخينا الإيجاز فى استعراض هذه الحوادث ، تمهيداً لموضوعنا الأساسى ، وهو نشوء مملكة غرناطة ، آخر دول الإسلام بالأندلس ، وتاريخها خلال حياتها الطويلة ، هذا بينما تناولنا مرحلة انحلال الأندلس الكبرى وسقوط قواعدها ، فى كثير من الإسهاب والإفاضة فى كتابنا « عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس » وهو الذى يسبق مباشرة كتاب « نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين » ، وهو الحلقة الختامية فى هذه السلسلة الكبرى من تاريخ « دولة الإسلام فى الأندلس » .

وقد أتيح لنا فى نفس الوقت ، أن نقوم بكثير من التعديلات والإضافات الجديدة ، التى استطعنا أن نفيد الكثير منها ، خلال بحوثنا فى الأعوام الأخيرة

فى مدريد وفى المغرب . وبالرغم من أن هذه التعديلات والإضافات ، ليست كثيرة ، فإنها مع ذلك تضفى على الكتاب قيما وفوائد جديدة .

وإنا لنرجو أن تتوج هذه الطبعة الجديدة من « نهاية الأندلس » ذلك المجهود الطويل المضنى الذى بذلناه مدى خمسة وعشرين عاماً فى كتابة هذه القصة المشجية — تاريخ الأمة الأندلسية — منذ بدايتها حتى نهايتها .

ربيع الأول سنة ١٣٨٦
الموافق يوليه سنة ١٩٦٦

محمد عبد الله عنان

صفحتان من كتاب « الإحاطة فى أخبار غرناطة » لابن الخطيب ، من ترجمته لنفسه . مخطوط الإسكوريال رقم ١٦٧٣ الغزيرى .

الصفحتان الأوليان من رسالة « أسنى المتاجر فيمن غلب النصارى على وطنه ولم يهاجر » وهي توجد ضمن مجموعة مخطوطة بالإسكوريال رقم ١٧٥٨ الغزيري

تاريخ مملكة غرناطة

٦٣٥ - ٨٩٧ هـ : ١٢٣٨ - ١٤٩٢ م

الكتاب الأول

مملكة غرناطة

منذ قيامها حتى ولاية السلطان أبي الحسن

٦٣٥ - ٨٦٨ هـ : ١٢٣٨ - ١٤٦٣ م

الفصل الأول

الأندلس الغـــــارية

دول الطوائف . المرابطون والموحدون . سياسة الإسترداد النصرانية . سقوط القواعد الأندلسية فى يد النصارى . موجة الاسترداد الغامرة فى القرن السابع . شعور أهل الأندلس بمصيرهم . مدينة غرناطة . صفتها أيام الدولة الاسلامية . ما بقى من خططها ومعالمها الأندلسية .

— ١ —

يقدم إلينا تاريخ الأندلس فى مراحله الأولى ، صفحات باهرات من ضروب المجد الحربى والسياسى ، وآيات ساطعات من ضروب التمدن والعرفان . ولكنه يقدم إلينا فى مراحله الأخيرة ، صفحات مشجية مؤثرة من تقلب الحدود ، وتعاقب المحن ، والانحدار البطىء المؤلم ، إلى معترك الهزيمة . والذلة والسقوط .

ولا تمثل قصة الأندلس ، سوى الحقيقة التاريخية الخالدة . وليس مجرى التاريخ سوى تعاقب الأجيال والأمم ، وتبدل الحضارات والدول . ولكن الصراع الطويل المضطرم ، الذى خاضته الأمة الإسلامية فى الأندلس ، قبل أن تستسلم إلى قدرها المحتوم ، يبدو فضلا عما يحف به من ألوان البطولة الخالدة ، صفحة رائعة من الاستشهاد المؤثر ، قلما يقدمها إلينا تاريخ أمة من الأمم ، التى اشتهرت بالذود عن حياتها وحرياتها .

وقد سقطت قواعد الأندلس الشهيرة ، فى سلسلة من المعارك والمحن الطاحنة ، التى تقلبت فيها الأمة الأندلسية ، منذ انهار صرح الخلافة الأموية فى الأندلس ، فى أواخر القرن الرابع الهجرى ، وقامت دول الطوائف الصغيرة المفككة ، على أنقاض دولة عظيمة شامخة . وكان سقوط كل قاعدة من هذه القواعد الشهيرة التى كانت تسطع بمجتمعاتها وحضارتها الزاهرة ، خلال حلك العصور الوسطى ، يمثل ضربة مميتة للدولة الإسلامية فى الأندلس ، ويحدث أعمق صدى فى جنبات الدول الإسلامية فى الشرق والغرب ، وينتزع من وحى النثر والنظم أروع المراثى . وكانت الأمة الأندلسية ، كلما سقطت قاعدة من قواعدها الشهيرة ، فى يد علوتها القديمة المتربصة بها — إسبانيا النصرانية — ألفت عزاءها فى قواعدها الأخرى ،

وهرع معظم السكان المسلمين إلى تلك القواعد الإسلامية الباقية ، إستبقاء لحرياتهم ودينهم وكرامتهم ، حتى لم يبق من تلك القواعد الشهيرة سوى غرناطة وأعمالها ، تؤلف مملكة إسلامية صغيرة ، ولكن أبية ساطعة ، استطاعت عبقرية بناتها النصريين ، أن تسير بها خلال العاصفة أكثر من مائتي عام .

والحقيقة أن مصير الأندلس ، كان يهتز في يد القدر ، مذ فشلت ريح دول الطوائف ، وغلب عليها الخلاف والتفرق ، وانحدرت إلى معترك الحرب الأهلية ، تفسح لعدوها الخطر مجال التفوق عليها ، والضرب والتفريق بينها . وقد استطاع بعض ذوى النظر الثاقب من رجالات الأندلس ، حتى فى ذلك العصر ، الذى كان الإسلام يسيطر فيه على معظم أنحاء شبه الجزيرة الإسبانية ، أن يستشفوا ما وراء هذا التفرق من الخطر الداهم . فنرى ابن حيان مؤرخ الأندلس فى القرن الخامس الهجرى ، يقول لنا بعد أن يصف حوادث سقوط بربشتر ، من أعمال الثغر الأعلى (أراجون) ، فى يد النصارى (النورمان) فى سنة ٤٥٦ هـ (١٠٦٣ م) وما اقترن بسقوطها من القتل والسبى وشنيع الاعتداء: « وقد استوفينا فى شرح هذه الفادحة مصائب جليلة ، مؤذنة بوشك القلعة ، طالما حذر أسلافنا لحاقها ، بما احتملوه عمن قبلهم من آثاره . ولاشك عند أولى الألباب ، أن ذلك مما دهانا من داء التقاطع ، وقد أخذنا بالتواصل والألفة ، فأصبحنا من استشعار ذلك والتمادى عليه ، على شفا جرف يؤدى إلى الهلكة لا محالة ، إذ قدر الله زماننا هذا بالإضافة إلى ما عهدنا فى القرن الذى سلخه من آخر أمد الجماعة ، على إدراك مالحق الذى قبله ، فثل دهرنا هذا — لا قدس — بهم الشبه ، ما أن يباهى بعرجه ، فضلا عن نزوح خيره ، قد غربل ضمائرهم ، فاحتوى عليهم الجهل ، فليسوا فى سبيل الرشد بأتقياء ، ولا على معالى الغى بأقوياء . نشأ من الناس هامل يعللون أنفسهم بالباطل ، من أول الدلائل على فرط جهلهم ، اغترارهم بزمانهم ، وبعادهم عن طاعة خالقهم ، ورفضهم وصية نبيهم ، وغفلتهم عن سد ثغرهم ، حتى أطل عدوهم الساعى لإطفاء نورهم ، يتبجح عراص دورهم ، ويستقرى بسائط بقاعهم ، يقطع كل يوم طرفا ، ويبيد أمة ، ومن لدينا وحوالينا من أهل كلمتنا صموت عن ذكراهم ، لهاة عن بثهم »[1] ، ولم يكن هذا التنديد من

(١) نقلنا هذه الفقرة من تعليقات ابن حيان على نكبة بربشتر ، عن الذخيرة لابن بسام ، القسم الثالث المخطوط المحفوظ بمكتبة أكاديمية التاريخ بمدريد (لوحات ٣٤ — ٣٦) . ونقل المقرى بعض هذه التعليقات فى نفح الطيب (مصر) ج ٢ ص ٥٧٦ .

جانب المؤرخ الأندلسى الكبير ، بتواكل أهل الأندلس ، وتخاذلهم عن نصرة دينهم وإخوانهم ، إلا معبراً عن حقيقة راسخة مؤلمة ، ظهرت بأروع مظاهرها ، فى عصر الطوائف. بل لقد لاح مدى لحظة ، حينما سقطت طليطلة أول قاعدة إسلامية كبيرة ، فى يد اسبانيا النصرانية فى سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) ، أن الأندلس أضحت على وشك الفناء ، وأن دول الطوائف المنهوكة الممزقة ، سوف تسقط تباعاً فى يد عدوها القوى ، وأن دولة الإسلام فى اسبانيا سوف تطوى وتختتم حياتها المجيدة فى شبه الجزيرة . وقد ساد الفزع والتوجس يومئذ جنبات الأندلس كلها ، حتى قال شاعرهم حينما سقطت طليطلة :

يا أهل أندلس شدوا رحالكم ... فما المقـام بها إلا من الغلط
السلك ينثر من أطرافه وأرى ... سلك الجزيرة منثوراً من الوسط
من جاور الشر لا يأمن بوائقه ... كيف الحياة مع الحيات فى سفط

ولكن الدرس كان عميق الأثر ، فجنح زعماء الطوائف إلى الرشاد ، وجمعت المحنة منهم الكلمة ، وارتدوا إلى ما وراء البحر ، يلتمسون الغوث إلى « المرابطين » إخوانهم فى الدين . وكان المرابطون يومئذ فى عنفوان دولتهم ، وأميرهم يوسف ابن تاشفين يبسط سلطانه القوى على أمم المغرب ، من المحيط غرباً حتى تونس شرقاً . فاستجاب المرابطون إلى صريخ الطوائف ، وعبروا البحر إلى الأندلس فى قوات ضخمة ، والتقت الجيوش الإسلامية المتحدة بقيادة يوسف بن تاشفين ، بالجيوش النصرانية المتحدة بقيادة ألفونسو السادس زعيم اسبانيا النصرانية ، فى سهول الزلاّقة فى رجب سنة ٤٧٩ هـ (أكتوبر سنة ١٠٨٦ م) فأحرز المسلمون نصراً عظيما حاسما . وكانت موقعة الزلاّقة من أيام الأندلس المشهورة ، وانتعشت دول الطوائف ، وقويت نفوس الأمة الأندلسية ، وبدأت الأندلس حياة جديدة . ولكن سرعان ما انقلب المرابطون على إخوانهم وحلفائهم ، واجتذبتهم نعماء الأندلس وثرواتها ، فحطموا دول الطوائف ، وبسطوا حكمهم على الأندلس زهاء نصف قرن . ولما سقطت دولتهم فى المغرب ، وقامت على أنقاضها دولة الموحدين ، جاشت مختلف القواعد الأندلسية بالثورة على المرابطين ، وعبر الموحدون البحر إلى اسبانيا ، واستولوا تباعا على القواعد الأندلسية الكبرى وبسطوا على الأندلس حكمهم زهاء قرن آخر . وفى ظل الموحدين أحرزت الجيوش الإسلامية كما أحرزت فى الزلاّقة أيام المرابطين ، نصرها الحاسم على اسبانيا

النصرانية ، بقيادة الخليفة الموحدى يعقوب المنصور ، وذلك فى موقعة الأرك الشهيرة (٥٩٣ هـ — ١١٩٥ م)[1] . ولكنها ما لبثت أن لقيت هزيمتها الحاسمة ، بعد ذلك بقليل على يد اسبانيا النصرانية ، فى عهد الخليفة محمد الناصر ولد المنصور فى موقعة العقاب المشئومة التى فنى فيها معظم الجيوش الموحدية والأندلسية (٦٠٩هـ — ١٢١٢ م)[2] . وكانت هزيمة العقاب ضربة شديدة لسلطان الموحدين ولاسبانيا المسلمة ، فعاد شبح الفناء يلوح للأندلس قوياً منذراً ، وسرى هذا التوجس إلى كتاب العصر وشعرائه ، وظهر واضحاً فى رسائلهم وقصائدهم . ومن ذلك ما قاله أبو اسحق ابراهيم بن الدباغ الإشبيلى معلقاً على موقعة العقاب :

وقائلة أراك تطيل تفكراً ... كأنك قد وقفت لدى الحساب

فقلت لها أفكر فى عقاب ... غدا سبباً لمعركة العقاب

فما فى أرض أندلس مقام ... وقد دخل البلا من كل باب[3]

وفى خلال ذلك كانت الأندلس تضطرم بأشنع ضروب الخلاف والفتن ، والقواعد والثغور يتناوبها الزعماء والمتغلبون ، واسبانيا النصرانية تنزل بالأندلس ضرباتها المتوالية ، وتستولى تباعاً على القواعد والثغور .

والحقيقة أن الجهد المضطرم الذى بذلته اسبانيا النصرانية يومئذ ، لانتزاع القواعد الأندلسية لم يكن سوى الذروة فى مرحلة طال أمدها ، من حركة الفتح والاسترداد النصرانية La Reconquista . وقد بدأ هذا الاسترداد من جانب اسبانيا النصرانية لأراضيها المفتوحة منذ عصر مبكر جداً ، أعنى مذ قامت المملكة النصرانية الشمالية عقب الفتح الإسلامى بقليل فى حمى الجبال الشمالية ، واشتد ساعدها بسرعة ، واستطاعت منذ منتصف القرن الثامن الميلادى أن تدفع حدودها تباعاً نحو الجنوب . وكانت أولى القواعد الإسلامية التى سقطت هى « لُك » فى أقصى الشمال الغربى لشبه الجزيرة ، وأسترقة فى شمال نهر دويرة ، وسمورة وشلمنقة وشقوبية وآبلة فى الناحية الأخرى من دويرة . ولم تتأثر الأندلس المسلمة

---

(١) وتعرف فى الاسبانية بموقعة **Alarcos** . وتراجع تفاصيلها فى كتابى « عصر المرابطين والموحدين » القسم الثانى ص ٢٠٠ — ٢١٤ .

(٢) وتعرف فى الاسبانية بموقعة **Las Navas de Tolosa** . وتراجع تفاصيلها فى الكتاب السالف الذكر القسم الثانى ص ٢٩٣ — ٣٢٢ .

(٣) نفح الطيب ج ٢ ص ٥٨٢ .

كثيراً بفقد هذه القواعد الأولى لنأيها وقربها من المملكة النصرانية . ولكن الأندلس شعرت بالخطر الحقيقى منذ استطاع النصارى عبور نهر التاجُه متوسط شبه الجزيرة فى غزوات قوية ، واستيلائهم بعد ذلك على طليطلة ثالثة القواعد الاندلسية الكبرى بعد قرطبة وإشبيلية . ووضع نصر الزلاّقة ، وقيام سلطان المرابطين فى شبه الجزيرة ، حداً مؤقتاً لتقدم النصارى فى وسط شبه الجزيرة وشرقيها . ولكن موجة جديدة من الغزو النصرانى اجتاحت شمال شرقى الأندلس منذ بداية القرن السادس الهجرى ، فسقطت سرقسطة فى يد النصارى (٥١٢ هـ — ١١١٨ م) ، وكانت تطيلة حصنها الأمامى قد سقطت قبل ذلك بعام ، ثم تلتها بقية قواعد الثغر الأعلى ، لاردة وإفراغة ومكناسة وطرطوشة (٥٤٣هـ — ٥٤٤هـ) (١١٤٨ — ١١٤٩م) . وفى تلك الآونة ذاتها بدأ سقوط القواعد الإسلامية فى غربى شبه الجزيرة أعنى فى البرتغال ، فسقطت أشبونة وشنترة وشنترين فى يد النصارى فى سنة ١١٤٧ م (٥٤٢ هـ) ، وسقطت باجة بعد ذلك بقليل فى سنة ١١٦١ م (٥٥٦ هـ) ، ثم تلتها يابرة فى سنة ١١٦٥ م (٥٦١ هـ)

ولما توطد سلطان الموحدين بالأندلس فى أواخر القرن السادس الهجرى ، توقفت حركة الإسترداد النصرانى مدى حين ، ثم عادت تضطرم قوية بعد إحراز اسبانيا النصرانية لفوزها الحاسم على الموحدين فى موقعة العقاب (٦٠٩هـ) . ومنذ أوائل القرن السابع الهجرى تجتاح اسبانيا المسلمة موجة عاتية من الغزو النصرانى وتسقط قواعد الأندلس التالدة شرقاً وغرباً فى يد النصارى . وهكذا سقطت جزيرة ميورقة (٦٢٧هـ — ١٢٢٩ م) ، وبياسة (٦٢٣هـ — ١٢٢٦ م) وأبّدة (٦٣٠هـ — ١٢٣٣م) ثم قرطبة (٦٣٣هـ — ١٢٣٦م) وإستجة والمدور (٦٣٣هـ — ١٢٣٦م) وبلنسية (٦٣٦ هـ — ١٢٣٨م) ودانية ولقنت (٦٤١ هـ — ١٢٤٤ م) وأوريولة وقرطاجنة (٦٤٣ هـ — ١٢٤٥ م) وشاطبة (٦٤٤ هـ — ١٢٤٦ م) ومرسية (٦٤٠ هـ — ١٢٤٣ م) وجيان (٦٤٣ هـ — ١٢٤٦ م) ، ثم إشبيلية (٦٤٦ هـ — ١٢٤٨ م) . واجتاحت غرب الأندلس فى الوقت نفسه موجة مماثلة من الغزو النصرانى ، فسقطت بطليوس (٦٢٧ هـ — ١٢٣٠ م) وماردة (٦٢٨ هـ — ١٢٣١ م) وشلب (٦٤٠ هـ — ١٢٤٢ م) وشنتمرية الغرب (٦٤٧ هـ — ١٢٤٩ م) ولبلة وولبة (٦٥٥ هـ — ١٢٥٧ م) . ثم سقطت قادس فى سنة ١٢٦١ م ، وتلتها شريش فى سنة ١٢٦٤ م . وهكذا لم يأت منتصف القرن

السابع الهجرى (القرن الثالث عشر الميلادى) حتى كانت ولايات الأندلس الشرقية والوسطى كلها ، قد سقطت فى يد اسبانيا النصرانية ، ولم يبق من تراث الدولة الإسلامية بالأندلس ، سوى بضع ولايات صغيرة فى طرف اسبانيا الجنوبى .

وأخذت الأندلس عندئذ ، تواجه شبح الفناء مرة أخرى ، وطافت بالأمة الأندلسية التى احتشدت يومئذ فى الجنوب فى بسيطها الضيق ، ريح من التوجس والفزع ، وعاد النذير يهيب بالمسلمين ، أن يغادروا ذلك الوطن الخطر ، الذى يتخاطف العدو أشلاءه الدامية ، وسرى إلى الأمة الأندلسية شعور عميق بمصيرها المحتوم .

ولكن شاء القدر أن يرجىء هذا المصير بضعة أجيال أخرى ، وشاء أن يسبغ على الدولة الإسلامية بالأندلس ، حياة جديدة فى ظل مملكة غرناطة ، التى استطاعت أن تبرز من غمر الفوضى ضئيلة فى البداية ، وأن توطد دعائم قوتها شيئاً فشيئاً ، وأن تذود عن الإسلام ودولته الباقية بنجاح ، أكثر من قرنين . وكان من حسن طالع هذه المملكة الإسلامية الصغيرة ، أن شغلت عدوتها القوية اسبانيا النصرانية مدى حين ، بمنازعاتها وحروبها الداخلية ، فلم توفق إلى تحقيق غايتها الكبرى ، وهى القضاء على دولة الإسلام فى الأندلس ، وعلى الأمة الأندلسية بصورة نهائية ، إلا بعد أن تهيأت لذلك جميع الظروف والأسباب . ولم يكن ذلك قبل مائتين وخمسين عاماً ، عاشتها مملكة غرناطة الصغيرة أبية كريمة ، ترفع لواء الإسلام عالياً فى تلك الربوع ، التى افتتحها الإسلام قبلى ذلك بعدة قرون ، وأنشأ بها المسلمون حضارتهم العظيمة التى حفلت بأرقى نظم للحياة المادية والأدبية ، وأرفع ضروب العلوم والفنون التى عرفت فى العصور الوسطى .

— ٢ —

كانت غرناطة وقت افتتاح الأندلس ، مدينة صغيرة من أعمال ولاية «إلبيرة» تقع على مقربة من مدينة إلبيرة قاعدة الولاية ، من الناحية الجنوبية[1] ، افتتحها المسلمون عقب انتصارهم على القوط ، بقيادة طارق بن زياد فاتح الأندلس ، فى موقعة شَريش فى رمضان سنة ٩٢ هـ . (يوليه سنة ٧١١م) . ولما اضطرمت الفتنة بالأندلس ، ودب الخلاف بين القبائل ، عقب موقعة بلاط الشهداء (٧٣٢م)

---

(١) إلبيرة وبالاسبانية **Elvira** هى مدينة رومانية قديمة كانت تسمى أيام الرومان **Iliboris** وكانت عاصمة الولاية التى تسمى بهذا الاسم ، وكانت أيام الفتح الإسلامى مدينة كبيرة عامرة .

واشتد التنافس على الإمارة بين الشاميين من ناحية ، والعرب والبربر من ناحية أخرى ، رأى أمير الأندلس أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي ، أن يعمل على تهدئة الفتنة بتمزيق عصبة الشاميين ، ففرقهم فى أنحاء الأندلس ، وأنزل جند الشام بكورة إلبيرة ، وجند حمص بإشبيلية ، وجند فلسطين بشذونه والجزيرة ، وجند الأردن بريه ، وهكذا نزل الشاميون منذ البداية بولاية إلبيرة ، وغدوا بمضى الزمن كثرة فيها . واستمرت مدينة إلبيرة قاعدة لهذه الولاية ومركز قضائها فى ظل الدولة الأموية ، حتى أواخر القرن الرابع حينما انهارت الخلافة الأموية وتعاقبت الفتن ، وعاث البربر فى النواحى ، وخربت مدينة إلبيرة شيئاً فشيئاً ، حتى غدت غرناطة قاعدة الولاية مكانها ، وغلب اسم غرناطة على الولاية نفسها. ومن ذلك الحين يختفى اسم إلبيرة كقاعدة من قواعد الأندلس ، ويذكر مكانها اسم غرناطة . والواقع أن إلبيرة وغرناطة تعتبران فى معظم الأحيان ولاسيما فى المراحل الأولى لتاريخ الأندلس ، إسمين لمكان واحد ، وقد جرى كثير من المؤرخين والجغرافيين على المزج بينهما[١] .

وغرناطة أو إغرناطة اسم قديم يرجع إلى عهد الرومان والقوط ، وقد اختلفت آراء الباحثين فى أصل هذه التسمية ، فيرى البعض أنه مشتق من الكلمة الرومانية Granata أى الرمانة ، وأنها سميت كذلك لجمالها ، ولكثرة حدائق الرمان التى تحيط بها[٢] . ويرى البعض الآخر أن التسمية ترجع إلى أصل قوطى أو أنها ترجع إلى أصل بربرى مشتق من اسم إحدى القبائل[٣] . والواقع أن غرناطة تتمتع بموقع فائق فى الحسن ، فهى تقع فى واد عميق يمتد من المنحدر

---

(١) كتاب الإحاطة فى أخبار غرناطة ، لابن الخطيب (القاهرة ١٩٥٦) ج ١ ص ٩٩–١٠٥

(٢) المستشرق سيبولد فى **Ency. de l'Islame : Grenade** ؛ وكذلك فى معجم ياقوت حيث يقول إن معنى غرناطة « الرمانة » بلسان عجم الأندلس سمى البلد كذلك لحسنه (راجع معجم ياقوت تحت كلمة غرناطة) . وقيل إنها سميت كذلك لانها أنشئت على البقعة التى زرع فيها الرمان لأول مرة عند نقله من إفريقية اليها ، وقيل أيضاً إنها سميت كذلك لأنها بموقعها وانقسامها على اتلين تشبه بمنازلها الكثيفة الرمانة المشقوقة . راجع كتاب : **(Prescott : Ferdinand and Isabella, p. 190, Note)**

(٣) هذا ما يراه المستشرق الإسبانى سيمونيت ، إذ يقول إن المرجح أن الاسم قوطى الأصل ، وأنه مركب من كلمة « ناطة » وهو اسم قرية قديمة كانت تقع على مقربة من إلبيرة و« غار» وهو المقطع الذى أضافه المسلمون إليها فصارت «غرناطة» . أو أن البربر سموها كذلك عند نزولهم بها وهو اسم أحد قبائلهم راجع : **(Simonet : Descripción del Reino de Granada (Granada 1872) p. 40 & 41)** وراجع كتاب الإحاطة فى أخبار غرناطة (القاهرة ١٩٥٦) ج ١ ص ٩٩ الهامش .

الشمالى الغربى لجبال سيرّا نفادا ، وتظللها الآكام العالية من الشرق والجنوب ، ويحدها من الجنوب نهر شَنيل فرع الوادى الكبير(١) ، وهو ينبع من جبال سيرّا نفادا ، ويخترقها فرعه المسمى نهر حدرُّه أو هدره El-Darro ، ويلتقى به عند جنوبى المدينة . وقد كان شنيل وفرعه حدره أيام المسلمين يفيض بالماء ، ولاسيما فى الصيف حين تذوب الثلوج ، وكانت ضفافهما خضراء يانعة تغص بالحدائق الغناء . أما اليوم فقد جف مجرى شنيل . وقلما يجرى فيه الماء سوى القليل أيام الشتاء . وأما فرعه حدرُّه فيخترق المدينة من الشرق عند سفح التل الذى تقع عليه « الحمراء » ويتصل بشنيل عند القنطرة الأندلسية القديمة . وهو يكاد يختفى اليوم ولم يبق من مجراه سوى الجزء الصغير المجاور لتل لحمراء . وأما جزوءه الذى كان يخترق وسط المدينة فقد غطى اليوم بشارعها الرئيسى الأوسط المسمى « شارع الملكين الكاثوليكيين » ، وامتداده فى الميدان الكبير حتى قنطرة شنيل .

وتشرف غرناطة من الجنوب الغربى ، على بسيط شاسع أخضر وافر الخصب ، هو المرج أو الفحص الشهير La Vega(٢) الذى يمتد غرباً حتى مدينة لَوْشة ، ومن الجنوب الشرقى على جبال سيرّا نفادا Sierra Nevada (جبل شُلير أو جبل الثلج)(٣) التى تغطى آكامها الثلوج الناصعة .

وكانت غرناطة أيام الدولة الإسلامية ، جنة من جنات الدنيا ، تغص بالغياض والبساتين اليانعة ، التى كانت لوفرة خصبها وروعة نضرتها ، تعرف « بالجنات » ، فيقال للمزرعة أو البستان « جنة كذا » أو جنة فلان ، مثل جنة الحرف ، وجنة العرض ، وجنة الحفرة ، ومدرج نجد ، ومدرج السبيكة ، وجنة ابن عمران وجنة العريف وغيرها . وقد ذكر ابن الخطيب أن هذه الجنات الغرناطية الشهيرة كانت تبلغ فى عصره زهاء المائة ، كما ذكر لنا أن منطقة غرناطة ، كانت تضم زهاء ثلاثمائة قرية عامرة ، منها ماكان يبلغ سكانه الألوف ومنها ماكان يملكه

---

(١) شنيل هو بالاسبانية Xenil أو Genil ، ويسمى أيضاً عند الأندلسيين بنهر سنجيل مشتقاً من اسمه اللاتينى Singilis .

(٢) وهى كلمة إسبانية معناها المرج . ولعلها مشتقة من كلمة « فحص » العربية .

(٣) يطلق الجغرافيون الأندلسيون اسم شلير أو جبل الثلج على جبال « سيرا نفادا » . فأما « شلير » فهو محرف عن اللاتينية Solarius ومعناها جبل الشمس ، وذلك لأن الشمس تسلط أشعتها الساطعة على تلك الجبال فينعكس ضوؤها على الثلوج الناصعة التى تغطيها . وأما تسميتها بجبل الثلج ، فهى ترجمة عربية مطابقة لاسمها القشتالى Sierra Nevada .

مالك واحد أوملاك قلائل . هذا عدا الأملاك السلطانية والحصون[1] . وبذلك نستطيع أن نقدر أن مدينة غرناطة ، كانت تضم أيام أن كانت عاصمة للدولة الإسلامية ، أكثر من نصف مليون من الأنفس . وأما خارج المدينة فيصفه ابن الخطيب فى قوله :

« ويحف بسور المدينة المعصومة بدفاع الله تعالى ، البساتين العريضة المستخلصة ، والأدواح الملتفة ، فيصير سورها خلف ذلك كأنه من دون سياج كثيفة ، تلوح نجوم الشرفات البيض أثناء خضرايه ، فليس تعرى جنباته من الكروم والجنات جهة » . وأما المرج الشهير أو الفحص La Vega فقد كان بسيطاً رائع الخضرة يشبهونه بغوطة دمشق ، وتخترقه الجداول والأنهار ، ويغص بالقرى والجنات ، ويهرع إليه الرواد فى ليالى الربيع والصيف فيغدو مسرح الأسمار والأنس .

وكانت المدينة ذاتها نموذجاً بديعاً للعمارة الإسلامية ، تغص بالصروح والأبنية الفخمة ، وتتخللها الميادين والطرقات الفسيحة . وكانت مدينة الحمراء أو دار الملك أروع ما فيها ، تطل على أحيائها « فى سمت من القبلة ، تشرف عليه منها الشرفات البيض ، والأبراج السامية والمعاقل المنيعة ، والقصور الرفيعة ، تغشى العيون ، وتبهر العقول »[2] .

وقد أشاد بذكر محاسن غرناطة وفضائلها كتاب الأندلس وشعراؤها ؛ وانتهت إلينا من منظومهم ومنثورهم فيها تراث حافل ، ينم بالرغم مما يحمله أحياناً من طابع المبالغة ، عما كانت تثيره غرناطة فى نفوسهم من عميق الإعجاب والحب . وقد أورد لنا ابن الخطيب فى « الإحاطة » والمقرى فى « نفح الطيب » ، و « أزهار الرياض » كثيراً من هذه القصائد والرسائل ، وإليك بعض نماذج منها :

قال ابن الخطيب :

بلد تحف به الرياض كأنه ... وجه جميل والرياض عذارد
وكأنما واديه معصم غادة ... ومن الجسور المحكمات سواره

---

(١) الإحاطة فى أخبار غرناطة (القاهرة ١٩٥٦) ج ١ ص ١٢٢ و ١٢٣ . ويقدم لنا ابن الخطيب بياناً وافياً عن القرى الغرناطية . (راجع ص ١٣١ – ١٣٨ والهوامش حيث تبين مواقع هذه القرى وأسماؤها الاسبانية الحالية) .

(٢) راجع الإحاطة فى أخبار غرناطة ج ١ ص ١٢١ . واللمحة البدرية فى تاريخ الدولة النصرانية لابن الخطيب أيضاً ص ١٣ و ١٤ .

وقال أبو الحجاج يوسف بن سعيد :

أغرناطة العلياء بالله خبرى ... أللهائم الباكى إليك طريق
وما شاقنى إلا نضارة منظر ... وبهجة واد للعيون تروق
تأمل إذا أملت «حوز مؤمل»[1] ... ومد من الحمراء عليك شقيق
وأعلامه نجد والسبيكة قد علت ... وللشفق الأعلى تلوح بروق
وقد سل شَنِيل فرندا مهندا ... يضىء فوق درٍّ ذُرَّ فيه عقيق

وقال آخر :

غرناطة ما لها نظير ... ما مصر ما الشام ما العراق
ما هى إلا العروس تجلى ... والأرض من جملة الصداق

أما اليوم فقد غدت غرناطة مدينة متواضعة لا يزيد سكانها على مائة وثلاثين ألفاً . وهى عاصمة الولاية الأندلسية المسماة بنفس الإسم . وبالرغم من أنها قد فقدت بهاءها السالف ، فإنها ما زالت تتشح بطابع خاص من التحفظ والنبل المؤثر . وقد اختفت معظم خططها الإسلامية ، وقامت على أنقاضها مدينة أوربية حديثة . بيد أن غرناطة ما زالت مع ذلك تحتفظ ببقية من صروحها ومعالمها الأندلسية . وتجتمع هذه البقية بالأخص فى قسمها الشرقى حيث تربض أبراج « الحمراء » فوق هضبتها العالية ، وأعظم آثارها الإسلامية الباقية هو بلا ريب قصر الحمراء الملكى الذى ما زال يحتفظ بكثير من روعته القديمة ، وقصر « جنة العريف » El Generalife الواقع فى شرقه على مسافة قليلة ، وقد كان مصيفاً لملوك غرناطة ، وبقية ضئيلة من « قصر شنيل » Alcázar Genil[2] ، وهى تقع فى ضاحية أرملة (أرمليا) على مقربة من شنيل ، و « الخان » Alhóndiga ، وهو ذو عقد عربى رائع ، ويقع على مقربة من دار البريد القديمة . أما المسجد الجامع وبقية المساجد الأخرى فقد هدمت جميعاً وقامت على أنقاضها الكنائس . وأما ما بقى من خططها الإسلامية ، فهو ظاهر بالأخص فى « حى البيازين » Albaicin الواقع فى شمالها

---

(١) هو اسم مكان بغرناطة الاسلامية كان يشتهر بنضرته ورياضه ، ويحتل مكانه اليوم الحى الغرناطى المسمى Campo del Principe (راجع الإحاطة ج ١ ص ٤٤٩ والهامش) .

(٢) هو القصر الذى يعرف فى تاريخ غرناطة بقصر السيد ، وقد أنشىء فى عصر الموحدين ، أنشأه السيد أبو إبراهيم إسحاق بن يوسف بن عبد المؤمن والى غرناطة ، وذلك فى سنة ٦١٤هـ (١٢١٧م) وعرف عندئذ بقصر السيد . وكان أيام الدولة النصرية يستعمل قصرا للضيافة الملكية (راجع كتابى عصر المرابطين والموحدين القسم الثانى ص ٣٣١) .

الغربى . والميدان الكبير الذى ما زال يحمل اسمه القديم « رحبة باب الرملة » Plaza de Bibrambla ، وإلى جواره القيسرية القديمة Alcaicaría . هذا فضلا عما يبدو فى كثير من دروبها الضيقة الصاعدة ، ومنازلها العديدة ذات الطراز الأندلسى ، من الملامح الأندلسية الواضحة .

كذلك بقيت قطعة كبيرة من أسوار غرناطة الإسلامية ، وبضعة من أبوابها القديمة مثل باب البنود وباب إلبيرة وباب البيازين وباب فحص اللوز ، وباب الشريعة وهو مدخل الحمراء الرئيسى . هذا وما زالت « قنطرة شنيل » ، قائمة على النهر عند التقائه بفرعه « حدرُّه » ، وتحمل اسمها الإسلامى القديم Puente del Genil .

وتوجد فى متحف غرناطة الأثرى طائفة كبيرة من اللوحات والنقوش والتحف الأندلسية .

ولغرناطة منزلة خاصة فى نفوس الإسبان وفى التاريخ الإسبانى . فهى إلى كونها خاتمة الفتوح المظفرة التى توجت حروب الإسترداد الإسبانية La Reconquista تعتبر بتاريخها المؤثر أنبل المدن الأندلسية ، ويعتبر سقوطها فى أيدى الإسبان فاتحة عصر اسبانيا الذهبى . ومن ثم فقد اتخذت مثوى أبدياً لفاتحيها الملكين الكاثوليكيين فرناندو وإيسابيلا ، حيث يرقدان فى كنيستها العظمى التى أقيمت فوق موقع المسجد الجامع . ونالت غرناطة حظوة خاصة لدى ملوك اسبانيا المتوالين فحبوها بمختلف المنشآت وضروب الإصلاح والتجميل ؛ وحرص الإسبان على أن تبقى عاصمة الأندلس القديمة كما كانت مركز العلوم فى جنوبى اسبانيا ، فأنشئت جامعة غرناطة الشهيرة فى سنة ١٥٣١م ، فى عصر الإمبراطور شرلكان ، وهى اليوم من أهم وأقدم الجامعات الإسبانية ، ويوجد ضمن معاهدها الخاصة ، معهد لدراسة عصر الملكين الكاثوليكيين فاتحى غرناطة ، ومدرسة للدراسات العربية . وفى غرناطة معاهد علمية وثقافية عديدة أخرى ، وعدة متاحف فنية أثرية .

الفصل الثاني

نشـــأة مملـــكة غرناطة

وقيام الدولة النصرية

غرناطة منذ عهد الفتنة حتى عهد الموحدين . اضمحلال دولة الموحدين بالأندلس والمغرب . النزاع حول عرش الخلافة الموحدية . قيام العادل ثم المأمون . ظهور ابن هود وثورته على الموحدين . استيلاؤه على مرسية . دعوته للخلافة العباسية . انهيار الدولة الموحدية . الحرب بين ابن هود وبين النصارى . هزيمة ابن هود . زحف النصارى على قرطبة . استغاثتها بابن هود . ابن هود يؤثر السير إلى بلنسية . حصار قرطبة وسقوطها فى يد النصارى . وفاة ابن هود . غزو ملك أراجون لبلنسية واستيلاؤه عليها . استيلاء القشتاليين على مرسية . أحوال جنوبى الأندلس . ظهور محمد بن الأحمر . طاعة القواعد الجنوبية له . دعوته لصاحب إفريقية . تحالفه مع الباجى وغدره به . دخول جيان ومالقة وشريش فى طاعته . الثورة فى غرناطة . دعوتها لابن الأحمر واستيلاؤه عليها . استيلاؤه على المرية . بنو أشقيلولة أصهار ابن الأحمر . قيام مملكة غرناطة . افتراق كلمة الأندلس . خضوع القواعد الشرقية للنصارى. غزو ابن الأحمر لمرتش . غزو فرناندو الثالث لأراضى ابن الأحمر وحصاره لغرناطة . خضوع ابن الأحمر لفرناندو وتعهده بأداء الجزية . سقوط القواعد الغربية فى يد النصارى . تأهب فرناندو لافتتاح إشبيلية . استيلاؤه على قرمونة . حصار إشبيلية . معاونة ابن الأحمر للنصارى . قصيدة ابن سهل فى استصراخ أهل العدوة . سقوط إشبيلية فى يد النصارى. سقوط باقى القواعد الغربية . ابن الأحمر ودقة موقفه . اتجاهه إلى عون بنى مرين . الحرب بينه وبين النصارى. سقوط إستجة . هزيمة ابن الأحمر. صدى صريخ الأندلس فى المغرب . نزول ابن الأحمر عن شريش والقلعة وغيرهما . صدى سقوط القواعد الأندلسية . مرثية أبى الطيب الرندى . ثورة بنى أشقيلولة بمالقة . غزو النصارى للجزيرة الخضراء . صفات ابن الأحمر وخلاله . كيف يصورها النقد الحديث . وفاة ابن الأحمر .

لبثت غرناطة فى ظل الدولة الأموية ، قاعدة متواضعة من قواعد الأندلس الجنوبية ، وهى تحتل مكان إلبيرة شيئاً فشيئاً ، حتى كانت أيام الفتنة عقب انهيار الدولة الأموية فى أواخر القرن الرابع ، فأخذت القواعد الجنوبية تغدو ، بعد تخريب قرطبة ، ونأى القواعد والثغور الشرقية والشمالية ، مركز التجاذب والتنافس بين زعماء الفتنة . ووقعت غرناطة يومئذ فى نصيب البربر ، واستولى عليها زعيم صنهاجة زاوى بن زيرى واتخذها دار ملكه ، وقامت فى قرطبة دولة بنى حمود الإدريسية. واستمرت الحرب والفتنة مدى حين ، سجالا بين المتغلبين من فلول بنى أمية وبنى عامر ، وفتيانهم ومواليهم ، وبين زعماء البربر . ولما ظهر المرتضى ، وهو من عقب

بنى أمية ، ودعا لنفسه بالخلافة ، سار فى عصبة الأمويين والموالى إلى غرناطة ، لانتزاعها واتخاذها دار ملكه، فرده عنها صاحبها زاوى الصنهاجى فى موقعة دموية (٤٠٨ هـ) . واستقر زاوى فى حكم غرناطة وأعمالها بضعة أعوام ، ثم غادرها إلى دار قومه فى تونس ، واستخلف عليها ابن أخيه حبوس بن ماكسن ، فحكمها حتى توفى فى سنة ٤٢٩هـ . وخلفه فى ولايتها ولده باديس وتلقب بالمظفر ،واستولى على مالقة من يد الأدارسة (بنى حمود) ، واتسع ملكه ، ولبث طول حكمه الذى استطال حتى سنة ٤٦٧ هـ ، فى قتال مستمر مع بنى عباد أمراء إشبيلية ، أعظم وأقوى ملوك الطوائف يومئذ . ولما توفى باديس المظفر ، خلفه فى حكم غرناطة وأعمالها ، حفيده عبد الله بن بُلُكِّين بن باديس، واستمر فى حكمها إلى أن عبر المرابطون البحر إلى الأندلس فى سنة ٤٨٣هـ ، بقيادة عاهلهم يوسف بن تاشفين ، واستولوا عندئذ على غرناطة ، كما استولوا على قواعد الأندلس الأخرى ،وانتهت بذلك دول الطوائف ، التى قامت على أنقاض الخلافة الأموية ، وعاشت زهاء ستين عاماً .

واستمر المرابطون فى حكم الأندلس وقواعدها ، زهاء ستين عاماً أخرى؛ وتعاقب فى حكم غرناطة عدة من أمراء اللمتونيين[1] وسادتهم ، من قرابة يوسف بن تاشفين . فلما انهارت دولتهم فى المغرب ، جاز الموحدون المتغلبون على دولتهم إلى الأندلس فى سنة ٥٤١ هـ (١١٤٧ م) ، وأخذوا يستولون تباعاً على القواعد والثغور ، فاستولوا أولا على قواعد الغرب ، شلب ومرتلة وباجة ، ثم استولوا على إشبيلية فى أواخر سنة ٥٤١ هـ ، فقرطبة فى سنة ٥٤٣ هـ ،واعتصم المرابطون بغرناطة بضعة أعوام أخرى ، ثم اضطروا أخيراً إلى تسليمها إلى الموحدين وذلك فى سنة ٥٥١ هـ (١١٥٦ م) .

ولبثت غرناطة كباقى القواعد الأندلسية فى أيدى الموحدين ، يتناوب حكمها الأمراء والسادة من بنى عبد المؤمن وقرابته ، حتى كانت ثورة أبى عبد الله محمد ابن يوسف بن هود سليل بنى هود أمراء سرقسطة السابقين ، على الموحدين ، وانتزاعه معظم قواعد الأندلس من أيديهم .

وذلك أنه لما توفى أبو يعقوب يوسف المستنصر بالله خليفة الموحدين ، فى سنة ٦٢٠ هـ دون عقب ، أقام الموحدون مكانه السيد أبا محمد عبد الواحد

---

(١) لمتونة هو اسم القبيلة التى ينتمى إليها المرابطون ، ولذا يسمون أحياناً باللمتونيين .


الأندلس والممالك النصرانية الإسبانية
فى أواخر عصر الموحدين
(أوائل القرن الثالث عشر)
فرنسا
خليج بسكونية
جبال البرنيه
جبال كنتبريا
جليقية
شنت ياقب
ليون
مملكة ليون
برغش
بنبلونه
قلهوره
تطيله
وشقة
بربشتر
افراغة
جيرونده
برشلونه
طركونه
طرطوشه
مملكة أراجون
سرقسطة
قلعة أيوب
بلد الوليد
سمورة
نهر دويره
بورتو
شلمنقة
وادى الحجارة
طليطلة
نهر التاجه
قلمرية
جبال طليطلة
قشتالة
شنترين
اشبونه
مادرة
يابره
بطليوس
نهر وادى يانه
قلعة رباح
جبال الشارات
باجة
قرطبة
نهر الوادى الكبير
جيان
بياسة
مرسية
أوريوله
لورقه
استجه
قرمونه
اشبيلية
لبله
غرناطة
شلب
وليه
قادس
طريف
الجزيرة
مضيق جبل طارق
سبتة
طنجة
جبال سيرا نفادا
مالقة
المرية
قرطاجنه
شاطبة
بلنسية
دانية
يابسة
ميورقة
منورقة
الجزائر الشرقية
قسطلونه
البحر المتوسط
المحيط الأطلنطى

ابن يوسف بن عبد المؤمن ، الملقب بالمخلوع ، ولكن الأمور لم تهدأ بذلك ولم تستقر ، إذ ظهر بالأندلس ، مدع جديد للخلافة ، هو السيد أبو محمد عبد الله ابن يعقوب المنصور ، والى مرسية ، وأعلن نفسه خليفة للموحدين باسم العادل ، وذلك فى شهر صفر سنة ٦٢١ هـ . وأيدته فى دعوته معظم القواعد الكبرى ، وكان ولاة قرطبة وغرناطة ومالقة ، وإشبيلية ، يومئذ من أخوته ، أولاد المنصور. ثم سار العادل إلى إشبيلية ، وهنالك وصلته بيعات أهل مراكش وبلاد المغرب . وقام أشياخ الموحدين بمراكش بخلع الخليفة أبى محمد عبد الواحد ، ثم دبروا قتله غيلة (شعبان ٦٢١ هـ) وعندئذ قرر العادل العبور إلى المغرب ، وترك أخاه السيد أبا العلاء إدريس بن المنصور والياً لإشبيلية ، وهى يومئذ قاعدة الحكم الموحدى بالأندلس .

وعبر العادل البحر إلى المغرب فى أواخر سنة ٦٢٢ هـ . وتربع على كرسى الخلافة . وكانت أحوال الدولة الموحدية قد ساءت يومئذ ومزقتها الأهواء والفتن ، وتضعضع سلطانها فى معظم انحاء المغرب والأندلس . ولم يمض قليل على قيام العادل فى الخلافة حتى خرج عليه بالأندلس ، أخوه أبو العلاء إدريس والى إشبيلية ، ودعا لنفسه ، وتسمى بالمأمون ، وكان من أصداء هذه الحركة الجديدة فى مراكش أن قام الموحدون بقتل العادل ، ولكنهم لم يعلنوا بيعة المأمون ، بل أقاموا مكانه فى الخلافة ولد أخيه ، يحيى بن الناصر (شوال ٦٢٤ هـ) ولما علم المأمون بذلك ، استشاط سخطاً ، وقصد إلى فرناندو الثالث ملك قشتالة ، وطلب إليه العون على انتزاع العرش من ابن أخيه ، وقدم إليه عدداً من الحصون الأندلسية الهامة ، ودفع إليه مبلغاً طائلا من المال ، وتعهد بأن يمنح النصارى فى مراكش امتيازات عديدة ، وأن يسمح لهم ببناء كنيسة لهم ، وفى نظير ذلك أمده ملك قشتالة بفرقة من جنوده ليستعين بها على مقاتلة خصمه . وعبر المأمون إلى المغرب فى حشوده من العرب والموحدين والقشتاليين ، وذلك فى أواخر سنة ٦٢٦ هـ (١٢٢٨ م) ، وقصد توا إلى مراكش . وخرج الخليفة يحيى بن الناصر للقائه فى قواته . ونشبت بين الفريقين معركة هزم فيها يحيى ، وفر ناجياً بنفسه ، ودخل المأمون مراكش ، وتربع على كرسى الخلافة .

وكان المأمون ، أميراً وافر الهمة والعزم ؛ يجيش بمشاريع وأطماع عظيمة . فقضى الأعوام القلائل التالية فى العمل على توطيد سلطانه بالمغرب ، واستبد بالحكم

واستعمل الشدة والعنف ، فى قمع كل نزعة إلى الخروج ، وقضى بمرسومه الشهير ،على رسوم المهدى ابن تومرت وتعاليمه ونظام حكومته ، باعتبارها نظماً رجعية ، لا تتفق مع روح الدين الصحيح ، وفتك بخصومه والناكثين لبيعته من الموحدين وغيرهم . فسرت روح السخط إلى معظم القبائل ، وأخذ الزعماء المتوثبون يرقبون الفرص . ثم مرض المأمون وتوفى فجأة ، وهو فى إبان سلطانه ومشاريعه ، وذلك فى شهر ذى الحجة سنة ٦٢٩ هـ (١٢٣٢ م) ، فخلفه ولده الفتىّ أبو محمد عبد الواحد الملقب بالرشيد .

وبينما كان المغرب يضطرم بعوامل الثورة والانتقاض على هذا النحو ، وكرسى الخلافة الموحدية يهتز إزاء أطماع الخوارج والمتوثبين ، كان سلطان الموحدين بالأندلس يهتز فى الوقت نفسه ، ويتداعى بسرعة ، وينهار حكمهم تباعا . ففى تلك الآونة ، ظهر زعيم أندلسى جديد ، ينتمى إلى بيت عريق فى الزعامة والملوكية ، هو محمد بن يوسف بن هود الجذامى ، وهو سليل بنى هود ملوك سرقسطة القدماء ، وكان يومئذ فتى متواضعاً من أهل مرسية من طوائف الجند . ظهر يدعو إلى دعوة جديدة ، تمثل فيها روح الأندلس الحقيقية ، وهى وجوب العمل على تحرير الأندلس من نير الموحدين والنصارى معا . وكان تحالف المأمون مع ملك قشتالة ، وتنازله له عن الحصون الأندلسية ، وتعهده بأن يمنح النصارى فى أراضيه امتيازات خاصة ، وذلك مقابل عونه له بالجند على محاربة خصومه : كان ذلك يسبغ على دعوة ابن هود قوة خاصة ، ويدفع الأندلسيين إلى الانضواء تحت لوائه . وظهر ابن هود لأول مرة فى أحواز مرسية فى سنة ٦٢٥ هـ (١٢٢٨ م) ، فى الوقت الذى أخذ فيه سلطان الموحدين ، يضطرب ويتصدع فى الثغور والنواحى ، ثم أغار على مرسية فى عصبته القليلة ، واستطاع أن ينتزعها من يد حاكمها الموحدى السيد أبى العباس . وأخذ نجمه يتألق من ذلك الحين ، فأعلن أنه يعتزم تحرير الأندلس من الموحدين والنصارى معاً ، والعمل على إحياء الشريعة وسننها ، ودعا للخلافة العباسية ، وكاتب الخليفة المستنصر العباسى ببغداد ، فبعث إليه بالخلع والمراسيم ، وتلقب بالمتوكل على الله . ولم يمض سوى قليل حتى دخلت فى طاعته عدة من قواعد الأندلس ، ومنها جيان وقرطبة وماردة وبطليوس . ثم استطاع أن ينتزع غرناطة

قصبة الأندلس الجنوبية ، من المأمون وذلك فى سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣١م)[١].

وفى العام التالى (٦٢٩ هـ) توفى المأمون خليفة الموحدين حسبما تقدم ، وهو فى طريقه إلى مراكش ، ليعمل على إنقاذ عرشه من المتغلبين عليه . وبينما كان سلطان الموحدين بالأندلس يدنو سراعاً من نهايته ، كانت دولتهم بالمغرب تدخل فى دور الانحلال وتجوز مراحلها الأخيرة . وبالرغم من أنه لاح مدى لحظة ، فى ظل الخليفة أبى الحسن على السعيد (٦٤٠ — ٦٤٦ هـ) ، الذى خلف الرشيد، أن الدولة الموحدية سوف تنهض من كبوتها، وتسترد قوتها، وتصمد أمام هجمات بنى مَرين المتوالية ، فإن مصرع السعيد الفجائى فى الحرب ضد أمير تلمسان ، قضى على هذه البارقة . ثم جاء الخليفة المرتضى بالله (٦٤٦ — ٦٦٥هـ) ، فمضت الخلافة الموحدية فى ظله سراعاً إلى المنحدر ، ثم اختتمت حياتها ، بعد ذلك بقليل فى فاتحة سنة ٦٦٨ هـ (سبتمبر ١٢٦٩ م) ، على يد آخر خلفائها الواثق أبى دبوس ، لتقوم على أنقاضها دولة بنى مرين الفتية الشامخة .

وقد خاض ابن هود ، قبل أن تستقر دعوته ، مع الموحدين والنصارى معارك متوالية . فأما عن صراعه مع الموحدين ، فقد بذل الخليفة المأمون قبل عبوره إلى المغرب محاولة لإخماد حركة ابن هود فى المشرق ، فلم يفلح (٦٢٦هـ) ، وكان من أثر هذا الفشل ، أن تمكنت دعوة ابن هود ، وقامت إشبيلية عاصمة الأندلس الموحدية بالدخول فى طاعته . على أن ابن هود لم يحرز مثل ذلك التوفيق فى محاربة النصارى . ذلك أن ألفونسو التاسع ملك ليون ، رأى أن ينتهز فرصة اضطراب الأحوال فى الأندلس ، وانهيار سلطان الموحدين فى شبه الجزيرة ، فخرج فى قواته إلى منطقة الغرب الأندلسية ، وزحف على مدينة ماردة ، وضرب حولها الحصار . ولما علم ابن هود بذلك ، سار فى بعض قواته نحو الغرب لينقذ المدينة المحصورة ، واشتبك مع الليونيين فى معركة هزم فيها ، واستولى الليونيون على ماردة ، ثم احتلوا بعد ذلك بقليل مدينة بطليوس ، وذلك فى أواسط سنة ٦٢٧هـ (١٢٣٠ م) . وكان فرناندو الثالث ملك قشتالة ، وهو ولد ألفونسو التاسع ملك ليون ، يرقب الفرصة فى نفس الوقت ، لينتزع ما يمكن انتزاعه من أراضى الأندلس المتاخمة لقشتالة . فسير قواته لمقاتلة ابن هود ، وقد كان يبدو فى نظره

---

(١) تحدثنا عن ظهور ابن هود تفصيلا فى كتابنا (عصر المرابطين والموحدين) القسم الثانى ص ٣٨٩ — ٣٩٣ .

ومئذ زعيم الأندلس الحقيقى . وكان ابن هود قد استطاع فى تلك الآونة ، أن يبسط سلطانه على الولايات والشواطىء الجنوبية ، فيما بين الجزيرة الخضراء والمرية ، وفيما بين قرطبة وغرناطة ، وكان يرى فى مقاتلة النصارى عاملا لتدعيم دعوته وسلطانه . فسار للقائهم والتقى الجيشان فى فحص شريش على ضفاف نهر وادى لكه ، ولكن ابن هود هزم للمرة الثانية بالرغم من تفوقه فى العدد (أواخر ٦٣٠ هـ — ١٢٣٣ م) ، وسار فرناندو بعد ذلك لاجتياح أبدة ، فسقطت فى يده بعد حصار قصير (٦٣١ هـ — ١٢٣٤ م) .

على أن سقوط قرطبة كان أعظم ضربة نزلت يومئذ بالأندلس . وكان ابن هود عقب هزيمته فى شريش ، قد جمع قواته ، وسار لقتال خصمه ومنافسه الجديد محمد بن الأحمر فى أحواز غرناطة ، وألفى النصارى من جانبهم الفرصة سانحة للزحف على قرطبة . وكانت عاصمة الخلافة القديمة ، بالرغم من دخولها فى طاعة ابن هود ، تعانى من حالة مؤلمة من الاضطراب والفوضى ، ولم يكن لها حاكم أو زعيم يجمع الكلمة أو يتزعم حركة الدفاع ضد النصارى . وكان القشتاليون فى الحصون القريبة ، يشعرون بضعف العاصمة التالدة ، وإمكان مهاجمتها ، فاجتمعت بعض قوى الفرسان القشتالية المرابطة فى حصون الحدود ، وسارت نحو قرطبة ، وهاجمت قسمها الشرقى المسمى « بالشرقية » ، واقتحمته ليلا ، وعلى غرة من أهله ، واستطاعوا الاستيلاء على بعض أبراجه ، ولكنهم رأوا أن الاستيلاء على المدينة ذاتها ليس بالأمر السهل ، ولابد لتحقيقه من قوات ضخمة . وعلم فرناندو الثالث ، وهو فى طريقه إلى ليون بما تم من استيلاء قواته على بعض أبراج المدينة ، وبما تبين من ضعف وسائل الدفاع عنها ، فارتد اليها مسرعاً تلاحقه قواته من سائر الأنحاء ، وضرب الحصار حول المدينة ، وبادر أهل قرطبة بالتأهب للدفاع عن مدينتهم ، وأرسلوا إلى ابن هود أميرهم الشرعى ، يطلبون الغوث والإنجاد . وقدر ابن هود خطورة الموقف ، واعتزم فى الحال أن يسير إلى إنجاد المدينة المحصورة ، فسار فى قواته نحو قرطبة ، ونزل فى إستجة على مقربة منها ، ولكنه لبث جامداً لا يحاول الاشتباك مع النصارى . وفى بعض الروايات أن ابن هود رأى جيش القشتاليين يفوقه فى الأهبة والكثرة ، فنكل عن الاشتباك معه . وفى بالبعض الآخر ، أن ابن هود ، وصله وهو على مقربة قرطبة صريخ أبى جميل

زيان زعيم بلنسية لمعاونته ضد خايمي[1] ملك أراجون ، الذى اشتد فى مناوأته وإرهاقه ؛ ولاح له أن السير إلى بلنسية التى كان يطمح إلى امتلاكها أيسر وأجدى ، فترك قرطبة لمصيرها، مؤملا أن يصمد أهلها للدفاع عنها ، أويستطيع إنقاذها فيما بعد . ولبث النصارى على حصار قرطبة بضعة أشهر . ودافع القرطبيون عن مدينتهم وعن دينهم وحرياتهم ، أعنف دفاع وأروعه ، ولكنهم اضطروا فى النهاية ، وبعد أن أرهقهم الحصار ، وفقدوا كل أمل فى الغوث والإنقاذ ، إلى التسليم . ودخل القشتاليون قرطبة فى ٢٣ شوال سنة ٦٣٣ هـ (٢٩ يونيه سنة ١٢٣٦ م) ، وفى الحال حولوا مسجدها الجامع إلى كنيسة[2] . وقد كان هذا شعارهم كلما دخلوا قاعدة أندلسية ، وذلك إيذاناً بظفر النصرانية على الإسلام . وكان لسقوط العاصمة الخلافية التالدة . أعظم وقع فى الأندلس وفى سائر جنبات العالم الإسلامى ، وكان ضربة مميتة أخرى صوبتها اسبانيا النصرانية ، إلى قلب الأندلس المفككة المنهوكة القوى[3] .

ولم يلبث ابن هود أن توفى بعد ذلك بقليل فى أوائل سنة ٦٣٥ هـ (١٢٣٧م) . وكانت وفاته فى ثغر ألمرية ، فى ظروف غامضة . وكان قد سار إليها معتزماً أن ينقل بعض قواته فى البحر لإنجاد أمير بلنسية ، فقيل إن وزيره ونائبه فى ألمرية أبا عبد الله محمد بن عبد الله الرميمى استضافه فى قصره ، ودبر قتله غيلة ، وزعم فى اليوم التالى أنه توفى مصروعاً . وكان الرميمى قد قام بدعوته فى ألمرية ووفد عليه فى مرسية ، فقدر ابن هود عونه، وولاه وزارته وعينه حاكماً لألمرية ، ثم تغير

---

(١) خايمى **Jaime** وهو الرسم الإسبانى لاسم يعقوب .

(٢) وما زال جامع قرطبة العظيم قائماً إلى يومنا بأروقته وعقوده وأعمدته الإسلامية كاملا كما كان أيام المسلمين . بيد أنه حول إلى كنيسة قرطبة الجامعة ، وأقيمت الهياكل فى سائر جوانبه تحت عقوده القديمة ، وأقيم فى وسطه مصلى كبير على شكل صليب **Crucéro** ؛ وقد أزيلت قبابه ونقوشه الإسلامية . ولم يبق محتفظاً بنقوشه القديمة سوى محاريبه الثلاثة . وما زال هذا الأثر الأندلسى العظيم إلى جانب تسميته بكتدرائية قرطبة يحمل اسمه الإسلامى القديم « المسجد الجامع » **La Mezquita Aljama** . راجع كتابى الآثار الأندلسية الباقية (الطبعة الثانية ص ٢٠ — ٣٣) .

(٣) راجع فى سقوط قرطبة، ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٩و ١٨٣ ؛ ونفح الطيب ج ٢ص٥٨٥ حيث يشير إليه إشارة عابرة مع تحريف فى التاريخ ، إذ يذكر أن سقوطها كان فى سنة ٦٣٦ هـ . وراجع التكملة لابن الأبار (القاهرة) ص ٢٠٢ . وقد تحدثنا عن سقوط قرطبة تفصيلا فى كتابنا « عصر المرابطين والموحدين » القسم الثانى (ص ٤١٨ — ٤٢٥) .

عليه فيما يقال من أجل جارية نصرانية رائعة الحسن، كان يودعها لديه وقد أغراها الرميمي واستأثر بها ، فسار إلى ألمرية لمعاقبته ، وخشي الرميمي العاقبة فدبر مصرعه، ولجأ إلى الجريمة احتفاظاً بسلطانه . وكان مصرع ابن هود على هذا النحو فى الرابع والعشرين من جمادى الأولى سنة ٦٣٥ هـ (٢١ يناير ١١٣٨ م)[1] .

وهكذا توفى ابن هود وهو فى ذروة سلطانه ومشاريعه ، ولم تطل وثبته التى بثت إلى الأندلس مدى لحظة قصيرة أملا خلباً ، سوى بضعة أعوام ، فانهارت بوفاته دولته التى لم يتح لها كثير من أسباب الاستقرار والتوطد[2] .

وكان المتوكل بن هود أميراً شجاعاً ، كريم الصفات ، يضطرم إخلاصاً وغيرة للقضية التى نصب نفسه للاضطلاع بها ، ولكنه لم يكن بصفاته وموارده كفوءًا لتلك المهمة العظيمة ، وكانت تعتور جهوده نفس المثالب القديمة التى كانت تصدع دائماً من جهود الزعماء الأندلسيين ، والتى تتلخص فى مصانعة النصارى، ومداراتهم ، ومساومتهم على حساب المصالح القومية .

وعلى أثر وفاة ابن هود وانهيار دولته ، بادر خايمى ملك أراجون بانتهاز الفرصة السانحة فغزا ولاية بلنسية . وكان قد استولى قبل ذلك بأعوام قلائل على الجزائر الشرقية (جزائر البليار) فى سنة ٦٢٧—٦٣٢ هـ (١٢٣٠—١٢٣٥م) . وكانت بلنسية ، فى الوقت الذى اضطرم فيه شرقى الأندلس بثورة ابن هود ، ما تزال فى أيدى الموحدين ، ويحكمها واليها السيد أبو زيد عبد الرحمن بن محمد ابن يوسف بن عبد المؤمن . ولما استولى ابن هود على مرسية، خرج السيد أبو زيد فى قواته لمحاربته ، ولكنه ارتد مهزوما إلى بلنسية . فكان لذلك وقع عميق فى بلنسية ذاتها ، ونهض الشعب البلنسى ليحطم نير الموحدين ، وشعر السيد أبو زيد بحرج الموقف ، ونهض فى نفس الوقت زعيم من آل مردنيش ، زعماء بلنسية السابقين، هو الأمير أبو جميل زيان بن مردنيش ، يحاول انتزاع السلطة ، والتف حوله الشعب البلنسى ، وعندئذ بادر السيد أبو زيد ، وغادر بلنسية فى أهله وأمواله والتجأ إلى أحد الحصون القريبة ، ولكنه لما رأى تفاقم الموقف ، اعتزم أمره

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٩ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٨٢ و٥٨٣ ؛ والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٣٥ و٢٣٦ .

(٢) راجع فى ثورة ابن هود ووفاته ، ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٨ — ١٧٠ ؛ والإحاطة ج ٢ ص ٩٠ — ٩٤ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٨١ — ٥٨٣ .

وسار ملتجئاً إلى خايمى الأول ملك أراجون (٦٢٦ هـ) ، وعقد معه معاهدة تعهد فيها بأن يعطيه جزءاً من الحصون والأراضى الإسلامية التى يستردها أو يفتتحها ، ثم زاد على ذلك ، بأن اعتنق النصرانية ، وانضم بكليته إلى أعداء أمته ودينه ، وأخذ يسير مع حلفائه النصارى فى غزواتهم المتوالية لأراضى بلنسية . وأخذ الملك خايمى يستولى تباعا على حصون بلنسية الأمامية ، ثم هزم البلنسيين ، بقيادة أميرهم زيان ، هزيمة شديدة فى موقعة أنيشة (ذى الحجة ٦٣٤ — أغسطس ١٢٣٧) . ولم تمض على ذلك أشهر قلائل ، حتى سار خايمى فى قواته صوب بلنسية وضرب حولها الحصار (رمضان ٦٣٥ هـ) ، وأخذ يضربها بالآلات المخربة . ودافع البلنسيون عن مدينتهم أشد دفاع ، وبعث الأمير أبوجميل كاتبه الفقيه الشاعر المؤرخ ، ابن الأبار القضاعى بصريخه سفيراً إلى الأمير أبى زكريا الحفصى عاهل إفريقية ، وألقى ابن الأبار بين يديه قصيدته السينية الرائعة التى نشير إليها فيما بعد ، وبعث الأمير أبو زكريا عدة من السفن محملة بالعتاد والأموال إنجادا للمدينة المحصورة ولكنها لم تستطع اختراق الحصار ، واضطر البلنسيون آخر الأمر إلى التسليم بعد أن استنفدوا كل وسائل الدفاع ، وسقطت بلنسية فى أيدى الأرجونيين ، وذلك فى اليوم السابع والعشرين من شهر صفر سنة ٦٣٦ هـ (٩ أكتوبر سنة ١٢٣٨ م)[١] ، وانهارت بذلك سائر خطط الدفاع عن شرقى الأندلس . وأتبع خايمى فتح بلنسية بالاستيلاء على شاطبة ودانية ولقنت وأوريولة وقرطاجنة ، وذلك فى سنة ٦٤١ — ٦٤٤ هـ . وأما ولاية مرسية فقد استولى عليها فى البداية الأمير أبو جميل زيان ، عقب فقده لبلنسية ، ولكن الزعماء المحليين آثروا الانضواء تحت حماية ملك قشتالة ، فتقدموا إليه يلتمسون مهادنته ومحالفته على الوضع المأثور ، وهو أن يسمح لهم باستبقاء مدنهم فى طاعته وتحت حمايته ، فأجابهم فرناندو ملك قشتالة إلى ملتمسهم ، وبعث إليهم ولده ألفونسو . ودخل النصارى مرسية صلحاً سنة ٦٤٠ هـ (١٢٤٣ م) . وبذلك سقطت ولاية بلنسية ومرسية وشرقى الأندلس كله فى أيدى النصارى فى أعوام قلائل فقط ، وكانت نفس المأساة تتكرر فى ذلك الوقت نفسه ، بصورها وأوضاعها المحزنة ، فى غربى الأندلس حسبما نفصل بعد[٢].

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٧ . والحلة السيراء لابن الأبار ص ١٩٠

(٢) تناولنا حصار بلنسية وافتتاحها ، وسقوط باقى قواعد الشرق تفصيلا فى كتابنا « عصر المرابطين والموحدين » القسم الثانى ص ٤٣٧ — ٤٦٤ .

— ٢ —

وفى تلك الآونة العصيبة ، التى أخذت فيها قواعد الأندلس العظيمة : قرطبة ، وبلنسية ومرسية وإشبيلية ، تسقط تباعاً فى يد النصارى ، والتى أخذت الأندلس تواجه فيها شبح الفناء من جديد كما واجهته أيام الطوائف ، كانت عناصر الفتنة والفوضى تتمخض عن قيام مملكة إسلامية جديدة فى جنوبى الأندلس هى مملكة غرناطة . وقيام هذه المملكة فى الطرف الجنوبى للدولة الإسلامية القديمة ، يرجع إلى عوامل جغرافية وتاريخية واضحة . ذلك أن القواعد والثغور الجنوبية التى تقع فيما وراء نهر الوادى الكبير آخر الحواجز الطبيعية ، بين اسبانيا النصرانية وبين الأندلس المسلمة ، كانت أبعد المناطق عن متناول العدو وأمنعها ، وكانت فى الوقت نفسه أقربها إلى الضفة الأخرى من البحر ، إلى عُدوة المغرب وشمال إفريقية حيث تقوم دول إسلامية شقيقة ، وحيث تستطيع الأندلس وقت الخطر الداهم ، أن تستمد الغوث والعون من إخوانها فى الدين . وقد كان لها فى ذلك منذ أيام الطوائف أسوة ، بل لقد كان صريخ الأندلس يتردد فى تلك الآونة ذاتها على لسان شاعرها وسفيرها ابن الأبار القضاعى ، حينما دهم العدو بلنسية فى سنة ٦٣٥هـ (١٢٣٧م) ، وكان الصريخ موجهاً من أميرها أبى جميل زيان ، إلى أبى زكريا الحفصى ملك إفريقية (تونس) ، وهو الذى ردده الشاعر فى قصيدته الشهيرة التى مطلعها :[١]

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا ... إن السبيل إلى منجاتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ما التمست ... فلم يزل عز النصر منك ملتمسا
وحاش مما تعانيه حشاشتها ... فطالما ذاقت البلوى صباح مسا
يا للجزيرة أضحى أهلها جزراً ... للحادثات وأمسى جدها تعسا
فى كل شارقة إلمـام بائقـة ... يعود مأتمها عند العـدا عرسا
وكل غاربة إجحـاف نائبـة ... تثنى الأمان حذاراً والسرور أسى
تقاسم الروم لا نالت مقاسمهم ... إلا عقائلها المحجوبة الأنسا
وفى بلنسية منهـا وقرطبـة ... ما ينسف النفس أو ما ينزف النفسا
مدائن حلها الإشراك مبتسما ... جذلان وارتحل الإيمان مبتئسا
وصيرتها العوادى العابثات بهـا ... يستوحش الطرف منها ضعف ما أنسا

---

(١) تراجع هذه القصيدة فى نفح الطيب ج ٢ ص ٥٧٨ وما بعدها ؛ وفى أزهار الرياض ج ٣ ص ٢٠٧ وما بعدها ، وهى من غرر القصائد الأندلسية السياسية .

وفى قول الشاعر يتمثل هذا المغزى التاريخى . الذى لبث أحقاباً يربط بين الأندلس وبين الدول الإسلامية الشقيقة فى عدوة المغرب ، وقد كان يتمثل واضحاً كلما اشتد الخطر بالأمة الأندلسية ، ولاح لها شبح الفناء فى جزيرتها المنقطعة قوياً رهيباً .

وقد قامت مملكة غرناطة ، التى شاء القدر أن تكون ملاذ الأمة الأندلسية دهراً طويلا آخر ، فى ظروف متواضعة . وذلك أنه لما ضعف أمر الموحدين بالأندلس ، وخرج عليهم محمد بن يوسف بن هود الملقب بالمتوكل كما قدمنا ، وأخذت قواعد الأندلس تخرج من قبضتهم تباعاً ، ينتزع بعضها ابن هود وثوار النواحى ، والبعض الآخر ينتزعه النصارى ، كان من الزعماء الذين ظهروا أثناء الفتنة محمد بن يوسف النصرى المعروف بابن الأحمر سليل بنى نصر ، وهم فى الأصل سادة حصن أرجونة[1] من أعمال ولاية جيّان . وهو محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خميس بن نصر ابن قيس الخزرجى . ويُرجع بنو نصر نسبتهم إلى سعد بن عبادة سيد الخزرج وأحد أكابر الصحابة ، فهم بذلك من أعرق البطون العربية . وقد أشار إلى هذه النسبة بعض مؤرخى الأندلس ومنهم الرازى[2] . وكان لبنى نصر وجاهة وعصبية.

وولد محمد بن يوسف فى أرجونة سنة ٥٩٥ هـ (١١٩٨م) ونشأ فى مهاد الفضيلة والتقشف جندياً وافر الجرأة والعزم ، يتزعم قومه ، ويقودهم إلى مواطن النضال ، وكان بالرغم من تقشفه وتواضعه يجيش بأطماع كبيرة ، وكانت حوادث الأندلس يومئذ تقدم لأولى العزم والإقدام كثيراً من فرص الظهور والمغامرة ، فلما تفاقمت الفتنة ، واضطربت الشئون فى الثغور والنواحى ، وكثرت غزوات النصارى لقواعد الأندلس ، وظهر ابن هود على الموحدين فى الثغور الشرقية ، لاحت لمحمد ابن يوسف فرصة العمل . وكان هذا الزعيم المتواضع الموهوب معاً ، يبدو لكثير من الزعماء وذوى الرأى ، معقد الآمال فى إنقاذ ما بقى من تراث الأندلس ، فالتفت حوله الصحب والأنصار ، أولا فى أرجونة موطن أسرته وعصبته ، وفى الجهات المجاورة لها . وبينما كان ابن هود يعمل لتوطيد سلطانه فى شرقى الأندلس وجنوبها ، كان محمد بن يوسف يعمل من جانبه فى الأنحاء الوسطى ، ولم يلبث

---

(١) ومكانه اليوم بلدة أرجونه **Arjona** وهى بلدة صغيرة تقع شمال غربى مدينة جيان ، وجنوبى بلدة أندوجر .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٧٠ ؛ والإحاطة ج ١ ص ١٥٨ وج ٢ ص ٥٩ و ٦٠ ؛ وأزهار الرياض ج ١ ص ١٦٧ .

أن أطاعته جيّان وبسطة ووادى آش وما حولها من البلاد والحصون ، وبسط حكمه على تلك الأنحاء بالرغم من معارضة ابن هود . ثم اتجه ببصره إلى القواعد والثغور الجنوبية باعتبارها أقرب ميدان للعمل ، وأبعد الأماكن عن متناول العدو ، ورأى فى الوقت نفسه ، أن يستظل بدعوة أحد الأمراء المسلمين الظاهرين ، فدعا للأمير أبى زكريا الحفصى صاحب إفريقية (تونس) وتلقى منه بعض العون . وقيل أيضاً إنه حذا حذو ابن هود فى الدعاء للخليفة المستنصر بالله العباسى ؛ ونادت قرمونة وقرطبة وإشبيلية بطاعته لمدى قصير وذلك فى أواسط سنة ٦٢٩ هـ ، ثم عدلت قرطبة وإشبيلية عنه إلى طاعة ابن هود . ولما اضطرمت الثورة فى إشبيلية ، واستطاع زعيمها القاضى أبو مروان الباجى أن يبسط حكمه عليها ، وأن يخرج منها عامل ابن هود ، بادر محمد بن يوسف إلى محالفته على معارضة ابن هود ومقاتلته ، وهزماه سوياً فى بعض المواقع . ولكن محمداً غدر بعد ذلك بالباجى ليخلو له الجو ودس عليه من قتله . ولم يمض قليل على ذلك حتى أطاعته شَريش ومالقة ، وكثير من القواعد والحصون القريبة (سنة ٦٣٠هـ) . أما إشبيلية وقواعد غربى الأندلس فقد احتفظت باستقلالها فى ظل بعض الزعماء المحليين . وهرع إلى لوائه كثير من المسلمين الذين غادروا المدن التى وقعت فى يد النصارى ، واستطاع أن يحشد جيشاً كبيراً من الفرسان والرجالة ، يؤازره فى تنفيذ خططه ومشاريعه[1]

ولما قويت دعوة ابن هود ، وامتد سلطانه نحو الغرب والجنوب ، واستولى على غرناطة وأقره الخليفة العباسى على دعوته ، رأى محمد بن يوسف (ابن الأحمر) مصانعته والانضواء تحت لوائه ، فانحاز إليه وجاهر بطاعته (٦٣١هـ) ولكن ابن هود ما لبث أن توفى فى أوائل سنة ٦٣٥ هـ وانهارت دولته كما قدمنا . وعندئذ بادر محمد بن يوسف إلى العمل ، لاجتناء تراثه فى الأنحاء الوسطى . وكان ابن هود قد ولى على غرناطة عتبة بن يحيى المغيلى ، وكان خصماً لابن الأحمر يأمر بسبه على المنابر ، وكان ظلوماً جائراً ، فلما اشتدت وطأته على أهل غرناطة ، ثار عليه جماعة من أشرافها بزعامة ابن خالد ، واقتحموا القصبة والقصر فى عصبتهم ، وقتلوا عتبة وأعلنوا طاعتهم لابن الأحمر ، وبعثوا إليه يستدعونه ؛ فسار ابن الأحمر إلى غرناطة ودخلها عند مغيب الشمس فى يوم من أواخر رمضان

---

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ٢٧٩ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٦٩ ، واللمحة البدرية فى الدولة النصرية لابن الخطيب ص ٣١ .

سنة ٦٣٥ هـ (أبريل سنة ١٢٣٨ م) ، وهو يرتدى ثياباً خشنة وحلة مرقعة ، ونزل بجامع القصبة وأم الناس لصلاة المغرب ، ثم خرج من المسجد إلى قصر باديس ، والشموع بين يديه ، ونزل فيه مع خاصته ، وبذا غدت غرناطة حاضرته ومقر حكمه ، وكان ذلك لأشهر قلائل فقط من وفاة ابن هود[1] . وما كاد ابن الأحمر يستقر فى حاضرته الجديدة ، حتى عول على افتتاح ألمرية وسحق ابن الرميمى وزير ابن هود وقاتله ، فسار إليها فى بعض قواته وحاصرها مدة ، فلما اشتد عليها الحصار غادرها الرميمى من جهة البحر بأهله وماله فى سفينة خاصة ، وسار إلى تونس مستظلا بحماية أميرها أبى زكريا الحفصى ، وملك ابن الأحمر ألمرية وامتد بذلك سلطانه إلى سائر الشواطىء الجنوبية .

وكان من أعظم أعوان محمد بن يوسف فى تلك المعركة التى انتهت بتحقيق رياسته ، أصهاره بنو أشقيلولة وهم أسرة قوية نابهة من المولدين . وكان كبيرهم أبو الحسن بن أشقيلولة من رجالات الأندلس وزعمائها وقت الفتنة ، وكان من خصوم ابن هود ومن المقاومين لحركته ، فانحاز إلى محمد بن يوسف منذ الساعة الأولى ، وعاونه على مقاومة خصومه ، وتوثقت أواصر الزعيمين بالمصاهرة ، إذ تزوج أبو الحسن أخت محمد بن يوسف وتزوج ولده أبو محمد عبدالله بن أشقيلولة من ابنته . ولما استقام الأمر لابن الأحمر ، ندب صهره أبا الحسن لحكم وادى آش ، وندب أبا محمد لحكم مالقة . ولما توفى أبو الحسن خلفه فى حكم وادى آش ولده أبو إسحق . وتمكن نفوذ بنى أشقيلولة فى الرياسة وكانوا عضداً لابن الأحمر ، ولكن أطماعهم كانت تتجاوز حكم المدن ، وكان ابن الأحمر فى أواخر عهده يستريب بهم ويخشى بأسهم ، وقد ظهرت أعراض انتقاضهم غير بعيد[2] .

ويرى المستشرق الإسبانى دى لاس كاخيجاس ، أن قيام مملكة غرناطة فى ظل بنى نصر ، يبدو لغزاً حقيقياً . ذلك أنها ولدت فى ظروف غير ملائمة ، بل ضعيفة ذابلة ؛ ونشأ ابن الأحمر ، لا كابن هود أو ابن مردنيش ؛ وكلاهما ينتمى إلى أسرة حكمت ولاياتها منذ أيام الموحدين ، ولكن وحيداً فى بلده أرجونة

---

(١) اللمحة البدرية ص ٣٥ ؛ وراجع الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية ، وهو لمؤلف مجهول (طبع الجزائر سنة ١٩٢٠) ص ٦٠ ، وفيه أن دخول ابن الأحمر مدينة غرناطة كان فى آخر رمضان سنة ٦٣٦ هـ . ولكن معظم الروايات على أن دخوله كان فى ٦٣٥ .

(٢) ابن خلدون ج ٧ ص ١٩٧ هـ .

كحدث غير عادى ، بل ودون رسوخ محلى . وقد كانت قوته الحقيقية ، فضلا عن جرأة حركته ، تتركز فى أسرته الخاصة ، وفى جمع من الأصدقاء والحلفاء مثل بنى أشقيلولة المولدين .

ثم يبدى دهشته من أن مملكة غرناطة بالرغم من تكوينها من هضاب وبسائط يغلب عليها القفر أكثر مما يغلب الخصب ، وامتداد رقعتها من جيّان شمالا إلى الجزيرة جنوباً ، وبالرغم من أن الجند النصارى كانوا فى أحيان كثيرة يخترقونها بسهولة حتى مرج غرناطة : فإن هذه العوامل كلها لم تكن شيئاً إزاء الحوادث المستقبلة . ولم يمنع تردد مؤسسها وتقلبه ، ولا ظروفها الجغرافية والاقتصادية السيئة ، من تقدمها وازدهارها ، ومن بقائها مدى قرنين ونصف سليمة موطدة ، وهى خلال هذا المدى الطويل تستأثر بأطماع النصارى الفتحية . ثم يقول : « حقاً إن ذلك كله لغريب ، بل إنه لينبو عن الإيضاح »(١) .

وهكذا نشأت إمارة غرناطة الصغيرة ، من غمر الفوضى التى سادت الأندلس ، على أثر انهيار سلطان الموحدين ، ولكنها كانت فى حاجة إلى الاستقرار والتوطد ، وكان محمد بن يوسف يواجه فى سبيل هذه المهمة كثيراً من الصعاب ، وكانت الأندلس قد مزقتها الحرب الأهلية شيعاً ، وانتثرت إلى حكومات ومناطق عديدة ، وكان ابن الأحمر يحظى بتأييد جمهرة كبيرة من الشعب الأندلسى ولاسيما فى الجنوب . ولم يك ثمة ما يمنع من التفاف الأمة الأندلسية كلها حول لواء هذا الزعيم المنقذ ، ولكن روح التفرق والتنافس كانت متأصلة فى نفوس المتغلبين والطامعين ، وكان أصاغر الزعماء والحكام يؤثرون الانضواء تحت لواء ملك النصارى ، والاحتفاظ فى ظله بمدنهم وقواعدهم ، على مظاهرة ابن الأحمر والانضواء تحت لوائه . وحدث ذلك بنوع خاص فى مرسية وشرق الأندلس حسبما أشرنا من قبل ، حيث ارتضى والى مرسية محمد بن على بن هود وحكام لقنت وأوريولة وقرطاجنة وجنجالة وغيرها ، أن يعقدوا الصلح مع ملك قشتالة على أن يعترفوا بطاعته ويؤدوا له الجزية ، وأن يبقوا متمتعين فى ظله بحكم مدنهم ومواردهم . وعلى أثر ذلك سلمت مرسية ودخلها ألفونسو ولد فرناندو الثالث ملك قشتالة فى احتفال فخم (شوال ٦٤٠ هـ — أبريل ١٢٤٣ م) . وهكذا كان الخلاف بين أبناء الأمة الأندلسية فى تلك الآونة العصيبة ، يذهب إلى حد التضحية

(١) Isidro de la Cagicas : Los Mudéjares (Madrid 1948) P. 425 & 426.

بأقدس المبادئ وأسمى الاعتبارات ، وكانت وشائج القومية والدين والخطر المشترك كلها ، تغيض أمام الأطماع الشخصية الوضيعة ، وكان فرناندو الثالث يرى فى ابن الأحمر بعد اختفاء ابن هود ، زعيم الأندلس الحقيقى والخصم الذى يجب تحطيمه . وكان ابن الأحمر من جانبه يقدر خطورة المهمة التى ألقاها القدر على عاتقه ، وكان يضطرم عزماً وإقداما لمحاربة النصارى ، واستخلاص تراث الوطن من أيديهم ، فما كاد يستقر فى غرناطة حتى نشط إلى محاربة النصارى وكانوا قد عاثوا فى أحواز جيان وخربوها ، وسار إلى قلعة مرتش[1] فى قوة كبيرة ، وضرب حولها الحصار (٦٣٦ هـ) ، ولكن النصارى قدموا لإنجادها بسرعة ، واضطر ابن الأحمر إلى رفع الحصار ، ثم اشتبك فى معركة حامية مع النصارى ، وكان يقودهم ردريجو ألونسو وهو أخ غير شرعى لفرناندو الثالث ، وهزمهم هزيمة شديدة ، قتل فيها قائد مرتش ، وعدة من أكابر الفرسان وأحبار قلعة رباح . على أن مثل هذه المعارك المحلية لم تكن حاسمة فى سير الحوادث . وكان فرناندو الثالث يرقب نهوض هذه القوة الأندلسية الجديدة بعين التوجس ويتأهب لمقارعتها ، فما كاد ينتهى من إخضاع الثغور الشرقية والاستيلاء على مرسية ، حتى عمد إلى مهاجمة ابن الأحمر . وكان يتوق إلى الانتقام لموقعة مرتش ، وبعث لقتاله جيشاً قوياً بقيادة ولده ألفونسو . وعاث النصارى فى منطقة جيان واستولوا على حصن أرجونة موطن بنى نصر ، وعدة حصون وأماكن أخرى من أملاك أمير غرناطة ، ثم حاصروا غرناطة نفسها (٦٤٢ هـ — ١٢٤٤ م) ، ولكنهم ردوا عن أسوارها بخسائر فادحة . وفى العام التالى زحف النصارى على جيان وحاصروها ، حتى كادت تسقط فى أيديهم . فلما رأى ابن الأحمر تفوق النصارى وعبث المقاومة ، آثر مصانعة ملك قشتالة ومهادنته ، فسار إلى لقائه فى معسكره ، وقدم إليه طاعته ، ويرى بعض الباحثين أن قدوم ابن الأحمر على هذا النحو إلى فرناندو ، إنما كان تنفيذاً لاتفاق سابق ، تم فيه التفاهم على تحديد مملكة غرناطة[2] . وعلى أى حال فقد تم الاتفاق على أن يحكم ابن الأحمر مملكته وأراضيه باسم ملك قشتالة وفى طاعته ، وأن يؤدى له جزية سنوية ، قدرها مائة وخمسون ألف قطعة من الذهب (دوبلاس) ، وأن يعاونه فى حروبه ضد أعدائه ، فيقدم إليه عدداً من الجند أينما طلب منه ذلك ،

---

(١) مرتش ، وبالاسبانية **Martos** ، بلدة حصينة تقع على مقربة من جنوب غربى مدينة جيان .

(٢) **Prieto y Vives : De como debió nacer el Reino de Granada p. 14.**

وأن يشهد اجتماع مجلس قشتالة النيابى (الكورتيس) ، باعتباره من الأمراء التابعين للعرش[١]. وسلم ابن الأحمر إلى فرناندو جيّان وأرجونة وبركونة وبيغ والحجار وقلعة جابر[٢] رهينة بحسن طاعته ، ونزل له عن أرض الفرنتيرة لعجزه عن الاحتفاظ بها[٣]. وفى مقابل هذا الثمن الفادح عقد ملك قشتالة السلم مع ابن الأحمر لمدة عشرين سنة ، وأقره على ما بقى بيده من القواعد والحصون (٦٤٣ هـ — ١٢٤٥ م)[٤] . وهكذا أمنت غرناطة شر العدوان مدى حين ، وقبل ابن الأحمر أن يضحى استقلاله السياسى وهيبته الأدبية احتفاظاً بأراضيه ، وتطلعاً إلى ظروف أفضل يستطيع فيها النضال والصمود .

وفى تلك الفترة العصيبة ، كانت الفتنة تمزق ما بقى من أوصال الأندلس ، ويهرع الزعماء المسلمون الأصاغر ، إلى مصانعة ملك قشتالة والانضواء تحت لوائه ، وكانت اسبانيا النصرانية قد انتهت من الاستيلاء على الولايات الشرقية كلها ، ولم يبق عليها سوى التهام الولايات الغربية . ولم يكن مثل ابن الأحمر وهو أعظم زعماء الأندلس يومئذ ، مشجعاً على غير هذا المسلك المؤلم . ففى سنة ٦٤٥هـ (١٢٤٧م) نزل القاضى ابن محفوظ وهو من زعماء الغرب لملك قشتالة عن مدينة طبيرة ، والعلى ، وشلب ، والخزانة ، ومرشوشة ، وبطرنا ، والحرة[٥] . وكان فرناندو الثالث يتأهب فى تلك الآونة ذاتها ، لافتتاح إشبيلية أعظم القواعد الأندلسية . وكان قد استطاع قبل ذلك بأشهر أن يستولى على مدينة قرمونة حصن إشبيلية الأمامى ، وذلك بمعاونة محمد بن الأحمر ، وفقاً للتحالف المعقود بينهما ، ثم عمد

---

(١) Crónica General (Ed. Pidal) Vol. I. p. 74

(٢) البيان المغرب القسم الثالث ص ٣٦٧ ، والذخيرة السنية ص ٧٢ . وجيان وبالاسبانية Jáen من قواعد الأندلس القديمة وتقع جنوب شرقى قرطبة ، وشمال غرناطة . وأرجونة سبق التعريف بها . وبركونة Porcuna تقع جنوبى غربى أرجونة ؛ والحجار Higuera تقع جنوب بركونة وكلتاهما من أعمال مدينة جيان ، وبيغ أو بيغو Priego وتقع جنوب شرقى قرطبة .

(٣) ابن خلدون ج ٧ ص ١٩٠ ، والفرنتيرة La Frontera هى المنطقة الساحلية الواقعة غربى الجزيرة الخضراء والممتدة من ثغر قادس جنوباً حتى طرف النار .

(٤) الذخيرة السنية ص ٧٣ ؛ واللمحة البدرية ص ٣٦ ، والإحاطة ج ٢ ص ٦٥ .

(٥) الذخيرة السنية ص ٧٦ . وتقع هذه الأماكن كلها فى ولاية «الغرب Algarve» فى جنوبى البرتغال ، ويحدد موقعها طبيرة Tavira وهى تقع على المحيط على مقربة من الحدود الإسبانية ؛ وشلب Silves وهى تقع فى أقصى جنوب البرتغال الغربى على مقربة من المحيط .

بعد ذلك إلى افتتاح باقى الحصون القريبة من إشبيلية . واستطاع ابن الأحمر بنصحه وتدخله ، أن يقنع معظم أصحابها بتسليمها لملك قشتالة ، مقابل تعهده بأن يحقن دماء المسلمين ، وأن يمنحهم شروطاً سخية . ولم تأت أواسط سنة ١٢٤٧ م (٦٤٥هـ) حتى كان ملك قشتالة ، قد استولى على جميع الحصون الأمامية لإشبيلية ، وانتسف سائر البسائط والضياع القريبة منها .

وبدأ النصارى حصارهم لإشبيلية فى أغسطس سنة ١٢٤٧م (جمادى الأولى سنة ٦٤٥هـ) . وحشد فرناندو حول المدينة المحصورة قوات عظيمة حشدت فى سائر أنحاء قشتالة ، وتسابق الأمراء والأشراف والأحبار النصارى ، فى الاشتراك فى هذه الحملة الصليبية الخطيرة ، ورابط أسطول قشتالى قوى فى نهر الوادى الكبير إحكاماً لمحاصرة المدينة من جهة البحر ، واضطر ابن الأحمر أن يقدم وفقاً لتعهده قوة من الفرسان للمعاونة فى حصار الحاضرة الإسلامية والاستيلاء عليها . وهكذا أرغم هذا الزعيم المسلم على أن يشرب الكأس المرة إلى الثمالة ، فى محالفة أعداء وطنه ودينه . وتقول بعض الروايات الإسلامية ، إن ابن الأحمر كان يرمى بمعاونة النصارى على هذا النحو ، إلى الانتقام من أهل إشبيلية لخلعهم إياه ونكولهم عن طاعته[1] . وصمم أهل إشبيلية على الدفاع عن مدينتهم جهد الاستطاعة ، ولكن الموقف داخل المدينة كان غامضاً ومضطرباً . ذلك أن إشبيلية ، منذ خلعت طاعة الموحدين ، عند اضطراب أمرهم ، وانهيار سلطانهم ، كباقى القواعد الأندلسية ، لم تقم بها زعامة موحدة ، ولا تحدثنا الرواية الإسلامية عن أولئك الزعماء الذين ألقى القدر إليهم مهمة الدفاع عن إشبيلية فى تلك الآونة العصيبة ، ولكنا نعرف بعض الأسماء من الرواية النصرانية المعاصرة ، ومن بعض إشارات عابرة فى الرواية الإسلامية ، فهى تذكر لنا قائد الفحص شقّاف ، والرئيس ابن شعيب ، ويحيى ابن خلدون ، ومسعود بن خيار . وكان القائد شقاف ، فى الواقع ، هو الزعيم الحقيقى الذى يتولى أمر الدفاع ، وعليه تعقد الآمال . وطال الحصار حول إشبيلية وأخذ يشتد يوماً بعد يوم ، وكانت المدينة المحصورة تتلقى من وقت إلى آخر من عُدوة المغرب بعض المؤن عن طريق الوادى الكبير . ولما تفاقمت أهوال الحصار وضع شاعر إشبيلية يومئذ إبراهيم بن سهل الإشبيلى الإسرائيلى ، قصيدة مؤثرة يستصرخ فيها أهل العدوة ، ويستحثهم على المبادرة إلى نصرة إخوانهم فى الدين وفيها يقول :

---

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ١٩٠ .

وِرداً فمضمون نجاح المصـــدر هى عزة الدنيا وفوز المحشر
نادى الجهاد بكم بنصر مضمر يبلونكم بين القنـا والضُّـمَّر
خلوا الديار لدار عز واركبوا عبر العجاج إلى النعيم الأخضر
وتسوغوا كدر المناهل فى السرى ترووا بماء الحوض غير مكدر
يا معشر العرب الذين توارثوا شيم الحمية كابراً عن أكـبر
إن الإله قد اشترى أرواحكم بيعوا ويهنئكم وفاء المشترى
أنتم أحق بنصر دين نبيكم ولكم تمهـد فى قديم الأعصر
أنتم بنيتم ركنــه فلتـدعموا ذاك البناء بكل لدن أسمر[1]

وطال حصار إشبيلية زهاء ثمانية عشر شهراً ، وأبدى المسلمون آيات من البسالة والجلد فى الدفاع عن حاضرتهم ، ولكن هذه البسالة لم تغن شيئاً أمام عزم النصارى وتصميمهم . وأخيراً اضطر الإشبيليون إلى قبول مصيرهم المحتوم ، وارتضوا تسليم المدينة ، على أن يؤمن المسلمون فى أنفسهم وأموالهم ، وأن يمهلوا شهراً لتسوية شئونهم وإخلاء دورهم والتأهب للرحيل ، ووضع ملك قشتالة الترتيبات اللازمة لنقل أهل المدينة بالبر والبحر إلى الجهات التى يقصدونها . وفى ٢٣ ديسمبر سنة ١٢٤٨ م (أوائل رمضان سنة ٦٤٦ هـ) دخل فرناندو الثالث مدينة إشبيلية فى موكب فخم ، وذلك بعد أن حكمها المسلمون أكثر من خمسة قرون ، وحكمها الموحدون زهاء قرن . وفى الحال حول مسجدها الجامع إلى كنيسة ، وأزيلت منها معالم الإسلام بسرعة ، وتفرق معظم أهلها المسلمين فى الحواضر الإسلامية الباقية ، ولا سيما غرناطة . وكان سقوط إشبيلية إيذاناً بسقوط سائر المدن والحصون الإسلامية الواقعة فيما بينها وبين مصب الوادى الكبير وفى المناطق المجاورة . وهكذا استولى النصارى تباعاً على شريش وشذونة وقادس وشلوقة وغليانة وروضة أوروطة وأركش وثغر شنتمرية[2] ، وغيرها من قواعد الوادى

---

(١) راجع هذه القصيدة بأكلها فى الذخيرة السنية ص ٧٤ وما بعدها .

(٢) شريش وبالإسبانية **Jerez** تقع على مقربة من مصب نهر وادى لكه شمال ثغر قادس ، وشذونة **Medina Sidonia** تقع جنوب شرق قادس وسط أرض الفرنتيرة ، وقد اشتهرت بالموقعة التى حدثت على مقربة منها بين طارق فاتح الأندلس والقوط وانتهت بفتح اسبانيا ، وقادس **Cadiz** ، تقع جنوب شريش على المحيط الأطلنطى ، وشلوقة وهى الآن مدينة **San Lucar** ، وتقع شمالى شريش على المحيط ، وروضة هى **Ruta** أو **Roda** ، وتقع على مقربة من شلوقة على المحيط ، وأركش **Arcos** —

وحصونه ؛ وسلم ابن محفوظ فى الوقت نفسه للنصارى حصن اللقوة ووادى أنة وشنتل والحصين وشلطيش ، على أن يستبقى حكم لبلة وأحوازها(١) . وعاون ابن الأحمر النصارى فى الاستيلاء على ثغر قادس . وهكذا بسط القشتاليون سلطانهم على سائر الأراضى الإسلامية الواقعة غربى ولاية الأندلس ، وأخذت رقعة الدولة الإسلامية تنكمش بسرعة مروعة(٢) .

وكان موقف ابن الأحمر من هذه الحوادث موقفاً شاذاً مؤلماً ، فقد كان يقف إلى جانب أعداء أمته ودينه ، وكان يبذل للنصارى ما استطاع من العون المادى والأدبى ، وكان معظم الزعماء المسلمين من حكام المدن والحصون الباقية ، وقد أيقنوا بانهيار سلطان الإسلام فى الأندلس ، يهرعون إلى احتذاء مثاله . وإلى الانضواء تحت لواء ملك قشتالة ، وكانت هذه المناظر المؤلمة تتكرر فى تاريخ الأندلس منذ الطوائف ، حيث نرى كثيراً من الأمراء المسلمين يظاهرون النصارى على إخوانهم فى الدين ، احتفاظاً بالملك والسلطان . ولكن ابن الأحمر كان يقبل هذا الوضع المؤلم إنقاذاً لتراث لم يكتمل الرسوخ بعد ، وتنفيذاً لأمنية كبيرة بعيدة المدى . ذلك أنه كان يطمح إلى جمع كافة الأندلس تحت لوائه . وإدماج ما تبقى من تراثها وأراضيها فى مملكة موحدة ، تكون مُلكاً له ولعقبه . ولم تكن تحدوه رغبة فى توسع يجعله إلى الأبد أسيراً لحلفائه النصارى ، مثلما كان يفعل أسلافه زعماء الطوائف . بل كانت تحدوه قبل كل شىء رغبة فى الاستقلال ، والتوطد داخل حدود إمارته المتواضعة . وقد لبث يعمل على تحقيق هذه الغاية فى ولاية غرناطة والولايات المجاورة ، وهو يصانع النصارى ويتجنب الاشتباك معهم ، ويشهد التهامهم لأشلاء الوطن الممزق ، وقلبه يتفطر حزناً وأسى .

= تقع شمال شرقى شريش وسط المثلث الإسبانى ، وشنتمرية هى ثغر شنتمرية الغرب **Sta Maria de Algarve** وتقع جنوبى البرتغال على المحيط ، ومكانها اليوم مدينة فارو البرتغالية .

(١) الذخيرة السنية ص ٨٥ . وتقع هذه الأماكن فى ولاية الغرب على مقربة من مدينة أونية (ولبة **Huelva** الحديثة) شرقى نهر أوديل .

(٢) راجع حوادث حصار إشبيلية وسقوطها فى البيان المغرب القسم الثالث ص ٣٨١ و٣٨٢ وابن خلدون ج ٤ ص ١٩٠ ، والذخيرة السنية ص ٧١ — ٧٦ . ومن المراجع القشتالية بالأخص : **Crónica General (Ed. Pidal) Vol. 1, No. 1080 - 1125** ، وقد أفردنا لسقوط إشبيلية ، فى كتابنا «عصر المرابطين والموحدين» فصلا كبيراً ، ويراجع فى القسم الثانى منه ص ٤٦٦ — ٤٨٨ .

على أن ابن الأحمر لم يكن يعتزم المضى فى ذلك المسلك المؤلم المهين إلى النهاية ، فقد كانت نفسه الوثابة تحدثه من وقت إلى آخر ، بأن يحطم هذه الأغلال الشائنة التى صفدته بها محالفة النصارى ، وكان كلما آنس ازدياد قوته ورسوخ سلطانه صلبت قناته وذكا عزمه ، وكان يتجه ببصره إلى ما وراء البحر ، إلى إخوانه فى الدين فى عدوة المغرب ، وكان جرياً على السياسة الأندلسية المأثورة يرى فى ملوك العدوة ، عضداً له قيمته فى مغالبة النصارى ، وكانت حوادث المغرب تتمخض فى ذلك الحين بالذات عن قيام دولة جديدة قوية هى دولة بنى مرين. ومع أن الكفاح بين دولة الموحدين المحتضرة وبين دولة بنى مرين الناشئة[1]، كان يحول دون إنجاد الأندلس بصورة فعالة ، فإن كتائب المجاهدين من بنى مرين والمتطوعة من أهل المغرب ، لم تلبث أن هرعت إلى غوث الأندلس . وعبر القائد أبو معرف محمد بن إدريس بن عبد الحق المرينى وأخوه الفارس عامر ، البحر فى نحو ثلاثة آلاف مقاتل ، جهزهم أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق سلطان بنى مرين . وكانت حوادث الأندلس المؤسية تحدث وقعها العميق فى المغرب ، وكانت رسائل الأندلس تترى إلى أمراء المغرب وأكابرهم بالصريخ مما تكابده من عدوان النصارى واستطالتهم ، والاستنصار بأهل العدوة إخوانهم فى الدين ، وكان علماء المغرب وخطباؤه وشعراؤه يبثون دعوة الغوث والإنجاد ، ومن ذلك قصيدة مؤثرة وضعها أبو الحكم مالك بن المُرَحِّل ، وقرئت فى جامع القرويين بفاس فى يوم جمعة من أيام سنة ٦٦٢ هـ ، وبكى الناس تأثراً لسماعها ومما جاء فيها :

استنصر الدين بكم فاستقدموا ... فإنكم إن تسلموه يسلم
لاذت بكم أندلس ناشرة ... برحم الدين ونعم الرحم
فاسترحمتكم فارحموها إنه ... لا يرحم الرحمن من لا يرحم
ماهى إلا قطعة من أرضكم ... وأهلها منكم وأنتم منهم[2]

وكان لاهتمام المغرب بإنجاد الأندلس صداه . وكان ابن الأحمر قد بدأ فى الوقت نفسه يشعر بمقدرته على مواجهة النصارى والخروج على طاعتهم ، وحماية مملكته الفتية من عدوانهم . ولما فاتحه النصارى بالعدوان وغزوا أراضيه فى سنة ٦٦٠ هـ (١٢٦١ م) ، استطاع بمعاونة قوات من المتطوعة والمجاهدين الذين

(١) سنعود إلى التحدث عن قيام دولة بنى مرين فى موضع آخر .
(٢) راجع الذخيرة السنية ص ١٠٨ — ١١٢ حيث يورد القصيدة بأكلها .

وفدوا من وراء البحر ، أن يهزمهم وأن يردهم عن أراضيه ، وبذلك ظهرت الأندلس على عدوها فى ميدان الحرب لأول مرة منذ انهيار دولة الموحدين . ولما عبرت الكتائب المرينية بعد ذلك بقليل (٦٦٢هـ) ، استطاع قائدهم الفارس عامر ابن إدريس أن ينتزع مدينة شريش من يد النصارى ، ولكن لمدى قصير فقط[١].

وقد كانت هذه بارقة أمل متواضعة . ولكن الحوادث ما لبثت أن تجهمت للأندلس مرة أخرى . ذلك أن ملك قشتالة (ألفونسو العاشر) خشى هذه البادرة على خططه وغزواته ، وخشى بالأخص أن تتضاعف الأمداد من وراء البحر فيشتد ساعد أمير غرناطة ، ومن ثم فقد عول أن يضاعف أهبته وضغطه على القواعد الأندلسية الباقية . فنى أواخر سنة ٦٦٢ هـ (١٢٦٣م) نزل ابن يونس صاحب مدينة إستجة عنها إلى النصارى[٢] ، ودخلها دون خيل قائد القشتاليين ، فأخرج أهلها المسلمين منها ، وقتل وسبى كثيراً منهم وذلك بالرغم من تسليمها بالأمان . وفى العام التالى (٦٦٣هـ) ظهرت نيات ملك قشتالة واضحة فى العمل على افتتاح ما بقى من القواعد الأندلسية ، وسرى الخوف إلى نواحى الأندلس ، وعادت الرسائل تترى على أمراء المغرب وزعمائه ، بالمبادرة إلى إمداد الأندلس ، وإغاثتها قبل أن يفوت الوقت ، خصوصاً وقد بدأ عدوان النصارى يحدث أثره ، وبدأت هزائم قوات ابن الأحمر فى ذلك الوقت على يد دون نونيودى لارا (دونته) صهر ملك قشتالة وقائده الأكبر (٦٦٣ هـ — ١٢٦٤ م) . وكتب الفقيه أبو القاسم العزفى صاحب سبتة رسالة طويلة إلى قبائل المغرب ، يستنصرهم فيها ويحثهم على الجهاد فى سبيل الأندلس ، وفيها يقول : « ولا تخلدوا بركون إلى سكون ، والدين يدعوكم لنصره ، وصارخ الإسلام قد أسمع أهل عصره ، والصليب قد أوعب فى حشده ، فالبدار البدار ، بإرهاب الحد وأعمال الجهاد فى نيل الحد.. »[٣]. وتكرر مثل هذا الصريخ إلى سائر أمراء إفريقية ، وأعلن ابن الأحمر بيعته للملك المستنصر بالله الحفصى صاحب تونس ، فبعث إليه المستنصر

---

(١) الذخيرة السنية ص ١١٢ .

(٢) سبق أن أشرنا إلى سقوط إستجة فى يد النصارى سنة ١٢٣٧ م ، أعنى قبل ذلك بخمسة وعشرين عاماً (ص ٢٠) . والظاهر أنها بقيت خلال هذه المدة بيد حكامها المسلمين تحت حماية ملك قشتالة على نسق كثير من المدن الأندلسية الأخرى ، التى لبثت حيناً بيد حكامها المسلمين بعد تسليمها صلحاً للنصارى .

(٣) راجع هذه الرسالة فى الذخيرة السنية ص ١١٣ — ١٢٢ .

هدية ومالا لمعاونته[1] . ولكن هذه المساعى لم تسفر عن نتيجة سريعة ناجعة ، وبقيت الأندلس أعواماً أخرى تواجه عدوها القوى بمفردها وتتوجس من سوء المصير.

ولما تفاقم عدوان القشتاليين وضغطهم ، لم ير ابن الأحمر مناصاً من أن يخطو خطوة جديدة فى مهادنة ملك قشتالة ومصادقته ، فنزل له فى أواخر سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٧ م) عن عدد كبير من البلاد والحصون ، منها شَرِيش والمدينة والقلعة وغيرها . وقيل إن ما أعطاه ابن الأحمر يومئذ من البلاد والحصون المسورة للنصارى بلغ أكثر من مائة موضع ، ومعظمها فى غرب الأندلس[2] ، وبذا عقد السلم بين الفريقين مرة أخرى[3] .

وهكذا فقدت الأندلس معظم قواعدها التالدة فى نحو ثلاثين عاماً فقط (٦٢٧ — ٦٥٥ هـ) فى وابل مروع من الأحداث والمحن ، واستحال الوطن الأندلسى الذى كان قبل قرن فقط ، يشغل نحو نصف الجزيرة الإسبانية ، إلى رقعة متواضعة هى مملكة غرناطة . وقد أثارت هذه المحن التى توالت على الأندلس ، فى تلك الفترة المظلمة من تاريخها لوعة الشعر والأدب ، ونظم شاعر العصر أبو الطيب صالح بن شريف الرندى ، مرثيته الشهيرة ، التى مازالت تعتبر حتى اليوم من أروع المراثى القومية وأبلغها تأثيراً فى النفس ، وفيها يبكى قواعد الأندلس الذاهبة ، ويستنهض همم المسلمين أهل العدوة لإنجاد الأندلس وغوثها ، وإليك بعض ما جاء . هذه المرثية الشهيرة التى خلدت ذكر ناظمها على كر الأحقاب :

لكل شيء إذا ما تم نقصان … فلا يغر بطيب العيش إنسان
هى الأمور كما شاهدتها دول … من سرَّه زمن ساءته أزمان
وهذه الدار لا تبقى على أحد … ولا يدوم على حال لها شان
يمزق الدهر حتماً كل سابغة … إذا نبت مشرفيات وخرصان

* * *

---

(١) الذخيرة السنية ص ١٢٥ .

(٢) راجع الذخيرة السنية ص ١٢٧ . وقد سبق أن أشرنا إلى تنازل ابن الأحمر لملك قشتالة عن أرض الفرنتيرة ، وفيها تقع شريش وقادس وغيرهما ، ولكن هذا التنازل كان اسميا ، واضطر النصارى إلى افتتاح هذه المدن بصورة فعلية . وكان سقوط شريش وقادس فى يد ألفونسو العاشر سنة ١٢٦٢ م . والظاهر أن المقصود هنا مصادقة ابن الأحمر على استيلاء النصارى على هذه القواعد.

(٣) يضع ابن الخطيب تاريخ عقد ابن الأحمر الصلح مع النصارى للمرة الثانية فى سنة ٦٦٢هـ .

فجائع الدهر أنواع منوعة ... وللزمان مسرّات وأحزان
وللحوادث سلوان يهونها ... وما لما حل بالإسلام سلوان
دهى الجزيرة أمر لا عزاء له ... هوى له أحد وانهد ثهلان
فاسأل بلنسية ما شأن مرسية ... وأين شاطبة أم أين جيّان
وأين قرطبة دار العلوم فكم ... من عالم قد سما فيها له شان
وأين حمص وما تحويه من نزه ... ونهرها العذب فيّاض وملآن
قواعد كن أركان البلاد فما ... عسى البقاء إذا لم تبق أركان
تبكي الحنيفية البيضاء من أسف ... كما بكى لفراق الإلف هيمان
على ديار من الإسلام خالية ... قد أقفرت ولها بالكفر عمران
حيث المساجد قد صارت كنائس ما ... فيهن إلا نواقيس وصلبان
حتّى المحاريب تبكي وهي جامدة ... حتّى المنابر ترثى وهي عيدان

* * *

أعندكم نبأ من أهل أندلس ... فقد سرى بحديث القوم ركبان
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم ... أسرى وقتلى فما يهتز إنسان
ماذا التقاطع فى الإسلام بينكم ... وأنتم يا عباد الله إخوان(١)

* * *

وقضى ابن الأحمر الأعوام القليلة الباقية من حكمه ، فى توطيد مملكته وإصلاح

(١) راجع هذه المرثية البليغة بأكملها فى نفح الطيب ج ٢ ص ٥٩٤ و ٥٩٥ ، وفى أزهار الرياض ج ١ ص ٤٧ — ٥٠ . وقد التبس الأمر على المقرى فى تعيين العصر الذى قيلت فيه هذه القصيدة والذى عاش فيه ناظمها صالح بن شريف فوصفه بأنه خاتمة أدباء الأندلس (أزهار الرياض ج ١ ص ٤٧) . وذكر فى نفح الطيب أن أبياتاً أخرى أضيفت إليها تشتمل على ذكر بسطة وغرناطة وغيرها ليست من نظم صاحبها لأنه توفى قبل سقوطها (أى غرناطة) مما يدل على اعتقاد المقرى بأن أبا الطيب عاش فى أواخر أيام مملكة غرناطة (أواخر القرن التاسع الهجرى) . بيد أنه واضح من سياق القصيدة . وذكر القواعد الأندلسية التى تبكيها وهى بلنسية ومرسية وشاطبة وجيان وقرطبة وإشبيلية ، وهى التى سقطت كلها فى يد النصارى بين سنة ٦٣٥ هـ و ٦٥٠ هـ ، أن الشاعر قد عاش فى هذا العصر . ومن جهة أخرى فقد ذكر صاحب الذخيرة السنية صراحة أنها نظمت حينما نزل ابن الأحمر للنصارى سنة ٦٦٥ هـ عن عدد كبير من القواعد الأندلسية . وقد توفى أبو الطيب الرندى بعد هذه الأحداث بنحو عشرين عاماً فى سنة ٦٨٤ هـ . وسنعود إلى ترجمته فى الكتاب الرابع .

شئونها ؛ وكان منذ شعر باستقرار الأمور فى مملكته ، قد اختار لولاية عهده ولده الأمير أبا سعيد فرج بن محمد بن يوسف ، ولكن هذا الأمير توفى فى سنة ٦٥٢هـ ، فاختار مكانه لولاية العهد ولده محمداً أكبر أولاده من بعده . وهكذا أسبغ ابن الأحمر على رياسة بنى نصر صفة الملوكية الوراثية[1] . ولم تقع فى تلك الفترة حوادث ذات شأن ، فقد لزم النصارى السكينة حيناً . ولكن ظهرت عندئذ أعراض الانتقاض على بنى أشقيلولة أصهار ابن الأحمر ومعاونيه ؛ وكان ابن الأحمر قد زوج فى سنة ٦٦٤ هـ إحدى بناته لابن عمه الرئيس أبى سعيد بن اسماعيل بن يوسف ووعده بولاية مالقة ، فنمى ذلك إلى واليها أبى محمد بن أشقيلولة ، وهو أيضاً زوج ابنته ، فغضب لذلك وأعلن العصيان والاستقلال بحكم المدينة ، فسار ابن الأحمر لقتاله تعاونه قوة من حلفائه النصارى، وحاصروا مالقة ثلاثة أشهر ، ولكنهم ارتدوا عنها خائبين (٦٦٥ هـ — ١٢٦٦ م) . وعاد ابن الأحمر فسار إلى مالقة مرة أخرى فى سنة ٦٦٨ هـ ، ولكنه لم ينل منها مأرباً[2] .

وفى تلك الآونة عاد النصارى إلى التحرك والتحرش بالمملكة الإسلامية ، وسار ملك قشتالة ألفونسو العاشر إلى الجزيرة الخضراء فعاث فيها ، وعاد ابن الأحمر يتوجس شراً من نيات النصارى ، فبعث إلى أمير المسلمين السلطان أبى يوسف المرينى ملك المغرب يطلب منه الغوث والإنجاد ، ونصرة إخوانه المسلمين فيما وراء البحر ، ويخبره بما بدا من عدوان النصارى ونيتهم فى القضاء على ما بقى من ديار الأندلس ، ولكن ابن الأحمر لم يعش ليرى نتيجة هذه الدعوة ، إذ توفى بعد ذلك بقليل .

وكان محمد بن الأحمر يتمتع بخلال باهرة من الشجاعة والإقدام ، وشغف الجهاد ، والمقدرة على التنظيم ، إلى جم التواضع والبساطة . ويقدم لنا ابن الخطيب مؤرخ الدولة النصرية عنه هذه الصورة المؤثرة : «كان هذا الرجل آية من آيات الله فى السذاجة والسلامة والجمهورية ، جندياً ثغرياً ، شهماً ، أيداً ، عظيم التجلد ، رافضاً للدعة والراحة ، موثراً للتقشف والاجتزاء باليسير ، متبلغاً بالقليل ، بعيداً عن التصنع ، جافى السلاح ، شديد العزم ، مرهوب الإقدام ،

---

(١) الإحاطة ج ٢ ص ٦٥ ، واللمحة البدرية ص ٣٦ ، والذخيرة السنية ص ٨٨ .

(٢) الذخيرة السنية ص ١٢٥ و١٢٩ .

عظيم التشمير ، محتقراً للعظيمة ، مصطعناً لأهل بيته ، فضاً فى طلب حظه ، حامياً لقرابته وأقرانه وجيرانه ، مباشراً للحروب بنفسه ، تتغالى الحكايات فى سلاحه وزينة ديابوزه ، يخصف النعل ،ويلبس الخشن ، ويؤثر البداوة ، ويستشعر الجد فى أموره »[1] .

وكان يعرف بالشيخ ويلقب بأمير المسلمين ، وهو اللقب الذى غلب على سلاطين غرناطة فيما بعد . وهو الذى ابتنى حصن الحمراء الشهير ، وجعله دار الملك، وجلب له الماء، وسكنه بأهله وولده . وأما تسميته بابن الأحمر فقد اختلفت فى شأنها الرواية . ويقال إن هذه التسمية ترجع إلى نضارة وجهه واحمرار شعره؛ ويرى البعض أنها أسبغت عليه لإنشائه حصن الحمراء ؛ ولكن سوف نرى عند الكلام على تاريخ الحمراء ، أن هذا الاسم أقدم من الدولة النصرية ببضعة قرون، وأنه لا صلة بين هذا الإسم الذى أطلق على الحصن والقصور الملكية ، التى أنشأها محمد بن يوسف وبنوه من بعده ، وبين تلقيبهم ببنى الأحمر ، كما أنه ليس ثمة بين القبائل العربية أية قبيلة تحمل هذا اللقب ، ويمكن أن ينسب إليها بيت غرناطة الملكى[2]. وكان ابن الأحمر يباشر الأموربنفسه، ويدقق فى جمع الأموال والجبايات حتى امتلأت خزائنه بالمال والسلاح . وكان يعقد للناس مجالس عامة يومين فى الأسبوع ، يستمع فيها إلى الظلامات وذوى الحاجات ، ويستقبل الوفود ، وينشده الشعراء . وكان يجرى فى تصريف شئون الملك على قاعدة الشورى ، فيعقد مجالس يحضرها الأعيان والقضاة ومن إليهم من ذوى الرأى ، للاسترشاد برأيهم ، ونصحهم[3]. وكان فى مقدمة وزرائه أبومروان عبد الملك بن يوسف بن صناديد زعيم جيّان ، وهو الذى مكنه من التغلب عليها ، والقائد أبوعبد الله محمد بن محمد الرميمى ولد صاحب المرية السابق . وكان بين كتابه المحدث الشهير أبو الحسن على بن محمد بن سعيد اليحصبى اللوشى . وكان من شعرائه أبو الطيب الرندى

---

(١) الإحاطة فى أخبار غرناطة ج ٢ ص ٦١ .

(٢) راجع مقدمة أطلس« الحمراء Alhambra» الذى وضعه Owen Jones & Jules Goury وكتبها المستشرق جاينجوس (London 1842) ص ٥ الهامش . وتسمى الدولة النصرية على الأغلب بدولة بنى الأحمر ، ويؤثر ابن خلدون تسميتها بذلك الاسم (ج ٤ ص ١٧٠ وما بعدها) .

(٣) ابن خلدون ج ٧ ص ١٩٠ ؛ واللمحة البدرية ص ٣١ .

صاحب المرثية الشهيرة ، وهو الذى سبقت الإشارة إليه . وكان أثيراً لديه ، وقد نظم فى مدحه بعض غرر قصائده .

وإليك كيف يصور النقد الغربى الحديث خلال منشىء مملكة غرناطة وظروف مملكته : «كان محمد بن الأحمر من أبرع أولئك الأمراء الذين كان لهم فضل خلال العصور المضطربة ، فى الدفاع عن الإسلام ومجد المسلمين ، وكان جريئاً بعيد الغور ، ولكن مكره لم يكن راجعاً إلى طبيعة خبيثة وضيعة ،ولكن إلى خلق خصومه الذين كان مرغماً على مقارعتهم . فنى العصور الوسطى كان قانون الأمم وعقد المعاهدات ، ومجاملات الفروسية وشروط السلم الشريف ، تفهم بطريقة ناقصة ، وكثيراً ما تنتهك بعمد ، وكانت معظم نقائص هذا الأمير العظيم، ترجع إلى أخلاق العصر المنحلة ، وكانت بوادر خضوعه لأعدائه الألداء مظاهر فقط لسياسة محكمة التدبير ، أقدم عليها لإحراز ملكه وتوطيد سلطانه ، وكان تقدم الغزو المستمر يرهق مملكته ، ولكنها كانت تغلو أقوى ويغلو الدفاع عنها أيسر، كلما انكمشت حدودها . وكان القشتاليون كلما احتلوا مدينة جديدة ، هرعت منها جمهرة من المهاجرين العاملين إلى غرناطة ، فتزيد سكانها كثرة على كثرة ، يحملون معهم ثروات عظيمة ، وصفات هى أثمن من الثروة لدولة منحلة : النشاط والاقتصاد ، والمقدرة على هضم الظروف الجديدة ، وذكرى المظالم السابقة ، وآلام المطاردة المحزنة ، وأمل الانتصاف ، وشعور لا يقهر ببغض النصرانية . وكان الاندماج السياسى لهذه الجماعات المنفية المضطهدة ، فى حماية الجبال التى تظلل ملاذها الأخير ، هو الذى عاون فى حفظ مملكة غرناطة الزاهرة لمجدها المستقبل ومحنتها الغامرة »[١].

وتوفى محمد بن الأحمر فى التاسع والعشرين من جمادى الثانية سنة ٦٧١ هـ (ديسمبر ١٢٧٢ م) على أثر سقطة من جواده ، حين عوده من معركة رد فيها جمعاً من الخوارج الذين حاولوا الزحف على الحمراء فى منتصف جمادى الثانية من العام المذكور ، فحمل جريحاً إلى القصر وتوفى بعد ذلك بأسبوعين ، وقد قارب الثمانين من عمره ، ودفن بالمقبرة العتيقة بأرض السبيكة[٢] . وكانت مملكة

---

(١) Scott : The Moorish Empire in Europe, V. II p. 483-34

(٢) الإحاطة ج ٢ ص ٦٦ . وقد كان اسم السبيكة يطلق على البسيط الذى يقع جنوب شرق الحمراء .

غرناطة قد توطدت دعائمها نوعاً ، واستقر بها ملك بنى نصر الفتىّ على أسس ثابتة . وكان من حسن الطالع أنه لم يظهر فى مملكة غرناطة فى بداية أمرها زعماء خوارج ينازعون بنى نصر زعامتهم . ولذا لم نشهد فى هذه الأندلس الجديدة مأساة الطوائف مرة أخرى ، وإن كان تاريخ الدولة النصرية لم يخل من ثورات وانقلابات محلية عديدة . وقد كان من غرائب القدر أن هذه المملكة الإسلامية الصغيرة ، استطاعت غير بعيد ، أن تعيد لمحة من مجد الأندلس الذاهب ، كما استطاعت بكثير من الشجاعة والجلد ، أن تسهر على تراث الإسلام فى الأندلس ، زهاء مائتين وخمسين عاماً أخرى .

الفصل الثالث

طوائف الأمة الأندلسية

فى عصر الانحلال

مملكة غرناطة وحدودها . عناصر سكانها . المدجنون . تاريخهم وحياتهم فى ظل الممالك النصرانية . وثائق هامة تلقى ضوءاً على أحوالهم . الأحكام الشرعية فى شأنهم . اضطهادهم على يد الكنيسة . نشاطهم وتفوقهم . النصارى المعاهدون وأحوالهم فى ظل الحكومة الإسلامية . تعصبهم وخياناتهم . هجرة الأندلسيين من مختلف القواعد إلى غرناطة . عناصر الأمة الأندلسية . المولدون . اليهود . الشعب الغرناطى . صفاته وخلاله .

كانت مملكة غرناطة عند قيامها فى أواسط القرن السابع الهجرى تشمل القسم الجنوبى من الأندلس القديمة ، وتمتد فيما وراء نهر الوادى الكبير إلى الجنوب ، حتى شاطىء البحر الأبيض المتوسط ومضيق جبل طارق ، ويحدها من الشمال ولايات جيّان وقرطبة وإشبيلية ، ومن الشرق ولاية مرسية وشاطئ البحر المتوسط الممتد منها إلى الجنوب ، ومن الغرب ولاية قادس وأرض الفرنتيرة . وكانت تشتمل عندئذ على ثلاث ولايات كبيرة ، وهى ولاية غرناطة الواقعة فى الوسط ، والممتدة جنوباً حتى البحر ، وأهم مدنها العاصمة غرناطة ، ووادى آش وبسطة وأشكر وحصن اللوز ولوشة والحامة وأرحبة والمنكب وشلوبانية . وولاية ألمريّة وهى تمتد من ولاية مرسية حتى البحر ، وأهم مدنها ثغر ألمرية وبيرة والمنصورة وبرشانة وبرجة ودلاية وأندَرَش . وولاية مالقة ، وهى تقع على البحر غربى غرناطة ، وأهم مدنها ثغر مالقة ، وبلِّش مالقة وطرُّش وقمارش وآرشدونة وأنتقيرة ورندة ومربلة . ويلحق بها منطقة جبل طارق والجزيره الخضراء وطزيف .

وتخترق مملكة غرناطة من الوسط جبال سيرّا نفادا (جبل شلير) الشاهقة ، وهضاب البشرّات الوعرة وبسائطها الخضراء ، كما تخترقها عدة أنهار منها شَنيل فرع الوادى الكبير ونهر أندرش الصغير ، وفى الشرق نهر المنصورة . وكانت خواصها الطبيعية التى تجمع بين مزيج مدهش من المروج والوديان الخصبة ، والجبال والهضاب الوعرة ، تمدها بثروات زراعية ومعدنية حسنة ، ينميها

ويضاعفها الشعب الأندلسى الموهوب، بذكائه ونشاطه وبراعته المأثورة . وهكذا كانت مملكة غرناطة الصغيرة ، تستمد من مواردها الطبيعية ، أسباب القوة والمنعة والرخاء .

وقد رأينا فيما تقدم أن كورة إلبيرة ، وهى التى غدت فيما بعد كورة غرناطة ، كانت منذ الفتح منزل قبائل الشام ، وقد لبثت أعقاب هذه البطون مدى عصور كثيرة فى تلك الولاية . ولما اضطرمت الفتن بالأندلس عقب انهيار الدولة الأموية ، تقاطر البربر من الضفة الأخرى من البحر على قواعد غرناطة ، ثم غدت مدينة غرناطة مدى حين إمارة بربرية ، وأصبح البربر عنصراً بارزاً فى سكان هذه المقاطعة . وكانت الثغور الجنوبية بطبيعة الحال ، منزل البربر كلما عبروا إلى الأندلس ، وخصوصاً أيام المرابطين والموحدين . وكانت طوائف كبيرة من الغزاة ، تتخلف فى هاتيك الوديان النضرة وتستقر فيها ، يجذبهم خصبها ونماؤها. ولما أخذت قواعد الأندلس الشرقية والوسطى تسقط تباعاً فى أيدى النصارى ، كان يهرع إلى القواعد والثغور الجنوبية كثير من الأسر المسلمة الكريمة ، التى آثرت الهجرة إلى أرض الإسلام ، على التدجن والبقاء تحت سلطان النصارى . على أنه بقيت فى القواعد والثغور التى استولى عليها النصارى جموع كبيرة من المسلمين ، الذين حملتهم ظروف الأسرة ودواعى العيش على البقاء فى الوطن القديم ، تحت حكم الإسبان سادتهم الجدد . وأولئك هم المدجنون[1] (أو بالإسبانية Mudéjares) أو أهل الدجن . وقد شاع استعمال هذا اللفظ بالأندلس منذ أوائل القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) أو بعبارة أخرى مذ كثرة استيلاء النصارى ، على أراضى المسلمين ، وكثر عدد الرعايا المسلمين الذين تضمهم اسبانيا النصرانية فى هذه الفترة بالذات سقطت معظم قواعد الأندلس فى أيدى النصارى ، وسقطت منها فى الشرق ، بلنسية وشاطبة ودانية ، ولقنت ، وأوريولة ، ثم مرسية ، وسقطت فى الوسط قرطبة وجيان ، وسقطت فى الغرب ماردة وبطليوس وإشبيلية وقرمونة ولبلة وغيرها — سقطت هذه القواعد الأندلسية التالدة كلها فى أيدى النصارى فى النصف الأول من القرن السابع الهجرى ، وبقيت من أهلها المسلمين طوائف كبيرة تحت حكم الإسبان ، وهى التى غدت مجتمع المدجنين . وكان أكثر

---

(١) من دجن وتدجن أى أقام ، ومصدره الدجن والتدجن ومنه دواجن البيوت وهى طيور وحيوانات أليفة مقيمة .

المدجنين احتشاداً فى شرق الأندلس فى منطقتى بلنسية ومرسية . ولهذا المجتمع الإسلامى الإسبانى تاريخ طويل مؤثر . فقد لبث المدجنون عصراً ، يتمتعون فى ظل ملوك قشتالة وأراجون ، بنوع من الطمأنينة والرخاء والأمن ، فكان يسمح لهم بالاحتفاظ بدينهم وشريعتهم ومساجدهم ومدارسهم ، وكان لهم فى العصور الأولى قضاة منهم يحكمون فى سائر المنازعات التى تقع فيما بينهم وفقاً للشريعة الإسلامية ؛ أما المنازعات التى تقع بين مسلم ونصرانى ، فكان ينظرها أحياناً قاض نصرانى أو تنظرها محكمة مختلطة من قضاة من المذهبين. وكان من امتيازاتهم، أن لا يدفعوا من الضرائب غير ما كانوا يؤدونه من قبل لملوكهم ، ثم ترك هذا الامتياز بمضى الزمن ، وأصدر الفونسو العاشر فى سنة ١٢٥٤ م لسكان إشبيلية ، امتيازاً يخولهم حق شراء الأراضى من المسلمين فى منطقتهم ، مما يدل على أنه قد سمح للمسلمين بالاحتفاظ بأراضيهم ، وكان لهم حق البيع والشراء فى العقارات. فلما تطورت الحوادث ، وغلبت النزعة الرجعية فى أواخر القرن الثالث عشر ، صدر قانون يحرم على المسلمين واليهود شراء الأراضى من النصارى ، ولكن ترك هذا القانون فيما بعد . وكان يسمح للمدجنين أيضاً بحمل السلاح ، ويلزمون بتأدية الخدمة العسكرية ، ويعتبر الإعفاء منها امتيازاً خاصاً . ثم أعفى المدجنون بعد ذلك من الخدمة العسكرية نظير جزية سنوية يؤدونها، وكان انضمامهم إلى الجيوش النصرانية يقع فى حدود نسبتهم العددية . ولما توالى استيلاء الإسبان على القواعد والثغور الأندلسية ، كان يخصص للمدجنين فى كل مدينة مفتوحة حى خاص لإقامتهم ، يفصل بينه وبين أحياء النصارى سور ضخم ، وكان هذا هو شأن اليهود أيضاً حيث كانوا يلزمون بالإقامة فى حى خاص بهم(١).

وتوجد فى كتدرائية سرقسطة مجموعة من وثائق عربية تلقى ضوءاً على تاريخ المدجنين وأحوالهم فى مملكة أراجون منذ القرن العاشر الميلادى إلى القرن الخامس عشر. وهى عبارة عن طائفة من عقود البيع والشراء والوديعة وغيرها التى عقدت بين أفراد من المدجنين وبين المدجنين والنصارى ، وفيها وثائق محررة فى تواريخ متأخرة فى سنة ١٤٨٢ ، وسنة ١٤٩٦ . ويستفاد من تلاوتها أن المدجنين فى مملكة أراجون ، كانوا إلى هذا العصر المتأخر ، حتى بعد سقوط غرناطة فى يد الإسبان ،

Dr. H. Ch. Lea : History of the Inquisition in Spain, V. I. p. 62-64. (١)

يحتفظون بدينهم الإسلامى ، وأنه كانت ما تزال ثمة بعض مساجد قائمة فى بعض أنحاء ولاية سرقسطة .

(١) ومن ذلك وثيقة مؤرخة فى شهر ربيع الأول سنة ٦٤٤ هـ (١٢٤٦م) تبدأ بالبسملة والصلاة على النبى ، وهى عقد شراء ، يشترى بمقتضاه « أحمد المران » من « محمد بن سلمة البرتيالى » جميع ما له من أملاك وديار ببطرة قرية ابتورة ... بثمن مبلغه وعدته تسعون دنيراً قناشر من القناشر الجارية بسرقسطة... وذلك كله على سنة المسلمين فى طيبات بيوعاتهم ومرجع أدركهم وارتضاء ذلك البيعة المذكورة الشنيور من القرية المذكورة القسيس الأجل دون برتُلماوو شنت جيل عن إذن الأقسة من الكنيسة المذكورة ، شهد على إشهاد المتبايعان المذكوران من أشهداه ، وسمع منهما ، وعرفهم ، والجميع بحالة الصحة والجواز فى شهر ربيع الأول من سنة أربعة وأربعين وستمائة » .

(٢) ووثيقة مؤرخة فى ٩ أغسطس سنة ١٤٨٤، ورد فيها ما يأتى :

« الحمد لله وحده ، أشهد على نفسه الكريم فرج الطليطلى الساكن بموضع قلعة التراب شهداء هذا الكتاب قولا بالحق وانقياداً إليه، أن عليه وفى ذمته وماله من المكرمان برول وكبتلة من شنت مرى لميور والسبداد ذاسرغوس وديعة محضة وأمان موئمن وذلك خمسون قفزاً قمح طيباً نقباً من مكايل مدينة سرقسطة... » .

وكتب هذه الوثيقة : « محمد بن محمد الأزقة فقيه وخادم مسجد قلعة التراب »

(٣) ووثيقة مؤرخة فى شهر فبراير عام احدى وتسعمائة (١٤٩٦م) تبدأ أيضاً بالبسملة والصلاة على النبى . وهى عبارة عن إقرار كل من « موسى الحسن وابن عبد الله محمد بن فرج المحه الساكنون فى بلدة الحمام بأنهم يحبسون وديعة قمح » لمن يدعى « أبو باكر ابن أبو باكر ، من أهل قاعة التراب» .

وكاتب الوثيقة هو : « ابراهيم البساتنى البنى هليجى خديم جامع البلد المذكور »(١) .

وعثرنا فى متحف بلدية بنبلونة على وثيقة عربية وحيدة مؤرخة فى « التاسع من شهر أبريل عام احدى وثمانمائة » (١٣٩٨ م) وهى عبارة عن إشهاد بالدين

---

(١) قام بدراسة هذه الوثائق المستشرق الإسبانى **R. Garcia di Linares** فى بحث عنوانه
Escrituras Arabes pertenecientes al Archivo de Nuestra Senora del Pilar de Zaragoza
ومنشور فى كتاب **Homenaje a Francisco Codera (Zaragoza 1904) p. 171-197**

وثيقة مدجنية Mudéjar محفوظة بمتحف بلدية بنبلونة وهى عبارة عن إشهاد بالدين
ومؤرخة فى سنة ٨٠١ هـ (١٣٩٨ م)

مستهلة بالبسملة والصلاة على النبي ومحررة أمام « القاضى الأروع الأورع أبى الحسن على القريشى » . وقد جاء فيها ما يأتى :

« أشهدوا على أنفسهم أبو الحجاج يوسف الحضرمى ومحمد بن محمد بن جعفر الزهرى ، ويوسف بن زيد ، وأحمد بن المكحل، ويوسف شداد بن دجنبر مسلمان ساكنان فى ربض المسلمين ببلدة برجة حاضرون بغايبون كل واحد منهم عنه وعن الكل، بأنهم دانوا الاشتراك الشابلى إسرابيل ساكن بلدة المذكورة أولمن ظهر هذا العقد عنده ثلثماية واثنين وثلثين فلريناش ذهباً قالب أرغون من سكة طيبة موزونة ... الخ » وفى ذيلها عدة من أسماء الشهود المسلمين .

وفيما أوردناه من نص هذه الوثيقة ، ما يدل على أنه كانت توجد فى تلك المنطقة النائية من شمال اسبانيا ، فى بلاد نافار ، أقليات مسلمة لها أحياء خاصة حيث وجدت ، وتتمتع بالتعامل بلغتها القومية أمام قاضيها الخاص، وذلك فى هذا العصر المتأخر ، فى أواخر القرن الرابع عشر ، أعنى بعد مرور أكثر من ثلاثة قرون على استيلاء النصارى على سائر القواعد الإسلامية فى تلك الأنحاء .

وكانت مسألة التدجن هذه وبقاء المسلمين فى الأرض التى يفتتحها النصارى تثير كثيراً من المسائل الفقهية ، وكان بعض الفقهاء يرمى أولئك المدجنين بالمروق عن الإسلام لبقائهم تحت حكم النصارى . وقد عثرت خلال بحوثى فى مكتبة الإسكوريال على رسالة مخطوطة تتناول هذه المسألة ، وهى عبارة عن فتوى طلبها أحد الفقهاء عن حكم الشرع فيمن آثر من المسلمين الأندلسيين الهجرة من دار الإسلام إلى الأراضى المفتوحة ليعيش تحت حكم النصارى ، والمقصود بهؤلاء بنوع خاص أولئك الذين هاجروا من القواعد الأندلسية المفتوحة إلى بلاد المغرب ، ثم لم يجدوا بها ما أملوا من رخاء ويسر فى العيش ، وترتب على ذلك أنهم ندموا على هجرتهم ، وتمنوا العودة إلى ديارهم القديمة تحت حكم ملك قشتالة ، وتتضمن الرسالة الأسئلة الآتية :

« ما حكم من تمادى من المسلمين فى ذلك ؟ وما حكم من عاد منهم إلى دار الكفر بعد حصوله فى دار الإسلام ؟ وهل يجب وعظ هؤلاء أو يعرض عنهم ويترك كل واحد منهم لما اختاره ؟ وهل من شرط الهجرة أن لا يهاجر أحد إلا إلى دنيا مضمونة يصيبها عاجلا عند وصوله ، جارية على وفق غرضه حيث حل من نواحى الإسلام ، أو ليس ذلك بشرط بل تجب عليهم الهجرة من دار الكفر إلى دار

الإسلام، إلى حلو أو مر أو وسع أوضيق أوعسر أو يسر بالنسبة لأحوال الدنيا ، وإنما القصد بها سلامة الدين والأهل والولد ، والخروج من حكم الملة الكافرة إلى حكم الملة المسلمة، إلا ما شاء الله من حلو أو مر أوضيق عيش أو سعة ونحو ذلك من أحوال الدنيا .

وقد رد الفقيه المسئول ، وهو أحمد بن يحيي التلمسانى الونشريشى عن هذه المسائل بما خلاصته :

١ — ان الهجرة من أرض الكفر إلى أرض الإسلام فريضة إلى يوم القيامة ، وكذلك الهجرة من أرض الحرام والباطل . وهو يؤيد قوله بطائفة من الأحاديث النبوية .

٢ — ولا يُسقط هذه الهجرة الواجبة على هؤلاء الذين استولى الطاغية على معاقلهم وبلادهم ، ولا يتصور العجز عنها بكل وجه وحال ، لا الوطن ولا المال ، فإن ذلك كله ملغى فى نظر الشرع . وأما المستطيع بأى وجه كان وبأى حيلة تمكنت ، فهو غير معذور وظالم لنفسه إن أقام . والظالمون أنفسهم إنما هم التاركون للهجرة مع القدرة عليها حسبما تضمنه قوله تعالى : « ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ... » . والمعاقب عليه إنما هو من مات مصراً على هذه الإقامة.

٣ — وتحريم هذه الإقامة تحريم مقطوع به من الدين ، كتحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وقتل النفس بغير حق ... ومن جوّز هذه الإقامة واستخف أمرها، واستسهل حكمها فهو مارق من الدين ، ومفارق لجماعة المسلمين ، ومحجوج بما لا مدفع فيه لمسلم ، ومنبوذ بالإجماع الذى لا سبيل إلى مخالفته وخرق سبيله . قال زعيم الفقهاء القاضى أبو الوليد بن رشد رحمه الله فى أول «كتاب التجارة ، إلى أرض الحرب» ، من مقدماته : فرض الهجرة غير ساقط بل الهجرة باقية لا زمة إلى يوم القيامة ، وأجاب بإجماع المسلمين على من أسلم بدار الحرب أن لا يقيم بها حيث تجرى عليه أحكام المشركين ، وأن يهجره ويلحق بدار المسلمين حيث تجرى عليه أحكامهم .

٤ — ثم لما نبعت هذه الموالاة النصرانية فى المائة الخامسة وما بعدها من تاريخ الهجرة وقت استيلاء ملاعين النصارى دمرهم الله على جزيرة صقلية وبعض كور الأندلس ، سئل فيها بعض الفقهاء ، واستفهموا عن الأحكام الفقهية المتعلقة بمرتكبها ، فأجاب بأن أحكامهم جارية مع أحكام من أسلم ولم يهاجر ، وألحقوا

هؤلاء المسئول عنهم والسكوت عن حكمهم بهم ، وسووا بين الطائفتين فى الأحكام الفقهية المتعلقة بأموالهم وأولادهم ولم يروا فيها فرقاً بين الفريقين»[١].

على أن هذه الاعتبارات الدينية لم تحل دون بقاء طوائف كبيرة من المسلمين فى الأراضى التى يقتطعها النصارى تباعاً من الوطن الأندلسى . وكانت الإعتبارات الدنيوية ، وظروف الأسرة ، ودواعى العيش ، تغلب على كل الاعتبارات الأخرى. وكان تسامح النصارى فى البداية، وتركهم رعاياهم المسلمين ، يتمتعون بتطبيق شريعتهم وأحكام دينهم فيما بينهم حسبما تقدم ، يخفف عن أولئك المدجّنين مرارة الانسلاخ عن مجتمعهم القديم ، والانتماء إلى المجتمع النصرانى . وهكذا لبث المدجنون عصراً ، يتمتعون فى ظل الحكم الإسبانى بامتيازات كثيرة ، ويعيشون فى نوع من الأمن والدعة، بعيداً عن عصف الأهواء السياسية والقومية العنيفة . ولكن هذه الحال أخذت فى التبدل منذ اتسع نطاق الفتوحات النصرانية فى أراضى الأندلس ، وزاد بذلك عدد المدجنين فى مختلف المناطق المفتوحة . وكانت الكنيسة تبغض هذه الطوائف الإسلامية ، القائمة فى قلب المجتمع النصرانى ، وتنقم على المدجنين هذه الدعة وهذا التسامح ، وترى فى احتفاظهم بدينهم ولغتهم نوعاً من التحدى المذموم، وتأخذ على ملوك قشتالة وأراجون تسامحهم فى معاملتهم ، وتسعى جاهدة لتحريضهم على اتباع سياسة الإنتقام والعنف ، إزاء أولئك الرعايا المسلمين . ومنذ أوائل القرن الثالث عشر ، تتوالى أوامر البابوية وقراراتها ضد المدجنين ، والحض على استرقاقهم أوتنصيرهم، ومن ذلك ما أمر به البابا إنوسان الرابع فى سنة ١٢٤٨م ، ملك أراجون خايمى الأول من وجوب استرقاق المسلمين فى الجزائر الشرقية . ولكن خايمى لم يأبه لذلك الأمر . ولما فتح ثغر بلنسية فى سنة ٦٣٦هـ (١٢٣٨م) ، سمح للمسلمين أن يبقوا فيها كمدجنين . وكان ملوك قشتالة وأراجون يعارضون هذه السياسة العنيفة، لبواعث وأسباب تتعلق بمصالحهم القومية ورخاء بلادهم . ذلك لأن المدجنين كانوا بين رعاياهم، أفضل العناصر وأنشطها ،

---

(١) عنوان هذه الرسالة المخطوطة هو : «كتاب أسنى المتاجر فى بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر وما يترتب على ذلك من العقوبات والزواجر »، وهى تقع فى عشر لوحات مزدوجة وتوجد ضمن مجموعة مخطوطة لا عنوان لها ، وتحفظ بمكتبة دير الإسكوريال برقم ١٧٥٨ الغزيرى، وفى نهاية هذه المجموعة أنها كتب سنة ٨٩٦هـ (١٤٩٠م) . وقد قام بتحقيقها ونشرها أخيرا الدكتور حسين مؤنس ، وذلك فى مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد (المجلد الخامس ص ١٢٩ — ١٩١) .

وأكثرها دأبا ومثابرة ، وأوفرها تأدية للضرائب ، وكانوا ساعد النبلاء الأيمن فى زراعة أراضيهم واستغلالها . وكانوا يستأثرون بالتفوق فى العلوم والفنون والمهن . وكانوا أبرع الأطباء والمهندسين والبنائين . وكان لهم الفضل الأول ، فى إدخال محاصيل عديدة فى اسبانيا النصرانية ، مثل القصب والقطن والأرز والحرير والتين والبرتقال واللوز وغيرها ، وما زالت مشاريع الرى التى أنشأوها ، ولاسيما فى مناطق اسبانيا الشرقية والشمالية الشرقية تشهد بعبقريتهم فى هذا المضمار . وهم الذين وضعوا أسس الصناعة الإسبانية ، وكانوا أساتذة الصناعات الدقيقة ، وكانت صناعاتهم ولاسيما المنسوجات القطنية والحريرية ، والفخار والخزف والجلود ، نماذج بارعة تحذو حذوها الصناعة الأوربية ، فلم يك ثمة أشهر من خزف مالقة ، ولا أقمشة مرسية ، ولا حرير ألمرية وغرناطة ، ولا أسلحة طليطلة ، ولا منتجات قرطبة الجلدية . وكانت بلنسية التى تضم كتلة كبيرة من المدجنين ، تعتبر من أغنى ثغور أوربا بما تنتجه من السكر والنبيذ وغيرهما من المنتجات العديدة . وكان المدجنون مثال النشاط والدأب ، يزاولون التجارة بنجاح وشرف ، وكانوا أفضل التجار وأوفرهم أمانة ونزاهة ، ولم يكن بينهم متسولون إذ كانوا يعولون فقراءهم . وكانوا مثلا للنظام والسكينة ، يحسمون منازعاتهم بأنفسهم . وعلى الجملة فقد كانوا يؤلفون أصلح عنصر بين السكان الذين يمكن أن تحتويهم أى البلاد(١) .

ويلخص لنا المؤرخ الإسبانى خانير أحوال المدجنين فى عصور التسامح والتزمت معاً على النحو الآتى :

«كان ثمة معاهدات من كل ضرب ، تحترم بإخلاص فى سائر نقطها الجوهرية وتعتبر أساساً للحقوق والتعهدات المدنية للأندلسيين المدجنين ، ويختلف بعضها عن بعض ، سواء فى قشتالة أو أراجون ، وفقاً لتباين النقط التى تتعلق بالامتيازات المختلفة . فهنا مثلا تطبق بنوع من التوسع ، أو بروح يقل أو يكثر من الحرية أو التزمت ، وذلك وفقاً لما نصت عليه اتفاقات تُطيلة أوطرطوشة ، وقوانين قيجاطة أو عسقلونة ، أوقلعة أيوب أو طليطلة ، أوامتيازات بلنسية أو قرطبة أو إشبيلية ، أوامتيازات الثرى أو المزايا التى منحت للأحياء أو الضياع التى

(١) Dr. Lea : History of the Inquisition in Spain, V. II. p. 66, 67 ;
Dr. Lea : The Moriscos of Spain p. 57.

يسكنها كلها المسلمون . ومن أمثال التوسع والتسامح التى يقدمها إلينا التاريخ ، وهو واحد من عدة كثيرة ، الإمتياز الذى منحه خايمى الفاتح إلى مسلمى « وادى أوشو » ، بأن يسكنوا فيه ، وأن يقيلهم من الجرائم التى ارتكبت فيه ، والعقوبات التى وقعت بسببها ، ومن الديون التى عليهم لليهود ، وأن يستمروا فى تطبيق شريعتهم ، وأن يعلموا القرآن جهراً لأولادهم ، وأن يقوموا جهراً بسائر شعائرهم الإسلامية ، وأن يتعاملوا فى كل شىء داخل المنطقة كلها ، ويدفعوا الضرائب المعتادة ، باستثناء السنة الأولى حيث يعفون منها ، وأخيراً بأن يحكموا فى قضاياهم الخاصة ، وأن يقوموا بإدارة إيراد المساجد ، وتعيين القضاة والعلماء وفقاً لتقاليدهم القديمة ، ثم ولا يسمح لنصرانى أومتنصر أن يقيم بينهم دون إذن خاص منهم ، وأن يحصلوا على عهد بتأمين أنفسهم وأموالهم ، سواء بالنسبة لهم أوبالنسبة لأعقابهم ، وهم يتعهدون من جانبهم بأن يؤدوا العشور ، وأن يتعاونوا مع الدولة ومع باقى الرعايا من جيرانهم ، وألا يقتربوا مطلقاً من الأماكن التى توجد بها الحرب ، وألا يساعدوا أعداء ملوك أراجون .

بيد أنه كان ثمة طوائف أخرى من المدجنين أقل حظاً ، فى بعض القرى التى أخضعت لبعض الفروض ؛ ذلك أنه بالرغم من منحهم حرية التعبد ، وضمان أملاكهم ؛ فإنه نص مع ذلك على ألا يتخذوا الرقيق أو الخدم من النصارى ، وألا يأكلوا أو يستحموا مع النصارى ، وألا يقوموا بعلاجهم حال المرض ، وألا يدفنوهم فى مدافنهم ؛ كذلك حرم عليهم أن يقوموا علناً بشعائر دينهم ، وألا يتخذوا مسائل الدين المسيحى موضعاً للمناقشة . ويلاحظ ، أنه خلال هذه القيود العادلة التى كانت تقتضيها كرامتنا ، فى عصر كانت الحروب الدينية تلهب فيه حماسة الكافة ، أن حالة المدجنين كانت أفضل بكثير من حالة اليهود . وأن المدجنين قد استحقوا الثقة فى عهودهم . وقد كان المدجنون واليهود كلاهما يعاونون الدولة بدفع العشور من مواردهم ، وكان هذا مما يرضى العرش ، أو السادة ، أو الأحبار الذين يتبعونهم .

ونحن متى تدبرنا ذلك التنوع الذى يقدمه لنا التشريع النصرانى للجنس المغلوب خلال عصر الإسترداد ، يجب ألا نعتقد أننا نستطيع أن نكتشف نظاماً سياسياً معيناً ، يقصد إلى استغراق السكان المسلمين مباشرة ، سواء بالقوة أوبالمصانعة ، ويفضى تدريجياً إلى الوحدة ، التى حققت فى النهاية فى المملكة ، وكان واجباً أن

تحققها الأمة الإسبانية فى الدين كما تحققت فى شكل الحكومة . والواقع أنه إذا لم يكن ثمة نظام معين — كان من المستحيل تحقيقه أيام الاسترداد — فإنا نجد مع ذلك من خلال التعامل السلمى بين النصارى والمدجنين ، والحرية المطلقة فى التعبد ، ميولا واضحة للتوفيق قدر الإمكان بين الأجناس دون قوة ودون عنف . وهكذا فإنه مع ترك المساجد للمسلمين ، كان الظافرون يخصصون أحدها فقط ، وهو المسجد الجامع للعبادة النصرانية ، كما حدث فى جيّان وقرطبة وإشبيلية . ولنفس هذه الغاية أنشأ الفونسو العالم فى سنة ١٢٤٥م فى إشبيلية دراسات لاتينية وعربية، وأمر أن تُرفع بعض الضرائب عن الأشخاص الذين ينتظمون فى دراستها . ويكفى للتدليل على روح التسامح التى كانت سائدة بين الأمتين أن نذكر التحية التى أداها ملك غرناطة المسلم لذكرى وفاة سان فرناندو ، حيث أرسل فى سنة ١٢٦٠ م ، إلى الاحتفالات الدينية التى أقيمت بهذه المناسبة فى كتدرائية إشبيلية ، طائفة من الفرسان من حاشيته ، ومائة من المسلمين . حملوا فى أيديهم مع كثيرين آخرين شموعاً بيضاء . وفى خلال حرب غرناطة ، أيام الملكين الكاثوليكيين ، وهو عصر عظيم فى تاريخنا ، كانت فيه القسوة تمتزج بالبطولة ، سقطت أماكن كثيرة فى أيدى النصارى ، بفضل ما أبداه هذان الملكان من الكياسة والحكمة السياسية ، وما منحاه من ضروب الرحمة، والمنح الاخرى إلى المغلوبين ، الذين فتحوا أبوابهم طوعاً ، فى حين أنهم لو قاوموا حتى النهاية ، لفرض الأسر على السكان ، وبيعوا كالرقيق ، ولم يمنحوا عهداً ما »[1] .

وقد لبث ملوك قشتالة عصوراً يحرصون على الانتفاع بنشاط المدجنين وحمايتهم . ونستطيع أن نقول على ضوء الوثائق التى سبقت الإشارة إليها إنه كانت ثمة طوائف كبيرة منهم حتى القرن الخامس عشر ، تعيش فى أنحاء كثيرة من اسبانيا النصرانية محتفظة بدينها ولغتها وتقاليدها[2] . وكانت البابوية تسير على خطتها ، من التحريض

---

(١) Florecio Janer : Condición Social de los Moriscos de Espana (Madrid 1857) p. 13 & 14..

(٢) نشر المستشرق ديرنبور صورة وثيقة عربية إسبانية مؤرخة فى سنة ١٣١٢ م بعنوان : Une Charte Hispano-Arabe de l'année 1312 ، وقد عقدت بين جماعة من المدجنين المقيمين بناڤار وبين رئيس مستشفى يوحان دىأورشليم النصرانى . وفيها تبين حقوق كل طرف وواجباته . ومما رتب فيها على المدجنين « أن تعطوا للاشبطال Hospital المذكور الثلث من كل ما تجمعوا من طعام ومن عنب ومن زيتون ومن فول ، ومن كل نوع من كل ماتجمعوا من كل فاكهة . وهذا =

عليهم والمطالبة بتجريدهم من دينهم ، والعمل على تنصيرهم بطريق الاضطهاد والعنف ، وتردد الكنيسة الإسبانية من جانبها هذا التحريض . ولكن هذه السياسة الباغية لم تحدث أثرها إلا ببطىء ، ولم يتسع نطاقها إلا فى أواخر القرن الخامس عشر عندما أشرفت الدولة الإسلامية فى غرناطة على نهايتها . وكان قيام مملكة غرناطة فى ذاته ، عنصراً من عناصر تكييف السياسة الإسبانية إزاء المدجنين . ذلك أن ملوك اسبانيا فوق ماكان يحدوهم من رغبة المحافظة على مصالحهم وسكينة بلادهم بإيثار الرفق فى معاملة المدجنين ، كانوا أيضاً يخشون سياسة الانتقام من النصارى المقيمين فى غرناطة ، وفيما وراء البحر فى بلاد المغرب ، بل وفى الممالك الإسلامية الأخرى مثل مصر وتركيا . على أن العوامل الاجتماعية والمحلية كانت من جهة أخرى تحدث أثرها فى مجتمع المدجنين. ذلك أنه بالرغم من جميع الفوارق التى كانت تفصل بينهم وبين النصارى ، فقد جنح الكثير منهم إلى التشبه بجيرانهم ، وانتهوا بمضى الزمن وأثر الاختلاط والتزاوج إلى فقد دينهم ولغتهم ، ومميزاتهم الجنسية والقومية ، والاندماج شيئاً فشيئاً فى المجتمع الذى يعيشون فيه ؛ وهكذا أصبحوا بالتدريج قشتاليين ونصارى ، وأضحى علماؤهم يكتبون كتب الدين والشريعة بالقشتالية

= كله أن يعملوه فى عهد وميثاق وصدق . وكل مسلم أن يحبس دارونار فى أسران المذكور أن يقدم لقائد أسران الذى يكون على الاشبطال المذكور ربع من قمح ، النصافة من قمح والنصافة من شعير فى شهر أغشت من كل عام طول الأبد ، وكل دار أن يعطى للاشبطال المذكور أربعة مرافق من تين فى كل عام ، وكل عامر مسلم ومسلمين فى الموضع المذكور أى يعملوا كل نفقة أن يحتاج فى الموضع المذكور .. »
ثم تقول الوثيقة :

« أن يطبخوا المسلمين المذكورة خبزهم فى فرن الإشبطال المذكور عن دايم الدهر ، وأن يعطوا من ستة عشر خبزة واحدة ، ولا يقطعوا أشجار ، ولا يقلعوا كرمان دون أمر قائد أسران ..

« يكون جميع خصماتكم لحكه (أى القمندور) وإن كان تريدوا تعملوا عند حكه ارتفاع (استئناف) أن تعملوا أمام كل قاضى أن يكون مسلم من تطيلة كما هو سنتكم وشرعتكم ، وأن تكونوا أجسامكم وأموالكم ملتزمة للاشبطال المذكور ، وذلك بشرط أن لا يكون لأحد منكم أن يخرج من الموضع المذكور ، وكل واحد منكم لا يبيع ولا يرهن ميراث الاشبطال لنصرانى أو يهودى .

ونص فى نهاية الوثيقة أنها ختمت بخاتم دون بطره غرسيس ملك نبره (ناڤار) ، وأرخت فى الثامن عشر من فبراير سنة أحد عشر وسبعمائة هجرية وهى توافق سنة ١٣١١ م . ووقعها من المدجنين سبعة منهم موسى الليل المجتى والمراتب بن وليد وعيسى بن موسى ولب يا رس دريس . ووضعت أصولها الإسبانية فوق كل عبارة عربية .

ويبدو من مضمون هذه الوثيقة العربية الإسبانية ومن ركاكتها أن المدجنين فى هذه المنطقة من ناڤار كانوا اقل احتفاظاً بلغتهم وامتيازاتهم وأنهم كانوا قد بدأوا يومئذ يفقدون كيانهم الاجتماعى وامتيازاتهم القديمة .

للرجوع إليها . وقام أيضاً بين المدجنين أدب قشتالى ، استمر عصوراً حتى بعد إخراج العرب المتنصرين من اسبانيا[١] . على أن المدجنين لبثوا بالرغم من هذا الاندماج الاجتماعى تطبعهم مسحة خاصة تباعد بينهم وبين المجتمع النصرانى القديم[٢].

كان نظائر هؤلاء الأندلسيين المدجنين ، جمهرة من النصارى الإسبان يعيشون فى القواعد والثغور الإسلامية ، ويعرفون بالنصارى المعاهدين أو المستعربين (وبالإسبانية Mozárabes) . وقد لبثوا عصوراً يتمتعون فى ظل الحكم الإسلامى بضروب الرعاية والتسامح . وكانت الحكومات الأندلسية ، حتى فى أزهى عصورها ، تحافظ على سياسة التسامح التى اتبعت إزاءهم منذ الفتح ، وتعاملهم بالرفق ، وتحترم شعائرهم الدينية وتقاليدهم القومية ، وتجانب أية محاولة لإرغامهم على اعتناق الإسلام . وكان من ضروب هذه الرعاية ، أن أنشىء فى ظل حكومة قرطبة منذ عهد الحكم بن هشام ، ديوان خاص للنظر فى شئون أهل الذمة (النصارى واليهود) ، يتولاه كبير من الأحبار النصارى يطلق عليه « قومس أهل الذمة » . وهكذا استطاعوا دائماً أن يحتفظوا بدينهم ولغتهم ، ومميزاتهم القومية والاجتماعية. وكانت حال النصارى فى ظل الحكم الإسلامى ، أفضل بكثير مما كانت عليه أيام القوط ، وكثيراً ما كان يعهد إليهم بمناصب القيادة والوزارة ، أو ينتظمون فى البلاط والحرس الملكى . ومع ذلك فقد كانت منهم دائماً طوائف متعصبة تسىء استعمال هذا التسامح ، وتحاول بمختلف الوسائل أن تكيد للإسلام ودولته ومن ذلك ماحدث فى عهد عبد الرحمن بن الحكم (أواسط القرن التاسع الميلادى) من الحوادث الدموية التى أثارها تعصب النصارى[٣]. وهكذا فإن النصارى المعاهدين ، لم يشعروا دائماً بالولاء والإخلاص للدولة الإسلامية . التى يعيشون فى ظلها ، والتى توليهم كثيراً من رعايتها ورفقها ، وكانوا دائماً يتربصون بها ، وينتهزون الفرص لمناوأتها والكيد لها ، ويستعدون عليها الوطن القديم ، كلما اضطربت شئونها . وعصفت بها عواصف الثورة والحرب الأهلية . وكانت أعظم

---

(١) المقصود هنا أدب الألخميادو **Aljamiado** وهو عبارة عن كتابة اللغة القشتالية المحرفة بحروف عربية مشكلة . وكان العرب المتنصرون يضطرون إلى كتابة كتبهم الدينية بهذه اللغة بعد أن حرمت عليهم لغتهم العربية ، وسنعود إلى التحدث عن ذلك فيما بعد .

(٢) **Dr. Lea : History of the Inquisition, V. I. p. 65**

(٣) راجع كتابى « دولة الإسلام فى الأندلس » (الطبعة الثالثة) العصر الأول ص ٢٦٤ — ٢٧٠ .

خيانة ارتكبوها من هذا النوع ، فى أواخر أيام المرابطين ، حينما دعوا ألفونسو الأول ملك أراجون الملقب بالمحارب عقب استيلائه على سرقسطة ، إلى أن يسير إلى غزو الأندلس ، بعد ما لاح من انحلال سلطان المرابطين فيها ، واستجاب ملك أراجون لتحريضهم ، وسار مخترقاً الأندلس بجيوشه ، والنصارى المعاهدون فى كل قاعدة ينهضون إلى معاونته بوسائلهم ، وذلك فى سنة ٥١٩ هـ (١١٢٥م) ، حتى انتهى إلى فحص غرناطة وحاصرها حيناً ، ثم غادرها إلى الجنوب ، ونشب القتال بينه وبين المرابطين فهزمهم . ولبث حيناً يعيث فى تلك الأنحاء ، والنصارى المعاهدون يهرعون إلى شد أزره ، ويمدونه بالأقوات والمؤن . ثم عاد ثانية إلى اختراق الأندلس إلى أراجون ، وقد انضم إلى جيشه آلاف من النصارى المعاهدين. ولفتت هذه الغزوة أنظار المسلمين إلى خطر بقاء أولئك المعاهدين فى الثغور والقواعد الأندلسية ، فانقلبت الحكومة الإسلامية إلى مطاردتهم ، وأفتى القاضى أبو الوليد ابن رشد الجد بإدانتهم فى نقض العهد والخروج على الذمة ، ووجوب تغريبهم وإجلائهم عن الأندلس ، وأخذ أمير المرابطين على بن يوسف بهذه الفتوى ، وغربت ألوف من النصارى المعاهدين إلى إفريقية ، وفرقوا هنالك فى أماكن مختلفة ، وهلك الكثير منهم بسبب الطقس وتغير وسائل التغذية ، وضم السلطان كثيراً منهم إلى حرسه الخاص ، وكانت هذه المحنة سبباً فى تمزيق عصبتهم وإضعاف شوكتهم[١].

وقد كان مجتمع المستعربين أو النصارى المعاهدين ، حتى فى القواعد الأندلسية التى سقطت فى يد اسبانيا النصرانية ، وبسط عليها النصارى حكمهم ، يتأثر بمجتمع المدجنين ، وبأحواله وتقاليده ، حتى أنهم كانوا يتخذون اللغة العربية لغة التعامل ، ولغة التخاطب أحياناً ، إلى جانب لسانهم القومى . وقد قمنا بدراسة مجموعة من الوثائق العربية المحفوظة بدار المحفوظات التاريخية بمدريد ، والمنقولة اليها من ديرسان كليمنتى بطليطلة ، وهى مجموعة ضخمة ، كلها عقود تعامل من بيع وشراء وهبة وإيجار ووصية وغيرها ، ومعظمها مكتوب فى القرن الثالث عشر الميلادى ، وبعضها فى القرن الثانى عشر . وهى محررة على الأغلب بين المستعربين وأحياناً بينهم وبين المدجنين ، بأسلوب عربى لا بأس به ، وكلها تستهل بالبسملة مقرونة أحياناً بعبارة « وبه نستعين » أو « الحمد لله وحده » ، وعلى كثير منها شهود مسلمون

---

(١) راجع الإحاطة ج ١ ص ١١٥ و ١٢٠ ؛ والحلل الموشية ص ٧٠ و ٨١ : ؛ . وراجع كتابى « عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس » القسم الأول — ص ١٠٨ — ١١٢ .

مدجنون إلى جانب الشهود النصارى ، ومما يلفت النظر أن أسماء المستعربين النصرانية قد عربت فيها تعريباً حسناً ، وإليك ملخص لبعض ما جاء فيها :

(١) من ذلك وثيقة مؤرخة فى « شهر دجنبر من عام سبعة وثمانين ومائة وألف من تاريخ الصفر » (١١٨٧ م) وبمقتضاها « باعت الراهبة دونة بويابيه وأختها كرشتينة بنتى تمام الرطلى ومرتين ودمنغة إبنى بشتة بنت تمام الرطلى ومرية ولوقاذة بنتى دمنغة بنت تمام الرطلى من دون رد ريق مينوس ومن زوجته دونه سسيلية نصف الضيعة المعلومة لتمام الرطلى بقرية دليش مالمزنوفه من عمل طليطلة حرسها الله وذلك سهم ونصف والحنان كله الذى فيه البير إذ تبقت عواضه البيوت المعلومة لتمام المذكور بالقرية المذكورة .. بثمن عدته عشرون مثقالا ونصف ذهباً مرابطية دفع المبتاعان بجميع الثمن إلى البائعين وقبضوه منهما ... » وعلى الوثيقة أسماء شهود مدجنين مثل دمنغة بن عبد العزيز ، واشتامن بن حسان ، وشهود من النصارى .

(٢) ووثيقة مؤرخة فى شهر « أغشت من سنة ثلاث وسبعين ومائة وألف لتاريخ الصفر » (١١٧٣ م) بمقتضاها « اشترى الوزير دون ميقايال بيطس أعزه الله من بهلول وأخيه بيطرة ابنى مرتين بن بهلول رحمه الله جميع الدار الكبيرة ، والقرال المتصل بها من جهة الغرب والقبلاريسة المتصلة بها أيضاً من جهة القبلة حدود جميع ذلك كله فى الشرق الطريق السالك وإليه يشرع الباب ، وفى الغرب دار ابن طورينه المسلم أمين الفخارين ، وفى القبلة دار بيطرة البنا بن بهلول ، وفى الجوف دار تبقت بيد البائعين ، ودارسلمة بن حسان ... بثمن عدته ثمانون مثقال ذهباً مرابطية... » وتحمل الوثيقة أسماء عدة شهود مسلمين مثل عبد الله ابن داود ، وعامر بن تمام ، وعلى بن عياش .

(٣) ووثيقة مؤرخة فى « العشر الآخر من شهر أكتوبر سنة خمس وأربعين ومايتين وألف للصفر » بمقتضاها « اشترى الوزير دون شانجه شقورة الفرايلى أدام الله عزته من دون خوان دمنغة بن الصباغ ومن زوجته دونة مرية بنت تيان بيطر من جميع الكرم الكبير الذى لها بحومة خندق عقرون من أحواز مدينة طليطلة حرسها الله ، وحده فى الشرق كرم لورثة دون أندراش البرجمانس وفى الغرب مخدع سالك من نهر تاجه إلى الحقل وفى القبلة أرض بنضل للدون فرننذة بن بوارى عبد الملك وفى الجوف كرم كان للوزير المتشرف أبى عمر بن جوفار

ومنزل الآن للقاضي دون يليان اقمانس ... والثمن مبلغه وعدته ستون مثقالا ذهباً من الذهب الأذفونشي الضرب دفع المبتاع المذكور جميع الثمن للبايعين المذكورين وقبضاه منه ... وخلص بذلك للمبتاع المذكور ملك جميع المبيع الموصوف... الخ» وعلى الوثيقة شهود مسلمون ونصارى .

ونحن نكتفي بإيراد ما تقدم من هذه الوثائق . وهذه العقود تدلى بكثير من من الحقائق التاريخية ، فمنها يستدل أولا على أنه كانت توجد بطليطلة حتى أواخر القرن الثالث عشر ، أقلية مسلمة هامة من المدجنين. ونحن نعرف أن طليطلة سقطت فى أيدى النصارى منذ سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) . ومنها نعرف الكثير عن خطط طليطلة فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر للميلاد ، ومنسوب أثمان العقارات ، ونوع العملة المستعملة فى التعامل ، وفيها ما يدل بوضوح على توثق أواصر المودة والتفاهم بين المدجنين والنصارى[١] .

على أن الكثرة الغالبة من المسلمين فى القواعد الأندلسية الذاهبة ، كانت تؤثر الالتجاء إلى أرض الإسلام والتشبث بلواء الدولة الإسلامية . وهكذا أخذت مملكة غرناطة ، تموج منذ أواسط القرن السابع الهجرى بسيول الوافدين عليها ، من بلنسية ومرسية وقرطبة وإشبيلية وجيان وبياسة وغيرها ، وهكذا غدت المملكة الصغيرة تضيق بسكانها المسلمين ، بعد أن احتشدت بقايا الأمة الأندلسية المتداعية فى تلك المنطقة الضيقة . ومن المرجح أن مملكة غرناطة كانت تضم فى عصورها الأخيرة ، زهاء خمسة أو ستة ملايين من الأنفس ، وكانت غرناطة وحدها تضم أكثر من نصف مليون نفس ، وقد كانت هذه الهجرة الغامرة من مختلف القواعد الأندلسية فى الشرق والغرب ، إلى ذلك الوطن الأندلسى الجديد ، تضفى على التكوين العنصرى لسكان مملكة غرناطة طابعاً خاصاً . وبالرغم من أن العناصر الأساسية التى تتكون منها الأمة الأندلسية ، وهى العرب والبربر والمولدون — وهم أعقاب الإسبان الذين أسلموا منذ الفتح — لبثت على كر العصور

---

(١) تحفظ هذه الوثائق فى قسم **Archivos Historicos** الملحق بالمكتبة الوطنية بمدريد . وقد نشر معظم وثائق هذه المجموعة المستشرق الإسبانى الكبير كونثالث بالنثيا **Gonzalez Palencia** مقرونة بترجمته الإسبانية فى أربعة مجلدات كبيرة تحت عنوان **Los Mozárabes de Toledo en los Siglos XII y XIII (Madrid 1926-1930)** ونشرت مقتطفات منها فى **P.Boigues : Escrituras Mozárabes Toledanas**

بسم الله الرحمن الرحيم

وثيقة مستعربية **Mozárabe** من مجموعة ديرسا ن كلميمنتى بطليطلة ، وهى عبارة عن عقد شراء مؤرخ فى شهر «أغشت» سنة ١١٧٣م ، وقدوقع عليها شهود مسلمون مدجنون إلى جانب المتعاقدين النصارى

دون تغيير ، فانه يلاحظ أن الجموع الوافدة على المملكة الإسلامية الجديدة ، كانت تضم كثيراً من العناصر التى صقلتها حضارة أرقى ، ومن ثم فإنه يمكن القول بأن الأمة الأندلسية الجديدة ، كانت تمثل أطيب وأثمن ما بقى من القيم العنصرية والحضارية للأندلس القديمة .

وكان المولدون يمثلون فى المجتمع الأندلسى الجديد مثولا قوياً . وكان أولئك المولدون قد نموا بمضى الزمن حتى غدوا عنصراً هاماً بين سكان الأمة الأندلسية . وكان العرب والبربر ينظرون إليهم بشىء من الريب . وكانوا بالرغم من تمتعهم فى ظل الحكومات الإسلامية المتعاقبة بنفس الحقوق التى يتمتع بها باقى المسلمين ، ينزعون إلى الثورة فى أحيان كثيرة ، وقد كان لهم شأن يذكر ، فى إضرام بعض الثورات الخطيرة التى اضطرمت ضد حكومة قرطبة ، مثل ثورة الربض ، وثورة طليطلة أيام الحكم بن هشام ، وثورة بنى قسىّ فى الثغر الأعلى ، وقد كان جدهم الكونت قسىّ قوطياً نصرانياً . وكان المولدون أعوان ابن حفصون أعظم وأخطر ثوار الأندلس ، وهو الذى استطاع بمؤازرتهم ومؤازرة النصارى المعاهدين ، أن ينشئ مدى حين مملكة مستقلة فى منطقة رندة (أواخر القرن التاسع الميلادى) . وكان ابن حفصون مولداً يرجع إلى أصل نصرانى . على أن المولدين كان لهم موقف آخر ضد الغزاة القادمين من إفريقية . فقد وقفوا إلى جانب مواطنيهم الأندلسيين ضد المرابطين ثم الموحدين ، وكان عماد الثورة ضد المرابطين فى غربى الأندلس زعيم من المولدين هو الفقيه المتصوف أحمد بن قسىّ شيخ المريدين ، وكان زعيم الثورة ضد الموحدين فى شرقى الأندلس زعيم من المولدين هو محمد بن سعد بن مردنيش أمير بلنسية ومرسية . وكان يتحدث القشتالية ويلبس الملابس الإفرنجية ، ويحشد فى جيشه كثيراً من الضباط والجند النصارى[1] . ولم يكن للعاطفة الدينية فى تلك العصور وفى تلك الظروف دائماً كبير أثر ، بل كانت تغلب فى معظم الأحيان عواطف القومية والمصلحة الخاصة . ويبدو ذلك بنوع خاص فى سياسة زعيم مثل ابن مردنيش كانت سياسته تقوم على مصادقة النصارى ، والاستعانة بهم على تنفيذ خططه[2] . كذلك كان يمثل بين سكان غرناطة أقلية يهودية قوية ، معظمهم من طائفة « السفرديم » القديمة أو اليهود الإسبان . وكان لليهود فى ظل معظم

---

(١) الإحاطة ج ٢ ص ٨٧ .

(٢) Dr. Lea : History of the Inquisition, V. I. p. 50

الحكومات الإسلامية نفوذ يذكر . وكان منهم أعلام فى العلوم والآداب مثل الرئيس موسى بن ميمون القرطبى ، الذى غادر الأندلس إلى المشرق فى أواسط القرن السادس الهجرى ، فراراً من اضطهاد الموحدين ، وكان لهم مثل هذا النفوذ فى مملكة غرناطة ، ومنهم معظم أطباء البلاط والخاصة .

وكانت العروبة تغلب على السكان المدنيين فى مملكة غرناطة ، ولاسيما بعد أن نزح اليها على أثر سقوط القواعد الأندلسية فى أيدى النصارى ، كثير من سادة البطون العربية القديمة . ويذكر لنا ابن الخطيب عشرات من الأنساب العربية العريقة التى كان ينتمى اليها أهل غرناطة . بيد أنها كانت عروبة من نوع خاص ، صقلتها الأمة الأندلسية ، وأضفت عليها طابعها وألوانها الخاصة . ويصف ابن الخطيب الغرناطيين بوسامة الوجوه ، واعتدال القدود ، وسواد الشعر ، ونضرة اللون ، وإناقة الملبس ، وحسن الطاعة والإباء ، يتحدثون بعربية فصيحة تغلب عليها الإمالة . ويصف نساءهم بالجمال والرشاقة والسحر ، ونبل الخلال ، ولكنه ينعى عليهن المبالغة فى التفنن فى الزينة والتبهرج فى عصره . أما الجند فكانت فيهم كثرة ظاهرة من البربر ، ولا سيما من قبائل زنانة ومغراوة وبنى مرين . ويرجع ذلك إلى أن طوائف البربر التى تخلفت منذ عهد المرابطين والموحدين بالأندلس ، كان أغلبها من الجند ؛ وقد بقيت على عهدها تؤثر الجندية على الزراعة والمهن والفنون المدنية(١) .

وهكذا كان الشعب الأندلسى حين آذنت شمسه بالمغيب ، كما كان يوم مجده ، يتكون من هذا المزيج العربى الإفريقى الإسبانى الذى أطلق عليه الغربيون عبارة « عرب الأندلس » أو « مسلمى الأندلس »(٢) .

وكانت الأمة الأندلسية تتمتع حتى فى عصورها الأخيرة بحضارة زاهرة ، كانت مثار التقدير والإعجاب فى سائر الأمم الأوربية ، وكان يحج إلى معاهدها العلمية كثير من الطلاب من مختلف أنحاء أوربا .

وكان الشعب الغرناطى من أهل السنة يدين بمذهب مالك ، وهو المذهب الذى غلب على الأمة الأندلسية منذ أواخر القرن الثانى الهجرى ، أعنى منذ عصر هشام بن عبد الرحمن الداخل ، ولم تتأثر غرناطة فى نزعتها المذهبية ولا تقاليدها الدينية السمحة ، بما توالى عليها من سيادة المرابطين والموحدين حيناً من الدهر .

---

(١) راجع الإحاطة فى أخبار غرناطة (القاهرة ١٩٥٦) ج ١ ص ١٤٠ — ١٤٥ ؛ واللمحة البدرية ، ص ٢٧ و٢٨ .

(٢) وهى بالإسبانية **Los Moros** ، وبالإنجليزية **The Moors** ، وبالفرنسية **Les Maures**

الفصل الرابع

طبيعة الصراع بين الأندلس واسبانيا النصرانية

المعركة الخالدة بين الأندلس واسبانيا النصرانية . تضاؤل قوة الأندلس . قيام مملكة غرناطة . مرحلة جديدة فى الصراع. طبيعة هذا الصراع . العوامل القومية والدينية. نزعة الجهاد عند المسلمين . النزعة الصليبية عند النصارى . قيام الجماعات الدينية المحاربة فى اسبانيا . ضعف العامل الدينى فى بداية النضال . السيد الكمبيادور . المرتزقة النصارى فى الجيوش الإسلامية . التجاء الأمراء النصارى إلى حماية الملوك المسلمين . زواج الأمراء المسلمين بنساء من النصارى . ابن مردنيش . التحالف بين المسلمين والنصارى . التعاون بينهما أيام السلم. الفروسية وعلائق المودة . طبيعة حرب الإسترداد . صبغتها الدينية فى مراحلها الأخيرة.

يبدأ بقيام مملكة غرناطة فوق أنقاض الدولة الإسلامية الكبرى فى اسبانيا ، طور جديد من أطوار الصراع الخالد بين الأندلس واسبانيا النصرانية ، أو بعبارة أخرى طور جديد فيما يمكن أن نسميه فى تلك المرحلة المتأخرة من تاريخ الأندلس حرب الإسترداد القومية .

وقد بدأت اسبانيا النصرانية حرب الاسترداد القومية **La Reconquista** منذ منتصف القرن الخامس الهجرى ، أعنى حينما انهارت الدولة الإسلامية القوية ، وانتثرت إلى عدة دويلات صغيرة متنافسة هى دول الطوائف . وبلغت الأندلس أيام الطوائف من التفرق والضعف مبلغاً عظيما ، حتى لاح لاسبانيا النصرانية أن عهد الدولة الإسلامية أوشك على الزوال ، وأن الفرصة قد سنحت لتضرب ضربتها الحاسمة . وكانت مملكة قشتالة تتزعم اسبانيا النصرانية ، وتقودها فى ميدان الصراع مع المسلمين ، وكان ملكها أيام الطوائف ألفونسو السادس ، يعمل بذكاء لاستغلال منافسة الدول الإسلامية وتفرق كلمتها ، ويغلب أميراً على أمير ، حتى انتهى بالاستيلاء على مدينة طليطلة من يد صاحبها يحيى بن ذى النون ، وذلك فى صفر سنة ٤٧٨ هـ (مايو سنة ١٠٨٥ م) . وكانت طليطلة أول قاعدة إسلامية عظيمة تسقط فى يد اسبانيا النصرانية . ويعتبر بعض الباحثين سقوطها ختام مرحلة التفوق السياسى الذى احتفظت به الدولة الإسلامية فى شبه الجزيرة منذ الفتح ، وبدأ مرحلة التفوق السياسى لإسبانيا النصرانية[1] وعلى أى حال فقد كان سقوط

---

(١) **Isidro de las Cagigas : Los Mudéjares, p. 45**

ظليطلة نذيراً خطيراً للأمة الأندلسية ، يذكرها بقوة العدو المتربص بها ، ويحذرها عاقبة التنابذ والتفرق ، فاجتمعت كلمة أمراء الطوائف يومئذ على الاستعانة بإخوانهم فيما وراء البحر ، فى عدوة المغرب . وكان المرابطون يومئذ قد بسطوا سلطانهم على سائر بلاد المغرب ، وبدت دولتهم قوية شامخة ، فاستجاب زعيمهم يوسف بن تاشفين إلى صريخ الأندلس، وعبر البحر بقواته إلى الأندلس . وكانت هزيمة اسبانيا النصرانية على يد جيوش المغرب والأندلس فى موقعة الزلاّقة (٤٧٩ هـ — ١٠٨٦م) فاتحة حياة جديدة للأمة الأندلسية . وبالرغم من أن المرابطين استولوا على الأندلس بعد ذلك بأعوام قلائل وبسطوا حكمهم عليها ، فقد استمد الإسلام فى اسبانيا من قوتهم قوة جديدة ، وعاد الصراع الخالد بين الدولة الإسلامية وبين اسبانيا النصرانية ، يضطرم فى نوع من تكافوء القوى . ولما اضمحل سلطان المرابطين فى الأندلس بعد ذلك بنحو ستين عاماً ، وخلفهم الموحدون فى ملك المغرب والأندلس ؛ لبثت الدولة الإسلامية حقبة أخرى فى شبه الجزيرة عزيزة قوية الجانب نوعاً ، وإن كانت قد فقدت فى تلك الفترة بعض قواعدها التالدة ، مثل سَرقُسطة التى سقطت فى يد النصارى سنة ٥١٢ (١١١٨ م) وبقية قواعد الثغر الأعلى التى سقطت بعد ذلك بفترة قصيرة . وأحرز الإسلام للمرة الثانية على النصرانية نصراً حاسماً فى موقعة الأرك الشهيرة ، التى انتصرت فيها جيوش يعقوب المنصور خليفة الموحدين على جيوش ألفونسو الثامن ملك قشتالة (٥٩٣هـ — ١١٩٥م) ، وانكمشت اسبانيا النصرانية مدى حين ، ولكنها عادت فاجتمعت كلمتها تحت لواء ألفونسو الثامن ، وسارت الجيوش النصرانية المتحدة إلى لقاء المسلمين بقيادة خليفة الموحدين محمد الناصر ولد يعقوب المنصور ، وأصيب المسلمون فى موقعة العقاب بهزيمة فادحة (٦٠٩ هـ — ١٢١٢ م) وأخذ سلطان الموحدين فى الأندلس يتداعى من ذلك الحين ، وبدأ مصير الأندلس يهتز فى يد القدر ، وبدت اسبانيا النصرانية يومئذ فى أوج سلطانها وقوتها . ولم تمض فترة وجيزة أخرى حتى بدأت قواعد الأندلس العظيمة ، تسقط تباعاً فى يد النصارى : قرطبة (٦٣٣هـ) فبلنسية (٦٣٦ هـ) فمرسية (٦٤١هـ) فشاطبة ودانية (٦٤٤ هـ) فإشبيلية (٦٤٦ هـ) . وهكذا سقطت عدة من قواعد الأندلس التالدة ومنها عاصمة الخلافة القديمة فى يد اسبانيا النصرانية فى مدى عشرة أعوام فقط ، ولقيت الأندلس أعظم محنها فى تلك الفترة العصيبة ، ولاح لاسبانيا

النصرانية ان حرب الإسترداد القومية لن تلبث حتى تتوج فى أعوام قلائل أخرى، بالقضاء على ما بقى من تراث الإسلام فى الأندلس .

ولكن شاء القدر أن تتمخض هذه المحنة ، التى غمرت الأندلس فى أوائل القرن السابع الهجرى ، عن قيام مملكة إسلامية جديدة هى مملكة غرناطة ، تتمتع بالرغم من صغرها بكثير من عناصر الفتوة والحيوية . وفى الوقت الذى خيل فيه لاسبانيا النصرانية أنها أضحت على وشك الإجهاز على المملكة الإسلامية ، كانت بذور صراع مرير طويل الأمد تنمو وتتوطد ، وإذا بالنهاية المرجوة تستحيل إلى بداية جديدة . ولقد استطالت هذه المرحلة الأخيرة من حرب الاسترداد زهاء مائتين وخمسين عاماً ، صمدت فيها المملكة الإسلامية لهجمات اسبانيا النصرانية المستمرة ، وعملت على استغلال كل فرصة للمطاولة والمقاومة ، وأبدت فى النضال على صغر رقعتها وضآلة مواردها ، بسالة عجيبة . وكانت كلما شعرت بالخطر الداهم يكاد ينقض عليها ويودى بحياتها ، استغاثت بجارتها المسلمة من وراء البحر ، أو عصفت باسبانيا النصرانية ريح الخلاف والتفرق فشغلتها عن إرهاق المملكة الإسلامية حيناً ، حتى شاء القدر بعد طول النضال أن تنتهى هذه المعركة القاسية الطويلة إلى نهايتها المحتومة ، وأن تنهار المملكة الإسلامية الصغيرة أمام ضغط القوة القاهرة ، وأن تختتم حياتها المجيدة أبية كريمة .

وهنا يجدر بنا أن نحاول أن نلقى شيئاً من الضياء ، على طبيعة هذا النضال ، الذى استمر قروناً بين الأمة الأندلسية وبين اسبانيا النصرانية ، وإلى أى حد كانت تحدوه العوامل القومية أو الدينية .

كانت العوامل القومية والدينية ، تمتزج بأدوار هذا النضال فى معظم أطواره، وكانت تشتد حيناً وتخبو حيناً تبعاً لتطور الحوادث . ولما افتتح العرب اسبانيا ، وسيطرت الدولة الإسلامية على معظم أنحائها ، قامت المملكة الإسبانية النصرانية الناشئة فى قاصية الشمال ، ترقب الفرص للتوطد والتوسع . بيد أنها لم تجرؤ على تحدى المملكة الإسلامية والنزول إلى ميدان النضال قبل أواخر القرن التاسع ، ففى ذلك الحين اضطرمت الأندلس بالفتن والثورات الداخلية ، وشغلت حكومة قرطبة بأمر الثوار والنواحى . وكانت غزوات النصارى للأراضى الإسلامية يومئذ غزوات عيث يغلب عليها حب الانتقام والغنم . ولم يكن يطبعها شىء من تلك الروح الدينية العميقة ، التى جمعت أوربا النصرانية تحت لواء كارل مارتل

لمحاربة العرب على ضفاف اللوار ، والتى حفزت شارلمان فيما بعد إلى عبور جبال البرنيه وغزو الأندلس أيام عبد الرحمن الداخل . غير أنه لما اشتد ساعد الأندلس أيام عبد الرحمن الناصر (أوائل القرن العاشر الميلادى) وظهرت المملكة الإسلامية فى أوج قوتها وظفرها ، ونفذت الجيوش الإسلامية غير مرة إلى أعماق المملكة النصرانية ، وشعر النصارى بالخطر الداهم على كيانهم ، أخذت العوامل الدينية والقومية تستيقظ من سباتها ، واتحدت المملكتان النصرانيتان ليون وناقار (نبرة) على مقاومة الخطر الإسلامى . وكانت المعارك التى نشبت فى تلك الفترة فى عهد أردونيو الثانى وولده راميرو بين المسلمين والنصارى ، تحلوها من الجانبين ، فوق نزعتها القومية ، نزعة دينية واضحة ؛ فكانت غزوات المسلمين تحمل طابع الجهاد ، ويهرع أهل الثغور إلى مرافقة الجيش لمقاتلة النصارى ، وكان يرافق الجند النصارى إلى القتال جموع غفيرة من الأحبار ورجال الدين ، يسقطون إلى جانب الفرسان فى ساحة الوغى . وكانت هذه الصبغة القومية الدينية تبدو كلما اشتد الخطر من الجنوب على اسبانيا النصرانية . فنى أواخر القرن العاشر فى عهد الحاجب المنصور ، حينما اشتدت وطأة الأندلس على اسبانيا النصرانية ، وغزا المسلمون أقصى وأمنع معاقلها الشمالية ، اتحدت الممالك النصرانية الثلاثة ليون وقشتالة وناقار ضد المسلمين فى جبهة دفاعية موحدة ؛ وبدت كذلك موحدة الرأى والقوى ، حينما عبرت جموع البربر إلى الأندلس تحت لواء المرابطين ، لتنقذ الأندلس من خطر الفناء الذى كان يهددها ، من جراء تفرق ملوك الطوائف . وكانت موقعة الزلاّقة تحمل فى نظر المسلمين طابع الجهاد فى سبيل الله ، وتطبعها فى نظر النصارى صبغة صليبية واضحة ، ولم يكن نصر الزلاّقة نصراً للأندلس على خصيمتها اسبانيا فقط ، ولكنه كان نصر الإسلام على النصرانية أيضاً . وكذا كان نصر الموحدين فى موقعة الأرك ، ثم هزيمتهم بعد ذلك فى موقعة العقاب ، يحمل كلاهما من الجانبين هذا الطابع الدينى العميق . ويجب أن نذكر أن الحروب الصليبية ، قد بدأت فى المشرق بعد موقعة الزلاّقة بقليل ، واستمرت تضطرم بين المسلمين والنصارى فى مصر والشأم زهاء قرنين ، وبلغت ذروتها أيام الملك الناصر صلاح الدين معاصر الخليفة يعقوب المنصور الظافر فى معركة الأرك . ولم يك ثمة شك فى أن النزعة الصليبية التى دفعت بجحافل الغرب إلى الشرق الإسلامى ، كانت تحدث صداها قوياً فى اسبانيا النصرانية وفى الغرب الإسلامى.

وفى الوقت الذى كانت جيوش الصليبيين تحاول فيه أن تغزو مصر حصن الإسلام فى المشرق ، فى أوائل القرن السابع الهجرى ، كانت قواعد الأندلس الكبيرة تسقط فى أيدى النصارى ، وكانت اسبانيا النصرانية تبدو يومئذ إزاء الأندلس ، موحدة الرأى والقوى ، كما كانت الجيوش الأوربية الصليبية تسير إلى المشرق متحدة لتحقيق الغرض المشترك .

وقد ظهر صدى النزعة الصليبية فى اسبانيا فى شكل آخر ، هو قيام الجماعات الدينية المحاربة . ونحن نعرف أن جماعات الفرسان الدينية قامت فى المشرق فى ظل الصليبيين ، واشتهر منهم بالأخص جماعة فرسان المعبد أو « الداوية » كما تسميهم الرواية العربية ، وفرسان القديس يوحنا أو الأسبتارية . وكانت هذه الجماعات الدينية المحاربة ، تشد أزر الأمراء النصارى وتؤدى للصليبيين أثناء الحرب والسلم خدمات جليلة . وكما أن قيامها فى المشرق كان أثراً من آثار المعارك الصليبية ، فكذلك كان قيامها فى اسبانيا أثراً من آثار النضال بين اسبانيا النصرانية وبين اسبانيا المسلمة . ذلك أن بعض الفرسان والرهبان الورعين المتحمسين ، كان يحزنهم تفرق الملوك النصارى وتخاذلم أحياناً فى مقاتلة المسلمين ، وكانوا يرون أنه لابد من قيام جماعات غيورة مخلصة من الفرسان، تنذر نفسها للدفاع عن الدين وعن الأراضى النصرانية . وكانت قدوتهم فى ذلك جماعات المسلمين من أهل الثغور والمرابطة ، فقد كانت هذه الجماعات المجاهدة التى ترابط عند حدود الأراضى الإسلامية ، تبدى فى محاربة النصارى بسالة منقطعة النظير ، وتؤدى للجيوش الإسلامية أجل الخدمات . فلما أنشئت جماعة فرسان المعبد (الداوية) فى بيت المقدس سنة ١١١٩ م عقب قيام المملكة اللاتينية بقليل ، كان لقيامها صدى عظيم فى اسبانيا ، ولم تمض أعوام قلائل حتى قامت أول جمعية محاربة دينية فى أراجون فى عهد ألفونسو المحارب ، فى صورة فرع لجماعة فرسان المعبد ، وأبدى ألفونسو فى تأييدها حماسة ، وانتظم فى سلكها الكونت ريمون برنجار أمير برشلونة ، وأقطعت عدة حصون وأراض شاسعة على حدود أراجون ، كما احتلت عدداً من الحصون فى قشتالة ، ونمت بسرعة وأخذت تضطلع من ذلك الحين بدور هام فى سائر المواقع التى تنشب بين النصارى والمسلمين .

وقامت فى قشتالة بعد ذلك بقليل أعظم الجمعيات الدينية المحاربة ، فى أواخر

عصر القيصر ألفونسو ريمونديس أو ألفونسو السابع[1] ملك قشتالة ، قامت حول سنة ١١٥٠ م جمعية فرسان دينية قوية فى بعض أديار منطقة شلمنقة ؛ وسميت بجمعية القديس يوليان ، ثم سميت بعد ذلك بجمعية فرسان القنطرة . وفى سنة ١١٥٨م قامت جمعية دينية محاربة أخرى ، ربما كانت أشهر وأقوى جماعات الفرسان التى ظهرت فى اسبانيا فى هذا العصر ، وهى جمعية « فرسان قلعة رباح » ، ونشأت لأول أمرها على يد بعض الرهبان الورعين المتحمسين الذين عملوا على حشد الجند النصارى للتطوع للدفاع عن تلك القلعة الحصينة ضد المسلمين ، واتخذت قلعة رباح مركزاً لها[2] . وقامت أيضاً فى البرتغال عدة فروع لفرسان المعبد (الداوية) وفرسان القديس يوحنا (الأسبتارية) . وظهرت هذه الجمعيات الدينية المحاربة ولاسيما فرسان القنطرة وفرسان قلعة رباح فى كثير من المعارك ، التى نشبت فى تلك العصور بين المسلمين والنصارى ، وكان تدخلهم فى كثير من الأحيان من عوامل النصر والإنقاذ للجيوش النصرانية ، بيد أنهم بالرغم من صفتهم الدينية والصليبية كانت تحدوهم بواعث وأطماع دنيوية ، وكان ظمأ الكسب واجتناء المغانم روحهم المسيرة ، وكانوا يسيطرون على قلاع كثيرة وأراض واسعة ، ويعيشون فى بذخ وترف ، بما يحصلون عليه من الإقطاعات والهبات والنذور الوفيرة ، وكان تدخلهم فى شئون السياسة والعرش يشتد أحياناً ، ويفضى إلى أحداث وتطورات خطيرة .

كانت اسبانيا النصرانية حينما بدأت حرب الإسترداد الحقيقية **La Reconquista** فى أواسط القرن الثالث عشر ، عقب سقوط القواعد الأندلسية الكبيرة ، تجيش إلى جانب نزعتها القومية بهذه النزعة الصليبية الواضحة . على أنه يمكن القول أن ظهور هذه النزعة القومية والدينية العميقة فى حروب اسبانيا النصرانية مع المسلمين ، لم يكن ملحوظاً بصورة واضحة ، حينما كان التفوق فى القوة لإسبانيا المسلمة أيام الدولة الأموية ، وحينما كان ثمة نوع من توازن القوى السياسية والعسكرية بين الأندلس واسبانيا النصرانية أيام المرابطين والموحدين وتدل حوادث التاريخ الأندلسى حتى أواخر القرن الثانى عشر على أن التعصب

---

(١) **Alfonso Raimundez** وتعرفه الرواية الإسلامية باسم أدفنش بن رمند أو السليطين

(٢) تناولنا قيام الجماعات الدينية النصرانية ، ونشأة جمعية فرسان قلعة رباح تفصيلا فى « عصر المرابطين والموحدين » القسم الأول ص ٥١٨ — ٥٢٠ .

القومى أو الدينى لم يكن دائماً ظاهرة بارزة ، فى حروب المسلمين والنصارى. فقد كان الفريقان المتحاربان على وجه العموم يحترم بعضهم بعضاً ، وكان التعصب الدينى قاصراً على جماعات الفقهاء من ناحية ، وعلى القساوسة والأحبار من جهة أخرى ؛ ويوصف المسلمون فى الأناشيد الإسبانية القديمة بأنهم خصوم شرفاء ، ولا يجيش النصارى نحوهم ببغض أكثر مما كان يجيش به المسلمون أنفسهم ، بعضهم نحو بعض فى الحروب الأهلية التى كانت تنشب فيما بينهم[1] . يقول العلامة دوزى : « إن الفارس الإسبانى فى العصور الوسطى لم يكن يحارب من أجل دينه أو وطنه ، بل كان مثل « السيِّد » يحارب لكسب عيشه ، سواء فى ظل أمير مسلم أو أمير نصرانى . ولقد كان « السيد » نفسه أقرب إلى روح المسلم منه إلى الكاثوليكى»[2]. وفى حياة السيد الكمبيادور (الكنبيطور)[3] نفسه أوضح مثل لاتجاهات الفروسة الإسبانية فى تلك العصور ، فقد نشأ السيد وظهر فى كنف أمير مسلم ، وتقلب فى خدمة الأمراء المسلمين والنصارى على السواء ، بل لقد خدم الأمراء المسلمين أكثر مما خدم الأمراء النصارى ، ولو لم يمت وهو فى خدمة الجانب النصرانى لما حفلت به الأساطير الإسبانية ، ورفعته إلى مرتبة البطل القومى[4]. وفى أحيان كثيرة نرى المرتزقة من الفرسان والجند النصارى يعملون فى الجيوش الإسلامية . وفى مواطن عديدة من تاريخ اسبانيا النصرانية ، نرى الملوك والأمراء النصارى خلال الحروب الأهلية يلوذون بحماية الأمراء المسلمين . فقد لجأ سانشو ملك ليون إلى حماية عبد الرحمن الناصر حينما استأثر أخوه أردونيو بالملك دونه ، ولجأ ألفونسو السادس ملك قشتالة إلى حماية المأمون بن ذى النون

---

(١) Dr. Lea : History of the Inquisition in Spain ; V. I..p. 51.

(٢) Dozy : Recherches sur l'Histoire et Littérature de l'Espagne pendant le moyen âge ; V. II. p. 208 & 233.

(٣) وبالإسبانية El Cid Campeador ؛ ومعناها « السيد الباسل جداً » .

(٤) يختلف تقدير التفكير الغربى للسيد الكمبيادور ومنزلته من البطولة ، فيرى دوزى فى كتابه (Le Cid) أنه ليس سوى جندى مغامر يجمع فى شخصه من رذائل عصره أكثر مما يجمع من فضائله ويجاريه فى هذا الرأى معاصره العلامة الفرنسى رينان ، ويقول « إنه لم يفقد بطل بخروجه من حيز الأسطورة إلى حيز التاريخ كما فقد السيد » . ولكن العلامة الإسبانى المعاصر الأستاذ منندث بيدال يخالف هذا الرأى ، ويبالغ فى تقديره السيد ، ويقول « إن الشعر والتاريخ يتفقان فى شأنه ، وأنه بالعكس لا يوجد بطل ملاحم أكثر لمعاناً فى ظل التاريخ » . R.M.Pidal : La Espana del Cid ; Vol. II.p. 594

أمير طليطلة ، حينما تغلب عليه أخوه سانشو الثانى وعاش فى بلاطه حتى توفى أخوه ؛ فلما ارتقى عرش قشتالة كان أعظم مشاريعه أن ينتزع طليطلة من يد القادر بن ذى النون ولد المحسن إليه . وفى سنة ٩٩٠ م قدم برمودو (برمند) الثانى أخته زوجة لحاكم طليطلة المسلم . ولم يكن زواج الأمراء المسلمين من الأميرات والعقائل النصارى أمراً نادراً . وربما كان تاريخ بلنسية فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر أسطع مثل لهذا الامتزاج والتفاهم بين الفريقين المتحاربين ، ففيه يكثر التحالف بين المسلمين والنصارى ولاسيما أيام « السيد » وبعدها . وقد كان أمير بلنسية فى أواخر عهد المرابطين وأوائل عهد الموحدين محمد بن سعد المعروف بابن مردنيش ينتمى حسبما قدمنا إلى أسرة من المولدين أعنى من أصل نصرانى ، وكان يرتدى الثياب القشتالية ، ويعتمد فى جيشه على الضباط والجند النصارى . ولم يحجم أمراء المرابطين فى الأندلس حينما انهارت دولتهم فى المغرب ، وبدأ الموحدون فى انتزاع الأندلس من أيديهم ، عن الإستعانة بألفونسو ريمونديس ملك قشتالة وحليفه غرسية ملك ناقار على محاربة الموحدين . وهذا ما فعله بالأخص الأمير يحيى بن غانية آخر زعماء المرابطين بالأندلس حينما استعان بالقيصر ألفونسو السابع على الاحتفاظ برياسته لقرطبة . وهذا ما فعله أيضاً الخليفة الموحدى أبو العلاء المأمون حينما اتفق مع فرناندو الثالث ملك قشتالة ، على معاونته بفرقة من الفرسان النصارى يستعين بها على استرداد العرش من خصومه . ولم ينقطع هذا التعاون بين المسلمين والنصارى حتى بعد أن بدأت مرحلة الإسترداد الأخيرة ؛ فقد كان مؤسس مملكة غرناطة محمد بن الأحمر فى بداية أمره ، ينضوى حسبما رأينا تحت حماية ملك قشتالة ، ويتعهد بمعاونته فى حروبه ضد خصومه من المسلمين والنصارى . ونجد من الجانب الآخر أمراء النصارى ، يلوذون من وقت إلى آخر بحماية المسلمين حتى فى ذلك العصر الذى تضاءلت فيه المملكة الإسلامية ، فنرى الإنفانت فيليب حينما ثار على أخيه الملك ألفونسو العاشر ، يلتجىء مع جماعة من النبلاء إلى حماية السلطان أبى يوسف المنصور المرينى ملك المغرب ، ويستقرون ضيوفاً فى بلاط غرناطة ، حتى انتهى ملك قشتالة إلى مصالحتهم واسترضائهم (١٢٧٠ م) . وفى سنة ١٢٨٢ م اضطر ألفونسو العاشر نفسه حينما ثار عليه ولده سانشو وانتزع منه العرش ، إلى الاستعانة بالسلطان أبى يوسف ، وأرسل إليه تاجه مقابل ما ينفقه على معاونته ، فاستجاب إليه وأمده بالمال والجند . وفى سنة ١٣٣٢ م ثار حاكم

« الفرنتيرة » النصرانى ضد مليكه ألفونسو الحادى عشر ، وتحالف مع سلطان غرناطة وعاون بذلك فى رد النصارى عن جبل طارق ، وكانوا على وشك الاستيلاء عليه . ولما نشبت الثورة ضد ولده پيدرو القاسي (دون بطره) ونزع عن عرشه ، ونشبت بينه وبين خصومه موقعة مونتيل الفاصلة سنة ١٣٦٧ م ، كان إلى جانبه فرقة من الفرسان المسلمين ، أمده بها حليفه الغنى بالله ملك غرناطة[١] . وهكذا كان التعاون السياسى والحربى يجرى بين الفريقين من آونة إلى أخرى ، حتى فى تلك العصور التى مال فيها نجم الأندلس إلى الأفول ، ولم تكن تحول دون عقده عوامل القومية أو الدين ؛ وكانت العلائق التجارية أيام السلم تجرى بانتظام ، وتنظم بمعاهدات ودية بين الفريقين ، ومن ذلك معاهدة الصداقة والتحالف التى عقدها محمد بن يوسف ملك غرناطة مع مرتين ملك أراجون لتنظيم العلائق والمبادلات الحرة ، وتنظيم التحالف السياسى بين المملكتين (سنة ١٤٠٥ م)[٢] .

هذا ويجب ألا ننسى ، ماكان هنالك من علائق المودة والتفاهم بين جماعات الفرسان من الفريقين ، وقد كانت الفروسية الإسبانية فى العصور الوسطى تقتبس كثيراً من تقاليد الفروسية الإسلامية وخلالها الرفيعة ، وتنظر إليها بعين التقدير والاحترام . وكانت مباريات الفروسية تجمع بين أنبل الفرسان من الجانبين ، وكثيراً ماكانت تعقد فى العاصمة الإسلامية فى جو من العطف والحماسة ، ويهرع إلى شهودها ألوف من المسلمين والنصارى ؛ وكانت هذه الاجتماعات المثالية البهجة التى تجمع بين العنصرين الخصيمين ، أبعد ما يكون عن الاعتبارات القومية والدينية ، وقد كانت غرناطة التى اشتهرت بفروسيتها النبيلة البارعة ، مسرحاً لكثير من هذه المباريات الشهيرة .

تلك هى الصورة المتباينة ، التى تقدمها إلينا معركة السلطان والقوة ، ومعركة الحياة والموت ، والحرية والاستعباد ، بين الأندلس واسبانيا النصرانية . ذلك أن بواعث الدين والقومية ، لم تكن دائماً كل شىء ، فى هذا الصراع المضطرم الطويل الأمد . ومع ذلك فقد كانت النزعة الدينية أو الصليبية ، تبدو كلما لاح شبح الخطر الداهم على كيان أحد الفريقين ، أو كلما اتخذ النضال بين الفريقين صبغة حاسمة . ولما شعرت اسبانيا النصرانية أنها أضحت بعد الاستيلاء على القواعد

---

(١) سوف نعود إلى تفصيل هذه الحوادث فى مواضعها بعد .

(٢) Dr. Lea: History of the Inquisition ; V. I. p. 52-55

الأندلسية الكبيرة ، وتضاؤل المملكة الإسلامية ، فى مركز التفوق والغلبة ، لم يكن ثمة ما يدعو لأن تتخذ حروب الإسترداد التى تلت بعد ذلك ، بين اسبانيا النصرانية وبين مملكة غرناطة ، ألوانا دينية أو قومية عميقة . ذلك أن معركة السلطان قد بت فيها نهائيا بظفر اسبانيا النصرانية، وأضحى القضاء على الأندلس مسألة وقت فقط . وكانت اسبانيا النصرانية كلما حاولت أن تتعجل تحقيق هذه الغاية القومية الخطيرة ، عاقتها المنازعات والثورات الداخلية ، أو ردها تدخل الدولة الإسلامية القوية فيما وراء البحر . على أنه ماكاد يبدو تفكك المملكة الإسلامية قويا واضحاً ، وماكادت حرب الإسترداد تدخل فى طورها الأخير ، حتى بدت النزعة القومية والدينية واضحة قوية ، فى جهود اسبانيا النصرانية للقضاء على مملكة غرناطة . ولما اتحدت اسبانيا النصرانية نهائيا ، وتم اندماجها فى مملكة موحدة بزواج فرناندو ملك أراجون وإسابيلا ملكة قشتالة ، اتخذت حروب غرناطة الأخيرة لوناً صليبياً عميقاً ، يذكيها ويزيد فى ضرامها حماسة هذه الملكة الورعة المتعصبة ، ومن حولها الأحبار المتعصبون ، وأسبغ على فرناندو لقب « الكاثوليكى » وعلى إسابيلا لقب « الكاثوليكية » ، وكان أول عمل قام به الجند القشتاليون حينما دخلوا غرناطة فى الثانى من يناير سنة ١٤٩٢ ، أن رفعوا الصليب فوق أبراج الحمراء ، ورفعوا إلى جانب علم قشتالة علم القديس ياقب ، وأقام الرهبان القداس داخل قصر الحمراء ، ودفنت الملكة إسابيلا وزوجها الملك فرناندو فى كتدرائية غرناطة التى أقيمت فوق أنقاض المسجد الجامع ، تنويهاً بظفرهما على الإسلام . وكانت سياسة اسبانيا النصرانية إزاء الأمة الأندلسية المغلوبة ، منذ إكراهها على التنصير فى عصر فرناندو حتى مأساة النفى النهائى فى عصر فيليب الثالث ، تقوم على بواعث دينية وصليبية محضة ، يصوغها ويمليها أحبار الكنيسة ، ويدعمها ديوان التحقيق بقضائه الكنسى المروع ووسائله الدموية ؛ وعلى الجملة فقد كانت جهود اسبانيا النصرانية فى القضاء على الأمة الأندلسية ، تمثل منذ بدايتها إلى نهايتها مأساة من أروع وأشنع مآسى التعصب الدينى والقومى التى عرفها التاريخ .

وتلك المأساة التى استطالت منذ قيام مملكة غرناطة زهاء مائتين وخمسين عاماً هى التى نستعرض حوادثها وظروفها فيما يلى من فصول هذا الكتاب .

الفصل الخامس

تاريخ اسبانيا النصرانية

منذ أوائل القرن الحادى عشر حتى قيام مملكة غرناطة

انقسام اسبانيا النصرانية فى القرن الحادى عشر . تنافس الإمارات النصرانية . القضاء على مملكة نافار وعودها . اتحاد قطلونية وأراجون . الممالك النصرانية خلال القرن الثانى عشر . تنافسها وتنابذها. اجتماع كلمتها فى الصراع ضد المسلمين . قشتالة وأراجون . القيصر الفونسو ريمونديس . تحالف قشتالة وأراجون ضد نافار . احتفاؤها كمملكة مستقلة . فرناندو الثالث ملك قشتالة . اندماج مملكة ليون فى قشتالة . غزو فرناندو الثالث للأراضى الإسلامية . استيلاؤه على أبدة وقرطبة ومرسية . غزوه لأراضى ابن الأحمر . استيلاؤه على إشبيلية . وفاته وتلقيبه بالمقدس . مملكة أراجون . ملكها خايمى . غزوه للجزائر الشرقية . استيلاؤه على ميورقة . حصاره لبلنسية وسقوطها . استيلاؤه على دانية . وفاته وتلقيبه بالفاتح.

— ١ —

لما انهارت الدولة الإسلامية الكبرى بالأندلس ، فى أوائل القرن الحادى عشر الميلادى ، وانتثرت إلى عدة دول وإمارات صغيرة متنافسة هى دول الطوائف ، كانت اسبانيا النصرانية تجوز حالة مماثلة من تعدد الإمارات والدول ، وإن لم تبلغ ما بلغته اسبانيا المسلمة من الإنقسام والتفرق . والحقيقة أن اسبانيا النصرانية كانت قد اتحدت فى أوائل القرن الحادى عشر تحت سلطان ملك قوى ، هو سانشو الثالث الملقب بسانشو الكبير (شانجُه) ملك نافار (نبرّة أو بلاد البشكنس)، وكانت المملكة النصرانية تمتد يومئذ ، من جبال البرنيه شرقاً إلى شانت ياقب غرباً ، ومن خليج بسكونية شمالا إلى نهر دويرة جنوباً . فلما توفى سانشو فى سنة ١٠٣٥ م ، قسمت مملكته الكبيرة بين أولاده الأربعة ، فاختص ولده فرناندو بقشتالة وغرسية بنافار ؛ وحكم راميرو رقعة ضيقة تمتد جنوباً بشرق باسم مملكة أراجون ، فكان هذا مولد هذه المملكة النصرانية التى نمت بسرعة ولعبت فيما بعد أعظم دور فى تاريخ النضال بين اسبانيا المسلمة واسبانيا النصرانية . وحكم ولده الرابع كونثالو ولاية سوبرابى فى أواسط البرنيه . وأما مملكة ليون وجليقية فى الغرب فكان يحكمها صهره برمودو الثالث . وكانت تقوم ثمة فى الشرق على

شاطىء البحر إمارة قطلونية المستقلة ويحكمها آل برنجير[١] . وهكذا انقسمت المملكة النصرانية إلى عدة وحدات متنافسة . وكان من حسن طالع المسلمين أن يقع هذا الإنقسام ، فى الوقت الذى انهارت فيه الدولة الإسلامية الكبرى ، وتقاسمت أشلاءها دول الطوائف الضعيفة ، وبذا قام مدى حين نوع من التوازن بين القوتين المتداعيتين. على أنه بينما استمرت الأندلس فريسة الإضطراب والتفرق، إذا باسبانيا النصرانية تسير بخطوات متعاقبة فى سبيل الإتحاد والتوطد . ومع أن هذه الخطوات لم تكن دائماً ثابتة الأثر ، فإنها كانت تعمل بمضى الزمن على توحيد قوى الممالك النصرانية لمواجهة العدو المشترك أعنى اسبانيا المسلمة . وكانت قشتالة تعمل باستمرار لضم مملكة ليون اليها ، وقد نجحت غير مرة فى تحقيق مشروعها بالعنف لمدى قصير . وكانت أراجون تتوق إلى ضم إمارة قطلونية التى كانت تحجبها عن البحر ، وكانت المملكتان تعملان معاً للقضاء على مملكة ناڤار الصغيرة ، وقد ائتمرتا بالفعل على اقتسامها بالعنف ، فاستولت قشتالة على القسم المحاذى لنهر إيبرو ، واستولت أراجون على القسم الواقع على جبال البرنيه ، وبذلك اختفت مملكة ناڤار مدى حين (١٠٧٦م) . ولكن هذه المملكة الصغيرة الباسلة عادت فاستردت استقلالها بعد ذلك بنحو ستين عاماً . وذلك أنه حينما توفى ألفونسو المحارب ملك أراجون وتولى الملك مكانه أخوه الراهب راميرو سنة ١١٣٤ م ، رفع الناڤاريون على العرش أميراً من سلالة ملوكهم القدماء هو غرسية راميرس ، وانفصلت ناڤار بذلك عن أراجون وقشتالة ، واستأنفت حياتها المستقلة حقبة أخرى. ولكن أراجون وقطلونية أتيح لهما أن يتحدا غير بعيد فى مملكة موحدة ، وذلك أن ريمون برنجير أمير قطلونية تزوج بترونلا ابنة راميرو ملك أراجون ، ولما توفى راميرو دون عقب تولى ريمون برنجير أيضاً ملك أراجون واتحدت المملكتان تحت تاج واحد ، وقامت مملكة أراجون الكبيرة من ذلك الحين (١١٣٧م)[٢]

كانت الممالك الإسبانية النصرانية خلال القرن الثانى عشر خمساً ، هى قشتالة

(١) سبق أن فصلنا تاريخ إمارة قطلونية وحكامها من آل برنجير ، فى كتابنا «عصر المرابطين والموحدين» — القسم الأول — ص ٤٩٩ — ٥٠٢ .

(١) ذكرنا تفاصيل اتحاد قطلونية وأراجون فى «عصر المرابطين والموحدين» — القسم الأول ص ٤٩٨ و ٥١٠ .

وليون وأراجون وناڤار والبرتغال ، وكانت البرتغال قبل ذلك ولاية من ولايات جليقية أو إمارة تخضع لها ، ولم تفز باستقلالها إلا فى منتصف القرن الثانى عشر ، فى عهد أول ملوكها المستقلين ألفونسو هنريكيز (١) . وكانت هذه الممالك النصرانية الخمس دائمة الخلاف والتنافس ؛ هذا فضلا عما كان يعانيه كل منها من الثورات والحروب الداخلية حول وراثة العرش . بيد أن هذه الممالك المتنافسة ، كانت تجتمع دائماً تحت علم واحد هو علم النضال ضد اسبانيا المسلمة ، فنرى جيوشها تجتمع متحدة فى موقعة الزلاّقة للقاء الجيوش الإسلامية المتحدة (٤٧٩هـ —١٠٨٦م) . وبالرغم من أن جيوش قشتالة بقيادة ألفونسو الثامن ، لقيت بمفردها جيوش الموحدين بقيادة يعقوب المنصور فى موقعة الأرك الشهيرة (٥٩٣هـ — ١١٩٥م) ، وهى التى ظفر الموحدون فيها بالنصر الباهر ، فإنه لم تمض خمسة عشر عاما أخرى ، حتى عادت اسبانيا النصرانية تشعر كلها بشعور واحد ، هو شعور الخطر المشترك إزاء العدو المشترك . ومن ثم فإنه لما نشبت موقعة العقاب (٦٠٩هـ — ١٢١٢ م) وهى ثالثة المواقع العظيمة الحاسمة بين الإسلام والنصرانية فى اسبانيا منذ الزلاقة ، اجتمعت جيوش الممالك الاسبانية النصرانية كلها — قشتالة وأراجون وناڤار — فى قواتهم ، ومعهم أمداد كبيرة من ليون ومن البرتغال ، للقاء الجيوش الموحدية بقيادة محمد الناصر ولد يعقوب المنصور ، وفيها أصيب المسلمون بهزيمة مروعة ، كانت بدء الإنحلال العام فى قوى الموحدين وقوى الأندلس . وهكذا كانت اسبانيا النصرانية تبدو إزاء اسبانيا المسلمة ، كلما جدّ الخطر ، موحدة الرأى والقوى . على أن الممالك النصرانية كانت تشعر فوق ذلك ، أن هذا التقسيم الجغرافى المتعدد يفت فى قواها ، ولا يلائم مصالحها القومية . وكانت قشتالة وجارتها الشرقية أراجون ، هما أقوى الممالك النصرانية وأكبرهما رقعة ، وكانت كلتاهما تطمح إلى التوسع وضم ما يليها من أراضى الممالك الصغرى ، فكانت أراجون تطمح بعد انضمام قطلونية إليها ، إلى انتزاع ولايات ناڤار المجاورة لها ، وكانت قشتالة تطمح إلى ضم قرينتها وجارتها القديمة ليون ، وإلى انتزاع ما بقى من ولايات ناڤار المجاورة لها ، وهى ولايات البشكنس؛ وكانت إمارة البرتغال

---

(٢) تحدثنا تفصيلا عن قيام مملكة البرتغال وملكها ألفونسو هنريكيز فى « عصر المرابطين والموحدين » القسم الأول — ص ٥٢١ — ٥٢٨ . ويعرف الفونسو هنريكيز فى الرواية العربية ، بابن الرنق أو ابن الرنك تحريفاً لهنريكيز أو إنريكى الإسبانية .

الصغيرة الناشئة تدافع عن كيانها واستقلالها بصعوبة ، خلال هذه الأطماع المضطرمة ، وقد استطاع ملك قشتالة القوى ألفونسو ريموندس (١١١٧ — ١١٥٧ م) الذى تلقب بالقيصر ، أن يبسط على اسبانيا النصرانية فى أواخر حكمه حماية عامة ، على أنه لم يحكم بالفعل سوى قشتالة وليون وجليّقية .

وفى أواخر القرن الثانى عشر ، عادت الحرب الأهلية تعصف بالممالك النصرانية ، وتضطرم بين ناڤار وبين قشتالة وأراجون . ونراها تضطرم عقب موقعة الأرك ، بين قشتالة وبين ناڤار وليون المتحالفين على قتالها . وكانت ناڤار المملكة الصغيرة الباسلة تدافع عن استقلالها إزاء أطماع جيرانها الأقوياء دفاعاً متواصلا ، ولاسيما فى عهد ملكها سانشو السابع آخر ملوكها الأقوياء ، وكان سانشو ينظر إلى تحالف جارتيه قشتالة وأراجون بعين الجزع ، ويستشعر منه الخطر الداهم على ملكه واستقلال أمته ، ولم يكتف بالتحالف مع ليون وهى المملكة الصغيرة الأخرى التى تخشى على استقلالها من أطماع قشتالة ، بل حاول أن يستمد عون سلطان خليفة الموحدين الظافر يعقوب المنصور ، وأن يعقد معه محالفة دفاعية ، وسار فى بطانته إلى إشبيلية يحاول لقاءه ، ولكن الخليفة المنصور كان قد توفى فى ذلك الحين. ولما عاد سانشو ألفى جاريه القويين پيدرو الأول ملك أراجون وألفونسو الثامن ملك قشتالة ، قد انقضا فى غيابه على ناڤار يحاولان اقتسامها ؛ وبالرغم مما أبداه الناڤاريون من الدفاع الباسل فقد استطاع ألفونسو أن ينتزع ولايات بسكونية وأن يضمها إلى مملكته (سنة ١٢٠٠ م) ، واستطاع پيدرو أن ينتزع بعض الأراضى المجاورة لأراجون ، ولم يبق من مملكة ناڤار القديمة سوى جزئها الشمالى . ولم تمض فترة قصيرة أخرى حتى ذهب هذا الجزء إلى حوزة حكام فرنسا الجنوبيين بطريق المصاهرة والوراثة (١٢٣٤ م) . وبذلك اختفت هذه المملكة الصغيرة الباسلة من بين ممالك اسبانيا النصرانية .

ولم يمض قليل على ذلك حتى اختفت مملكة ليون القديمة ، جارة قشتالة من الغرب . وذلك أنه لما توفى ألفونسو الثامن (النبيل) ملك قشتالة فى سنة ١٢١٤م ، خلفه ولده الطفل هنرى ، وكانت كبرى بناته الأميرة برنجريا قد تزوجت بألفونسو التاسع ملك ليون ، ثم طلقت منه بعد أن رزقت بعدة أولاد أكبرهم فرناندو . وثار فى قشتالة مدى حين نزاع على وصاية الملك الطفل هنرى ، ثم توفى قبل أن يبلغ رشده قتيلا فى حادث . وكان ألفونسو النبيل قد قرر فى وصيته أنه إذا انقرض

عقبه من الذكور ، فإن العرش يؤول عندئذ إلى ابنته الكبرى برنجيريا ثم إلى أعقابها الشرعيين ، وهكذا قدر لفرناندو ولد برنجيريا من ألفونسو التاسع ملك ليون ، أن يرقى عرش قشتالة باسم فرناندو الثالث ، وهو الذى غدا فيما بعد من أعظم ملوك قشتالة . ولما توفى أبوه ألفونسو التاسع ملك ليون وجليقية فى سنة ١٢٣٠م ، خلفه أيضاً فى ملك ليون باعتباره وارث العرش الشرعى ، وبذلك اتحدت مملكتا قشتالة وليون تحت تاج واحد ، واختفت مملكة ليون وجليقية القديمة من عداد الممالك الإسبانية النصرانية ، وأضحت قشتالة بهذا الاتحاد أقوى الممالك الإسبانية ، وأوسعها رقعة وأغناها موارد ، واستطاع فرناندو الثالث بفضله أن يحرز التفوق على المسلمين ، وأن يفتتح قواعد الأندلس العظيمة قرطبة وجيان وإشبيلية ، وهى التى عجز عن افتتاحها جميع أسلافه من الملوك النصارى .

وهكذا غدت الممالك الإسبانية النصرانية منذ أوائل القرن الثالث عشر ، ثلاثا فقط ، هى قشتالة وأراجون والبرتغال ؛ وبينما قنعت البرتغال بالعمل على توطيد استقلالها وافتتاح الأراضى الإسلامية الواقعة فى جنوبها ، وهى التى تعرف بولاية الغرب ، إذا بقشتالة وأراجون تعملان معا للمضى فى تحقيق الغاية القومية والدينية الكبرى ، التى تعمل لها اسبانيا النصرانية منذ قرون ، وهى القضاء على الدولة الإسلامية بالأندلس واستخلاص تراث الوطن القديم .

— ٢ —

فى الوقت الذى انهارت فيه دولة الموحدين بالأندلس ، على أثر انهيارها فى المغرب ، وملك ابن هود مرسية وشرق الأندلس ، وغلب ابن الأحمر على بعض القواعد الجنوبية والوسطى ، مثل وادى آش وبسطة وجيان ، وغلب بعض الزعماء على إشبيلية وقواعد ولاية الغرب ، وأخذ هؤلاء الزعماء المسلمون يتربص بعضهم ببعض ويحاول كل منهم أن ينتزع ما فى يد الآخر من القواعد والحصون : شعرت مملكة قشتالة المتحدة القوية بأن الفرصة قد سنحت لتسديد ضربتها المميتة إلى الأندلس وبادر ملكها فرناندو الثالث بغزو الأراضى الإسلامية . وكانت معظم القواعد والحصون المتاخمة لقشتالة دون دفاع يذكر ، فافتتح عدداً من الحصون واستولى على مدينة أُبّدة فى سنة ١٢٣٢م (٦٣١هـ) . وفى أوائل سنة ١٢٣٣ م سار فرناندو لغزو قرطبة عاصمة الخلافة القديمة ، وكانت أثناء الحرب الأهلية قد انضوت تحت لواء ابن هود ونادت بطاعته ، وهاجم القشتاليون قصبتها الشرقية بشدة ، وضربوا

الأندلس بعد الانهيار
مملكة غرناطة
والممالك النصرانية الإسبانية
فى القرن الرابع عشر

خليج بسكونيه
فرنسا
جبال البرنيه
شنتياقب
جليقية
ليون
برغش
بنبلونه
نبرة
برشتر
وشقه
نطيلة
إفراغة
سرقسطة
برشلونة
طركونه
طرطوشه
بورتو
سمورة
بلد الوليد
نهر دويره
مملكة
شلمنقة
وادى الحجارة
طليطلة
قلمرية
شنترين
اشبونة
نهر التاجة
وادى يانة
قشتالة
ماردة
بطليوس
يابرة
جبال الشارات
باجة
شلب
ولبه
لبله
اشبيلية
استجة
جيان
قرطبة
الوادى الكبير
غرناطة
وادى آش
مملكة غرناطة
لوشه
مالقة
قادس
جزيرة طريف
مضيق جبل طارق
الجزيرة
سبتة
طنجة
مرسية
أوريوله
لورقه
قرطاجنة
بلنسية
شاطبة
دانية
قسطلونه
الجزائر الشرقية
ميورقه
يابسة
المحيط الأطلنطي
البحر المتوسط

حولها الحصار ، وكان ابن هود يضع خططه يومئذ لغزو بلنسية وقد وصله عندئذ صريخ أميرها زيان حينما هاجمه خايمى ملك أراجون، فلم يشأ إنجاد المدينة المحصورة بالرغم من مسيره إليها ، خصوصاً وقد علم أن النصارى هاجموها بقوات كبيرة ، فترك قرطبة لمصيرها ، ودافع أهل قرطبة عن مدينتهم أعظم دفاع ، واشتبكوا مع النصارى خارج المدينة وفى داخلها فى عدة معارك دموية شديدة ، ولكن هذه البسالة لم تغن شيئاً ، وسقطت عاصمة الأندلس القديمة ، ودخلها القشتاليون فى ٢٩ يونيه سنة ١٢٣٦ م (٢٣ شوال سنة ٦٣٣هـ) ورفعوا الصليب فى الحال فوق مسجدها الجامع تنويها بظفر النصرانية ، وكان سقوط قرطبة نذيراً بما انتهت إليه الأندلس من بالغ الضعف والفوضى .

ولما اشتدت الحرب الأهلية بين المسلمين فى شرقى الأندلس ، بعث فرناندو الثالث ولده ألفونسو إلى مرسية ، واستولى عليها صلحا فى سنة ١٢٤٣ م (٦٤٠ هـ) . ثم التفت إلى إمارة غرناطة الناشئة التى أخذت تنمو ويشتد ساعدها فى ظل ابن الأحمر فانتزع منها حصن أرجونة وعدة حصون أخرى ، ووصلت قواته إلى أحواز غرناطة ، ثم أرسل جيشه لمحاصرة جيان فى العام التالى (سنة ١٢٤٥م) ، وشعر ابن الأحمر أنه عاجز عن صد هذا السيل الجارف ، فاضطر إلى عقد الصلح والانضواء تحت حماية ملك قشتالة حسبما فصلنا من قبل ، وبلغ فرناندو الثالث بذلك ذروة القوة والسلطان ، وأضحت الأندلس الجنوبية كلها تحت حمايته ورهن مشيئته .

وأخذ فرناندو فى الوقت نفسه يتأهب لافتتاح إشبيلية أعظم قواعد الأندلس ، وفى سنة ١٢٤٧ م (٦٤٤ هـ) بث قواته فى أحواز إشبيلية فاستولت على معظم الحصون القريبة منها ، وسير فرناندو فى الوقت نفسه أسطولا فى مياه الوادى الكبير لكى يحول دون وصول الأمداد والمؤن إلى المدينة من ناحية البحر ؛ وكان يتولى الدفاع عن إشبيلية نفر من الزعماء البواسل . وأبدى المسلمون إصراراً وجلداً فى الدفاع عن مدينتهم ، ولكن النصارى أحكموا حصارها ، واستمر الحصار طول الشتاء ، ثم حشد فرناندو فى العام التالى حولها قوات جديدة ، وسارع إلى نجدته كثير من المتطوعة النصارى من أراجون والبرتغال ومنهم كثير من الأحبار والرهبان ، واضطر ابن الأحمر صاحب غرناطة إلى معاونة حليفه وحاميه فرناندو ببعض قواته ، وذلك كله حسبما فصلناه من قبل . وفى النهاية اضطرت الحاضرة

الإسلامية الكبيرة إلى التسليم ، ودخلها النصارى فى ٢٣ ديسمبر سنة ١٢٤٨ م (أوائل رمضان سنة ٦٤٦هـ) ، وفى الحال حولوا مسجدها الجامع إلى كنيسة جرياً على سنتهم ، وبذلك وقعت معظم القواعد الإسلامية الكبرى فى يد النصارى ، ولاح شبح الفناء للأندلس واضحا منذراً .

وتوفى فرناندو الثالث فى مايو سنة ١٢٥٢ م ، بعد أن حكم قشتالة خمسة وثلاثين عاما ، ودفن فى إشبيلية آخر فتوحه ، وقد غدت منذ افتتاحها عاصمة لقشتالة مكان طليطلة ؛ وقد أسبغت عليه فيما بعد صفة القداسة ، فسمى بسان فرناندو (القديس فرناندو) وذلك تنويها بما تم على يديه من ظفر عظيم للنصرانية .

* * *

وأما مملكة أراجون فقد تخلفت حينا عن قرينتها قشتالة فى مناهضة المسلمين ، وكان ملكها بيدرو الثانى ، الذى خلف أباه ألفونسو على العرش فى سنة ١١٩٦ م ، أميراً وافر الشجاعة والفروسة ، ولكنه شغل بتنظيم شئون مملكته الداخلية ومقاومة سلطان الأشراف ، ثم حج إلى رومة ليتلقى تاجه من يد البابا . ولما عاد إلى أراجون شغل حينا بمحاربة الألبيين وغيرهم من الملاحدة فى جنوب فرنسا ، وتوفى قتيلا فى إحدى المعارك (سنة ١٢٢٤ م) . فخلفه ولده خايمى (يعقوب) طفلا بالرغم من معارضة عميه سانشو وفرناندو ، وثارت من جراء ذلك فى أراجون حرب أهلية استمرت عدة أعوام ، ولكنها انتهت بفوز خايمى وحزبه على الثوار ، فعاد إلى الجلوس على العرش دون منازع وذلك فى سنة ١٢٢٧ م .

وما كاد خايمى[1] يستقر فى عرشه ، حتى اعتزم أن ينزل ميدان الحرب ضد المسلمين ، وأن يحاول الفوز بنصيبه من الأراضى الأندلسية ، فبدأ بغزو الجزائر الشرقية (جزائر البليار) القريبة من شواطىء أراجون ، وسير اليها فى سنة ١٢٢٩م (٦٢٦ هـ) حملة بحرية قوية . وكانت ميورقة وباقى الجزائر الشرقية يومئذ تابعة لإمارة بلنسية التى يسيطر عليها الأمير أبو جميل زيان بن مدافع بن مردنيش ، ويحكمها من قبله أبو يحيى بن يحيى أو محمد بن على بن موسى وفق رواية أخرى ، فنزل النصارى إلى الجزيرة ، ولكنهم لقوا داخلها مقاومة عنيفة ، ودافع المسلمون

---

(١) خايمى وبالإسبانية Jaime ، تكتب أحياناً فى الرواية العربية « جايمس » (ابن الخطيب : الإحاطة ج ١ ص ٥٤٨ و٥٥٩ و٥٧٢ ، واللمحة البدرية ص ٨٣ و١٠٧) . ورأيناها فى كثير من الوثائق العربية المحفوظة بمحفوظات أراجون تكتب هكذا : دون جيمى ، دون جقمى ، دون جاقمة .

عن جزيرتهم بمنتهى الشدة والبسالة ، ولكنهم اضطروا فى النهاية إلى التسليم (صفر سنة ٦٢٧هـ) . ومع ذلك فقد استمرت المقاومة فى شُعَب الجزيرة بعد ذلك حينا ، واضطر خايمى أن يعود إليها مرتين حتى أتم إخضاعها فى سنة ١٢٣٣ م ؛ وسلمت منورقة وهى ثانية الجزائر للنصارى بعد ذلك ببضع سنين(١) .

وماكاد ملك أراجون يستولى على جزيرة ميورقة حتى وجه عنايته إلى فتح بلنسية ، وسار إلى غزوها فى جيش ضخم فى سنة ١٢٣٨م ، (رمضان سنة٦٣٥هـ) واستطاع أن ينتزع الحصون الواقعة حولها تباعا . وكانت بلنسية قد سادها الاضطراب والفوضى من جراء الحرب الأهلية ، ومع ذلك فقد تأهبت بقيادة أميرها أبى جميل زيان لمقاومة النصارى ، وطوق النصارى المدينة من البر والبحر ، وبعث الأمير أبو جميل وزيره وكاتبه ابن الأبّار القضاعى إلى أمير إفريقية (تونس) أبى زكريا الحفصى يستغيث به ، وألقى ابن الأبار بين يديه قصيدته الشهيرة التى مطلعها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا　　إن السبيل إلى منجاتها درسا

وبادر الأمير أبو زكريا بإغاثة بلنسية ، وبعث إليهم بعض الأمداد والمؤن فى عدة سفن ، ولكنها لم توفق إلى الاتصال بالمدينة المحصورة ؛ واستمر الحصار أشهراً واشتد الكرب بالمسلمين ، وضاعف النصارى هجماتهم حتى اضطرت المدينة المحصورة فى النهاية إلى التسليم بشرط أن يؤمّن أهلها فى النفس والمال ، وأن يغادرها من شاء منهم ؛ وكان سقوط بلنسية فى يد النصارى فى ٢٨ سبتمبر سنة ١٢٣٨ م (١٧ صفر سنة ٦٣٦ هـ) .

وعلى أثر سقوط بلنسية تابع خايمى غزواته لباقى الأراضى الإسلامية المجاورة لها ، واستولى على دانية ولقنت فى سنة ١٢٤٤ م (٦٤١ هـ) . ثم استولى على شاطبة وأوريولة فى سنة ١٢٤٦ م (آخر سنة ٦٤٤ هـ) . وقرر خايمى أن يجلى جميع السكان المسلمين عن الأراضى التى تم افتتاحها ، فهرعت منهم جموع غفيرة إلى مملكة غرناطة حتى ضاقت بسكانها ، وهاجر الكثير منهم إلى إفريقية ،

---

(١) تناولنا فتح الأرجونيين للجزائر الشرقية تفصيلا فى « عصر المرابطين والموحدين » القسم الثانى ص ٤٠٢ – ٤٠٩ .

وأخذت القواعد والثغور الإسلامية القديمة تتحول تباعا إلى مدن نصرانية ، وأخذت الكثرة المسلمة تتحول بسرعة إلى أقلية من المدجنين ، تعيش فى ظل الحكم الإسبانى فى ذلة وخضوع .

وعنى خايمى بعد ذلك بإصلاح الشئون الداخلية ، وتمت فى عهده عدة إصلاحات تشريعية خطيرة . ووضع مشروعا لتقسيم المملكة بعد وفاته بين أولاده الأربعة ، ولكنه لم يتحقق لوفاة أكبر أولاده ألفونسو ، ولما أثاره من اضطراب فى أنحاء المملكة . وتوفى خايمى بعد حكم طويل حافل فى سنة ١٢٧٤ م ، وقد أسبغت عليه فتوحاته فى الأراضى الإسلامية لقب « الفاتح » .

الفصل السادس

مملكة غرناطة عقب وفاة ابن الأحمر

وعصر الجهاد المشترك بين بنى الأحمر وبنى مرين

ولاية محمد الفقيه . تربص النصارى بالأندلس . بنو مرين ومبدأ أمرهم . القتال بينهم وبين الموحدين . ولاية أبى يحيى المرينى . ولاية أبى يوسف يعقوب . انهيار دولة الموحدين . استغاثة الأندلس ببنى مرين . استجابة السلطان أبى يوسف لصريخ الأندلس . إرساله حملة إلى الأندلس ثم عبوره إليها . موقف بنى أشقيلولة . غزو أبى يوسف لبسائط الفرنتيرة . موقعة إستجة وغزوات أبى يوسف . عوده إلى المغرب . توجس ابن الأحمر وعتابه لأبى يوسف . عبور أبى يوسف إلى الأندلس المرة الثانية . توغله فى أراضى النصارى . اللقاء بينه وبين ابن الأحمر . استيلاء ابن الأحمر على مالقة . تفاهمه مع ملك قشتالة . انتصار المغاربة فى البحر . زحفهم على مربلة . القتال بينهم وبين ابن الأحمر . توجس أبى يوسف من العواقب . عود التفاهم بينه وبين ابن الأحمر . أثر غرناطة وبنى مرين فى شئون قشتالة . ألفونسو العالم ملك قشتالة . ثورة ولده سانشو عليه . التجاؤه إلى السلطان أبى يوسف المنصور . عبوره المنصور لنصرته وغزوه لأراضى قشتالة . تفاهم ابن الأحمر مع سانشو . عود التفاهم بين ابن الأحمر والمنصور . توجس ابن الأحمر من المغاربة . عبور المنصور إلى الأندلس للمرة الرابعة . غزواته فى أرض النصارى . سانشو ملك قشتالة يذعن للصلح . خطة مشيخة الغزاة . وفاة المنصور وولاية ولده أبى يعقوب . خروج أبى الحسن بن أشقيلولة فى وادى آش . استرداد ابن الأحمر لوادى آش . إغارة ملك قشتالة على أراضى الأندلس . سير الجيوش المغربية إلى الأندلس . هزيمة المغاربة فى البحر . عبور السلطان أبى يعقوب إلى الأندلس . غزوه لأراضى النصارى . توجس ابن الأحمر من نيات أبى يعقوب وتفاهمه مع ملك قشتالة . انتزاع سانشو لطريف من المغاربة . نكثه لعهوده لابن الأحمر . سعيه للتفاهم مع أبى يعقوب وعبوره إلى المغرب . معاهدة تحالف بين غرناطة وأراجون . وفاة ابن الأحمر وخلاله . ولاية محمد الملقب بالمخلوع . غلبة وزيره ابن الحكيم عليه . اضطراب العلائق بين محمد والسلطان أبى يعقوب . استيلاء محمد على سبتة . مصرع أبى يعقوب . زحف عثمان بن أبى العلاء على المغرب . ولاية السلطان أبى ثابت لعرش المغرب . مسيره إلى الشمال ووفاته . ولاية السلطان أبى الربيع . هزيمة الأندلسيين ومقتل عثمان . الثورة فى غرناطة . اضطراب الأحوال فى عهد نصر . غزو القشتاليين لأرض الأندلس . مشروع فرناندو لغزو جبل طارق . حصار ألمرية وهزيمة النصارى . سقوط جبل طارق . الصلح بين ملك غرناطة وبنى مرين . مصانعة نصر لملك قشتالة . تعهده بأداء الجزية . الثورة فى غرناطة . هزيمة نصر وعزله .

لما توفى محمد بن الأحمر مؤسس مملكة غرناطة ، خلفه فى الملك ولده وولى عهده أبو عبدالله محمد بن محمد بن يوسف الملقب بالفقيه لعلمه وتقواه . وكان مولده بغرناطة سنة ٥٣٣ هـ (١٢٣٥ م) . وهو الذى رتب رسوم الملك للدولة النصرية ،

ووضع ألقاب خدمتها ، ونظم دواوينها وجبايتها ، وخلع عليها بذلك صفتها الملوكية الزاهية . وكان يتمتع بكثير من الخلال الحسنة، من قوة العزم ، وبعد الهمة وسعة الأفق ، والبراعة السياسية . وكان عالماً أديبا يقرض الشعر ، ويؤثر مجالس العلماء ، والأدباء[1]. ولأول عهده نشط ملك قشتالة ألفونسو العاشر الملقب بالعالم أو الحكيم إلى محاربة المسلمين ، وكان مثل أبيه فرناندو الثالث ، يرى أن دولة الإسلام بالأندلس قد دنت نهايتها ، ويتربص الفرصة بالمملكة الإسلامية الفتية، ويحاول أن يعمل كأبيه للقضاء عليها قبل استفحال أمرها . ولم يكن ملك غرناطة بغافل عن الخطر الذى يتهدده من مشاريع قشتالة . وكان محمد بن الأحمر قد أوصى ولده بالحرص على محالفة بنى مَرين ، ملوك العُدوة والاستنجاد بهم كلما لاح شبح الخطر الداهم[2]. وكان بنو مَرين وهم الذين استولوا على ملك الموحدين بعد ذهاب دولتهم، يومئذ فى عنفوان قوتهم ، وكانت مملكتهم الفتية ، تشغل فى نظر الأندلس ونظر اسبانيا النصرانية، نفس الفراغ الذى تركه ذهاب دولة المرابطين ثم دولة الموحدين ، وكان من الطبيعى أن تؤدى هذه الدولة الجديدة فى ميدان السياسة والحرب نحو الجزيرة الإسبانية ، نفس الدور الذى أدته المملكتان المغربيتان الذاهبتان .

وبنو مَرين بطن من بطون قبيلة زناتة البربرية الشهيرة ، التى ينتمى إليها عدة من القبائل التى لعبت أدواراً بارزة فى تاريخ المغرب، مثل مغراوة ومغيلة ومديونة وجراوة وعبد الواد وغيرهم . ومع ذلك فإن بنى مرين يرجعون نسبتهم إلى العرب المضرية ، وذلك بالانتساب إلى بر بن قيس عيلان بن مضر بن نزار. وجدهم الأعلى جرماط بن مرين بن ورتاجى بن ماخوخ[3] . وكانت القبائل المرينية فى بداية أمرها من العشائر البدوية المتنقلة ، تجول فى صحارى المغرب الأوسط وهضابه وتسير نحو المغرب الأقصى أيام الصيف . وفى فاتحة القرن السابع الهجرى ،نشبت الحرب بينهم وبين بنى عبد الواد ، فتوغلوا فى هضاب المغرب ، ونزلوا بوادى ملوية الواقع بين المغرب والصحراء وأقاموا هنالك حينا . وكانت قوى الموحدين قد تضعضعت منذ موقعة العقاب (٦٠٩ هـ)[4] ، وسرت إلى دولتهم عوامل

---

(١) الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٥٦٥ .

(٢) الذخيرة السنية ص ١٦٣ ؛ وابن خلدون ج ٧ ص ١٩١ .

(٣) الذخيرة السنية ص ١٠ و١١ و١٦ .

(٤) الذخيرة السنية ص ٥٢ و٥٣ ؛ والاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ٢ ص٣و٥ .

التفكك والانحلال. ولما توفى ملكهم الناصر ، وهو المهزوم فى موقعة العقاب ، سنة ٦١٠ هـ ، ولى بعده ولده يوسف المستنصر ، وكان فتى حدثاً ضعيف الهمة والخلال ، فانكب على لهوه وساءت أمور المملكة وسرت إليها الفوضى . فى تلك الآونة التى بدأ فيها ملك الموحدين يهتز فى يد القدر ، نفذ بنو مرين إلى المغرب ، وتوغلوا فى جنباته ، واشتبكوا مع الموحدين لأول مرة فى سنة ٦١٣ هـ ، إذ حاول الملك المستنصر أن يقضى عليهم ، فأرسل جيوشه لقتالهم ولكنها هزمت ، ووصل بنو مرين إلى أحواز فاس؛ وكان أمير بنى مرين يومئذ أبو محمد عبد الحق بن خالد ابن محيو ، ولكنه قتل فى بعض المواقع فى سنة ٦١٤هـ ، فخلفه فى الإمارة ولده أبو سعيد عثمان ، واستمر يقود قومه فى ميدان النضال ضد الموحدين[1] .

وفى سنة ٦٣٩هـ (١٢٤١م) سير الرشيد خليفة الموحدين جيشاً لقتال بنى مرين فهزم الموحدون هزيمة شديدة ، واستولى المرينيون على معسكرهم . وتوفى الرشيد فى العام التالى . فخلفه فى الملك أخوه أبو الحسن السعيد ، واعتزم أن يضاعف الجهد للقضاء على بنى مرين ، فسير لقتالهم فى سنة ٦٤٢هـ (١٢٤٤ م) جيشاً ضخماً ونشبت بين الموحدين وبين بنى مرين موقعة هائلة ، هزم فيها بنو مرين وقتل أميرهم أبو معرّف محمد بن عبد الحق ، وكانت ضربة شديدة هدت من عزائمهم مدى حين .

وتولى إمارة بنى مرين بعد مقتل أبى معرف ، أخوه أبو بكر بن عبد الحق الملقب بأبى يحيى . وفى عهد اشتد ساعد بنى مرين واستولوا على مكناسة (٦٤٣هـ) ثم زحفوا على فاس واستولوا عليها بعد حصار شديد (٦٤٨هـ — ١٢٥٠م) . وكان سقوط فاس حاضرة المغرب القديمة ، أعظم ضربة أصابت دولة الموحدين ، وكان نذير الإنهيار النهائى . ثم استولوا على سجلماسة ودرعة (٦٥٥هـ) . ولما توفى أبو يحيى سنة ٦٥٦هـ ، تولى أخوه أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق من بعده رياسة بنى مرين وجعل مدينة فاس حاضرة ملكه . وفى سنة ٦٥٧ هـ نشبت الحرب بين بنى مرين وبين الأمير يَغْمُراسن بن زيان ملك المغرب الأوسط وزعيم بنى عبد الواد ، فهزم يغمراسن وارتد إلى تلمسان . وفى العام التالى (٦٥٨هـ) هاجم النصارى (الإسبان) فى سفنهم ثغر سلا فجأة ، وقتلوا وسبوا كثيراً من أهله ، فبادر أبو يوسف بإنجاده ، وحاصر النصارى بضعة أسابيع حتى جلوا عنه .

ثم كانت الموقعة الحاسمة بين الموحدين وبنى مرين ، فى أواخر سنة ٦٦٧ هـ

---

(١) الذخيرة السنية ، ص ٩٣ و ٩٤ .

(١٢٦٩ م) سار الواثق بالله المعروف بأبي دبوس خليفة الموحدين من مراكش لقتال بني مرين ، والتقى الجمعان في وادى غفو بين فاس ومراكش ، فهزم الموحدون بعد معركة شديدة ، وقتل منهم عدد جم في مقدمتهم الواثق ، واستولى أبو يوسف على معسكرهم ومؤنهم وخزائنهم ، ثم سار إلى مراكش فدخلها في التاسع من المحرم سنة ٦٦٨ هـ ، وتسمى بأمير المسلمين ، وبذلك انتهت دولة الموحدين في المغرب ، كما انتهت في الأندلس ، بعد أن عاشت زهاء قرن وثلث قرن ، وقامت مكانها دولة بني مرين تسيطر على أنحاء المغرب الأقصى كله ، وتستقبل عهداً جديداً من القوة والسلطان[١] .

إلى تلك الدولة الحديدة الفتية ، كانت تتجه أنظار الأندلس كلما لاح لها شبح الخطر الداهم . وقد شاء القدر أن تلعب دولة بني مرين وريثة المرابطين والموحدين ، في حوادث الأندلس الداخلية والخارجية أعظم دور . ولم تفت مؤسس مملكة غرناطة أهمية التحالف مع بني مرين والاستنصار بهم ، فبعث قبيل وفاته بقليل حسبما رأينا إلى السلطان أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق الملقب بالمنصور يطلب إليه غوث الأندلس وإنجادها . وكان السلطان أبو يوسف حينما وصله صريخ ابن الأحمر في سنة ٦٧٠ هـ يسير إلى غزو تلمسان ، فلما وقف من الرسل على حال الأندلس وما يهددها من الأخطار ، جمع أشياخ القبائل ، واتفق الجميع على وجوب إنجاد الأندلس والجهاد في سبيل الله ، وأرسل السلطان إلى الأمير يَغْمُراسن صاحب تلمسان يعرض عليه عقد الصلح ، لكي يتمكن من العبور إلى الأندلس ، فأبى واقتتل الفريقان على مقربة من وَجْدة ، في شهر رجب سنة ٦٧٠ هـ (١٢٧٢م) فهزم يغمراسن وفرجريحا[٢] ، وعاد أبو يوسف مظفراً إلى المغرب ، وهو يعتزم استجابة دعوة الأندلس وإنجادها .

على أنه مضى أكثر من عامين ، قبل أن تسنح له الفرصة المرجوة . فلما تولى محمد الفقيه ، أرسل عقب ولايته بقليل وفداً من أكابر الأندلس إلى ملك

(١) راجع في أصل بني مرين ونشأتهم ، الذخيرة السنية ص ١٠ و١٦ و٩٤ و٩٩ و١٢٣ و١٢٤ ؛ والاستقصاء ج ٢ ص ١٣ و١٤ ؛ وابن خلدون ج ٧ ص ١٦٦ — ١٨٠ . هذا وقد عثرنا في مكتبة مدريد الوطنية على قطعة صغيرة من مخطوطة عنوانها « ذكر الياقوتة الحلية في الذرية السعيدية المرينية المباركة العبدالحقية » وهي في أربعة عشرة صفحة تتناول نشأة بني مرين وسيرتهم حتى بداية السلطان أبي يوسف ، ولا يخرج ما ورد فيها عما قدمنا خلاصته .

(٢) الذخيرة السنية ص ١٤٨ ؛ والاستقصاء ج ٢ ص ١٦ .

المغرب يحمل إليه رسالة استغاثة مؤثرة ، فشرحوا له حال الأندلس من الضعف ونقص الأهبة ، وتكالب العدو القوى عليها ، واستصرخوه للغوث والجهاد ومما جاء فى رسالة ابن الأحمر إلى أبى يوسف بعد الديباجة :

مرين جنود الله أكبر عصبة ... فهم فى بنى أعصارهم كالمواسم
مشــنفة أسماعهم لمــدائح ... مسورة إيمــانهم بالصوارم

« تطول علينا بمعلوم حدك ومشهود جدك ، قد جعلك الله رحمة تحيى عيشها بجيوشك السريعة ، وخلفك سُلَّما إلى الخير وذريعة ، فقد تطاول العدو النصرانى على الإسلام ، واهتضم جناحه كل الإهتضام ، وقد استخلص قواعدها ، ومزق بلدانها ، وقتل رجالها وسبى ذراريها ونساءها ، وغنم أموالها . وقد جاء بإبراقه وإرعاده، وعدده وإيعاده، وطلب منا أن نسلم له ما بقى بأيدينا من المنابر والصوامع والمحاريب والجوامع ،ليقيم بها الصلبان ، ويثبت بها الأقسة والرهبان . وقد وطأ الله لك ملكا عظيما شكرك الله على جهادك فى سبيله، وقيامك بحقه، وإجهادك فى نصر دينه وتكميله، ولديك من نية الخير ، فابعث باعث بعثك إلى نصر مناره ، واقتباس نوره ، وعندك من جنود الله من يشترى الجنات بنفسه . فإن شئت الدنيا فالأندلس قطوفها دانية ، وجناتها عالية ، وإن أردت الآخرة بها جهاد لا يفتر ، وهذه الجنة ادخرها الله لظلال سيوفكم ، واحتمال معروفكم ، ونحن نستعين بالله العظيم وبملائكته المسومين ، ثم بكم على الكافرين »[1] .

ثم تتابعت رسل ابن الأحمر وبنى أشقيلولة إلى السلطان أبى يوسف ، ينوهون بالخطر الداهم الذى يهدد الأندلس ، ويلتمسون إليه المبادرة بالإسعاف والإمداد ، فاستجاب السلطان أخيراً لدعوتهم ، وكتب إلى ابن الأحمر يطمئنه ، ويعرب عن عزمه على الجواز إلى الأندلس فى فاتحة سنة أربع وسبعين ، ومما جاء فى رسالته :

« وإنا لنرجو أن نصلكم بنفوس صلح جهرها وسرها ، ونسقى بماء الثلج واليقين غرها ، ونقدم عليكم بما يبسط نفوسكم ويسرها ، ويطلع لها الفرح من المكاره ويذهب عسرها ، فلتطب نفوسكم برحمة الله وعونه ، ولتفرحوا بفضل الله وصونه ، ونحن قادمون عليكم فى إثر هذا إنشاء الله ، ووعدنا بوفاء يعين الله على أعدائه »[2] .

---

(١) راجع هذه الرسالة بأكلها فى الذخيرة السنية ص ١٥٩ — ١٦١ .
(٢) راجع نص رسالة السلطان أبى يوسف بأكله فى الذخيرة السنية ص ١٦٢ و١٦٣ .

وهكذا اعتزم السلطان أبو يوسف أن يؤدى رسالة المغرب التاريخية فى إنجاد الأندلس ونصرتها ،وكان بنومرين فى عنفوان دولتهم يجيشون بنزعة الجهاد الفتية . وخرج السلطان من فاس فى رمضان سنة ٦٧٣هـ برسم الجهاد فى الأندلس، وأرسل للمرة الثانية إلى الأمير يَغْمُراسن صاحب تلمسان ، يعرض الصلح توحيداً للكلمة وتعضيداً للجهاد . فقبل يغمراسن وتم الصلح . وبادر السلطان فجهز ولده أبا زيان[1] فى خمسة آلاف مقاتل ، فعبر البحر من قصر المجاز (قصر مصمودة) إلى الأندلس ، ونزل بثغر طريف فى شهر ذى الحجة سنة ٦٧٣هـ (١٢٧٥ م) ، ونفذ إلى أرض النصارى حتى شَرِيش ، وعاث فيها وعاد مثقلا بالسبي والغنائم ، وقدم إليه ابن هشام وزير ابن الأحمر ثغر الجزيرة فنزل فيه ، وجاز ابن هشام إلى العدوة فلقى السلطان أبا يوسف فى معسكره على مقربة من طنجة . وكان السلطان قد استكمل أهبته ، فعبر من قصر المجاز إلى الأندلس فى صفر سنة ٦٧٤هـ (يوليه ١٢٧٥ م) ، فى جيش كثيف من البربر ، داعيا إلى الجهاد على سنة أسلافه المرابطين والموحدين . وكان أبو يوسف قد اشترط على ابن الأحمر حينما استنجد به ، أن ينزل له عن بعض الثغور والقواعد الساحلية ، لتنزل بها جنوده فى الذهاب والإياب . فنزل له عن رندة وطريف والجزيرة ، ونزل أبو يوسف بجيشه فى طريف ، وهرع ابن الأحمر وبنو أشقيلولة إلى لقائه ، واهتزت الأندلس كلها لعبور ملك المغرب . ولكن ابن الأحمر ما لبث أن غادره مغضبا لما رأى من تدخله فى شئون الأندلس بصورة مريبة . ذلك أن بنى أشقيلولة أصهار بنى الأحمر ، وفى مقدمتهم محمد بن أشقيلولة زعيم الأسرة وزوج أخت محمد بن الأحمر ، وأخوه أبو الحسن زوج ابنته ، كانوا يجيشون نحو عرش غرناطة بأطماع خفية . وكان أبو محمد ممتنعاً بمالقة مغاضبا لملك غرناطة حسبما قدمنا . فلما عبر أبويوسف إلى الأندلس ، سار إليه وانضوى تحت لوائه ، ولم يفلح أبو يوسف فى التوفيق بين ابن الأحمر وبين أصهاره ، وخشى ابن الأحمر عاقبة هذا التحالف بين أصهاره وبين أبى يوسف ، فارتد إلى غرناطة حذرا متوجسا .

ونفذ السلطان أبو يوسف بجيشه إلى بسائط الفرنتيره[2] وكانت فى يد النصارى

---

(١) الذخيرة السنية ص ١٦٤ ، ولكن ابن خلدون يقول إن السلطان بعث الجند مع ولده منديل (ج ٧ ص ١١٩) ومنديل حفيد السلطان أبى يوسف .

(٢) الفرنتيره **La Frontera** هى السهل الواقع فى غربى مثلث إسبانيا الجنوبى (الجزيرة) ويمتد من قادس جنوباً حتى طرف الغار .

وعاث فيها . ثم توغل غازيا ينتسف الضياع والمروج ويسبي السكان ، حتى وصل إلى حصن المقورة وأبدة على مقربة من شرقى قرطبة . وعندئذ عول القشتاليون على لقائه دفاعا عن أراضيهم . وخرج القشتاليون فى جيش ضخم ، تقدره الرواية الإسلامية بنحو تسعين ألف مقاتل(١) ، وعلى رأسهم قائدهم الأشهر صهر ملك قشتالة الدون نونيو دى لارا ، الذى تسميه الرواية الإسلامية « دونونه أو دننه أوذنونه » . وكان أبو يوسف قد ارتد عندئذ بجيشه إلى ظاهر إستجة ، ومعه حشد عظيم من الغنائم والأسرى ، فأغلقت المدينة أبوابها ، واستعدت للقتال ، ووضع أبو يوسف الغنائم فى ناحية تحت إمرة حرس خاص حتى لا تعيق حركاته ، وعقد لولده أبى يعقوب على مقدمته ، وخطب جنده وحثهم على الجهاد والموت فى سبيل الله . ثم تقدم لملاقاة النصارى ، ومعه بعض قوات الأندلس برياسة بنى أشقيلولة . ووقع اللقاء بين المسلمين والنصارى ، على مقربة من إستجة جنوب غربى قرطبة ، فى اليوم الخامس عشر من شهر ربيع الأول سنة ٦٧٤ هـ (٩ سبتمبر ١٢٧٥ م) ، فنشبت بين الفريقين معركة سريعة هائلة ، هزم النصارى على أثرها هزيمة شديدة ، وقتل قائدهم الدون نونيو دى لارا وعدة كبيرة منهم(٢). وكان نصراً عظيما أعاد إلى الأذهان ، ذكريات موقعة الزلاقة وموقعة الأرك ، وكان أول نصر باهر يحرزه المسلمون على النصارى ، منذ موقعة العقاب ، ومنذ انهيار الدولة الإسلامية بالأندلس ، وسقوط قواعدها العظيمة . وتبالغ الرواية الإسلامية فى تقدير خسائر النصارى ، فتقول إنه قتل منهم فى الموقعة ثمانية عشر ألفاً ، جمعت رؤوسهم وأذن عليها المؤذن لصلاة العصر ، هذا فى حين أنه وفقاً لقولها أيضاً ، لم يقتل من المسلمين سوى أربعة وعشرين رجلا(٣) .

وبعث السلطان أبو يوسف برأس دون نونيو إلى ابن الأحمر ، فقيل إنه بعثها بدوره إلى ملك قشتالة مضمخة بالطيب ، مصانعة له وتوددا إليه . وكتب أبو يوسف إلى العدوة رسالة يشرح فيها حوادث الموقعة ، وما انتهت إليه من نصر باهر ، فقرئت على المنابر ، وكتب رسالة مماثلة إلى ابن الأحمر ، فرد عليه بالشكر والدعاء . ورفع

---

(١) الذخيرة السنية ص ١٦٩ و ١٧٠ .

(٢) ابن خلدون ج ٧ ص ١٩١ ؛ واللمحة البدرية ص ٤٤ ؛ والإحاطة ج ١ ص ٥٧٣ ؛ والذخيرة السنية ص ١٧٠ — ١٧٢ .

(٣) الذخيرة السنية ص ١٧٣ .

ابن أشقيلولة إلى أمير المسلمين أبي يوسف ، قصيدة يهنئه فيها بالنصر جاء فيها :

هبت بنصركم الرياح الأربع   وسرت بسعدكم النجوم الطلع
وأتت لنصركم الملائك سيفا   حتى أضاق بها الفضاء الأوسع
واستبشر الفلك الأثير تيقنـا   أن الأمور إلى مرادك ترجع
وأمدك الرحمن بالفتح الذى   ملأ البسيطة نوره المتشعشع

ولبث أبو يوسف بالجزيرة الخضراء بضعة أسبيع ، قسمت فيها الغنائم واستراحت الجند . ثم خرج للمرة الثانية فى جمادى الأولى سنة ٦٧٤هـ ، وتوغل غازيا فى أراضى قشتالة حتى وصل إلى أحواز إشبيلية ؛ فأغلقت المدينة أبوابها . وعاث أبو يوسف فى تلك الأنحاء ، ثم سار إلى شريش فضرب حولها الحصار ، فخرج إليه زعماء المدينة ورهبانها وطلبوا إليه الأمان والصلح ، فأجابهم إلى طلبهم وعاد إلى قواعده مثقلا بالغنائم والسبي . وقضى بضعة أسابيع أخرى بالجزيرة الخضراء ، ثم عبر البحر إلى المغرب فى أواخر شهر رجب ٦٧٤هـ ، بعد أن قضى بالأندلس زهاء خمسة أشهر .

على أن هذا النصر الباهر ، الذى أحرزه السلطان أبو يوسف المرينى على النصارى ، لم يحدث أثره المنشود فى بلاط الأندلس . ذلك أن محمد بن الأحمر ، جنح إلى الارتياب فى نيات ملك المغرب ، وخصوصاً مذ أسبغ السلطان حمايته على بنى أشقيلولة ، وغيرهم من الخوارج على ملك غرناطة ، ومثلت بذهنه مأساة الطوائف وغدر المرابطين بهم[1] . وبعث ابن الأحمر إلى السلطان قبيل مغادرته الجزيرة ، يعاتبه على تصرفه فى حقه بقصائد مؤثرة يستعطفه فيها ويستنصره ، والسلطان يجيبه عنها بقصائد مثلها . ومن ذلك قصيدة من نظم أبى عمران بن المرابط كاتب ابن الأحمر هذا مطلعها :

هل من معينى فى الهوى أو منجدى   من متهم فى الأرض أو من منجد
هذا الهوى داع فهل من مسعف   بإجابة وإنابة أو مسـعد

ومنها فى الاستغاثة :

أفلا تذوب قلوبكم إخواننـا   مما دهانا من ردًى أو من ردى
أفلا تراعون الأذمة بيننـا   من حرمة ومحبة وتودد
أكذا يعيث الروم فى إخوانكم   وسيوفكم للثـار لم تتقلد

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ١٩٨ و ٣٦٧ .

يا حسرتى لحمية الإســلام قد خمدت وكانت من قبل ذا تتوقد
أبنى مرين أنتم جيراننــا وأحق من فى صرخة بهم ابتدى
أبنى مرين والقبائل كلهـــا فى المغرب الأدنى لنا والأبعد
كتب الجهاد عليكم فتبادروا منه إلى القرض الأحق الأوكد
أنتم جيوش الله ملء فضــائه تأسون للدين الغريب المفرد(١)

وفى أوائل سنة ٦٧٦ هـ توفى أبو محمد بن أشقيلولة صاحب مالقة ، فعبر ولده محمد إلى المغرب ونزل عنها للسلطان ، فبعث إليها السلطان حاكما من قبله ، فزاد ذلك فى توجس ابن الأحمر ، وأرسل وزيره أبا سلطان عزيز الدانى فى بعض قواته إلى مالقة ، ليحاول الاستيلاء عليها ، فلم يوفق . ولم تمض أشهر قلائل على ذلك حتى عبر السلطان أبو يوسف المنصور البحر إلى الأندلس للمرة الثانية فى سنة ٦٧٧ هـ (١٢٧٨ م) ، ونزل بمالقة فاحتفل به أهلها ، ثم توغل بجيشه فى أرض النصارى يعيث فيها ، ومعه بنو أشقيلولة فى جندهم ، حتى أحواز إشبيلية . واجتنب القشتاليون لقاءه . ثم دعا ابن الأحمر إلى لقائه ، فوافاه عند قرطبة والريب يملأ نفسه ، وتبادل الملكان عبارات العتاب والتعاطف ، ولكن ابن الأحمر لم تطمئن نفسه ، وعاد السلطان إلى المغرب دون أن تصفو القلوب .

وزاد توجس ابن الأحمر لحوادث مالقة وانحيازها إلى السلطان ، وجال بخاطره أن التفاهم مع ملك قشتالة خير وأبقى . وفى أواخر سنة ٦٧٧ هـ استطاع ابن الأحمر أن يستولى أخيراً على مالقة ، وذلك بإغراء صاحبها بالنزول عنها ، والاستعاضة بالمنكّب وشلوبانية(٢). ثم سعى إلى التفاهم مع ملك قشتالة والتحالف معه ، على منع السلطان المنصور من العبور إلى الأندلس . ونزلت القوات القشتالية بالفعل فى الجزيرة . وكاتب ابن الأحمر أيضاً الأمير يَغْمُراسن ملك المغرب الأوسط ، وخصم السلطان المنصور ، يسأله العون والتحالف . وعلم المنصور بذلك فأراد العبور توا إلى

(١) نقل إلينا ابن خلدون هذه القصيدة بأكلها (ج ٧ ص ١٩٨ — ٢٠٠) وفيها كثير من المعانى التى وردت فى مرثية أبى البقاء الرندى ، كما أشار إلى ردود السلطان أبى يوسف إشارة عابرة (ص ٢٠٠) .

(٢) المنكب ، وبالإسبانية Almunecar ، وشلوبانية وبالإسبانية Salobrena ، ثغران صغيران من ثغور مملكة غرناطة القديمة ، يقع كلاهما جنوبى غرناطة على البحر الأبيض المتوسط وتفصلهما عن بعضهما مسافة صغيرة .

الأندلس ، ولكن عاقته حوادث المغرب حينا . وفى أوائل سنة ٦٧٨هـ (١٢٧٩م) بعث ولده الأمير أبا يعقوب إلى الأندلس فى أسطول ضخم ، ونشبت بينه وبين أسطول النصارى المرابط شرقى المضيق معركة هائلة ، هزم النصارى على أثرها واستولى المسلمون على سفنهم ، ونزلوا بالجزيرة ، فغادرها النصارى فى الحال .

وأراد الأمير أبو يعقوب أن يتبع نصره ، بعقد الصلح مع ملك قشتالة والتحالف معه على قتال ابن الأحمر ومهاجمة غرناطة ، فأنكر عليه أبوه السلطان ذلك ، ثم زحف جند المغرب على ثغر مربلّة ، وهو من أملاك ابن الأحمر تريد الاستيلاء عليه ، فامتنع عليهم . وانتهز القشتاليون تلك الفرصة ، فزحفوا على غرناطة ومعهم بنو أشقيلولة ، فلقيهم ابن الأحمر وردهم على أعقابهم (٦٧٩هـ) . بيد أنه بالرغم من هذا النصر المؤقت أخذ يشعر بدقة موقفه ، وخطورة القوى التى يواجهها ، سواء من جانب القشتاليين ، أو من جانب الجيوش المغربية ، التى استدعيت فى الأصل لتكون له سنداً وغوثاً ، فانقلبت إلى مناوأته وقتاله . ومن جهة أخرى فقد كان السلطان المنصور يخشى عاقبة هذا التصرف على مصير المسلمين ؛ وعلى ذلك فقد بعث إلى ابن الأحمر فى وجوب عقد المودة والتفاهم ، فلقى لديه مثل رغبته ، وبادر السلطان إلى عقد أواصر الصلح والتحالف بين المسلمين ، على أن ينزل ابن الأحمر عن مالقة للسلطان المنصور ، لتكون له قاعدة للعبور والغزو . وصفا جو العلائق على أثر ذلك بين ابن الأحمر وبنى مرين ، وشغل السلطان المنصور حينا بمحاربة الخوارج عليه .

* * *

ولم يمض قليل على ذلك ، حتى عادت شئون الأندلس تستغرق اهتمام المنصور ؛ وكانت شئون الأندلس قد غدت فى الواقع عنصراً بارزا فى سياسة بنى مرين ، وكانت مملكة غرناطة حتى فى ذلك الوقت الذى انكمشت فيه الدولة الإسلامية فى الأندلس ، تلعب دورها فى شئون اسبانيا النصرانية كلما اضطربت فيها الحوادث . ولما سطع نجم الدولة المرينية فيما وراء البحر ، اتجه إليها اهتمام النصارى ، وكانت كلما وقعت فى قشتالة حرب أهلية ، لجأ هذا الفريق أوذاك إلى مؤازرة غرناطة أو بنى مرين ، على غرار ما كان يحدث فى الماضى . ومن ذلك ما حدث فى سنة ٦٦٩هـ (١٢٧٠ م) من خروج الإنفانت فيليب على أخيه ألفونسو العاشر مع جماعة من النبلاء ، والتجائهم إلى السلطان المنصور فى طلب العون واستجابته

لدعوتهم، واتخاذهم غرناطة قاعدة لجهودهم. وكادت تنشب من جراء ذلك حرب بين المسلمين والنصارى، لولا تدخل ڤيولا ملكة قشتالة، واسترضائها للخوارج بمختلف المنح. ولابد لنا أن نذكر هنا أن القونسو العاشر ملك قشتالة هذا، هو ألفونسو العالم أو الحكيم El Sabio، وكانت له صلات وثيقة بعلماء الأندلس، ومنهم تلقى الكثير وتأثر بمناهجهم فى التفكير والدرس. وقد وضع ألفونسو جداوله الفلكية الشهيرة المسماة بالجداول «الألفونسية»، على يد جماعة من العلماء المسلمين واليهود



الملك ألفونسو العـالم

والنصارى، كما وضع تاريخاً عنوانه Crónica Gene al de España «تاريخ اسبانيا العام» وقد اعتمد فيه على مصادر عربية كثيرة. ومع أنه لا يخلو من كثير من الأساطير والروايات المغرقة، فإنه يعتبر من أهم مصادر التاريخ الإسبانى فى العصور الوسطى. وكان ألفونسو العاشر يحب جيرانه المسلمين، ويقدر علمهم ورفيع ثقافتهم، وكان هذا من أسباب السخط عليه فى مملكته. وكان من جراء اشتغاله بالعلوم والآداب، فى عصر لا تنهض الممالك فيه إلا بالحرب والسياسة، أن اضطربت شئون المملكة.

وفى سنة ١٢٨٢م (أوائل ٦٨١ هـ) ثار عليه ولده سانشو وآزره معظم النبلاء ، واستطاع أن ينتزع العرش لنفسه . فاتجه أبوه الملك المخلوع إلى السلطان أبى يوسف المنصور ، وأرسل إليه بالمغرب وفدا من الأحبار يستمد منه الغوث والعون ضد ولده . فاستجاب السلطان لصريخه ، وعبر البحر فى قواته إلى الأندلس فى ربيع الثانى سنة ٦٨١هـ ، وهرع ألفونسو إلى لقائه بمحلته بالجزيرة على مقربة من رندة ، مستجيراً به ، ملتمساً لنصرته ، وقدم إليه تاجه رهنا لمعونته . فأمده السلطان بمائة ألف من الذهب ، ليستعين بها على حشد الجند . قال ابن خلدون ، وقد رأى هذا التاج ببلاط بنى مرين أيام أن كان فى خدمتهم : « وبقى بيدهم فخراً للأعقاب لهذا العهد »[1]. وغزا أبو يوسف أراضى قشتالة وحاصر قرطبة ، ثم زحف على طليطلة ، وعاث فى نواحيها ، ووصل فى زحفه إلى حصن مجريط[2] . وتحاشى ابن الأحمر فى البداية لقاء السلطان لفتور العلائق بينهما ، ولتوجسه من مخالفته لألفونسو ، ورأى من جانبه أن يتفاهم مع سانشو ملك قشتالة الجديد ، وزحف على المنكّب وهى من الثغور التى تحتلها قوات المغرب ، فغضب السلطان وارتد لقتاله . وكادت تنشب بين الملكين المسلمين فتنة مستطيرة ، لولا أن خشى ابن الأحمر العاقبة ، وعاد إلى التفاهم مع المنصور ، وصفا الجو بينهما نوعا . وعاث المنصور فى أراضى قشتالة مرة أخرى ، وغص جيشه بالسبى والغنائم ، ثم عاد إلى المغرب بعد أن ولى على الجزيرة حاكما من قبله .

واستمرت الحرب الأهلية أثناء ذلك فى قشتالة بين الإبن والأب ، ولبث هذا النضال الدموى زهاء عامين ، حتى توفى ألفونسو العاشر طريداً مهزوما فى سنة ١٢٨٤ م (٦٨٣ هـ) ، فكان لوفاته وقع عميق فى غرناطة والمغرب ، وأرسل كل من الملكين المسلمين عزاءه فى الملك العالم المنكود إلى بلاط قشتالة . وكان موقف المملكتين الإسلاميتين غريباً إزاء حوادث قشتالة ، إذ كان ملك المغرب يؤازر الملك المخلوع ، وكان ملك غرناطة بالرغم من عطفه على ألفونسو العاشر ، يؤازر ولده الخارج عليه . والحقيقة أن ابن الأحمر كان يشهد تقاطر الجيوش البربرية إلى

---

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٢٠٥ ؛ والإحاطة ج ١ ص ٥٧٢ ؛ واللمحة البدرية ص٤٣ ؛ وأزهار الرياض ج ١ ص ٦١ .

(٢) كانت محلة مجريط الإسلامية الحصينة تشغل موقعاً يقع بجوار موقع العاصمة الإسبانية الحديثة مدريد .

الجزيرة الخضراء بعين الجزع ، ويتوجس شراً من وجودهم بها ، وقد كانوا يحتلون معاقلها وثغورها ، ويظاهرون الخوارج عليه فى مالقة والمنكب وغيرهما من القواعد الجنوبية ، وكان يتوقع أسوأ العواقب من تدخل ملك المغرب فى شئون الأندلس على هذا النحو ، وكان مثل المرابطين ومأساة الطوائف عبرة خالدة . تساوره دائماً ، وتذكى جزعه . على أن موت ألفونسو العاشر ، وانتهاء الحرب الأهلية فى قشتالة ، خفف من هذا التوتر بين المملكتين . وكان ابن الأحمر يذكر فى الوقت نفسه ، غدر ملك قشتالة ، وخطر النصارى على مملكته ، فيجنح بعد التأمل إلى إيثار التفاهم مع ملك المسلمين .

وفى صفر سنة ٦٨٤ هـ (١٢٨٥ م) عبر السلطان المنصور إلى الأندلس للمرة الرابعة ، وزحف على أراضى النصارى ، وغزا مدينة شَرِيش ؛ وسار ولده أبو يعقوب إلى أحواز إشبيلية فعاث فيها . ثم زحف المنصور على قرمونة والوادى الكبير ، وخرب جنده بسائط إشبيلية ولبلة وإستجة والفرنتيره . وسر ابن الأحمر لاجتياح أراضى قشتالة على هذا النحو ، وبعث الى السلطان مددا من غرناطة ، وجاءت الأساطيل المغربية ، فطاردت أساطيل العدو فى مياه المضيق واحتلته . ورأى سانشو ملك قشتالة تفاقم الأمر وعقم المقاومة ، فجنح إلى طلب السلم ، وبعث إلى السلطان وفداً من الأحبار يطلب الصلح ، ويفوض السلطان فى اشتراط ما يراه ، فاستجاب السلطان لرغبتهم ، واشترط عليهم مسالمة المسلمين كافة ، وأن يمتنع النصارى عن كل اعتداء على الأندلس ، وعلى أراضى المسلمين ومرافقهم ، وأن ترفع الضريبة عن التجار المسلمين بدار الحرب (بلاد الأعداء) ، وأن تنبذ قشتالة سياسة الدس بين الأمراء المسلمين ، فقبل النصارى جميع الشروط المطلوبة ، وتعهدوا بتنفيذها . وقدم سانشو بنفسه إلى معسكر السلطان ، فاستقبله المنصور بحفاوة ، وقدم إليه طائفة من الهدايا ، وتعهد سانشو بتحقيق شروط الصلح كاملة . وسأله السلطان أن يرسل إليه قدراً من الكتب العربية ، التى استولى عليها النصارى من القواعد الأندلسية ، فأرسل إليه « ثلاثة عشر حملا » منها ، وأرسلها السلطان إلى فاس ، فكانت نواة المكتبة السلطانية . واتخذ المنصور أهباته الأخيرة نحو شئون الأندلس ، وندب ابنه الأمير أبا زيان للنظر على الثغور الأندلسية ، وأوصاه بألا يتدخل فى شئون ابن الأحمر . وكان من آثار التفاهم بين ابن الأحمر والمنصور ، أن أفسح ابن الأحمر لقرابة السلطان من بنى مرين النازحين إلى الأندلس مجال

السلطان والنفوذ فى بلاطه . وكان عدة من هؤلاء من خاصة الفرسان ومشاهير الغزاة ، فأسند ابن الأحمر إليهم رياسة الجند فى منصب عرف فى الخطط الغرناطية « بمشيخة الغزاة » ، ويحتله بالأخص رئيس من بنى العلاء المرينيين يسمى « شيخ الغزاة » ، وتولى بنو العلاء قيادة الجيوش الأندلسية عصراً ، وكانت لهم فى ميدان الحرب والجهاد مواقف مشكورة(١) .

ولابد لنا أن نذكر كلمة عن أصل مشيخة الغزاة هذه ، التى لبثت عصراً أهم المناصب العسكرية فى مملكة غرناطة ، ولبثت فى الوقت نفسه دهراً وقفاً على القادة من بنى مرين . وذلك أنه لما اتجه بنو الأحمر إلى الاستنجاد بإخوانهم فيما وراء البحر ، ملوك بنى مرين ، جريا على سنة الأندلس القديمة منذ عهد المرابطين ، استجاب لندائهم عاهل بنى مرين السلطان أبو يوسف بن عبد الحق ، وعبرت إلى الأندلس النجدات المرينية الأولى بقيادة أبى معرف محمد بن إدريس بن عبد الحق وأخيه عامر ، وهما من خاصة قرابة السلطان ، وانتزعت مدينة شريش من النصارى ، وذلك حسبما تقدم ذكره . وكان السلطان أبو يوسف يخشى من انتقاض فريق من القرابة وأبناء العمومة ، تجديداً للخصومة القديمة بين فرعى بنى مرين الملكيين ، وهما بنو عسكر وبنو حمامة ، فلم يجد خيراً من إرسال من يخشى بأسهم من هؤلاء إلى الأندلس باسم الجهاد ، وكان ابن الأحمر يستقبلهم بترحاب ومودة ، فاجتمع لديه عدة من أولاد بنى عبد الحق ؛ وكان ابن الأحمر يعقد لهم على قيادة الغزاة المجاهدين من زناتة ، وبنى مرين . وكان أول من عقد له القيادة منهم ، موسى ابن رحّو ، ثم عقد لأخيه عبد الحق ، ثم لغيرهما من القرابة(٢) وكان أول من استعملهم لقيادة الغزاة على هذا النحو السلطان محمد بن الأحمر الملقب بالفقيه .

ثم توالى عبور هؤلاء القادة إلى الأندلس . وكان معظمهم من قرابة السلطان والخارجين عليه . وكان فى مقدمة من نزح إلى شبه الجزيرة ، أبو العلاء ورحّو ابنا عبدالحق ، وأولاد أبى يحي بن عبدالحق وأولاد عثمان بن عبد الحق . واستقروا ، جميعاً بالأندلس فى كنف سلطان غرناطة ، وكانوا يرجعون فى رياستهم إلى كبيرهم عبد الله بن أبى العلاء . وعقد له ابن الأحمر محمد الفقيه على جند زناتة إلى أن هلك فى إحدى الغزوات ضد النصارى وذلك فى سنة ٦٩٣هـ ؛ ثم عقد ابن الأحمر ،

---

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٢٠٩ و ٢١٠ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٦٣٩ .

(٢) ابن خلدون فى كتاب العبر ج ٧ ص ٣٦٧ و ٣٦٨ .

السلطان أبو عبد الله المخلوع ، القيادة لأخيه عثمان بن أبي العلاء على حامية مالقة وغربها ، وكانت لنظر الرئيس أبي سعيد فرج بن إسماعيل . فلبث فى منصبه إلى أن وقع الخلاف بين سلطان غرناطة وسلطان المغرب أبي يوسف المريني ، وقام عثمان بن أبي العلاء فى ذلك بدور كبير ، سوف نأتى على تفاصيله فى موضعه[1] .

وقفل السلطان المنصور راجعاً إلى الجزيرة ليستجم ثم يعود إلى المغرب، ولكن لم تمض أشهر قلائل حتى أدركه المرض ، وتوفى بالجزيرة فى المحرم سنة ٦٨٥ هـ (مارس سنة ١٢٨٥م) ، بعد حياة حافلة بصنوف الجهاد المستمر ، سواء بالمغرب أو الأندلس .

وكان السلطان أبو يوسف المنصور من أعظم ملوك المغرب قاطبة ، وكان يعيد بشغفه بالجهاد ، ووفرة جيوشه وأهبته الحربية ، ذكرى أسلافه العظام ، من أمثال يوسف بن تاشفين ، وعبد المؤمن ، ويعقوب المنصور . وقد وصفه مؤرخ معاصر فيما يلي : « أبيض اللون ، تام القد ، معتدل الجسم ، حسن الوجه ، واسع المنكبين ، كامل اللحية ، معتدلها ، أشيب ، كأن لحيته من بياضها قطعة ثلج ، سمح الوجه ، كريم اللقاء ، شديد الصفح ، كثير العفو ، حليما ، متواضعا شفيعاً كريماً ، سمحاً ، جواداً ، مظفراً ، منصور الراية »[2] .

* * *

فخلفه على عرش المغرب ولده الأمير أبو يعقوب ، وكان مثل أبيه معنياً بشئون الأندلس خبيراً بها . واستمرت علائق بلاط غرناطة وبنى مرين أعواماً أخرى على حالها من المودة والصفاء ، وزادت توطداً حينما قبل سلطان المغرب ، أن ينزل لابن الأحمر طوعاً عن وادى آش . وذلك أن محمداً الفقيه كان قد عين صهره أبا إسحاق ابن أبي الحسن بن أشقيلولة حاكماً على قُمارش ووادى آش ، فلما توفى أبو إسحاق سنة ٦٨٢ هـ استرد ابن الأحمر قمارش ، وخرج عليه أبو الحسن ولد أبي إسحاق فى وادى آش ، وتحالف أولا مع قشتالة ، فلما عقد السلم بين المسلمين والنصارى ، أعلن أبو الحسن انضواءه تحت لواء ملك المغرب ، وأغضى ابن الأحمر حيناً عن تصرفه . فلما اتصلت وشائج المودة من جديد ، بينه وبين السلطان أبي يعقوب ، سأله التنازل عن وادى آش ، فأجابه إلى سؤله ، ورحل عنها الثائر أبو الحسن إلى المغرب

(١) كتاب العبر ج ٧ ص ٣٧٠ — ٣٧٢ .

(٢) نقلنا هذا الوصف من المخطوط المعنون : « الياقوتة الحلية » التى سبقت الإشارة إليه .

ملتجئاً إلى بلاط فاس . وبذا استطاع ابن الأحمر أن يبسط سلطانه على الأندلس كلها[1].

وفى أوائل سنة ٦٩٠ هـ (١٢٩١ م) أغار سانشو ملك قشتالة على الثغور الأندلسية ناكثاً لعهده ، فأرسل السلطان أبو يعقوب إلى قائده على الثغور أن يغزو شريش وأرض النصارى ، فزحف عليها وعاث فيها . وأعلن أبو يعقوب الجهاد ، وتقاطرت بعوث المجاهدين إلى الأندلس ، فبعث سانشو أسطوله إلى مياه المضيق ليحول دون وصول الأمداد ، فبعث السلطان أسطوله لمهاجمة السفن القشتالية ، ونشبت بين المسلمين والنصارى معركة بحرية هزم فيها المسلمون (أغسطس سنة ١٢٩١ م) . ولكن هذه الهزيمة لم تثن ملك المغرب عن عزمه ، فبعث أسطولا آخر لمقاتلة النصارى ، وانسحب النصارى هذه المرة . وعبر السلطان أبو يعقوب إلى الأندلس فى قواته فى رمضان سنة ٦٩٠ هـ ، واقتحم أرض النصارى ، وغزا شريش ووصل فى زحفه حتى أحواز إشبيلية وعاث فيها ، ثم عاد إلى الجزيرة ، وارتد عائداً إلى المغرب فى أوائل سنة ٦٩١ هـ .

وتوجس ملك قشتالة من مشاريع سلطان المغرب ، فسعى إلى محالفة ابن الأحمر وحذره من نيات المغاربة ، واستيلائهم على الثغور الأندلسية ، ولاسيما ثغر طريف مدخل الجزيرة ، وتفاهم الملكان على انتزاع هذا الثغر من المغاربة ، واشترط ابن الأحمر أن تسلم إليه طريف عقب انتزاعها . وسير سانشو أسطوله إلى مياه المضيق ليحاصر طريف من ناحية البحر ، وليحول دون وصول الأمداد إليها . وعسكر ابن الأحمر فى قواته بمالقة على مقربة منها ، يعاون النصارى بالأمداد والمؤن ، وصمدت حامية طريف أربعة أشهر ، ولكنها اضطرت فى النهاية إلى التسليم للنصارى (سبتمبر سنة ١٢٩٢م) . وهنا طالب ابن الأحمر سانشو بتسليمها فأبى وأعرض عنه ، مع أنه نزل له مقابلها عن عدد من الحصون الهامة ؛ فأدرك ملك غرناطة عندئذ خطأه فى الركون إلى وعود ملك قشتالة ، وفى مغاضبة ملك المغرب حليفه الطبيعى ، وسنده المخلص فى رد عدوان النصارى .

وعاد ابن الأحمر يخطب ود بنى مرين مرة أخرى ، وأوفد ابن عمه الرئيس أبا سعيد فرج بن اسماعيل ووزيره أبا سلطان عزيز الدانى على رأس وفد من كبراء الأندلس ، إلى السلطان أبى يعقوب فى طلب المودة ، وتجديد العهد ، والاعتذار عن مسلكه فى شأن طريف ، فأكرم السلطان وفادتهم ، وأجابهم إلى طلب الصلح .

---

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٢١٢ و ٢١٣ .

ولما عاد الوفد الى غرناطة، سُر ابن الأحمر من كرم السلطان ونبل مسلكه، واعتزم الرحلة للقائه بنفسه ، وتأكيد المودة والاعتذار ؛ فعبر البحر إلى العدوة فى أواخر سنة ٦٩٢هـ (١٢٩٢م) ومعه طائفة من الهدايا الفخمة، ونزل بطنجة حيث استقبله بعض أبناء السلطان ، ثم جاء السلطان بنفسه إلى طنجة ، وتلقاه بمنتهى الإكرام والحفاوة ، ونزل له ابن الأحمر عن الجزيرة ورندة وأراضى الغربية ، وعدة من الحصون كانت من قبل فى طاعة ملك المغرب . وعاد ابن الأحمر مغتبطاً بنجاح مهمته ؛ وأرسل السلطان معه حملة لغزو طريف بقيادة وزيره عمر بن السعود ، فحاصرتها حيناً ولكنها لم تظفر بافتتاحها[١] .

وكان لمحمد الفقيه ، بالرغم من سمته العلمية ، وقائع طيبة فى ميدان الجهاد ضد النصارى . ففى المحرم سنة ٦٩٥ هـ (أواخر ١٢٩٥ م) على أثر وفاة سانشو ملك قشتالة ، زحف جيشه على أراضى قشتالة ، وغزا منطقة جيَّان ، ونازل مدينة قيجاطة[١] واستولى عليها ، وعلى عدة من الحصون التابعة لها ، وأسكن بها المسلمين . وفى صيف سنة ٦٩٩ هـ (١٢٩٩م) ، غزا أراضى قشتالة مرة أخرى ، وزحف على مدينة القبذاق الواقعة جنوب غربى جيان ، ودخل قصبتها وتملكها ، وأسكن بها المسلمين[٢] .

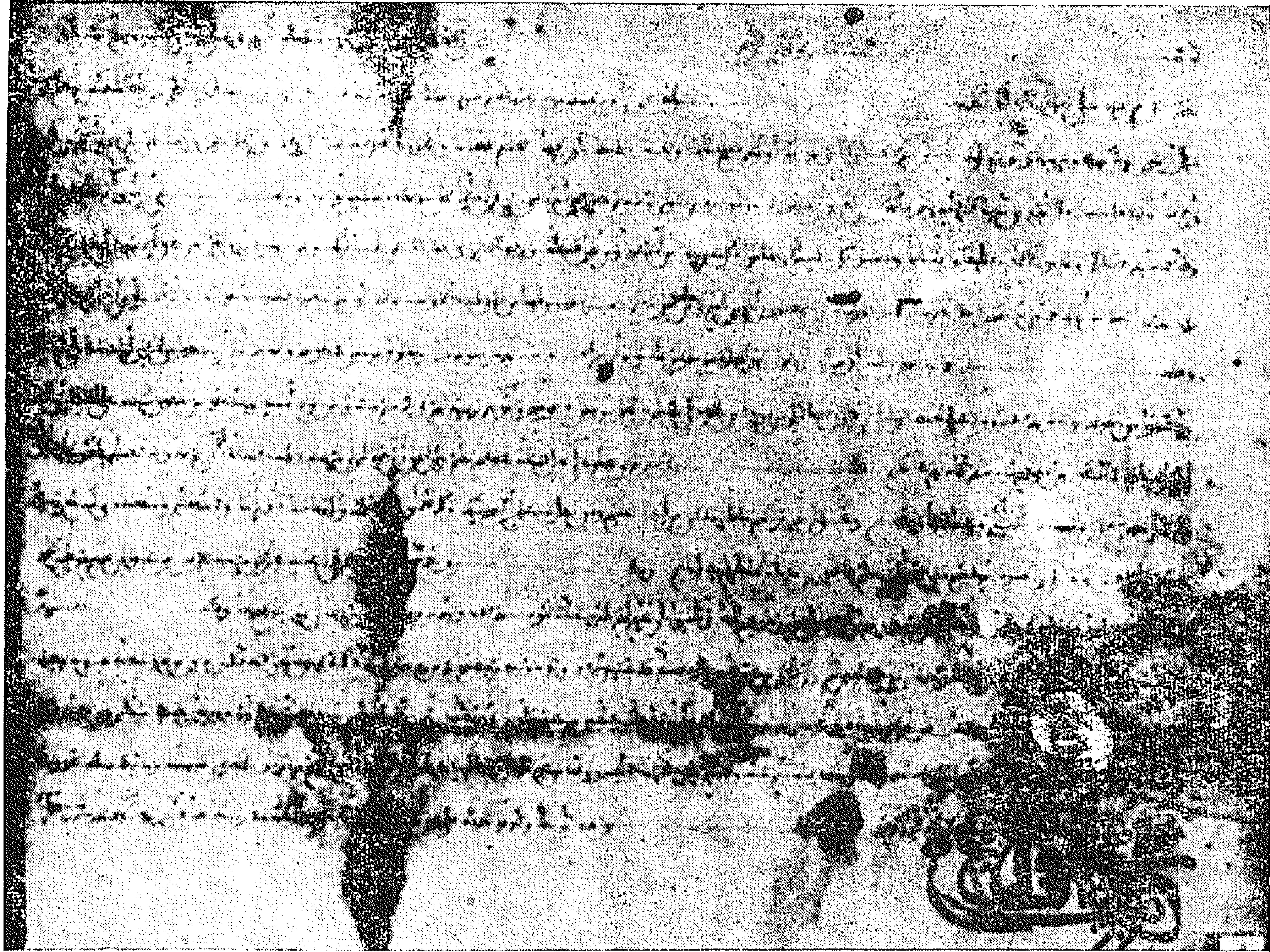
واستمر محمد بن محمد بن الأحمر أومحمد الفقيه فى حكم غرناطة أعواماً أخرى ، وهو ثابت العهد مقيم على صداقة بنى مرين . ومما هو جدير بالذكر أنه قبيل وفاته بقليل عقد معاهدة صلح وتحالف مع ملك أراجون خايمى الثانى ضد قشتالة، وذلك تجديداً وتعديلا لمعاهدة صلح سابقة عقدت بينهما فى سنة ٦٩٥ هـ (١٢٩٩ م) . وقد نص فى هذه المعاهدة الجديدة على عقد « صلح ثابت وصحبة صادقة » وأن يلتزم كل من الفريقين عدم الإضرار بالآخر على يد أحد من رعاياه ، وأن تكون أراجون معادية لأعداء غرناطة سواء من المسلمين أو قشتالة ، وأن يفتح بلد كل من الفريقين لمن يقصده من تجار البلد الآخر مؤمنين فى أنفسهم وأموالهم ، وأخيراً يتعهد ملك غرناطة بمعاونة أراجون ضد ملك قشتالة ، وألا يعقد معه صلحاً إلا

---

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٢١٧ .

(٢) مدينة قيجاطة هى بالإسبانية **Quesada** وتقع شمال شرقى مدينة جيان ، وجنوب شرقى مدينة أبدة . و القبذاق هى بالإسبانية **Alcaudete** .

(٣) الإحاطة فى أخبار غرناطة ج ١ ص ٥٦٩ .



صورة وثيقة التحالف والصلح المعقودة بين محمد بن الأحمر (محمد الثانى) ملك غرناطة وخايمى الثانى ملك أراجون فى ربيع الثانى سنة ٧٠١ ﻫ (ديسمبر ١٣٠١ م) ومحفوظة بدار محفوظات التاج الأرجونى ببرشلونة برقم ١٤٨ .

بموافقة حليفه ، ويتعهد ملك أراجون لسلطان غرناطة بمثل ما تقدم ، كما يتعهد السلطان بمعاونة حليفه بفرسان من عنده فى أرض مرسية إذا احتاج إلى هذا العون ، وألا يعترض سلطان غرناطة على ما يأخذه ملك أراجون من أراضى قشتالة ، إلا المواضع التى كانت لغرناطة ، فهذه ترد إليها . وقد وقعت هذه المعاهدة فى آخر ربيع الثانى سنة ٧٠١ هـ (٣١ ديسمبر سنة ١٣٠١ م)(١) ؛ ولم يمض على عقدها بضعة أشهر حتى توفى السلطان فى شعبان سنة ٧٠١ هـ (مايو سنة ١٣٠٢م) بعد أن حكم أكثر من ثلاثين عاماً ، وقد زاد ملك بنى الأحمر فى عهده توطداً واستقراراً ، بالرغم مما توالى فيه من الأحداث والخطوب . وكان وزيره فى أواخر عهده الكاتب والشاعر الكبير أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن الحكيم اللخمى وهو من مشايخ رندة ، وكان من قبل من كتابه فى ديوان الإنشاء ، وكان رجلا وافر العزم قوى الشكيمة ، ولقب بذى الوزارتين لجمعه بين الكتابة والوزارة ، وكان لحزمه وقوة نفسه أكبر أثر فى استقرار الأمور فى هذا العهد(٢) .

— ٢ —

وخلف محمداً الفقيه ولده أبو عبد الله محمد الملقب بالمخلوع ، وكان ضريراً ، وكان ذا نباهة وعزم ، عالماً شاعراً يؤثر مجالس العلماء والشعراء ، ويصغى إليهم ويجزل صلاتهم ، محباً للإصلاح والإنشاء . وكان بين منشآته المسجد الأعظم بالحمراء ، فهو الذى أمر ببنائه على أبدع طراز ، وزوده بالعمد والنقوش والثريات الفخمة ؛ ولكنه لم يحسن تدبير شئون الملك والسياسة ، وغلب عليه كاتبه ووزيره ووزير أبيه من قبل أبو عبد الله محمد بن الحكيم اللخمى ، فاستبد بالأمر دونه وحجر عليه ، فاضطربت الأمور ، وأخذت عوامل الانتقاض تجتمع وتبدو فى الأفق .

وفى عهده القصير ، اضطربت علائق مملكة غرناطة وبنى مرين مرة أخرى . والواقع أنه حاول فى بداية عهده ، أن يعمل على إحكام المودة بينه وبين بنى مرين ،

---

(١) حصلنا على صور فتوغرافية لأصل هذه الوثيقة وسائر الوثائق الأخرى التى تتضمن معاهدات أو مراسلات تبودلت بين ملوك غرناطة وملوك أراجون من دار المحفوظات ببرشلونة المسماة «محفوظات التاج الأرجونى» **Archivo de la Corona de Aragón** ، وتحفظ هذه الوثيقة بها برقم ١٤٨ . ومن جهة أخرى فقد نشر نصها فى مجموعة الوثائق الدبلوماسية التى أصدرها : **R. O. de Linares** و **Alarcón** بعنوان : **Los Documentos Arabes diplomaticos del Archivo de la Corona de Aragón (No. 3)**

(٢) يترجم له ابن الخطيب بإفاضة فى الإحاطة ج ٢ ص ٢٧٨ وما بعدها (طبعة قديمة) .

فأرسل وزير أبيه أبا سلطان عزيز الدانى ووزيره ابن الحكيم إلى سلطان المغرب ، ليجددا عهد المودة والصداقة ، فوفدا عليه وهو بمعسكره محاصراً لتلمسان ، فأكرم وفادتهما وطلب إليهما إمداده ببعض جند الأندلس الخبراء فى منازلة الحصون ، فأرسلت إليه قوة منهم أدت مهمتها أحسن أداء . ولاح أن أواصر المودة أضحت أشد ما يكون توثقاً بين الفريقين ، ولكن ابن الأحمر عرض له فجأة أن يعدل عن محالفة سلطان المغرب ، وأن يعود إلى محالفة ملك قشتالة ، فغضب السلطان أبو يعقوب لذلك ، ورد جند الأندلس (٧٠٣هـ) . وبدأ ابن الأحمر أعمال العدوان ، بأن أوعز إلى عمه وصهره الرئيس أبى سعيد فرج بن إسماعيل صاحب مالقة ، أن يحرض أهل سبتة فى الضفة الأخرى من البحر ، على خلع طاعة السلطان ، واستعد ابن الأحمر فى الوقت نفسه لمحاربة السلطان ، إذا عنّ له أن يعبر إلى الأندلس ، وجهز الرئيس أبو سعيد حملة بحرية فى مياه مالقة بحجة مدافعة النصارى ، ثم سيرها فجأة إلى سبتة ، وذلك فى شوال سنة ٧٠٥ هـ (١٣٠٦ م) . وكانت الحملة بقيادة عثمان بن أبى العلاء المرينى . فاستولت على سبتة ، وجاء الرئيس أبو سعيد فاستبد بأمرها ، وأعلن انضواءها تحت لواء ابن الأحمر ، وقبض على ابن العزفى حاكمها من قبل السلطان وآله ، وأرسل إلى غرناطة . ووقف السلطان أبو يعقوب على هذه الحوادث وهو تحت أسوار تلمسان ، فوجد لذلك الغدر ، وبعث حملة بقيادة ولده أبى سالم إلى سبتة فحاصرها حيناً ، ولكنه أخفق فى الاستيلاء عليها وارتد أدراجه ، وخرج فى إثره عثمان بن أبى العلاء فى جند الأندلس ، وعاث فى أحواز سبتة وما جاورها (سنة ٧٠٦ هـ) .

وكان لتطور الحوادث على هذا النحو أسوأ وقع فى نفس السلطان أبى يعقوب ؛ فاعتزم أن يسير بنفسه إلى استرداد سبتة ، ولكن حدث بينما كان يجد فى الأهبة أن اغتاله كبير الخصيان ، فى مؤامرة دبرها الخصيان للتخلص منه خوفاً من أن يبطش بهم ، فتوفى قتيلا فى ذى القعدة سنة ٧٠٦ هـ (أبريل سنة ١٣٠٧ م) ؛ ونشبت عقب مصرع السلطان حرب أهلية حول العرش بين ولديه أبى ثابت وأبى سالم ، هزم فيها أبو سالم وقتل ، واستقر أبو ثابت على العرش .

وفى ذلك الحين كان عثمان بن أبى العلاء المرينى ، يتوغل بجنده فى شمال المغرب ، وكان هذا الجندى الجرىء يتجه بأطماعه نحو عرش المغرب ، ويعتمد فى تحقيق مشروعه على أنه سليل بنى مرين . ولما توغل بجنده جنوبا ، دعا لنفسه بالملك

واستولى على بعض الحصون ، وأيدته بعض القبائل ، وهزم عساكر السلطان أبي يعقوب حينما تصدت لوقفه وانتهز فرصة مصرع السلطان ونشوب الحرب الأهلية بين ولديه ، فزاد إقداما وتوغلا واستفحل أمره ، ولاح الخطر يهدد ملك بني مرين .

وما كاد السلطان أبو ثابت يستقر في عرش أبيه ، حتى اعتزم أمره للقضاء على تلك الحركة الخطيرة ، واسترداد سبتة ، فسار إلى الشمال على رأس جيش ضخم في شهر ذى الحجة سنة ٧٠٧ هـ ؛ ولما شعر عثمان بن أبي العلاء بوفرة قوته وأهبته ، بادر بالفرار مع جنده خشية لقائه ، وزحف السلطان على الحصون الخارجة عليه فأثخن فيها واستولى عليها ، ثم سار إلى طنجة ؛ وامتنع عثمان بن أبي العلاء بقواته في سبتة ، فسار إليها السلطان وضرب حولها الحصار الصارم ، وأمر ببناء بلدة تيطاوين (تطوان) لنزول عسكره ، ولكنه مرض أثناء ذلك وتوفى في صفر سنة ٧٠٨ هـ (يوليه سنة ١٣٠٨ م)(١) .

فخلفه في الملك أخوه السلطان سليمان أبو الربيع ، وارتد بالجيش إلى فاس تاركا سبتة لمصيرها . فخرج في أثره عثمان بن أبي العلاء في قواته ، ونشبت بين الفريقين معركة هزم فيها عثمان ، وقتل من الأندلسيين عدد جم ؛ وخشي عثمان العاقبة فعاد مع آله إلى الأندلس ولحق بغرناطة ، وتابع السلطان أبو الربيع سيره إلى فاس واستقام له الأمر .

ولم تمض على ذلك أشهر قلائل حتى وقعت بالأندلس حوادث هامة . ذلك أن عوامل الإنتقاض التى لبثت بضعة أعوام تعمل عملها في ظل محمد المخلوع ، تمخضت في النهاية عن نشوب الثورة . وكان مدبرها ومثير ضرامها أخوه أبو الجيوش نصر بن محمد الفقيه ، ومن ورائه رهط من أكابر الدولة ، سئموا نظام الطغيان الذى فرضه محمد المخلوع ووزيره ابن الحكيم . واضطرمت الثورة في يوم عيد الفطر سنة ٧٠٨ هـ (أوائل سنة ١٣٠٩م) . ووثب الخوارج بالوزير ابن الحكيم فقتلوه ، واعتقلوا السلطان محمداً ، وأرغموه على التنازل عن العرش . وتربع أخوه نصر مكانه في الملك ، ونفى السلطان المخلوع إلى حصن المنكب ، حيث قضى خمسة أعوام في أصفاد الأسر ، ثم أعيد بعد ذلك مريضاً إلى غرناطة حيث توفى في سنة ٧١٣هـ(٢) .

ووقف سلطان المغرب على حوادث الأندلس ؛ وبلغه أن أهل سبتة قد سئموا

---

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٢٣٧ .

(٢) الإحاطة ج ١ ص ٥٥٢ — ٥٦٤ ، واللمحة البدرية ص ٤٨ — ٥٤ .

نير الأندلسيين ، فبعث إليها حملة بقيادة تاشفين بن يعقوب ، فلما وصلت إليها ثار أهل البلد ، وطردوا منها جند ابن الأحمر وعماله ، ودخلتها فى الحال جند المغرب واستولوا عليها ، وذلك فى شهر صفر سنة ٧٠٩ هـ (يوليه ١٣٠٩م) . واغتبط السلطان لانتهاء هذه المغامرة التى شغلت بنى مرين بضعة أعوام .

وكان سلطان غرناطة الجديد يوم جلوسه فتى فى الثالثة والعشرين من عمره ، وكان ولوعاً بالأبهة والمظاهر الملوكية . وكان فى الوقت نفسه أديباً عالماً بارعاً فى الرياضة والفلك ، وقد وضع جداول فلكية قيمة . ولكنه لم يحسن السيرة ، ولم يوفق فى تدبير الأمور . وسرعان ما سخط عليه الشعب كما سخط على أخيه من قبل . فاضطربت الأحوال ، وتوالت الأزمات ، وكانت حوادث سبتة نذيراً بتفاقم التوتر بين بلاط غرناطة وبلاط فاس . ومن جهة أخرى فقد ساءت العلائق بين غرناطة وقشتالة ، وانتهز القشتاليون كعادتهم فرصة اضطراب الأحوال فى غرناطة ، فغزوا أرض المسلمين فى أوائل سنة ٧٠٩ هـ (١٣٠٩ م) ، ووضع فرناندو الرابع ملك قشتالة مشروعا جريئاً للاستيلاء على جبل طارق . وكانت الأمداد المغربية قد انقطعت منذ استولى النصارى على طريف ، وشغل بنو مرين بالحوادث ، والثورات الداخلية ، وساءت علائقهم ببنى الأحمر . ورأى فرناندو الرابع أن الفرصة سانحة ليضرب ضربته المفاجئة ، فغزا الجزيرة الخضراء ، وبعث أسطوله لحصار جبل طارق من البحر ، وأوعز فى الوقت نفسه إلى خايمى ملك أراجون أن يحاصر ثغر ألمرية لكى يشغل قوات الأندلس فاستجاب لتحريضه ، وذلك بالرغم من معاهدة التحالف والصداقة التى كانت تربطه بسلطان غرناطة . وبدأ حصار ألمرية وجبل طارق فى وقت واحد فى أوائل سنة ٧٠٩ هـ ، وبذل النصارى للاستيلاء على ألمرية جهوداً فادحة ، ونصبوا على أسوارها الآلات الضخمة ، وحفروا فى أسفل السور نفقاً واسعاً لدخولها ؛ فلقيهم المسلمون تحت الأرض وردوهم بخسارة فادحة ؛ ونشبت على مقربة من ألمرية معركة بين جند الأندلس بقيادة عثمان بن أبى العلاء وجند أراجون ، فهزم النصارى واضطروا إلى رفع الحصار ، ونجت ألمرية من خطر السقوط(١) . ولكن ثغر جبل طارق كان أسوأ طالعا . فقد شدد النصارى حوله الحصار من البر والبحر ، وبالرغم من هزيمتهم أمام المسلمين على مقربة من جبل طارق ، فقد لبثوا على حصاره بضعة أشهر حتى

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٢٤٠ ؛ واللمحة البدرية ص ٦٢ .

أضنى الحصار المسلمين وأرغموا على التسليم. وسقط الثغر المنيع فى يد النصارى فى أواخر سنة ٧٠٩ هـ (مارس سنة ١٣١٠ م) فكان لسقوطه وقع عميق فى الأندلس والمغرب معا؛ فقد كان باب الأندلس من الجنوب، وكان صلة الوصل المباشر بين المملكتين الإسلاميتين.

وأدرك ابن الأحمر على أثر هذه النكبة، فداحة الخطأ الذى ارتكبه بمجافاة بنى مرين، فبادر بإرسال رسله إلى السلطان أبى الربيع يبدى أسفه على ما سلف، ويسأله الصفح والصلح؛ فأجابه السلطان إلى طلبه، ونزل ابن الأحمر للسلطان عن الجزيرة ورندة وحصونها ترضية له وترغيباً فى الجهاد، واقترن بأخت السلطان توثيقاً لوشائج المودة، وأرسل السلطان إليه المدد والأموال، وعادت علائق التفاهم والتحالف بين غرناطة وفاس إلى سابق عهدها.

على أن هذا التحسن فى علائق المملكتين الإسلاميتين، لم يثن النصارى عن مشاريعهم تجاه غرناطة. ذلك أن الجيوش المغربية لم تعد تعبر إلى الجزيرة بكثرة. وكانت أحوال المغرب تعوق بنى مرين عن استئناف الجهاد فى الأندلس على نطاق واسع، وكانت أحوال غرناطة من جهة أخرى تشجع النصارى على التحرش بها والإغارة على أراضيها. ولما رأى السلطان نصر تفاقم الأمور واشتداد بأس النصارى، لم ير وسيلة لاجتناب الخطر الذى يهدده سوى مصانعة فرناندو الرابع ملك قشتالة والتعهد له بأداء الجزية. وكان ذلك مما زاد فى سوء سيرته وفى سخط الشعب عليه. ولم تلبث أعراض الثورة أن ظهرت فى الجنوب حيث أعلن الرئيس أبو سعيد فرج بن إسماعيل النصري صاحب مالقة وابن عم أبى السلطان، الخروج والعصيان. ورشح الخوارج للملك مكان نصر، أبا الوليد اسماعيل وهو حفيد لإسماعيل أخى محمد بن الأحمر رأس الأسرة النصرية. ولم يمض سوى قليل حتى استطاع أبو سعيد وشيعته التغلب على ألمرية وبلّش وغيرهما من القواعد الجنوبية. وفى أوائل سنة ٧١٢ هـ (١٣١٣ م) سار فى قواته إلى غرناطة، وهرع السلطان نصر إلى لقائه فكانت الهزيمة على نصر، فلجأ إلى غرناطة؛ ولكنه لم يلبث أن أذعن واضطر إلى التنازل عن العرش، وسار بأهله إلى وادى آش، وتولى حكمها حتى توفى سنة ٧٢٢ هـ (١٣٢٢ م)[١].

---

(١) الإحاطة ج ١ ص ٣٩٣ و ٣٩٤؛ واللمحة البدرية ص ٥٧ — ٦٣.

الفصل السابع

مملكة غرناطة في النصف الأول من القرن الثامن الهجرى

وذروة الصراع بين بنى مرين واسبانيا النصرانية

ولاية السلطان أبي الوليد اسماعيل . زحف القشتاليين على غرناطة . هزيمتهم ومقتل أمرائهم . سوء الأحوال فى قشتالة . تجديد الصلح بين غرناطة وأراجون . غزوات المسلمين فى أراضى النصارى . مقتل السلطان إسماعيل وخلاله . ولاية ولده أبي عبد الله محمد . بطشه بوزيره ابن المحروق . الخلاف بينه وبين شيوخ الغزاة . الحاجب أبو النعيم رضوان . استنجاد ملك غرناطة بملك المغرب . أبو الحسن يرسل الأمداد مع ولده . غزو الأندلسيين للجزيرة الخضراء . حصارهم لجبل طارق واستر داده من النصارى . المؤامرة على السلطان ومصرعه . السلطان أبو الحجاج يوسف . نكبته لبنى العلاء . الحاجب رضوان وخلاله . استئثاره بالسلطة . نفيه وعوده إلى الوزارة . الوزير ابن الجياب . بداية ظهور ابن الخطيب . تحرش القشتاليين بالمسلمين . قدوم الأمداد من المغرب . هزيمة المغاربة ومقتل قائدهم . عبور السلطان أبي الحسن إلى الأندلس . موقعة سالادو وهزيمة المسلمين . سقوط طريف والجزيرة الخضراء فى يد النصارى . مسير السلطان أبي الحسن للمرة الثانية . هزيمته فى البر والبحر. تبادل المكاتبة والسفارة بين أبي الحسن وسلطان مصر . تجديد الصلح مع أراجون . الوباء الكبير . عود القشتاليين إلى الغزو . حصارهم لجبل طارق . تفشى الوباء بين النصارى ومصرع ملك قشتالة . نجاة جبل طارق . أقوال ابن الخطيب . وصف ابن بطوطة لحوادث الأندلس وأحوالها . مصرع السلطان أبي الحجاج يوسف. وصف ابن الخطيب للحادث . خلال يوسف . استعراض للعلائق بين بنى الأحمر وبنى مرين .

جلس السلطان أبو الوليد اسماعيل على عرش غرناطة فى شوال سنة ٧١٣ هـ (١٣١٤م)، وامتاز عصره بتوطد الملك، واستقرار الأمور، واحياء عهد الجهاد . وفى أوائل عهده غزا القشتاليون كعاتهم بسائط غرناطة واستولوا على عدة من القواعد والحصون، وهزموا المسلمين هزيمة شديدة فى وادى فرتونة (٧١٦ هـ) . ولما رأى القشتاليون نجاح غزوتهم اعتزموا منازلة الجزيرة الخضراء والاستيلاء عليها ليحولوا دون وصول الأمداد إلى المسلمين من عدوة المغرب . ولكن السلطان إسماعيل بادر إلى تحصينها وجهز الأساطيل لحمايتها من البحر، فعدل القشتاليون عن مشروعهم، وعولوا على مهاجمة الحاضرة الإسلامية ذاتها . وبادر ابن الأحمر بطلب الغوث والإمداد من السلطان أبي سعيد سلطان المغرب، فنكل عن معاونته،

وطالب بتسليم عثمان بن أبى العلاء لما كان منه فى حق بنى مرين ، فأبى ابن الأحمر خشية العواقب ؛ وزحف القشتاليون على غرناطة بجيش ضخم ، يقوده الدون پيدرو (دون بطره) والدون خوان الوصيان على ألفونسو الحادى عشر ملك قشتالة ، ومعهما عدة من الأمراء القشتاليين ، وفرقة من المتطوعة الإنجليز بقيادة أمير إنجليزى ، فبادر المسلمون إلى لقائهم فى هضبة إلبيرة على مقربة من غرناطة . وكان الجيش الغرناطى لا يجاوز ستة أو سبعة آلاف جندى منهم نحو ألف وخمسمائة فارس ، ولكنهم صفوة المقاتلة المسلمين ، وكان قائده شيخ الغزاة أبو سعيد عثمان بن أبى العلاء ، جنديا جريئاً وافر العزم والبسالة ، فلم ترعه كثرة الجيش المهاجم ، وعول فى الحال على لقائه فى معركة حاسمة . وفى ٢٠ من ربيع الثانى سنة ٧١٨ﻫ (مايو سنة ١٣١٨م) التقى فرسان الأندلس بطلائع النصارى وردوهم بخسارة فادحة . ثم زحف أبو سعيد فى نخبة من جنده ، ونشبت بين الفريقين موقعة شديدة ، كانت الدائرة فيها على القشتاليين ، فمزقوا شر ممزق ، وقتل منهم عدد جم ، بينهم دون پيدرو ودون خوان ، ورهط كبير من الأمراء والنبلاء والأحبار ، وغرق منهم عند الفرار فى نهر شنيل عدة كبيرة ، وأسر منهم بضعة آلاف ، واستمر القتال والأسر فيهم ثلاثة أيام . وخرج أهل غرناطة فرحين مستبشرين ، يجمعون الأسلاب والأسرى ، وظفر المسلمون بغنائم عظيمة ، منها مقادير كبيرة من الذهب والفضة . وكان على العموم نصراً مشهوداً أعاد ذكرى الجهاد المجيد . وكان معظم الفضل فى إحرازه يرجع إلى الجند المغاربة وإلى شيوخهم بنى العلاء الذين تزعموا الجيوش الأندلسية ، وتولوا قيادتها فى تلك الفترة حسبما أسلفنا . ويعلل ابن خلدون ظهور القادة والجند المغاربة فى ميدان الجهاد بقرب عهدهم بالتقشف والبداوة . ووضع المسلمون جثة الدون پيدرو فى تابوت من ذهب على سور الحمراء تنويهاً بالنصر ، وتخليداً لذكرى الموقعة(١) .

والواقع أن مملكة قشتالة كانت فى أوائل القرن الرابع عشر فى حالة سيئة ، وقد نفدت مواردها من الرجال والأموال ، بسبب الحروب والثورات المتواصلة ، والمرض والقحط ؛ وكان إسراف البلاط وبذخ الحلائل ، واختلاس الموظفين ، ومطالب رجال الدين ، وجشع الأشراف ، تستنفد الأموال العامة ؛ وكانت

(١) راجع فى تفاصيل هذه الموقعة الشهيرة ، ابن خلدون ج ٤ ص ١٧٢ ، و ج ٧ ص ٢٥٠ ؛ والإحاطة ج ١ ص ٣٩٧ ؛ والمقرى فى نفح الطيب ج ١ ص ٢١٠ .

صورة معاهدة الصلح التى عقدت بين السلطان أبى الوليد اسماعيل بن فرج بن نصر ملك غرناطة ، وخايمى الثانى ملك أراجون فى ربيع الثانى سنة ٧٢١ هـ (مايو ١٣٢١ م) وهى محفوظة بدار محفوظات التاج الأرجونى ببرشلونة برقم ١٥١ .

الإدارة المالية فى يد اليهود ورجال الكنيسة وكلاهما يناوئ الآخر ، ويعمل على إحباط مساعيه ؛ وكانت الوصايات المتعاقبة ، وما تعمد إليه من اغتصاب الأموال ، وسوء استعمال السلطة ، وفساد القضاء ، وتطاول الخلائل الملكية ، وسحق الحقوق العامة والخاصة ، وتفشى الجريمة ، تثير غضب الشعب وسخطه ؛ وكان اللون الصليبى للحروب الإسبانية فى ذلك العصر يوطد نفوذ جماعات الفرسان الدينية العديدة ، وهى التى كانت فى الواقع توجه مصاير الحرب والسياسة ، بيد أنها كانت تخفى تحت ستار الدين رذائل كثيرة من الفجور والجشع والارتشاء وغيرها[١] .

وفى سنة ٧٢١ هـ (١٣٢١ م) جدد السلطان إسماعيل معاهدة الصلح مع ملك أراجون خايمى الثانى وذلك تحقيقاً لرغبته ؛ ونص فى المعاهدة الجديدة على أن يعقد بين الفريقين صلح ثابت لمدة خمسة أعوام ، تؤمن خلالها أرض المسلمين بالأندلس وأرض أراجون تأميناً تاماً براً وبحراً ، وأن تباح التجارة لرعايا كل من الفريقين فى أرض الآخر ، وأن يتعهد كل من الملكين بمعاداة من يعادى الآخر ، وأن لا يأوى له حلواً أو يحميه ، وأن تكون سفن كل فريق وشواطئه ومراسيه آمنة ، وأن يسرح كل فريق من يؤسر فى البحر من رعايا الفريق الآخر . وتضمنت المعاهدة أيضاً نصاً خاصاً بتعهد ملك أراجون بألا يمنع خروج المدجنين من أراضيه إلى أرض المسلمين بأهلهم وأولادهم وأموالهم ، وهو نص يلفت النظر ، إذ كان المدجنون فى هذا العصر يؤلفون أقليات كبيرة فى بلنسية ومرسية وشاطبة وغيرها من القواعد الشرقية ، وكان ملوك أراجون يحرصون على بقائهم وعدم هجرتهم لأسباب اقتصادية وعمرانية[٢] .

وعلى أثر موقعة إلبيرة تعاقبت غزوات المسلمين فى أراضى النصارى وعادت الدولة الإسلامية الفتية تجوز عهداً من القوة بعد أن لاح أنها شارفت طور الفناء .

ففى سنة ٧٢٤هـ (١٣٢٤م) زحف السلطان إسماعيل على مدينة بيّاسة الحصينة وحاصرها بشدة ، وأطلق المسلمون عليها الحديد والنار من آلات قاذفة تشبه المدافع حتى سلمت . وفى رجب من العام التالى (٧٢٥ هـ) سار اسماعيل إلى مرتش واستولى عليها عنوة ، وكانت أعظم غزواته ، وامتلأت أيدى المسلمين بالسبى والغنائم . ثم عاد السلطان إلى غرناطة مكللا بغار النصر . بيد أنه لم تمض على عوده

---

(١) راجع : Scott : ibid ; V. II. p. 476-78

(٢) Archivo de la Corona de Aragón, No. 151

ثلاثة أيام حتى قتل بباب قصره غيلة . وكان قاتله ابن عمه محمد بن إسماعيل صاحب الجزيرة ، وقد حقد عليه لأنه انتزع منه جارية رائعة الحسن ، ظفر بها فى موقعة مرتش ، وبعث بها إلى حريمه بالقصر . ولما عاتبه محمد رده بجفاء وأنذره بمغادرة البلاط ، فتربص به وطعنه بخنجره وهو بين وزرائه وحشمه ، فحمل جريحاً حيث توفى على الأثر . وكان مصرعه فى السادس والعشرين من رجب سنة ٧٢٥ هـ (يونيه سنة ١٣٢٥ م) .

وكان السلطان إسماعيل يتمتع بخلال باهرة ، وكان يشتد فى إخماد البدع وإقامة الحدود . وفى عهده حرمت المسكرات وطورد الفساد الأخلاقى ، وحرم جلوس الفتيات فى ولائم الرجال ، وعومل اليهود بشىء من الشدة ، وألزموا أن يتخذوا لهم شعاراً خاصاً بهم ، هو عبارة عن العمائم الصفراء(١) .

فخلفه ولده أبو عبد الله محمد وهو فتى يافع لم يجاوز الحادية عشرة من عمره ، وكانت أمه نصرانية تدعى علوة ، وأخذ له البيعة وزير أبيه أبو الحسن بن مسعود ، وقام بكفالته بضعة أشهر حتى توفى ، ثم خلفه فى الوزارة وكيل أبيه محمد بن أحمد ابن المحروق ، فاستبد بالأمور واستأثر بكل سلطة ؛ فحقد عليه السلطان الفتى وكان رغم حداثته مقداماً قوى النفس ، ولم يلبث أن بطش بوزيره المتغلب عليه ، فقتل بأمره فى المحرم سنة ٧٢٩ هـ .

وكان من أوائل أعماله تجديد معاهدة الصداقة مع أراجون ، وكان ملكها خايمى الثانى قد أوفد إليه سفيره يطلب إليه تجديد معاهدة الصلح والصداقة التى عقدت بينه وبين أبيه ، وانقضى أجلها المحدد بانقضاء أعوامها الخمسة ، فوافق السلطان على تجديدها بسائر نصوصها وشروطها ، ووقعت المعاهدة الجديدة فى جمادى الثانية سنة ٧٢٦ هـ (مايو سنة ١٣٢٦ م)(٢) .

ولأول عهده نشب الخلاف بينه وبين شيوخ الغزاة المغاربة ، وعلى رأسهم عثمان بن أبى العلاء ، وامتنعوا ببعض الثغور الجنوبية ولاسيما ألمرية ، وانضم إليهم عم السلطان ، محمد بن فرج بن إسماعيل ، فقاموا بدعوته ، ونشبت بين الفريقين عدة مواقع محلية ، كان النصر فيها سجالا بينهما . وانتهز القشتاليون كعادتهم تلك

---

(١) الإحاطة ج ١ ص ٣٩٥ — ٤٠١ ؛ واللمحة البدرية ص ٧١ — ٧٤ .

(٢) Archivo de la Corona de Aragón, No. 148

الفرصة ، فأثخنوا فى الأراضى الإسلامية ، واستولوا على ثغر بيره وعدة من الحصون(١). ولما تفاقم عيث النصارى آثر السلطان التفاهم مع الخوارج عليه ، وعقدت بينهما الهدنة على أن يستقروا بوادى آش باسمه وتحت طاعته . وتولى تدبير الأمور بعد مقتل ابن المحروق ، الحاجب أبو النعيم رضوان النصرى ، فهدأت الفتنة واستقرت الأمور نوعاً . ولكن ابن الأحمر كان يتوجس شراً من اضطراب الأحوال فى مملكته ومن تربص النصارى بها ، ورأى أن يتجه بصريخه إلى بنى مرين مرة أخرى ، وكانت العلائق يومئذ على صفائها بين غرناطة وفاس . وكان بنو مرين حينما شغلوا بشئونهم الداخلية قد تركوا الجزيرة وحصونها لابن الأحمر (سنة ٧١٢ هـ) ، فلما اشتدت وطأة النصارى على غرناطة ، عاد ابن الأحمر فنزل عن الجزيرة إلى ملك المغرب السلطان أبى سعيد (سنة ٧٢٩ هـ) ، لتكون رهينة ومنزلا للأمداد المرجوة من وراء البحر ؛ ولكن النصارى استولوا على معظم حصونها ، وأضحى طريق الجواز ولاسيما بعد ضياع جبل طارق عسيراً محفوفاً بالمخاطر . وعبر ابن الأحمر البحر فى أواخر سنة ٧٣٢ هـ إلى عدوة المغرب ، وقصد إلى فاس مستنجداً بملك المغرب ، السلطان أبى الحسن على بن عثمان بن أبى يعقوب المرينى ، فاستقبله السلطان بمنتهى الحفاوة ، وشرح له ابن الأحمر ما انتهت إليه شئون الأندلس ، وما ترتب على سقوط جبل طارق من قطع صلة الوصل بين المملكتين ، ورجاه الغوث والعون .

والواقع أن استيلاء النصارى على جبل طارق فى سنة ٧٠٩ هـ (١٣١٠ م) كان أعظم نكبة منيت بها الأندلس منذ سقوط قواعدها الكبرى . وقد شعرت حكومة غرناطة بفداحة النكبة ، وازداد منذ وقوعها توجسها من المستقبل . ولقد أتيح لنا أن نزور هذه الصخرة الهائلة ، وأن نشهد مبلغ روعتها ومنعتها . وكان المسلمون قد جددوا تحصيناتها فى منتصف القرن السادس الهجرى حينما عبر إليها خليفة الموحدين عبد المؤمن بن على (٥٥٥ هـ) ، وأسماها جبل الفتح ، وأمر بتجديد حصنها الذى ما يزال قائماً حتى اليوم فوق الصخرة من ناحيتها الشمالية . وكان سلطان غرناطة يتوق إلى استرداد هذا المعقل المنيع درع مملكته من الجنوب . وكان السلطان أبو الحسن مشغوفاً بالجهاد واستئناف ما تصرم من أسبابه . وكان فوق اضطرامه بعاطفة الجهاد ، يرى خطر اسبانيا النصرانية يلوح داهماً ليس على الأندلس فقط ،

---

(١) الإحاطة ج ١ ص ٥٤٤ . وبيره Vera بلدة حصينة تقع فى شمال شرق ولاية ألمرية على مقربة من البحر .

صورة وثيقة عقدت بين السلطان أبي عبد الله محمد بن إسماعيل وخايمي الثاني ملك أراجون بتجديد معاهدة الصلح التي عقدت بين والده وخايمي في سنة ٧٢١ هـ ، مؤرخة في جمادى الثانية سنة ٧٢٦ هـ (١٣٢٩ م) ومحفوظة بدار محفوظات التاج الأرجوني ببرشلونة برقم ١٥٤ .

بل وعلى المغرب أيضاً . ذلك لأن الأندلس أخذت تبدو من ذلك الحين جناح المغرب ، وخطه الدفاعي الأول من الشمال ، ولابد من تأمين هذا الخط والسهر على سلامته ، وذلك بدعم قوة الأندلس وتأييدها ، ورد خطر النصارى عنها . ومن ثم فقد استجاب أبو الحسن لدعوة ابن الأحمر وبعث معه الأمداد بقيادة ولده أبي مالك ، لمنازلة جبل طارق وافتتاحها ، وتلاحقت في أثرهم السفن تحمل المدد والعُدد والمؤن . وحشد ابن الأحمر قواته ، وزحف على الجزيرة واستولى عليها . وطوق المسلمون جبل طارق من البر والبحر ، ورابط أسطول المغرب في مياه المضيق ليحول دون وصول الأمداد إلى النصارى ، وهرع ملك قشتالة (ألفونسو الحادى عشر) في قوة من الفرسان لإنجاد الحامية المحصورة ، فبادر ابن الأحمر إلى مهاجمة النصارى ، وهزمهم أمام جبل طارق تجاه البرزخ الإسباني . وكان أكبر الفضل في إحراز هذا النصر راجعاً إلى همة الحاجب رضوان النصرى وإقدامه وبراعته . ثم شدد المسلمون الحصار على الثغر ، وقطعوا كل صلاته من البر والبحر ، فلم تمض بضعة أسابيع حتى ساءت حال الحامية النصرانية ، واضطرت إلى التسليم قبل مقدم الجيش القشتالي . وبذلك استعاد المسلمون الثغر المنيع في أواخر سنة ٧٣٣هـ (١٣٣٣ م) بعد أن لبث في حوزة النصارى أربعة وعشرين عاماً ، وكان أكبر الفضل في استرداده راجعاً إلى معاونة السلطان أبي الحسن في البر والبحر . ولما رابط المسلمون والنصارى في الميدان وجهاً لوجه ، ورأى ملك قشتالة أنه لا أمل في كسب معركة انتهت فعلا بظفر المسلمين ، آثر الصلح ، وانتهى الأمر بعقد الهدنة بين الملكين[1]. واعتزم السلطان محمد بن اسماعيل (ابن الأحمر) العودة بجنده إلى غرناطة ، ولكنه ما كاد يغادر جبل طارق في اليوم التالي عائداً إلى عاصمة ملكه ، حتى اغتاله في الطريق جماعة من المتآمرين بتحريض بني أبي العلاء ، (ذى الحجة سنة ٧٣٣هـ) . وكان أولئك القواد المغاربة وعلى رأسهم شيخهم عثمان ابن أبي العلاء قد استفحل أمرهم في الدولة ، وأخذوا ينازعون السلطان في أمر تصرفاته ، ولما توفى شيخ الغزاة عثمان ابن أبي العلاء في سنة ٧٢٩ هـ عين مكانه في المشيخة ولده أبو ثابت عامر ، فاستمر يمارس سلطان أبيه ونفوذه ، وتدخله في شئون الدولة ، وكان يؤازره إخوته إدريس ، ومنصور ، وسلطان . وبدأ ابن الأحمر

---

(١) الإحاطة ج ١ ص ٥٤٠ — ٥٥٢ ؛ واللمحة البدرية ص ٧٧ — ٨٢ ؛ وابن خلدون ج ٧ ص ٢٥٥ .

يتبرم بتدخلهم واستبدادهم ، وكان حينما عبر السلطان أبو الحسن قد خاطبه فى شأنهم وفى سبيل الخلاص منهم، واستراب بنو العلاء منه وتوجسوا شراً، فأتمروا به للتخلص منه قبل أن يبطش بهم ، ولحق به المتآمرون حين عوده واغتالوه طعناً بالرماح، وتركت جثته فى العراء حيناً حتى نقلت بعد ذلك إلى مالقة ودفنت بها[١].

— ٢ —

وولى العرش من بعده أخوه أبو الحجاج يوسف بن أبى الوليد إسماعيل ، وهو فتى فى السادسة عشرة . وكان من أعظم ملوك بنى نصر وأبعدهم همة وأرفعهم خلالا . وكان عالماً شاعراً يحمى الآداب والفنون ، وهو الذى أضاف إلى قصر الحمراء أعظم منشآته وأروعها . وما كاد يتبوأ العرش حتى عنى بتتبع بنى أبى العلاء قتلة أخيه ، وتجريدهم من وظائفهم وتمزيق عصبتهم والقبض على شيوخهم ، وكان ذلك فى الوقت نفسه تحقيقاً لرغبة السلطان أبى الحسن . ثم نفاهم فى السفن إلى تونس ، وانتهت بذلك رياستهم بالأندلس ، بعد أن طالت زهاء نصف قرن . ولما نزلوا على سلطان تونس أبى يحيى الحفصى ، طالب السلطان أبو الحسن بتسليمهم فأرسلهم إليه أبو يحيى ولكن مع طلب الشفاعة فيهم ، فعفا عنهم أبو الحسن ، وأكرم مثواهم مدى حين ، ولكنه عاد فقبض عليهم بتهمة التآمر عليه ، وأودعهم ظلام السجن[٢] .

وعهد السلطان أبو الحجاج بمشيخة الغزاة ، بعد سحق بنى أبى العلاء على النحو المتقدم ، إلى زعيم آخر من قرابة بنى مرين هو يحيى بن عمر بن رحّو ، فاضطلع بها على خير وجه ، ولبث مضطلعاً بها طول عصر أبى الحجاج .

وقام بتدبير الأمور للسلطان أبى الحجاج وزير أخيه الحاجب أبو النعيم رضوان ، وكان هذا الوزير القوى الذى لعب فى تاريخ غرناطة دوراً ذا شأن ، من أصل نصرانى قشتالى أوقطلونى ، وسبى طفلا فى بعض المواقع ، فأخذ إلى الدار السلطانية ، ونشأ فى بلاط السلطان أبى الوليد إسماعيل[٣]. وظهرت نجابته وصفاته الممتازة ، فعهد إليه بتربية ولده أبى عبد الله محمد . ولما تولى محمد الملك بعد أبيه تولى وزارته الحاجب رضوان، فأظهر فى تدبير الشئون كفاية ممتازة ، وقاد بعض

---

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٢٦٣ و٢٦٤ و٣٧٢ .
(٢) ابن خلدون ج ٧ ص ٢٦٤ .
(٣) الإحاطة ج ١ ص ٥١٥ .

الغزوات الناجحة إلى أرض النصارى ، فغزا فى سنة ٧٣٢ هـ أراضى قشتالة شرقاً حتى لورقة ومرسية وعاث فيها ، وفى العام التالى غزا مدينة باغة واستولى عليها(١). ولما تولى الملك السلطان يوسف وقع الإجماع على اختياره للوزارة ، واستقرت الأمور فى عهده وساد الأمن والرخاء . وينوه ابن الخطيب — وهو معاصر الحاجب وصديقه — بصفاته ومواهبه ويسميه « حسنة الدولة النصرية ، وفخر مواليها » ويصفه فيما يلى : « وكان أصيل الرأى رصين العقل ، كثير التجمل ، عظيم الصبر ، قليل الخوف فى العبهات ، ثابت القدم فى الأزمات ، ميمون النقيبة ، عزيز النفس عالى الهمة ، بادى الحشمة ، آية فى العفة ، مثلا فى النزاهة » . وكان من أعظم مآثره إنشاء مدرسة (جامعة) غرناطة الشهيرة . فأقام لها صرحا فخما ، ووقف عليها أوقافا جليلة وغدت غير بعيد من أعظم مناهل العلم فى الأندلس والمغرب(٢) ، وأمر ببناء السور الأعظم حول ربض البيازين ، وأنشأ عدداً كبيراً من الأبراج الدفاعية ، وأصلح كثيراً من الحصون الداخلية ؛ ولكنه كسائر المتغلبين على السلطان ، استبد بالأمر واستأثر بكل سلطة . فلما شعر السلطان يوسف باشتداد وطأته ، وكثرت السعايات فى حقه ، نكبه وأمر باعتقاله ونفيه إلى ألمرية ، وذلك فى رجب سنة ٧٤٠هـ . ولكنه اضطر إلى أن يعيده إلى الوزارة بعد ذلك ببضعة أشهر ، حينما شعر بالفراغ الذى أحدثه تنحيه عن تدبير الشئون ، فاستمر فى منصبه حتى نهاية عهده(٣).

وكان من بين وزراء السلطان يوسف ، الكاتب والشاعر الكبير الرئيس أبو الحسن على بن الجياب ؛ وقد تقلب فى ديوان الإنشاء حتى ظفر برياسته . وكان من زملائه وأعوانه فى ديوان الإنشاء عبدالله بن الخطيب والد لسان الدين . ولما توفى عبد الله خلفه فى خدمة القصر ولده لسان الدين ، وغدا أميناً لابن الجياب . فلما توفى ابن الجياب سنة ٧٤٩هـ فى الوباء الكبير خلفه فى الوزارة ، وبزغ نجم مجده من ذلك الحين .

وفى عهد السلطان يوسف كثرت غزوات النصارى لأراضى المسلمين ، وكان ألفونسو الحادى عشر تحدوه نحو المملكة الإسلامية أطماع عظيمة . ولما شعر يوسف

(١) الإحاطة ج ١ ص ٥٤٨ و٥٤٩ .

(٢) كانت مدرسة غرناطة تقوم إزاء المسجد الجامع وراء القيسرية . وقد أقيمت كتدرائية غرناطة مكان المسجد الجامع ، ولبثت المدرسة قائمة حتى القرن الثامن عشر ، ثم هدمت وأقيم مكانها بناء آخر ، ولم يبق منها إلا بعض أبهائها القديمة . ونقلت معظم زخارفها ونقوشها إلى متحف غرناطة .

(٣) راجع الإحاطة ج ١ ص ٥١٨ وما بعدها .

باشتداد وطأة القشتاليين ، وضعف وسائله فى الدفاع ، أرسل يستنجد بالسلطان أبى الحسن على بن عثمان ملك المغرب ، فأرسل الأمداد للمرة الثانية إلى الأندلس مع ولده الأمير أبى مالك ، فاخترق سهول الجزيرة الخضراء معلناً الجهاد . وتوجست اسبانيا النصرانية من مقدم الجيوش المغربية شراً ، واعتزمت أن تواجه الغزاة فى قواها المتحدة ، فسار أسطول مشترك من سفن قشتالة وأراجون والبرتغال ، إلى مياه جبل طارق ، بقيادة الدون چوفرى تنوريو لمنع الأمداد عن جيوش المغرب ، وبارك البابا الحملة ، وسارت قوى اسبانيا المتحدة للقاء المسلمين . وكان أبو مالك فى تلك الأثناء قد زحف إلى أراضى النصارى ، واجتاح سهل بجانة[1] وحصل على غنائم لا تحصى ؛ وهنا فاجأه الإسبان قبل أن يستطيع الارتداد إلى أراضى المسلمين ، ونشبت بين الفريقين معركة دموية هزم فيها المسلمون هزيمة شديدة وقتل أبومالك ، وكان ذلك فى أواسط سنة ٧٤٠ هـ (١٣٣٩ م) .

وعندئذ عول السلطان أبو الحسن على العبور بنفسه إلى الأندلس ، ليثأر لتلك الهزيمة المؤلمة ، فجهز الجيوش والأساطيل الضخمة ، وبلغ أسطول المغرب يومئذ مائة وأربعين سفينة منها عدد كبير من السفن الحربية ، وجاز السلطان البحر إلى الأندلس فى أوائل المحرم سنة ٧٤١ هـ (يوليه سنة ١٣٤٠م) ونزل بسهل طريف ولحق به السلطان يوسف فى قوات الأندلس . وكانت الجيوش الإسبانية قد نفذت يومئذ إلى أعماق مملكة غرناطة ، ووصلت إلى بسائط الجزيرة الخضراء ، ورابط الأسطول النصرانى فى مياه المضيق بين المغرب والأندلس ، لمنع قدوم الأمداد والمؤن ، وضرب النصارى الحصار حول ثغر طريف وتغلبوا على حاميته ، ومضت أشهر قبل أن يقع اللقاء الحاسم بين الفريقين ؛ فشحت الأقوات بين المسلمين ، ووهنت قواهم . وكان الجيش الإسلامى يرابط عندئذ فى السهل الواقع شمال غربى طريف على مقربة من نهر « سالادو » الصغير الذى يصب فى المحيط الأطلنطى عند بلدة كونيل التى تبعد قليلا عن رأس طرف الغار . وفى يوم ٣٠ أكتوبر سنة ١٣٤٠ (جمادى الأولى سنة ٧٤١ هـ) نشبت بين الفريقين معركة عامة على ضفاف نهر سالادو ، وتولى السلطان أبو الحسن قيادة جيشه بنفسه ، وتولى السلطان يوسف قيادة فرسان الأندلس ، ويقال إن الأندلسيين كانت لديهم فى تلك الموقعة آلات تشبه المدافع ، وهى الآلات التى تطورت فيما بعد وكانت تسمى « بالأنفاظ » .

---

(١) وهو بالإسبانية Pechina

وتقدم ألفونسو الحادى عشر بجيشه لمهاجمة المغاربة، فصمد فى البداية بقوة، واشتبك فرسان الأندلس مع جيش البرتغال . ولكن حدث عندئذ أن تسللت حامية طريف النصرانية من الجنوب وانقضت على مؤخرة الجيش الإسلامى ، فدب الخلل إلى صفوفه ، ونشبت بين الفريقين معركة هائلة سالت فيها الدماء غزيرة ، وقتل من المسلمين عدد جم ، وسقط معسكر سلطان المغرب الخاص فى يد النصارى وفيه حريمه وحشمه وبعض أولاده ، فذبحوا جميعاً على الأثر بوحشية مروعة ، وانتثرت قوات المسلمين وبددت ؛ وفر السلطان أبو الحسن ، واستطاع أن يعبر إلى المغرب مع فلوله ؛ وارتد السلطان يوسف إلى غرناطة ، وكانت محنة عظيمة لم يشهد المسلمون مثلها منذ موقعة « العقاب »[١] وكان لها أعمق وقع فى المغرب والأندلس[٢].

وانتهز ملك قشتالة فرصة ظفره وضعف المسلمين ، فغزا قلعة بنى سعيد أو قلعة يحصب من أحواز غرناطة واستولى عليها بعد حصار قصير (٧٤٢ هـ)[٣]. وكان ملك المغرب فى أثناء ذلك يضطرم ظمأ للانتقام ، ويحشد قواته من جديد . ولما كملت أهبته أرسل أساطيله إلى مياه المضيق ، وسار بالجيش إلى سبتة ، وبادر ملك قشتالة من جانبه بإرسال أسطوله للقاء المسلمين ، ونشبت بين الفريقين معركة بحرية هزم فيها المسلمون ومزق أسطولهم (٧٤٣ هـ – ١٣٤٢م) . وحاصر النصارى ثغر الجزيرة الخضراء، وسار السلطان يوسف فى جيشه لإنجاد الثغر المحصور ؛ وكان جيشه مجهزاً بالآلات القاذفة الجديدة التى تشبه المدافع ، ولكنه لم يفلح واضطر المسلمون إلى التسليم ، وبذلك أضحى الثغران الجنوبيان المشرفان على مضيق

---

(١) هى الموقعة التى نشبت بين الموحدين والنصارى فى الأندلس على مقربة من أبدة فى سنة ٦٠٩ هـ (١٢١٢ م) وفيها هزم الموحدون هزيمة شديدة . وتسمى موقعة العقاب وبالإسبانية **Las Navas de Tolosa** وقد سبقت الإشارة إليها .

(٢) راجع ابن خلدون ج ٧ ص ٢٦١ و ٢٦٢ ؛ والاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ج ٢ ص ٦٥ و ٦٦ ، واللمحة البدرية ص ٩٢ و ٩٣ . ويوجد فى متحف كتدرائية مدينة طليطلة علمان كبيران من أعلام السلطان أبى الحسن كانا ضمن غنائم النصارى فى هذه الموقعة ، وقد نقشت عليهما آيات قرآنية وأدعية واسم السلطان أبى الحسن .

(٣) قلعة يحصب أو قلعة بنى سعيد هى بلدة حصينة تقع شمال غرناطة ، وجنوب غربى جيان . وسميت قلعة بنى سعيد لأنها كانت منزل أسرة بنى سعيد الكتاب والمؤرخين أصحاب كتاب « المغرب » . ومكانها اليوم بلدة **Alcalá la Real** (القلعة الملكية) الإسبانية .

جبل طارق وهما الجزيرة وطريف فى أيدى النصارى ، ولم يبق فى يد المسلمين سوى جبل طارق تؤدى مهمة الوصل بين المغرب والأندلس .

وكانت هذه الأحداث الخطيرة التى وقعت بالأندلس بين النصارى والسلطان أبى الحسن ، موضوعاً لمكاتبات سياسية ، بين بلاط مراكش وبلاط القاهرة . وكان ثمة بين ملوك مصر والمغرب منذ قيام دولة بنى مرين سفارات ومكاتبات ودية متصلة . ففى سنة ٧٣٩ هـ أرسل السلطان أبو الحسن إلى السلطان الناصر محمد بن قلاون ملك مصر والشام ، سفارة من بعض أكابر دولته ، وبرفقتهم والدة أخت السلطان الأميرة الحرة تريد الحج ، ومعهم هدية فخمة من عتاق الخيل ونفيس المتاع و الحلى قدرت بأكثر من مائة ألف دينار ، ومصحف كتبه السلطان بيده ، وزين بماء الذهب ووضع فى إطار فخم من الأبنوس والصندل ، ليودع فى الحرم الشريف ، فاستقبلهم الملك الناصر بالقاهرة أعظم استقبال وجهزهم بكل ما يلزم ، وأرسل إلى ملك المغرب هدية جليلة(١). ثم عاد السلطان أبو الحسن ، فكتب على أثر هزائمه أمام النصارى فى البر والبحر ، إلى سلطان مصر الملك الصالح بن الملك الناصر بن قلاوون ، كتاباً ينوه بما كان بينه وبين والد السلطان من رسائل الود ، ويبسط له ما وقع من استغاثة أهل الأندلس به وإعداده الأساطيل لقتال النصارى ، ثم مفاجأة النصارى لسفنه فى البحر بأساطيل قوية ، وزحفهم على الجزيرة الخضراء ومحاولة إنجادها عبثاً ، ومعاونته لصاحب الأندلس بالمال والرجال ، واستطالة الحرب ونفاد الأقوات ، واضطراره إلى عقد الصلح مع النصارى على تسليم الجزيرة ، وما فتحه الله من أخذ جبل طارق قبل ذلك ، وأنه ما زال يتأهب للجهاد بعد عوده . وقد كتب هذا الكتاب فى صفر سنة ٧٤٥ هـ (١٣٤٤ م) .

ورد ملك مصر على كتاب ملك المغرب ، فى رمضان سنة ٧٤٥هـ ، بكتاب رقيق يبدى فيه أسفه على سقوط الجزيرة الخضراء ، ويعزيه عن فقد أسطوله وما نزل به من هزائم ، ويقول إن الحرب سجال ، وإن فى سلامته الكفاية ، وإن الله قد يمن عليه بالظفر مرة أخرى ، ويبدى اغتباطه لاستيلاء السلطان على ثغر جبل طارق(٢) .

---

(١) المقريزى فى السلوك فى دول الملوك ج ٢ (٢) ص ٤٤٧ و ٤٤٨ ؛ ويصف المقريزى الأميرة الحرة بابنة السلطان ؛ وابن خلدون ج ٧ ص ٢٦٤ .

(٢) لم ينقل إلينا القلقشندى فى صبح الأعشى نص هذين الكتابين . ولكن نقلهما إلينا المقرى فى نفح الطيب ج ٢ ص ٥٣٩ — ٥٤٦ .

ولم يخل عصر السلطان أبى الحجاج يوسف من عقد العلائق الدبلوماسية مع الدول النصرانية . وكان عقدها بالأخص مع مملكة أراجون التى كانت أقرب إلى مسالمة مملكة غرناطة من زميلتها مملكة قشتالة . فى سنة ٧٣٥هـ (١٣٣٥م) أرسل السلطان سفيره القائد أبا الحسن بن كُماشه إلى ألفونسو الرابع ملك أراجون ليطلب تجديد معاهدة الصلح المعقودة بين المملكتين ، فأجابه إلى ذلك وجددت المعاهدة .

وفى أواخر سنة ٧٤٥ هـ (١٣٤٥ م) عقد السلطان يوسف مع بيدرو الرابع ملك أراجون ، معاهدة صلح ومهادنة جديدة ، فى البر والبحر ، لمدة عشرة أعوام على يد سفيره القائد المذكور ، وطلب إلى السلطان أبى الحسن المرينى ، ملك المغرب ، أن يوافق على هذا الصلح فوافق عليه ، وأبرمه من جانبه ، بنفس الشروط ولنفس المدة التى يسرى فيها ، وذلك حسبما يدل عليه عهد الموافقة الذى أصدره بتاريخ صفر سنة ٧٤٦ هـ (يونيه ١٣٤٥ م)(١) .

وهنا طافت بالأندلس واسبانيا تلك النكبة المروعة التى عصفت بالمشرق والمغرب معا ، ونعنى بذلك الوباء الكبير الذى اجتاح سائر الأمم الإسلامية وحوض البحر الأبيض المتوسط فى سنة ٧٤٩هـ — ٧٥٠ هـ (١٣٤٨ م) . وكان بدء ظهوره على ما يرجح فى إيطاليا فى ربيع هذا العام . وحمل من الأندلس كثيراً من سكانها ، وفى مقدمتهم عدة من رجالها البارزين من الكبراء والعلماء . وقد وصف لنا الوزير ابن الخطيب تلك المحنة التى كان معاصراً لها وشاهد عيان لروعها وفتكها فى رسالة عنوانها : « مُقنعة السائل عن المرض الهائل » ، وكذلك وصف لنا عصف الوباء بثغر ألمرية شاعر ألمرية الكبير ابن خاتمة فى رسالة عنوانها « تحصيل غرض القاصد فى تفصيل المرض الوافد »(٢) .

ولبث ملك قشتالة أعواماً أخرى على خطته من إرهاق المملكة الإسلامية والعيث فيها ، والمسلمون يدافعون جهد استطاعتهم ، وأمراء المغرب مشغولون عن نجدتهم بما أصابهم من هزائم متوالية ، وما شجر بينهم من خلاف . وفى سنة ٧٥٠هـ (١٣٤٩م) غزا النصارى سهول الجزيرة الخضراء مرة أخرى ، وكان ملك قشتالة يرمى بهذه الغزوة إلى غاية هامة هى الاستيلاء على جبل طارق . وكان هذا

---

(١) Archivo de la Corona de Aragón No. 52; Alarcón y Santón : Documentos Arabes Diplomáticos, Nos. 41, 56, & 96

(٢) توجد هاتان الرسالتان ضمن مجموعة خطية تحفظ بمكتبة الإسكوريال برقم ١٧٨٥ وقد نشرت رسالة ابن الخطيب مع ترجمتها الألمانية فى مجلة أكاديمية العلوم البافارية (سنة ١٨٦٣) .



صورة رسالة من السلطان يوسف أبي الحجاج إلى دون الهنشة (ألفونسو) ملك أراجون يشكره فيها على حسن لقائه لسفيره ، ويقرر تجديد الصلح المعقود بينهما ، مؤرخة فى ذى الحجة سنة ٧٣٥ هـ (يوليه ١٣٣٥ م) ، ومحفوظة بمحفوظات التاج الأرجونى ببرشلونة برقم ١٣٨ .

الثغر ما يزال منذ عصور أمنع ثغور المسلمين وأشدها مراسا . فلما رأى النصارى استحالة أخذه عنوة ، ضربوا حوله الحصار الصارم ، وكانت تدافع عنه حامية مغربية قوية ، ورابط ملك غرناطة بجيشه فى مؤخرة النصارى ؛ واستمر حصار جبل طارق زهاء عام كامل والمسلمون صامدون كالصخرة التى يدافعون عنها ، وقد حيل صبر الغزاة ودب الوهن إلى نفوسهم . ثم فشا الوباء فى الجيش النصرانى وهلك ملك قشتالة فى مقدمة من هلك من جنده ، فكان ذلك نذيراً بخلاص الثغر المنيع والمدافعين عنه ، واضطر النصارى إلى رفع الحصار (٧٥١هـ — ١٣٥٠م) . وأنقذ المسلمون بذلك من كارثة فادحة ، وأبدى المسلمون بهذه المناسبة ضروبا مؤثرة من تسامح الفروسة ، فتركوا موكب الملك المتوفى ، يخترق طريقه إلى إشبيلية دون تعرض ، وارتدى كثير من أكابرهم شارة الحداد مجاملة وتكريما ، وخلف ألفونسو على العرش فى الحال ولده پيدرو (بطره) الملقب بالقاسى[1] .

ووصف ابن الخطيب كاتب الأندلس وشاعرها ، وقد كان يومئذ من كتاب السلطان يوسف ، هذه الأحداث الخطيرة فى رسالة بعث بها السلطان إلى ملك المغرب ، وفيها يشير إلى مهاجمة العدو لجبل طارق وطمعه فى الاستيلاء على الأندلس ويقول : « وانتهز الفرصة بانقطاع الأسباب وانبهام الأبواب ، والأمور التى لم تجر للمسلمين بالعدوتين على مألوف الحساب ، وتكالب التثليث على التوحيد ، وساءت الظنون فى هذا القطر الوحيد ، المنقطع بين الأمة الكافرة ، والبحور الزاخرة والمرام البعيد » ثم يصف كيف تداركت رحمة الله الأندلس بعد ذلك فهزم العدو ولم يبلغ مراما[2] .

وكان لحصار جبل طارق ، ومصرع ملك قشتالة تحت أسواره ، صدى عميق فى المغرب وفى أنحاء العالم الإسلامى . ويشير الرحالة الأشهر ابن بطوطة الطنجى الذى زار الأندلس بعد ذلك بقليل فى رحلته إلى تلك الحوادث ، وإلى ما كان يتصوره ملك قشتالة ، من أنه أضحى على وشك الاستيلاء على ما بقى من بلاد الأندلس ، فأخذه الله من حيث لم يحتسب ومات بالوباء ، وقد كان من أشد الناس خوفاً منه ، ثم يصف لنا أهمية جبل طارق الدفاعية وما بذله السلطان أبو الحسن عقب استرداده من جهود فادحة لتحصينه ، وتجديد أسواره وحصونه ، وإنشائه لدار الصناعة ، وما قام به ولده السلطان أبو عنان بعد ذلك من تجديد تحصيناته ، وشحنه

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٨٣ .

(٢) راجع هذه الرسالة فى نفح الطيب ج ٢ ص ٥٧٠ و ٥٧١ .

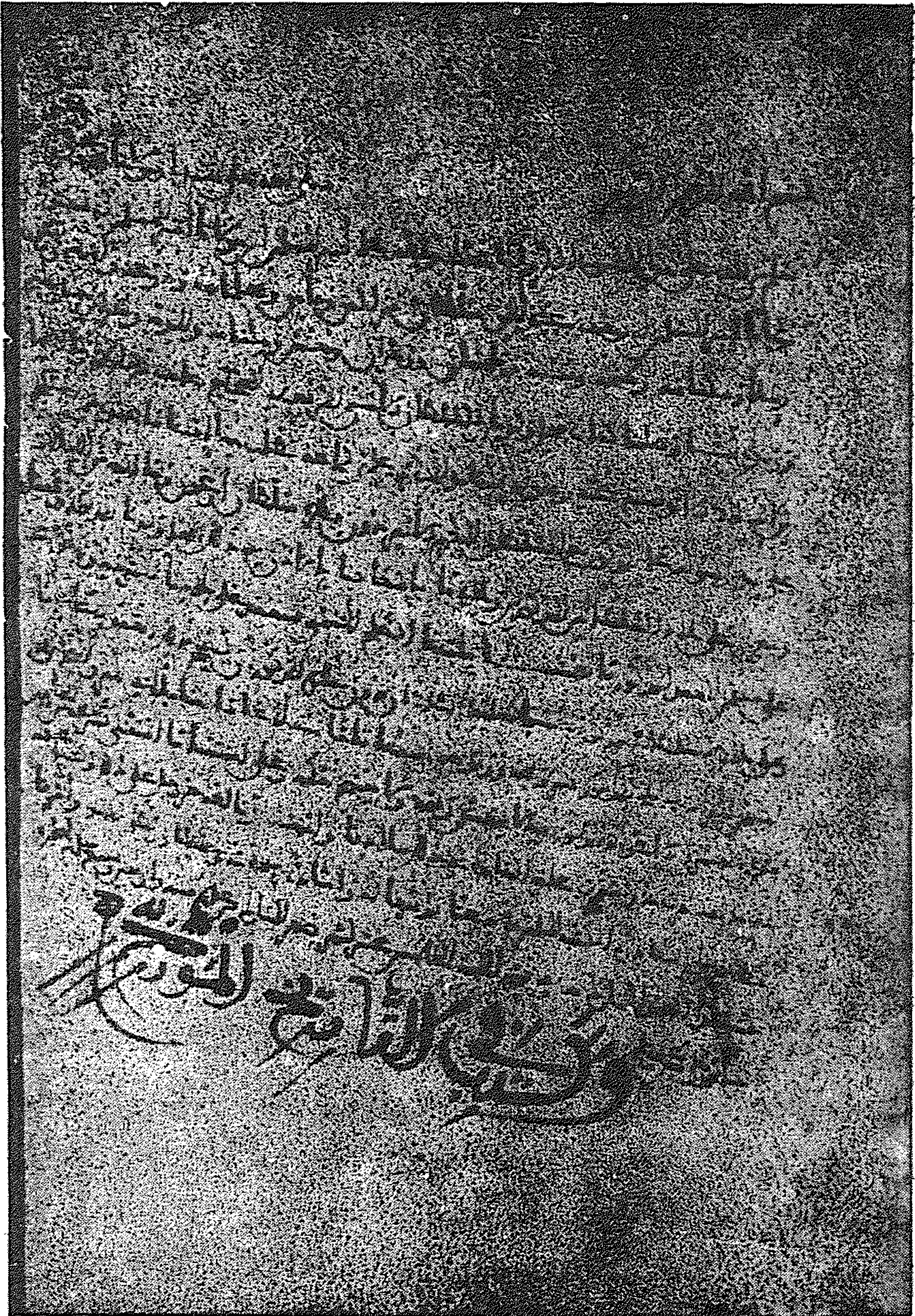
صورة وثيقة اعتماد صادرة من السلطان يوسف أبي الحجاج إلى وزيره القائد ابن كماشة الذى ارسله سفيراً إلى بيدرو الرابع (دون بطره) ملك أراجون ليقوم بعقد الصلح بينه وبين السلطان أبي الحسن المريني ملك المغرب مؤرخة فى شعبان سنة ٧٤٥ هـ (ديسمبر ١٣٤٤م) ومحفوظة بمحفوظات التاج الأرجونى ببرشلونة برقم ٤٥ .

بالعدد والأقوات . ويصف لنا ابن بطوطة بعد ذلك ثغور الأندلس وقواعدها الأخرى التى طاف بها يومئذ ، مثل رندة ومربلة ومالقة وبلش ، وماشاهده فيها من الخيرات والصناعات الفريدة ، ولاسيما صناعة الخزف بمالقة ، ثم يعرج على غرناطة وينعتها بعروس الأندلس ، ويصف لنا رياضها وبساتينها الغراء ، ويشير إلى ملكها فى عهد دخوله إياها ، وهو السلطان أبوالحجاج يوسف ، ولم يوفق يومئذ إلى لقائه لمرض ألم به .

وتدل أوصاف ابن بطوطة بأن الأندلس كانت يومئذ ، بالرغم من توالى غارات النصارى عليها وعيثهم فى ربوعها ، بلاداً زاهرة نضرة ، تزخر بالخيرات والنعم ، وتموج بالملايين من سكانها النشطين الأذكياء ، وصناعاتها الممتازة ، وتحتشد فيها جمهرة كبيرة من العلماء والفقهاء والكتاب والشعراء مما يدل على أنها كانت فى هذا العصر تجوز أيضاً نهضة أدبية زاهرة(١) . ولا غرو فقد كان هذا العصر هو الذى سطع فيه نجم ابن الخطيب أعظم كتاب الأندلس وشعرائها فى المائة الثامنة ، وبلغ فيه الشعر والترسل يومئذ ذروة الروعة والبهاء .

واستمر أبو الحجاج يوسف فى الحكم بضعة أعوام أخرى ، ساد فيها السلام والأمن ، ولكنه ما لبث أن قتل غيلة أثناء صلاته بالمسجد الأعظم فى يوم عيد الفطر سنة ٧٥٥هـ (أكتوبر سنة ١٣٥٤م) ، قتله مخبول لم يفصح عن بواعثه وأغراضه ، فزق وأحرق بالنار على الأثر(٢) . وكان مقتله وهو فى السابعة والثلاثين فى عنفوان فتوته ومجده . ويصف لنا ابن الخطيب ، وقد كان من شهود هذا المنظر المؤسى ، مقتل السلطان ، فى قوله من رسالة بعث بها إلى السلطان أبى عنان ملك المغرب « ولم يرعه وقد اطمأنت بذكر الله تعالى القلوب ، وخلصت الرغبات إلى فضله المطلوب ، إلا شقى قيضه الله تعالى لسعادته ، غير معروف ولا منسوب ، وخبيث لم يكن بمعتبر ولا محسوب ، تخلل الصفوف المعقودة ، وتجاوز الأبواب المسدودة ، وخاض الجموع المحشودة ، لا تدل العين عليه شارة ولا بزة ، ولا تحمل على الحذر من مثله أنفة ولا عزة ، وإنما هو خبيث ممرور وكلب عقور ، وآلة مصرفة لينفذ بها قدر مقدور ، فلما طعنه وأثبته وأعلق به شرك الحين ، فما أفلته حتى قبض عليه من الخلصان الأولياء ، من خبر ضميره وأحكم تقريره ، فلم يجب عند الاستفهام

(١) راجع رحلة ابن بطوطة (مصر) ج ٢ ص ١٨٣ — ١٨٨ .
(٢) اللمحة البدرية ص ٩٧.



صورة وثيقة صادرة من السلطان أبي الحسن المريني ملك المغرب بالموافقة على الصلح الذى عقده باسمه سلطان غرناطة يوسف أبو الحجاج مع بيدرو الرابع (دون بطره) ملك أراجون مؤرخة فى صفر سنة ٧٤٦ هـ (يونيه ١٣٤٥ م) ومحفوظة بمحفوظات التاج الأرجونى برقم ٥٢ .

جواباً يعتمل ولا عثر على شيء عنه ينقل ، لطفاً من الله أفاد براءة الذمم ، وتعاورته للحين أيدى التمزيق . وأتبع شلوه بالتحريق »[1]. ودفن السلطان الشهيد فى مقبرة الحمراء إلى جانب آبائه مبكياً عليه من شعبه بدموع غزيرة . وكان السلطان يوسف فى الواقع أعظم ملوك غرناطة همة وعزماً ، وأبدعهم خلالا ، وكان فوق فروسته ونجدته عالماً أديباً ، شغوفاً بالعمارة وإقامة الصروح الباذخة ، وهو الذى شيد البرج الأعظم بقصر الحمراء ، وأنشأ به أفخم أجنحته وأبدعها ، وهو الذى أسبغ على هذا الصرح العظيم بمنشآته وزخارفه ، بهاءه وروعته التى ما زال يحتفظ بلمحة منها . وفى عصره زهت العلوم والآداب ، وذاعت شهرة العلماء المسلمين ، ولا سيما فى الفلك والكيمياء .

وهكذا لبث بلاط غرناطة حقبة يقف من دولة بنى مرين مواقف متناقضة ، ويتردد بين سياسة التحالف والقطيعة ، وبين الثقة والتوجس ؛ وليس من شك فى أن بنى مرين كانوا عضداً قيما لمملكة غرناطة الناشئة ، وقد أدوا لها فى ميدان الجهاد وفى مقاتلة النصارى خدمات جليلة ، وبذلوا فى ذلك السبيل تضحيات جمة ، وأعادوا بانتصارهم على النصارى فى غير موقعة حاسمة ، ذكريات الزلاّقة والأرك ؛ ولولا غوث بنى مرين ، واشتغال مملكة قشتالة بحوادثها الداخلية غير مرة ، لما اشتد ساعد بنى الأحمر ، وسطعت دولتهم خلال هذه الفترة المليئة بالحوادث الجسام ، واستطالت أيام الإسلام بالأندلس زهاء مائة عام أخرى . وقد كان من سوء الطالع ألا يدرك بلاط غرناطة خطر الخلاف ، مع الحليف الطبيعى الذى رتبه القدر فيما وراء البحر ، لإنجاد الأندلس عند الخطر الداهم ، وأن يجنح من آن لآخر إلى مخاصمة هذا الحليف ومحاربته ، كما حدث حينما استولى ابن الأحمر على سبتة . كذلك لم تخل سياسة بنى مرين إزاء مملكة غرناطة أحياناً ، من الالتواء وبث الشكوك فى نفوس أمراء بنى نصر ، بما كانت تجنح إليه من مداخلة الخوارج عليهم . وهكذا كانت قوى الإسلام تبدد فى معارك أهلية ، وقد كان حرياً أن تتضافر على مغالبة العدو المشترك . على أن الدولة المرينية ذاتها ، تدخل منذ وفاة السلطان أبى الحسن فى سنة ٧٥٢ هـ (١٣٥١ م) فى دور انحلالها ، وتنحدر إلى غمر الحرب الأهلية ، وتشغل بشئونها الداخلية ، وتفقد غرناطة بذلك ، العضد

---

(١) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ٥٦٥ .

الوحيد ، الذى كانت تدخره وقت الشدائد . وقد استمرت العلائق بين غرناطة وبنى مرين عصراً آخر ، ولكنها غدت غير بعيد علائق بلاط ، تغلب عليها دسائس القصور ، وانقطعت الجيوش المغربية عن العبور إلى الأندلس لمقاتلة النصارى ، كما كانت تفعل أيام أبى يوسف وأبى يعقوب وأبى الحسن ، ولم تعبر بعد ذلك سوى مرة واحدة لمعاونة الخوارج فى جبل طارق ضد ملك غرناطة حسبما يجىء ؛ وتركت غرناطة من ذلك الحين إلى مصيرها داخل الجزيرة الإسبانية ، تغالب قوى النصرانية بمفردها ، وقدر استطاعتها ، وكان ملاذها الأخير فى اختلاف كلمة النصارى ، وانشغالهم بذلك الخلاف عن محاربتها .

الفصل الثامن

الأندلس بين المد والجزر

ولاية محمد الغنى بالله . وزيره ابن الخطيب . سفارته إلى السلطان أبي عنان . ثورة حاكم جبل طارق المريني . الثورة فى غرناطة . مقتل الحاجب رضوان . عزل الغنى بالله وفراره . ولاية أخيه اسماعيل . جواز الغنى بالله وابن الخطيب إلى المغرب . ترحيب ملك المغرب بهما . قصيدة ابن الخطيب . ابن الخطيب وابن خلدون . مصرع سلطان المغرب وتغلب الوزير عمر على الدولة . الثورة فى غرناطة ومقتل السلطان اسماعيل . عبور الغنى بالله وابن الخطيب إلى الأندلس . استرداد الغنى بالله العرش . زيارة ابن خلدون للأندلس وسفارته إلى بلاط قشتالة . الحرب الأهلية فى قشتالة . موقعة نجارا . موقعة مونتيل . مصرع بيدرو ملك قشتالة وولاية أخيه الكونت هنرى . رواية ابن الخطيب عن هذه الحوادث . وزارة ابن الخطيب الثانية . استئثاره بالسلطة وجنوحه إلى الاستبداد . تقلص نفوذه وفراره إلى المغرب . اتهامه بالزندقة ومقتله . بعد نظره السياسى . شعوره بمصير الأندلس . جهود الغنى بالله الإنشائية . توطد الصداقة بينه وبين بلاط مصر . معاهدة صداقة بينه وبين أراجون . سيادة السلام والأمن فى عصره . غزواته فى أرض النصارى . وفاته وولاية يوسف الثانى . وزيره خالد . عقد السلم بين الأندلس وقشتالة . ثورة محمد ولد يوسف . وفاة يوسف وولاية ولده محمد . اعتقاله لأخيه يوسف . الوزير ابن زمرك ومصرعه . الحرب بين المسلمين والنصارى . استنجاد الأندلس بملوك المغرب . غزو النصارى لأحواز وندة . غزو المسلمين لأراضى قشتالة . الهدنة بين الفريقين . وفاة محمد . تنظيم العلائق الدولية بين غرناطة وأراجون . ولاية يوسف الثالث . نقض القشتاليين للهدنة . زحفهم على أراضى غرناطة . سقوط أنتقيرة وهزيمة المسلمين . تجديد الهدنة . ثورة جبل طارق وإخمادها . السلم بين المسلمين والنصارى . حفلات الفروسية الأندلسية . وفاة السلطان يوسف وولاية ولده محمد الأيسر . صرامته وتكبره . الوزير يوسف بن سراج . بنو سراج وأصلهم . تعاقب الفتن فى غرناطة . غزوات النصارى . نشوب الثورة وسقوط الأيسر . ولاية محمد الزغير . خلاله وصفاته . مطاردته لبنى سراج . التجاؤهم إلى بلاط قشتالة . السعى لإعادة الأيسر . زحفه على غرناطة ودخوله الحمراء . مصرع الزغير وولاية الأيسر الثانية . الحرب بين الأيسر والنصارى . الفتن والدسائس حول غرناطة . قيام يوسف بن المول بمعاونة النصارى . عهده بالخضوع لملك قشتالة . تغلبه على الأيسر وانتزاعه العرش . وفاته وولاية الأيسر الثالثة . الحرب بين المسلمين والنصارى . مهاجمة النصارى لجبل طارق وهزيمتهم . تطور الحوادث فى غرناطة . ثورة محمد الأحنف وولايته . الأمير ابن إسماعيل وسعيه لانتزاع العرش . تدخل النصارى ودسائسهم . الحرب الأهلية فى غرناطة . هزيمة الأحنف وولاية ابن اسماعيل . تضارب الرواية فى شأن ولاية العرش . خلال ابن اسماعيل وصفاته . الخلاف بينه وبين قشتالة . غزو القشتاليين لغرناطة . سقوط جبل طارق . انحلال دولة بنى مرين وقيام دولة بنى وطاس . قصور المغرب عن إنجاد الأندلس . خضوع سلطان غرناطة لقشتالة . الصراع بين العرش والأسر الكبيرة . تفكك المملكة الإسلامية . ولاية السلطان سعد . الخلاف بينه وبين ولده أبى الحسن . رواية رحالة مصرى عن هذه الحوادث . فتح الترك لقسطنطينية وصداه فى اسبانيا . إحياء النزعة الصليبية .

لم تمض ساعات قلائل على مصرع السلطان يوسف أبي الحجاج في صبيحة يوم عيد الفطر سنة ٧٥٥ هـ ، حتى خلفه في الملك ولده محمد الملقب بالغني بالله؛ وكان حدثاً يافعاً، فاستأثر بشئون الدولة حاجبه ومولى أبيه من قبل أبو النعيم رضوان. وكانت غرناطة بعد ما توالى عليها من الخطوب والأزمات في أواخر عهد أبيه يوسف ، قد تنفست الصعداء نوعاً منذ وفاة ملك قشتالة . وكان من بين كتابه ثم وزرائه لسان الدين بن الخطيب ، مؤرخ الدولة النصرية وأعظم كتاب الأندلس وشعرائها يومئذ . وكان هذا المفكر البارع ، أحد رجلين عظيمين شغلا يومئذ في الغرب الإسلامي ، مركز الصدارة في التفكير والكتابة ، هما ابن خلدون وابن الخطيب.

وكان مولد ابن الخطيب في لَوْشة[1] من أعمال غرناطة في سنة ٧١٣ هـ (١٣١٣م) ، ودرس اللغة والأدب والطب والفلسفة ، وبرز في النثر والنظم[2] ، وخدم الدولة منذ حداثته ، فتولى ديوان الكتابة للسلطان أبي الحجاج ، ثم انتقل إلى خدمة ولده محمد ، فلم يلبث أن نال ثقته ورقاه إلى مرتبة الوزارة ، وأوفده بعد ولايته بقليل على رأس وفد من كبراء الأندلس سفيراً من قبله ، إلى ملك المغرب السلطان أبي عنان المريني (أواخر سنة ٧٥٥ هـ) يستنصره على مغالبة طاغية قشتالة ، وليؤكد بينهما عهد الصداقة والمودة ، جرياً على سنة أسلافه من ملوك بني الأحمر ، فاستقبله السلطان بحفاوة ، وأنشد بين يديه قصيدة هذا مطلعها :

خليفة الله ساعدَ القدرُ   عُلاك ما لاح في الدجى قمرُ
ودافعتْ عنك كفُّ قدرته   ما ليس يستطيع دفْعَه البشرُ

فتأثر السلطان لقصيدته، ووعد بإجابة سائر مطالبه؛ وهكذا أدى ابن الخطيب سفارته بنجاح ، وكان له فيما تلا من حوادث الأندلس أعظم نصيب[3] .

وفي أواخر سنة ٧٥٦ هـ (أواخر سنة ١٣٥٥ م) ، حاول حاكم جبل طارق المريني عيسى بن الحسن بن أبي منديل أن يثير ضرام الثورة ، وكانت محاولة خطيرة ربما أفسحت للنصارى ثغرة يضربون منها الأندلس وجحافل المغرب ، ولكن أهل جبل طارق نكلوا عن مؤازرة الثائر ، وأخمدت ثورته في المهد ، وقبض

---

(١) لوشة وبالإسبانية Loja تقع على مسافة خمسة وخمسين كيلومتراً من غربي غرناطة ، وهي اليوم بلدة متواضعة ، وقد كانت أيام الدولة الإسلامية بلدة زاهرة .

(٢) سنعود إلى ترجمة ابن الخطيب واستعراض حياته الأدبية بإفاضة في الكتاب الرابع .

(٣) راجع الإحاطة (المقدمة ص ٣٧) ؛ ونفح الطيب ج ٣ ص ٥٢ ؛ وابن خلدون ج ٧ ص ٣٧٣ .

عليه وعلى ولده . وأرسلا مصفدين إلى المغرب فقضى بإعدامهما ؛ وأرسل السلطان أبو عنان إلى جبل طارق ولده أبا بكر السعيد ومعه قوة من الفرسان ، لحماية الثغر وتجديد تحصيناته[1] .

وفى أوائل عهد السلطان محمد ، شغلت قشتالة بحروبها الداخلية ، فأمنت غرناطة شر العدوان مدى حين . ولكن الحوادث الداخلية كانت تؤذن بتطورات جديدة . فني رمضان سنة ٧٦٠ هـ (١٣٥٩ م) نشبت فى غرناطة ثورة فقد فيها الغني بالله ملكه . وكان أخوه إسماعيل المعتقل فى بعض أبراج الحمراء ، تؤازره جماعة من الزعماء ، وفى مقدمتهم صهره الرئيس عبد الله ، وتدعو له سرًّا ، وتترقب الفرص للوثوب بمحمد ؛ وكانت أمه المقيمة بالقصر تؤيد مشاريعه بالسعي والبذل الوفير ، وكان السلطان محمد قد تحول بولده إلى سكنى قصر جنة العريف الواقع شمال شرقى الحمراء ، فانتهز المتآمرون ذات مساء فرصة ابتعاده عن دار الملك ، وهاجموا حصن الحمراء (٢٨ رمضان سنة ٧٦٠ هـ) ، ونفذوا إلى قصر الحاجب رضوان وقتلوه بين أهله وولده ، ونادوا بإسماعيل أخي الساطان ملكاً مكانه . وشعر محمد بعقم المدافعة ، ففر إلى وادى آش . وحاول ابن الخطيب مصانعة السلطان الجديد ، فاستبقاه فى الوزارة لمدى قصير . ثم ارتاب فى نياته وأمر باعتقاله ومصادرة أمواله ، وكذلك أمر السلطان الجديد بعزل شيخ الغزاة يحيى بن عمر ابن رحو من منصبه والقبض عليه ، وعين مكانه فى مشيخة الغزاة ، إدريس ابن عثمان بن أبى العلاء ، وكان وقت نكبة أسرته ، قد فر إلى أراجون واحتمى بملكها ، فاستدعاه السلطان الجديد ، وأسند إليه منصب أسرته القديم .

وكانت تربط السلطان المخلوع علائق مودة وصداقة بملك المغرب ، السلطان أبى سالم ولد السلطان أبى الحسن . وكان أبوسالم قد لجأ إليه حينما تغلب عليه أخوه السلطان أبوعنان ونفاه إلى الأندلس فأكرم محمد مثواه . ولما وقعت الفتنة وخلع محمد ، رعى له أبوسالم عهد الصداقة والوفاء ، وأرسل إلى غرناطة سفيراً يسعى لدى حكومتها ، فى إجازة السلطان المخلوع ووزيره المعتقل إلى المغرب ، فنجح السفير فى مهمته ، وعاد إلى المغرب ومعه محمد والوزير ابن الخطيب (المحرم سنة ٧٦١ هـ) . واستقبلهما أبو سالم فى فاس أجمل استقبال ، واحتفل بقدومهما فى يوم مشهود ، وأنشده ابن الخطيب يومئذ قصيدة رائعة ، يدعوه فيها لنصرة

---

(١) رحلة ابن بطوطة ج ٢ ص ج ١٨٤ .

سلطانه وغوثه ، هذا مطلعها :

سلا هل لديها من مخبرة ذكرُ ... وهل أعشب الوادى ونمَّ به الزهر
وهل باكَرَ الوسمى داراً على اللوى ... عفت آيها إلا التوهُّم والذكر
بلادى التى عاطيتُ مشمولة الهوى ... بأكنافها والعيش فينان مخضر
وجوى الذى ربى جناحى وكره ... فها أنا ذا مالى جناح ولا وكر

ومنها :

قصدناك يا خير الملوك على النوى ... لتنصفنا مما جنى عبدك الدهر
وأنت الذى تُدعى إذا دهم الردى ... وأنت الذى ترجى إذا أخلف القطر
ومثلك من يرعى الدخيل ومن دعا ... بيالمرين جاءه العز والنصر

فكان لإنشاده أعظم وقع فى النفوس ، وتأثر السلطان لدعوته ونداثه أيما تأثر(١) . ولبث السلطان المخلوع فى بلاط فاس حيناً ، وتوثقت بينه وبين المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون ، وهو يومئذ من أكابر رجال الدولة المرينية، روابط المحبة والصداقة ، وعقدت أيضاً بين المؤرخ وبين قرينه ابن الخطيب أواصر صداقة نمت وتوثقت فيما بعد . وكان كلا المفكرين العظيمين يقدر مواهب صاحبه ومحله أسمى مقام ، وكان كلاهما أستاذ عصره وقطره فى التفكير والكتابة . وكان محمد ابن الأحمر يؤمل أن يسترد ملكه المنزوع بمعاونة پيدرو الثانى (بطره) ملك قشتالة تنفيذاً للاتفاق الذى عقد بينهما، ولكنه لم يفعل شيئاً لتحقيق هذا الأمل . والواقع أن ملك قشتالة كان مشغولا بشئون مملكته وما يسودها من اضطراب ، فآثر أن يعتمد السلم مع سلطان غرناطة الجديد . وفى أثناء ذلك حدث انقلاب لقى فيه السلطان أبو سالم مصرعه ، واستبد بالدولة الوزير عمر بن عبد الله ، فسعى لديه ابن الأحمر ليعاونه على استرداد ملكه ، فاستجاب إليه الوزير ، وما زال محمد يدبر أمره بمعاونته ، حتى تهيأت الفرصة بوقوع الثورة فى غرناطة ، ومقتل منافسه السلطان إسماعيل ، على يد المتغلب عليه الرئيس أبى سعيد ؛ فجاز إلى الأندلس ونزل بمالقة ، ثم سار إلى رندة ، وكانت عندئذ من أملاك بنى مرين ، وقد نزل له عنها الوزير عمر بن عبد الله ، وسار منها فى صحبه وعصبته إلى غرناطة فاستولى عليها ، وفر الرئيس أبو سعيد إلى ملك قشتالة ، واسترد محمد ملكه (جمادى الآخرة

(١) الإحاطة ، المقدمة ص ٣٨ — ٤٣ ؛ واللمحة البدرية ص ١٠٨ ؛ وابن خلدون ج ٧ ص ٣٠٦ وما بعدها ؛ وأزهار الرياض ج ١ ص ١٩٤ و ١٩٥ .

سنة ٧٦٣ﻫ — (١٣٦١م) وما لبث أن لحق به وزيره ابن الخطيب استجابة لدعوته ، وعاد إلى سابق مكانته ونفوذه . وكان فى مقدمة ما فعله الغنى بالله أن قبض على إدريس بن أبى العلاء وقرابته من الغزاة ، وأودعوا السجن ، ومحا خطة مشيخة الغزاة من بنى مرين ، وأسندها لابنه وولى عهده الأمير يوسف ، فلبث مضطلعا بها زهاء ثلاثة أعوام . وكان على بن بدر الدين بن موسى بن رحو ، مقدما على الغزاة فى منطقة وادى آش ، وكان حينما فقد الغنى بالله ملكه ، قد صحبه فى منفاه . ولما عاد إلى الأندلس ، عاد معه . فلما فكر الغنى بالله فى إحياء مشيخة الغزاة ، وبحث عمن يسندها إليه ، وقع اختياره على على بن بدر الدين هذا ، فعينه فيها (٧٦٧ ﻫ) ، ولكنه ما لبث أن توفى بعد عام فقط من تقلده إياها ، فعندئذ قرر الغنى بالله أن يمحو هذه الخطة نهائياً من خطط مملكته ، وصار أمر الغزاة والمجاهدين إلى السلطان مباشرة ، وعنى بشئونهم بنفسه ، وخص القرابة المضطلعين بها بعطفه وتكرمته . وانتهت بذلك رياسة بنى مرين لهذه الخطة الهامة من خطط ، مملكة غرناطة بعد أن اضطلعوا بها زهاء قرن[١] .

ووفد المؤرخ ابن خلدون بعد ذلك بقليل على غرناطة ، فاحتفى به السلطان وأكرم مثواه ، وأرسله سفيراً عنه إلى پيدرو ملك قشتالة ليوثق أواصر الصداقة بينهما (٧٦٥ ﻫ — ١٣٦٣ م) ؛ فقصد ابن خلدون إلى بلاط إشبيلية ومعه هدية فخمة ، وأدى سفارته ببراعة ، وحظى بعطف ملك قشتالة وإعجابه . وهو يعرض لنا حوادث هذه السفارة فى « التعريف» بتفصيل شائق ، ويقول لنا إنه عاين آثار أسرته بإشبيلية ، وقد كانت منزل بنى خلدون أيام الدولة الإسلامية ، وفيها سطع نجمهم حيناً ، وإن ملك قشتالة وقف على تاريخ أسرته ، وعرفه به وبمكانته طبيب يهودى فى بلاطه يدعى إبراهيم بن زرزر ، وكان قد تعرف به فى مجلس السلطان أبى عنان من قبل ، ثم يقول لنا إن ملك قشتالة عرض عليه عندئذ أن يبقى فى خدمته ، وأن يسعى لدى زعماء دولته لبرد إليه تراث أسرته بإشبيلية ، ولكنه أبى . ولما اعتزم ابن خلدون العودة بعد أن أتم مهمته ، وهبه ملك قشتالة « بغلة فارهة بمركب ثقيل ولجام ذهبيين » فأهداهما إلى السلطان . وسر السلطان لنجاحه وأقطعه قرية إلبيرة بمرج غرناطة ، وعاش فى بلاط السلطان فترة أخرى ، معززاً مكرما[٢] ؛

(١) راجع كتاب العبر ج ٧ ص ٣٧٧ — ٣٧٩ .

(٢) راجع تفاصيل هذه السفارة فى ابن خلدون ، فى « التعريف » أو ترجمته لحياته فى —

ولم يمض قليل على ذلك حتى شغلت قشتالة مدى حين بمنازعاتها وحروبها الداخلية ، وتمتعت غرناطة خلال ذلك بهدنة قصيرة ؛ وكان بيدرو ملك قشتالة (دون بطره) الملقب بالقاسي ، الذى خلف أباه ألفونسو الحادى عشر فى سنة ١٣٥٠م قد غلا فى استبداده وقسوته ، حتى أنه لم يحجم عن قتل زوجته الملكة بلانش دى بوربون أخت ملكة فرنسا بالسم ، ليتزوج من خليلته ، فسخط عليه الأمراء والأشراف لما نالهم من عسفه ؛ وخرج عليه أخوه غير الشرعى الكونت هنرى دى تراستمارا ، ولد إلينورا دى كزمان ، وفر إلى فرنسا ، وتحالف مع ملكها شارل الخامس ، على أن يجمع له جيشاً من المرتزقة يقوده إلى قشتالة ؛ وأشرف على تنفيذ المشروع الدوق دى جسكلان زعيم الفروسية الفرنسية يومئذ . وقاد هنرى جيشه إلى قشتالة (١٣٦٦م) ، فلم يقو بيدرو على مقاومته لاشتداد السخط عليه ، وتخلى الشعب عنه ، وفر إلى ولاية جويين الفرنسية فيما وراء البرنيه ، واستغاث بالأمير إدوارد ولى عهد انجلترا ، وقد كان يحكم هذه الأنحاء المحتلة من فرنسا باسم أبيه ، فاستجاب الأمير الإنجليزى لدعوته ، وسار معه إلى قشتالة فى قواته ، واستطاع الكونت هنرى بمعاونة شعبه ، ومعاونة ملك أراجون ، أن يحشد جيشاً عظيما . والتقى الفريقان فى « نجارا » فى الثالث من ابريل سنة ١٣٦٧ ، فهزم الكونت هنرى بالرغم من وفرة جموعه ، وقتل عدد كبير من جيشه ، واسترد بيدرو عرشه . ولكنه لم يف بوعده إلى الأمير الإنجليزى ، ولم يؤد إليه الجزية المشترطة ، فسخط عليه وارتد بقواته إلى الشمال . وعندئذ عادت الثورة إلى الاضطرام فى قشتاله ، ووثب الشعب ببيدرو مرة أخرى ، وعاد أخوه الكونت هنرى فغزا قشتالة فى أنصاره ، ونشبت بين الفريقين فى « مونتيل » موقعة أخرى هزم فيها بيدرو وقتل ، وجلس أخوه مكانه على العرش (سنة ١٣٦٨ م)[1] . وكان بين قوات الملك القتيل فرقة من حلفائه المسلمين ، تعاونه وتذود عنه .

وقد كان وراء هذه الحرب الأهلية ، فيما يبدو خطة نصرانية موضوعة للقضاء على المملكة الإسلامية بالأندلس . ولدينا ما يلقى الضياء على ذلك فى رسالة للوزير ابن الخطيب ، بعث بها فى تلك الآونة ، على لسان سلطانه الغنى بالله ، إلى سلطان

— كتاب العبر ج٧ ص ٣١٢ ، والتعريف (طبعة لجنة التأليف والترجمة) ص٨٤ و٨٥ ؛ والإحاطة ج ٢ ص ١٥ (طبعة قديمة) .

(1) David Hume : History of England (1848) V. II p. 202-205

تلمسان الأمير أبي حمّو عبد الرحمن بن موسى ، ففي هذه الرسالة التي وردت على بلاط تلمسان في شهر رمضان سنة ٧٦٧ هـ (يونيه سنة ١٣٦٦م) ، والتي وجهها بلاط غرناطة بطلب المعاونة والإنجاد ، يقول لنا ابن الخطيب ، إن كبير دين النصرانية (يريد البابا) ، لما أعيته الحيلة في جمع كلمة النصرانية في قشتالة ، حرك من النصارى جموعاً عظيمة لتعين القند (الكونت) على أخيه ، فإذا انتصر واستقل بالملك ، تحالف النصارى الإسبان جميعاً ضد المسلمين ؛ وقسم البابا تراث المملكة الإسلامية (الأندلس) بين قشتالة وأراجون ، فتختص منها أراجون بما يلي الشاطىء الشرقي الجنوبي حتى ألمرية ، وتختص قشتالة بالباقي ، وتجتمع الأساطيل النصرانية فتحتل الساحل الجنوبي ، وتقطع ما بين المغرب والأندلس ، ويقوم النصارى بالعيث في أراضي المسلمين ، وإتلاف سائر الغلات والأقوات. ويتوجه بلاط غرناطة بعد شرح هذه الخطة إلى أمير تلمسان بطلب الغوث والإنجاد . وقد استجاب أبو حمو إلى هذا النداء ، وبعث إلى الأندلس بالأموال ، والسفن المشحونة بالخيل والسلاح والأقوات . واستوجبت هذه الأريحية توجيه رسالة أخرى من سلطان غرناطة إلى الأمير أبي حمو معرباً فيها عن خالص الشكر والعرفان[1]

تلك هي الخطة التي يقول لنا ابن الخطيب في رسالته ، إنها وضعت عندئذ للقضاء على مملكة غرناطة . ولكنها خطة لم يكن لها أي حظ من التنفيذ ، وكانت مملكة غرناطة دائماً يقظة على أهبة الذود والدفاع .

وقد فصل لنا ابن الخطيب حوادث الحرب الأهلية في قشتالة في تلك الفترة ، وقد كان معاصراً لها وقريباً من مسرحها . وروايته تدل على حسن اطلاعه ، ودقة فهمه لسير الحوادث ، فهو يقول لنا مثلا بعد أن أشار إلى ثورة الكونت هنري على أخيه واستيلائه على العرش :

« ولما توسد له الأمر تحرك لاستئصال شأفة المخلوع ، فأجلى عن غليسية في البحر ، واستقر وراء دروب قشتالة ، وانتبذ عن الخطة القشتالية ، ولجأ إلى ابن صاحب الأنتكيرة (انجلترا) وهو المعروف ببرقسين ، وبين أرضه وبين قشتالة ثمانية أيام ، فقبله ولد السلطان المذكور بأول ما تلقاه من تلك الأرض ، وسفر

---

(١) وردت رسالة ابن الخطيب في كتاب « بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد » تأليف الوزير يحيى بن خلدون (طبع الجزائر ١٩١٠) ج ٢ ص ١٧٠ — ١٧٤ ، ووردت به الرسالة الثانية ، وهي أيضا من إنشاء ابن الخطيب ، في ص ١٧٤ — ١٨١ .

بينه وبين أبيه ، فأنكر الأب استئذانه إياه والمراجعة فى نصره ، حمية له وامتعاضاً منه . وحال هذه الأمة غريبة فى الحماية المزوجة بالوفاء، والرقة والاستهانة بالنفوس فى سبيل الحمية ، عادة العرب الأول ، وأخبارهم فى القتال غريبة ... وبعد انقضاء سبعة عشر يوما ، كان رجوعه ورجوع الرئيس المذكور معه ، مصاحباً بأمراء كثيرين من أخدانه ، وبعد أن تسلموا ما لا كثيراً ... وكان اللقاء بين الفريقين يوم السبت سادس أبريل العجمى بموافقة شعبان من عام ثمانية وستين (ابريل ١٣٦٧ م) . وكان هذا الجمع الإفرنجى آتين من الأرض الكبيرة (فرنسا) وكان على مقدم القوم الدك (الدوق) أخو البرنس (Prince of Wales) ، وكان فى مقدمة القند (الكونت) المستأثر بملك قشتالة أخوه شانجه (سانشو)... الخ » . ثم يحدثنا بعد ذلك عن هزيمة « القند » وفراره إلى فرنسا ، واستمرار الفتنة بينهم إلى وقت كتابة روايته[1]

تولى ابن الخطيب وزارة الغنى بالله للمرة الثانية ، وهو متمتع بأقصى مراتب العطف والثقة ، واستأثر فى البلاط وفى الدولة بكل نفوذ وسلطة ، وقضى على نفوذ منافسه الوحيد فى السطة وهو شيخ الغزاة عثمان بن يحيى ، وما زال بالسلطان حتى نكبه ، فخلا له الجو وتبوأ ذروة القوة والسلطان . وكان من معاونيه فى الوزارة تلميذه الكاتب والشاعر الكبير أبو عبد الله بن زَمْرَك ، وقد تولى كتابة السر فى كنفه وتحت رعايته . والظاهر أن اجتماع السلطان والنفوذ فى يد ابن الخطيب على هذا النحو كان سبباً فى انحرافه عن جادة الاعتدال والروية ، فجنح إلى الاستبداد واتباع الهوى ، وبث حوله معتركا من البغضاء والخصومة ، وكثرت فى حقه السعاية والوشاية ، واتهمه خصومه بالإلحاد والزندقة ، لما ورد فى بعض كتاباته . وشعر ابن الخطيب فى النهاية أن السعاية قد بدأت تحدث أثرها ، وأن عطف مليكه قد فتر ، وخشى العاقبة على نفسه ، فعول على مغادرة الأندلس ، وسار إلى الثغور الغربية فى نفر من خاصته بحجة تفقدها ، فلما وصل إلى جبل طارق عبر البحر فجأة إلى سبتة (٧٧٣هـ) بتفاهم سابق بينه وبين ملك المغرب السلطان عبد العزيز المرينى ، وكانت تربطه به مودة وثيقة . وهكذا غادر ابن الخطيب الوطن والأهل والسلطان ، بعد أن تربع فى الوزارة للمرة الثانية زهاء عشرة أعوام . وخلفه فى الوزارة تلميذه ابن زَمْرَك ، وكان قد انقلب عليه فى أواخر أيامه ، وغدا من خصومه ومن أشدهم سعياً إلى نكبته .

---

(١) الإحاطة ج ٢ ص ٢٤ — ٢٦ .

وقضى ابن الخطيب فى منفاه زهاء ثلاثة أعوام، واستقر فى فاس معززاً مكرماً ، ولكن السلطان عبد العزيز ما لبث أن توفى ، وساءت الأمور فى عهد ولده الطفل الملك السعيد، ووقع انقلاب انتهى بجلوس السلطان أحمد بن أبى سالم على العرش، وهو صديق الغنى بالله وحليفه . وكان بلاط غرناطة وخصوم ابن الخطيب فى الأندلس يجدّون فى ملاحقته ومطاردته، فسعوا عندئذ لدى بلاط فاس فى القبض عليه واتهامه بالزندقة ، وكلل مسعاهم آخر الأمر بالنجاح ، واعتقل ابن الخطيب وأفتى بعض الفقهاء المتعصبين بوجوب قتله تنفيذاً لحكم الدين ، ودس عليه الوزير سليمان بن داود بعض الأوغاد ، فقتلوه فى سجنه ، وذلك فى أوائل سنة ٧٧٦ هـ (أواخر ١٣٧٤م) . وهكذا ذهب الكاتب والشاعر الكبير ضحية الغدر السياسى والتعصب الشائن[١] .

وكان ابن الخطيب سياسياً بعيد النظر ، وكان يرى فى حوادث الأندلس شبح المستقبل الرهيب واضحاً ، ويستشف بنافذ بصيرته ما وراء الحجب ، من نهاية محتومة لهذا الوطن الذى مزقته الأهواء وأضنته الفتنة ، وكان يرى هذا المصير المحزن قبل وقوعه بأكثر من قرن ، ويهيب بقومه وإخوانه المسلمين فيما وراء البحر أن يبادروا إلى غوثه ونصرته ، وله فى ذلك رسائل ونداءات عديدة مؤثرة تفيض قوة وبلاغة ، فى الحث على اليقظة ، والذود عن الدين والوطن ، والنذير بما يهددهم ويهدد دينهم ووطنهم ، من خطر المحو والفناء ، إذا تقاعسوا أو تخاذلوا وافترقت كلمتهم[٢] .

وأبلغ من ذلك كله فى الدلالة على شعور ابن الخطيب بخطر الفناء الذى ينتظر الأندلس ، ما وجهه فى وصيته إلى أولاده من النصح ، بعدم الإسراف فى اقتنا العقارات بالأندلس إذ يقول لهم : « ومن رزق منكم مالا بهذا الوطن القلق المهاد الذى لا يصلح لغير الجهاد، فلا يستهلكه أجمع فى العقار ، فيصبح عرضة للمذلة والاحتقار ، وساعياً لنفسه أن يتغلب العدو على بلده فى الافتضاح والافتقار ، ومعوقا عن الانتقال

---

(١) تناولنا هذه الحوادث بالتفصيل عند كلامنا عن حياة ابن الخطيب فى الكتاب الرابع . وراجع ابن خلدون ج ٧ ص ٣٤٠ و٣٤١ . هذا وقد دون ابن الخطيب ماشهده فى منفاه فى المغرب لأول مرة من الحوادث فى كتاب سماه « نفاضة الجراب فى علالة الإغتراب » . ومنه نسخة مخطوطة فى مكتبة الإسكوريال تحفظ برقم ١٧٥٥ الغزيرى .

(٢) نقل إلينا المقرى فى نفح الطيب وأزهار الرياض كثيراً من هذه الرسائل . وراجع الإحاطة ج ٢ ص ٣١ — ٣٩ .

أمام النواب الثقال، وإذا كان رزق العبد على المولى فالإجمال فى الطلب أولى»[١] .

وسلك الغنى بالله فى حكمه مسلك القوة والحزم ، واشتهر بصرامته وعدله ، وعنى بمشاريع الإنشاء والعمران، فأمر ببناء المارستان الأعظم (المستشفى) فى غرناطة، وأنفق عليه أموالا عظيمة ، وعنى بتحصين الثغور وعمل على بث روح الجهاد والحمية فى النفوس ، للدفاع عن الدين والوطن ، وكان داعيته فى ذلك وسفيره إلى جمهور الأمة ، وزيره القوى البليغ ابن الخطيب ، فعمل على إذكاء الشعور ببراعة ، واستمرت رسائله وخطبه المؤثرة فى ذلك تترى أينما كان ، بالأندلس أو المغرب ، حتى نهاية حياته .

وفى أواخر سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٦ م) نظم بعض الزعماء الخوارج مؤامرة لخلع السلطان وإقامة بعض قرابته مكانه . وهاجم الخوارج قلعة الحمراء فمزقهم الجند وقبض على زعيمهم ، وزاد فشل المؤامرة مركز السلطان توطدا .

وفى عصر الغنى بالله توثقت أواصر الصداقة والمودة بين بلاط غرناطة وبلاط القاهرة ، واتصلت بينهما السفارة والمكاتبة . ومما وقفنا عليه من ذلك رسالة بعث بها « أمير المسلمين » بالأندلس محمد بن يوسف بن اسماعيل الغنى بالله ، إلى سلطان مصر الأشرف شعبان ، وهى من إنشاء وزيره ابن الخطيب . وفيها يعرب سلطان غرناطة عن اغتباطه بتلقى رسالة سلطان مصر ، ويشيد بموقف غرناطة كمركز للجهاد ، وتعرضها الدائم لمهاجمة العدو ، ويتقدم إلى السلطان الأشرف بالتهنئة على ما أحرزت جنوده من نصر حاسم على الفرنج ، فى موقعة الإسكندرية فى سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٥ م)[٢] ، وأنه مما يزيد فى غبطتهم أن هذا الحادث لابد أن يذكى شعور الإشفاق والعطف على الأندلس ، التى يدهمها الأعداء بشرهم من البر والبحر بلا انقطاع[٣] .

وفيما يختص بالعلائق الدبلوماسية ، فقد عقد الغنى بالله بالأصالة عن نفسه وبالنيابة عن صديقه أبى فارس عبد العزيز سلطان المغرب ، مع بيدرو الرابع

---

(١) نقل إلينا المقرى فى نفح الطيب وصية ابن الخطيب كاملة ، وهى من أبدع الوصايا الأبوية السياسية (بولاق ج ٤ ص٨١٧ وما بعدها)؛ وكذلك فى أزهار الرياض ج ١ ص٣٢ ومابعدها .

(٢) هاجمت حملة من الفرنج بقيادة لوسنيان ملك قبرص ثغر الإسكندرية فى صفر سنة ٧٦٧هـ ، واحتل الفرنج الإسكندرية أياماً ، ولكنهم هزموا وطردوا بعد معارك شديدة .

(٣) يراجع نص هذه الرسالة بأكله فى صبح الأعشى ج ٨ ص ١٠٧ — ١١٥ ، وهى نموذج بارز من أسلوب ابن الخطيب السياسى .

ملك أراجون معاهده صلح وصداقة لمدة ثلاثة أعوام من تاريخ عقدها وهو شهر رجب سنة ٧٦٨ هـ (مارس ١٣٦٧ م) ، وفيها يتعهد كل من الفريقين بأن يمتنع رعاياه عن الإضرار بالفريق الآخر فى البر والبحر فى السر أو الجهر ، وأن يكون لرعايا كل فريق حق التجول والمتاجرة بأرض الفريق الآخر ، والمرور فى البر والبحر ، دون اعتراض أو مغارم غير عادية ، وأن تطلق أراجون حرية الهجرة للمدجنين ، وأن يمتنع كل فريق عن معاونة أعداء الفريق الآخر(١) .

واستطال حكم الغنى بالله حتى سنة ٧٩٣ هـ (١٣٩١ م) وساد الأمن والسلام فى عصره ، وشغلت قشتالة عن محاربة المسلمين بحوادثها الداخلية وحروبها الأهلية ، وغلب التهادن فى تلك الفترة بين غرناطة وقشتالة ، واستطاعت السياسة الغرناطية أن تنتهز فرصة الحوادث الداخلية فى المملكة النصرانية ، وأن تمد يد التحالف والحماية غير مرة لملك قشتالة المخلوع پيدرو القاسى ، إذكاء للحرب الأهلية بين النصارى .

ولم يخل عصر الغنى بالله من مواطن الجهاد واستئناف الصراع مع القشتاليين . وكانت القوات القشتالية ، قد تسربت من أطراف ولاية إشبيلية الجنوبية ، إلى أحواز رندة الشرقية ، واحتلت فيها موقعين حصينين من أراضى المسلمين هما برغة وجبيرة(٢) ، واستطاعت بذلك أن تقطع الطريق بين رندة ومالقة ، ففى شعبان سنة ٧٦٧هـ (١٣٦٦م) ، زحف المسلمون على هذين المعقلين من الشمال والجنوب واحتلوهما بعد قتال شديد . وفى الوقت نفسه استؤنفت حركة الغزو لأراضى النصارى ، ففى شعبان سنة ٧٦٨ هـ (١٣٦٧م) ، زحف الغنى بالله فى قواته على أراضى ولاية إشبيلية ، وغزا مدينة أطريرة الواقعة جنوب شرقى إشبيلية ، وافتتح حصن أشر من معاقلها ، واستولى على كثير من الغنائم والسبى ، وعاث فى أحواز إشبيلية ذاتها ، وهى يومئذ عاصمة قشتالة . وفى أواخر هذا العام سار الغنى بالله فى قوة كبيرة إلى مدينة جيان ، وحاصرها بشدة ، واقتحمها بعد معارك شديدة ، واستولى المسلمون على سائر ما فيها من الأموال والسلاح والنعم ، وأسروا جموعاً كثيرة ، ولكنهم لم يحتلوها ، لصعوبة الدفاع عنها ، وتعذر الاحتفاظ بها ، وهى

---

(١) Archivo de la Corona de Aragôn, No. 152

(٢) برغة هى Burgo الحديثة ، وهى تقع على مقربة من شرقى رندة ، وجبيرة Guera ، وتقع فى جنوب شرقى رندة .

واقعة فى قلب أراضى العدو. وكان ذلك فى أواخر شهر المحرم سنة ٧٦٩هـ (سبتمبر ١٣٦٧م) . ثم اقتحم الغزاة فى طريقهم مدينة باغة، الواقعة على مقربة من جنوب غربى جيان ، ونهبوها ودمروها . وفى شهر ربيع الأول من هذا العام ، زحف الغنى بالله على مدينة أبّدة ، شمال شرقى جيان ، وافتتحها عنوة ، ودمر صروحها وكنائسها، وأسوارها، وتركها خرابا بلقعا، وعاد إلى غرناطة مكللا بغار الظفر(١).

وفى أواخر سنة ٧٦٩ هـ ، سار الغنى بالله جنوبا إلى الجزيرة الخضراء ، وحاصرها ، وأرغم النصارى على إخلائها بعد قتال مرير ، وبذا عاد الثغر القديم فترة أخرى إلى أيدى المسلمين . ثم رأى المسلمون أن يهدموا حصونها وصروحها ومعالمها، حتى لا تعود سليمة إلى أيدى النصارى، فهدمت وغدت قاعاً صفصفاً .

وفى ربيع سنة ٧٧١هـ (١٣٧٠م) زحف المسلمون ثانية على أحواز إشبيلية، وحاصروا مدينة قرمونة الحصينة ، مدى حين ، واقتحموا مُرْشانة الواقعة فى جنوب شرقى قرمونة . وهكذا ظهرت المملكة الإسلامية فى تلك الفترة بمظهر من القوة لم تعرفه منذ بعيد ، وكان عصر الغنى بالله عصراً ذهبياً مليئاً بالسؤدد والرخاء والدعة ، لم تشهده الأمة الأندلسية منذ عصور .

— ٢ —

ولما توفى الغنى بالله سنة ٧٩٣ هـ (١٣٩١ م) خلفه ولده يوسف أبو الحجاج (يوسف الثانى) ، وقام بأمر دولته خالد مولى أبيه ، فاستبد بالأمر وقتل إخوة يوسف الثلاثة سعداً ومحمداً ونصراً فى محبسهم؛ ثم سخط يوسف على وزيره وقتله، لما نمى إليه من أنه يحاول اغتياله بالسم بالتفاهم مع طبيبه يحيى بن الصائغ اليهودى ، وزج الطبيب إلى السجن ثم قتل بعد ذلك(٢) . واستأثر يوسف بالسلطة ،وكتب إلى ملك قشتالة فى طلب المهادنة والسلم ، وأطلق سراح عدد من الفرسان النصارى الذين أسروا فى بعض المعارك السابقة ، وأرسلهم مكرمين إلى بلاط إشبيلية ، فاستجاب ملك قشتالة إلى دعوته وعقد السلم بين المملكتين .

---

(١) الإحاطة ج ٢ ص ٥٤ — ٥٨ ؛ والاستقصاء ج ٢ ص ١٣٢؛ وقد وصف ابن الخطيب هاتين الغزوتين ، وكان من مرافقى الحملة ، فى رسالتين بعث بهما عن لسان سلطانه إلى السلطان عبدالعزيز المرينى ملك المغرب ، وقد وردتا فى كتابه « ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب » مخطوط بالإسكوريال (رقم ١٨٢٥ الغزيرى) — اللوحات ٣٧ — ٤٤ .

(٢) الاستقصاء ج ٢ ص ١٤٢ .

وحاول محمد ولد السلطان يوسف الثورة ضد أبيه ، إذ كان يؤثر أخاه الأكبر يوسف بمحبته وثقته ، وقد اختاره لولاية عهده ، وزحف بالفعل فى أنصاره على الحمراء ، ولكن المحاولة فشلت ، وتفرق الثوار حين برز إليهم سفير المغرب وقد كان وقتئذ بالقصر ، وأنبهم على مسلكهم : وأنصحهم بالتزام الهدوء والاتحاد ضد النصارى(١) .

وقام المسلمون فى عهد يوسف بالإغارة على أراضى النصارى فى أحواز مرسية ولورقة ، وعاث الفرسان النصارى من جانبهم فى فحص غرناطة (المرج) La Vega فردهم المسلمون وأوقعوا بهم هزيمة شديدة . ثم عاد الفريقان إلى التهادن والسلم .

وتوفى السلطان يوسف فى أوائل سنة ٧٩٧هـ (١٣٩٤ م) بعد حكم قصير لم يدم سوى ثلاثة أعوام وبضعة أشهر . وقيل إنه توفى مسموما على أثر مكيدة دبرها سلطان المغرب أبو العباس المرينى لإهلاكه ، وذلك بأن أرسل إليه هدايا بينها معطف جميل منقوع فى السم ، فلبسه يوسف ومسه أثناء ركوبه وهو عرقان ، فسرى إليه السم وتوفى ، وهى رواية تحمل طابع الخيال المغرق(٢) .

وخلف يوسف ولده محمد بعد أن دبر أمره مع الزعماء ورجال الدولة لإقصاء أخيه الأكبر يوسف عن العرش ، ثم قبض على أخيه يوسف وزجه إلى قلعة شلوبانية الحصينة على مقربة من ثغر المنكَّب ، وشدد فى الحجر عليه حتى يأمن منازعته إياه على الملك . وكان محمد وافر العنف والجرأة بعيد الأطماع ، بيد أنه كان فى الوقت نفسه أميراً موهوباً ، رفيع الخلال ، فياض العزم والشجاعة. ولأول ولايته استدعى الوزير أبا عبد الله بن زَمْرك لحجابته . وكان هذا الوزير الطاغية قد حلف أستاذه ابن الخطيب فى وزارة الغنى بالله مدى أعوام طويلة ، فلما اشتد عيثه واستبداده نكبه الغنى بالله ونفاه من الحضرة ؛ ولم يمكث فى الوزارة هذه المرة سوى أشهر قلائل أساء فيها السيرة وكثر خصومه ، وفى أواخر سنة ٧٩٧ هـ (١٣٩٥ م) دهمه جماعة من المتآمرين بمنزله وقتلوه وآله(٣) .

وسعى السلطان محمد إلى تجديد صلات المودة والتهادن بين غرناطة وقشتالة ،

---

(١) **Condé : Historia de la Dominación de los Arabes en Espana; V. III. p. 169**

(٢) **Condé : ibid; V. III. p. 171** ؛ وراجع الاستقصاء حيث يردد هذه الرواية نقلا عن مصدر إسبانى آخر ، ج ٢ ص ١٤٢

(٣) نفح الطيب ج ٤ ص ٢٨٦ و ٢٩٠ ، وقد عرضنا إلى حياة الوزير ابن زمرك وآثاره الأدبية تفصيلا فى الكتاب الخامس .

وعقدت الهدنة فعلا بين الفريقين . بيد أنه لم يمض قليل على ذلك حتى أغار القشتاليون على بسائط غرناطة وعاثوا فيها ، فحشد محمد قواته وغزا ولاية الغرب[١] وخربها ، واستولى على حصن أياموني[٢] ، وعاد مثقلا بالغنائم والسبي . وانتقم النصارى بالعود إلى غزو أراضي غرناطة . وكان هنري الثالث ملك قشتالة تحدوه نحو مملكة غرناطة أطماع عظيمة ، وكان يجد في الأهبة للحرب ويجهز الجيوش والأساطيل ؛ وكان محمد من جانبه يتأهب للدفاع ، ويراسل ملوك العدوة لإنجاده ؛ وبعث ملك تونس وأمير تلمسان بالفعل إلى المسلمين نجدة من الوحدات البحرية ، ولكنها هزمت ومزقت تجاه جبل طارق . ثم عقد بين الفريقين اتفاق هدنة وتحكيم لتقدير الأضرار لمدة عامين (٦ أكتوبر سنة ١٤٠٦ م)[٣] . ولكن هنري الثالث توفي بعد ذلك بقليل (أواخر سنة ١٤٠٦ م) وخلفه على عرش قشتالة ولده خوان (يوحنا) طفلا تحت وصاية أمه وعمه فرناندو . ولم يحترم الوصي الجديد أحكام الهدنة المعقودة ، بل عمد إلى تنفيذ مشاريع قشتالة بمنتهى القوة والعزم ، فسار إلى غزو أراضي المسلمين ، واستولى على حصن الصخرة على مقربة من رندة ، واقتحم حصن باغة[٤] ، وعاث في تلك الأنحاء واسترد حصن أياموني من المسلمين . وبادر محمد من جانبه بغزو أراضي قشتالة من ناحية الشرق وعاث في ولاية جيان ، فاضطر فرناندو أن يسير إلى الشرق لإنجاد النصارى ، واستمرت المعارك بين الفريقين حينا ، ثم انتهت بعقد الهدنة بينهما لمدة ثمانية أشهر (أوائل سنة ١٤٠٨م) . ولما عاد محمد إلى غرناطة اشتد به المرض ولم يلبث أن توفي وذلك في سنة ٨١١هـ (١٤٠٨م) .

على أنه في الوقت الذى كانت الحرب تضطرم فيه بين غرناطة وقشتالة على هذا النحو بلا انقطاع ، كانت غرناطة ترتبط بمملكة أراجون منافسة قشتالة وخصيمتها أحياناً ، بصلات المودة والصداقة . ففي ربيع الأول سنة ٨٠٨ هـ الموافق سبتمبر سنة ١٤٠٥م ، عقدت بين السلطان محمد وبين مرتين ملك أراجون وولده مرتين ملك صقلية ، معاهدة صداقة وتحالف ، توضح لنا نصوصها الدقيقة الشاملة

---

(١) غربي الأندلس وهي بالإفرنجية **Algarve** محرفة عن كلمة الغرب .

(٢) أياموني **Ayamonte** مدينة صغيرة تقع على المحيط الأطلنطي ، وهي بلد الحدود بين إسبانيا والبرتغال .

(٣) **Archivo General de Simancas : P.R. 11-1** ، ولدينا صورة فتوغرافية من نصها القشتالي وفي ذيلها توقيع بالعربية لمندوب سلطان غرناطة .

(٤) وهي بالإسبانية **Priego** .

مجمل المسائل التي كانت فى هذا العصر ، تشغل المسلمين والنصارى فى شبه الجزيرة الإسبانية :

وتنص هذه المعاهدة على أن يعقد بين الدولتين « صلح ثابت » لمدة خمسة أعوام من تاريخ عقدها ، وأنه يحق لرعايا كل من الفريقين أن يتردد على أراضي الفريق الآخر ، آمنين فى أنفسهم وأموالهم للتجارة والبيع والشراء ؛ وأنه متى احتاج ملك أراجون أو ملك صقلية إلى معاونة على أعدائهما ، فإن سلطان غرناطة ينجدهما بأربعمائة أو خمسمائة فارس على أن يتكفلا هما بنفقاتهم ، وذلك بشرط أن لا يكون هذا العدو صديقاً لمملكة غرناطة ، وأن يعامل الملكان سلطان غرناطة بالمثل فيقوما بإعانته بأربعة أو خمسة سفن مشحونة بالرجال والسلاح ، على أن يتكفل هو بنفقاتها ، وعلى ألا يكون هذا العدو صديقاً لمملكة أراجون ، وألا يساعد أحد من الفريقين الثوار الذين يخرجون على الفريق الآخر بأى نوع من أنواع المساعدة .

ونصت فيما يتعلق بالمسائل البحرية ، على أنه يسمح لسفن كل من الفريقين أن ترسو فى موانىء الفريق الآخر ، وأن تزاول البيع والشراء آمنة ، وأن تتلقى سائر أوجه الإعانة المشروعة ، وألا تتعرض سفينة تابعة لأحد الفريقين للسفن الراسية فى موانىء الآخر ، وأن يسمح للسفن التى تصاب بعطب من جراء العواصف أو غيرها ، وتكون تابعة لأحد الفريقين ، أن تصلح فى موانىء الآخر ، وتعان على ذلك ، وأنه إذا استولى عدو على سفينة تابعة لأحد الفريقين ، وقصدت مياه الطرف الآخر ، فإنه لا يسمح لها بأن تبيع شيئاً من حمولتها فيه ، وكذلك يكون الحكم فيما يتعلق بالأشخاص أو السلع المأخوذة من أحد الطرفين .

ونصت فيما يتعلق بتسريح الرعايا ، على أنه إذا انتزع أحد الطرفين من عدوه مدينة أو موضعاً ما ، وكان فيه أحد من رعايا الطرف الآخر ، فإنه يسرح فى الحال مؤمناً فى نفسه وماله ، ويكون الحكم كذلك فيما يتعلق بالسفن التى يستولى عليها أحد الطرفين من عدوه ؛ وأنه إذا كان لدى أحد الطرفين أسرى من رعايا الطرف الآخر ، فإنه يفك أسرهم لقاء دفع مائة دينار ذهبا عن الشخص الواحد ، فإذا كان الأسير ملكاً لأحد من رعايا أى الطرفين ، فإنه يسمح بافتكاك أسره نظير دفع الثمن الذى اشترى به ، ويلتزم كل من الفريقين بألا يخفى أو يغيب أحداً من الأسرى ؛ وأنه إذا دخل مجاورون تابعون لأحد الطرفين فى أرض الآخر واحتملوا منها أسرى أو بضائع ، فإنها تطلب ممن تستقر لديه ، ويأمر قائد الموضع الذى

به الأسرى والبضائع بردها لمن أخذت منهم ، وبالبحث عن الفاعلين ومعاقبتهم [١]

ولما توفى محمد خلفه فى الملك أخوه يوسف (الثالث) ، وكان سجينا طوال حكمه بقلعة شلوبانية كما قدمنا . ودخل يوسف غرناطة فى حفل فخم ، واستقبله الشعب بحماسة . وكان يتمتع بخلال حسنة ، ويعلق عليه الشعب آمالا كبيرة . وكان أول ما عنى به أن سعى إلى تجديد الهدنة مع قشتالة ، فاستجاب بلاط قشتالة إلى دعوته فى البداية وعقدت الهدنة بين الفريقين لمدة عامين . ولكنه لما سعى بعد مضى العامين إلى تجديدها أبى القشتاليون ، وطلبوا إليه الخضوع لقشتالة إذا شاء استمرار السلم ، وأنذروه بإعلان الحرب ، فرفض وأخذ فى الأهبة للقتال . وكان ملك قشتالة يومئذ خوان الثانى تحت وصاية أمه وعمه فرناندو ؛ فما كادت تنتهى الهدنة حتى زحف النصارى على أرض غرناطة بقيادة فرناندو الوصى ، وضربوا الحصار حول مدينة أنتقيرة فى شمال غربى مالقة ، فهرع يوسف إلى لقاء الغزاة ، وحاولت حامية أنتقيرة أن تحطم الحصار ، وأنزلت بالمحاصرين خسائر فادحة ، ثم نشبت بين المسلمين والنصارى معركة كبيرة بجوار أنتقيرة ، وبذل المسلمون لإنقاذ المدينة المحصورة جهوداً رائعة ، ولكنهم هزموا أخيراً واضطرت المدينة الباسلة إلى التسليم ، فدخلها النصارى (سنة ١٤١٢م) وأسبغ على فاتحها فرناندو من ذلك الحين لقب « صاحب أنتقيرة » . وعاث النصارى بعد ذلك فى أراضى المسلمين . وأخيراً رأى السلطان يوسف أن يسعى إلى عقد الهدنة مع قشتالة حقنا لدماء المسلمين ، واجتنابا لاستمرار هذه المعارك المخربة ، فارتضى بلاط قشتالة وعقد السلم بين الفريقين ، على أن يطلق ملك غرناطة سراح بضع مئات من الأسرى النصارى دون فدية .

وفى عهد يوسف ثار أهل جبل طارق ، ودعوا ملك المغرب أبا سعيد المرينى إلى احتلال الثغر ، لاعتقادهم أنه أقدر على حمايتهم من غارات النصارى ، فبعث إليهم أبو سعيد أخاه عبد الله فى الجند تخلصاً منه ، ولكن ابن الأحمر ما كاد يقف على هذه المؤامرة حتى أرسل المدد إلى حاكم جبل طارق ، واستطاع الغرناطيون أن يهزموا المغاربة فى موقعة حاسمة ، وأسر زعيمهم عبد الله ، فأكرم ابن الأحمر وفادته ، ثم رده إلى المغرب ، وزوده بالمال وبعض الجند ليناهض أخاه ،

---

(١) Archivo de la Corona de Aragón; No. 173

فهرعت القبائل لتأييده ، واستطاع أن ينتزع الملك لنفسه من أخيه[1] .

ولما عقدت الهدنة بين مملكتى قشتالة وغرناطة ، أخذت أواصر السلم تتوثق بينهما، وسادت بين بلاط غرناطة وبلاط إشبيلية علائق المودة والاحترام المتبادل، ولم تشهد غرناطة من قبل عهداً كعهد يوسف ساد فيه الوئام بين الأمتين الخصيمتين. وكانت غرناطة يومئذ تغص بالفرسان والأشراف النصارى، تجتذبهم خلال أميرها وبهاء بلاطها وفروسيتها . وكانت حفلات المبارزات الرائعة تعقد بين الفرسان المسلمين والنصارى فى أعظم ساحات المدينة ، وتجرى طبقاً لأرفع رسوم الفروسية الإسلامية ، ويشهدها أجمل وأشرف العقائل المسلمات سافرات ، وتبدو غرناطة فى تلك الأيام المشهودة فى أروع الحلل وأبدع الزينات[2]. وكانت الأمة الأندلسية تتمتع يومئذ فى ظل ملكها الرشيد العادل بنعم الرخاء والسكينة والأمن ، ولكنها كانت تنحدر فى نفس الوقت فى ظل هذا السلم الخلب والترف الناعم ، إلى نوع من الانحلال الخطر الذى يعصف بمنعتها وأهباتها الدفاعية .

وتوفى السلطان يوسف فى سنة ٨٢٠ هـ (١٤١٧ م) بعد حكم دام نحو تسعة أعوام ، وكان أميراً راجح العقل ، بارع السياسة ، عظيم الفروسية والنجدة، محباً لشعبه ، فكان حكمه القصير صفحة زاهية فى تاريخ مملكة غرناطة .

— ٣ —

وتوالى على عرش غرناطة بعد السلطان يوسف عدة من الأمراء الضعاف ، أولهم ولده أبوعبدالله محمد الملقب بالأيسر. وكان أميراً صارما سيئ الخلال، متعاليا على أهل دولته، بعيداً عن الاتصال بشعبه، لا يكاد يبدو فى أية مناسبة عامة، وكان وزيره يوسف بن سراج واسطته الوحيدة للاتصال بشعبه وكبراء دولته . وكان هذا الوزير النابه ، وهو يومئذ زعيم أعظم وأشرف بيوت غرناطة، يعمل ببراعته ورقة خلاله، لتلطيف حدة السخط العام على مليكه . بيد أنه كان يحاول أمراً صعبا . ولابد لنا أن نقول كلمة فى التعريف ببنى سراج، وهم الذين يقترن اسمهم منذ الآن بحوادث مملكة غرناطة، والذين غدت سيرتهم فيما بعد مستقى خصبا للقصص المغرق . فهم بنو سراج من أعرق الأسر الأندلسية العربية ، ويرجع أصلهم حسبما يشير

---

(١) السلاوى فى الاستقصاء ج ٢ ص ١٤٨ .

(٢) Condé: ibid; V. III. p. 197 & 198 . وكذلك Lafuente Alcantra : Historia de Granada (1906) V. III. p. 46

المقرى إلى مَذْحج وطيء من البطون العربية العريقة، التي وفد بنوها إلى الأندلس منذ الفتح ، وكان منزلهم بقرطبة وقبلى مرسية ، بيد أنهم لم يظهروا على مسرح الحوادث فى تاريخ الأندلس إلا فى مرحلته الأخيرة أعنى فى تاريخ غرناطة ، وقد كانوا بغرناطة من أعظم سادتها ، وكانوا أندادا للعرش والسلاطين[١]. ومنذ عهد السلطان الأيسر نرى بنى سراج فى طليعة القادة والزعماء ، الذين يأخذون فى سير الحوادث بأعظم نصيب . وقد كان حكم السلطان الأيسر ، بداية سلسلة من الاضطرابات والقلاقل المتعاقبة . وفى عهده ساءت الأحوال ، واشتد سخط الشعب ولم تجد محاولات الوزير ابن سراج لتهدئة الأمور . وقامت ثورات متعاقبة ، فقد فيها الأيسر عرشه ثم استرده غير مرة ، وكان بلاط قشتالة يشجع هذه الإنقلابات ويؤازرها، وكان الزعماء الثائرون يتطلعون دائماً إلى عون قشتالة ووحيها . وسنرى فيما يلى كيف كانت دسائس قشتالة ومؤامراتها حول عرش غرناطة فى تلك الفترة ، من أعظم العوامل فى انحلال المملكة الإسلامية والتعجيل بسقوطها .

وفى خلال حكم الأيسر المضطرب ، كان النصارى يتربصون الفرص لغزو مملكة غرناطة ، فزحفوا عليها فى سنة ٨٣١ هـ (١٤٢٨م) وتوغلوا فى أرجائها ، وعاثوا فى بسائط وادى آش، فزادت الأمور فى غرناطة اضطرابا، وازداد الشعب على الأيسر سخطاً ، لأنه فوق غطرسته وتعاليه ، لم يفلح فى رد العدو عن أرض الوطن ؛ وسرعان ما انفجر بركان الثورة وزحف الثوار على الحمراء ، ونادوا بولاية الأمير محمد بن محمد بن يوسف الثالث ، وهو ابن أخى الأيسر. وفى رواية أنه ولده ، ومحمد هذا هو الملقب « بالزغير » . وفر الأيسر فى أهله ونفر من خاصته ، وركب البحر إلى تونس مستظلا بحماية سلطانها أبى فارس الحفصى . وجلس محمد «الزغير» أو أبو عبد الله الصغير ، حسبما يسمى فى بعض الوثائق الرسمية[٢]

---

(١) راجع نفح الطيب ج ١ ص ١٣٨ حيث يشير إلى أصل بنى سراج إشارة عابرة . وقد ذكر البعض أن بنى سراج ينتمون إلى يوسف السراج ، وأن السراج هذا هو وزير السلطان الأيسر . ولكن إشارة المقرى الصريحة إلى الاسم والمنبت تنفى هذا التحريف فى الاسم . ويشغل بنو سراج فى الأساطير الإسبانية التى كتبت عقب سقوط غرناطة فراغاً كبيراً، مما يدل على ما كان لهم فى غرناطة من عظيم الشأن . وسنعود إلى ذكر هذه القصص والأساطير فيما بعد . وراجع المستشرق سيبولد فى **Encyc. de l'Islam.** تحت كلمة **Abencerrages**

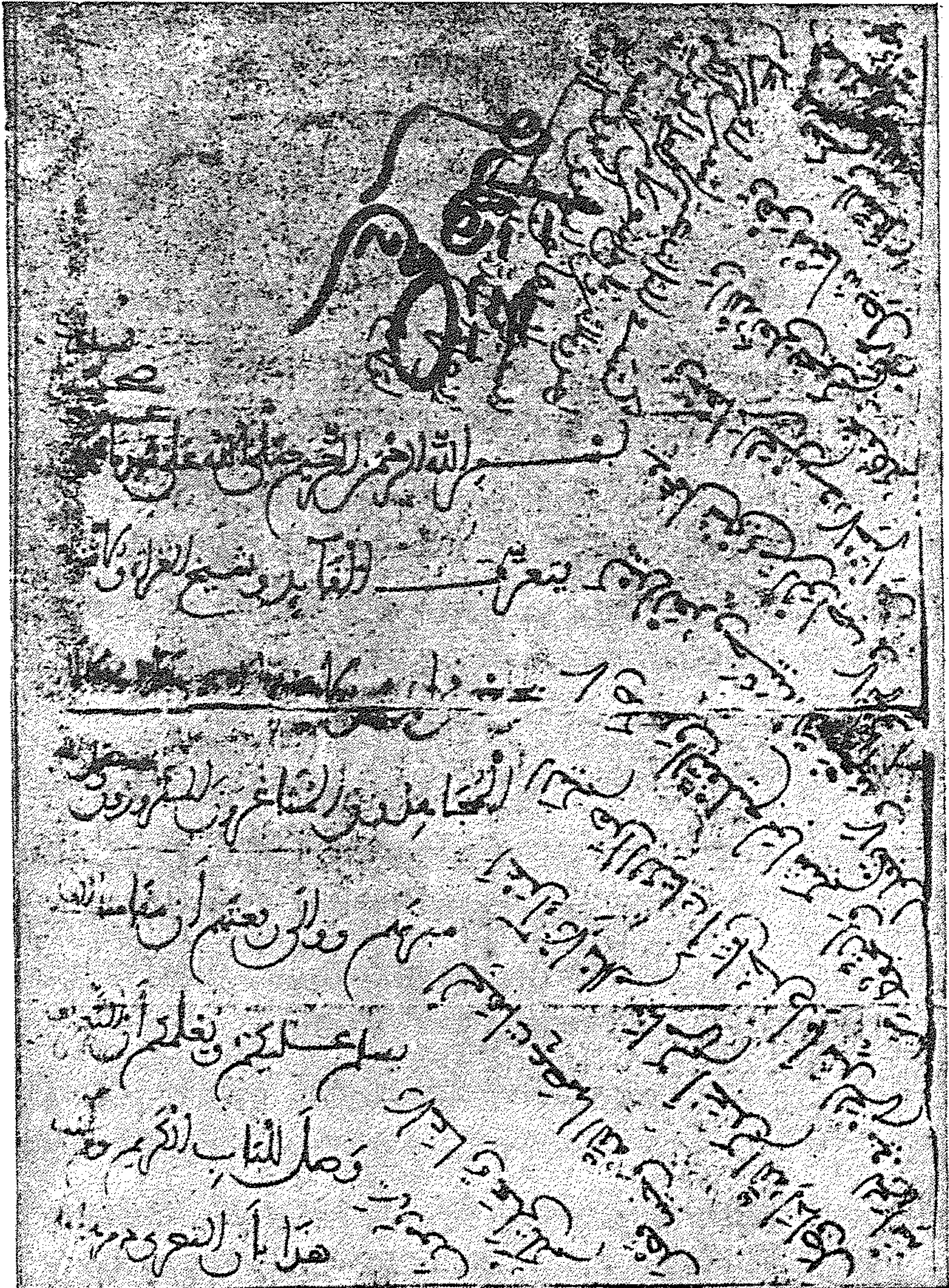
(٢) راجع كتاب « وثائق عربية غرناطية » للمستشرق الغرناطى لويس سيكودى لوثينا ، وقد وردت فى الوثيقة رقم ١٩ (ص ٤٠) إشارة إلى « دنانير من ضرب السلطان أبى عبد الله /

على عرش غرناطة . وكان أميراً بارع الخلال ، وافر الفروسية ، يعشق الآداب والفنون ، وكان يحاول اكتساب محبة الشعب ، بفيض من الحفلات ومباريات الفروسة ، ولكنه لم يوفق إلى إخماد الدسائس والفتن المستمرة . وكان بنو سراج ألد خصومه وأشدهم مراسا ، فمال عليهم وطاردهم وعول على سحقهم ، واستئصال نفوذهم القوى المتغلغل فى أنحاء المملكة ؛ وغادر يوسف بن سراج غرناطة مع عدد كبير من السادة والفرسان من أفراد أسرته ، تفاديا لانتقام «الزغير» وبطشه ، وسار أولا إلى ولاية مرسية ثم سار إلى إشبيلية ملتجئاً إلى حماية ملك قشتالة خوان الثانى ، فرحب بهم وأكرم وفادتهم . واتفق يوسف بن سراج مع ملك قشتالة على العمل لرد السلطان الأيسر إلى العرش . واستدعى الأيسر من تونس فلبى الدعوة ، وزوده السلطان أبو فارس بفرقة من الفرسان ، وهدايا ثمينة لملك قشتالة ، ونزل الأيسر فى عصبته فى ثغر ألمرية ، حيث استقبله الشعب بحفاوة ، وتودى به ملكا . ونمى الخبر إلى الزغير ، فأرسل بعض قواته لمقاتلة الأيسر والقبض عليه ، ولكن معظم جنده انضموا إلى الأيسر ؛ وسار الأيسر بعد ذلك إلى وادى آش حيث احتشد أنصاره ، ثم زحف على غرناطة فى قوة كبيرة ؛ ورأى محمد الزغير أنصاره ينفضون من حوله تباعا ، بيد أنه امتنع فى عصبته القليلة بقلعة الحمراء ، معتزما الدفاع عن ملكه . ودخل الأيسر غرناطة ، واستقبل بحماسة وأعلن ملكاً ، وحاصر الحمراء بشدة فسلمها إليه أنصار الزغير ؛ وفى رواية أن الأيسر قبض على الزغير وقطع رأسه ، وقبض على أولاده وأهله ، وفى رواية أخرى أنه قبض عليه ، واعتقله هو وأخاه الأمير أبا الحسن على بن يوسف فى قلعة شلوبانية الحصينة وهى سجن الدولة الرسمى فى عهد بنى نصر . وهكذا انتهت مغامرة الزغير على هذا النحو المؤسى بعد آن حكم عامين وبضعة أشهر (سنة ١٤٣٠ م)[١] .

ونظم السلطان الأيسر الأمور ، وأعاد يوسف بن سراج إلى الوزارة ،

= الصغير» . والواقع أن «زغير» هى النطق العامى الأندلسى لكلمة «صغير» : Dozy : Supp. aux Dict. Arabes Vol. I. p. 595 وذكر كوندى أن الزغير Zaquir معناها السكير : Coudé : ibid. V. III. p. 182

(١) Lafuente Alcantra : ibid.; V. III. p. 121 & 122 ; Condé ; ibid.; V. III. p. 184 & 185 وراجع أيضاً مقال الأستاذ سيكودى لوثينا المعنون Las Campanas de Castilla contra Granda en el ano 1431 المنشور فى مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد (المجلد الرابع) ص ٨٠ .



صورة رسالة وجهها السلطان أبو عبد الله الأيسر إلى قادة وأشياخ حصن قمارش بوجوب اليقظة والحرص على الدفاع عنه مؤرخه فى شعبان سنة ٨٣١ هـ (١٤٢٨ م) ، وأوردها المستشرق ريميرو فى رسالته **Documentos Arabes de la Corte Nazari** ، منقولة من مجموعة هرناندو دى ثافرا **H. de Zafra**

وأرسل إلى ملك قشتالة خوان الثانى فى تجديد الهدنة ، فبعث إليه سفيره كونثالث دى لونا واشترط لتجديدها أن يؤدى الأيسر ما أنفقه بلاط قشتالة فى سبيل استرداد عرشه ، وأن يؤدى فوق ذلك جزية سنوية ضخمة اعترافاً منه بطاعة قشتالة ، وأن يفرج عن سائر الأسرى النصارى الموجودين ببلاده ، فرفض الأيسر وهدد ملك قشتالة بالحرب . وبعث خوان الثانى كذلك سفراءه ومعهم هدايا نفيسة إلى أبى فارس الحفصى سلطان تونس ، وإلى سلطان فاس عبد الحق بن عثمان المرينى يرجو كلا منهما أن يبتعد عن التدخل فى شئون غرناطة ، فوعد كلاهما بتحقيق رغبته . وما كادت تنتهى الفتنة الداخلية التى كانت يومئذ ناشئة فى قشتالة ، حتى أغار القشتاليون فى قواتهم من قرطبة وجيان واستجه على أراضى المسلمين ، وقصدوا إلى احواز رندة ، فهرع الأيسر إلى لقائهم ، واستطاع أن يردهم فى البداية ، ولكن ملك قشتالة قدم بعدئذ بنفسه فى قوات كبيرة ، وزحف على حصن اللوز وأرشدونة ، وعاث فى تلك المنطقة ، ثم عاد إلى قرطبة ومعه كثير من السبى والغنائم (١٤٣١ م) .

وفى أثناء ذلك عاد الأيسر إلى غرناطة ، متوجسا من سير الحوادث فيها : وكانت الفتن الداخلية قد عادت تنذر بانقلابات جديدة ، وغدا عرش غرناطة مرة أخرى يضطرب فى يد القدر ؛ وانقسمت المملكة الإسلامية شيعاً وأحزابا متنافسة متخاصمة ، وألفى النصارى فرصتهم السانحة لإذكاء الفتنة ، وبسط سيادتهم على مملكة يسودها الضعف والتفرق . وكان خصوم الأيسر قد التفوا حول أمير ينتمى إلى بيت الملك عن طريق أمه ، هو أبو الحجاج يوسف بن المول . وكانت أمه ابنة للسلطان محمد بن يوسف بن الغنى بالله ، وأبوه ابن المول من وزراء الدولة النصرية : ودبرت مؤامرة جديدة لخلع الأيسر . وكان يوسف أميراً قويا ، وافر الثراء والهيبة ، وكان ملك قشتالة ، خوان الثانى ، يعسكر يومئذ بجيشه على مقربة من غرناطة ، يتتبع سير الحوادث ، ويرقب الفرص . فقصد إليه يوسف ، وطلب إليه العون على انتزاع العرش لنفسه ، وتعهد بأن يحكم باسمه وتحت طاعته ، فلبى ملك قشتالة دعوته ، وعقد معه يوسف وثيقة بالخضوع ، يقرر فيها أنه من أتباع ملك قشتالة وخدامه ، وأنه إذا حصل على الملك ، فإنه يتعهد بتحرير جميع الأسرى النصارى ، وبأن يدفع الملك قشتالة جزية سنوية قدرها عشرون ألف دينار من الذهب ، وأن يعاونه بألف وخمسمائة فارس لمحاربة أعدائه سواء أكانوا نصارى أو مسلمين ،

صورة للجانب الأيسر من معاهدة التحالف والخضوع التي عقدت بين يوسف بن المول (يوسف الرابع) وخوان الثاني ملك قشتالة ، وفوقه بضعة أسطر من النص القشتالي للمعاهدة . وهي مؤرخة في جمادى الأولى سنة ٨٣٥ هـ (يناير ١٤٣٢ م) ومحفوظة بدار المحفوظات العامة **Archivo General de Simancas** برقم **P, R. 11-124**

وأن يحضر جلسات مجلس الكورتس (مجلس النواب القشتالى) بنفسه إن كان منعقداً جنوب طليطلة أو بإنابة أحد من أبنائه أو ذوى قرابته إن كان منعقداً داخل قشتالة . وتعهد ملك قشتالة من جانبه بأن يعقد الصلح مع يوسف طوال أيام حكمه وأيام أبنائه ، وبأن يعاونه على محاربة أعدائه من المسلمين والنصارى ، وألا يحمى من يلتجىء اليه من أعدائه . ووقع مشروع هذه المعاهدة بين الفريقين فى السابع من المحرم سنة ٨٣٥ هـ (١٦ سبتمبر سنة ١٤٣١ م) ونفذت على الأثر ، إذ أرسل ملك قشتالة ، جنده فغزت مرج غرناطة ، وسار الأيسر على رأس قواته والتقى بالنصارى فى بسائط إلبيرة ، ونشبت بين الفريقين موقعة شديدة ، ارتد الأيسر على أثرها منهزماً إلى غرناطة . أما يوسف فقد استطاع بمؤازرة النصارى أن يستولى على عدة قواعد اعترفت بطاعته ، مثل رندة ولوشة وحصن اللوز وغيرها . وأعلن ملك قشتالة انحيازه إلى يوسف ونودى به ملكا ، وسار يوسف بعد ذلك فى قواته إلى غرناطة فلقيته جنود الأيسر بقيادة الوزير ابن سراج فهزم ابن سراج وقتل ، ودخلت جنود يوسف العاصمة ، ونادت بطاعته معظم الجهات ، وانفض الأشراف من حول الأيسر بعد أن رأوا خسران قضيته ، فاعتزم الأيسر أمره وحمل أمواله وغادر غرناطة فى أسرته ونفر من خاصته ، وقصد إلى مالقة التى بقيت على طاعته ، ودخل يوسف بن المول الحمراء ظافراً وتربع على العرش ، وذلك فى أول يناير سنة ١٤٣٢ م .

وكان أول ما فعله يوسف أن جدد لملك قشتالة عهد الخضوع ، فوقعه باعتباره سلطان غرناطة فى ٢٢ جمادى الأولى من نفس العام (٢٧ يناير سنة ١٤٣٢ م)[١]. بيد أن حكمه لم يطل إذ كان شيخاً مريضاً ، فتوفى بعد ستة أشهر لم يفعل خلالها شيئاً سوى اعترافه بطاعة ملك قشتالة ، وهو ما كانت تسعى إليه قشتالة دائما منذ قامت مملكة غرناطة .

ومن المدهش أن نجد تماثلا غريبا بين نصوص المعاهدة التى عقدها محمد ابن الأحمر مؤسس مملكة غرناطة بالخضوع لفرناندو الثالث ، وبين عهد الخضوع الذى وقعه يوسف بن المول ، والذى قطعت به قشتالة أكبر خطوة فى سبيل تحقيق

---

(١) Archivo General de Simancas; P.R. 11-129 . وقد حصلنا على صورة فتوغرافية لهذه الوثيقة بنسختيها العربية والقشتالية ، ونشرنا النصين فى بحث ظهر فى صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد (المجلد الثانى — ١٩٥٤) .

أمنيتها القديمة . والواقع أن هذا العهد المؤلم كان أشنع ما انتهت إليه الخلافات الداخلية والحروب الأهلية فى مملكة غرناطة فى تلك الفترة الدقيقة من حياتها .

وعلى أثر وفاة السلطان يوسف ، اتفقت الأحزاب كلها على رد الأمر للسلطان الأيسر ، فجلس على العرش للمرة الثالثة ، وبادر بالسعى إلى عقد السلم مع ملك قشتالة ، فعقدت الهدنة بين الفريقين لمدة عام ، ولكن القشتاليين ما لبثوا بالرغم من عقدها أن أغاروا على أراضى غرناطة الشرقية ، فردهم المسلمون بقيادة الوزير ابن عبد البر زعيم بنى سراج ، ثم هزموهم ثانية عند مدينة أرشدونة ، وقتل وأسر منهم عدد كبير (٨٣٨ هـ — ١٤٣٤ م) .

وفى العام التالى سار السلطان الأيسر لقتال القشتاليين ، فى أحواز غرناطة ووادى آش ، وهزمهم غير مرة ، ثم عاد النصارى فأغاروا على بسطة ووادى آش ، واحتلوا بعض الحصون والقرى المجاورة ، وزحفت قوة كبيرة من النصارى بقيادة حاكم لبلة ، على ثغر جبل طارق ، ولكن أهل الثغر باغتوا النصارى وهزموهم ، وقتل قائدهم وكثير منهم (٨٤٠ هـ — ١٤٣٦ م) . ثم نشبت بعد ذلك بين المسلمين والنصارى موقعة أخرى على مقربة من كازورلا ، أصيب الفريقان فيها بخسائر فادحة ، وانتهت بنصر المسلمين ، ولكن قائدهم الفارس ابن سراج وهو ولد الوزير السابق ، سقط قتيلا فى الموقعة ، فحزنت غرناطة لفقده ، وقد كان يخلب الشعب الغرناطى بظرفه وبارع فروسته[١] .

وهكذا استمر الصراع بضعة أعوام سجالا بين المسلمين والنصارى . ولما رأى النصارى كثرة خسائرهم وعقم محاولاتهم ، لجأوا إلى السكينة حينا . وأرسل السلطان الأيسر فى أواخر عهده إلى مصر سفارة يرجو فيها سلطان مصر الإنجاد والغوث لما رآه من اشتداد وطأة النصارى على أراضى مملكته . وقد انتهت إلينا رواية مخطوطة مبتورة عن قصة هذه السفارة[٢] ، كما أشارت إليها التواريخ المصرية . وهذه أول مرة تتجه فيها مملكة غرناطة إلى الاستنجاد بمصر ، وقد كانت حتى ذلك الحين تتجه دائماً إلى ملوك العدوة . وقد رأينا كيف لبث بنو مرين عصراً ملاذ

---

(١) Lafuente Alcantara: ibid ; V. III. p. 147-150

(٢) عثر بهذه الأوراق المخطوطة صديق الأستاذ الدكتور عبد العزيز الأهوانى فى بعض مخطوطات مكتبة مدريد الوطنية ؛ ونشر نصها ضمن بحث عنوانه « سفارة سياسية من غرناطة إلى القاهرة فى القرن التاسع الهجرى » وذلك بمجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة (المجلد السادس عشر . الجزء الأول ص ٩٥ — ١٢١) .

غرناطة ، وساعدها الأيمن حين الخطر الداهم . ولكن الدولة المرينية ، كانت قد دخلت يومئذ فى دور انحلالها ، وخبت قواها التى انسابت مرارا إلى شبه الجزيرة ، ومن ثم فقد وجه سلطان غرناطة صريخه إلى مصر . وتضع الروايات المصرية تاريخ هذه السفارة فى رجب سنة ٨٤٤هـ ، وهو يوافق شهر ديسمبر سنة ١٤٤٠ م . ولكنها تضطرب فى ذكر اسم سلطان غرناطة ، فيسميه المقريزى « الغالب بالله عبد الله بن محمد بن أبى الجيوش نصر » ، ويسميه السخاوى « عبدالله ابن محمد بن نصر »[1] . وفى رأينا أن المرجح أن هذه السفارة صدرت عن السلطان أبى عبد الله محمد بن يوسف أى السلطان الأيسر ، لأنه حكم حتى أوائل سنة ١٤٤١م . وهناك احتمال بأن يكون مرسلها هو خلفه الثائر عليه السلطان محمد بن نصر بن محمد الغنى بالله وهو المعروف بالأحنف حسبما نذكر بعد ، ولعل خبر هذا الانقلاب لم يكن قد وصل إلى مصر حين وصل السفراء الغرناطيون إلى القاهرة ، وقد كان وصولهم إليها فى نفس التاريخ الذى وقع فيه هذا الانقلاب بغرناطة ، وهو مما يرجح كون السلطان الأيسر هو مرسل هذه السفارة .

وعلى أى حال فقد وصل السفراء الغرناطيون وعددهم أربعة ، كما يستفاد من الرواية المخطوطة المشار إليها ، فى شهر رجب سنة ٨٤٤هـ ، وقدموا كتاب سلطانهم إلى سلطان مصر ، الظاهر چقمق ، وفيه يطلب الإنجاد من مصر . وقد رد سلطان مصر بأنه سوف يبعث إلى « ابن عثمان » أعنى إلى سلطان قسطنطينية ، بأن ينجد الأندلس ، ولما أكد السفراء الغرناطيون أنهم يتوجهون بصريخهم إلى مصر ، اعتذر السلطان بأن بعد الشقة يحول دون إرسال الجند إلى الأندلس ، فطلب السفراء عندئذ أن تساهم مصر فى المعونة بالمال والعدة ، فوعدهم السلطان بذلك .

وقدم السفراء الغرناطيون إلى السلطان هدية أندلسية من الفخار المالقى والأنجبار الغرناطى ، ومن ثياب الخز الأندلسية ، فاستحسنها السلطان ، وفرقها بين مماليكه وحشمه وأهله . ولسنا نعرف شيئاً عن نتيجة هذه السفارة ولا عن موعد عودة السفراء الأندلسيين إلى غرناطة ، لأن الرواية المخطوطة تنتهى بوصف رحلة هؤلاء السفراء إلى الحجاز مع ركب الحاج لقضاء الفريضة ، وتقف عند وصف كاتبها للبقاع المقدسة ، بيد أننا نرجح أنها لم تسفر عن أية نتائج عملية .

---

(١) الأول فى كتاب « السلوك فى دول الملوك » . والثانى فى كتاب « الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع » .

ولكن حوادث غرناطة كانت عندئذ تنذر بتطورات جديدة مزعجة . ذلك أن السلطان الأيسر بالرغم من حسن بلائه ضد النصارى لم يحسن السيرة فى الداخل ، ولم ينجح فى اجتذاب شعبه ، وكان فريق من خصومه من السادة الفرسان يلوذ بحماية ملك قشتالة ، وعلى رأسهم الأمير يوسف بن أحمد حفيد السلطان يوسف الثانى ، وابن عم الأيسر ، وهو المعروف فى التواريخ القشتالية « بابن إسماعيل » وذلك لأن نسبه ينتهى إلى السلطان أبى الوليد إسماعيل الذى تولى العرش سنة ٧١٢ هـ . وكان ثمة فريق آخر من الزعماء الناقمين فى ألمرية يناصر الأمير محمداً بن نصر بن محمد الغنى بالله وهو المعروف بالأحنف . وكان الأحنف قد نجح فى دخول غرناطة سراً مع نفر كبير من أنصاره ، وأخذ يعمل على إذكاء الفتنة . فلما آنس سنوح الفرصة ، ثار فى عصبته واستولى على الحمراء والحصون المجاور لها ، وقبض على الأيسر وآله وزجهم إلى السجن ، ونادى بنفسه ملكا ، وذلك فى أوائل سنة ١٤٤١ أو أوائل سنة ١٤٤٢ م ، حسبما تدل على ذلك وثيقة عربية ، هى عبارة عن خطاب موجه منه إلى ملك قشتالة فى شهر ذى القعدة سنة ٨٤٦ هـ (مارس ١٤٤٣ م). يشير فيه إلى بعض المشاكل القائمة بين البلدين ، ويطالب بإطلاق سراح سفيره المعتقل فى قشتالة(١) .

ولكن الفتنة لم تهدأ ولم تستقر الأمور . وكان يعارض ولاية الأحنف فريق قوى من الزعماء والشعب ، ويتزعم هذا الفريق المعارض الوزير ابن عبد البر زعيم بنى سراج . وكان يقيم فى حصن مونتى فريو فى شمال غربى غرناطة ، ويؤيد ولاية الأمير يوسف (ابن إسماعيل) المقيم فى بلاط قشتالة . ولم يمض قليل حتى سار هذا الأمير من إشبيلية إلى غرناطة ومعه سرية من الفرسان النصارى أمده بها ملك قشتالة . والظاهر أن ابن إسماعيل استطاع التغلب عندئذ على الأحنف ، واحتل الحمراء ، وحكم مدى أشهر قلائل . ولكن الأحنف عاد فتغلب عليه واسترد عرشه (أوائل سنة ١٤٤٦ م) . وردّ السلطان الأحنف من جانبه بأن غزا أراضى قشتالة وهاجم قلعة بنى موريل وقلعة ابن سلامة ، وقتل من فيهما من النصارى (١٤٤٦م) وسير فى الوقت نفسه جزءاً من قواته لمقاتلة خصمه ابن إسماعيل ، وانتهز الأحنف فرصة الخلاف القائم يومئذ بين أراجون وقشتالة ، فأرسل إلى ملك أراجون يعرض

---

(١) نشر نص هذا الخطاب مع صورته الفتوغرافية فى كتاب نبذة العصر فى أخبار ملوك بنى نصر (المنشور بعناية معهد فرانكو بتطوان) ص ٧٦ — ٧٨ .

محالفته ضد قشتالة، ونفذ هذا الحلف بأن غزا الأحنف أرض النصارى من ناحية أراضى مرسية ، والتقى بالقشتاليين قرب جنجالة وهزمهم هزيمة شديدة (١٤٥٠م) ثم عادت قواته تكرر الإغارة والعيث فى أرض النصارى وتشغل قواتهم . وكان ابن إسماعيل يقيم أثناء ذلك فى حصن مونتى فريو ، وقد أقرت بطاعته بعض البلاد والحصون المجاورة . وهكذا اتسع نطاق النضال ، وعصفت الحرب الأهلية من جهة، وغزوات النصارى من جهة أخرى بقوى غرناطة . وكان السلطان الأحنف بالرغم من عزمه وقوة نفسه، يثير غضب الشعب بطغيانه وقسوته وعنفه، وكانت معظم الأسر الكبيرة تعمل لإسقاطه ، لما لقيت من بطشه وعدوانه ، وهكذا تهيأ الجو لانقلاب جديد . وهنا يحيق الغموض بولاية العرش الغرناطى ويختلف القول فى شأنها . والرواية الإسلامية مقلة فى هذا الشأن ، ولم يصلنا منها عن حوادث هذه الفترة المضطربة من تاريخ غرناطة سوى القليل ، ومن ثم فإن جل اعتمادنا هنا على الروايات القشتالية . وفى بعض هذه الروايات أن ملك قشتالة عاد بعد أن سوى خلافه مع أراجون إلى التدخل فى شئون غرناطة ، فزود ابن إسماعيل ببعض قواته ، وسار الأحنف لقتال منافسه ، ونشبت بين الفريقين فى ظاهر غرناطة معركة شديدة ، انتهت بهزيمة الأحنف وفراره ؛ ودخل ابن إسماعيل غرناطة ، وجلس على العرش ، وكان ذلك فى سنة ١٤٥٤م . وفى بعض الروايات الأخرى أن السلطان الأحنف استمر فى الحكم حتى سنة ١٤٥٨ م . ثم خلفه فى الحكم الأمير سعد بن محمد حفيد السلطان يوسف الثانى ، واستمر فى الحكم أربعة أعوام . ثم عزل فى سنة ١٤٦٢ م ، وأعيد السلطان يوسف الخامس (ابن إسماعيل) ، وحكم حتى أواخر سنة ١٤٦٣م[1].

وكان السلطان ابن إسماعيل أميراً عاقلا حازما عادلا ، محبا للإصلاح والأعمال الإنشائية ، فعكف على ضبط الأمور وتوطيد الأمن ، وإقامة الأبنية وتحصين القواعد والثغور . وكان فارسا بارعا يشترك بنفسه أحيانا فى مباريات الفروسة . ولأول عهده أرسل إلى ملك قشتالة خوان الثانى يؤكد طاعته ، وساد السلم لفترة قصيرة بين المسلمين والنصارى . ولكن خوان الثانى توفى بعد أشهر قلائل ، وخلفه ولده هنرى الرابع ، وأبى ابن اسماعيل أن يعترف بحماية ملك قشتالة

---

(١) Condé : Ibid; V. III. p. 201 & 202 : وراجع أيضاً Seco de Lucena : Una Rectificación a la Historia de los últimos Nasries (Al-Andalus Vol. XVII, Fasc.1)

الجديد ، محاولا بذلك أن يكتسب الشعب إلى جانبه ، وأن يوطد مركزه ؛ وسير بعض قواته فى نفس الوقت فأغارت على الأراضى القشتالية ، وأصر ملك قشتالة من جانبه على وجوب خضوع ملك غرناطة وطاعته ، واعتزم أن يتابع الضغط على المملكة الإسلامية الصغيرة دون هوادة ؛ فسار إلى أراضى غرناطة فى جيش ضخم وعاث فيها . وانتسف المروج والضياع ، وقتل وسبى من أهلها جموعا كبيرة ؛ ولقيه المسلمون فى قوات صغيرة أنزلت بجيشه خسائر كبيرة . وعاد القشتاليون فى العام التالى إلى عيثهم فى أراضى المسلمين ؛ وغزا المسلمون من جانبهم منطقة جيّان وأوقعوا هنالك بالنصارى ، واستمرت هذه المعارك مدى حين سجالا بين الفريقين . وكان النصارى قد استولوا فى تلك الفترة المضطربة من حياة المملكة الإسلامية ، على عدة من القواعد والثغور الإسلامية ، بعضها اختيارا بتنازل سلاطين غرناطة والبعض الآخر بالفتح . وكانت أعظم ضربة أصابت مملكة غرناطة فى عهد السلطان ابن إسماعيل ، سقوط ثغر جبل طارق فى يد النصارى . فى سنة ١٤٦٢ م (٨٦٧ هـ) سارت إليه قوة من القشتاليين بقيادة الدوق مدينا سيدونيا ، واستولت عليه بطريق المفاجأة . وكان سقوط هذا الثغر المنيع فى يد النصارى ، أول خطوة ناجعة فى سبيل قطع علائق مملكة غرناطة بعدوة المغرب ، والحول دون قدوم الأمداد إليها من وراء البحر .

على أن خطر الفورات الإسلامية القوية فيما وراء البحر ، كان قد خبا منذ بعيد ، وأخذت دولة بنى مرين القوية تجوز مرحلة الإنحلال والسقوط ، وكان آخر ملوكهم السلطان عبد الحق ، قد خلف أباه السلطان أبا سعيد المرينى فى سنة ٨٢٣هـ (١٤١٥م) . وفى عصره ساد الاضطراب والتفكك فى أنحاء المملكة ، واستبد وزيره يحيى بن يحيى الوطّاسى بالدولة . وكان بنو وطّاس ينتمون إلى بطن من بطون بنى مرين ، وينافسونهم فى طلب الرياسة والملك ، فلما اشتدت وطأتهم على السلطان عبد الحق ، بطش بهم وقتل معظم رؤسائهم ، وفى مقدمتهم وزيره يحيى ، ونجا البعض منهم وتفرقوا فى مختلف الأنحاء . وأسلم عبد الحق زمام دولته إلى اليهود فبغوا وعاثوا فى الدولة ؛ وغضب الشعب على مليكه ، واضطرمت الثورة ، وعزل عبد الحق وقتل (٨٦٩هـ — ١٤٦٤م) ؛ وانتهت بمصرعه دولة بنى مرين بعد أن عاشت زهاء مائتى عام ؛ واستولى على تراث بنى مرين وملكهم ، بنو وطّاس خصومهم القدماء ، واستطاع زعيمهم محمد الشيخ أن يستولى على فاس فى سنة

٨٧٦ هـ (١٤٧١ م)[١] وبذا قامت بالمغرب دولة فتية جديدة ، بيد أنها لم تكن من المنعة والقوة بحيث تستطيع الإقدام على عبور البحر إلى الأندلس ، فى سبيل الجهاد والنجدة ، أسوة بما كانت تعمله دولة بنى مرين القوية الشامخة .

وهكذا كانت الأمة الأندلسية تشعر بأنها أضحت فريدة ، فى مواجهة عدوها القوى ، دون حليف ولا ناصر . ولم ير سلطان غرناطة بعد أن أضناه النضال ، بداً من قبول ما فرضه عليه ملك قشتالة من الاعتراف بسلطانه ، وتأدية الجزية اغتناماً للمهادنة والسلم . وكانت مملكة غرناطة تجوز فى هذه الآونة العصيبة ذاتها مرحلة من الاضطراب الداخلى ، وكان من أهم أسباب هذا الاضطراب الخطر ، اضطرام المنافسة بين العرش وبين الأسر النبيلة القوية ، مثل بنى سراج وبنى أضحى وبنى الثغرى وغيرهم[٢] ، واضطرام المنافسة فيما بين هذه الأسر القوية ذاتها ، وغلبة نفوذ النساء فى البلاط . وكان من أثر ذلك أن حدثت فى سنة ١٤٦٢ م فتنة خطيرة من جراء محاولة السلطان ابن إسماعيل أن يقضى على نفوذ بنى سراج أقوى هذه الأسر وأعرقها . وهكذا كانت نذر التفكك تعمل عملها المشئوم[٣] . ومع أن غرناطة تمتعت بمزايا الهدنة الخادعة التى عقدتها مع قشتالة لمدى قصير ، فقد كان من الواضح أن المملكة الإسلامية كانت تنحدر سراعاً إلى مصيرها الخطر ، وتواجه شبح الإنحلال الأخير .

---

(١) راجع الإستقصاء ج ٢ ص ١٤٨ و ١٥٠ و ١٥١ و ١٦٠ .

(٢) بنو أضحى أو بنو ضحى من سادة غرناطة ، وقد ذكرهم ابن الخطيب فى الإحاطة مع من ذكر من الأسر الغرناطية ، ولكنا لم نعثر فى الرواية الإسلامية على أية إشارة تلقى ضوءاً على أصل بنى الثغرى وهم الذين يسمون فى الرواية النصرانية (Zegris) . ويقول المستشرق الإسبانى جاينجوس مترجم نفح الطيب إن التسمية الفرنجية هى تحريف لكلمة الثغريين وهم الذين نزحوا من أراجون أو الثغر الأعلى (مملكة سرقسطة) إلى غرناطة بعد سقوطه فى يد النصارى (Mohammedan Dynastics in Spain; V. II. p. 541 & Alhambra; Intr. p. 15 Note). وقد كانت كلمة الثغرى فيما يبدو صفة أو لقبا لكثير من الأسر النازحة من الثغر الأعلى (أراجون) إلى مختلف أنحاء الأندلس ولا سيما منذ القرن السادس الهجرى . ولهذا نجد عدداً من الزعماء يحمل هذا اللقب (راجع الحلة السيراء لابن الأبار ص ٢١٧ و ٢١٨) . على أن هذا التعليل لا يكشف لنا لقب هذه الأسرة الغرناطية الحقيقى وإنما ينصرف إلى الصفة والشهرة . وهنالك ما يدل على أن آل الثغرى كانوا من البربر ومن قبيلة غمارة ؛ وقد كانت لهم كما سنرى مواقف مشهودة فى حرب غرناطة الأخيرة .

(٣) يرى المستشرق جاينجوس أن منافسات بنى سراج وبنى الثغرى ، كانت من أهم أسباب التعجيل بسقوط غرناطة Gayangos; ibid; V. I. p. 315

ولم يمض قليل على ذلك حتى وقع انقلاب جديد فى ولاية العرش الغرناطى . ذلك أن الأمير سعداً عاد فهاجم الحمراء مع أنصاره وانتزع العرش لنفسه (١٤٦٣م) وفر ابن إسماعيل وخصوم السلطان الجديد . وهنا تلقى الرواية الإسلامية بعض الضوء على ماتلا من الحوادث فى غرناطة ، وهذه الرواية هى رواية مؤرخ ورحالة مصرى زار المغرب والأندلس فى هذه الفترة ، هو عبد الباسط بن خليل الحنفى ، دونها فى مؤلفه المسمى « كتاب الروض الباسم فى حوادث العمر والتراجم »[١] ؛ وهو يحدثنا عن بعض أخبار الأندلس التى سمعها أثناء زيارته للمغرب ثم بعد ذلك أثناء زيارته لغرناطة (سنة ٨٧٠ هـ) ، ويروى لنا ما وقف عليه من الحوادث فى سنى ٨٦٧ — ٨٧٠ هـ ؛ ثم يستطرد فيما بعد فيروى لنا ما سمعه من أخبار الأندلس حتى سنة ٨٨٧ هـ (١٤٨٢ م) .

ويقول لنا الرحالة المصرى إن سلطان الأندلس فى سنة ٨٦٧هـ (١٤٦٢— ١٤٦٣ م) كان سعد بن محمد بن يوسف المستعين بالله المعروف بابن الأحمر ، وإنه ماكاد يجلس على العرش حتى ثار عليه ولده أبو الحسن بتحريض بنى سراج وأخرجه عن غرناطة وامتلكها ؛ فسار سعد إلى مالقة ،وحكم أبو الحسن مكانه . وفى العام التالى أعنى سنة ٨٦٨هـ ، لما اشتد ضغط النصارى على الأندلس ، عاد أبو الحسن فعقد الصلح مع أبيه ، وأطلق سراحه ، واختار سعد الإقامة فى ألمرية فلم يعترض ولده ، ولم يلبث أن توفى فى أواخر هذا العام ، وعندئذ خلص العرش لأبى الحسن .

ولكن حدثت بعد ذلك منازعات حول ولاية العرش بين أبى الحسن ، وأخيه أبى الحجاج يوسف ، ولم ينته هذا النزاع إلا بوفاة يوسف بعد ذلك بقليل .

ويذكر لنا الرحالة أنه قابل السلطان أبا الحسن بحمراء غرناطة فى أواخر جمادى الأولى سنة ٨٧٠ هـ (يناير سنة ١٤٦٦ م)[٢] .

---

(١) تحفظ نسخة مخطوطة وحيدة من هذا الكتاب بمكتبة الفاتيكان الرسولية برقمى 729 & 728 Borg.، وهى فى مجلدين، الأول يقع فى ٢٥٩ ورقة كبيرة، والثانى فى ٦٦ ورقة . وترد أخبار الأندلس مبعثرة فى حوليات المجلدين المتوالية .

(٢) نقل العلامة المستشرق الأستاذ G. della Vida ما ورد فى كتاب عبد الباسط عن أخبار الأندلس ، ونشره مجتمعاً فى مقال عنوانه: Il Regno de Granata nel 1463-66 nei recordi di un viagiattero egiziano وذلك بمجلة الاندلس (Al-Andalus Vol. I-1933-Fasc. II)

وهذه النبذ القليلة التى يقدمها إلينا الرحالة المصرى ، تلقى ضوءاً خسناً على حوادث مملكة غرناطة فى تلك الفترة الدقيقة من حياتها .

* * *

وفى ذلك الحين بالذات استولى محمد الفاتح عاهل الترك العثمانيين على قسطنطينية (سنة ١٤٥٣ م) وانهار هذا الصرح المنيع ، الذى كان يحمى أوربا النصرانية من جهة الشرق ، من غزوات الإسلام ، وانساب تيار الفتح العثمانى إلى جنوب شرقى أوربا ، يكتسح فى طريقه كل مقاومة ، وروعت أوربا النصرانية لهذا الخطر الجديد الذى يهدد حريتها وسلامها ، وأخذت النزعة الصليبية تضطرم من جديد بقوة مضاعفة . وتردد هذا الصدى فى اسبانيا النصرانية ، حيث كانت مملكة غرناطة ما تزال بالرغم من صغرها وضعفها ، تمثل صولة الإسلام القديمة فى اسبانيا وقد تغدو فى الغرب نواة لهذا الخطر الإسلامى الداهم ، الذى بدت طلائعه فى الشرق على يد الغزاة الترك ؛ ومن ثم فقد كان طبيعياً أن تجيش اسبانيا النصرانية بفورة صليبية جديدة ، وأن يذكى هذا الخطر الجديد ، اهتمامها بالقضاء على مملكة غرناطة . وبالرغم مما كانت تجوزه مملكة غرناطة يومئذ من فتن داخلية ، وما كان يفت فى قواها من عوامل الإنحلال السياسى والاجتماعى ، فقد كانت تعتبر دائماً فى نظر اسبانيا النصرانية عدواً داخلياً له خطره . وكان أشد ما تخشاه اسبانيا النصرانية أن تغدو غرناطة قاعدة لفورة جديدة من الغزو الإسلامى تنساب من وراء البحر ، كما حدث فى الحقبة الأخيرة غير مرة . والحقيقة أن حياة هذه المملكة الإسلامية الصغيرة ، قد استطالت أكثر مما كانت تقدره اسبانيا النصرانية . وكانت مملكة قشتالة فى تلك الآونة بالذات تشغل بمنازعاتها الداخلية ، ومضى زهاء ربع قرن آخر قبل أن تتحد اسبانيا النصرانية فى مملكة قوية موحدة . وقد كانت خلال الأحداث التى توالت عليها فى تلك الفترة ، تجيش دائماً بنزعتها الصليبية المأثورة . فلما تحققت الوحدة واستقرت الأحوال واجتمعت الموارد ، أخذت فرصة القضاء الأخير على المملكة الإسلامية الصغيرة ، تبدو لخصيمتها القوية اسبانيا النصرانية ، فى الأفق قوية سانحة .

الفصل التاسع

تاريخ اسبانيا النصرانية

منذ قيام مملكة غرناطة حتى اتحاد مملكتي قشتالة وأراجون

ألفونسو العاشر ملك قشتالة . مشاريعه نحو مملكة غرناطة . الحرب الأهلية فى قشتالة . ولاية سانشو الباسل . الخلاف بينه وبين النبلاء . عقد الهدنة بين غرناطة وقشتالة . ولاية فرناندو الرابع ووصاية أمه . اضطراب الأحوال فى قشتالة . توطد مركز فرناندو . غزو القشتاليين لأراضى الأندلس . استيلاؤهم على جبل طارق . ولاية ألفونسو الحادى عشر والوصاية عليه . زحف القشتاليين على غرناطة . هزيمتهم ومقتل زعمائهم . طغيان ألفونسو وعيثه . عبور سلطان المغرب إلى الأندلس . هزيمة المسلمين . غزو القشتاليين للجزيرة الخضراء . حصار جبل طارق وفشل النصارى . ولاية بيدرو القاسى . طغيانه وعنفه . الحرب الأهلية فى قشتالة . انتصار الكونت هنرى وارتقاؤه العرش . ازدهار قشتالة فى عهده . ولاية خوان الأول . الخلاف بينه وبين البرتغاليين . مصرعه وولاية ولده هنرى الثالث . توطد السلام والأمن فى عهده . ولاية خوان الثانى والوصاية عليه . ضعفه ولهوه . فرناندو الوصى يدعى لولاية عرش أراجون . الصراع بين خوان والأشراف . التهادن بين قشتالة وغرناطة . ولاية هنرى الرابع . اضطراب الأحوال فى عصره . استيلاء القشتاليين على جبل طارق . بيدرو الثالث ملك أراجون . النزاع حول عرش نابل . افتتاحه لصقلية . ألفونسو الثالث . ضغط النبلاء عليه . خايمى الثانى . الاستقرار فى عهده . ألفونسو الرابع . طغيان النبلاء وامتيازاتهم . بيدرو الرابع . الحرب الأهلية بين العرش والنبلاء . استيلاء بيدرو على الجزائر الشرقية . استرداده لصقلية . ولاية خوان الأول . ولاية مرتين الأول . الصداقة بين أراجون وغرناطة . وفاة مرتين وجلوس فرناندو صاحب أنتقيرة على العرش . حكمه المطلق . ولده ألفونسو الخامس . افتتاحه لمملكة نابل . أخوه خوان يحكم أراجون . ازدهار مملكة نابل . ولاية خوان الثانى لعرش أراجون . الحرب الأهلية فى أراجون . الحرب بين أراجون وفرنسا . وفاته وولاية ولده فرناندو . عود إلى تاريخ قشتالة . النزاع حول العرش بعد وفاة هنرى الرابع . أخته الأميرة إيسابيلا . قصة زواجها من فرناندو الأرجونى . معارضة أخيها هنرى . موافقتها على هذا الزواج . شروط الزواج وعقده . إعلان ولاية إيسابيلا عقب وفاة أخيها . خوانا ابنة الملك هنرى . مشروع زواجها من ملك البرتغال . غزو ملك البرتغال لقشتالة . ارتداده وفشل مشروعه . ارتقاء فرناندو عرش أراجون . اتحاد مملكتى قشتالة وأراجون . اسبانيا النصرانية الموحدة . فرناندو الكاثوليكى وصفاته وخلاله . إيسابيلا الكاثوليكية وصفاتها وخلالها . انحلال مملكة غرناطة . عزم فرناندو وايسابيلا على القضاء عليها .

١ — قشتالة

لما توفى فرناندو الثالث ملك قشتالة فى شهر مايو سنة ١٢٥٢م، خلفه فى الملك ولده ألفونسو العاشر الملقب بالعالم أو الحكيم El Sabio لشغفه بالعلوم والآداب

حسبما أشرنا من قبل . وشغل ألفونسو بالشئون والإصلاحات الداخلية ، ولاسيما الإصلاحات التشريعية . وكان المجتمع الإسبانى فى هذا العصر يشعر بحاجة شديدة إلى تشريعات تتفق مع تطوراته، وتقضى على ماكان يعتوره من شذوذ فى تكوينه، وتحد من طغيان الأشراف والسادة، وتلطف من حدة التنافس والبغضاء بين الطوائف. وقد رأينا أن خايمى الفاتح ملك أراجون كان فى الوقت نفسه يضطلع فى مملكته بمثل هذا الدور الإصلاحى الهام . وكان ألفونسو تحدوه أطماع إمبراطورية ضخمة ، إذ كان يطمح إلى تاج الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وذلك بسبب انحداره من أم ألمانية من آل هوهنشتاوفن هى ابنة الإمبراطور فيليب ، وقد أنفق فى سبيل هذا المشروع الخيالى أموالا طائلة ، واضطر لحاجته إلى المال أن يصدر نقداً زائفاً، وأن يتخذ إجراءات ، كان لها أسوأ الأثر فى سير الأحوال الاقتصادية .

وكان ألفونسو بالرغم من اشتغاله بالشئون الداخلية ، يجرى على خطة أسلافه فى متابعة غزو الأراضى الإسلامية . وفى أوائل عهده استطاع أن ينتزع مدينة قادس من سكانها المسلمين، بمعاونة حليفه ابن الأحمر صاحب غرناطة . بيد أن أمير غرناطة محمداً الفقيه ، لما شعر بعد ذلك بما يدبره ملك قشتالة من خطط للقضاء على المملكة الإسلامية ، عبر البحر إلى المغرب يطلب الغوث والعون ، من السلطان أبى يوسف يعقوب المنصور . وقد رأينا فيما تقدم كيف استجاب المنصور إلى صريخ الأندلس ، وعبر البحر إلى اسبانيا غير مرة وأثخن فى جيوش قشتالة .

وفى أواخر عهد ألفونسو العاشر ساءت الأحوال فى قشتالة ، وثار الأشراف على العرش ، لمحاولته أن يقضى على سلطانهم وامتيازاتهم . ثم خرج على ألفونسو ولده سانشو مناديا بحقه فى العرش ، وكونه أولى من ولد أخيه المتوفى المرشح لولاية العهد . واضطرمت فى قشتالة حرب أهلية خسر فيها ألفونسو عرشه ، والتجأ إلى السلطان أبى يوسف فأمده بالمال والجند حسبما فصلنا ذلك فى موضعه . واستمرت الحرب الأهلية بين ألفونسو وولده سانشو ، حتى توفى ألفونسو فى سنة ١٢٨٤م فى إشبيلية ، منبوذاً مهزوما ، وبذلك انتهت الحرب الأهلية فى قشتالة .

واستمر ولده سانشو الملقب بالباسل El Bravo على عرش قشتالة مدى حين بلا منازع ، ولكنه لم يلبث أن اختلف مع النبلاء الذين آزروه ضد أبيه من قبل ، ومع إخوته الأصاغر ، وكذلك مع أبناء أخيه الأكبر فرناندو الذى توفى قبل وفاة أبيه، وثارت حول عرش قشتالة من جديد منازعات واضطرابات لا نهاية

لها . وعمد سانشو إلى الدس والغيلة للتخلص من خصومه ، وأبدى فى مطاردتهم قسوة متناهية . وفى تلك الفترة التى اضطربت فيها شئون قشتالة ، آثر سانشو أن يستجيب إلى عقد السلم مع مملكة غرناطة ، وكان ابن الأحمر من جانبه يتوق إلى عقد مثل هذه الهدنة مع قشتالة ، لما كان يساوره من جزع من جراء تدخل سلطان المغرب أبى يوسف المنصور فى شئون الأندلس ، بصورة خشى معها على سلطانه حسبما فصلنا ذلك فى موضعه ، وعلى ذلك تمتعت غرناطة ببضعة أعوام من السكينة والسلام .

ولما توفى سانشو فى سنة ١٢٩٦ م ، خلفه ولده فرناندو الرابع طفلا فى السادسة من عمره ، وتولت الوصاية عليه أمه ماريا دى مولينا ، وبالرغم مما أبدته أمه من الشجاعة فى الذود عن العرش وعن الملك الطفل ، ومن براعة فى تصريف الشئون ، فقد كان عهده عهد اضطراب وفوضى ، وعاد النبلاء والمتنافسون فى طلب العرش إلى تدبير الثورات المتعاقبة ، واضطر الملك الطفل وأمه إلى الفرار من إشبيلية ، والالتجاء إلى حماية أهل آيلة الذين آزروه واستقبلوه بترحاب وحماسة . ولما بلغ فرناندو أشده ، استطاع أن يعود إلى عرشه بمؤازرة أصدقائه وأنصاره ، ولكنه أبدى قصوراً وعجزاً فى تسيير الشئون . كما أبدى عقوقاً ونكراناً لأمه ، التى كفلته وحمته فى طفولته . وفى عهد فرناندو ساءت العلائق بين قشتالة ومملكة غرناطة ، وعاد النصارى إلى غزو أراضى المسلمين. وكان من أعظم الحوادث فى هذا العهد ، استيلاء القشتاليين على ثغر جبل طارق ، وذلك فى سنة ٧٠٩ هـ (١٣١٠ م) .

ولما توفى فرناندو خلفه على العرش ولده الطفل ألفونسو (الحادى عشر) ، ولما يبلغ الحول من عمره ، وتولى الوصاية عليه الدون پيدرو والدون خوان وهما زعيما النبلاء . وبالرغم مما كان يسود قشتالة يومئذ من ضروب الاضطراب والفوضى ، فقد اعتزم رهط الأمراء والنبلاء المضى فى غزو الأراضى الإسلامية ، وعاث الجند القشتاليون فى بسائط غرناطة ، واستولوا على عدة من الحصون ، وهزموا المسلمين فى موقعة شديدة (١٣١٧م) . وكان ذلك فى بداية عصر السلطان أبى الوليد إسماعيل . وبعد ذلك بعامين زحف الجند القشتاليون ، بقيادة الدون پيدرو والدون خوان الوصيين وعدد كبير من الأمراء ، على العاصمة الأندلسية ذاتها ، والتقى المسلمون والنصارى على مقربة من غرناطة ، وكانت موقعة هائلة كتب فيها النصر للمسلمين وقتل الدون پيدرو والدون خوان ومعظم الأمراء القشتاليين (١٣١٩م) .

وانتهز المسلمون هذه الفرصة ، فقاموا بعدة غزوات ناجحة فى أراضى قشتالة ، واستولوا على بعض القواعد والحصون حسبما فصلنا ذلك فى موضعه . وفى خلال ذلك تفاقمت الأمور فى قشتالة واشتد النزاع بين النبلاء ، واستمرت هذه الحال طوال عهد الوصاية .

ولما بلغ الملك الطفل أشده ، وتولى أمور الملك بنفسه ، أخذت تتكشف صفاته المثيرة شيئاً فشيئاً . وبالرغم مما أبداه من مقدرة فى ضبط المملكة وتسيير الشئون ، وما قام به من الإصلاحات الإدارية والقضائية ، لتوطيد النظم التى يقوم عليها المجتمع القشتالى ، فقد كان يلجأ إلى أشد أساليب العنف والقمع ، وكان القتل وسيلته المثلى لحماية العرش وصون الدولة ، وقد زهق على يديه كثير من الأمراء والنبلاء والزعماء ، دون إجراءات ودون محاكمة ، حتى لقب من أجل ذلك « بالمنتقم » . وكان البلاط القشتالى فى عهده مرتعا للفجور والإثم . وكانت الملكة الشرعية الأميرة ماريا البرتغالية تعيش منبوذة فى عزلة مطبقة ، وتسيطر على القصر والدولة خليلة الملك إليونورا دى كزمان ، وقد رزق منها ألفونسو بعدة أبناء غير شرعيين . وهكذا كانت قشتالة تجوز يومئذ عهداً من الإرهاب ، والانحلال السياسى والاجتماعى .

ومع ذلك فقد كان ألفونسو الحادى عشر ملكا قوى البأس والعزم . وكان يضطرم نحو المملكة الإسلامية بمشاريع خطرة . وكانت غرناطة شعوراً منها بالخطر الذى يحدق بها . قد استغاثت بجارتها القوية وراء البحر مرة أخرى ، وبعث السلطان أبو الحسن المرينى جيوشه لنجدة الأندلس ، واجتمعت جيوش الممالك النصرانية ، قشتالة وأراجون للقاء الجيوش المغربية وهزمتها فى موقعة دموية فى سنة ١٣٣٩ م ؛ فاعتزم السلطان أبو الحسن أن يثأر لنفسه من تلك الهزيمة ، وجاز البحر بنفسه إلى الأندلس فى أسطول وجيش عظيمين ، واجتمعت الجيوش النصرانية بقيادة ألفونسو الحادى عشر ، والتقت بجيوش الأندلس والمغرب على ضفاف نهر سالادو فى الجزيرة الخضراء ، ونشبت بين الفريقين موقعة حاسمة هزم فيها المسلمون شر هزيمة وسقط معسكر سلطان المغرب ومخيمه فى يد النصارى حسبما فصلنا فى موضعه ، وكان ذلك فى ٣٠ أكتوبر سنة ١٣٤٠ م (جمادى الأولى سنة ٧٤١ هـ) ، واستولى النصارى على طريف والجزيرة الخضراء .

واستمرت غزوات النصارى لأراضى غرناطة بضعة أعوام أخرى . وفى سنة

١٣٤٩ م زحف القشتاليون على سهول الجزيرة الخضراء . وكان ثغر جبل طارق الذى استولى عليه النصارى مدى حين قد عاد إلى المسلمين ، واعتزم ملك قشتالة أن يحاول استرداده ، فضرب حوله الحصار الصارم . واستمر الحصار زهاء عام ، والمسلمون داخل الصخرة صامدين ، وملك غرناطة يرابط بجيشه من وراء النصارى . ثم فشا الوباء فى جيش النصارى ، وهلك منه عدد جم ، وكان ملك قشتالة فى مقدمة الضحايا ، فاضطر النصارى إلى رفع الحصار ، وأنقذ جبل طارق بما يشبه المعجزة (سنة ١٣٥٠ م) .

وهكذا توفى ألفونسو الحادى عشر ملك قشتالة فى إبان قوته ومجده ، ولما يبلغ الثامنة والثلاثين من عمره ، فخلفه ولده پيدرو الثانى الملقب بالقاسى الذى تعرفه الرواية الإسلامية « بدون بطره » . وپيدرو شهير فى الرواية الإسلامية أولا لأنه هو الملك الذى أوفد إليه المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون سفيراً من قبل ملك غرناطة ، ووصف لنا فى التعريف سفارته لديه وإقامته فى قشتالة[1] . وثانيا لأنه معاصر للوزير ابن الخطيب مؤرخ غرناطة ، وقد تناول أخباره فى تاريخه بتفصيل ووضوح .

ولجأ پيدور الثانى إلى نفس الأساليب الدموية التى لجأ إليها أبوه فى توطيد سلطانه ، فأسرف فى قتل خصومه ، وبسط على قشتالة حكم إرهاب مروع ، وقيل إنه لجأ إلى قتل زوجه الشرعية بلانش دى بوربون بالسم ليتزوج من خليلته ، وعهد بإدارة حكومته إلى رهط من اليهود ارتيابا منه فى أبناء وطنه ، وأنشأ له حرساً من المدجنين . ونشب الخلاف بينه وبين إخوته غير الشرعيين أبناء إلينورا دى كزمان ، ولاسيما كبيرهم الكونت هنرى دى تراستمارا . وانحاز الأشراف إليهم ، واضطرمت قشتالة مدى أعوام بثورات داخلية ، ثم استحالت إلى حرب أهلية ضروس ، واستطاع الكونت هنرى أن يحصل على معاونة ملك فرنسا ، وأن ينتزع لنفسه عرش قشتالة ، وفر پيدرو واستغاث بالأمير أدوارد ولى عهد انجلترا المعروف بالأمير الأسود ، فأمده بجنده واستطاع أن يسترد عرشه مدى حين . ولكن أخاه الكونت هنرى عاد إلى محاربته فهزم وقتل فى موقعة مونتيل فى سنة ١٣٦٨ م . وقد عرضنا إلى هذه الحوادث بالتفصيل فى حديثنا عن عصر السلطان محمد الغنى بالله . وقد كانت تربطه ببيدرو الثانى معاهدة صداقة وتحالف ، وكانت

---

(١) راجع كتاب العبر ج ٧ ص ٣٠٦ وما بعدها .

غرناطة إلى جانبه فى محنته ، وكان لهذه الحوادث صدى خاص فى الرواية الإسلامية عرض إليه ابن الخطيب فى كتابه « الإحاطة » على نحو ما قدمنا .

وعلى أثر موقعة مونتيل استقر الكونت هنرى دى تراستمارا مكان أخيه على العرش (١٣٦٨م) ، وبدأ بذلك ثبت جديد من ملوك قشتالة . وفى عهده استتب الهدوء والنظام فى قشتالة ، وأقبل الأشراف على تأييده ، وكان للمدن التى آزرته فى جهوده لنيل العرش امتيازات خاصة ، وكذلك ازدهر البرلمان القشتالى (الكورتيس) واشتد ساعده ، ولكنه لم يوفق إلى الحد من طغيان العرش . وأبدى الكونت هنرى فى تسيير الشئون الداخلية مقدرة ، وأصاب نجاحا يذكر ، واستطاع فى ميدان الشئون الخارجية أن يرغم البرتغال على عقد الصلح ، وأن يهزم حملة بحرية فى مياه لاروشل . وكان حكمه على العموم فترة رخاء وأمن . وفى عهده انتهزت مملكة غرناطة فرصة اشتغال قشتالة بشئونها الداخلية فنظمت قواها ، وأغارت غير مرة على أراضى قشتالة فى غزوات ناجحة ، حسبما أشرنا إلى ذلك فى موضعه .

ولما توفى الكونت هنرى فى سنة ١٣٧٩ م ، خلفه على العرش ولده خوان (يوحنا) الأول . وكان الأمير چون أوف جونت ولد إدوارد الثالث ملك انجلترا قد تزوج كبرى بنات پيدرو الثانى ، وأخذ يطالب باسمها بعرش قشتالة ، وكادت تضطرم من أجل ذلك حرب أهلية جديدة ، ولكن خوان الأول استطاع أن يجتنب هذا الخطر بالتفاهم مع الأمير چون ، والاتفاق معه على أن يقترن ولده بالأميرة كونستانس كبرى بنات الأمير الإنجليزى ، وتم بذلك الزواج اتحاد فرعى ألفونسو الحادى عشر ، وزوال خطر الحرب الأهلية المترتب على خصومتهما حول العرش ؛ وحاول خوان الأول من جهة أخرى أن يطالب بعرش البرتغال عقب وفاة ملكها فرناندو سنة ١٣٨٣م باسم زوجه الأميرة بياتريس ، وهى الإبنة الوحيدة للملك المتوفى ، وثارت من جراء ذلك بين قشتالة والبرتغال حرب هزم فيها القشتاليون فى موقعة « الجبرونا » فى سنة ١٣٨٥م ، واضطر ملك قشتالة أن ينزل عن دعواه .

وتوفى خوان الأول قتيلا على أثر سقوطه عن جواده (أكتوبر سنة ١٣٩٠م) فخلفه على عرش قشتالة ولده هنرى (إنريكى) الثالث حدثا . وكان سقيما عليلا ، ولم يطل أمد حكمه حينما بلغ الرشد سوى أعوام قلائل . بيد أنه استطاع فى حكمه القصير أن يوطد النظام والأمن داخل مملكته ، وأن يقضى على شغب الأشراف ،

وأن يسترد منهم كل الإقطاعات التى انتزعوها من العرش إبان طفولته . وفى عهده نشبت الحرب حيناً بين المسلمين والنصارى ، وانتهت بعقد الهدنة بين الفريقين ، ثم توفى شابا فى أواخر سنة ١٤٠٦ م .

فخلفه ولده خوان الثانى طفلا فى نحو الثانية من عمره ، ووضع تحت وصاية أمه الملكة كونستانس الإنجليزية ، وعمه الأمير فرناندو الذى يعرف بفرناندو صاحب أنتقيرة ، نظراً لاستيلائه على هذه القاعدة من المسلمين فى سنة ١٤١٢م .

وطال حكم خوان الثانى زهاء نصف قرن ، وكان أميراً ضعيف الرأى والعزم سيئ الخلال ، يعشق اللهو وينفق أوقاته فى حفلات الصيد والفروسة وقرض الشعر ، وكان عمه الوصى فرناندو فى الأعوام الأولى من طفولته ، يقبض على زمام الأمور بحزم وبصيرة . بيد أنه دعى منذ سنة ١٤١٢ م إلى تبوىء عرش أراجون بقرار من الكورتيس ، فترك قشتالة لمصيرها . وما كاد خوان الثانى يبلغ أشده ، حتى بدأ النضال بينه وبين الأشراف من أجل السلطة وفرض الضرائب ، وشغلت قشتالة مدى حين بأمر هذا النضال . وفوض الملك شئون الدولة إلى وزيره وصفيه ألبارو دى لونا ، فاستأثر بكل سلطة ، واستطاع أن يوطد نفوذ العرش ، وأن يحقق النظام والأمن . فلما اقترن خوان بزوجه الثانية إيسابيلا البرتغالية ، عملت على تحريره من نفوذ وزيره القوى ، وما زالت به حتى أسقطه وأقصاه . ويقال إن هذا التصرف الغادر نغص عليه حياته فى أعوامه الأخيرة . وتوفى خوان الثانى فى يوليه سنة ١٤٥٤ م فى بلد الوليد ، وقد رزق من زواجه الثانى بابنته إيسابيلا وهى التى تبوأت العرش فيما بعد ، وعرفت بايسابيلا الكاثوليكية ، وكان لها أعظم شأن فى تاريخ اسبانيا النصرانية .

وفى معظم عصره ساد نوع من السلام والتهادن بين غرناطة وقشتالة ، وكانت حفلات الفروسية الأندلسية الشهيرة تجمع بين الأشراف والسادة من الفريقين ، فى جو من التعاطف والمودة . ولكن غرناطة ما لبثت أن شغلت بثوراتها الداخلية التى تعاقبت حول العرش فى عصر السلطان الأيسر وخلفائه . وكان بلاط قشتالة يلعب عندئذ دوره المأثور ، فى إذكاء عوامل الخلاف بين المتنافسين من أمراء غرناطة ، وتغليب البعض على البعض الآخر ، والتمهيد بذلك لإضعاف مملكة غرناطة والقضاء عليها .

وخلف خوان الثانى ولده هنرى (إنريكى) الرابع ، وكان كأبيه أميرا ضعيفاً

منحل الخلال ، حتى أنه لقب « بالعاجز » . وكان عصره عصر ركود وفوضى ، ومع ذلك فإن قشتالة لم تقعد فى عهده عن المضى فى غزو الأراضى الإسلامية ؛ وإرهاق مملكة غرناطة ، التى اضطربت شئونها وسادتها الخلافات الداخلية ، واضطر ملك غرناطة السلطان ابن إسماعيل أن يتعهد بتأدية الجزية لقشتالة . وكان من أعظم الحوادث فى عصر هنرى الرابع استيلاء القشتاليين نهائيا على ثغرجبل طارق (١٤٦٢م) حسبما ذكرنا فى موضعه . وتوفى الملك هنرى فى سنة ١٤٧٤م . وعلى أثر وفاته عارض النبلاء فى جلوس ابنته الوحيدة خوانا على العرش لما يحيط بنسبها إليه من الريب . وهنا تقدمت أخته الأميرة إيسابيلا مطالبة بعرش قشتالة . وكانت قد تزوجت فى سنة ١٤٦٩ م من ابن عمها الأمير فرناندو الأرجونى ، وذلك بالرغم من معارضة أخيها الملك هنرى ؛ وكان لهذا الزواج أثر بعيد المدى فى سير التاريخ الإسبانى حسبما نفصل بعد .

٢ — أراجون

لما توفى خايمى الأول أوخايمى الفاتح ملك أراجون فى سنة ١٢٧٤ م ، خلفه على العرش ولده پيدرو الثالث . وتبدأ منذ عهد هذا الملك صفحة جديدة فى تاريخ أراجون ، حيث يمتد سلطان العرش الأرجونى واسبانيا النصرانية فيما وراء البحر ، إلى صقلية وجنوبى إيطاليا (مملكة نابل) . وذلك أن پيدرو الثالث تزوج الأميرة كونستانس إبنة مانفرد دوق بنفونتوم وصاحب مملكة نابل وصقلية باعتباره سليل بيت هوهنشتاوفن الإمبراطورى . وكان البابا يريد التخلص من سلطان أولئك الأمراء الألمان ، فدعا شارل دانجو ولد ملك فرنسا إلى اعتلاء عرش نابل ، فاستجاب شارل إلى الدعوة وغزا نابل وقتل صاحبها مانفرد . وهنا تقدم بيدرو الثالث مطالبا بعرش نابل باسم زوجه ، ونشب بين الحزب الأرجونى وبين حزب شارل دانجو نزاع طويل الأمد . وفى النهاية استطاع پيدرو أن يغزو صقلية وأن ينتزعها من يد الفرنسيين ؛ وأسبغ عليه هذا الفتح لقب « الأكبر » . ولما حاول الفرنسيون غزو قطلونية تأييداً لشارل دانجو ، ردهم پيدرو وأخفقت المحاولة . وكان افتتاح صقلية أول خطوة فى بسط السيادة الإسبانية على جنوبى إيطاليا فيما بعد . ولما توفى بيدرو الثالث فى سنة ١٢٨٥ م ، كانت سيادة أراجون تمتد فضلا عن صقلية إلى بعض أنحاء بروڤانس فى جنوبى فرنسا .

وخلفه على العرش ولده ألفونسو الثالث، وكان ضعيفاً سيئ الخلال ، ولم يطل أمد حكمه سوى بضعة أعوام . وفى عهده اشتدت وطأة النبلاء وكثرت مطالبهم، وعجز ألفونسو عن مقاومتهم ، وكان تخاذل العرش أمام طغيان الأشراف على هذا النحو ، سبباً فى اضطراب الأمور فى مملكة أراجون .

وتوفى ألفونسو الثالث سنة ١٢٩١ م دون عقب لأنه لم يتزوج ، فخلفه على عرش أراجون أخوه الأصغر خايمى الثانى . وكان يتولى عرش صقلية منذ وفاة أبيه فى سنة ١٢٨٥ م حتى وفاة أخيه الأكبر . ورأى خايمى أن يوفق بين أراجون وبين مملكة نابل، فتزوج من بلانكا ابنة شارل دانجو، وساد السلم حينا بين أراجون وفرنسا . واستطال حكم خايمى حتى سنة ١٣٢٧م ، وكان عهده اصلاح واستقرار . ثم خلفه فى الملك ولده ألفونسو الرابع ، فحكم زهاء تسعة أعوام ، وكان أميراً ضعيفاً . وفى عهده زاد طغيان النبلاء ولاسيما فى أراجون وبلنسية، واشتد إرهاقهم للعرش حتى انتهوا بإرغام الفونسو على إصدار المرسوم المعروف بمرسوم الإتحاد ، وفيه يعترف العرش لهم بأنه لا تجوز معاقبتهم فيما يتعلق بالنفس أوالمال إلا بحكم القانون ، وأن يكون لهم حق اختيار القاضى الأكبر الذى يصدر أحكامه مستقلا عن مصادقة العرش، وأن يقوموا بالدفاع المسلح عن أنفسهم حيثما شعروا بما يهددهم . وكان فى صدور هذا المرسوم افتئات لم يسبق له مثيل على سلطات العرش .

وكان پيدرو الرابع الذى خلف أباه ألفونسو على العرش سنة ١٣٣٦ م ، أميراً قوياً وافر العزم . وكان يتوق إلى كبح جماح أولئك النبلاء الذين طال طغيانهم ، وإلغاء ذلك المرسوم الذى أرغم أبوه على إصداره . ولكن النبلاء تمسكوا بموقفهم ، وتأهبوا للدفاع عن امتيازاتهم ، واضطرمت أراجون بحرب أهلية بين العرش والنبلاء انتهت بفوز پيدرو الرابع على النبلاء الخوارج فى موقعة آبلة سنة ١٣٤٨م . وأمعن پيدرو بعد ذلك فى مطاردة خصومه وقتلهم ، وأرغم النبلاء على التنازل عن مرسوم الإتحاد ، وقام بنفسه بتمزيقه أمام مجلس النواب فى سرقسطة ، وبلغ من تلفهه على تمزيقه أن جرح يده بخنجره ، وصاح عندئذ بأن الدم الملكى حقيق بأن يجرى فى سبيل إبطال مثل هذه الوثيقة ، وعرف من جراء ذلك « بصاحب الخنجر » .على أن پيدرو كان حكيما فى ظفره، فقد ترك للنبلاء الحق فى أن يحاكموا بمقتضى القانون ، وأن تكفل حمايتهم من الأحكام التعسفية ، وأكد احترامه لاستقلال القضاء، وترك للمدن حق الإعراب عن رأيها . وفى العام التالى (١٣٤٩م)

استطاع پيدرو الرابع أن ينتزع الجزائر الشرقية (البليار) من ابن عمه خايمى الثالث ، بعد أن هزم وقتل فى موقعة دموية ، وأعيدت الجزائر الشرقية إلى مملكة أراجون مرة أخرى ، وكان خايمى الفاتح قد تركها بمقتضى وصيته لخايمى أحد أولاده ، وقامت بها مملكة مستقلة مدى حين . ونشبت الخصومة بعد ذلك بين پيدرو ملك أراجون ، وپيدرو القاسى ملك قشتالة ، وانحاز ملك أراجون إلى الكونت هنرى دى تراستمارا المطالب بعرش قشتالة ، واستمر يعاونه بالمال والجند ، حتى انتهى أخيراً بالتغلب على أخيه پيدرو القاسى ، والجلوس على عرش قشتالة سنة ١٣٦٩ م حسبما فصلنا من قبل . وظفر پيدرو كذلك باسترداد صقلية فى سنة ١٣٧٧ م ، ولكنه منح حكمها لابنه مرتين ، وزوج پيدرو ابنته إلينور لخوان الأول ملك قشتالة ، فكان ذلك فيما بعد سبباً فى انتقال عرش أراجون إلى بيت قشتالة الملكى حينما انقرض عقبه من الذكور .

وتوفى پيدرو الرابع سنة ١٣٨٧م ، وأراجون أوفر ما تكون قوة ، واستقرارا فخلفه ولده خوان (يوحنا) الأول . وكان أميراً ضعيف الخلال والعزم ، يعشق الأدب والشعر وتضجره مهام الملك ، ولم يطل أمد حكمه سوى بضعة أعوام ، إذ توفى فى حادث سقوطه عن جواده سنة ١٣٩٥ م .

فخلفه أخوه الأصغر مرتين الأول . وكان حكمه عهد هدوء واستقرار . ومنح عرش صقلية لولده مرتين . وفى عهده سادت علائق المودة والصداقة بين أراجون وغرناطة ، وعقدت بين المملكتين معاهدة صداقة وتحالف (سنة ١٤٠٥م) . ولما توفى مرتين فى سنة ١٤١٠ م دون عقب ، ثارت حول وراثة عرش أراجون مشكلة دقيقة ، وتولى مجلس الكورتيس (البرلمان) حكم البلاد ، واستمر مدى عامين فى مباحثات ومناقشات مستمرة حول مسألة العرش ، وفى النهاية أصدر قراره باختيار الأمير فرناندو القشتالى ولد خوان الأول ملك قشتالة ، والمعروف بفرناندو صاحب أنتقيرة ، للجلوس على عرش أراجون ، وذلك باعتباره ولد الملكة إلينور ابنة پيدرو الرابع ملك أراجون وأخت الملك مرتين ، فلبى فرناندو الدعوة وتخلى عن وصايته لابن أخيه خوان الثانى ملك قشتالة ، وجلس على عرش أراجون سنة ١٤١٢ م ، وبدأ بذلك ثبت جديد من ملوك أراجون .

ولم يطل أمد حكم الملك فرناندو سوى أربعة أعوام ، وكان أميراً قوى الخلال ذا مقدرة وفطنة فى تصريف الشئون ، ولكنه كان يضطرم بروح السلطان

المطلق التى ألفها فى قشتالة ، ويتبرم بالحدود والقيود التى وضعها الدستور الأرجونى للحد من سلطان العرش . والواقع أن الحريات الدستورية كانت فى أراجون ، أرسخ وأكثر نضوجا منها فى قشتالة ، وكان ذلك يرجع إلى طبيعة الشعب الأرجونى ، وشدة مراسه ، وتعلقه بمبادئ الحرية ، وهى صفات لم تكن تروق فى تلك العصور للملوكية رجعية ، تحرص على سلطانها المطلق .

ولما توفى فرناندو الأول فى سنة ١٤١٦ م ، خلفه على عرش أراجون ، ولده ألفونسو الخامس المعروف بألفونسو « الشهم El Magnánimo » على أن ألفونسو الخامس لا يكاد يمثل فى تاريخ أراجون ، وإنما يمثل بالأخص فى تاريخ إيطاليا ومملكة نابل . وقد ورث ألفونسو عرش صقلية مع عرش أراجون ، واستطاع بعد حوادث وخطوب جمة أن يفتتح مملكة نابل وأن يجلس على عرشها (١٤٤٢ م) . واستقر ألفونسو فى نابل ، وترك حكم أراجون والأراضى التابعة لها لأخيه خوان (يوحنا) ، يحكمها باسمه ومن قبله . وبسط ألفونسو على نابل وصقلية حكمه الفخم ، وسطع بلاطه بين القصور الإيطالية ، وكان نصيراً للعلوم والآداب والفنون ، يأخذ فى تعضيدها بقسط وافر ، شأن معاصريه من الأمراء والبابوات الذين ساهموا فى بعث النهضة ، وسطعوا فى عصر الإحياء (الرينصانص) . ولما توفى فى سنة ١٤٥٨ م ، دون عقب شرعى ، ترك مملكة نابل لولده غير الشرعى فرناندو ، وجلس أخوه خوان على عرش أراجون باسم خوان الثانى .

وكان خوان الثانى أميراً وافر العزم والمقدرة ، ولكنه كان فى الوقت نفسه طاغية خطر الأهواء والأساليب . وشغل خوان عن شئون أراجون الداخلية ، بكفاحه فى سبيل الحصول على عرش ناڤارا ، باعتباره زوجا ووريثا لملكتها بلانش ، وكذلك شغلته ثورة ولده الأمير كارلوس المعروف بأمير ڤيانا مدى حين ، وكان ينافس أباه فى الحصول على عرش ناڤارا ، ويرى أنه أحق منه بميراث أمه . وحاول خوان بتحريض زوجه الثانية چنه هنريكيز أن يحرم ولده من نيابة العرش ، فثار إلى جانبه فريق من الشعب الأرجونى ، ونشبت بين الأب والإبن عدة وقائع انتهت بوفاة الإبن فى سنة ١٤٦١ م . وقيل إنه توفى مسموماً بيد زوج أبيه . وكذلك ثار الشعب القطلونى معلناً استقلاله . وشغل خوان بضعة أعوام حتى استطاع أن يخمد هذه الثورة الخطيرة (١٤٧٢ م) . وكذلك نشبت الحرب بين أراجون وفرنسا ، من أجل ولاية روسيون الفرنسية ، وهزم خوان غير مرة . على أن

أعظم مهمة شغلت خوان فى أواخر عهده ، هى السعى إلى تزويج ولده فرناندو من زوجه الثانية ، بالأميرة (إيسابيل) القشتالية[1] ، وقد كلل سعيه بالنجاح فى تحقيق هذا المشروع الخطير الذى كان إيذاناً باتحاد أراجون وقشتالة فى مملكة اسبانية موحدة .

واستطال حكم خوان الثانى حتى سنة ١٤٧٩ م ، وقد بلغ الثمانين من عمره وكف بصره ، فترك العرش لولده فرناندو ، الذى قدر له أن يضطلع مع زوجه إيسابيلا ، بأعظم دور فى العمل لإنشاء اسبانيا الكبرى .

٣ — اسبانيا النصرانية المتحدة

لما توفى هنرى الرابع ملك قشتالة فى سنة ١٤٧٤م ، ثارت حول وراثة العرش مشكلة دقيقة . ذلك أن الملك هنرى لم يترك سوى ابنة طفلة هى خوانا (چنه) . وكانت مع ذلك يشك فى نسبتها إليه ، وتنسب أبوتها إلى صديقه وصفيه الدوق بلتران دى لا كويفا ، ومن ثم كان اسمها الذائع خوانا بلترانيخا . وكان يناصرها فريق صغير من النبلاء . بيد أن الأميرة إيسابيلا أخت الملك هنرى ، كانت بالعكس تتمتع بعطف الشعب القشتالى ، ويناصر وراثتها للعرش فريق كبير من النبلاء ، وكان أخوها الملك هنرى قد اعترف بحقها فى العرش ، وأيدها الكورتيس (مجلس النواب) فى ذلك ، عقب وفاة أخيها ألفونسو فى سنة ١٤٦٨ م ، ومن ثم فقد كان حقها فى وراثة العرش أمراً واضحاً .

وكانت الملكة إيسابيلا قد تزوجت قبل وفاة أخيها ببضعة أعوام ، بابن عمها الأمير فرناندو الأرجونى ولد الملك خوان الثانى . ولهذا الزواج الذى مهد لتوحيد اسبانيا النصرانية قصة طريفة . فقد كانت الأميرة إيسابيلا مذ كبرت مطمح الأنظار لما يؤهلها لعرش قشتالة من الاحتمالات القوية . وكان خوان الثانى ملك أراجون يتوق إلى خطبتها لابنه فرناندو لما يربط أسرتى قشتالة وأراجون من أواصر القربى الوثيقة ، ويقرب سبل الإتحاد بين الفريقين . وكان فرناندو أول المتقدمين لخطبة الأميرة ، ولكن أخاها الملك هنرى لم يكن راضياً عن ترشيحه ؛ وكان ينافسه فى خطبتها عدة من الأمراء والنبلاء منهم كبير فرسان قلعة رباح ، وقد وافق أخوها

---

[1] (١) هى فى التواريخ القشتالية « دونيا إيسابيل » اى السيدة إيسابيل **Dona Isabel** أو **Ysabel** . ولكنا نؤثر تسميتها بإيسابيلا تمشياً مع التواريخ الغربية .



الملكة إيسابيلا الكاثوليكية
عن الصورة المحفوظة بمتحف سان تلمو بإشبيلية

الملك هنرى على زواجه منها ، ولكنه توفى قبل إتمامه ؛ وكذلك خطبها ألفونسو ملك البرتغال وأمراء آخرون ، ولكن إيسابيلا رغبت عنهم جميعا ، وآثرت بعد إمعان النظر أن تستجيب إلى دعوة ابن عمها فرناندو الأرجونى ، لنفس البواعث التى دعت إلى تقدمه إليها، ولأنه يجمع بينهما من الجد بيت ملكى واحد . ووُضعت شروط الزواج بين الفريقين سراً نظراً لمعارضة الملك هنرى ، وفيها يتعهد فرناندو بأن يحترم قوانين قشتالة وتقاليدها، وأن يجعل مقر إقامته فيها، وألا يغادرها دون إذن إيسابيلا ، وألا يجرى أى قرارات أو تعيينات فى المملكة دون إذنها ، وتعهد بالأخص بأن يتابع الحرب ضد المسلمين . وفى أكتوبر سنة ١٤٦٩ عقد الزواج فى مدينة بلد الوليد Valladolid ، حيث كانت تقيم الأميرة ، فى حفل خاص لم يشهده سوى قليل من الأصدقاء ، وأخطرت الأميرة أخاها بعقد الزواج، بكتاب تشرح فيه البواعث التى حدت بها إلى إتمامه . وهكذا حققت أمنية ملك أراجون ، وأثبتت الحوادث التالية بعد نظره ، وخطورة مشروعه .

وأعلنت إيسابيلا عقب وفاة أخيها ملكة لقشتالة وليون ، فى شقوبية[1] حيث كانت تقيم ، وذلك فى ديسمبر سنة ١٤٧٤م ، وحذت مدن أخرى حذو شقوبية ، ولكن الأمر لم يكن هيناً ، ذلك أنه كان ثمة فريق من النبلاء يناصر الأميرة خوانا ابنة الملك المتوفى ، وكان زوجها فرناندو يطمح فوق ذلك إلى انتزاع العرش لنفسه، باعتباره آخر عقب من الذكور لبيت قشتالة الملكى ؛ ولكن إيسابيلا تمسكت بحقها ، وانتهى الأمر بينهما بالاتفاق على مزاولة الملك المشترك، تعتبر فيه إيسابيلا ملكة أصلية لقشتالة ، لها الرأى الأول فى الجليل من الشئون ، ويجرى القضاء وتسك العملة باسميهما . وكان خصوم إيسابيلا فى ذلك الحين وعلى رأسهم مطران طليطلة ، قد تفاهموا مع ملك البرتغال ألفونسو الخامس ، على تأييد سعيهم فى تنصيب خوانا ملكة وهى ابنة أخته ، وعلى الاقتران بها . وفى مايو سنة ١٤٧٥ غزا ملك البرتغال قشتالة بقواته ، واخترق هضابها الشمالية حتى مدينة سمورة ، وبادر فرناندو وإيسابيلا بالسير فى قواتهما إلى لقائه ، واشتبك الفريقان على مقربة من تورو بجوار سمورة ، فارتد القشتاليون فى البداية ، ولكن ألفونسو لم يبادر إلى الاستفادة من تفوقه، وطال الصراع بين الفريقين بضعة أشهر ، وفى النهاية رجحت كفة القشتاليين ، واضطر ملك البرتغال أن يرتد أدراجه (فبراير سنة ١٤٧٦ م) .

---

(١) هى بالإسبانية Segovia .



الملك فرناندو الخامس (الكاتوليكى)
عن الصورة المحفوظة بمتحف سان تلمو بإشبيلية

وهكذا انتصر فرناندو وإيسابيلا على خصومهما ، واستقرا معا على عرش قشتالة بلا منازع . وفى سنة ١٤٧٩ ارتقى فرناندو عرش أراجون على أثر وفاة أبيه خوان الثانى ، وبذلك اتحدت المملكتان الإسبانيتان فى ظل عرش واحد ، بعد أن فرقت بينهما المنافسات والخطوب أحقاباً ، واجتمعت كلمة اسبانيا النصرانية بعد أن طال افتراقها ؛ وبدأت اسبانيا فى ظل فرناندو وإيسابيلا ، أو فى ظل الملكين الكاثوليكيين حسبما لقبا بعد ، عصراً من القوة والعظمة والسؤدد ، لم تشهده فى تاريخها من قبل ، وهو بحق فاتحة عصرها الذهبى .

وكان فرناندو الخامس أو فرناندو الكاثوليكى من أعظم ملوك اسبانيا النصرانية وأوفرهم عزماً وهمة ؛ وكان يتمتع بمقدرة فائقة ، سواء فى الإدارة أو فى ميادين الحرب والسياسة . بيد أن هذا الجانب الحسن من خلاله ، كانت تغشاه صفات سيئة ، فقد كان فرناندو أميراً لا وازع له ، يجنح فى سياسته إلى الغدر ، ومجانبة الوفاء ، وكان رجل الفرصة السانحة ، يلتمس إلى تحقيق أطماعه العظيمة أى الوسائل ، مهما كانت تجانب المبادئ الأخلاقية المقررة ، أو مقتضيات الفروسة والوفاء . وسوف نرى كيف تتجلى هذه الخلال البغيضة فى تصرفاته وأساليبه فى معاملة الأمة الأندلسية المغلوبة .

وكانت زوجه الملكة إيسابيلا تتمتع أيضاً بكثير من الذكاء والعزم . وكانت تثير برقتها وتواضعها واحتشامها ، حب الشعب القشتالى وإعجابه . بيد أنها كانت تجيش بنزعة دينية عميقة ، تذهب أحياناً مذهب التعصب المضطرم ، وكانت تقع تحت تأثير الأحبار المتعصبين ، وتنزل عند تحريضهم وتوجيههم ؛ وكان مشروع غزو مملكة غرناطة والقضاء على الأمة الأندلسية ، يذكى فى نفس هذه الملكة الورعة التى تنعت أيضاً « بالكاثوليكية » ، أشنع ضروب التعصب ، ويحملها على مؤازرة ديوان التحقيق الإسبانى[1] ، وإقرار كل ما جنح إلى ارتكابه باسم الدين ، من الأعمال والجرائم المثيرة .

وفى الوقت الذى جلس فيه فرناندو وإيسابيلا على عرش اسبانيا القوية الموحدة ، كانت مملكة غرناطة تدخل بعد سلسلة طويلة من الحروب الأهلية فى مرحلة النزع الأخيرة . وكان يجلس على عرشها وقتئذ السلطان على أبو الحسن ، ولد السلطان

---

(١) نريد هنا بديوان التحقيق Inquisición (Inquisition) المحاكم المعروفة خطأ باسم « محاكم التفتيش » .

سعد المستعين بالله . وكانت مملكتا قشتالة وأراجون قد شغلتا مدى حين بطائفة من الإضطرابات والحروب الداخلية ، المتعلقة بوراثة العرش وغيرها ، مما سبق أن فصلناه فى مواضعه ، فلم تسعفهما الفرص للاستمرار فى محاربة المسلمين . ولكن عهد الفتنة والخصومات الداخلية انتهى بجلوس فرناندو وإيسابيلا على عرش المملكة الإسبانية المتحدة . وكان شهر الحرب على مملكة غرناطة ، من أهم الأغراض القومية المشتركة التى تعاهد الملكان على الاضطلاع بها ، ومن ثم فإنه ما كادت تستقر شئون قشتالة الداخلية ، حتى أخذ الملكان « الكاثوليكيان » يستعدان لمحاربة المسلمين بكل ما أوتيا من قوة وعزم .

وهنا نقف فى سرد تاريخ اسبانيا النصرانية ، لنعود إلى استئناف حديثنا عن مملكة غرناطة والمأساة الأندلسية .

الكتاب الثانى

نهاية

دولة الإسلام فى الأندلس

٨٦٨ ـ ٨٩٧ هـ : ١٤٦٣ ـ ١٤٩٢ م

الفصل الأول

الأندلس على شفا المنحدر

انحلال مملكة غرناطة . ابن الخطيب وشعوره بمصير الأندلس . تشاؤم ابن خلدون . مملكة غرناطة وعون بنى مرين . تربص اسبانيا النصرانية . ولاية السلطان أبى الحسن . أسرة بنيغش . استرداده لبعض الحصون . خروج أخيه أبى عبد الله الزغل عليه . عقد الصلح بينهما . اتحاد اسبانيا النصرانية . العلائق بين غرناطة وقشتالة . فرناندو يطالب بالجزية . أبو الحسن يغزو أرض النصارى . استيلاؤه على قلعة الصخرة . طغيانه وانحرافه . زوجه عائشة الحرة والخلاف حول اسمها . اقترانه بثريا النصرانية . الزواج المختلط وأثره فى انحلال المجتمع الأندلسى . التنافس بين الملكة الشرعية وثريا . اعتقال الأميرة عائشة وولدها . انقسام الزعماء والقادة . استئثار ثريا بالسلطة . سعيها لسحق أبى عبد الله ولد عائشة . فرار الأميرة عائشة وولديها . ظهور دعوتهم فى وادى آش . الحرب بين المسلمين والنصارى . مهاجمة النصارى لمدينة الحامة واستيلاؤهم عليها . فشل أبى الحسن فى إنقاذها . مهاجمة فرناندو لمدينة لوشة . إنجادها وهزيمة النصارى . الثورة فى غرناطة . فرار أبى الحسن إلى مالقة . جلوس ولده أبى عبد الله على العرش . مسير النصارى إلى مالقة . هزيمتهم الفادحة . خروج أبى عبد الله إلى الغزو . هزيمة المسلمين عند حصن اللسانة . أسر النصارى لأبى عبد الله واقتياده إلى قرطبة . الاضطراب فى غرناطة . نزول أبى الحسن عن العرش لأخيه أبى عبد الله الزغل . السعى إلى افتداء أبى عبدالله . خطة ملكى قشتالة فى استغلاله . معاهدة سرية بين الملكين وأبى عبد الله . تسريح أبى عبد الله والخلاف حوله . ضعف أبى عبد الله . زحف النصارى على رندة واستيلاؤهم عليها . هزيمتهم أمام حصن موكلين . الحرب الأهلية فى غرناطة . ظهور أبى عبد الله فى المنطقة الشرقية . دعوته إلى الصلح مع النصارى . مهاجمة النصارى للوشه واستيلاؤهم عليها . ما يقال عن اشتراك أبى عبد الله فى الدفاع عنها . سقوط الحصون الإسلامية فى يد النصارى . الأنفاط التى استعملت فى حرب عبد الله وعمه الزغل . إمداد فرناندو لأبى عبد الله . مسير فرناندو إلى بلش مالقة . إسراع الزغل إلى إنجادها . سقوطها فى يد النصارى . تأييد غرناطة لأبى عبد الله . ارتداد الزغل إلى وادى آش . انقسام مملكة غرناطة .

— ١ —

وهكذا كانت شمس الأندلس تؤذن بالغروب ، وكانت تغرب فى الواقع بخطى وئيدة ، ولكن مؤكدة .

ولم يك ثمة شك فى أن هذه المملكة الإسلامية الصغيرة ، التى يسودها الخلاف والتفرق ، وتعصف بوحدتها ومنعتها الحروب الداخلية ، كانت تنتحر ببطء ، وأن هذه الأمة الأندلسية ، التى أخذت تنكمش فى مدنها وثغورها القليلة ، كانت

تنظر إلى المستقبل بعين التوجس والجزع ، وأن هذه الحياة الباهرة الساطعة التى كانت تحياها بين آن وآخر ، كلما تربع على العرش أمير قوى رفيع الخلال ، لم تكن إلا سويعات النعماء الأخيرة ، فى حياة أمه عظيمة تالدة . وقد كان هذا الشعور يخالج رجالات الأندلس منذ بعيد ، حتى قبل أن تتفاقم الأمور ، وتغدو مملكة غرناطة ألعوبة فى يد بلاط قشتالة ؛ وكانوا يستشفون من وراء ذلك خطر الفناء المحقق ؛ وكان ابن الخطيب وزير الأندلس ومفكرها الكبير ، أشدهم شعوراً بذلك الخطر الداهم ، وقد استشعر به قبل وقوعه بأكثر من قرن ، فعكف يهيب بقومه وإخوانه المسلمين فيما وراء البحر ، ويستنفرهم إلى الجهاد . ومما يخاطبهم به قوله :

« أيها الناس رحمكم الله ، إخوانكم المسلمون بالأندلس قد دهم العدو قصمه الله ساحتهم ، ورام الكفر خذله الله استباحتهم ، وزحفت أحزاب الطواغيت عليهم ، ومد الصليب ذراعه إليهم ، وأيديكم بعزة الله أقوى ، وأنتم المؤمنون أهل البر والتقوى ، وهو دينكم فانصروه ، وجواركم القريب فلا تخفروه ، وسبيل الرشد قد وضح فلتبصروه . الجهاد الجهاد ، فقد تعين ، الجار الجار ، قد قرر الشرع حقه وبين ، الله الله فى الإسلام ، الله الله فى أمة محمد عليه السلام ، الله الله فى المساجد المعمورة بذكر الله ، الله الله فى وطن الجهاد فى سبيل الله ، فقد استغاث الدين فأغيثوه ، قد تأكد عهد الله وحاشاكم أن تنكثوه ، أعينوا إخوانكم بما أمكن من الإعانة ، أعانكم الله عند الشدائد . جددوا عوائد الخير يصل الله لكم جميع العوائد ... أدركوا رمق الدين قبل أن يفوت ، بادروا عليل الإسلام قبل أن يموت ... »(١) ؛

ويشير ابن الخطيب فى إحدى رسائله إلى السلطان أبى سالم المرينى ملك المغرب إلى ما تعانيه الأندلس من المحن والأخطار ، وينوه باتحاد الملوك النصارى على محاربتها والقضاء عليها فى قوله : « فاعلموا أننا فى هذه الأيام ندافع من العدو تياراً ، ونكابر بحراً زخاراً ، ونتوقع إلا أن وقى الله تعالى خطوباً كبارا ، ونمد اليد إلى الله تعالى انتصاراً ، ونلجأ إليه اضطراراً ، ونستمد دعاء المسلمين بكل قطر ، استعداداً به واستظهاراً »(٢) .

(١) راجع نفح الطيب ج ٤ ص ٤١١ ؛ وأزهار الرياض ج ١ ص ٦٤ ؛ وابن الخطيب يتوجه هنا بندائه إلى أهل العدوة وملوكهم من بنى مرين .

(٢) نفح الطيب ج ٢ ص ٥٧١ .

ثم يقول فى رسالة أخرى، مشيراً إلى ما يهدد الأندلس من جراء ذلك من خطر الفناء المحقق: « وقد قرت يا مولاى عين العبد بما رأت فى هذا الوطن المراكشى، من وفور حشودكم، وكثرة جنودكم، وترادف أموالكم، وعددكم، زادكم الله من فضله. ولاشك عند عاقل أنكم إن انحلت عروة تأميلكم، وأعرضتم عن ذلك الوطن، استولت عليه يد عدوه »(١).

وإلى جانب رسائله المنثورة، كان ابن الخطيب، يوجه إلى المسلمين بالمغرب قصائد مؤثره فى الاستنفار للجهاد وإغاثة الأندلس، وإليك نموذج من هذه القصائد:

إخواننا لا تنسوا الفضل والعطفا ... فقد كاد نور الله بالكفر أن يطفا
وإذ بلغ الماء الزبا فتداركوا ... فقد بسط الدين الحنيف لكم كفّا
تحكم فى سكان أندلس العدا ... فلهفاً على الإسلام ما بينهم لهفا
وقد مزجت أفواهها بدمائها ... فإن ظمئت لا رىً إلا الردى صرفا
أنوماً وإغفاء على سنة الكرى ... وما نام طرف فى حماها ولا أغفا
أحاط بنا الأعداء من كل جانب ... فلا وزرا عنهم وحدا ولا لهفا
ثغور غدت مثل الثغور ضواحكا ... أقام عليها الكفر يرشفها رشفا

ومنها:

وسيلتنا الإسلام وهو أخوة ... من الملأ الأعلى تقربنا زلفا
أخوفاً وقد لذنا بجاه من ارتضى ... وذلاً وقد عذنا بعز من استعفا
فهل ناصر مستبصر فى يقينه ... بحر من استعدا ويكفى من استكفا
ومنتجز فينا من الله وعده ... فلا نكث فى وعد الإله ولا خلفا
وهل بائع فينا من الله نفسه ... فلا مشتر أولى من الله أو أوفى
أفى الله شك بعد ما وضح الهدى ... وكيف لضوء الصبح فى الأفق أن يخفا
وكيف يعيث الكفر فينا ودوننا ... قبائل منكم تعجز الحصر والوصفا
غيوث نوال كلما سئلوا الندى ... ليوث نزال كلما حضروا الزحفا
فقوموا برسم الحق فينا فقد عفا ... وهبوا لنصر الدين فينا فقد أشفا(٢)

ويبدى المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون، تشاؤمه وتوجسه، من مصير

---

(١) نفح الطيب ج ٣ ص ٣٣١، وأزهار الرياض ج ١ ص ٦٦.

(٢) نقلنا هذه القصيدة من ديوان ابن الخطيب المخطوط المحفوظ بمكتبة جامع القرويين بفاس المسمى « الصيب والجهام، والماضى والكهام ».

الأندلس فى أكثر من موطن ، وهو الخبير بتقلبات الدول ومصايرها ، وكان قد زار غرناطة وأقام بها مدى حين ، ودرس أحوالها وشئونها[١] .

وقد رأينا فيما تقدم كيف كانت مملكة غرناطة ، جرياً منها على السياسة الأندلسية المأثورة منذ أيام المرابطين والموحدين ، تتجه كلما لاح لها شبح الخطر الداهم من عدوها القوى ، ببصرها إلى جارتها المسلمة القوية فيما وراء البحر ، أعنى دولة بنى مرين . وكانت صولة الإسلام فى الضفة الأخرى من البحر ، تروع اسبانيا النصرانية ، وترد عدوانها عن الأندلس بين آونة وأخرى . ولكن صريخ بنى الأحمر إلى ملوك العدوة ، لم يكن دائماً بعيداً عن التوجس والريب ، ولم يستجب بنو مرين دائماً إلى صريخ الأندلس المحتضرة ، وكانت لهم أحياناً مطامع ومشاريع فى الأندلس وقواعدها الجنوبية ، تزهد فى غوثهم ونصرتهم . وكانت اسبانيا النصرانية كلما آنست تصرم العلائق بين الدولتين الشقيقتين ، انقضت على الأندلس فاقتطعت منها أرضاً جديدة . ولما أشرفت دولة بنى مرين على الانهيار ، وشغلت عُدْوة المغرب بالفتن الداخلية ، خبا أمل الأمة الأندلسية ، فى تلقى الغوث والإمداد من تلك الناحية ، واضطرت مملكة غرناطة أن تعتمد فى الذود عن حياتها ، على قواها ومواردها المحدودة ، وعلى ما يمكن أن تفيده من تطور الحوادث فى اسبانيا النصرانية . ولم تأت فاتحة النصف الأخير من القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) ، حتى غدت غرناطة وقد انتزعت معظم أطرافها من الغرب والجنوب ، وأحاطت بها قوى النصرانية من كل صوب ، تدبر عدتها الأخيرة للقضاء عليها .

— ٢ —

لما توفى السلطان سعد بن محمد بن يوسف النصرى فى أواخر سنة ٨٦٨ هـ (١٤٦٣ م) كان ولده الأكبر على أبو الحسن الملقب بالغالب بالله[٢] متربعاً على عرش غرناطة قبل ذلك بأكثر من عام ، وكان أبو الحسن يومئذ فتى فى نحو الثلاثين من عمره ، لأنه ولد قبل سنة ٨٤٠ هـ ، حسبما يحدثنا الرحالة المصرى الذى سبقت الإشارة إليه[٣] . بيد أنه لم يستخلص الملك لنفسه إلا بعد نضال عنيف بينه وبين منافسيه ، وعلى رأسهم أخواه يوسف أبو الحجاج والسيد أبوعبد الله محمد

---

(١) راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٧٨ ، وج ٧ ص ٣٧٩ .

(٢) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ٦٠٧ .

(٣) راجع ما نقله الأستاذ دللاڤيدا فى مجلة (Al-Andalus V.I. 1933 Fasc. -II).

المعروف « بالزغل » ، وقد توفى يوسف قبل بعيد، وبقى « الزغل » ليخوض حياة حافلة بالأحداث والمحن . وكان أبو الحسن أميراً وافر الشجاعة والعزم ، يعشق الحرب والجهاد ، وكانت له أيام أبيه غزوات موفقة فى أرض النصارى . وما كاد يستقر فى عرشه ، حتى أبدى همة فائقة فى تحصين المملكة ، وتنظيم شئونها، وبث فيها روحاً جديدة من القوة والطمأنينة ، واستطاع أن يسترد عدة من الحصون والقواعد التى استولى عليها النصارى . وتولى وزارته ، وزير أبيه من قبل، القائد أبو القاسم بن رضوان بنيغش[١]. وكان هذا الوزير ، مثل سلفه الحاجب رضوان النصرى ، سليل أسرة نصرانية ، وأسر جده فى بعض المعارك ، وربى فى كنف الدار السلطانية ، وتبوأت أسرته بين الأسر الغرناطية مكانة رفيعة ، واشتركت فى كثير من حوادث غرناطة السياسية ، وتولت الوزارة .

وفى أوائل حكمه خرج عليه أخوه أبو عبد الله « الزغل »[٢] وكان يومئذ والياً لمالقة ، وكان يضارعه فى الشجاعة والجرأة وحب النضال . ولجأ الزغل إلى عون ملك قشتالة هنرى الرابع يستنصره على أخيه، ولقيه فى محلته فى ظاهر أرشدونة ، سنة ٨٧٤ هـ (١٤٦٩ م) فوعده بالعون والتأييد . وبادر السلطان أبو الحسن من جانبه بالإغارة على أراضى قشتالة (١٤٧٠ م) . ثم عاد فى العام التالى فغزاها مرة أخرى ، وانتزع من النصارى بعض المواقع التى استولوا عليها . وشغل أبو الحسن فى الأعوام الثلاثة التالية بمحاربة أخيه أبى عبدالله الزغل، الثائر عليه . وكان النضال سجالا بينهما . وشغل أبو الحسن بذلك عن غزو أرض النصارى . وشغل القشتاليون أنفسهم بما نشب بينهم من الخلاف الداخلى، وذلك حتى وفاة ملكهم هنرى الرابع فى سنة ١٤٧٤م.

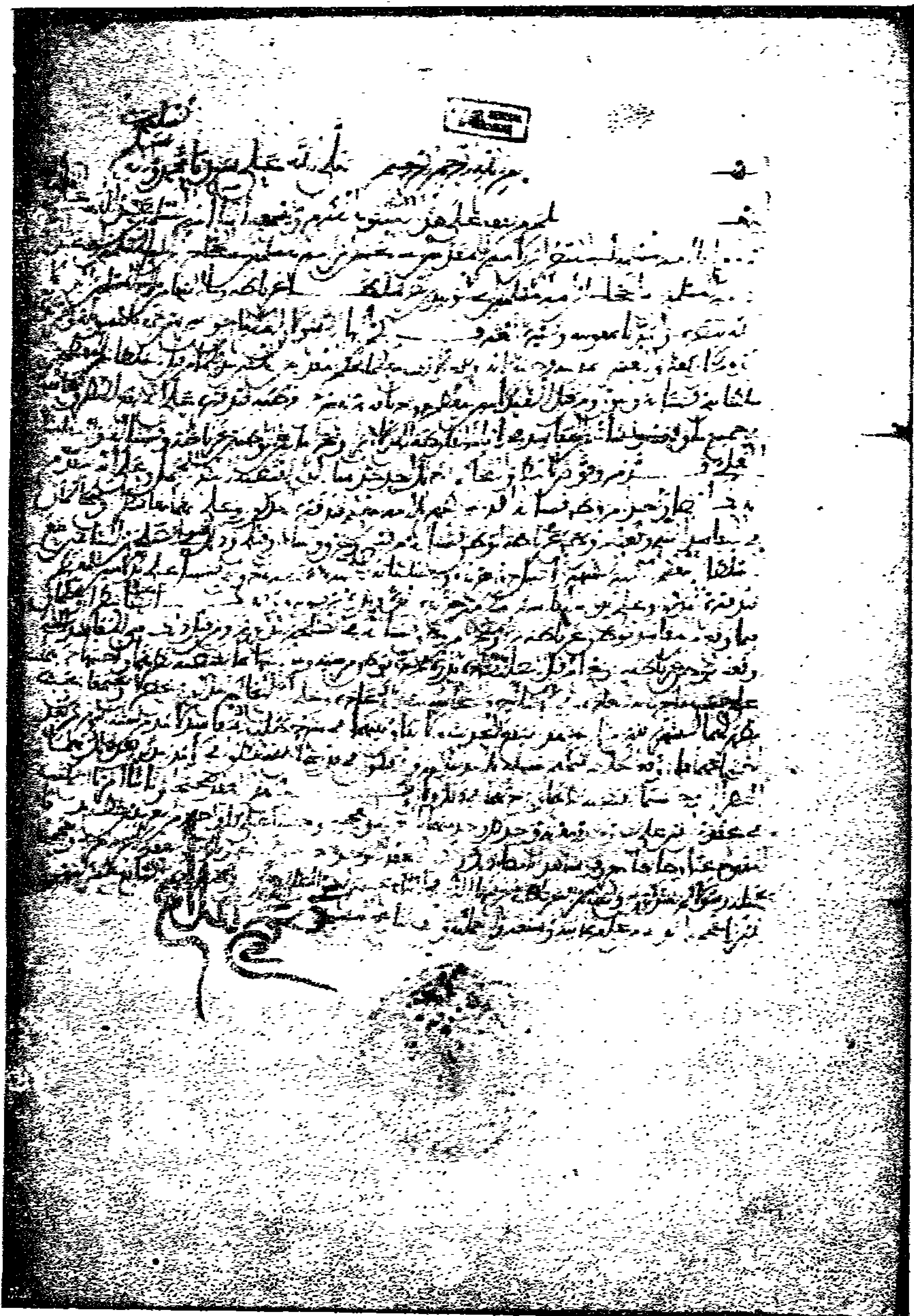
وفى تلك الأثناء خرجت مالقة عن طاعة أبى الحسن ، حيث ثار بها القائد محمد الفرسوطى، وانضم إليه كثير من القواد والأجناد، فسار أبو الحسن إلى مالقة وحاصرها غير مرة ، ولكنه لم يفلح فى إخماد الثورة ، واستدعى القواد الثائرون أخاه أبا عبد الله محمد بن سعد (الزغل) ، وكان يومئذ بقشتالة ، وأعلنوه ملكاً عليهم ، وانقسمت المملكة بذلك إلى شطرين متخاصمين[٣] .

---

(١) تشغل أسرة بنيغش – وهو تحريف لاسمها الإسبانى **Los Venegas** – فى التواريخ القشتالية حيزاً ملحوظاً . وقد عاد بعض أفرادها إلى النصرانية عقب سقوط غرناطة ، وأحرزت أسرتهم فيما بعد مكانة كبيرة بين الأرستقراطية الإسبانية ، ونبغ فيها عدد من القادة ورجال الدين .

(٢) الزغل وزغل أعى الشجاع أو الباسل والمصدر « زغلة » . وسنرى فيما بعد كيف ينطبق هذا المعنى على سيرة الزغل وصفاته أتم الانطباق. راجع دوزى **Supp. aux Dict. arabes. V. II. p. 594**

(٣) كتاب مرآة المحاسن لمؤلفه العربى الفاسى (طبع فاس ١٣٢٤ هـ) ص ١٤٢ .



صورة مرسوم صادر من سلطان غرناطة علي الغالب بالله (أبي الحسن) إلى رسول الملكين الكاثوليكيين فرناندو وإيسابيلا يقرر فيه قبول التحكيم فيما وقع من أعمال العدوان المتبادلة بين غرناطة وقشتالة ، مؤرخ في ١٢ شوال سنة ٨٨٢ هـ (١٩ يناير ١٤٧٨ م) ، ومختوم بخاتمه الملكي ، ومحفوظ بدار المحفوظات العامة **(Archivo general de Simancas, No. P. R. II.4)**

ولما تفاقم النزاع بين أبي الحسن وأخيه أبي عبد الله ، ولم يحسم بينهما السيف ووضحت لهما العواقب الخطيرة التي يمكن أن تترتب على هذه الحرب الأهلية ، جنح الفريقان إلى الروية وآثرا الصلح والتهادن ، فعقدت الهدنة بين الأخوين ، على أن تحترم الحالة القائمة ، فيبقى أبوعبد الله الزغل على استقلاله بمالقة وأحوازها ، ويستقر أبو الحسن في عرش غرناطة وما إليها ، وعقدت في نفس الوقت هدنة مؤقتة بين المسلمين والنصارى .

وفي هذه الآونة التي أخذت فيها عوامل التفرق تمزق أوصال المملكة الإسلامية الصغيرة ، كانت اسبانيا النصرانية تخطو خطوتها الأخيرة نحو الاتحاد النهائي ، وذلك باقتران فرناندو ولد خوان الثاني ملك أراجون بإيسابيلا أخت هنري الرابع ملك قشتالة ، ثم إعلانهما ملكين لقشتالة في سنة ١٤٧٩ ، وتبوىء فرناندو بعد ذلك عرش أراجون حسبما فصلنا . وهكذا اتحدت المملكتان الإسبانيتان القديمتان بعد أحقاب طويلة من الخلاف والحروب الأهلية ، وأصبحت اسبانيا النصرانية قوة عظيمة موحدة ، وكان تفرقها من قبل يتيح للأندلس فترات من السلام والأمن ، ولكن الأندلس وقد صارت إلى ما صارت إليه من الانحلال والضعف ، أضحت تواجه أعظم قوة واجهتها في تاريخها .

وحاول السلطان أبو الحسن أن يجدد الهدنة مع القشتاليين ، ليتفرغ لأعمال التحصين والإنشاء ، وكان يلوح في البداية أن العلائق بين الفريقين تسير نحو التفاهم والسلم . وهناك ما يدل في الواقع على أنه كان يقوم يومئذ بين مملكة غرناطة وبين قشتالة ، صلح ثابت حسبما يؤيد ذلك اتفاق عقداه يومئذ على إجراء التحكيم فيما وقع من كل منهما على أراضي الآخر من ضروب العدوان التي ترتب عليها القتل والأسر والحرق ، سواء في البر أو البحر . وقد انتهت إلينا وثيقة تحتوي النصين العربي والقشتالي لهذا الاتفاق الذي عقد بين السلطان أبي الحسن وبين فرناندو وإيسابيلا ملكي قشتالة وأراجون ، وهي مؤرخة في شوال سنة ٨٨٢ هـ (يناير سنة ١٤٧٨ م)(١) . وعلى هذا فقد أرسل السلطان أبو الحسن في أوائل سنة ٨٨٣هـ (١٤٧٨م) إلى ملك قشتالة يطلب تجديد الهدنة القائمة بينهما . وكان فرناندو وإيسابيلا يقيمان يومئذ في إشبيلية ، فوافقا على ما طلبه أبو الحسن ، ولكن

---

(١) Archivo general de Simancas ; P. R. 11-4 ، وفيها يوصف فرناندو وإيسابيلا بما يأتي : « السلطان المعظم الكبير الشهير الأصيل دون هرندة ، والسلطانة الكبيرة الشهيرة دونيي قشبيل » .

بشرط أن تعترف مملكة غرناطة بطاعتهما ، وأن تؤدى إلى قشتالة نفس الجزية من المال والأسرى التى كان يؤديها السلاطين السالفون . وأرسلا بالفعل سفيراً إلى السلطان أبى الحسن ، يطالبه بعهد الطاعة وتأدية الجزية ، فرفض أبو الحسن طلب الملكين النصرانيين بإباء ، وأنذر السفير القشتالى بأنه ليس لديه سوى الحرب والكفاح . ولم يمض سوى قليل حتى أغار القشتاليون على حصن بللنقة (ڤيلا لونجا) واستولوا عليه ، وعاثوا فى أحواز رندة ، ورد أبو الحسن على ذلك بإعلان الحرب على قشتالة ، وزحف تواً على بلدة « الصخرة » Zahara وهى قاعدة حصينة تقع على حدود الأندلس الغربية فى شمال غربى مدينة رندة ، وكان قد انتزعها القشتاليون منذ عهد قريب ، فباغتها أبو الحسن ، واستولى عليها عنوة ، وقتل حاميتها ، وسبى سكانها (ديسمبر سنة ١٤٨١ م) . وبالرغم مما أحرزه أبو الحسن من الظفر فى تلك المعركة الأولى ، وبالرغم مما بثه هذا الظفر فى طوائف الشعب من الغبطة والحماسة ، فقد اعتبر بعض العقلاء تصرفه اعتداء لا مبرر له ، وتوجسوا شراً من عواقبه ، وتقول الرواية القشتالية إن فقيهاً زاهداً شيخاً عرف بنبوءاته ، كان بين الوفود التى ذهبت غداة هذا الانتصار إلى قصر الحمراء ، وأنه صاح فى وجه السلطان قائلا : « ويل لنا . لقد دنت ساعتك يا غرناطة ، ولسوف تسقط أنقاض الصخرة فوق رؤوسنا ، وقد حلت نهاية دولة الإسلام بالاندلس »(١) ، على أن هذا الظفر المؤقت كان له أعظم الأثر فى إحياء قوى الشعب المعنوية ، ولاح لإسبانيا النصرانية يومئذ أن الأندلس المحتضرة تكاد تبدأ حياة جديدة من القوة . ولكن هذا البعث الخلب لم يطل أمده . ذلك لأن أبا الحسن لم يلبث أن ركن إلى الدعة ، وأطلق العنان لأهوائه وملاذه ، وبذر حوله بذور السخط والغضب ، بما ارتكبه فى حق الأكابر والقادة من صنوف العسف والشدة ، وما أساء إلى شئون الدولة والرعية ، وما أثقل به كاهلهم من صنوف المغارم ، وما أغرق فيه من ضروب اللهو والعبث ، وكان وزيره أبو القاسم بنيغش يجاريه فى أهوائه وعسفه ، ويتظاهر أمام الشعب بغير ذلك . وهكذا عادت عوامل الفساد والانحلال والتفرق الخالدة ، تعمل عملها الهادم ، وتحدث آثارها الخطرة(٢) .

* * *

(١) Lafuente Alcantra: ibid; V.III.p.202-205 وكذلك Condé: ibid; V.III.p.210&211

(٢) راجع كتاب «أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر» (ص٣) ، وهو الرواية الإسلامية =

وكان السلطان أبو الحسن قد اقترن بابنة عمه السلطان الأيسر[1]. ولا تفصح الرواية الإسلامية لنا عن اسم تلك الأميرة ، التى تمثل فى تاريخ المأساة الأندلسية مثولا قوياً ، والتى تحيط الرواية شخصيتها بكثير من الأخبار والسير المشجية . فلم يذكره صاحب أخبار العصر ، ولم يذكره المقرى الذى نقل روايته ، ولم تذكره الروايات القشتالية المعاصرة . ولكن مؤرخاً قشتالياً ، كتب روايته بعد ذلك بنحو قرن ، يذكر لنا أن اسمها عائشة . بل وأكثر من ذلك فهو ينقل إلينا صورة رسمية للمعاهدة السرية ، التى أصدرها الملكان الكاثوليكيان عند تسليم غرناطة ، لأبى عبد الله ولد السلطان أبى الحسن ، والتى نتحدث عنها بعد ، وفيها يذكر صراحة اسم « الملكة عائشة والدته » أى والدة أبى عبد الله[2]. وقد جرت سائر التواريخ اللاحقة بعد ذلك ، على تسميتها بهذا الاسم ، ولكن بعض البحوث الحديثة تحاول على ضوء بعض الوثائق الغرناطية أن تقرر لنا أن تسمية هذه السلطانة باسم عائشة ،

= الوحيدة التى انتهت إلينا عن حوادث سقوط غرناطة وما تلاها من تنصير المسلمين . وسيكون منذ الآن مرجعنا فى كثير من حوادث هذه الفترة . ويقع هذا الكتاب فى ست وخمسين صفحة فقط ، وقد وضعه مؤلف مجهول لم يذكر اسمه ، ولكنه يذكر فى نهايته أنه كتبه فى جمادى الآخرة سنة ٩٤٧ هـ أعنى بعد سقوط غرناطة بخمسين عاماً ، فروايته معاصرة تقريباً . ويدل وصفه للحوادث على أنه شهدها فتى بل وفى روايته ما يدل على أنه اشترك فى بعض الوقائع الحربية التى وقعت قبل سقوط غرناطة بين المسلمين والنصارى وأنه كان من أنجاد الفرسان (ص ١٧ طبعة ميلر) . ولابد أيضاً أنه تلقى كثيراً من تفاصيل الحوادث ، من أفواه الشيخة الذين شاهدوها . ويبدو أيضاً أن المؤلف من أشراف غرناطة الذين بقوا فيها وأرغموا على التنصر ، ولكنهم بقوا مسلمين فى سرائرهم ، وأنه خشى أن يبوح باسمه لأنه يندب حظ الإسلام ، ويندد بغدر النصارى وفظائعهم . وقد نشر المستشرق الألمانى م . ى . ميلر هذا الكتاب عن النسخة الخطية الوحيدة التى كانت محفوظة بالإسكوريال وضاعت فيما بعد (جوتنجن سنة ١٨٦٣) مقرونة بترجمة ألمانية تحت عنوان « أيام غرناطة الأخيرة » **Die letzten Zeiten von Granada**. ثم نشر معهد فرانكو بتطوان (بعناية الأستاذ ألفريد البستانى) طبعة جديدة من هذا الكتاب عن مخطوطة أخرى بها بعض زيادات عن نزوح الأندلسيين من الأندلس بعد التنصير بعنوان : « نبذة العصر فى أخبار ملوك بنى نصر » وقرنت هذه الطبعة بترجمة اسبانية بقلم المستشرق الأب كارلوس كيروس (العرايش سنة ١٩٤٠) .

(١) أخبار العصر : ميلر ص ٦ — وطبعة تطوان ص ٥ .

(٢) هو المؤرخ **Luis del Marmol Carvajal** فى كتابه عن ثورة الموريسكيين المسمى : **Historia del Rebelión y Castigo de los Moriscos de Granada** (**Lib. I; Capit. XII & XIX**)

هى تسمية خاطئة ، وأن اسمها الحقيقى هو فاطمة ، وأنها لم تكن ابنة السلطان الأيسر وإنما كانت ابنة للسلطان الأحنف(١) .

بيد أننا وقد درسنا نصوص هذه الوثائق الجديدة ، لا نراها قاطعة فى تقرير اسم السلطانة المذكورة ، ولا نرى من جهة أخرى ، سبباً يحملنا على الشك فى رواية صاحب أخبار العصر ، وهى أنها كانت ابنه للسلطان الأيسر . وصاحب هذه الرواية مسلم معاصر ، كانت لديه سائر وسائل التحقيق والتثبت . وكذلك فإن المؤرخ القشتالى الذى يسمها بعائشة ، قد عاش قريباً من ذلك العصر ، واتصل بشيوخ الموريسكيين أو الأندلسيين المتنصرين بغرناطة ، ومن المرجح المعقول أن يكون هؤلاء على علم بحقيقة إسم هذه السلطانة ، التى عاصرها آباؤهم وكانت والدة لآخر ملوكهم . وهذا كله إلى الوثيقة التى يورد لنا هذا المؤرخ نصها ، وفيها القول القطع بأن والدة أبى عبد الله كانت تسمى عائشة .

ومن ثم فإننا على ضوء ما تقدم ، نميل إلى الاعتقاد بأن اسم عائشة هو الاسم الحقيقى ، لزوجة السلطان أبى الحسن ووالدة أبى عبد الله .

وتحتل شخصية عائشة الحرة فى حوادث سقوط غرناطة مكانة بارزة . وليس ثمة فى تاريخ تلك الفترة الأخيرة من المأساة الأندلسية شخصية تثير من الإعجاب والاحترام، ومن الأسى والشجن، قدر ما يثير ذكر هذه الأميرة النبيلة الساحرة، التى تذكرنا خلالها البديعة ، ومواقفها الباهرة ، وشجاعتها المثلى إبان الخطوب المدلهمة ، بما نقرأه فى أساطير البطولة القديمة من روائع السير والمواقف .

---

(١) نشر صديقى المستشرق الغرناطى الأستاذ **Seco de Lucena** فى مجلة الأندلس بحثاً عنوانه «السلطانة والدة أبى عبد الله» **La Sultana Madre de Boabdil (Al - Andalus Vol XII, Fasc. II –1947)** أورد فيه نص وثيقتين عربيتين ، الأولى عقد بيع ملكى مؤرخ فى سنة ٨٥٢ هـ (١٤٤٨ م) . والثانية أيضاً عقد بيع مؤرخ فى سنة ٨٩٧ هـ (١٤٩٢ م) ، ومنهما تتضح الوقائع الآتية : أن السلطان محمد الأحنف كان له فضلا عن ابنته الكبرى أم الفتح ، ابنتان أخريان من زوجة أخرى هما عائشة وفاطمة، وأن إحداهن وهى فاطمة تزوجت من سلطان ، وأن قرية الصخيرة التى ورثتها أم الفتح ، انتقلت بعد ذلك إلى أختها السلطانة فاطمة ، وان هذه الأخيرة عاصرت تسليم غرناطة ، وأنه فى ٣٠ أكتوبر سنة ١٤٩٢ أعنى بعد سقوط غرناطة باعت السيدة فاطمة المذكورة ، وتوصف فى الوثيقة المشار اليها «بالسيدة الحرة» قرية الصخيرة المذكورة إلى فارس نصرانى ، بمبلغ ألفى وخمسمائة ريال من الفضة ، وحرر العقد بالنيابة عنها وكيل شئونها المسمى القائد محمد بن مقاتل .

ويرى الأستاذ دى لوسينا أن هذا النص قاطع ، فى أن السلطانة والدة أبى عبد الله، كانت تسمى «فاطمة» وليس عائشة ، وأنها وفقاً لنسبها المدون بالنص كانت ابنة للسلطان الأحنف .

والواقع أن حياة السلطانة « الحرة » ، تبدو لنا خلال الحوادث والخطوب ، كأنها صفحة من القصص المشجى ، أكثر مما تبدو كصفحة من التاريخ الحق ، وهذا اللون القصصي لا يرجع فقط إلى كونها أميرة أو امرأة ، تشترك فى تدبير الملك ، وتدبير الشئون والحوادث ، ولكن يرجع بالأخص إلى شخصيتها القوية ، وإلى سمو روحها ورفيع مثلها ، وإلى جنانها الجرىء يواجه كل خطر ، ويسمو فوق كل خطب ومصاب . والرواية القشتالية ذاتها — وهى تسميها عائشة حسبما قدمنا — لا تضن عليها بالتنويه والتقدير ، وهى التى تسبغ على شخصيتها وحياتها كثيراً من هذا اللون القصصى المشجى .

كانت عائشة « الحرة » ملكة غرناطة فى ظل ملك يحتضر ، ومجد يشع بضوئه الأخير ليخبو ويغيض . وقد رزقت من زوجها السلطان أبى الحسن بولدين هما : أبو عبد الله محمد وأبو الحجاج يوسف . وكانت روح العزم والتفاؤل ، التى سرت فى بداية هذا العهد إلى غرناطة ، تذكى بقية من الأمل فى إنقاذ هذا الملك التالد . وكانت عائشة ترى من الطبيعى أن يؤول الملك إلى ولدها ؛ ولكن حدث بعد ذلك ما يهدد هذا الأمل المشروع . ذلك أن السلطان أبا الحسن ركن فى أواخر أيامه إلى حياة الدعة ، واسترسل فى أهوائه وملاذه ، واقترن للمرة الثانية بفتاة نصرانية رائعة الحسن ، تعرفها الرواية الإسلامية باسم « ثريا » الرومية ، وتقول الرواية الإسبانية إن ثريا هذه واسمها النصرانى إيسابيلا ، وتعرفها الرواية أيضاً باسم « زريدة » ، كانت ابنة عظيم من عظماء اسبانيا وهو القائد « سانشوخمنيس دى سوليس » وأنها أخذت أسيرة فى بعض المعارك ، وهى صبية فتية ، وألحقت وصيفة بقصر الحمراء فاعتنقت الإسلام ، وتسمت باسم ثريا أو كوكب الصباح ، فهام بها السلطان أبو الحسن ، ولم يلبث أن تزوجها ، واصطفاها على زوجه الأميرة عائشة ، التى عرفت عندئذ « بالحرة » تمييزاً لها من الجارية الرومية ، أو إشادة بطهرها ورفيع خلالها(١) . ويقول لنا المؤرخ المعاصر هرناندو دى بايثا ، إن السلطان أبا الحسن

---

(١) راجع Irving : Conquest of Granada حيث يورد أقوال الرواية الإسبانية عن شخصية ثريا (الفصل التاسع) . ويقول كوندى إن ثريا كانت ابنة حاكم مرتش النصرانى (Condé; ibid, V III.p. 242) . ولكن الرواية العربية تكتفى بالقول بأن ثريا كانت جارية رومية (المقرى فى نفح الطيب ج٢ ص ٦٠٨ ، وأخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر طبعة ميلر ص ٦) ويتفق برسكوت مع الرواية العربية فيقول إن ثريا كانت جارية يونانية ، أى رومية . راجع History of Ferdinand and Isabella, p. 219

كان يقيم يومئذ مع زوجه الفتية الحسناء فى جناح الحمراء الكبير أو قصر قارش ، وذلك بينما كانت تقيم الحرة وأولادها فى جناح بهو السباع[١] .

ولم يكن اقتران الأمير بفتاة نصرانية بدعة ، ولكنه تقليد قديم فى قصور الأندلس . وقد ولد بعض خلفاء الأندلس وأمرائها العظام من أمهات من النصارى ، مثل عبد الرحمن الناصر وحفيده هشام المؤيد ، وكذلك ولد بعض الأمراء من بنى نصر ملوك غرناطة من أمهات من النصارى مثل السلطان محمد بن اسماعيل النصرى[٢] . ولم يكن الزواج المختلط نادراً فى المجتمع الأندلسى الرفيع ، ولاسيما منذ أيام الطوائف ، وكان كثير من الأكابر والأشراف يتزوجون بفتيات من النصارى سواء كن من السبايا أم من الأحرار . ولم يكن العكس نادراً أيضاً . فمنذ توالى سقوط القواعد والثغور الأندلسية فى أيدى النصارى ، كثر الزواج بين المدجنين وبين النصارى ، وفقد المدجنون بمضى الزمن دينهم ولغتهم ، واندمجوا فى المجتمع النصرانى . ونرى بين زعماء شرق الأندلس بعض أمراء يرجعون إلى أصل نصرانى ، مثل محمد بن سعد المعروف بابن مردنيش ملك بلنسية ومرسية ، وقد كان يتكلم القشتالية ، ويلبس الثياب القشتالية ، ويتقلد السلاح القشتالى ، وكان معظم ضباطه وجنده من النصارى ، وكان الإسبان يعرفونه بالملك « دون لوبى »[٣] .

ولم يكن ثمة ريب فى خطورة الآثار الاجتماعية ، التى تحدثها مثل هذا الامتزاج الوثيق ، وقد كانت فيما بعد من أهم العوامل التى أدت إلى انحلال المجتمع الإسلامى ، وانحلال عصبية الدولة الإسلامية . كذلك لم يكن ثمة ريب فى أن هذه الآثار الهدامة ، كانت أعمق وقعاً وأشد خطراً وقت الإنحلال العام .

وكان السلطان أبو الحسن قد شاخ يومئذ وأثقلته السنون ، وغدا أداة سهلة فى يد زوجه الفتية الحسناء . وكانت ثريا فضلا عن حسنها الرائع ، فتاة كثيرة الدهاء والأطماع ، وكان وجود هذه الأميرة الأجنبية فى قصر غرناطة ، واستئثارها بالسلطان والنفوذ فى هذه الظروف العصيبة ، التى تجوزها المملكة الإسلامية ،

---

(١) كتب هرناندو دى باينا **Hernando de Baeza** هذه الرواية المعاصرة بعنوان **Las Cosas de Granada** « شئون غرناطة » ، ونشرها المستشرق ميلر مع كتاب أخبار العصر (ص ٦٥) .

(٢) الإحاطة ج ١ ص ٥٤٦ .

(٣) راجع الإحاطة ج ٢ ص ٨٢ ؛ وكتابى عصر المرابطين والموحدين القسم الأول ص ٣٦٦ وكذلك **Dozy : Recherches (1881) V. I. p. 365** و **A. P. Ibars : Valencia Arabe (Valencia 1901) p. 516,**

عاملا جديداً فى إذكاء عوامل الخصومة والتنافس الخطرة . وكانت ثريا فى الواقع تتطلع إلى أبعد من السيطرة على الملك الشيخ . ذلك أنها أنجبت من الأمير أبى الحسن كخصيمتها عائشة ولدين ، هما سعد ونصر ، وكانت ترجو أن يكون الملك لأحدهما . وقد بذلت كل ما استطاعت من صنوف الدس والإغراء لإبعاد خصيمتها الأميرة عائشة عن كل نفوذ وحظوة ، وحرمان ولديها محمد ويوسف من كل حق فى الملك ، وكان أكبرهما أبو عبد الله محمد ولى العهد المرشح للعرش ، وكان أشراف غرناطة يؤثرون ترشيح سليل بيت الملك ، على عقب الجارية النصرانية . ولكن ثريا لم تيأس ولم تفتر همتها ، فما زالت بأبى الحسن حتى نزل عند تحريضها ورغبتها ، وأقصى عائشة وولديها عن كل عطف ورعاية ، ثم ضاعفت ثريا سعيها ودسها حتى أمر السلطان باعتقالها ، وزجت عائشة مع ولديها إلى برج قمارش ، أمتع أبراج الحمراء ، وشدد فى الحجر عليهم ، وعوملوا بمنتهى الشدة والقسوة .

فأثار هذا التصرف غضب كثير من الكبراء الذين يؤثرون الأميرة الشرعية وولديها بعطفهم وتأييدهم ، وكان نذير الاضطراب والخلاف فى المجتمع الغرناطى . وانقسم الزعماء والقادة إلى فريقين خصيمين ، فريق يؤيد الأميرة الشرعية وولديها ، وفريق يؤيد السلطان وحظيته . واستأثر الفريق الأخير بالنفوذ مدى حين ، واضطرمت الأهواء والشهوات والأحقاد ، واشتد السخط على أبى الحسن وحظيته التى أضحت سيدة غرناطة الحقيقية ، واستأثرت بكل سلطة ونفوذ . وذهبت ثريا فى طغيانها إلى أبعد حد ، فحرضت الملك الشيخ على إزهاق ولده أبى عبد الله عثرة آمالها .

وكانت الأميرة عائشة امرأة وافرة العزم والشجاعة ، فلم تستسلم إلى قدرها الجائر ، بل عمدت إلى الاتصال بعصبتها وأنصارها ، وفى مقدمتهم بنو سراج أقوى أسر غرناطة ، وأخذت تدبر معهم وسائل الفرار والمقاومة ؛ ولم يغفر السلطان أبو الحسن لبنى سراج هذا الموقف قط . ويقال إنه عمد فيما بعد إلى تدبير إهلاكهم فى إحدى أبهاء الحمراء . ولما وقفت الأميرة عائشة من أصدقائها على نية أبى الحسن قررت أن تبادر بالعمل ، وأن تغادر قصر الحمراء مع ولديها بأية وسيلة. وفى ليلة من ليالى جمادى الثانية سنة ٨٨٧ هـ (١٤٨٢ م) استطاعت الأميرة أن تفر مع ولديها محمد ويوسف بمعاونة بعض الأصدقاء المخلصين . والرواية

الإسلامية تشير إلى فرار الأميرين فقط دون أمهما[١] . ولكن الرواية القشتالية تحدثنا عن فرارها مع ولديها . وتقدم إلينا عن هذا الفرار صوراً شائقة ، فتقول إن بعض الخدم المخلصين ، كان ينتظر مع الجياد على مقربة من الحمراء على ضفة النهر (نهر حدره) مما يلى برج قمارش ، وإن الأميرة استعانت بأغطية الفراش على الهبوط من نوافذ البرج الشاهق فى جوف الليل[٢] ، وانها هبطت بعد أن أدلت ولديها ، ثم اختفى الجميع تحت جنح الظلام .

وهكذا استطاعت هذه الأميرة الباسلة أن تفر من معتقلها فى إقدام وجرأة تخلقان بأبطال الرجال ، واختفى الفارون حيناً حتى قويت دعوتهم وانضم إليهم كثير من أهل غرناطة ، وكان اسم عائشة ورفيع خلالها ، وقصة فرارها الجرىء ، تثير أيما عطف وإعجاب . وظهر ولدها الأمير الفتى أبو عبد الله محمد فى وادى آش حيث جمع عصبته وأنصاره ، وكان السلطان أبو الحسن وقت فرار الأميرة وولديها بعيداً عن غرناطة ، يدافع النصارى عن أسوار لوشة ، وكانت الحوادث تسير بسرعة مؤذنة باضطرام عاصفة جديدة .

— ٣ —

وكان ملك قشتالة يرقب الحوادث فى مملكة غرناطة بمنتهى الاهتمام . فلما اضطرمت نار الحرب الأهلية بين المسلمين ، ولاحت الفرصة للغزو سانحة ، قرر بدء الحرب ضد غرناطة . وكان يضطرم سخطاً لاستيلاء المسلمين على قلعة الصخرة بالرغم من قيام الهدنة ، وعجزه عن استرداد هذه القاعدة الهامة ، فسير حملة قوية إلى الأندلس سارت منحرفة من جهة الغرب . ورأى القواد القشتاليون أن يبدأوا بمهاجمة ألحامة (الحمة) التى فى قلب الأندلس جنوب غربى غرناطة ، وذلك لما بلغهم من ضعف وسائل الدفاع عنها ، ولأن الاستيلاء عليها يمكنهم من تهديد غرناطة ومالقة معاً . وكانت ألحامة مدينة غنية ، ولها شهرة قديمة بحماماتها الشهيرة التى كانت مجتمع ملوك غرناطة وأمرائها . ونجحت الخطة واستطاع النصارى مفاجأة ألحامة والاستيلاء على قلعتها تحت جنح الظلام ، ثم استولوا على المدينة بالرغم من مقاومة أهلها الباسلة ، وأمعنوا فى المسلمين قتلا وأسراً وسبياً (المحرم سنة ٨٨٧ —

(١) أخبار العصر ص ١٢ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٦٠٩ .

(٢) L. del Marmol: ibid; I. Cap. XII. وقد كتب روايته بعد هذه الحوادث بنحو قرن حسبما قدمنا .

فبرايرسنة ١٤٨٢) . وهرع السلطان أبو الحسن فى قواته لإنقاذ الحامة واسترد دادها وحاصرها بشدة، ولكنه لم يستطع اقتحامها ،ولم يلبث أن اضطر إلى مغادرتها حينما علم أن ملك قشتالة يتقدم لإنجادها فى جيش قوى ضخم[١] . ولم تمض أشهر قلائل حتى زحف ملك قشتالة على مدينة لَوْشة[٢] الواقعة على نهر شنيل فى شمال غربى الحامة وعلى مقربة منها وحاصرها ، ودافعت عنها حاميتها أروع دفاع بقيادة قائدها الأمير الشيخ ، على العطار ، وكان رغم شيخوخته من أشجع وأبرع فرسان غرناطة فى ذلك العصر[٣]. وسار أبو الحسن فى قواته مسرعاً لإنجاد لوشة وانتهى الأمر بأن رُد النصارى بخسارة فادحة فى الرجال والعدد (جمادى الأولى ٨٨٧ — يوليه ١٤٨٢) . وكان مما استولى عليه المسلمون من النصارى ، بعض « الأنفاط » التى تستعمل لحصار المدن ، والتى سنتحدث عنها فيما بعد[٤] .

وما كاد أبو الحسن يعود إلى عاصمة ملكه حتى تجهم الجو من حوله . وكانت سياسته الداخلية قد أثارت حوله كثيراً من السخط ، بالرغم مما أحرز من نجاح ، وسرعان ما نشبت الثورة فى غرناطة ، وغلبت دعوة الأمير الفتى أبى عبد الله ، ولم يستطع أبو الحسن وصحبه مواجهة العاصفة ؛ ففر الملك الشيخ إلى مالقة، وكان بها أخوه الأمير أبو عبد الله محمد بن سعد ، المعروف « بالزغل » أى الشجاع الباسل ، يدفع عنها جيشاً جراراً سيره ملك قشتالة لافتتاحها . وجلس أبو عبد الله محمد[٥] مكان أبيه على عرش غرناطة (أواخر سنة ٨٨٧هـ) . وأطاعته غرناطة ووادى آش ، وأعمالها . وبقيت مالقة وغرب الأندلس على طاعة أبيه ، وكان أبو عبد الله يومئذ فتى فى نحو الخامسة والعشرين[٦] .

* * *

(١) أخبار العصر ص ٦ و ٩ ؛ وكذلك : Prescott : ibid ; p. 206-210

(٢) هى بالإسبانية **Loja** وهى بلد الوزير ابن الخطيب .

(٣) تنوه الرواية القشتالية ببطولة هذا القائد المسلم وتعرفه باسم "Aliatar". راجع رواية **Hernando de Baeza**، السالفة الذكر ، المنشورة بعناية المستشرق ميلر ضمن كتاب أخبار العصر (ص٧٨)

(٤) أخبار العصر ص ١١ .

(٥) يعرف السلطان أبو عبد الله فى الرواية القشتالية والإفرنجية بوجه عام باسم **Boabdil** محرفاً من « أبى عبد الله » . وتورد الوثائق القشتالية الرسمية المتعلقة بسقوط غرناطة اسمه على النحو الآتى : **Muley Baaudili-Baudili- Beaudili** ويورد مارمول اسمه مصححاً **Abi Abdili, Abi Abdala, Abdilehi :**

(٦) يشير المؤرخ المصرى عبد الباسط بن خليل فى روايته التى سبقت الإشارة اليها إلى هذا —

وكان فرناندو الخامس عقب هزيمته أمام لَوْشه ، قد سير جنده إلى مالقة لافتتاحها . وكانت مالقة أعظم الثغور الباقية بيد المسلمين . وكان النصارى يتوقون للاستيلاء عليها لإتمام تطويق الأندلس من الجنوب ، ولكن المسلمين كانوا على أتم أهبة للدفاع عن هذا الثغر المنيع . واشتبك المسلمون والنصارى فى عدة مواقع دموية فى الهضاب الواقعة فيما بين مالقة وبَلّش (Velez) ، فهزم النصارى فى كل مكان وردوا بخسائر فادحة ، وخرج الأمير محمد بن سعد « الزغل » فى قواته من مالقة ولقى النصارى على مقربة منها ، ونشبت بين الفريقين معركة شديدة هزم فيها النصارى هزيمة ساحقة ، وقتل وأسر منهم عدة آلاف بينهم كثير من الزعماء والأكابر (صفر ٨٨٨ — مارس ١٤٨٣)[1] . وتعرف هذه الموقعة «بالشرقية» لوقوعها فى المنطقة المسماة بذلك فى شرقى مالقة . وكان منظم هذا الدفاع الباهر كله الأمير أبو عبد الله « الزغل » . وكان لانتصار المسلمين أعظم وقع فى جنبات الأندلس ؛ فانتعشت الآمال وسرت الحماسة فى كل مكان ، وهبت على غرناطة ريح جديدة من الاستبشار والنصر

واعتزم ملك غرناطة الفتى أبو عبد الله محمد ، أن يحذو حذو عمه الباسل فى الجهاد والغزو ، وأن ينتهز فرصة اضطراب النصارى عقب الهزيمة ، فخرج فى قواته فى شهر ربيع الأول سنة ٨٨٨ (ابريل سنة ١٤٨٣) متجهاً نحو قرطبة ، شمال غربى غرناطة ، واجتاح فى طريقه عدداً من الحصون والضياع ، وهزم النصارى فى عدة معارك محلية . ثم ارتد مثقلا بالغنائم فى طريق العودة ، فأدركه النصارى فى ظاهر قلعة اللّسانة (Lucena)[2] وكان يزمع حصارها . ونشبت بين الجيشين معركة هائلة ارتد فيها المسلمون إلى ضفاف نهر شنيل ، وقتل وأسر كثير من قادتهم وفرسانهم ، وكان بين الأسرى السلطان أبو عبد الله محمد نفسه[3] ، عرفه الجند النصارى بين الأسرى أو عرّفهم بنفسه خشية الاعتداء عليه ، فأخذوه إلى قائدهم الكونت دى كابرا (قبره) فاستقبله بحفاوة وأدب ، وأنزله بإحدى

= الانقلاب ؛ ويندد بسلوك سلاطين غرناطة فى الوثوب بعضهم على بعض بقوله : « وهو غالب عادتهم بتلك البلاد مع الآباء والأولاد بل والأجداد » : (Al - Andalus ; Vol. I. 1933 ; Fasc. 2)

(١) أخبار العصر ص ١٣ .

(٢) هى بلدة صغيرة حصينة تقع اليوم فى نطاق ولاية قرطبة ، جنوب شرقى مدينة قرطبة .

(٣) أخبار العصر ص ١٤ . ويشير عبد الباسط بن خليل المصرى فى حولياته إلى هذه الموقعة ويصفها ، « بالكائنة العظمى ، والداهية الطما » .

الحصون الغربية تحت حراسة قوية . وأخطر فى الحال ملكى قشتالة بالنبأ السعيد ، فأمر فرناندو أن يؤتى بالأسير الملكى إلى قرطبة ، وأن يستقبل استقبال الأمراء ؛ فأخذ أبو عبد الله وأصحابه إلى قرطبة فى حرس قوى ، واحتشد أهل قرطبة لرؤية موكب الملك المسلم ، وكان أبوعبد الله يرتدى ثوباً من القطيفة السوداء ، ويمتطى حصاناً أسود عليه سرج ثمين ، وكان وجهه يشع كآبة ، وأخذ الملك الأسير أولا إلى دار الأسقف المواجه للمسجد الجامع ، ثم أخذ بعد ذلك إلى أحد القلاع الحصينة ، وعومل هناك بإكرام وحفاوة ، وأقام فى أسره مكتئباً ينتظر يوم الخلاص .

وعاد المسلمون إلى غرناطة دون ملكهم ، وقد مزقتهم الهزيمة وفتت فى عزائمهم ، فارتاعت العاصمة لهذه النكبة واضطرب الشعب ، وساد الوجوم قصر الحمراء ، وسرى الحزن الأسى إلى حرم الأمير وقرابته ، ولم يحتفظ فيها بهدوئه وسكينته سوى أمه الأميرة عائشة . واجتمع الكبراء والقادة وقرروا استدعاء أبى الحسن السلطان المخلوع ليجلس على العرش مكان ولده الأسير . ولكن أبا الحسن كان قد هدمه الإعياء والمرض وفقد بصره ، ولم يستطع أن يضطلع بأعباء الحكم طويلا ، فنزل عن العرش لأخيه محمد أبى عبد الله « الزغل » حاكم مالقة ، وارتد إلى المنكَّب فأقام بها حيناً حتى توفى (٨٩٠هـ — ١٤٨٥م) . وجلس « الزغل » على العرش يدبر شئون المملكة ، وينظم الدفاع عن أطرافها .

أما السلطان أبوعبد الله محمد فلبث يرسف فى أسره عند النصارى . وأدرك ملكا قشتالة فى الحال ما للأمير الأسير من الأهمية ، وأخذا يدبران أفضل الوسائل للاستعانة به فى تحقيق مآربهما فى مملكة غرناطة ، وبعد إمعان البحث والتدبير رؤى أن يفرج عن الملك الأسير لقاء أفضل الشروط التى يمكن الحصول عليها ، لأن هذا الإفراج من شأنه أن يزيد فى اضطرام الحرب الأهلية بين المسلمين ، وأن يعاون بذلك فى إضعاف قواهم والتمهيد لسحقهم . وبذل أبو الحسن حين عوده إلى العرش جهده لافتداء ولده ، لا بباعث الحب له والشفقة عليه ، ولكن لكى يحصل فى يده ويأمن شره ومنافسته ، وعرض على فرناندو نظير تسليمه أن يدفع فدية كبيرة ، وأن يطلق عدداً من أكابر النصارى المأسورين عنده ، فأبى فرناندو وآثر أن يحتفظ بالأسير إلى حين . وبذلت الأميرة عائشة من جهة أخرى مجهوداً آخر لإنقاذ ولدها بمؤازرة الحزب الذى يناصره ، وأرسلت إلى ملك قشتالة ، سفارة على رأسها الوزير ابن كماشة ، ليفاوض فى الإفراج عن الأسير

مقابل الشروط التى يرضاها : وانتهت المفاوضات بين الفريقين بعقد معاهدة سرية تتلخص نصوصها فيما يلى :

أن يعترف أبو عبد الله بطاعة الملك فرناندو وزوجه الملكة إيسابيلا ، وأن يدفع لهما جزية سنوية قدرها إثنا عشر ألف دوبلا من الذهب ، وأن يفرج فى الحال عن أربعمائة ، من أسرى النصارى الموجودين فى غرناطة ، يختارهم ملكهم ، ثم يطلق بعد ذلك فى كل عام ، سبعين أسيراً لمدة خمسة أعوام ، وأن يقدم أبوعبد الله ولده الأكبر رهينة مع عدد آخر من أبناء الأمراء والأكابر ضماناً بحسن وفائه . وتعهد الملكان الكاثوليكيان من جانبهما ، بالإفراج عن أبى عبد الله فوراً ، وألا يكلف فى حكمه بأى أمر يخالف الشريعة الإسلامية ، وأن يعاونوه فى افتتاح المدن الثائرة عليه فى مملكة غرناطة ، وهذه المدن متى تم فتحها ، تغدو واقعة تحت طاعة ملك قشتالة ، وأن تستمر هذه الهدنة لمدة عامين ، من تاريخ الإفراج عن السلطان الأسير [١] .

وتختلف الرواية فى تاريخ الإفراج عن أبى عبد الله ، فتقول بعض الروايات المعاصرة ، إنه أفرج عنه لأشهر قلائل من أسره ، فى أوائل سبتمبر سنة ١٤٨٣ ، ولكن هناك رواية أخرى ، تقول بأن أبا عبد الله استمر فى الأسر أكثر من عامين ، وأنه لم يفرج عنه إلا فى أواخر سنة ١٤٨٥ أو أوائل سنة ١٤٨٦ [٢] ، وهذه رواية يؤيدها صاحب أخبار العصر ، إذ يقول لنا إن العدو أطلق سراح أبى عبد الله فى أواخر سنة ٨٩٠ هـ (١٤٨٥ م) ، عقب انتصار المسلمين على النصارى فى موقعة موكلين [٣] ، هذا فضلا عن أنه يذكر لنا أن أبا عبد الله ، قد أسر مرة أخرى فى موقعة لوشة حسبما يجىء ، وأنه لم يفرج عنه إلا فى أواخر سنة ٨٩١ هـ (١٤٨٦ م) [٤] .

وعلى أى حال فقد أفرج عن أبى عبد الله ، بعد أن أخذ عليه ملكا قشتالة سائر العهود والمواثيق ، التى تكفل تحقيق سياستهما فى القضاء على مملكة غرناطة ، وبعد أن أتى بالرهائن المشترط تسليمهم . وسار أبوعبد الله وصحبه الذين قدموا

---

(١) أورد العلامة المستشرق M. Gaspar y Remiro فى كتابه Documentos Arabes de la Corte Nazari de Granada خلاصة وافية لنصوص هذه المعاهدة السرية بالاستناد إلى المؤرخين القشتاليين المعاصرين (ص ٢١ و ٢٢) .

(٢) Gaspar y Remiro ; Ibid ; p. 27

(٣) أخبار العصر ص ١٨ .

(٤) اخبار العصر ص ٢١ و ٢٢ .

لمرافقته ، ومعه سَريّة من الجند القشتاليين ، إلى بعض الحصون الشرقية النائية ، التي قامت بدعوته[١] .

ولم يك ثمة شك في أن عقد هذه المعاهدة كان خطوة كبيرة في سبيل القضاء على مملكة غرناطة . وقد وضع فرناندو برنامجه المحكم لكي يستغل أسرملك غرناطة ، ويستعين به على تنفيذ برنامجه المدمر . وكان أبوعبد الله أميراً ضعيف العزم والإرادة قليل الحزم والخبرة ، ولم يكن يتمتع بشيء من تلك الخلال الباهرة التي امتازبها أسلافه وأجداده العظام من بني الأحمر . وكان الملك والحكم غايته يبتغيها بأى الأثمان والوسائل . وقد ألفى ملك قشتالة القوى في ذلك الأمير الضعيف الطموح ، أداة صالحة يوجهها كيفما شاء ، فاتخذه وسيلة لبث دعوته بين أنصاره ومؤيديه في غرناطة وغيرها ، وليقنع المسلمين بأن الصلح مع ملك قشتالة خير وأبقى . وسير ملك قشتالة في نفس الوقت قواته في أنحاء مملكة غرناطة ، لكي تنتزع أثناء الاضطراب العام ، كل ما يمكن انتزاعه من القواعد والحصون الإسلامية . وزحف القشتاليون على منطقة الغربية (غربي ولاية مالقة) في أوائل سنة ٨٩٠ هـ ، واستولوا على حصن قرطبة ، وحصن ذكوين وعدة حصون أخرى تقع شمال غربي مالقة ، في منتصف الطريق بينها وبين رندة ، وبذلك عزلت مدينة رندة ، وأصبح الطريق ممهداً للاستيلاء عليها . وعلى أثر ذلك زحف القشتاليون على رندة وهي معقل الأندلس في قاصية الغرب وهاجموها ، وضربوها بالأنفاط حتى هدمت أسوارها ، وكانت حاميتها بقيادة حامد الثغرى زعيم قبيلة غمارة ، ولم يستطع أهل رندة أن يثبتوا طويلا لعدم استعدادها للدفاع ، ولبعدهم عن العاصمة ، ويأسهم من تلقى الأمداد السريعة ، فطلبوا الأمان ، وغادروا المدينة بأمتعتهم ؛ واستولى القشتاليون على رندة في جمادى الأولى سنة ٨٩٠هـ (ابريل سنة ١٤٨٥م) . ثم استولوا بعد ذلك على سائر الأماكن والحصون الواقعة في تلك المنطقة . وكان سقوط هذه المدينة الأندلسية التالدة ضربة شديدة للمسلمين ، وبسقوطها انهارت كل وسيلة للدفاع عن منطقة الغربية ، وأصبح القشتاليون بذلك يهددون ثغر مالقة من الغرب[٢] .
وحاول القشتاليون بعد ذلك مهاجمة حصن مُكلين الواقع شمال غربي غرناطة ، وكان به الأمير أبوعبد الله الزغل في قوة من الغرناطيين ليصلح أسواره ويتم تحصينه

---

(١) أخبار العصر ص ١٨ .
(٢) أخبار العصر ص ١٥ .



أبو عبد اللهْ محمد سلطان غرناطة (وآخر ملوك الأندلس) عن الصورة المحفوظة بمتحف **Casa de los Tiros.** (دار الرماية) بغرناطة . والمظنون أنها الصورة التى رسمت له أثناء إقامته أسيراً فى قرطبة يدل على ذلك السلسلة الرمزية التى طوق بها عنقه .

ونشبت بين الفريقين معركة شديدة ، وكان القشتاليون بقيادة الكونت دى قبره الظافر فى موقعة اللسَّانة ، وكادت الدائرة تدور فى البداية على المسلمين ، ولكنهم بذلوا جهد المستميت بقيادة أميرهم الباسل ، وانتهت المعركة بأن رد النصارى بخسائر فادحة فى الرجال والعُدد (شعبان سنة ٨٩٠هـ — يوليه ١٤٨٥م) ، وعاد الأمير وجنده إلى غرناطة فرحين مستبشرين[١] .

ولكن كان من سوء الطالع ، أنه لم يمض قليل على ذلك ، حتى نشبت فى غرناطة حرب أهلية جديدة . وكان الملكان الكاثوليكيان قد أطلقا سراح أبى عبدالله فى تلك الآونة بالذات ، بعد أن وقع معاهدة الخضوع والطاعة حسبما تقدم . والواقع أن الحرب الأهلية ، كانت تضطرم فى الأندلس خلال أسر أبى عبد الله ، وكان الزغل ، بعد أن تربع على عرش غرناطة ، يحاول استخلاص الأندلس كلها لنفسه . وكان الأمير يوسف أبو الحجاج شقيق أبى عبد الله ، قد استقر فى ألمرية يحاول منازعة عمه الزغل . فسار الزغل إلى ألمرية ، وثار بها أنصاره ، وغلبوا على خصومهم ، وفتحوا له أبواب المدينة ، وقتل يوسف أثناء ذلك . ويقال إن قتله كان بوحى من أبيه أبى الحسن أوعمه الزغل . وما كاد الزغل يعود إلى غرناطة ، حتى اضطرمت الفتنة من جديد . وكان أبو عبد الله حينما أطلق سراحه ، قد سار إلى بعض الحصون الشرقية ، فقامت بدعوته ، ثم سار إلى منطقة بَلّش[٢] فى شرقى بسطة ، وأعلن نفسه ملكاً ، وأخذ يبث دعوته ، ويشيد بمزايا الصلح المعقود مع ملكى قشتالة ، وأنه يضمن للمسلمين الاستقرار والسلم ، وأنه يطبق فى سائر الأنحاء التى تدخل فى طاعته .

وكان من الواضح أن اضطرام الفتنة فى غرناطة ، فى هذا الوقت بالذات ، لم يكن بعيداً عن وحى أبى عبد الله وحزبه ، وقام أهل ربض البيّازين ، وهو حى غرناطة الشعبى ، الواقع فى شمالها الشرقى تجاه مدينة الحمراء ، بدعوة أبى عبدالله . وكان أهل البيّازين دائماً ، عنصراً من عناصر الإضطراب والشغب ، وكان لهم دائماً ضلع بارز فى كل ثورة وفتنة[٣] ، وشغل ملك غرناطة أبو عبد الله الزغل ، بإخماد

---

(١) أخبار العصر ص ١٧ .

(٢) المقصود هنا بمنطقة بلش بلدتا بلج أو بالاسبانية « بلش الحسناء » Vélez Rubio و « بلش البيضاء » Vélez Blanco ، وكلتاهما تقع على مقربة من الأخرى فى شمال شرق مدينة بسطة .

(٣) أخبار العصر ص ١٨ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٦١١ ؛ وكذلك : Gaspar y Remiro ibid ; p. 23, 24 & 30 . ويسمى ربض البيازين بالإسبانية Albaicin ، وهو ما يزال قائماً فى موقعه القديم ، ومحتفظاً بكثير من معالمه القديمة .

هذه الفتنة الجديدة ، عن مقاتلة النصارى . وبذلك تحقق الغرض الذى يرمى إليه ملكا قشتالة . وكان ذلك فى أوائل سنة ٨٩١هـ (أوائل ١٤٨٦م) . واشتدت الفتنة ، ونصب الزغل على البيازين المجانيق والأنفاظ ، ودافع أهل البيازين عن أنفسهم دفاعاً شديداً ، وكان أبو عبد الله خلال ذلك يبعث رسله إليهم ، ويعدهم بمقدمه . وطالت هذه الفتنة أكثر من شهرين ، ثم بدأت المفاوضة بين أبى عبد الله وبين عمه الزغل (ملك غرناطة) فى عقد الصلح ، وارتضى أبو عبد الله أن ينزل عن دعواه فى العرش ، وأن يدخل فى طاعة عمه[1] . وفى رواية أخرى أنهما اتفقا على تقسيم المملكة إلى قسمين ، فيختص الزغل بحكم غرناطة ومالقة والمرية وبلش مالقة والمنكب ، ويختص أبوعبد الله بحكم الأنحاء الشرقية[2] .

وعلى أى حال فقد انتهز ملك قشتالة ، فرصة هذه الفتنة ، للزحف على مدينة لوشة . وهنا تتفق الروايات الإسلامية والقشتالية ، على أن أبا عبد الله ، حينما علم بتهديد النصارى للوشة ، سار إليها وتحصن بها ، مع نخبة من أنجادالفرسان . وهاجم النصارى مدينة لوشة للمرة الثانية ، وشددوا الحصار عليها ، وسلطوا على أسوارها الأنفاط والعدد ، وأبدى المسلمون بسالة فائقة ، فى الدفاع عن مدينتهم . وتقول الرواية القشتالية إن أبا عبد الله بذل فى هذا الدفاع مجهوداً عظيما ، وإنه جرح أثناء ذلك[3] . ولكنا لم نعثر على ما يؤيد ذلك فى الرواية الإسلامية . ويكتفى صاحب « أخبار العصر » بالقول بأن أبا عبد الله كان فى لوشة وقت حصارها[4] ويزيد المقرى على ذلك بأن أهل غرناطة أذاعوا بأن أبا عبد الله ما جاء إلى لوشة إلا ليسلمها لملك قشتالة ، ويجعلها فداء له[5] .

وعلى أى حال فإن بسالة المسلمين ، فى الدفاع عن لوشة ، لم تغن شيئاً أمام القوة القاهرة ، وفتك الأنفاط والعدد الثقيلة ، فاضطروا إلى التسليم ، وذلك بالشروط الآتية :

---

(١) أخبار العصر ص ١٩ .

(٢) Gaspar y Remiro: ibid, p. 24

(٣) Gaspar y Remiro : ibid, p. 32 ; Irving : Conquest of Granada Ch. XXXIV ; Lafuente Alcantra : ibid, V. II. p. 280

(٤) أخبار العصر ص ١٩ .

(٥) نفح الطيب ج ٢ ص ٦١١ .

أن يؤمن أهل لوشة الذين يرغبون مغادرتها فى أنفسهم ، وفيما يستطيعون حمله من أموالهم ، وأن يسمح لمن شاء منهم ، أن يعيش فى قشتالة أو أراجون أوبلنسية بذلك[١] ، وأن تسلم المدينة إلى ملك قشتالة مع سائر الأسرى النصارى . ودخل القشتاليون لوشة ، فى ٢٦ جمادى الأولى سنة ٨٩١ هـ (مايوسنة ١٤٨٦) ، وسار معظم أهلها إلى غرناطة ، بأمتعتهم وخيلهم وسلاحهم .

وأما فيما يتعلق بأبى عبد الله ، فتقول لنا الرواية القشتالية ، إن موقفه فى الدفاع عن لوشة ، اعتبر منافياً لتعهداته للملكين الكاثوليكيين ، ونكراناً لحسن الصنيعة ، ومع ذلك فقد ارتضيا الصفح عنه ، وأن يسمح له بالاحتفاظ بلقب ملك غرناطة ، وأن يمنح لقب « صاحب وادى آش » إذا استطاع أن يستولى عليها ؛ وإذا أراد أن يلتجىء إلى قشتالة ، فإنه يسمح له أن يعيش هنالك آمناً على نفسه ، وإن شاء العبور إلى المغرب ، أمده ملك قشتالة بوسائل الانتقال[٢] . على أننا نرى على ضوء الرواية الإسلامية ، أن موقف أبى عبد الله من حوادث لوشة ، كان موقفاً مريبا . والواقع أنه كان يبذل جل جهده للدعوة إلى قضيته ، وإلى مقاومة عمه ونزعه عن العرش . وكان يمزج الدعوة لنفسه بالدعوة لملك قشتالة ، ويشيد بمزايا الصلح المعقود معه . ولم يكن خافياً أنه يستظل بمظاهرة النصارى وتأييدهم ، وأنه غدا آلة فى يد ملك قشتالة يعمل بوحيه وتوجيهه .

ولما غادر ملك قشتالة مدينة لوشة أخذ معه أبى عبد الله إما أسيراً ، حسبما يقول صاحب أخبار العصر ، أو أنه سار معه ليستمد عونه فى تنفيذ خطته للاستيلاء على عرش غرناطة ، وهى خطة يؤيدها ملك قشتالة ويشجعها ، لأنها تخدم أغراضه ومطامعه فى القضاء على تلك المملكة الصغيرة التى مزقتها الحرب الأهلية .

ولم يغفل فرناندو تلك الفرصة الذهبية لانتزاع ما يمكن انتزاعه من أراضى مملكة غرناطة . فبينما الحرب الأهلية تضطرم فى العاصمة وحولها ، إذ سار النصارى إلى حصن إليورة الواقع شمال غربى غرناطة وحاصروه وضربوه « بالأنفاط » حتى اضطروا أهله إلى التسليم والخروج عنه ؛ ثم ساروا إلى حصن مكلين الواقع شمال شرقى إليورة وهاجموه ونشبت بينهم وبين المدافعين عنه معركة عنيفة انتهت

---

(١) ان اختيار أراجون وبلنسية بالذات لإيواء المسلمين المهاجرين من القواعد المفتوحة ، يرجع إلى أنه كان يوجد عندئذ فى أراجون وفى بلنسية بالأخص مجتمع كبير من المدجنين ، أو المسلمين القدماء الذين بقوا تحت حكم الاسبان .

(٢) Gaspar y Remiuro: ibid, p. 32

بتحطيم أسواره بفعل « الأنفاط » واستيلائهم عليه ، وخروج أهله عنه إلى غرناطة[١] ثم استولى النصارى بعد ذلك على حصن قلنبيرة الواقع شرقى مكلين بالأمان[٢] ، إذ رأى أهله ما نزل بغيرهم ففضلوا التسليم دون قتال ، واستولوا بعده على سلسلة أخرى من القلاع والحصون التى تحمى مشارف غرناطة ، وأصلحوها وشحنوها بالرجال والمؤن ، لتؤدى دورها فيما بعد من التضييق على العاصمة وتهديدها[٣] .

وهنا نقف قليلا لنتساءل عن حقيقة هذه « الأنفاط » التى توالى ذكرها فى سير هذه المعارك ، التى اضطرمت بالأخص فى لوشة وفى رندة وفى الحصون المجاورة ، والتى كانت فيما يبدو عمدة النصارى فى التفوق على المسلمين ، فى تحطيم هذه الحصون القوية . ولقد أشارت الرواية الإسلامية عن سقوط غرناطة ، وهى رواية صاحب « أخبار العصر » وهى التى كتبها بعد وقوع هذه الأحداث بنحو نصف قرن فقط وكان شاهداً لها ومشتركاً فيها ، إلى تلك « الأنفاط » فى عدة مواضع ثم وصفها لنا فيما يأتى :

« وكان له (أى لملك قشتالة) أنفاط يرمى بها صخور من نار ، فتصعد فى الهواء ، وتنزل على الموضع ، وهى تشتعل ناراً ، فتهلك كل من نزلت عليه وتحرقه ، فكان تلك من جملة ما كان يخذل فى أهل المواضع التى كان ينزل بها »[٤] .

ونحن نعرف أن مسلمى المشرق كانوا منذ أيام الحروب الصليبية ، يحذقون استعمال الرمى بالنار والأنفاط ، وأن هذه النار كانت ترمى من آلات قاذفة تعرف بالحراقات ، على حصون العدو ومعسكراته وسفنه فى البحر فتفتك بها . وقد لعبت هذه النار دوراً هاماً فى الحروب الصليبية ، وألفت فيها مصر سلاحاً منيعاً لرد عدوان الصليبيين وتمزيق حملاتهم . والظاهر أن هذا السلاح الذى استأثر به المسلمون مدى حين فى المشرق ، قد عرفه مسلمو إفريقية والأندلس منذ منتصف القرن السابع الهجرى ، واستعملوه فى محاربة أعدائهم نصارى اسبانيا . فى حصار لبلة (٦٥٥هـ — ١٢٥٧م) استعمل الموحدون من فوق الأسوار لدفع جيوش ألفونسو العاشر ملك

---

(١) ما تزال أنقاض هذا الحصن قائمة فى مكانها . وقد زرناه وشاهدنا أثر الأنفاط فى هدم بعض أبراجه وأسواره .

(٢) حصن إليوره أو بلدة إليوره هى بالإسبانية Illora ؛ وموكلين أو مكلين هى بالإسبانية Moclin ؛ وقلنبيرة هى Colomera ، وهى اليوم من بلاد منطقة غرناطة الشمالية الغربية .

(٣) أخبار العصر ص ٢٢ .

(٤) أخبار العصر ص ٢٢ .

قشتالة ، آلات تقذف حجارة ومواد ملتهبة يصحبها دوى كالرعد[1] . وقد كان استعمال هذه النار أو الأنفاط الفتاكة يتطور بلا ريب مع العصور . ومنذ منتصف القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) نرى مسلمى الأندلس يستعملون لمقاتلة النصارى آلات تقذف اللهب والحجارة ، ويصحبها دوى مخيف[2] ، وظهرت براعة الأندلسيين فى استعمال هذه الآلات فى عدة مواقع . ففى حصار بياسة فى سنة ٧٢٤ هـ (١٣٢٤ م) فى عهد السلطان أبى الوليد اسماعيل ، أطلق المسلمون على المدينة الحديد والنار من آلات قاذفة تشبه المدافع ، واستعملت مثل هذه الآلات فى موقعة وادى لكه (ريو سليتو) سنة ١٣٤٠م (٧٤٠هـ) ، وفى الدفاع عن الجزيرة سنة ١٣٤٢ م (٧٤٢ هـ) وذلك فى عصر السلطان أبى الحجاج يوسف . والظاهر من وصف هذه الآلات أنها كانت نوعاً من المدافع الساذجة التى تحشى بالحديد والحجارة وبعض المواد الملتهبة ، التى كانت فيما مضى عماد الحراقات أو الأنفاط الشرقية . وليس بعيداً أن يكون مسلمو الأندلس قد وقفوا فى هذا العصر أيضاً إلى العثور على سر البارود ، قبل أن يقف على سره القس الألمانى برتولد شفارتز فى منتصف القرن الرابع عشر[3] . ومن المرجح أن النصارى الإسبان قد نقلوا سر الأنفاط عن مسلمى الأندلس ، وحذقوا فى استعمالها مع الزمن . ولما غلب الضعف على مملكة غرناطة تضاءلت أهباتها الدفاعية ، ونقصت مواردها من السلاح والذخيرة ، خصوصاً بعد أن فقدت معظم قواعدها الصناعية . بيد أنه من المحقق أن المسلمين كانوا يستعملون الأنفاط أيضاً فى محاربة أعدائهم وإن يك ذلك بنسبة صغيرة تتفق مع ضآلة مواردهم . أما القشتاليون فقد كانت لديهم « الأنفاط » بكثرة ، وكانت السلاح المفضل فى مهاجمة القواعد والحصون الإسلامية . وهنالك أيضا مايدل على أن هذه الانفاط التى كان يستعملها القشتاليون لم تكن سوى المدفع فى صورته البدائية ، فالرواية الغربية تحدثنا عن اهتمام ملك قشتالة بصنع « المدافع » لمحاربة المسلمين ، وتقول لنا إن هذه المدافع كانت

---

(١) راجع كتابى عصر المرابطين والموحدين القسم الثانى ص ٤٩٧ .

(٢) راجع كتابى « مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام » الطبعة الرابعة ص ١٢٨ و ١٢٩ .

(٣) ولدينا رواية موريسكية هى رواية ابن غانم الموريسكى الأندلسى مؤلف كتاب « العز والمنافع للمجاهدين بالمدافع » الذى سوف يأتى ذكره فى موضعه : وهو يقول لنا إن اختراع البارود وقع فى سنة ٧٦٨ هـ (١٣٦٦ م) ، ومن الواضح أن هذا التاريخ المتأخر لا يتفق مع ما قدمناه من شواهد وحوادث تاريخية تدل على أن البارود قد اخترع قبل ذلك بنحو نصف قرن .

تصنع فى مدينة وشقه ، وإن كميات عظيمة من القنابل الخاصة بها كانت تصنع فى « جبال قسنطينة »[1]. وتحدثنا الرواية الإسلامية المعاصرة عن « البارود » وتقول لنا إن النصارى حينما نشبت الثورة فى ربض البيازين، أمدوا فريقاً من الثوار « بالرجال والأنفاط والبارود »[2] إذكاء منهم للفتنة بين المسلمين . وهكذا نرى أن الأنفاط التى تنوه الرواية الإسلامية بفتكها بحصون المسلمين وصفوفهم فى معارك غرناطة، إنما هى المدافع بذاتها ، وأن تفوق القشتاليين فى استعمال هذا السلاح ، كان له أعظم الأثر فى التعجيل بإخضاع مملكة غرناطة والقضاء عليها .

* * *

ولنعد إلى قصة الحرب الأهلية فى غرناطة . فقد ثار أهل البيازين كما قدمنا بتحريض من دعاة أبى عبد الله وأمه الأميرة عائشة؛ والتف معظم الشعب الغرناطى حول أميره أبى عبد الله الزغل ، واستمرت المعارك سجالا بين الفريقين مدى أشهر. وفى أثناء ذلك استولى النصارى على لوشة وعلى كثير من الحصون الشمالية الغربية . وسار أبو عبد الله بعد سقوط لوشة مع ملك قشتالة، ولم يمض سوى قليل حتى عاد إلى الأنحاء الشرقية، إلى منطقة بلش، وأخذ يدبر خططه . وفى أوائل شوال سنة ٨٩١ هـ (سبتمبر ١٤٨٦) غادر أبو عبد الله محمد الأنحاء الشرقية ، وظهر فجأة فى ربض البيازين ، واجتمع حوله أنصاره من الثوار، وأذاع أنه عقد الصلح مع النصارى ، وأمده فرناندو حليفه بالرجال والعدد والذخائر والمؤن ومنها الأنفاط[3]، فزادت الفتنة اضطراماً . وشدد أبو عبد الله الزغل الضغط على أهل البيازين ، وبينما هو على وشك تمزيقهم وإبادتهم، إذ بلغه أن ملك قشتالة قد سير قواته إلى مدينة بلش مالقة Vélez Málaga ، وذلك فى ربيع الثانى سنة ٨٩٢ هـ (مارس ١٤٨٧)[4]. وكان طبيعياً أن ينتهز فرناندو الخامس فرصة اشتغال المسلمين بفتنتهم القاضية . وكانت بَلّش حصن مالقة ، وسقوطها يعرض مالقة لأشد الأخطار . وأدرك مولاى الزغل فى الحال أهمية بلش فهرع إليها فى بعض قواته ، وترك البعض الآخر لقتال أبى عبد الله وأهل البيازين . ولكن إقدام الزغل وعزمه وشجاعته، واستبسال أهل

---

(١) Sierra Constantina راجع : Prescott ; ibid; p. 223

(٢) راجع أخبار العصر ص ٢٤ .

(٣) Gaspar y Remiro : ibid ; p. 42

(٤) أخبار العصر ص ٢٢ – ٢٤ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٦١٢ .

بلش فى الدفاع عن مدينتهم لم تغن شيئاً ، وسقطت بلش مالقة فى يد النصارى فى جمادى الأولى سنة ٨٩٢ (أبريل سنة ١٤٨٧) وعاد الزغل بجنده ميمماً صوب غرناطة . ولكنه علم أثناء مسيره أن غرناطة قامت أثناء غيابه بدعوة أبى عبدالله ، وأنه دخلها وتبوأ العرش مكانه (٥ جمادى الأولى — ٢٨ أبريل) . وكان أهل غرناطة يحبون الزغل، ويقدرون بطولته ووطنيته، واستبساله فى مقاومة النصارى، ولكنهم تحولوا عنه إلى تأييد أبى عبد الله لمحالفته للنصارى ، وأملهم بذلك فى اتقاء عدوانهم على أرباضهم وقراهم ، وصون أنفسهم ومصالحهم . وهكذا أيقن الزغل عبث المحاولة ، وارتد بصحبه إلى وادى آش، وامتنع فيها بقواته، وبذلك انقسمت مملكة غرناطة الصغيرة إلى شطرين يتربص كل منهما بالآخر : غرناطة وأعمالها ويحكمها أبو عبد الله محمد ابن السلطان أبى الحسن ، ووادى آش وأعمالها ويحكمها عمه الأمير محمد بن سعد (أبوعبد الله الزغل) . وتحقق بذلك ما كان يبتغيه ملك قشتالة ، من تمزيق البقية من دولة الإسلام بالأندلس ، تمهيداً للقضاء عليها .

الفصل الثاني

بداية النهـــاية

أبو عبد الله محمد يرقى العرش للمرة الثانية . تمزق المملكة الإسلامية . خطط ملك قشتالة للقضاء عليها . زحف النصارى على مالقة وحصارها . سعى الزغل إلى إنقاذها . استغاثته بملوك الإسلام . بسالة المسلمين فى الدفاع عنها . شدة الحصار وأهواله . تسليمها للنصارى . نكث فرناندو بوعوده . استغاثة الأندلس بمصر . تتبع مصر لحوادث الأندلس . صدى محنة الأندلس فى الشرق . رواية عن خطة مصر وتركيا لإنقاذ الأندلس . سفارة الأندلس إلى مصر . رواية ابن إياس عنها . مصر تلجأ إلى الوسائل الدبلوماسية . سفارة مصر إلى البابا وملك نابل وملكى اسبانيا . رد فرناندو وسفارته إلى ملك مصر . أثر سقوط مالقة . استيلاء النصارى على الأنحاد الشرقية . عهد فرناندو لأهل أشكر . حصار المنكب . تسليمها وعهد النصارى لأهلها . زحف فرناندو على مدينة بسطة . بسالة المسلمين فى الدفاع عنها . حصارها وتسليمها . عهد النصارى ليحيى النيار زعيم بسطة والمرية . الشروط التى منحت له . تسليم المرية وشروط التسليم . يأس مولاى الزغل وخضوعه لفرناندو . دخول النصارى وادى آش . نزول الزغل عن حقوقه . الشروط التى منحت له . جوازه إلى المغرب . رواية عن سلوك الزغل .

تبوأ أبو عبد الله محمد بن السلطان على أبى الحسن عرش غرناطة للمرة الثانية ، عقب عودة من الأسر بنحو عام ، ولكنه لم يكن يحكم تلك المرة سوى مملكة صغيرة ، وكان المفروض فوق ذلك أنه يحكمها باسم ملك قشتالة وتحت حمايته ، وكانت الخطوب والفتن التى توالت على مملكة غرناطة قد مزقتها ، ولم يبق منها بيد المسلمين سوى بضع مدن وقواعد متناثرة ، مختلفة الرأى والكلمة ، ينضوى بعضها تحت لوائه وتشمل الأنحاء الشمالية الغربية ، وينضوى البعض الآخر تحت لواء عمه محمد ابن سعد (الزغل) ، وتشمل الأنحاء الشرقية والجنوبية . وكان واضحاً أن مصير المملكة الإسلامية أصبح يهتز فى يد القدر ، بعد أن نفذت جيوش النصرانية إلى قلبها ، واستولت على كثير من قواعدها وحصونها الداخلية ، مثل الحامة ورندة ولوشة وبلش مالقة وغيرها . وكان ملك قشتالة يحرص على المضى فى تحقيق خططه لسحق البقية الباقية من دولة الإسلام فى الأندلس قبل أن يعود إليها اتحاد الكلمة ، فيبعث إليها روحاً جديدة من العزم والمقاومة . وكان من الطبيعى أن يؤثر البدء بغزو القواعد الشرقية والجنوبية التى يسيطر عليها مولاى الزغل ، لأن الزغل

لم يكن يدين بطاعته ، وكان يبدى فى مقاومته عزماً لا يلين ولا يخبو ، ولأنه من جهة أخرى كان يرتبط بأمير غرناطة بصلح يمتد إلى عامين ، وقد أراد أن يسبغ على عهوده مسحة غادرة من الوفاء، وأخيراً لأنه كان يريد أن يعزل غرناطة وأن يطوقها من كل صوب ، قبل أن يسدد إليها الضربة الأخيرة .

وقد رأينا كيف سقطت قاعدة بَلّش حصن مالقة من الشرق فى يد النصارى، بعد دفاع عنيف ، فى جمادى الأولى سنة ٨٩٢هـ (مايو ١٤٨٧م) . وعلى أثر سقوطها غادرها معظم أهلها، وتفرقوا فى أنحاء الأندلس الأخرى الباقية بيد المسلمين، وجاز كثير منهم إلى عدوة المغرب، واستولى النصارى على جميع الحصون والقرى المجاورة ومنها حصن قمارش وحصن مونتميور، واستطاعو بذلك أن يشرفوا على مالقة من كل صوب . وكانت مالقة ما تزال أمنع ثغور الأندلس، وقد أضحت بعد سقوط جبل طارق عقد صلتها الأخيرة بعدوة المغرب ، وكان فرناندو يحرص على أن يقطع كل وسيلة ناجعة لقدوم الأمداد من إفريقية وقت الصراع الأخير . وكان الاستيلاء على مالقة يحقق هذه الغاية . ومن ثم فإنه ما كاد النصارى يظفرون بالاستيلاء على بلش والحصون المجاورة ، حتى زحفوا على مالقة وطوقوها من البر والبحر بقوات كثيفة ، وذلك فى جمادى الثانية سنة ٨٩٢هـ (يونيه ١٤٨٧م) وامتنع المسلمون داخل مدينتهم ، وكانت تموج بالمدافعين وعلى رأسهم نخبة مختارة من أكابر الفرسان ، ومعهم بعض الأنقاط والعدد الثقيلة . وكانت مالقة تدين بالطاعة للأمير محمد بن سعد (الزغل) صاحب وادى آش ، ولكنه لم يستطيع أن يسير إلى إنجادها بقواته خوفاً من غدر ابن أخيه أمير غرناطة ، فترك مالقة إلى مصيرها وهو يذوب تحسراً وأسى .ولكنه فكر فى وسيلة أخيرة لعلها تجدى فى إنقاذ الأندلس من خطر الفناء الداهم، هى أن يستغيث بملوك الإسلام لآخر مرة، فأرسل رسلا إلى أمراء إفريقية وإلى سلطان مصر الأشرف قايتباى . ولم يكن من المنتظر إزاء بعد المسافة أن تصبر مالقة على ضغط النصارى حتى يأتيها المدد المنشود ، وكان يتولى الدفاع عن الثغر المحصور جند غمارة وزعيمهم حامد الثغرى. وأبدى المسلمون فى الدفاع عن ثغرهم أروع ضروب البسالة والجلد ، وحاولوا غير مرة تحطيم الحصار المضروب عليهم ، وفتكوا بالنصارى فى بضع مواقع محلية ،ومع ذلك فقد ثابر النصارى على ضغطهم وتشديد نطاقهم ، حتى قطعت كل علاقة للمدينة المحصورة مع الخارج ، ومنعت عنها سائر الأمداد والأقوات ، وعانى المسلمون

داخل مدينتهم أهوال الحصار المروع ، واستنفدوا كل ما وصلت إليه أيديهم من الأقوات ، وأكلوا الجلود وأوراق الشجر ، وفتك بهم الجوع والإعياء والمرض ، ومات كثيرون من أنجاد فرسانهم ، ولم يجدوا فى النهاية لهم ملاذاً سوى التسليم على أن يؤمنوا فى أنفسهم وأموالهم . وهكذا سقطت مالقة بعد دفاع مجيد استطال ثلاثة أشهر فى أيدى النصارى ، وذلك فى أواخر شعبان سنة ٨٩٢ ﻫ (أغسطس ١٤٨٧م) . ولم يحافظ فرناندو على ما بذله لأهلها من عهود لتأمين النفس والمال ، وأصدر قراراً ملكياً باعتبار أهلها المسلمين رقيقاً يجب عليهم افتداء أنفسهم ومتاعهم ، ويفرض على كل مسلم أو مسلمة مهما كان السن والظروف ، الأحرار منهم والعبيد الذين فى خدمتهم ، فدية للنفس والمتاع ، قدرها ثلاثون دوبلا من الذهب الوازن اثنين وعشرين قيراطاً ، أوما يوازى هذا القدر من الذهب والفضة واللآلى والحلى والحرير ؛ وأنه يسمح لمن أدوا هذه الفدية ، إذا شاءوا ، بالعبور إلى المغرب وتقدم السفن لنقلهم ، وأنه لا يسمح للمسلمين ذكوراً أو أناثاً بالعيش أو الإقامة فى مملكة غرناطة ، ولكن يسمح لهم أن يعيشوا أحراراً آمنين فى أية ناحية من نواحى قشتالة ، وأنه لا يتمتع بهذه المنح بنو الثغرى وزوجاتهم وأولادهم ، وبعض أفراد أشار إليهم القرار[1] . ودخل النصارى المدينة دخول الفاتحين ، وعاثوا فيها وسبوا النساء والأطفال ، ونهبوا الأموال والمتاع ، وفر من استطاع من المسلمين إلى غرناطة أو وادى آش أو جاز إلى العدوة . وكان هذا التصرف نموذجاً لما يضمره ملك النصارى نحو معاملة المسلمين المغلوبين ، ولما تنطوى عليه سياسته من نكث للوعود والعهود . وتقول الرواية الإسلامية المعاصرة فى وصف محنة أهل مالقة « وكان مصابهم مصاباً عظيما تحزن له القلوب وتذهل له النفوس ، وتبكى لمصابهم العيون »[2] .

— ٢ —

ولنعد الآن إلى قصة السفارات التى أوفدها أبوعبد الله الزغل إلى ملوك إفريقيه ومصر وقسطنطينية يستغيث بهم ، ويلتمس نصرتهم . والتجاء الأندلس إلى ملوك العدوة فى طلب الغوث والنجدة أمر طبيعى وتقليد أندلسى قديم ، أشرنا إليه مراراً فيما تقدم . ولكن دول المغرب كانت يومئذ يسودها الضعف والتفرق ، ولم يكن

---

(١) هذا ما ورد ضمن وثيقة محفوظة بدار المحفوظات الإسبانية العامة Achivo General de Simancas; P. R. 11-5

(٢) أخبار العصر ص ٢٧ و ٢٨ .

فى استطاعتها أن تهرع إلى انجاد الأندلس ، كما فعلت فى الماضى غير مرة . ولم يلب نداء مولاى الزغل سوى شراذم ضئيلة من المجاهدين المتطوعين ، جازت البحر إلى الأندلس ، واشتركت فى نضالها الأخير .

وأما استغاثة الأندلس بمصر فلم تقع إلا فى عهد متأخر ، وذلك حينما ضعف أمر بنى مرين ملوك العدوة الأقوياء ، وانقطعوا عن العبور إلى الأندلس ، وشغلوا بأمر الدفاع عن أنفسهم . وقد ذكرنا فيما تقدم قصة السفارة الأندلسية التى بعث بها السلطان أبو عبد الله الأيسر إلى سلطان مصر الظاهر جقمق فى سنة ٨٤٤ هـ (١٤٤٠ م) ، وكيف أنها لم تسفر عن أية نتائج عملية . على أنه لم يكن ثمة ريب فى أن الحوادث الأندلسية المفجعة ، كانت قد ذاعت يومئذ فى أنحاء العالم الإسلامى ، واهتز لمصابها أمراء الإسلام قاطبة . وكان صداها يتردد فى بلاط القاهرة وغيره من قصور المشرق ، وكان أمراء الأندلس وزعماؤها مذ لاح لهم شبح الخطر الداهم ، يتجهون بأبصارهم إلى دول المغرب والمشرق معاً ، وكانت كتبهم ونداءاتهم فى تلك الآونة العصيبة تترى على فاس والقاهرة وقسطنطينية . وفى صحف العصر ما يدل على أن مصر كانت بنوع خاص ، تتبع حوادث الاندلس باهتمام وجزع ، فإن ابن إياس مؤرخ مصر فى ذلك العصر لم يفته أن يدون فى حولياته هذه الحوادث تباعاً ، فنراه يقول فى حوادث ذى الحجة سنة ٨٨٦هـ (١٤٨١م) ، ما يأتى : « وفيه جاءت الأخبار من بلاد الغرب أن أبا عبد الله محمد بن أبى الحسن على بن سعد ابن الأحمر قد ثار على أبيه الغالب بالله صاحب غرناطة وملكها من أبيه ، وجرت بينهما أمور يطول شرحها ، وآل الأمر بعد ذلك إلى خروج الأندلس عن المسلمين ، وملكها الفرنج والأمر لله فى ذلك » . وفى حوادث رجب سنة ٨٩٠هـ (١٤٨٥م) . « وفى رجب جاءت الأخبار بوفاة ملك الأندلس صاحب غرناطة ، وهو الغالب بالله أبو الحسن » . وفى حوادث جمادى الآخرة سنة ٨٩١ هـ (١٤٨٦ م) « إن صاحب غرناطة (أبا عبد الله) توجه إلى عمه يسأله أن يرسل له نجدة تعينه على قتال صاحب قشتالة ، وان الفتن هناك قائمة والأمر لله »[1]. وهكذا كانت حوادث الأندلس تتردد رغم بعد المسافة وصعوبة المواصلة فى مصر ، ويدونها مؤرخ مصر المعاصر ، وإن كان فى إيرادها تنقصه الدقة والوضوح .

وكانت مصر ترتبط يومئذ مع ثغور الأندلس ولاسيما مالقة والمرية بعلائق

---

(١) راجع ابن إياس : تاريخ مصر (بولاق) ج ٢ ص ٢١٦ و ٢٣٠ و ٢٣٧ .

تجارية وثيقة . وكان لمصر هيبتها التالدة بين الدول النصرانية منذ الحروب الصليبية وبالأخص لأنها تحكم البقاع النصرانية المقدسة ، وبين رعاياها ملايين من النصارى . ولم يكن غريباً فى تلك الآونة أن تفكر الأندلس إبان محنتها القاسية مرة أخرى ، فى الإستغاثة بمصر بعد أن رأت قصور الدول المغربية عن إنجادها . وكان من الطبيعى أن تهتم دول الإسلام من أقصاها إلى أقصاها بمصير الأمة الأندلسية ، وأن تفكر فى التماس السبيل إلى غوثها إن استطاعت إلى ذلك سبيلا . ولا تشير المصادر الإسلامية إلى فكرة أو سياسة معينة ، وضعتها أواعتزمتها الدول الإسلامية لتحقيق هذه الغاية ، ولكنها تشير فقط إلى سفارة أندلسية وفدت على بلاط مصر . على أن المصادر الغربية تشير بالعكس إلى أن خطة كهذه قد وضعت ونظمت . وخلاصة ما تقوله فى ذلك هو أن المشرق كله اهتز لحوادث الأندلس ، وسقوط قواعدها السريع فى يد النصارى ، وأن بايزيد الثانى سلطان الترك والأشرف قايتباى سلطان مصر ، تهادنا موقتاً الرغم مما كان بينهما من خصومات مضطرمة وحروب دموية ، وعقدا محالفة لإنجاد الأندلس وإنقاذ دولة الإسلام فيها ، ووضعا لذلك خطة مشتركة خلاصتها أن يرسل بايزيد الثانى أسطولا قوياً لغزو جزيرة صقلية التى كانت يومئذ من أملاك اسبانيا ، ليشغل بذلك اهتمام فرناندو وإيسابيلا ، وأن تبعث سريات كبيرة من الجند من مصر وإفريقية ، تجوز البحر إلى الأندلس ، لتنجد جيوشها وقواعدها[1] . ومن الصعب أن نعتقد بأن مثل هذه الخطة الموحدة ، يمكن أن يتفق عليها بين مصر وقسطنطينية فى مثل الظروف التى كانت تجوزها علائق البلدين يومئذ ؛ فقد كانت علائق جفاء وقطيعة ، وكان الترك يتربصون بمصر ويطمحون إلى غزوها ، وكانت مصر تخشى العدوان ويسودها التوجس والحذر ، وكان انفصام العلائق بين تركيا ومصر على هذا النحو أبعد من أن يسمح بعقد مثل هذا التحالف بينهما . وكل ما يمكن قوله فى هذا الشأن هو أن فكرة إنجاد الأندلس كانت تلقى فى بلاط القاهرة وقسطنطينية نفس العطف ، وإن لم يتفاهما فى ذلك على خطة موحدة .

وعلى أى حال فمن المحقق الذى لاريب فيه أن مصر قد تلفت استغاثة الأندلس ، ووضعت خطة دبلوماسية خاصة لإسعافها وإنجادها . وقد وصلت سفارة الأندلس إلى مصر فى أواخر سنة ٨٩٢ هـ (نوفمبر سنة ١٤٨٧م) . ويصف ابن إياس هذه

(١) راجع : Irving : Conquest of Granada p. 172

السفارة فيما يأتى: « وفى ذى القعدة (سنة ٨٩٢هـ) جاء قاصد من عند ملك الغرب صاحب الأندلس ، وعلى يده مكاتبة من مرسله تتضمن أن السلطان يرسل له تجريدة تعينه على قتال الفرنج ، فإنهم أشرفوا على أخذ غرناطة وهو فى المحاصرة معهم . فلما سمع السلطان ذلك ، اقتضى رأيه أن يبعث إلى القسوس الذين بالقيامة التى بالقدس بأن يرسلوا كتاباً على يد قسيس من أعيانهم ، إلى ملك الفرنج صاحب نابل ، بأن يكاتب صاحب إشبيلية بأن يحل عن أهل مدينة غرناطة ويرحل عنهم ، وإلا يشوش السلطان على أهل القيامة ، ويقبض على أعيانهم ، ويمنع جميع طوائف الفرنج من الدخول إلى القمامه ويهدمها ، فأرسلوا قاصدهم وعلى يده كتاب إلى صاحب نابل ، كما أشار السلطان ، فلم يفد ذلك شيئاً وملك الفرنج مدينة غرناطة فيما بعد »[1] . وفى رواية ابن إياس شيء من اللبس . ذلك أن حصار النصارى الأخير لغرناطة ، لم يبدأ إلا فى مارس سنة ١٤٩١ الموافق جمادى الثانية سنة ٨٩٦هـ ، فالأمر لم يكن متعلقاً إذاً بإنقاذ غرناطة . وكانت جيوش فرناندو وإسابيلا منذ بداية سنة ٨٩٢ هـ تتدفق حسبما رأينا على أراضى مولاى الزغل لكى تنتزع منه الثغور الجنوبية . وقد استولت على بلّش مالقة فى جمادى الأولى من هذا العام (مايو ١٤٨٧) ، ثم زحفت توا على مالقة ، وضربت حولها الحصار فى جمادى الثانية (يونيه سنة ١٤٨٧ م) . وقد وصل صريخ الأندلس إلى مصر فى أواخر سنة ٨٩٢ هـ ، وذلك بعد أن سقطت مالقة فى يد النصارى بنحو ثلاثة أشهر . وإذاً فمن الواضح أن هذا الصريخ كان متعلقاً بإنقاذ مالقة ، وأنه كان صادراً من مولاى الزغل بطل الأندلس والمدافع عنها يومئذ ، والمشفق عليها من السقوط ، ولم يصدر من صاحب غرناطة وهو ابن أخيه أبوعبد الله محمد ، وقد كان يومئذ يعيش آمناً فى ظل الهدنة الغادرة التى عقدها مع النصارى .

ولم يكن من الميسور على مصر أن تلبى نداء الأندلس بطريقة فعالة ، فترسل إليها الأمداد أو المساعدات المادية على ما بينهما من بعد الشقة ، وعلى ما كان يشغل مصر يومئذ من الحوادث الداخلية ، وتوجسها من عدوان الترك على حدودها الشمالية . ولكن مصر حاولت مع ذلك أن تعاون الأندلس بطريق الدبلوماسية ، والضغط السياسى . وسلك بلاط القاهرة فى ذلك خطة تدلى بذكائه وحزمه ، وتدلى بالأخص بوقوفه على مجرى الشئون الخارجية ، وتطور العلائق الدبلوماسية فى هذا العصر .

---

(١) تاريخ مصر ج ٢ ص ٢٤٦ .

ذلك أن سلطان مصر الملك الأشرف ، أجاب عن سفارة الأندلس بتوجيه سفارة مصرية إلى البابا وملوك النصرانية . واختار لأدائها راهبين من رعاياه النصارى ، أحدهما القس أنطونيو ميلان رئيس دير القديس فرنسيس فى بيت المقدس ، وعهد إليهما بكتب إلى البابا وهو يومئذ إنوصان الثامن ، وإلى ملك نابل (نابولى) فرناندو الأول ، وإلى فرناندو وإيسابيلا ملكى قشتالة وأراجون . وفى هذه الكتب يعاتب سلطان مصر ملوك النصارى على ما ينزل بأبناء دينه المسلمين فى مملكة غرناطة ، وعلى توالى الإعتداء عليهم ، وغزو أراضيهم ، وسفك دمائهم ، فى حين أن رعاياه النصارى فى مصر وبيت المقدس ، وهم ملايين ، يتمتعون بجميع الحريات ، والحمايات ، آمنين على أنفسهم وعقائدهم وأملاكهم . ولهذا فهو يطلب إلى ملكى قشتالة وأراجون الكف عن هذا الاعتداء ، والرحيل عن أراضى المسلمين ، وعدم التعرض لهم ، ورد ما أخذ من أراضيهم ، ويطلب إلى البابا وملك نابل أن يتدخلا لدى ملكى قشتالة وأراجون ، لردهما عن إيذاء المسلمين والبطش بهم ، هذا وإلا فان ملك مصر سوف يضطر إزاء هذا العدوان ، أن يتبع نحو رعاياه النصارى سياسة التنكيل والقصاص ، ويبطش بكبار الأحبار فى بيت المقدس ، ويمنع دخول النصارى كافة إلى الأراضى المقدسة ، بل ويهدم قبر المسيح ذاته وكل الأديار والمعابد والآثار النصرانية المقدسة(١) .

وغادر القس أنطونيو ميلان وزميله الديار المصرية ، لتأدية سفارة مصر إلى ملوك النصرانية . ولسنا نعرف موعد هذا الرحيل بالضبط ، ولكن السفيرين وصلا إلى اسبانيا فى خريف سنة ١٤٨٩ م ، أعنى لنحو عام ونصف من وصول صريخ الأندلس إلى القاهرة . وكانت مالقة قد سقطت فى يد النصارى منذ عامين واستولوا على طائفة أخرى من الحصون والقواعد ، ثم تحولوا بعد ذلك إلى بسطة تحسبا بجىء ، وضرب فرناندو حولها الحصار . وهنالك أمام أسوار بسطة وفد القس أنطونيو ميلان وزميله إلى معسكر النصارى فى أواخر سنة ١٤٨٩ م ، فاستقبلهما فرناندو بحفاوة وترحاب ، واستلم كتاب السلطان ، واستمع إلى رسالتهما بعناية . وكان السفيران قد عرجا فى طريقهما على رومة ونابل أولا ، وقدما كتب السلطان إلى البابا

(١) ابن إياس فى تاريخ مصر ج ٣ ص ٢٤٦ و Prescott: Ferdinand and Isabella p.272 و Irving : ibid. p. 287 . وظاهر أن فى رواية ابن إياس عن تأليف سفارة مصر بعض النقص ، ولكن ملخصه لمحتويات الكتب السلطانية فى منتهى الدقة .

إنوصان الثامن والى ملك نابل، فكتب البابا إلى فرناندو وإيسابيلا يسألهما عما يجيب به على مطالب السلطان ووعيده ، وكتب ملك نابل (فرناندو الأول) إليهما يستفهم عن سير الحرب الأندلسية ، ويلومهما على اضطهاد المسلمين ، وينصح بالكف عنه حتى لا يتعرض نصارى المشرق إلى قصاص السلطان . ويرجع تدخل ملك نابل على هذا النحو ، إلى خلاف بينه وبين ملك أراجون على حقوق عرش نابل ، وإلى تخوفه من أن يرتد فرناندو إلى محاربته متى تم ظفره بفتح الأندلس . ثم زار القسان أيضاً مدينة جيان حيث كانت الملكة إيسابيلا ، وأبلغاها موضوع سفارتهما ولقيا منها نفس الحفاوة والترحاب(١) .

ولم ير فرناندو وإيسابيلا فى مطالب السلطان ووعيده ما يحملهما على تغيير خطتهما ، فى الوقت الذى أخذت فيه قواعد الأندلس الباقية تسقط تباعاً فى أيديهما واقترب فيه أجل الظفر النهائى ؛ ولكنهما رأيا مع ذلك إجابة السلطان ، فكتبا إليه فى أدب ومجاملة ، «أنهما لا يفرقان فى المعاملة بين رعاياهما المسلمين والنصارى ، ولكنهما لا يستطيعان صبراً على ترك أرض الآباء والأجداد فى يد الأجانب ، وأن المسلمين إذا شاءوا حياة فى ظل حكمهما راضين مخلصين ، فانهم سوف يلقون منهما نفس ما يلقاه الرعايا الآخرون من الرعاية» ، وبذا ارتد القسان إلى المشرق يحملان جواب الملكين إلى السلطان ، ومعهما طائفة من التحف والهدايا .

ولسنا نعرف ماذا كان مصير هذه الرسالة ، ولكنا نرجح أنها وصلت إلى بلاط القاهرة ، وإن كنا لا نلمس لها أثراً فى حوادث هذا العصر . وليس فى تصرفات حكومة مصر يومئذ ما يدل على أن السلطان نفذ وعيده ، باتخاذ إجراءات معينة ضد النصارى أوضد الآثار النصرانية المقدسة . والواقع أن بلاط القاهرة كان يشغل عندئذ بحركات بايزيد الثانى ، وصد غاراته المتكررة على الحدود الشمالية . وكان الاضطراب من جهة أخرى يسود شئون مصر الداخلية ، ومن ثم فإنه يبدو أن محاولة مصر إنقاذ الأندلس قد وقفت عند هذا الحد . ولم تتعد قيام مصر بمظاهرة دولية تقوم على استغلال الظروف والمؤثرات الدينية . وهكذا فشلت هذه المحاولة الدبلوماسية الفطنة التى بذلتها مصر ، وتركت الأندلس إلى قضائها المحتوم .

— ٣ —

وكان سقوط مالقة أمنع الثغور الأندلسية فى يد النصارى ضربة أليمة للمملكة

---

(١) Irving : ibid ; p. 258 ; Prescott : ibid ; p.278

الإسلامية الممزقة ، يحرمها من كثير من ضروب الإمداد والغوث التى كانت تأتيها من وراء البحر ، وكان واضحاً أن ملك قشتالة كان يرمى إلى قطع هذه الأمداد بكل الوسائل . ولم يكن باقياً بعد ضياع جبل طارق ومالقة ، بيد المسلمين من الثغور سوى ألمرية والمنكب ، وإليهما كانت تفد جموع المتطوعة والمجاهدين ، بالرغم من بعدهما عن شواطئ العدوة ، وكان لابد من الاستيلاء عليهما ، قبل أن تقطع كل صلة للأندلس نهائياً بعدوة المغرب وشمال إفريقية . وقضى فرناندو قبل تنفيذ هذه الخطة زهاء عام ، بعمل على تطهير منطقة مالقة ، والاستيلاء على ما بقى من الحصون الشرقية والغربية ، حتى استولى عليها جميعاً ولم يبق منها بيد المسلمين شىء .

وفى ربيع سنة ١٤٨٨م (٨٩٣هـ) زحف فرناندو على أطراف مملكة غرناطة الشرقية ، وكانت لبعدها عن العاصمة ، أقل استعداداً للدفاع ، وانتهت هذه الحملة باستيلاء النصارى على بيرة ، والبلشين وأشكر[١] وغيرها من القواعد الشمالية الشرقية ، وذلك بالرغم من كون أهلها كانوا داخلين فى الصلح المعقود مع أبى عبد الله ، وكان على ملك قشتالة لو أنه أوفى بعهوده ، أن يتركهم حتى ينتهى أمد الصلح المذكور[٢] . وقد عثرنا على نص العهد الذى أصدره الملكان الكاثوليكيان لأهل أشكر ، وهو نموذج للعهود التى صدرت لباقى البلاد المفتوحة فى هذه المنطقة ، وفيه يتعهد الملكان ، بقبول أهل أشكر بين رعاياهما وتحت حمايتهما ، وأن لا يؤخذ شىء من أمتعتهم أو يصيبهم أى مكروه ، وألا يدفعوا من الضرائب إلا ما كانوا يؤدونه لملوكهم المسلمين ، وألا يرغموا على محاربة إخوانهم مسلمى غرناطة ، وأن يسمح لهم باستبقاء زعمائهم وفقهائهم ، وعوائدهم وشريعتهم ، وأنه يحق لهم الإقامة فى أى جزء من أراضى مملكة قشتالة ، كما يحق لهم العبور إلى المغرب أحراراً ودون أى قيد ، وأن يعامل السكان جميعاً ذكوراً أو أناثاً ، بالرفق والكرامة وألا يغصبهم أحد فى دورهم ، أو يسىء إليهم أو يتلف شيئاً من أمتعتهم أو محاصيلهم ، وألا يعاشر نصرانى مسلمة ، أو مسلم نصرانية ، ومن فعل ذلك يعاقب بالموت وتصادر أملاكه ، وأن يدفع الكراء العادل لمن يطلب منهم للعمل فى بناء حصن

---

(١) بيرة وبالإسبانية **Vera** تقع شمال شرقى ألمرية على مقربة من البحر المتوسط ، والبلشان هما بلج أو « بلش الحسناء » **Velez Rubio** ، و« بلش البيضاء » **Velez Blanco** ، وهما تقعان شمالى شرقى مدينة بسطة **Baza** ، وأشكر وهى بالإسبانية **Huescar** تقع شمال غربى البلشين .

(٢) **Gaspar y Remiro: ibid; p. 43**

المدينة(١) . وسنرى فيما يلي من الحوادث أن الملكين الكاثوليكيين ، يغدقان أمثال هذه العهود لسائر البلاد المفتوحة ، ولكن دون أية نية صادقة في الوفاء بها .

وفي الوقت الذي اقتربت فيه القوات القشتالية ، من مدينة بسطة ، أمنع قاعدة في ولايات غرناطة الشرقية ، لتضرب حولها الحصار ، سار فرناندو في بعض قواته إلى ثغر المنكّب(٢) ، الواقع في منتصف المسافة بين مالقة وألمرية ، وحاصره ، وكان يدافع عنه القائد محمد بن الحاج . ومع أنه لم يك ثمة شك في النتيجة المحتومة ، فقد دافع المسلمون عن ثغرهم ، واعتصموا به نحو ثلاثة أشهر ، وكبدوا القشتاليين بعض الخسائر . ثم وقعت المفاوضة في التسليم ، وأصدر الملكان الكاثوليكيان للقائد ابن الحاج ومعاونه الفقيه أبي عبد الله الزليخي ، عهداً خلاصته ، أنه إذا سلم القصبة وكل حصونها في ظرف تسعة أيام ، فإنه يقبل هو وولده وصحبه وقرباه ، كما يقبل الوزراء والقواد والفقهاء وسائر أهل المنكب بين رعايا قشتالة ، وأنهم يتركون آمنين في ديارهم وأنفسهم وأموالهم ، ويحتكمون إلى شريعتهم ، وتترك لهم مساجدهم وصوامعهم ، ولا يؤخذ منهم خيلهم أوسلاحهم إلا طلقات البارود ، وأنه إذا تم التسليم في الموعد المذكور ، فإنه تقدم إلى القائد المذكور هبة قدرها ثلاثة آلاف دوبلا قشتاليا ، وأنه إذا شاء العبور إلى المغرب مع ولده وأسرته ، فإنه تقدم إليه سفينة حسنة للجواز فيها مع سائر متاعه دون كراء أو مغرم ، وأنه لا تمس أملاك الأهالي ، ولهم بيعها أوقبض ريعها إذا عبروا إلى المغرب ، وهكذا سلم ثغر المنكب إلى القشتاليين ، في شهر ديسمبر سنة ١٤٨٩ (المحرم سنة ٨٩٥هـ). ولم يبق للمسلمين من الثغور سوى ألمرية ، التي طوقها العدو في نفس الوقت بقواته ، وأصبحت تحت رحمته وشيكة التسليم .

ولما تم قطع علائق الأندلس على هذا النحو مع عدوة المغرب وشمال إفريقية ، بدأ فرناندو في تنفيذ خطته النهائية للقضاء على ما بقي في الداخل من المملكة الإسلامية وكانت مملكة غرناطة قد انقسمت كما رأينا إلى شطرين ، الأنحاء الشرقية وتشمل وادي آش وأعمالها ويحكمها الأمير محمد بن سعد أبوعبد الله الزغل ، والأنحاء الغربية

---

(١) تحفظ هذه الوثيقة ببلدية « أشكر » Archivo del Ayuntamiento de Huescar ، وقد نقلناها عن مجموعة : Documentos Inéditos para la Historia de Espana Vol. III, p. 170-173

(٢) وهي بالإسبانية Almunecar

وتشمل مدينة غرناطة وأعمالها ، ويحكمها الأمير أبو عبد الله محمد بن علي . فقرر فرناندو أن يبدأ بإتمام الاستيلاء على الأنحاء الشرقية ، وأن يقضى أولا على سلطان أبي عبد الله الزغل لما كان يخشاه من عزمه وشديد بأسه ، فما كاد ينتهى من إخضاع ثغر المنكب وتطويق ثغر ألمرية حتى قرر تضييق الخناق على مدينة بسطة ، وكانت قواته تطوقها حسبما تقدم ، وكانت الملكة إيسابيلا مع حاشيتها فى جيان على مقربة من الجيش الفاتح ؛ وكانت بسطة أهم القواعد الشرقية التى يسيطر عليها مولاى الزغل بعد وادى آش مقر حكمه ؛ ولم يستطع الزغل أن يغادر معقله فى وادى آش للدفاع عن بسطة ، خشية أن يهاجمه ابن أخيه أبو عبد الله فى غيبته ، فأرسل إليها حامية مختارة من أنجاد الفرسان بقيادة صهره الأمير يحيى النيار الذى تعرفه التواريخ القشتالية « بسيدى يحيى » . وحاول القشتاليون الإطباق على بسطة ومحاصرتها فردهم المسلمون عن أسوارها غير مرة ، ونشبت بين الفريقين خارج الأسوار عدة معارك حامية منى فيها النصارى بخسائر فادحة ؛ ومع أن النصارى بدأوا هجومهم على بسطة فى شهر رجب سنة ٨٩٤هـ (يونيه سنة ١٤٨٩ م) فإنهم لم يستطيعوا تطويقها ومحاصرتها بصورة فعلية إلا بعد ذلك بثلاثة أشهر ، وهنا امتنع المسلمون داخل المدينة بعد أن أثخنوا فى عدوهم غير مرة ، واستنفدوا أقواتهم المدخرة . وضيق النصارى الحصار على بسطة على مدى ثلاثة أشهر أخرى ، حتى ضاق أهلها بالحصار ذرعاً ، وقلت الأقوات واشتد الكرب ، ولما رأى المسلمون أنه لم يبق فى الدفاع ثمة أمل ، وقد نفدت المؤن ، وفتك الجوع والمرض بالعامة ، اعتزموا مفاوضة القشتاليين فى التسليم ؛ وبالرغم مما أبداه زعيمهم يحيى النيار فى البداية من براعة فى تنظيم الدفاع عن بسطة وألمرية ، وبالرغم مما أبداه من بسالة فى المعارك التى نشبت مع القشتاليين ، فإنه رأى فى النهاية أن يترك هذا الصراع اليائس ، وأن يفوز من المعركة بأحسن ما يستطاع لنفسه وذويه . وقد حصلنا على نص الوثيقة التى عقدها القائد يحيى مع مندوب الملك فرناندو ، الدون جوتيرى دى كارديناس ، وهى تعرض لنا بمحتوياتها المثيرة ، صورة من ذلك الدرك المؤلم الذى يدفع اليأس إليه أولئك القادة الذين يغدون بعد حياة حافلة بالإخلاص والبسالة ، تحت إغراء العدو وهباته ، خونة مارقين مرتدين .

وقد حررت هذه الوثيقة فى المعسكر الملكى قرب مدينة ألمرية فى ٢٥ ديسمبر سنة ١٤٨٩ ، وفيها يؤكد فرناندو للقائد يحيى النيار زعيم بسطة وألمرية ، بأنه

سوف يستقبله تحت حمايته هو وولده وأبناء عمه ، وينزلهم فى داره ، ويعاملهم بما يليق بهم معاملة أشراف مملكته ، ويدافع عنهم وعن أملاكهم وأتباعهم ، ثم يقول ملك قشتالة مخاطباً يحيى :

وأنه إذا صحت عزيمتكم حقاً على اعتناق النصرانية ، وعلى أن تخدمنى وتعاوننى برجالك ، فإنى سوف أكتم ذلك طول مدة الفتح ، حتى لا يتقول عليك رجالك ، ولهذا فإنك تستقبل التعميد المقدس سراً فى غرفتى ، حتى لا يعرفه المسلمون إلا بعد تسليم وادى آش .

« وأن الكروم والقرى والحصون التى تؤول إليك بالميراث عن والدك أمير المرية ، أهبها لك لتملكها وتتصرف فيها كما تشاء ، وعهدى لك بذلك أنا والملكة زوجى .

« وأنه لن تدفع أنت وابنك وأبناء عمك وأعقابك وحشمك ، أى مغرم أو جزية فى سائر مملكتى إلى الأبد .

« وأنه تشريفاً لشخصك يسمح لك بأن يصحبك عشرون فارساً مسلحون بكل ما يرغبون ، وأن تتجول بهم حيث شئت فى أنحاء مملكتى ، ويتمتع ولدك بمثل ذلك .

« وأنه إذا تنازل صهرك ملك وادى آش عن نصف الملاحات التى أهبها إليه ، فإنى أهبك دخلا قدره خمسمائة وخمسون ألف مرافيدى فى ملاحات دلاية ، وفضلا عن ذلك ، فإنه إذا تم تسليم وادى آش فى الموعد المتفق عليه ، فإنى مكافأة لك على جهودك فى خدمتى لدى ملك وادى آش وغيره من القادة ، أهبك عشرة آلاف ريال ، وأقدم لك سائر البراءات اللازمة بما تقدم »[1] .

وتعهد الملكان الكاثوليكيان فى نفس الوقت لأهل بسطة ، بإقرار ما طلبوا من الشروط ، وفى مقدمتها أن يؤمنوا فى النفس والمال ، وأن يحتفظوا بدينهم وشريعتهم وعوائدهم . وهكذا سلمت بسطة ، ودخلها النصارى فى العاشر من محرم سنة ٨٩٥ هـ (أوائل ديسمبر سنة ١٤٨٩ م) وغادرها معظم أهلها إلى وادى آش ، حاملين ما استطاعوا من أمتعتهم وأموالهم ، وهرعت جميع الحصون والمحلات القريبة إلى التسليم والدخول فى طاعة ملك النصارى ، وسلمت المرية بعد ذلك بقليل فى فبراير سنة ١٤٩٠ م (ربيع الأول سنة ٨٩٥ هـ) ، ومنحت للتسليم شروطاً خلاصتها

---

(١) Archivo General de Simancas; P.R. 11-11

أن يحتفظ المسلمون بدينهم وشريعتهم وأموالهم، وأن تخفف عنهم أعباء الضرائب، وألا يولى عليهم يهودى، وألا يدخل نصرانى فى «الجماعة»، وأن يختار الأولاد الذين يولدون من أمهات من النصارى لأنفسهم، الدين الذى يريدون عند البلوغ، وغير ذلك من المنح المغرية الخادعة التى بذلت لسائر البلاد المفتوحة. وهكذا بسط فرناندو سلطانه على قواعد الأندلس الشرقية كلها من البحر إلى الشمال، ولم يبق خارجاً عن طاعته، سوى مدينة وادى آش مقر مولاى الزغل.

ولم تمض أسابيع قلائل على ذلك، حتى أثمرت خيانة يحيى النيار ثمرتها، لدى صهره أبى عبد الله الزغل، فسارع بدوره إلى الانضواء تحت لواء ملك النصارى، وكان الزغل منذ التجأ إلى وادى آش، يرقب سير الحوادث بجزع، ويرى قواعد الأندلس تسقط بالتعاقب، ودون أن ينجدها منجد، ويرى أمل الإنقاذ يخبو تباعاً. فلما سقطت بسطة آخر القواعد التى يسيطر عليها، واتجه النصارى نحو وادى آش معقله الوحيد الباقى، ورأى بالرغم من شجاعته وبسالته أنه يغالب المستحيل، وأن جيوش النصرانية تحيط به من كل صوب، اعتزم أمره، وسار إلى معسكر ملك النصارى يعرض عليه طاعته، والانضواء تحت لوائه، فأجابه فرناندو إلى مطالبه، وبايعه الزغل وسائر قادته بالخضوع والطاعة؛ ودخل النصارى مدينة وادى آش فى أوائل صفر سنة ٨٩٥هـ (٣٠ ديسمبر سنة ١٤٨٩).

وعقد الزغل مع ملكى قشتالة معاهدة سرية على نمط المعاهدة التى عقدها صهره يحيى، ونص فيها على طائفة من المنح والإمتيازات، خلاصتها أن يستقر الزغل سيداً فى مدينة أنْدَرَش وما إليها، وأن يكون له ألفا تابع من بنى وطنه، وأن يمنح معاشا سنويا كبيراً، وأن يمنح دخل نصف ملاحات بلدة الملاحة، وأن يرسل فى استحضار أبنائه الأمراء من غرناطة نظراً لخصومته مع ملكها، وأن تكون جميع أملاكه وأملاك ذويه فى غرناطة حرة من كل حق ومغرم، وأن تكون هذه العهود ملزمة لملكى قشتالة ولعقبهما من بعدهما، وأخيراً أن يوافق البابا على هذه العهود[1]. بيد أنه لم يمض قليل على ذلك حتى شعر مولاى الزغل أنه يستحيل عليه الاستمرار فى ذلك الوضع المهين، فنزل لفرناندو عن حقوقه وامتيازاته لقاء مبلغ ضخم، وجاز البحر إلى المغرب، ونزل فى وهران أولا ثم انتقل إلى

(١) Archivo General de Simancas, P. R. 11-12 . وراجع ايضاً : Gaspar y Remiro : ibid ; p. 48.

تلمسان ، واستقر يقضي بها بقية حياته في غمر من الحسرات والندم ، ولبث عقبه هنالك عصوراً يعرفون ببني سلطان الأندلس ؛ وجاز معه كثيرون من الكبراء الذين أيقنوا أن نهاية الإسلام بالأندلس قد غدت قضاء محتوماً[١] .

وقد نقل إلينا صاحب أخبار العصر رواية مفادها أن تسليم مولاي الزغل لملك قشتالة كانت نوعاً من الخيانة المقصودة ، وأنه تنازل هو وقواده عن البلاد التي كانت تحت أيديهم طوعاً مقابل قبض ثمنها ، وذلك لكي ينتقم الزغل من ولد أخيه الأمير أبي عبد الله محمد بن علي صاحب غرناطة ، فتصبح بعد خضوع سائر أنحاء الأندلس وحيدة تحت رحمة النصارى ، وترغم على التسليم إليهم ، وينتهي بذلك إمارة أمرها وحكمه[٢] ، وهي رواية لا تتفق في نظرنا مع ما أثر عن مولاي الزغل من ضروب العزم والبسالة والشهامة والغيرة الإسلامية ، التي رأيناها ماثلة خلال هذه الحوادث المؤسية ، وإنما استسلم الزغل وخضع ، وحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه ، نزولا على حكم ظروف قاهرة لم ير إلى مغالبتها سبيلا .

---

(١) أخبار العصر ص ٣١ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٦١٣ و ٦١٤ . وراجع Prescott: ibid; p.285

(٢) أخبار العصر ص ٣٢ .

الفصل الثالث

الصراع الأخير

تجديد الصلح بين الملكين الكاثوليكيين وأبي عبد الله . مطالبة الملكين بتسليم غرناطة . ثورة أبي عبد الله . الحماسة في غرناطة . غزو فرناندو لبسائط غرناطة . رد المسلمين النصارى . خروج أبي عبد الله للغزو . المعارك بين المسلمين والنصارى . محاولة أبي عبد الله استرداد المنكب . حوادث وادي آش . فرناندو يعلن الأمان . هجرة المسلمين من القواعد الذاهبة . تأهب فرناندو لافتتاح غرناطة . زحفه عليها . عيث النصارى في المروج . محاصرة النصارى لغرناطة . فرناندو ينشىء أمامها مدينة شنتفى . موقف غرناطة وأحوالها . بسالتها في الدفاع . موسى بن أبي الغسان فارس غرناطة . يثير حماسة الشعب . يقود الفرسان ويزعج النصارى . تنظيم الدفاع داخل المدينة . اشتداد الحصار وانقطاع الأمداد . تقرير حاكم المدينة . تصميم موسى على الدفاع . فرناندو يزحف على المدينة . خروج المسلمين لقتاله. هزيمة المسلمين وارتدادهم . أهوال الحصار . اجتماع السلطان والقادة . تقرير التسليم . اعتراض موسى . ندب الوزير أبي القاسم عبدالملك للمفاضة . رواية عن التسليم . وثيقة تؤيد هذه الرواية . موقف أبي عبدالله والقادة . مفاوضات التسليم . شروط التسليم وضماناته . معاهدة سرية بضمان حقوق أبي عبد الله وتقرير مصيره . حلف الملكين باحترام الشروط . توقيع وثيقة التسليم . ارتياب موسى ونذيره . إذعان أبي عبد الله والجماعة . أقوال موسى ونبوءته . مغادرته لغرناطة . مصيره الغامض . الحزن واليأس في غرناطة . التعجيل بإجراءات التسليم . إرسال الرهائن إلى فرناندو . دخول القشتاليين غرناطة . يرفعون الصليب فوق الحمراء . رواية عربية معاصرة عن دخول فرناندو غرناطة . أهبة أبي عبد الله لمغادرة عاصمة ملكه . المناظر المؤسية والركب الباكي . قصيدة شوقي في وصفها . اللقاء بين أبي عبد الله وفرناندو . « زفرة العربي الأخيرة » . رثاء الأندلس .

لم يبق على ملكي قشتالة وأراجون ، فرناندو وإيسابيلا ، بعد أن دانت لهما سائر الثغور والقواعد الأندلسية الجنوبية والشرقية ، لإتمام خطتهما في القضاء على دولة الإسلام بالأندلس ، سوى الاستيلاء على غرناطة آخر القواعد الباقية بيد المسلمين ؛ ولم تكن غرناطة يومئذ مملكة أو دولة ، بل كانت رمزاً فقط للمملكة الإسلامية الذاهبة ، وكانت واسطة عقد تصرمت سائر حباته ، وكانت كالمصباح المرتجف يخبو ضوؤه سراعاً ، فلم يكن يقتضي إطفاؤه سوى الضربة الأخيرة .

وقد رأى فرناندو وإيسابيلا أن الوقت قد حان لتسديد هذه الضربة ؛ عقب استسلام مولاي الزغل وسقوط وادي آش وبسطة والمرية . ونحن نعرف أنه على أثر سقوط مدينة لَوْشة في يد النصارى في شهر مايو سنة ١٤٨٦ ، وحصول

أبي عبد الله فى أيدى الملكين الكاثوليكيين للمرة الثانية ، عقد أبو عبد الله معهما معاهدة صلح جديدة لمدة عامين ، تطبق فى غرناطة والبلاد التى تدخل فى طاعة أبي عبد الله . وفى ظل هذا الصلح المسموم دخل أبوعبد الله غرناطة ، واسترد العرش ومن وراثه تأييد فرناندو وعونه . ومن الواضح أن فرناندو قد اقتضى فى نصوص هذا الصلح ، ثمن هذا التأييد والعون . والظاهر أن هذا الصلح قد تجدد لمدة عامين آخرين ، حسبما تدل على ذلك وثيقة صادرة عن أبى عبد الله نفسه فى المحرم سنة ٨٩٥ هـ (ديسمبر سنة ١٤٨٩) ، وهى عبارة عن خطاب موجه منه إلى قادة وأشياخ بلدة أجيجر ، وفيه ينوه أبو عبد الله بهذا « الصلح السعيد » المعقود لعامين ، ويدعو إلى الدخول فيه ، وينعى على معارضيه مواقفهم ، التى انتهت بسقوط بسطة « والتى أفجعت المسلمين وقلت غرب الدين »[1] .

وبالرغم من أننا لا نعرف نصوص هذا الصلح مفصلة ، فإن بعض الروايات القشتالية تذكر لنا أن أبا عبد الله ، قد تعهد فى هذا الصلح ، بأن يسلم مدينة غرناطة للملكين الكاثوليكيين ، متى تم تسليم بسطة والمرية ووادى آش[2] . وعلى أى حال فى فاتحة سنة ١٤٩٠م (أوائل صفر ٨٩٥هـ) أرسل الملكان الكاثوليكيان إلى السلطان أبى عبد الله ، سفارة على يد فارسين ، هما كونثالو فرنانديث قائد حصن إليورة ، ومرتين ألاركون قائد حصن موكلين ، ليخاطباه فى موضوع التسليم[3] . وتقول الرواية الإسلامية المعاصرة ، إن ملك قشتالة لم يطلب تسليم غرناطة ذاتها ، ولكنه اكتفى بأن طلب إلى أبى عبد الله تسليم مدينة الحمراء أو قصور الحمراء مقر الملك والحكم ، وأن يبقى مقيما فى غرناطة ، فى طاعته وتحت حمايته ، أسوة بما فعلته سائر نواحى الأندلس[4] ، أو أن يقطعه أية مدينة أخرى من مدن الأندلس يختار الإقامة فيها ، وأن يعدة بمال جزيل[5] .

---

(١) نشر هذه الوثيقة الأستاذ جسبار ريميرو فى كتابه التى سبقت الإشارة إليه **Documentos Arabes de la Corte Nazari de Granada** وقد استخرجها مع وثائق أخرى صادرة عن أبى عبد الله من مجموعة فرناندو دى ثافرا سكرتير الملكين الكاثوليكيين .

(٢) **Prescott : Ferdinand and Isabella, p. 284**

(٣) راجع رواية **Hernando de Baeza** القشتالية المنشورة بعناية المستشرق ميلر ضمن أخبار العصر (ص ٩٢) .

(٤) أخبار العصر ص ٣٣ .

(٥) نفح الطيب ج ٢ ص ٦١٤ .

فماذا كان جواب أبى عبد الله ؟ لقد كان فى سابق مواقفه ، وممالأته لملك قشتالة ، ومحالفته إياه ودخوله فى طاعته، وما يدين له به من تغلبه على عمه ومنافسه الزغل ، وجلوسه على العرش ، ما يحمل الملكين الكاثوليكيين ، على توقع استسلامه وخضوعه . ولكن حدث عكس ما توقعه الملكان . ولدينا وثيقة توضح لنا موقف أبى عبد الله فى هذه المناسبة ، هى عبارة عن خطاب صادر منه إلى الملكين الكاثوليكيين ، يشير فيه إلى قدوم « القائد غنضال والقائد مرتين » بكتبهما إليه، وأنه يرسل إليهما خديمه، القائد أبا القاسم المليح، ليحدثهما فى هذا الموضوع . وبالرغم من اللهجة المهذبة ، المقرونة بعبارات الخضوع والطاعة ، التى اختتمت بها الرسالة ، فقد كان جواب أبى عبد الله للملكين الكاثوليكيين ، رفضا لما طلباه . وتاريخ هذه الرسالة هو ٢٩ صفر سنة ٨٩٥ هـ (٢٢ يناير سنة ١٤٩٠)[١] . والظاهر أن رسول أبى عبد الله لم ينجح فى مهمته ، وعاد إلى مليكه يخبره بإصرار الملكين الكاثوليكيين على طلبهما . وهنا تقول الرواية القشتالية ، إن أبا عبد الله اشتدت دهشته ، لإصرار الملكين الكاثوليكيين ، واعتزم أن يشهر عليهما الحرب، لولا أن نصحه بعض الأكابر بالروية والتريث . وعلى ذلك فقد أرسل أبو عبدالله وزيره يوسف بن كُماشه ، ومعه تاجر كبير من سراة غرناطة ، له علائق طيبة مع النصارى ، يدعى ابراهيم القيسى ، إلى الملكين الكاثوليكيين فى إشبيلية ، لإقناعهما بالعدول عن مطلبهما ، ولكنهما عادا خائبين . وعلى ذلك فقد استؤنفت الحرب بين المسلمين والنصارى[٢] .

وهنا نقف قليلا لنتأمل هذا الموقف الجديد ، من جانب أبى عبد الله . أجل كانت الخطوب والمحن التى جازتها الأندلس فى هذه الأعوام المليئة بالحوادث ، قد جعلت من أبى عبد الله رجلا آخر ، وكان هذا الأمير الضعيف يرقب سير الحوادث جزعاً ، ويستشف من ورائها القدر المحتوم ، وكان قد تخلص بانسحاب عمه من الميدان من منافسه القوى ، ولكنه فقد فى الوقت نفسه أقوى عضد يمكن الاعتماد عليه فى الدفاع والمقاومة ؛ وكانت سائر قواعد الأندلس الأخرى قد غدت نهائياً من أملاك مملكة قشتالة ، وعين لها حكام من النصارى ، وتدجن من بقى من أهلها أو غدوا مدجنين **Mudéjares** يدينون بطاعة ملك النصارى .

---

(١) نشرت هذه الرسالة ضمن المجموعة التى نشرها الأستاذ جسبار ريمير و فى كتابه السالف الذكر .

(٢) راجع رواية **Hernando de Baeza** المنشورة فى أخبار العصر (ص ٩٣) .

وذاعت بها الدعوة النصرانية ، وارتد كثير من المسلمين حرصاً على أوطانهم ومصالحهم أو اتقاء الريب والمطاردة ، ولكن كثيراً منهم ممن أشفقوا على أنفسهم ودينهم ، جازوا البحر إلى المغرب ، وهرعت جموع غفيرة أخرى منهم إلى غرناطة معقل الإسلام الوحيد الباقى ، حتى غدت الحاضرة تموج بسكانها الجدد ، وحتى أصبحت تضم بين أسوارها وأرباضها أكثر من أربعمائة ألف نفس . وكانت موجة عامة من اليأس والنقمة تغمر هذه الألوف ، التى أوذيت فى الأوطان والأنفس والولد والمال ، دون أن تجنى ذنباً أو جريرة ، وكانت فكرة التسليم للعدو الباغى أو مهادنته ، تلقى استنكاراً عاماً . ولم يكن أبوعبد الله يجهل هذا الاتجاه العام ، فلما وفد إليه سفيرا ملكى قشتالة فى طلب التسليم ، ثارت نفسه لهذا الغدر والتجنى ، وأدرك وربما لأول مرة ، فداحة الخطأ الذى ارتكبه فى محالفة هذا الملك الغادر ، ومعاونته على بنى وطنه ودينه ؛ ولما أصر فرناندو على تجنيه جمع أبو عبد الله الكبراء والقادة فأجمعوا على رفض ما طلبه الملكان النصرانيان، وأعلنوا عزمهم الراسخ على الدفاع حتى الموت عن وطنهم ودينهم[1] ، وأبلغ أبوعبد الله ملك قشتالة بأنه لم يعد له القول والفصل فى هذا الأمر ، وأن الشعب الغرناطى يأبى كل تسليم أومهادنة ، ويصمم على المقاومة والدفاع[2] .

هكذا كان جواب أبى عبد الله لملكى قشتالة ، وهكذا حمل الأمير الضعيف بعزم شعبه ، من الاستكانة والمهادنة إلى التحدى والمقاومة . وهنا يبدو لنا أبوعبد الله شخصية أخرى تنزع عنها صفات الخور والاستسلام والخضوع الذى يدنو إلى الخيانة ، لتتشح بثوب من العزة والكرامة ، والحمية الدينية والوطنية . أجل دوت غرناطة بصيحة الحرب والجهاد ، وخرجت سريات من الجند المسلمين ، لتعيث فى الأراضى النصرانية القريبة . وفى ربيع سنة ١٤٩٠ (٨٩٥ هـ) خرج ملك قشتالة فى قواته وهو يضطرم سخطاً ، وزحف على بسائط غرناطة فعاث فيها ، وانتسف الزروع واستاق الماشية ، وخرب الضياع والقرى ، ووصل فى عيثه وتخريبه حتى أسوار الحاضرة ذاتها ، وبرز المسلمون لقتاله وعلى رأسهم أميرهم أبوعبد الله ، ووقعت بين الفريقين فى ظاهر غرناطة ، عدة ملاحم دموية ارتحل النصارى على أثرها ، ولم يستطيعوا الدنو من المدينة (رجب ٨٩٥ هـ — يوليه ١٤٩٠ م) .

---

(١) أخبار العصر ص ٣٤ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٦١٤ .

(٢) Prescott : ibid ; p. 290



صورة خطاب مرسل من السلطان أبى عبد الله محمد إلى قائد وأشياخ بلدة أجيجر يدعوهم فيه إلى طاعته والدخول فى الصلح الذى عقده مع الملك فرناندو الكاثوليكى ، مؤرخ فى المحرم سنة ٨٩٥ هـ (ديسمبر ١٤٨٩ م) ، ومحفوظة بمحفوظات بلدية غرناطة .

وعمد فرناندو حين العودة إلى تحصين بعض الحصون القريبة من غرناطة ، مثل برج الملاحة وبرج رومة وغيرهما ، وشحنها بالرجال والعدد استعداداً للمعارك القادمة .

وعلى أثر ارتحال القشتاليين ، خرج أبو عبد الله فى قواته يحاول استرداد بعض الحصون والمراكز القريبة ، فاستولى على قرية البذول عنوة ، ثم استولى على غيرها من القرى ، ودبت فى المسلمين فى تلك الأنحاء روح جديدة ، وثار أهل البشرّات (البشرّة) وما حولها على حكامهم النصارى ، وثار أهل وادى آش فى الوقت نفسه واضطرموا لما رأوه من وثبة أبى عبد الله وعزمه بنزعة جديدة إلى المقاومة ، وبعثوا إليه يطلبون عونه . وسار أبو عبد الله فى قواته يريد حصن أندَرَش[1] لما علمه من ثورة المسلمين هنالك ، وكان عمه الأمير محمد بن سعد (الزغل) لايزال به ، فلما سمع بمقدمه خرج مع صحبه إلى المرية ، وبقى بها إلى أن جاز البحر إلى المغرب قدماً، واستولى أبو عبد الله على أندرش وغيرها من المحلات والحصون القريبة منها[2] ، ورتب بها حاميات من المسلمين للدفاع عنها (شعبان ٨٩٥ هـ) .

واستمرت هذه المعارك المحلية مدى حين سجالا بين المسلمين والنصارى ، فاسترد النصارى حصن أندرش لأسابيع قليلة من فقده ، وغادره الفرسان المسلمون إذ كانوا قلة لم تستطع للعدو دفعاً . وفى شهر رمضان سنة ٨٩٥هـ (أغسطس ١٤٩٠) خرج أبو عبد الله فى قواته إلى قرية همدان القريبة[3] ، فافتتحها واخترق المسلمون أبراجها الكثيفة ، وكانوا يخشون أن تمتنع عليهم لحصانتها ، واغتنموا منها مقادير وفيرة من الذخائر والأطعمة ، وأسروا من حاميتها نحو مائتين ، وعاد المسلمون إلى غرناطة فرحين ظافرين ، وغمرت الحاضرة المسلمة موجة من البشر والتفاؤل وفى أواخر رمضان خرج أبو عبد الله فى قواته يريد افتتاح ثغر المنكّب ، وإعادة الصلة بين الأندلس وشواطىء المغرب ، وهى صلة يعلق عليها المسلمون أهمية خاصة ، ويعتبرونها من أبواب الغوث والإنقاذ ، واستولى أبو عبد الله فى طريقه على حصن شلوبانية[4] الواقع شرقى المنكب بعد قتال عنيف ؛ وعلم النصارى بمحاولة

---

(١) تقع أندرش Andarax جنوب شرقى غرناطة على مقربة من البحر الأبيض المتوسط .

(٢) أخبار العصر ص ٣٦ و ٣٧ .

(٣) تقع قرية همدان Alhendin ، جنوب غربى غرناطة على قيد بضعة كيلومترات منها . وتراجع مواقع هذه الأماكن جميعا فى خريطة مملكة غرناطة المفصلة التى أثبتت فى أول الكتاب .

(٤) وبالإسبانية Salobrena ، وقد سبق التعريف بها .

أبى عبد الله ، فهرعت حاميات بلّش ومالقة إلى المنكب لإنجادها . ورأى أبوعبدالله أنه لايستطيع مهاجمتها ، وترامت إليه الأنباء بأن ملك قشتالة قد عاد بجنده إلى مرج غرناطة يعيث فيه فساداً وتخريباً ، فارتد أدراجه . وكان فرناندو قد هاله ما حدث من الاضطراب والتصدع فى المناطق المفتوحة ، فاعتزم السير من قرطبة بجيشه إلى تلك الأنحاء . والواقع أن بوادر الانتقاض والثورة كانت قد اشتدت فى وادى آش وما حولها من الضياع والقرى ، وأخذ ظفر المسلمين فى تلك المعارك المحلية يذكى عزم الثوار ويشجعهم ؛ وخشى النصارى عواقب هذه الحركة ، فضاعفوا قوى الحاميات فى تلك الأنحاء ، واحتالوا على أهل وادى آش فأخرجوا معظمهم من المدينة إلى السهول المجاورة[1] . واستجاب أبو عبد الله إلى نداء أهل وادى آش وعاونهم بالرجال والدواب على نقل أمتعتهم وأموالهم ، وعلى الرحيل بالأهل والولد إلى غرناطة ، ونقل من تلك القرى والضياع مقادير وافرة من الحبوب والأطعمة وغيرها . وما كادت جموع المسلمين ترتد راجعة إلى غرناطة ، حتى ظهر فرناندو بجيشه أمام وادى آش ، ورأى أن يأخذ الأمر باللين والرفق ، فأذاع الأمان لمن عاد إلى وطنه ، وأذن لمن شاء بالرحيل ، وغادر المسلمون وادى آش وأعمالها . وحدث مثل ذلك فى ألمرية وبسطة ، فترك المسلمون بيوتهم وأوطانهم حاملين ما استطاعوا من أمتعتهم وأموالهم ، وسارت منهم جموع غفيرة إلى غرناطة ، وجازت جموع أخرى البحر إلى المغرب ، وأقفرت تلك الأنحاء من معظم سكانها المسلمين ، وبعث إليها ملك قشتالة بجموع من النصارى لتعميرها ، وانتهز أبو عبد الله فرصة هذا الاضطراب ، فاستولى على حصن أندرَش للمرة الثانية ، واستولى على عدد آخر من الحصون الهامة[2] .

وهنا أيقن ملك قشتالة أنه لابد لاستتباب الأمور فى المناطق الإسلامية المفتوحة ، من الاستيلاء على غرناطة ، التى مازالت تثير بمثلها وصلابتها روح الثورة فى تلك الأوطان المغلوبة على أمرها ، فقضى الشتاء كله (سنة ١٤٩٠) فى الاستعداد والأهبة . وفى أوائل سنة ١٤٩١ خرج فرناندو فى قواته معتزماً أن يقاتل الحاضرة الإسلامية حتى ترغم على التسليم . ويقدر بعض المؤرخين هذا

---

(١) Lafuente Aicantara: ibid; V. III. p. 68

(٢) أخبار العصر ص ٣٨ – ٤٨ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٦١٤ . وراجع أيضاً : Prescott ibid; p. 290 & 291 ، ويوجد فرق يسير فى التفاصيل بين الروايتين الإسلامية والنصرانية .

الجيش الذى أعد لافتتاح غرناطة بخمسين ألف مقاتل من الفرسان والمشاة ، ويقدره البعض الآخر بثمانين ألفاً[1] ، وزود فرناندو جيشه بالمدافع والعدد الضخمة ، والذخائر والأقوات الوفيرة . وأشرف ملك قشتالة بجيشه على فحص غرناطة La Vega الواقع جنوب غربى الحاضرة الإسلامية ، فى اليوم الثالث والعشرين من ابريل سنة ١٤٩١ م (١٢ جمادى الثانية سنة ٨٩٦هـ) وعسكر على ضفاف نهر شَنِيل ، على قيد فرسخين من غرناطة ، فى ظاهر قرية تسمى «عتقة». وأرسل فى الحال بعض جنده إلى حقول البشرّات القريبة التى تمد غرناطة بالمؤن فأتلفوا زروعها ، وهدموا قراها ، وأمعنوا فى أهلها قتلا وأسراً ، وحولوا المرج الأخضر إلى بسيط من القفر الموحش ، وقطعوا بذلك عن غرناطة مورداً من أهم مواردها[2] .

وضرب فرناندو حول الحاضرة الإسلامية الحصار الصارم ، وصمم على متابعته حتى تفتح أو تستسلم ، وقرر تأكيداً لهذا العزم أن ينشىء لجيشه فى المكان الذى عسكر فيه ، مدينة مسورة تقيه برد الشتاء إذا ما حل ، وتم بناء هذه المدينة الجديدة فى ثلاثة أشهر ، وأسمتها الملكة إيسابيلا (سانتا فيه) Santa Fé وبالعربية (شنتفى) أو الإيمان المقدس ، وذلك تنويهاً بالمغزى الدينى لهذه الحرب الصليبية ، وما زالت هذه المدينة التاريخية تقوم حتى اليوم ، فى المكان الذى أنشئت فيه على قيد مسافة قريبة من جنوب غربى غرناطة . ويصفها المؤرخ الإسبانى بأنها « المدينة الإسبانية الوحيدة التى لم تطأها قط قدم مسلم »[3] .

— ٢ —

وهكذا بدأ الفصل الأخير فى الصراع بين النصرانية والإسلام فى اسبانيا ؛ ولم يك ثمة شك فى نتيجة هذا الصراع ، الذى أعدت له اسبانيا النصرانية عدتها الحاسمة ، ومهدت له جميع الوسائل والسبل . بلد إسلامى وحيد هو البقية الباقية من دولة عظيمة تالدة ، يحيط به العدو كالموج الزاخر من كل ناحية ، مزوداً بالعُدد والمؤن الموفورة ، وقد قطعت كل موارده وصلاته مع الخارج . كان هذا موقف غرناطة آخر الحواضر الإسلامية بالأندلس فى صيف سنة ١٤٩١م . على

---

(١) Prescott : ibid ; p. 291

(٢) أخبار العصر ص ٤٤ و Prescott : ibid ; p. 294

(٣) Prescott : ibid ; p. 295

أن غرناطة لم تكن مع ذلك غنما سهلا ، فقد كانت منيعة بموقعها وظروفها ، تحميها من الشرق آكام جبل شُلير (سيرّا نفادا) الشامخة ، وتحميها من الجنوب أعنى من الجانب المواجه للمعسكر النصرانى ، أسوار وأبراج فى منتهى الكثافة والمناعة . وكانت غرناطة تموج يومئذ بالوافدين إليها من مختلف القواعد الإسلامية الذاهبة ، وتضم بين أسوارها من السكان أكثر من أربعمائة ألف نفس ، ومع أن هذا العدد الضخم من الأنفس كان عبئاً ثقيلا على مواردها المحدودة ، فقد كان من بينهم على الأقل زهاء عشرين ألفاً من الصفوة المختارة من الفروسة الأندلسية ، التى ألفت ملاذها الأخير فى العاصمة المحصورة . ومن جهة أخرى فقد كانت الحاضرة الإسلامية منذ بعيد تلمح شبح الخطر الداهم يتربص بها دائماً ، وكانت تعيش فى أهبة دائمة لمواجهته ، وتجمع ما استطاعت من الأقوات والمؤن . فلما دهمها الحصار كانت على أهبة تامة لدفاع طويل الأمد .

كانت غرناطة تستشعر قدرها المحتوم ، ولكنها لم ترد أن تستسلم إلى هذا القدر القاهر ، قبل أن تستنفد فى اجتنابه كل وسيلة بشرية ، ومن ثم كان دفاعها من أمجد ما عُرف فى تاريخ المدن المحصورة والقواعد الذاهبة ، ولم يكن هذا الدفاع قاصراً على تحمل ويلات الحصار مدى أشهر ، بل كان يتعداه إلى ضروب رائعة من الإقدام والبسالة ، فقد خرج المسلمون خلال الحصار ، لقتال العدو المحاصر مراراً عديدة ، يهاجمونه ويثخنون فى محلاته ، ويفسدون عليه خططه وتدابيره . وتشير الرواية الإسلامية كما تشير الرواية النصرانية إلى هذه المعارك الأخيرة التى وقعت فى بسائط غرناطة بين المسلمين والنصارى[1] . وتنوه الرواية النصرانية بما كان يبديه الفرسان المسلمون من الشجاعة والإقدام والبراعة ، أولئك الأنجاد البواسل هم البقية الباقية من الفروسة الأندلسية ، التى لبثت قروناً زهرة الفروسية فى العصور الوسطى .

وكان روح الفروسة المسلمة فى تلك الآونة العصيبة فارس رفيع المنبت والخلال ، وافر العزم والبراعة ، هو موسى بن أبى الغسان[2] وهو سليل إحدى

---

(١) أخبار العصر ص ٤٥ ؛ وكذلك Irving : ibid; p. 393 & foll.

(٢) لم تشر فى المصادر العربية التى بين أيدينا على ذكر لموسى أو أعماله ؛ ومرجعنا فى ذلك هو المؤرخ الإسبانى كوندى (Condé : ibid; V. III. p. 254) ، ويقول كوندى إنه نقل روايته عن مصادر عربية ؛ ولكنه كعادته لم يذكر لنا هذه المصادر . وأشار الوزير محمد بن عبدالوهاب الغسانى فى رحلته إلى من يدعى « موسى أخى السلطان حسن المتغلب عليه بغرناطة » (رحلة الوزير —

الأسر العريقة التى تتصل ببيت الملك ، وأحد هذه الأصول العربية القديمة التى عرفت برائع فروسيتها ، وعميق بغضها للنصارى ، والتى كانت ترى الموت خيراً ألف مرة من أن يصبح الوطن العزيز مهاداً للكفر . ولم يكن بين أنجاد غرناطة يومئذ من هو أبرع من موسى فى الطعان والفروسية ، وكان مذ تبوأ أبوعبد الله محمد عرش غرناطة ، ينقم منه استكانته وخضوعه لملك النصارى ، ويعمل بكل ما وسع لإذكاء روح الحماسة والجهاد ، وتنظيم الفروسة الغرناطية وتدريبها ، وقيادة السرايا إلى أراضى العدو ، ومفاجأة حصونه وحامياته فى الأنحاء المجاورة . ولما بعث فرناندو الخامس إلى أبى عبد الله يطلب تسليم الحمراء ، كان موسى من أشد المعارضين فى إجابة هذا المطلب المهين ، وكان لعزمه وحماسته أكبر أثر فى تطور الموقف ، وحمل الأمير والشعب على اعتزام الجهاد ، والدفاع إلى آخر رمق ، وكان قوله المأثور يومئذ : « ليعلم ملك النصارى أن العربى قد ولد للجواد والرمح ، فإذا طمح إلى سيوفنا فليكسبها ، وليكسبها غالية . أما أنا فخير لى قبر تحت أنقاض غرناطة ، فى المكان الذى أموت مدافعاً عنه ، من أفخم قصور نغنمها بالخضوع لأعداء الدين » .

وهكذا دوت غرناطة بصيحة الحرب . ولما أشرف ملك قشتالة بجموعه على مرج غرناطة ، كان موسى معبود الجند والشعب ، وكان زعيم الفروسة المسلمة يقودها كلما سنحت الفرصة إلى الحصون والقلاع النصرانية المجاورة فتثخن فيها ، وكانت عوداته الظافرة تثير فى الشعب أيما حماسة ، وكان فرناندو يرسل جنده لإتلاف المزارع والحقول المجاورة ، فكان موسى ينظم السرايا لإزعاج قواته ، وقطع مواصلاته وانتزاع مؤنه ، ولكن جيوش النصارى ما لبثت أن ملأت فحص شنيل (La Vega) وطوقت غرناطة ، وشددت فى حصارها ، واضطر المسلمون إلى الامتناع بمدينتهم صابرين جلدين . وقسم الدفاع عن المدينة بين

— المنشورة بعناية معهد فرانكو ص ١٣) . ولكن الرواية الإسلامية المعاصرة لاتذكر لنا أن السلطان أبا الحسن كان له أخ يسمى بهذا الاسم . وعلى أى حال فإن قصة موسى تشغل حيزاً كبيراً فى الروايات الإسبانية التى كتبت عن فتح غرناطة . ومن أشهرها رواية القس أنطونيو أجابيدا **Antonio Agapida** ، المخطوطة المحفوظة بمكتبة الإسكوريال ، وهى التى اتخذها واشنطون إيرفنج أساسا لكتابه **Conquest of Granada** . وقد وردت خلال هذه الرواية كثير من الأقوال والروايات المشجية المتعلقة بحوادث سقوط غرناطة . ونحن ننقل هنا أقوال الرواية القشتالية عن موسى وفروسيته لا على أنها محققة من الناحية التاريخية ، ولكن لأنها تقدم لنا صوراً رائعة لدفاع المسلمين عن دينهم ووطنهم وآخر قواعدهم .

زعماء الجيش والأسر ، فتولى موسى قيادة الفرسان يعاونه نعيم بن رضوان ومحمد ابن زائدة . وتولى آل الثغرى حراسة الأسوار ، وتولى زعماء القصبة والحمراء حماية الحصون . ولم تكن المعارك الحربية التى كان يخوضها المسلمون خارج الأسوار من آن لآخر ، سوى عنوان أخير لفروسيتهم وبسالتهم ولكنها لم تكن لتغنى شيئاً ، أمام ضغط العدو وتفوقه وتصميمه .

ذلك أن ملك قشتالة لم يترك وسيلة لإحكام الحصار وإرهاق المدينة المحصورة ، وإرغامها على التسليم ؛ فقطع جميع علائقها مع الخارج سواء من البر أو البحر ، ورابطت السفن الإسبانية فى مضيق جبل طارق ، وعلى مقربة من الثغور الجنوبية ، لتحول دون وصول أية أمداد من إفريقية . والواقع أنه لم يكن ثمة أمام الغرناطيين أى أمل فى الغوث والإنقاذ من هذه الناحية . ذلك أن معظم ثغور المغرب الشمالية والغربية ، ومنها سبتة وطنجة ، كانت قد سقطت فى أيدى البرتغاليين ، وكانت دولة بنى وطاس التى قامت يومئذ فى المغرب الأقصى ما تزال ضعيفة فى بدايتها ، وكانت أبعد عن التفكير فى القيام بأى عمل حربى خطير ضد النصارى . هذا إلى أن إمارات المغرب الواقعة فى الضفة الأخرى ، كانت كلها فى حالة ضعف وتفكك وكانت تخشى بأس قوة اسبانيا البحرية وتسعى إلى كسب صداقتها وحمايتها . وعلى ذلك فقد كان حصار غرناطة محكماً من البر والبحر ، ولم يبق أمامها سوى طريق البشرات الجنوبية من ناحية جبل شُلير (سيرا نفادا) تجلب منها بعض الأقوات والمؤن بصعوبة[1] . ولبثت المدينة المحصورة تعانى مصائب الحصار صابرة جلدة ، حتى دخل الشتاء ، وغصت هذه الوهاد والشعب بالثلوج ، واشتد الجوع والبلاء بالمحصورين . عندئذ تقدم حاكم المدينة أبو القاسم عبد الملك ذات يوم إلى مجلس الحكم ، وقرر أن المؤن الباقية لا تكفى إلا لأمد قصير ، وأن اليأس قد دب إلى قلوب الجند والعامة ، وأن الاستمرار فى الدفاع عبث لا يجدى[2] . ولكن موسى ابن أبى الغسان اعترض كعادته بشدة ، وقرر أن الدفاع ممكن وواجب ، وبث بادرة جديدة من الحماسة فى الرؤساء والقادة . فاستسلم السلطان أبو عبد الله محمد الى تلك الروح ، وسلم إلى القادة أمر الدفاع ، وتولى موسى كعادته قيادة الفرسان ؛ وكان فى مقدمة مساعديه فارسان من أنجاد العصر هما نعيم بن رضوان ومحمد بن زائدة .

---

(١) أخبار العصر ص ٤٦ .

(٢) Lafuente Alcantara : ibid ; V. III. p. 67

ثم أمر بفتح الأبواب ، وأعد فرسانه أمامها ليل نهار ، فاذا اقتربت سَرية من النصارى دهمها الفرسان المسلمون ، وأثخنوا فيها ، ومزقت على هذا النحو صفوف من النصارى . وكان موسى يقول لفرسانه « لم يبق لنا سوى الأرض التى نقف عليها فإذا فقدناها فقدنا الإسم والوطن » .

وأخيراً رأى ملك قشتالة أن يزحف بقواته على أسوار المدينة ، فخرج المسلمون إلى لقائه وعلى رأسهم أبو عبد الله وموسى ، ونشبت بين الفريقين فى فحص غرناطة عدة معارك دموية ، وكان الفرسان المسلمون وعلى رأسهم موسى روح المعركة وقوامها ، وكان أبو عبد الله يقود الحرس الملكى ، وكان القتال رائعاً خضب فيه كل شبر من الأرض بدماء الفريقين ، ولكن المشاة المسلمين كانوا ضعافا لا يعتمد عليهم فمزقوا بسرعة ، وتبعهم فرسان الحرس الملكى إلى أبواب المدينة وعلى رأسهم أبو عبد الله ، وعبثاً حاول موسى أن يجمع شمل الجند ، وأن يدعوهم للذود عن أوطانهم ونسائهم وكل ما هو مقدس لديهم ، وألفى نفسه وحيداً فى الميدان مع فرسانه المخلصين ، وقد تضاءل عددهم وأثخن الباقون منهم جراحاً ؛ فاضطر عندئذ أن يرتد إلى المدينة وهو يرتجف غضباً ويأساً .

وهنا أوصد المسلمون أبواب المدينة وامتنعوا بأسوارها جزعين مكتئبين ، يرون شبح النهاية المحتومة ماثلا ، فلم تبق سوى أيام أو أسابيع قلائل ، حتى يصبح سقوط الوطن العزيز فى يد العدو أمراً واقعاً ، وحتى تصبح أنفسهم وأموالهم وحرياتهم ودينهم رهناً فى يد القدر . وكان قد مضى على حصار غرناطة منذ بدأ الربيع حتى دخول الشتاء زهاء سبعة أشهر ، والمسلمون يغالبون أهوال الحصار ، وتتفاقم محنتهم شيئاً فشيئاً . فلما جاءت خاتمة المعارك مبددة لكل أمل فى الإنقاذ ، واشتد فتك الجوع والحرمان والمرض ، ودب اليأس إلى قلوب الناس جميعاً ، لم يبق مناص من إعادة النظر فى الموقف. فدعا أبو عبد الله مجلساً من كبار الجند والفقهاء والأعيان ، فاجتمعوا فى بهو الحمراء الكبير (بهو قمارش) ، واليأس باد فى وجوههم ، وشرح لهم أبو القاسم عبد الملك كيف وصل الخطب إلى ذروته ، فهلكت أنجاد الفرسان ، وخبت قوى الدفاع ، ونضبت الأقوات والمؤن ، واشتد البلاء بالناس ، وغاض كل أمل فى تلقى الأمداد من عدوة المغرب . وصرح «الجماعة» بأن الشعب لا يقوى بعد على تحمل ويلات الدفاع ، وأنه لم يبق سوى التسليم أو الموت

واتفق الجميع على وجوب التسليم[1] . ولم يرتفع بالاعتراض سوى صوت واحد هو صوت موسى بن أبي الغسان ، فقد حاول كعادته أن يبث بكلماته الملتهبة قبساً أخيراً من الحماسة ؛ وكان مما قال : « لم تنضب كل مواردنا بعد ، فما زال لنا مورد هائل للقوة كثيراً ما أدى المعجزات : ذلك هو يأسنا ، فلنعمل على إثارة الشعب ، ولنضع السلاح في يده ، ولنقاتل العدو حتى آخر نسمة ، وإنه لخير لي أن أحصى بين الذين ماتوا دفاعاً عن غرناطة ، من أن أحصى بين الذين شهدوا تسليمها » .

على أن كلماته لم تؤثر في هذه المرة ، فقد كان يخاطب رجالا نضب الأمل في قلوبهم ، وغاضت كل حماسة ، ووصلوا إلى حالة من اليأس لا تنجع فيها البطولة ، ولا يحسب للأبطال حساب ، بل يعلو نصح الشيوخ ويغلب . وهكذا حدث فإن السلطان أبا عبد الله فوض الأمر للجماعة ، واتفق الجماعة من خاصة وعامة على مفاوضة ملك قشتالة في التسليم ، واختير الوزير القائد أبو القاسم عبدالملك للقيام بتلك المهمة ؛ وكان ذلك في أكتوبر سنة ١٤٩١ (أواخر سنة ٨٩٦ هـ) .

وهنا يسدل الستار على تلك المناظر الرائعة المؤثرة ، التي تقدمها الرواية لنا عن بسالة المسلمين في الدفاع عن مدينتهم ، وعلى ذلك الموقف الباهر الذي اتخذه أبو عبد الله مدى حين ، واتشح فيه بثوب البطل المدافع عن ملكه وأمته ودينه ، وتبرز لنا طائفة من الحقائق المؤلمة التي تصم أولئك الزعماء والقادة ، الذين جنحوا في النهاية إلى المساومة بحقوق أمتهم ، واستغلالها لمآربهم الخاصة .

يقول لنا صاحب أخبار العصر ، إن كثيراً من الناس زعموا أن أمير غرناطة ووزيره وقواده كان قد تقدم الكلام بينهم وبين ملك قشتالة سراً في تسليم غرناطة ، ولم يجرأوا على المجاهرة بعزمهم خشية انتقاض الشعب ، وأنهم لبثوا حينا يلاطفون الشعب ويملقونه ، حتى ألفوا السبيل ممهداً للعمل برضاء الشعب وموافقته ، ويستشهد أصحاب هذه الرواية بما حدث من انقطاع المعارك بين المسلمين والنصارى حيناً قبل بدء المفاوضة في التسليم . وتزيد الرواية على ذلك بأن القواد المسلمين الذين اضطلعوا بهذه المفاوضة تلقوا تحفاً وأموالا جزيلة من ملك قشتالة[2] .

وقد كنا نميل في البداية إلى الارتياب في صحة هذه الرواية ونأبى أن نعتقد

---

(١) أخبار العصر ص ٤٨ و٤٩ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٦١٥ .

(٢) أخبار العصر ص ٤٨ ، و٤٩ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٦١٥ .

فى صحة هذه الوقائع المشينة المنسوبة إلى زعماء غرناطة ، وهم الذين تشيد الرواية النصرانية ذاتها بحماستهم وشجاعتهم وبسالتهم ، فى الذود عن وطنهم ومدينتهم . بيد أننا وقفنا بعد ذلك على ما يؤيد صحة الرواية الإسلامية ودقتها فيما تشير إليه من حقائق مؤلمة . ذلك أنه فى نفس الوقت الذى اتجه فيه رأى الجماعة إلى المفاوضة فى التسليم ، كانت تبذل فى الخفاء مساع أخرى لتحقيق ما يمكن تحقيقه من الضمانات والمغانم الخاصة لأبى عبد الله وأفراد أسرته ووزرائه ، وكان الملكان الكاثوليكيان يرميان إلى استخلاص غرناطة بأى ثمن غير الحرب ، ولايدخران وسعاً فى بذل أية تضحية أومنحة لإغراء الزعماء والقادة لتذليل هذه المهمة . وهكذا كللت هذه المساعى الخفية بالنجاح ، وفى نفس الوقت الذى عقدت فيه معاهدة التسليم ، عقدت معاهدة سرية أخرى يمنح فيها أبو عبد الله وأفراد أسرته ووزراؤه منحاً خاصة بين ضياع وأموال نقدية وحقوق مالية وغيرها . وقد أبقيت هذه المعاهدة فى طى الكتمان ، ولم يقف عليها سوى نفر من الخاصة . وهذا هو ما يشير إليه صاحب أخبار العصر .

وهنالك فوق ذلك ما يدل على أن أبا عبد الله وكثيراً من الوزراء والقادة ، قد حاولوا مذ تجهمت الحوادث ، وبدأ حصار غرناطة ، التصرف فى أملاكهم ، وباع أبو عبد الله عن يد وكيله القائد أبى القاسم بن سودة حديقته المعروفة بجنة عصام ، خارج غرناطة ، وذلك فى جمادى الأولى سنة ٨٩٦ هـ (أوائل أبريل ١٤٩١ م) . وباع بعض وزراء وفرسان آخرين أملاكهم فى نفس هذه المنطقة ، وفى نفس هذا التاريخ ، وباع الوزير عبد الله بن أبى الفرج قرية يملكها فى ضاحية المدينة ، فى أواخر المحرم سنة ٨٩٧ هـ (أواخر نوفمبر ١٤٩١ م)[١] .

على أنه يبدو من التعسف والمبالغة مع تقرير هذه الحقائق المؤلمة ، أن نلجأ إلى اتهام أبى عبد الله ووزرائه بالخيانة المقصودة ؛ ففى غمار المحنة الطاحنة التى كان يعانيها الشعب والقادة ، وإزاء الظروف القاهرة التى لم يكن من حكمها محيص ، وفى اللحظة التى انقطع فيها كل أمل فى الغوث والإنقاذ ، لم يك ثمة سبيل سوى الموت أو مفاوضة العدو الظافر . وقد اختار زعماء غرناطة هذا السبيل الأخير ، ولو أنهم

---

(١) راجع كتاب « وثائق عربية غرناطية » التى سبقت الإشارة إليه ، الوثيقة رقم ٦٥ (ص ١١١) ، والوثيقة رقم ٧٣ (ص ١٢١) . والوثائق رقم ٧٤ و٧٥ و٧٦ ، و٧٧ (ص ١٢٢ — ١٢٥) .

اختاروا الموت تحت أنقاض مدينتهم دفاعاً عنها لأحرزوا لذكراهم الخلود وإعجاب التاريخ ، ولكن يبدو أنه لم يكن ثمة من موقف الشعب الغرناطى ويأسه وتبرمه بما أصابه من ويلات الحصار ، ما يشجع على المضى فى دفاع لا يجدى .

وتلقى الرواية القشتالية ذاتها ضوءاً على الظروف التى حملت أبا عبد الله ووزراءه على السعى إلى مفاوضة ملك قشتالة ، فيقول لنا مارمول الذى كتب روايته بعد ذلك بنحو سبعين عاماً ما يأتى :

« ولما رأى الزغيبى (أبو عبد الله) أن مدينة غرناطة لا تستطيع دفاعاً ، ولا تأمل الغوث والإمداد ، ونزولا على رغبة السواد الأعظم من الشعب ، الذى لم يعد يصبر على هذا الأمر الفادح ، أرسل يطلب الهدنة من الملكين الكاثوليكيين لكى يستطيع خلالها أن يتفاهم على شروط الصلح التى يمكن التسليم بمقتضاها »[1] .

ويقول لافونتى ألقنطرة : «واشتدت وطأة الجوع على المحصورين ، وأصبحت الجماهير الصاخبة تجوب أنحاء المدينة تنذر الأغنياء بالويل ، وتبعث الرجفة إلى أبى عبد الله وأعوانه . وإزاء هذا التهديد دعا الأمير مجلسا من الزعماء والقادة ، وطلب إليهم البحث فيما يمكن عمله لتجنب الأخطار التى تهدد المدينة فى الداخل والخارج . وقال الشيوخ والفقهاء إنه لم يبق سبيل سوى التسليم أو الموت ، وأشار أهل الرأى بأن يقوم أبو القاسم بإذن من أبى عبد الله بمفاوضة النصارى »[2] .

والخلاصة أنه لا مجال هنا للتحدث عن الخيانة فى وصف ذلك الموقف المريب الذى وقفه أبو عبد الله ووزراؤه ، وحاولوا أن يحققوا لأنفسهم فيه مغانم خاصة ؛ ولكنا نستطيع أن نتحدث عن الأثرة والخور والضعف الإنسانى ، والتعلق بأسباب السلامة ، وانتهاز الفرص .

— ٣ —

سار القائد أبو القاسم عبد الملك ، مندوب أبى عبد الله إلى معسكر الملكين الكاثوليكيين ليؤدى مهمته الأليمة . وقد اضطلع هذا القائد ، فضلا عن المفاوضة فى تسليم غرناطة ، بالمفاوضة فى سائر الاتفاقات اللاحقة التى عقدت بين أبى عبد الله ، وبين ملكى قشتالة ، ونرى اسمه مذكوراً فى معظم الوثائق القشتالية الغرناطية التى أبرمت فى هذه الفترة ، باعتباره دائماً مندوب أبى عبد الله المفوض.

---

(١) Luis del Marmol: ibid ; Lib. I., Cap. XIX

(٢) Lafuente Alcantara: ibid ; V. III, p. 97

ولم نعثر على تفاصيل تختص بشخصية هذا الوزير أونشأته ، ولكن الذى يبدو لنا من مواقفه وتصرفاته أنه كان سياسياً عملياً يؤمن إيماناً قوياً بسياسة التسليم والخضوع للنصارى ، وانتهازيا يرى انتهاز الفرص بأى الأثمان(١) . واستقبل فرناندو مندوب ملك غرناطة بحفاوة . وندب لمفاوضته أمينه فرناندو دى ثافرا ، وقائده جونزالفو دى كُردبا ، وكان خبيراً بالشئون الإسلامية ، عارفاً باللغة العربية ، وجرت المفاوضات بين الفريقين بمنتهى التكتم ، أحياناً فى غرناطة وأحياناً فى قرية جرليانة(٢) القريبة الواقعة جنوب شرقى سانتافيه . ويبدو من الخطابات التى تبودلت بين أبى عبدالله وبين الملكين الكاثوليكيين فى تلك الفترة الدقيقة من حياة الأمة الأندلسية ، أن حديث المفاوضة قد بدأ بين الفريقين فى أوائل سبتمبر سنة ١٤٩١ ، وأن القائد أبا القاسم بن عبد الملك كان يعاونه فى المفاوضة الوزير يوسف بن كُماشه ، وقد كان مثله من خاصة أبى عبد الله ومن أنصار سياسة التسليم ، وأن أبا عبد الله طلب فى خطاب أرسله إلى الملكين الكاثوليكيين أن تكون المفاوضات سرية حتى تتحقق غايتها المرجوة ، وذلك خشية من انتقاض الشعب الغرناطى ونزعاته ؛ هذا إلى أن الوزيرين الغرناطيين كتبا إلى الملكين الكاثوليكيين خطاباً يؤكدان فيه إخلاصهما وولاءهما ، واستعدادهما لخدمتهما حتى تتحقق رغباتهما كاملة ، وفى ذلك كله ما يلقى ضوءاً واضحاً على الموقف المريب الذى وقفه أبو عبد الله ووزراؤه من مسألة التسليم(٣) .

واستمرت المفاوضات بضعة أسابيع ، وانتهى الفريقان إلى وضع معاهدة للتسليم وافق عليها الملكان ، ووقعت فى اليوم الخامس والعشرين من شهر نوفمبر سنة ١٤٩١ (٢١ محرم سنة ٨٩٧ هـ) .

وقد تضمنت هذه الوثيقة الشهيرة ، التى قررت مصير آخر القواعد الأندلسية ومصير الأمة الأندلسية ، شروطاً عديدة بلغت ستة وخمسين مادة . وقد لخصت

(١) يذكر اسم أبى القاسم عبد الملك فى الوثائق القشتالية محرفاً : أبو القاسم عبد المليح أوأبو القاسم المليخ ، وهو الأكثر شيوعاً : Bulcacin Bulcasem el Muléh . ومن الغريب أن هذا التحريف غلب فيما بعد على كتابة اسمه بالعربية ، فنراه يكتب فى بعض الوثائق أبوالقاسم المليخ .

(٢) هى اليوم قرية Churiana ، وهى من ضواحى غرناطة .

(٣) تحفظ الصور القشتالية لهذه الخطابات ضمن مجموعة فرناندو دى ثافرا ببلدية غرناطة ، وقد نشرها العلامة Garrido Atienza فى مجموعة الوثائق الخاصة بتسليم غرناطة المسماة :
Las Capitulaciónes para la Entrega de Granada (Granada 1910) p. 200-217

لنا الرواية الإسلامية معظم محتوياتها مع شيء من التحريف(١) ولكنا ننقل الآن ولأول مرة ، إلى العربية ، محتويات هذه المعاهدة عن نصوصها القشتالية الرسمية فى توسع وإفاضة . وإليك مضمون هذه المحتويات

أن يتعهد ملك غرناطة ، والقادة ، والفقهاء والوزراء والعلماء ، وكافة الناس ، سواء فى غرناطة والبيّازين وأرباضهما ، بأن يسلموا طواعية واختياراً ، وذلك فى ظرف ستين يوماً تبدأ من تاريخ هذه المعاهدة ، قلاع الحمراء والحصن ، وأبوابها وأبراجها ، وأبواب غرناطة والبيازين ، إلى الملكين الكاثوليكيين ، أو إلى من ينتدبانه من رجالهما ، على ألا يسمح لنصرانى أن يصعد إلى الأسوار القائمة بين القصبة والبيازين ، حتى لا يكشف أحوال المسلمين ، وأن يعاقب من يفعل ذلك.

وضماناً لسلامة هذا التسليم ، يقدم الملك المذكور مولاى أبو عبد الله والقادة المذكورون ، إلى جلالتيهما ، قبل تسلم الحمراء بيوم واحد ، خمسمائة شخص صحبة الوزير ابن كماشه ، من أبناء وإخوة زعماء غرناطة والبيازين ، ليكونوا رهائن فى يديهما لمدة عشرة أيام ، تُصلح خلالها الحمراء . وفى نهاية هذا الأجل يرد أولئك الرهائن أحراراً . وأن يقبل جلالتهما ، ملك غرناطة وسائر القادة والزعماء ، وسكان غرناطة والبشرّات وغيرهما من الأراضى ، رعايا وأتباعا تحت حمايتهما ورعايتهما (١) .

وأنه حينما يرسل جلالتهما رجالهما لتسلم الحمراء المذكورة ، فعليهم أن يدخلوا من باب العشار ومن باب نجدة ، ومن طريق الحقول الخارجية ، وألا يسيروا إليها من داخل المدينة ، حينما يأتون لتسلمها وقت التسليم (٢) .

وأنه متى تم تسليم الحمراء والحصن ، يرد إلى الملك المذكور مولاى أبى عبد الله ولده المأخوذ رهينة لديهما ، وكذلك يرد سائر الرهائن المسلمين الذين معه ، وسائر حشمه الذين لم يعتنقوا النصرانية (٣) .

ويتعهد جلالتهما ، وخلفاؤهما إلى الأبد ، بأن يترك الملك المذكور أبو عبد الله والقادة ، والوزراء ، والعلماء ، والفقهاء ، والفرسان ، وسائر الشعب ، تحت حكم شريعتهم ، وألا يؤمروا بترك شيء من مساجدهم وصوامعهم ، وأن تترك لهذه المساجد مواردها كما هى ، وأن يقضى بينهم وفق شريعتهم وعلى يد قضاتهم ، وأن يحتفظوا بتقاليدهم وعوائدهم (٤) .

---

(١) أخبار العصر ص ٤٨ و٥٠ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٦١٥ و٦١٦ .

وألا يؤخذ منهم خيلهم أو سلاحهم الآن أوفيما بعد ، سوى المدافع الكبيرة والصغيرة فإنها تسلم (٥) .

وأنه يحق لسائر سكان غرناطة والبيازين وغيرهما ، الذين يريدون العبور إلى المغرب ، أن يبيعوا أموالهم المنقولة لمن شاءوا ، وأنه يحق للملكين شراءها بمالهما الخاص (٦) .

وأنه يحق للسكان المذكورين أن يعبروا إلى المغرب ، أو يذهبوا أحراراً إلى أية ناحية أخرى ، حاملين أمتعتهم وسلعهم ، وحليهم من الذهب والفضة وغيرها . ويلتزم الملكان بأن يجهزا فى بحر ستين يوماً من تاريخه ، عشر سفن فى موانيهما يعبر فيها الذين يريدون الذهاب إلى المغرب . وأن يقدما خلال الأعوام الثلاثة التالية السفن ، لمن شاء العبور ، وتبقى السفن خلال هذه المدة تحت طلب الراغبين فيه ، ولا يقتضى منهم خلال هذه المدة أى أجر أو مغرم ، وأنه يحق العبور لمن يشاء بعد ذلك ، نظير دفع مبلغ « دوبل » واحد عن كل شخص ، وأنه يحق لمن لم يتمكن من بيع أملاكه ، أن يوكل لإدارتها ، وأن يقتضى ريعها حيثما كان (٧) .

وألا يرغم أحد من المسلمين أو أعقابهم ، الآن أو فيما بعد ، على تقلد شارة خاصة بهم (٨) .

وأن ينزل الملكان ، للملك أبى عبد الله المذكور ، ولسكان غرناطة والبيازين وأرباضهما ، لمدة ثلاث سنوات تبدأ من تاريخه ، عن سائر الحقوق التى يجب عليهم أداؤها عن دورهم ومواشيهم (٩) .

وأنه يجب على الملك أبى عبد الله ، وسكان غرناطة والبيازين وأرباضهما والبشرات وأراضيها ، أن يسلموا وقت تسليم المدينة طواعية ودون أية فدية ، سائر الأسرى النصارى الذين تحت أيديهم (١٠) .

وأنه لا يسمح لنصرانى ، أن يدخل مكاناً لعبادة المسلمين دون ترخيص ، ويعاقب من يفعل ذلك (١٢) .

وألا يولى على المسلمين مباشر يهودى ، أو يمنح أية سلطة أو ولاية عليهم (١٣) .

وأن يعامل الملك أبو عبد الله المذكور ، وسائر السكان المسلمين ، برفق وكرامة ، وأن يحتفظوا بعوائدهم وتقاليدهم ، وأن يؤدى للفقهاء حقوقهم المأثورة وفقاً للقواعد المرعية (١٤) .

وأنه إذا قام نزاع بين المسلمين ، فصل فيه وفقاً لأحكام شريعتهم ، وتولاه قضاتهم (١٥) .

وألا يكلفوا بإيواء ضيف أو تؤخذ منهم ثياب أو دواجن أو أطعمة أو ماشية أوغيرها دون إرادتهم (١٦) .

وأنه إذا دخل نصرانى منزل مسلم قهراً عنه ، عوقب على فعله (١٧) .

وأنه فيما يتعلق بشئون الميراث ، يحتفظ المسلمون بنظمهم ، ويحتكمون إلى فقهائهم وفقاً لسنن المسلمين (١٨) .

وأنه يحق لسائر سكان غرناطة والبشرات وغيرهما الداخلين فى هذا العهد ، الذين يعلنون الولاء لجلالتيهما ، فى ظرف ثلاثين يوماً من التسليم ، أن يتمتعوا بالإعفاءات الممنوحة ، مدى السنوات الثلاث (١٩) .

وأن يبقى دخل الجوامع والهيئات الدينية أوأية أشياء أخرى مرصودة على الخير ، وكذا دخل المدارس ، متروكاً لنظر الفقهاء ، وألا يتدخل جلالتيهما بأية صورة ، فى شأن هذه الصدقات أو يأمران بأخذها فى أى وقت (٢٠) .

وأنه لا يؤخذ أى مسلم بذنب ارتكبه شخص آخر ، فلا يؤخذ والد بذنب ولده أو ولد بذنب والده ، أو أخ بذنب أخ ، أو ولد عم بذنب ولد عم ، ولا يعاقب إلا من ارتكب الجرم (٢١) .

وأنه إذا كان مسلم أسيراً ، وفر إلى مدينة غرناطة أوالبيازين أو أرباضهما أوغيرهما ، فإنه يعتبر حراً ، ولا يسمح لأحد بمطاردته إلا إن كان من العبيد أو من الجزائر (٢٤) .

وألا يدفع المسلمون من الضرائب أكثر مما كانوا يدفعون لملوكهم المسلمين (٢٥)

وأنه يحق لسكان غرناطة والبيازين والبشرات وغيرهما ، ممن عبروا إلى المغرب ، أن يعودوا خلال الأعوام الثلاثة التالية ، وأن يتمتعوا بكل ما يحتويه هذا الاتفاق (٢٦) .

كما يحق لمن عبر منهم إلى المغرب ، ولم ترضه الإقامة هنالك ، أن يعود خلال الأعوام الثلاثة ، وأن يتمتع بكل ما فى هذا الاتفاق (٢٨) .

وأنه يحق لتجار غرناطة وأرباضها والبشرات وسائر أراضيها ، أن يتعاملوا فى سلعهم آمنين ، عابرين إلى المغرب وعائدين ، كما يحق لهم دخول سائر النواحى التابعة لجلالتيهما ، وألا يدفعوا من الضرائب سوى التى يدفعها النصارى (٢٩) .

وأنه إذا كان أحد من النصارى — ذكراً أو أنثى — اعتنق الإسلام ، فلا يحق لإنسان أن يهدده أو يؤذيه بأية صورة ، ومن فعل ذلك يعاقب (٣٠) .

وأنه إذا كان مسلم قد تزوج بنصرانية واعتنقت الإسلام ، فلا ترغم على العودة إلى النصرانية ، بل تسأل فى ذلك أمام المسلمين والنصارى ، وألا يرغم أولاد « الروميات » ذكوراً أو إناثاً ، على اعتناق النصرانية (٣١) .

وأنه لا يرغم مسلم أو مسلمة قط على اعتناق النصرانية (٣٢) .

وأنه إذا شاءت مسلمة متزوجة أو أرملة أو بكر اعتناق النصرانية بدافع الحب ، فلا يقبل ذلك منها ، حتى تسئل وتوعظ وفقاً للقانون ؛ وإذا كانت قد استولت خلسة على حلى أو غيرها من دار أهلها أو أى شىء آخر ، فإنها ترد لصاحبها ، وتتخذ الإجراءات ضد المسئول (٣٣) .

وألا يطلب الملكان ، أو يسمحا بأن يُطلب إلى الملك المذكور مولاى أبى عبد الله ، أوخدمه أو أحد من أهل غرناطة أو البيازين وأرباضهما والبشرات وغيرهما ، من الداخلة فى هذا العهد ، بأن يردوا ما أخذوه أيام الحرب من النصارى أو المدجنين ، من الخيل أو الماشية أو الثياب أو الفضة أو الذهب أوغيرها ، أو من الأشياء الموروثة ، ولا يحق لأحد يعلم بشىء من ذلك أن يطالب به (٣٤).

وألا يُطلب إلى أى مسلم ، يكون قد هدد أوجرح أوقتل أسيراً أو أسيرة نصرانية ، ليس أو ليست فى حوزته ، رده أو ردها الآن أوفيما بعد (٣٥).

وألا يدفع عن الأملاك والأراضى السلطانية ، بعد انتهاء السنوات الثلاث الحرة ، من الضرائب إلا وفقاً لقيمتها ، وعلى مثل الأراضى العادية (٣٦) .

وأن يطبق ذلك أيضاً على أملاك الفرسان والقادة المسلمين ، فلا يدفع عنها أكثر مما يدفع عن الأملاك العادية (٣٧) .

وأن يتمتع اليهود من أهل غرناطة والبيازين وأرباضهما ، والأراضى التابعة لها ، بما فى هذا العهد من الامتيازات ، وأن يسمح لهم بالعبور إلى المغرب خلال ثلاثة أشهر ، تبدأ من يوم ١٨ ديسمبر (٣٨) .

وأن يكون الحكام والقواد والقضاة ، الذين يعينون لغرناطة والبيازين والأراضى التابعة لهما ، ممن يعاملون الناس بالكرامة والحسنى ، ويحافظون على الإمتيازات الممنوحة ، فإذا أخل أحدهم بالواجب ، عوقب وأحل مكانه من يتصرف بالحق (٣٩) .

وأنه لا يحق للملكين أو لأعقابهما إلى الأبد ، أن يسألوا الملك المذكور أبى عبد الله ، أوأحداً من المسلمين المذكورين بأية صورة ، عن أى شىء يكونوا

قد عملوه ، حتى حلول يوم تسليم الحمراء المذكورة ، وهى فترة الستين يوماً المنصوص عليها(٤٠) .

وأنه لا يُولى عليهم أحد من الفرسان أو القادة أو الخدم ، الذين كانوا تابعين لملك وادى آش[1] (٤١).

وأنه إذا وقع نزاع بين نصرانى أو نصرانية ومسلم أو مسلمة ، فإنه ينظر أمام قاضى نصرانى وآخر مسلم ، حتى لا يتظلم أحد مما يقضى به (٤٢) .

وأن يقوم الملكان بالإفراج عن الأسرى المسلمين ذكوراً وإناثاً ، من أهل غرناطة والبيازين وأرباضهما وأراضيهما ، إفراجاً حراً دون أية نفقة من فدية أو غيرها ، وأن يكون الإفراج عمن كان من هؤلاء الأسرى بالأندلس فى ظرف خمسة الأشهر التالية ، وأما الأسرى الذين بقشتالة فيفرج عنهم خلال الثمانية أشهر التالية . وبعد يومين من تسليم الأسرى النصارى لجلالتيهما يفرج عن مائتين من الأسرى المسلمين ، منهم مائة من الرهائن ومائة أخرى (٤٤) .

وأنه إذا دخلت أية محلة من نواحى البشرات فى طاعة جلالتيهما ، فإنها يجب أن تسلم إليهما كل الأسرى النصارى ذكوراً وإناثاً ، فى ظرف خمسة عشر يوماً من تاريخ الانضمام ، وذلك دون أية نفقة (٤٦) .

وأن تعطى الضمانات للسفن المغربية الراسية الآن فى مملكة غرناطة ، لكى تسافر فى أمان ، على ألا تكون حاملة أى أسير نصرانى ، وألا يحدث لها أحد ضرراً أو إتلافاً ، وألا يؤخذ منها شىء ، ولا ضمان لمن تحمل منها أسرى من النصارى ، ويحق لجلالتيهما إرسال من يقوم بتفتيشها لذلك الغرض (٤٧) .

وألا يُدعى أو يؤخذ أحد من المسلمين للحرب رغم إرادته ، وإذا شاء جلالتاهما استدعاء الفرسان ، الذين لهم خيول وسلاح ، للعمل فى نواحى الأندلس فيجب أن يدفع لهم الأجر من يوم الرحيل حتى يوم العودة (٤٨) .

وأنه يجب على كل من عليه دين أو تعهد ، أن يؤديه لصاحب الحق ؛ ولا يحق لهم التحرر من هذه الحقوق (٥٢) .

وأن يكون المأمورون القضائيون الذين يعينون لمحاكم المسلمين ، مسلمين ، الآن وإلى الأبد (٥٣) .

---

(١) المقصود هنا هو مولاى الزغل .

وأن يكون المتولون لوظائف الحسبة الخاصة بالمسلمين ، أيضاً مسلمين ، وألا يتولاها نصرانى الآن وفى أى وقت (٥٤) .

وأن يقوم الملكان فى اليوم الذى تسلم إليهما فيه الحمراء والحصن والأبواب كما تقدم ، بإصدار مراسيم الإمتيازات ، للملك أبى عبد الله وللمدينة المذكورة ، ممهورة بتوقيعهما ، ومختومة بخاتمهما الرصاص ذى الأهداب الحريرية ، وأن يصدق عليها ولدهما الأمير ، والكردينال المحترم دسبينا ، ورؤساء الهيئات الدينية ، والعظماء والدوقات والمركيزون والكونتات والرؤساء ، حتى تكون ثابتة وصحيحة الآن ، وفى كل وقت (٥٦ ثافرا) (٤٣ سيمانقا) .

وقد ذيلت المعاهدة ، بنبذة خلاصتها ، أن ملكى قشتالة يؤكدان ويضمنان بدينهما وشرفهما الملكى ، القيام بكل ما يحتويه هذا العهد من النصوص ، ويوقعانه باسميهما ويمهرانه بخاتميهما ، وعليها تاريخ تحريرها وهو يوم ٢٥ نوفمبر سنة ١٤٩١[١]

ثم ذيلت بعد ذلك ، وبتاريخ لاحق هو يوم ٣٠ ديسمبر سنة ١٤٩٢ ، أعنى بعد تسليم غرناطة بعام ، بتوكيد جديد يأمر فيه الملكان ولدهما الأمير ، وسائر عظماء المملكة بالمحافظة على محتويات هذا العهد ، وألا يعمل ضده شىء ، أو ينتقص منه شىء ، الآن وإلى الأبد ، وأنهما يؤكدان ويقسمان بدينهما وشرفهما الملكى بأن يحافظا ، ويأمران بالمحافظة على كل ما يحتويه بندا بندا إلى الأبد ، وقد ذيل هذا التوكيد بتوقيع الملكين ، وتوقيع ولدهما وجمع كبير من الأمراء والأحبار والأشراف والعظماء[٢] .

* * *

وفى نفس اليوم الذى وقعت فيه معاهدة تسليم غرناطة ، وهو يوم ٢٥ نوفمبر

---

(١) رجعنا فى ترجمة وتلخيص نصوص معاهدة التسليم إلى الوثيقتين الرسميتين التين تضمنتا نصوص هذه المعاهدة ، وهما أولا ، الوثيقة المحفوظة بدار المحفوظات العامة فى سيمانقا **Archivo general de Simancas** ، وتحمل رقم **P.R. 11-207** ضمن مجموعة **(Capitulaciónes con Moros y Caballeros de Castilla)**. وهى تملأ إحدى عشرة لوحة كبيرة ومحررة بالقشتالية القديمة ولدينا منها صورة فتوغرافية . وثانيا ، الوثيقة المعروفة بوثيقة فرناندو دى ثافرا ، أمين الملكين الكاثوليكيين وتحفظ بمجموعة دى ثافرا ببلدية غرناطة ، وقد نشرت ضمن مجموعة وثائق تسليم غرناطة :
Las Capitulaciones para la Entrega de Granada, por Miguel Garrido Atienza (Granada 1910) p. 269 - 295

(٢) راجع مجموعة وثائق تسليم غرناطة السالفة الذكر (ص ٢٨٩ و ٢٩٠) .

سنة ١٤٩١م ، وفى نفس المكان الذى وقعت فيه ، وهو المعسكر الملكى بمرج غرناطة ، أبرمت معاهدة أخرى أوملحق سرى للمعاهدة الأولى ، يتضمن الحقوق والإمتيازات والمنح ، التى تعطى للسلطان أبى عبد الله ، ولأفراد أسرته وحاشيته ، وذلك متى نفذ تعهداته التى تضمنتها المعاهدة من تسليم غرناطة والحمراء ، وحصونها .

وتتلخص هذه الحقوق والامتيازات والمنح فيما يأتى :

أن يمنح الملكان الكاثوليكيان لأبى عبد الله ولأولاده وأحفاده وورثته إلى الأبد ، حق الملكية الأبدية ، فيما يملكانه من محلات وضياع فى بلاد برجة ، ودلاية ومرشانة ، ولوشار ، وأندرش ، وأجيجر ، وأرجبة ، وبضعة بلاد أخرى مجاورة ، وكل ما يخصها من الضرائب وحقوق الريع ، وما بها من الدور والأماكن والقلاع والأبراج ، لتكون كلها له ولأولاده وأعقابه وورثته بحق الملكية الأبدية ، يتمتع بكل ريعها وعشورها وحقوقها ، وأن يتولى القضاء فى النواحى المذكورة باعتباره سيدها ، وباعتباره فى الوقت نفسه تابعاً وخاضعاً لجلالتيهما ، وله حق بيع الأعيان المذكورة ورهنها ، وأن يفعل بها ما يشاء ومتى شاء ، وأنه متى أراد بيعها ، فإنه يعرض ذلك أولا على جلالتيهما فإذا لم يريدا شراءها ، فله أن يبيعها لمن شاء .

وأن يحتفظ جلالتهما بقلعة أدرة ، وسائر القلاع الواقعة على الشاطىء .

وأن يعطى جلالتهما إلى الملك المذكور مولاى أبى عبد الله ، هبة قدرها ثلاثون ألف جنيه قشتالى من الذهب (كاستيليانو) ، يبعثان بها إليه ، عقب تسليم الحمراء ، وقلاع غرناطة الأخرى التى يجب تسليمها ، وذلك فى الموعد المحدد .

وأن يهب جلالتهما للملك المذكور ، كل الأراضى والرّحى والحدائق ، والمزارع التى كان يملكها أيام أبيه السلطان أبى الحسن ، سواء فى غرناطة أوفى البشرات ، لتكون ملكاً له ولأولاده ولعقبه وورثته ، ملكية أبدية ، وله أن يبيعها أو يرهنها وأن يتصرف فيها كيفما شاء .

وأن يهب جلالتهما أيضاً ، إلى الملكات والدته وإخواته وزوجته ، وإلى زوجة أبى الحسن ، كل الحدائق والمزارع والأراضى والطواحين والحمامات ، التى يملكنها فى غرناطة والبشرات ، تكون ملكاً لهن ولأعقابهن إلى الأبد ، ولهن بيعها ورهنها والتمتع بها وفقاً لما تقدم .

وأن تكون سائر الأراضى الخاصة بالملك المذكور والملكات المذكورات ، وزوجة مولاى أبى الحسن ، معفاة من الضرائب والحقوق الآن وإلى الأبد .

وألا يطلب جلالتهما أو أعقابهما إلى ملك غرناطة أو حشمه أوخدمه رد ما أخذوه فى أيامهم سواء من النصارى أو المسلمين من الأموال والأراضى .

وأنه إذا شاء الملك المذكور أبو عبد الله ، والملكات المذكورات ، وزوجة مولاى أبى الحسن وأولادهم وأحفادهم وأعقابهم، وقوادهم وخدمهم وأهل دارهم، وفرسانهم وغيرهم ، صغاراً وكباراً ، العبور إلى المغرب ، فإن جلالتهما يجهزان الآن أو فى أى وقت سفينتين لعبور الأشخاص المذكورين، متى شاءوا ، تحملهم وكل أمتعتهم وماشيتهم وسلاحهم ، وذلك دون أية أجر أو نفقة .

وأنه إذا لم يتمكن الملك المذكور وأولاده وأحفاده وأعقابه ، والملكات المذكورات ، وزوجة مولاى أبى الحسن . والقواد والحشم والخدم ، وقت عبورهم إلى المغرب ، من بيع أملاكهم المشار إليها ، فإن لهم أن يوكلوا من شاءوا لقبض ريعها ، وإرساله حيث شاءوا دون أى قيد أو مغرم .

وأنه يحق للملك المذكور متى شاء ، أن يرسل من يرى ، من خدمه أو قادته إلى المغرب بسلع أوغيرها من إيراداته ، وذلك دون قيد أومغرم .

وأنه يحق للملك المذكور ، متى خرج من غرناطة ، أن يسكن أو يقيم متى شاء ، فى الأراضى التى أقطعت له ، وأن يخرج هو وخدمه وقواده وعلماؤه وقضاته وفرسانه ، الذين يريدون الخروج معه ، بخيلهم وماشيتهم متقلدين أسلحتهم ، وكذلك نساؤهم وخدمهم ، وألا يؤخذ منهم شيء سوى المدافع ، وألا يفرض عليهم الآن أو فى أى وقت ، وضع علامة خاصة فى ثيابهم أو بأية صورة ، وأن يتمتعوا بسائر الإمتيازات المقررة فى عهد تسليم غرناطة .

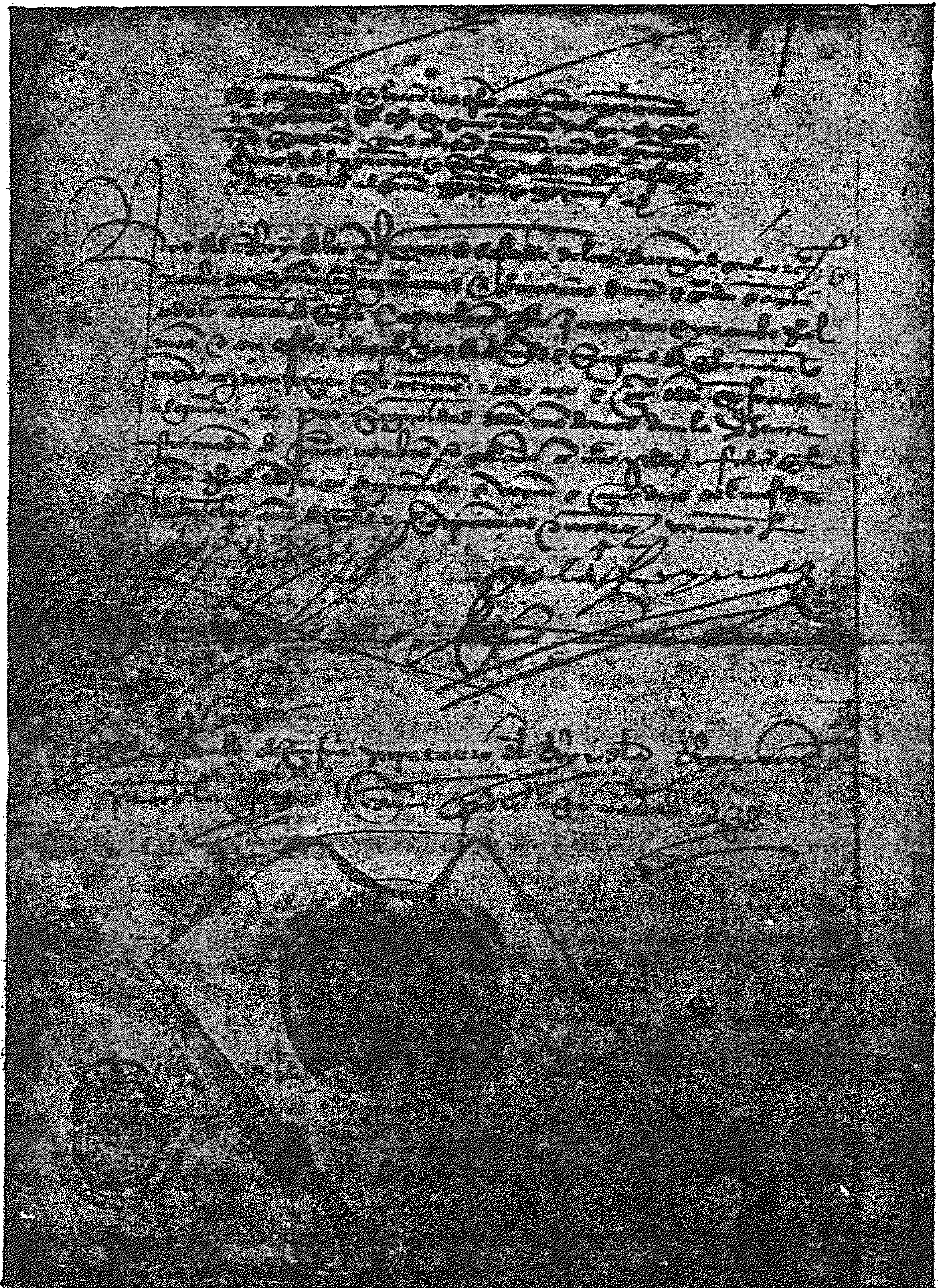
وأنه فى اليوم الذى يتم فيه تسليم الحمراء وحصونها ، يصدر جلالتهما المراسيم اللازمة بالمنح المذكورة ، موقعة ومختومة ، ومصدق عليها من ابنهما الأمير والكردينال وسائر العظماء[1] .

* * *

تلك هى الشروط التى وضعت لتسليم آخر القواعد الأندلسية ، وتلك هى

---

(١) تحفظ النسخة القشتالية لهذه المعاهدة السرية التى عقدت بين الملكين الكاثوليكيين وأبى عبدالله بدار المحفوظات العامة فى سيمانقا **Archivo general de Simancas** وتحمل رقم **P.R. Leg. II. Fol. 206** وقد حصلنا منها على صورة فتوغرافية .



الصفحة الأخيرة من معاهدة التسليم التى أصدرها الملكيان الكاثوليكيان لأبى عبد الله وأهل غرناطة ، مؤرخة فى ٢٥ نوفبر سنة ١٤٩١ م (٢١ محرم ٨٩٧ هـ) ، وعليها توقيعا فرناندو وإيسابيلا ، وتوقيع سكرتيرهما فرناندو دى ثافرا ، وختم مملكة قشتالة . والأصل محفوظ بدار المحفوظات العامة فى سيمانقا ويحمل رقم P. R. 11 - 207

الإمتيازات والمنح التى منحت لآخر ملوك الأندلس . فأما فيما يتعلق بغرناطة ومصاير الأمة المغلوبة ، فقد كانت هذه الشروط المسهبة ، والتى اشتملت على سائر الضمانات المتعلقة بتأمين النفس والمال ، وسائر الحقوق المادية ، وصون الدين والشعائر ، والكرامة الشخصية ، أفضل ما يمكن الحصول عليه فى مثل هذه المحنة ، لو أخلص العدو الظافر فى عهوده . ولكن هذه العهود لم تكن فى الواقع ، حسبما أيدت الحوادث فيما بعد ، سوى ستار الغدر والخيانة ، وقد نقضت هذه الشروط الخلابة كلها لأعوام قلائل من تسليم غرناطة ، ولم يتردد المؤرخ الغربى نفسه فى أن يصفها « بأنها أفضل مادة لتقدير مدى الغدر الإسبانى فيما تلا من العصور»[١] . وقد بذل فرناندو ما بذل من عهود وضمانات وامتيازات لأهل غرناطة ، بعد ما لقيت جيوشه من الصعاب ، وما منيت به من الخسائر الفادحة ، أمام أسوار مالقة وبسطة ، ولأنه كان يعلم أن الحاضرة الأندلسية الأخيرة ، تموج بعشرات الألوف من المدافعين ، وأنه يقتضى لأخذها عنوة بذل جهود مضنية ، وتحمل تضحيات عظيمة ؛ وقد لجأ فرناندو ، إلى جانب إرهاق غرناطة بالحصار الصارم ، إلى البذل والرشوة لإغراء الزعماء والقادة ، وعلى رأسهم أبو عبد الله ، وذلك لكى يصل إلى تحقيق غايته المنشودة بطريق سلمية مأمونة ، وجاءت نصوص المعاهدة السرية مؤيدة لما أشارت إليه الرواية الإسلامية المعاصرة ، من ريب وشكوك تحيط بموقف أبى عبد الله ووزرائه وقادته .

وعاد أبو القاسم عبد الملك والوزير ابن كماشة يحملان شروط التسليم ، وصحبهما فرناندو دى ثافرا أمين ملك قشتالة ومبعوثه ، وأدخل سراً إلى قصر الحمراء ، وجمع أبوعبد الله الفقهاء وأكابر الجماعة فى بهو الحمراء الكبير (بهو قمارش) ، وبعد مناقشات طويلة عاصفة ، تمت الموافقة على المعاهدة ، وحملها دى ثافرا ممهورة بتوقيع أبى عبد الله إلى معسكر ملك قشتالة .

وقد انتهت إلينا عن هذه الجلسة الحاسمة فى تاريخ الأمة الأندلسية ، وعن موقف فارس غرناطة موسى بن أبى الغسان ، رواية قشتالية مؤثرة ، قد تصطبغ بلون الأسطورة ، ومع ذلك فإنها تنم عن روح الانتقاض والسخط ، التى كانت تضطرم بها بعض النفوس الأبية الكريمة التى كانت ترى الموت خيراً من التسليم لأعداء الوطن والدين .

---

(١) Prescott : ibid ; p. 296

تقول الرواية المذكورة ، إنه حينما اجتمع الزعماء فى بهو الحمراء الكبير ، ليوقعوا عهد التسليم ، وليحكموا على دولتهم بالذهاب ، وعلى أمتهم بالفناء والمحو ، عندئذ لم يملك كثير منهم نفسه من البكاء والعويل . ولكن موسى لبث وحده صامتاً عابساً وقال : « أتركوا العويل للنساء والأطفال ، فنحن رجال لنا قلوب لم تخلق لإرسال الدمع ولكن لتقطر الدماء ، وإنى لأرى روح الشعب قد خبت حتى ليستحيل علينا أن ننقذ غرناطة ؛ ولكن ما زال ثمة بديل للنفوس النبيلة . ذلك هو موت مجيد ، فلنمت دفاعاً عن حرياتنا وانتقاماً لمصائب غرناطة ، وسوف تحتضن أمنا الغبراء أبناءها أحراراً من أغلال الفاتح وعسفه ؛ ولئن لم يظفر أحدنا بقبر يستر رفاته ، فإنه لن يعدم سماء تغطيه ، وحاشا الله أن يقال إن أشراف غرناطة خافوا أن يموتوا دفاعاً عنها »[1] .

ثم صمت موسى ، وساد المجلس سكون الموت ، وسرح أبو عبد الله البصر حوله ، فإذا اليأس ماثل فى تلك الوجوه التى أضناها الألم ، وإذا كل عزم قد غاض فى تلك القلوب الكسيرة الدامية . عندئذ صاح « الله أكبر لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، ولا راد لقضاء الله . تالله لقد كتب على أن أكون شقياً ، وأن يذهب الملك على يدى » . وصاحت الجماعة على أثره « الله أكبر ولا راد لقضاء الله » ، وكرروا جميعاً أنها إرادة الله ولتكن ، وأنه لا مفر من قضائه ولا مهرب ، وأن شروط ملك النصارى أفضل ما يمكن الحصول عليه . فلما رأى موسى أن اعتراضه عبث لا يجدى وأن الجماعة قد أخذت فعلا فى توقيع صك التسليم ، نهض مغضباً وصاح : « لا تخدعوا أنفسكم ، ولا تظنوا أن النصارى سيوفون بعهدهم ، ولا تركنوا إلى شهامة ملكهم . إن الموت أقل ما نخشى ، فأمامنا نهب مدننا وتدميرها ، وتدنيس مساجدنا ، وتخريب بيوتنا ، وهتك نسائنا وبناتنا ؛ وأمامنا الجور الفاحش ، والتعصب الوحشى ، والسياط والأغلال ، وأمامنا السجون والأنطاع والمحارق . هذا ما سوف نعانى من مصائب وعسف ، وهذا ما سوف تراه على الأقل تلك النفوس الوضيعة ، التى تخشى الآن الموت الشريف . أما أنا فوالله لن أراه » . ثم غادر المجلس واخترق بهو الأسود (كورة السباع) عابساً حزيناً ، وجاز إلى أبهاء الحمراء الخارجية ، دون أن يرمق أحداً أويفوه بكلمة ، ثم ذهب إلى داره وغطى نفسه بسلاحه ، وامتطى غارب جواده المحبوب ، واخترق

---

(1) Condé ; ibid : V. III. p. 256 & 257

شوارع غرناطة ، حتى غادرها من باب إلبيرة ، ولم يره إنسان أو يسمع به بعد ذلك قط .

هذا ما تقوله الرواية القشتالية عن نهاية موسى بن أبى الغسان[١] . ولكن مؤرخاً اسبانياً قديماً هو القس أنطونيو أجاپيدا يحاول أن يلقى ضياء على مصيره ، فيقول إن سرية من الفرسان النصارى تبلغ نحو الخمسة عشر ، التقت فى ذلك المساء بعينه ، على ضفة نهر « شنيل » بفارس مسلم قد دججه السلاح من رأسه إلى قدمه ، وكان مغلقاً خوذته شاهراً رمحه ، وكان جواده غارقاً مثله فى رداء من الصلب . فلما رأوه مقبلا عليهم طلبوا إليه أن يقف وأن يعرف بنفسه ، فلم يجب الفارس المسلم ، ولكنه وثب إلى وسطهم وطعن أحدهم برمحه وانتزعه عن سرجه فألقاه إلى الأرض ، ثم انقض على الباقين يثخن فيهم طعاناً ، وكانت ضرباته ثائرة قاتلة ، وكأنه لم يشعر بما أثخنه من جراح ، ولم يرد إلا أن يقتل وأن يسيل الدم ، وكأنه إنما يقاتل للانتقام فقط ، وكأنما يتوق إلى أن يقتل دون أن يعيش لينعم بظفره . وهكذا لبث يبطش بالفرسان النصارى حتى أفنى معظمهم ، غير أنه أصيب فى النهاية بجرح خطر ، ثم سقط جواده من تحته بطعنة أخرى ، فسقط إلى الأرض ، ولكنه ركع على ركبتيه واستل خنجره ، وأخذ يناضل عن نفسه . فلما رأى أن قواه قد نضبت ، ولم يرد أن يقع أسيراً فى يد خصومه ، ارتد إلى ما وراءه بوثبة أخيرة ، وألقى بنفسه إلى مياه النهر ، فابتلعته لفوره ، ودفعه سلاحه الثقيل إلى الأعماق .

يقول الراوية المذكور ، إن هذا الفارس الملثم هو موسى بن أبى الغسان ، وإن بعض العرب المتنصرين فى المعسكر الإسبانى ، عرفوا جواده المقتول ، وهى رواية لا بأس بها ، غير أن الحقيقة لم تعرف قط[٢] .

— ٤ —

وما كادت أنباء الموافقة على عهد التسليم تذاع حتى عم الحزن ربوع غرناطة ، وتسربت فى الوقت نفسه بعض أنباء غامضة عن المعاهدة السرية ، وعما حققه أبو عبد الله ووزراؤه لأنفسهم من المغانم الخاصة ، وسرى الهمس بين العامة ، واضطرم سواد الشعب يأساً وسخطاً على قادته ، ولا سيما أبى عبد الله الذى اعتبر

---

(١) هذه هى رواية كوندى فيما نقل من مصادر عربية غير معروفة Condé; Ibid. V. III. p. 257

(٢) راجع هذه الرواية فى : Irving: Conquest of Granada; Ch. 97

مصدر كل مصائبه ومحنه ، وتعالى النداء بوجوب الدفاع عن المدينة حتى آخر نسمة . وحدثت حركة انتقاض ، خشي أبو عبد الله والقادة ، أن تقضي على خططهم وتدابيرهم، ولكنها انهارت قبل أن تنتظم، وأضحى كل يفكر فى مصيره .

واستقبل المسلمون عهود ملك قشتالة فى تردد وتوجس ، والشك يساورهم فى إخلاص أعدائهم ، وإزاء ذلك أعلن الملكان الكاثوليكيان، فى يوم ٢٩ نوفمبر مع قسم رسمى بالله، أن جميع المسلمين سيكون لهم مطلق الحرية فى العمل فى أراضيهم أو حيث شاءوا ، وأن يحتفظوا بشعائر دينهم ومساجدهم كما كانوا ، وأن يسمح لمن شاء منهم بالهجرة إلى المغرب . ولكن الإيمان والعهود لم تكن حسبما تقدم، عند ملكي قشتالة ، سوى ذريعة الخيانة والغدر ، ووسيلة لتحقيق المآرب بطريق الخديعة الشائنة . وقد كانت هذه أبرز صفات فرناندو الكاثوليكى ، فهو لم يتردد قط فى أن يعمل لتحقيق غاياته بأى الوسائل ، أو أن يقطع أى عهد أو يقدم أى تأكيد ، دون أن ينوى قط الوفاء بما تعهد .

ولكن الشعب الغرناطى استمر فى وجومه وتوجسه ويأسه ، ولم تهدأ الخواطر المضطرمة ، وكان أبو عبد الله والقادة يخشون تفاقم الأحوال ، وإفلات الأمر من أيديهم ، فاعتزموا العمل على التعجيل بالتسليم ، حرصاً على سلامة المدينة وسلامة الزعماء ، وألا ينتظروا مرور الستين يوماً التى نصت عليها المعاهدة . وفى يوم ٢٠ ديسمبر أرسل أبو عبد الله وزيره يوسف بن كماشه إلى فرناندو مع خمسمائة من الرهائن من الوجوه والأعيان ، تنفيذاً لنص المعاهدة ، وليعرب له عن حسن نية مليكه واستعداده ، كما حمل إليه هدية تتألف من سيف ملوكى وجوادين عربيين مسرجين بعدد ثمينه . واتفق مع ملك قشتالة على تسليم المدينة فى الثانى من يناير سنة ١٤٩٢م (الثانى من ربيع الأول ٨٩٧هـ) أى لتسع وثلاثين يوماً فقط من توقيع عهد التسليم[1] .

---

(١) تخلط معظم الروايات الإسلامية بين تاريخ توقيع المسلمين عهد تسليم غرناطة ، وبين تاريخ استيلاء النصارى الفعلى عليها . وهى تضع هذا التاريخ فى الثانى من ربيع الأول سنة ٨٩٧ هـ (٢ يناير سنة ١٤٩٢) (أخبار العصر ص ٥٠ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٦١٥ ؛ وأزهار الرياض ج ١ ص ٦٥). والواقع أن عهد التسليم وقع كما رأينا فى ٢٥ نوفمبر سنة ١٤٩١ م (٢١ محرم سنة ٨٩٧ هـ) وهو يعتبر تاريخ سقوط غرناطة الرسمى فى يد النصارى ، وذلك بعد تخلى المسلمين عن الدفاع عنها ؛ ولم نجد بين الروايات الإسلامية سوى رواية واحدة هى رواية الوادى آشى تتفق مع الرواية النصرانية فى هذا التفريق فهو يقول إن استيلاء النصارى على غرناطة وقع فى المحرم سنة ٨٩٧ هـ ، وهو تاريخ توقيع عهد التسليم (راجع أزهار الرياض ج ١ ص ٦١) .

وقد وصلت إلينا روايات عديدة عن حوادث هذا اليوم المؤسى ومناظره — يوم احتلال القشتاليين لمدينة غرناطة ، آخر الحواضر الإسلامية بالأندلس — ، والرواية الغالبة التي يتفق عليها معظم المؤرخين الإسبان تقدم إلينا التفاصيل الآتية عن حوادث هذا اليوم المشهود .

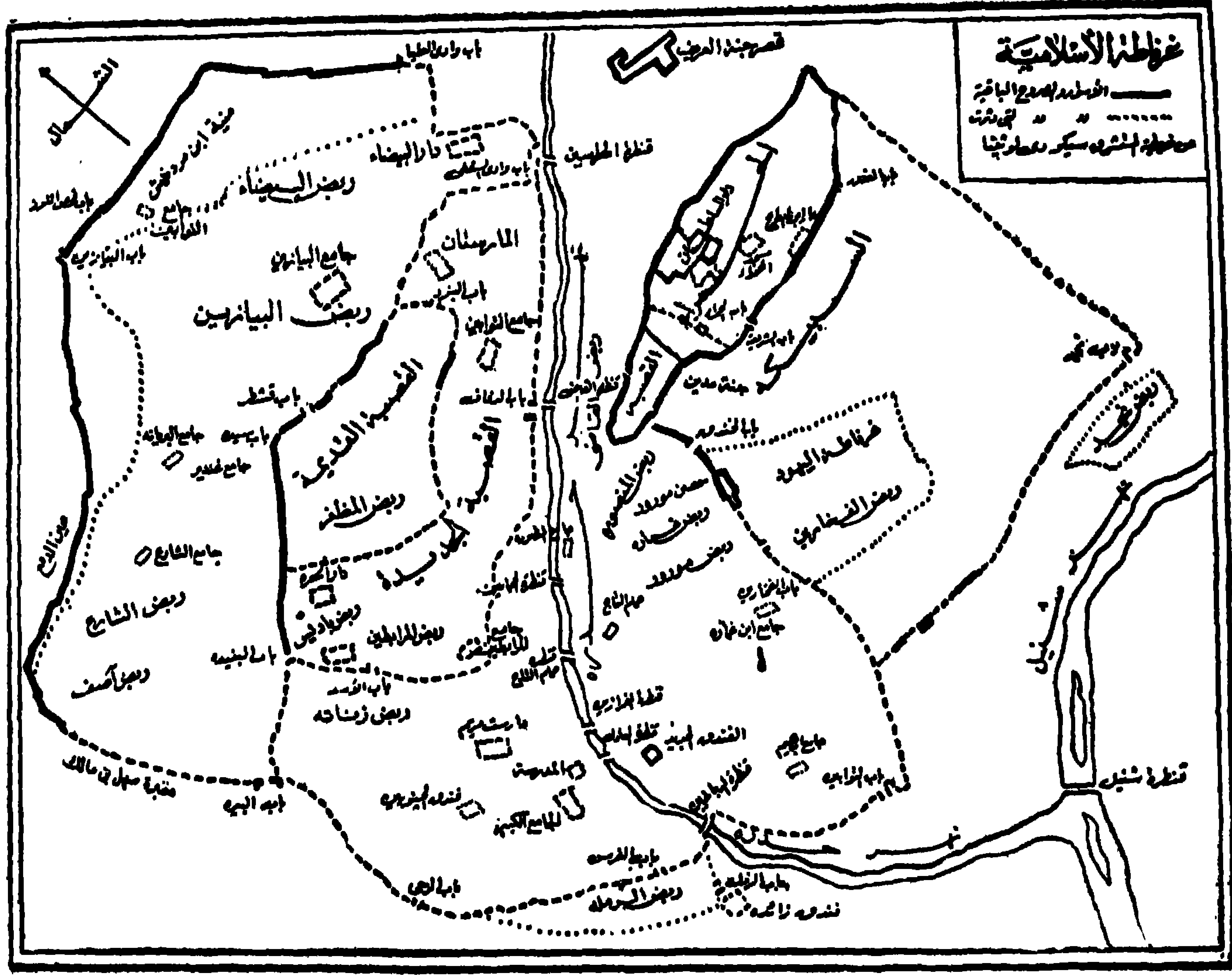
فى صباح هذا اليوم ، كان المعسكر النصرانى فى شنتفى يموج بالضجيج والابتهاج . وكانت الأوامر قد صدرت ، والأهبة قد اتخذت لاحتلال المدينة . وكان قد اتفق بين أبى عبد الله والملك فرناندو أن تطلق من الحمراء ثلاثة مدافع تكون إيذاناً بالاستعداد للتسليم . ولم يشأ فرناندو أن يسير إلى الحاضرة الإسلامية بنفسه ، قبل التحقق من خضوعها التام ، واستتباب الأمن والسلامة فيها . فأرسل إليها قوة من ثلاثة آلاف جندى وسرية من الفرسان ، وعلى رأسها الكردينال پيدرو دى منلوسا مطران اسبانيا الأكبر . وكان من المتفق عليه أيضاً بين فرناندو وأبى عبد الله ألا يخترق الجيش النصرانى شوارع المدينة ، بل يسير تواً إلى قصبة الحمراء ، حتى لا يقع حادث أو شغب . ومن ثم فقد اخترق الجند القشتاليون الفحص إلى ضاحية أرميليا Armilla (أرملة) الواقعة جنوبى غرناطة ، ثم عبروا نهر شنيل ، واتجهوا تواً إلى قصر الحمراء من ناحية التل المسمى « تل الرحى » Questa de los Molinos ، الواقع غربى المدينة وجنوبى غربى الحمراء .

وسار الملك فرناندو فى الوقت نفسه فى قوة أخرى ، ورابط على ضفة شنيل ، ومن حوله أكابر الفرسان والخاصة فى ثيابهم الزاهية ، حتى يمهد الكردينال الطريق لمقدم الركب الملكى . وانتظرت الملكة إسابيلا فى سرية أخرى من الفرسان فى أرميليا ، على قيد مسافة قريبة .

ووصل الجند القشتاليون إلى مدينة غرناطة من هذه الطريق المنحرفة نحو الظهر ، وكانت أبواب الحمراء قد فتحت وأخليت أبهاؤها استعداداً للساعة الحاسمة .

وهنا تختلف الرواية . فيقال إن الذى استقبل الكردينال مندوسا وصحبه هو الوزير ابن كماشه ، الذى ندب للقيام بتلك المهمة المؤلمة ، وسلم الحرس المسلمون السلاح والأبراج . وكان يسود المدينة كلها ، ويسود القصبة والقصر ، وما إليه ، سكون الموت .

وفى رواية أخرى أن أبا عبد الله قد شهد بنفسه تسليم الحمراء ، وأنه حينما تقدم القشتاليون من تل الرحى صاعدين نحو الحمراء ، تقدم أبو عبد الله من


غرناطة الإسلامية
الشمال
قصر جنة العريف
ربض البيضاء
دار البيضاء
ربض البيازين
جامع البيازين
المارستان
القصبة القديمة
القصبة الجديدة
ربض المظفر
ربض زناتة
الجامع الكبير
المدرسة
غرناطة اليهود
قنطرة شنيل

باب الطباق السبع راجلا ، يتبعه خمسون من فرسانه وحشمه . فلما عرف الكردينال أبا عبد الله ، ترجل عن جواده ، وتقدم إلى لقائه ، وحياه باحترام وحفاوة ، ثم ابتعد الرجلان قليلا ، وتحدثا برهة على انفراد . ثم قال أبو عبدالله بصوت مسموع :(١)

«هيا يا سيدى ، فى هذه الساعة الطيبة ، وتسلم هذه القصور — قصورى — باسم الملكين العظيمين اللذين أراد لهما الله القادر أن يستوليا عليها ، لفضائلهما ، وزلات المسلمين » .

فوجه الكردينال إلى أبى عبد الله بعض عبارات المواساة ، ودعاه لأن يقيم فى خيمته فى المعسكر الملكى طيلة الوقت الذى يمكثه فى شنتفى ، فقبل أبو عبد الله شاكراً . ثم سار فى فرسانه وحشمه للقاء الملك الكاثوليكى .

وتم تسليم القصور الملكية والأبراج على يد الوزير ابن كماشه ، الذى ندبه أبو عبد الله للقيام بهذه المهمة . وما كاد الكردينال وصحبه يجوزون إلى داخل القصر الإسلامى المنيف ، حتى رفعوا فوق برجه الأعلى ، وهو المسمى برج الحراسة Torre de la Vela صليباً فضياً كبيراً ، هو الذى كان يحمله الملك فرناندو خلال حرب غرناطة ، كما رفعوا إلى جانبه علم قشتالة وعلم القديس ياقب ، وأعلن المنادى من فوق البرج بصوت جهورى ثلاثا أن غرناطة أصبحت ملكاً للملكين الكاثوليكيين ، وأطلقت المدافع تدوى فى الفضاء . ثم انطلقت فرقة الرهبان الملكية ترتل صلاة « الحمد لله » Te Deum laudamus ، على أنغام الموسيقى . وهكذا كان كل ما هنالك يؤكد الصفة الصليبية العميقة لهذه الحرب التى شهرتها اسبانيا النصرانية على الأمة الأندلسية ، وعلى الإسلام فى اسبانيا .

وفى أثناء ذلك كان أبو عبد الله ، فى طريقه إلى لقاء الملك الكاثوليكى . وكان فرناندو يرابط كما قدمنا على ضفة نهر شنيل ، على مقربة من المسجد ، الذى حول فيما بعد إلى كنيسة « سان سبستيان » . وهنالك لقى أبو عبد الله عدوه الظافر ، وسلمه مفاتيح الحمراء . وسوف نصف منظر هذا اللقاء المؤثر فيما بعد .

وكذلك قدم أبو عبد الله خاتمه الذهبى ، الذى كان يوقع به على الأوامر الرسمية ، إلى الكونت دى تنديلا الذى عين محافظاً للمدينة .

وسار فى صحبه بعد ذلك فى طريق شنتفى ، يتبعه أهله ، أمه وزوجته وإخوانه ، وكان موكباً مؤسياً . وعرج فى طريقه على محلة الملكة إسابيلا فى أرمليا . فاستقبلته

(١) المفروض أن أبا عبد الله كان يتحدث بالقشتالية ، وهى لغة كان يجيد التكلم بها .

وأسرته برقة ومجاملة ، وحاولت تخفيف آلامه ، وسلمته ولده الصغير الذى كان ضمن رهائن التسليم .

وهنا تعود الرواية فتختلف اختلافاً بيناً. فيقول البعض إن الملكين الكاثوليكيين دخلا قصر الحمراء فى نفس اليوم. وينفى البعض الآخر ذلك ، ومنهم صاحب « أخبار العصر » ، ويقول إنهما لم يدخلاه إلا بعد ذلك ببضعة أيام .

تقول الرواية الأولى ، إن الملكة إيسابيلا ، سارت على أثر استقبالها لأبى عبد الله ، وانضمت بصحبها إلى الملك فرناندو ، ثم سار الإثنان إلى الحمراء ، بينما انتشر القشتاليون فى الساحة المجاورة . ودخل الملكان من « باب الشريعة » ، حيث استقبلهما الكردينال مندوسا والوزير ابن كماشه ، وأعطى مفاتيح الحمراء إلى الدون دبجو دى مندوسا الذى عين حاكما للمدينة . وبعد أن تجول الملكان قليلا فى القصر ، وشهدا جماله وروعته ، عادا إلى شنتفى . وبقى الكونت دى تندليا فى الحمراء مع حامية قوية من خمسمائة جندى .

ثم عاد الملكان فزارا الحمراء زيارتهما الرسمية فى يوم ٦ يناير ، وسارا فى موكب فخم من الأمراء والكبراء وأشراف العقائل ، ودخلا غرناطة من باب إلبيرة ، ثم جازا إلى الحمراء من طريق مرتفع غمارة ، ودخلا قصر الحمراء وجلسا فى بهو قمارش أو المشور(١) حيث كان يجلس الملوك المسلمون فى نفس المكان على عرشهم ، على عرش أعده الكونت دى تندليا ، وهنالك أقبل أشراف قشتالة للتهنئة ، وكذلك بعض الفرسان المسلمين ، الذين أتوا ليقدموا شعائر التحية والتجلة لسادتهم الجدد .

وفى خلال ذلك كان الملكان الكاثوليكيان ، قد أفرجا عن رهائن المسلمين الخمسمائة ، وفى مقدمتها ولد أبى عبد الله ، وأفرج المسلمون من جانبهم عن الأسرى النصارى ، وعددهم نحو سبعمائة أسير رجالا ونساء . وتعهد القشتاليون من جانبهم ، أن يطلقوا سراح الأسرى المسلمين فى سائر مملكة قشتالة ، فى ظرف خمسة أشهر بالنسبة للأسرى الموجودين بالأندلس ، وثمانية أشهر بالنسبة للأسرى الموجودين فى بقية أراضى قشتالة .

تلك خلاصة الرواية القشتالية عن تسليم غرناطة ومدينة الحمراء للملكين الكاثوليكيين . بيد أن هنالك رواية أخرى لشاهد عيان ، كتبها فارس فرنسى كان يقاتل فى صفوف الجيش القشتالى ، وشهد بنفسه حفلات التسليم ، ونشرت

---

(١) وهو المسمى أيضاً بهو السفراء ، وسوف نعود إلى وصفه عند الكلام على قصر الحمراء .

روايته فى القرن السادس عشر ضمن مؤلف عنوانه La Mar de las Historias « بحر التواريخ » . وهذه خلاصتها :

أن الذى أوفده الملكان الكاثوليكيان لاستلام الحمراء فى يوم ٢ يناير ، هو الأستاذ الأعظم رئيس جمعية شنت ياقب ، جوتيرى دى كارديناس ، وليس الكاردينال مندوسا حسبما تروى التواريخ القشتالية . وأنه تسلم القصر والأبراج وأخرج منها الحرس المسلمين ، ووضع بها الحرس النصارى ، وأنه رفع الصليب الكبير فوق برج الحراسة ثلاث مرات ، والمسلمون من أسفل يصعدون الزفرات ويذرفون الدموع ، ثم لوح بعد ذلك بعلم شنت ياقب ثلاث مرات ، ونُصب إلى جانب الصليب ، وصاح المنادى بعد ذلك : القديس يعقوب ثلاثاً . قشتالة ثلاثاً .غرناطة لسيدنا الدون فرناندو ودونيا إيسابيل ثلاثاً .

وأن الملك فرناندو لما رأى الصليب ، وهو فى جنده من أسفل ، ترجل وجثا على ركبتيه ، وجثا الجند جميعاً شكراً لله . ثم أطلقت المدافع ابتهاجاً .

وفى اليوم التالى الثالث من يناير ، سار الكردينال مندوسا والكونت دى تنديليا ، الذى عين محافظاً للحمراء ، إلى قصبة الحمراء فى نحو ألف فارس وألفى راجل ، وسلم إليه الأستاذ الأعظم مفاتيح القصر والحصن .

وفى اليوم الثامن من يناير ، سار الملكان الكاثوليكيان إلى غرناطة ، فى موكب حافل من الأمراء والأكابر والأحبار والأشراف ، وتسلم الملكان مدينة الحمراء بصفة رسمية . وأقيم القداس فى الجامع الأعظم ، وحول الجامع منذ ذلك اليوم إلى كتدرائية غرناطة .

وفى ذلك اليوم أقيمت مأدبة عظيمة فى قصر الحمراء ، ومدت الموائد الحافلة فى أبهاء القصر العظيمة ، وجلس إليها الملكان والأمراء والعظماء ، وكانت مأدبة رائعة .

ويستخلص من هذه الرواية ، التى يؤيدها مؤرخون آخرون ، أن أبا عبد الله لم يستقبل الملكين الكاثوليكيين ولا مندوبيهما وقت التسليم ، ولم تقع بينه وبين الكردينال ولا بين الملكين ، الأحاديث التى سبقت الإشارة إليها .

وإلى جانب ذلك يرى بعض النقدة المحدثين ، أن أبا عبد الله حينما خرج للقاء الملكين الكاثوليكيين ، قد فعل ذلك وهو فى صحبه وحشمه فقط دون أهله ، وأنه خرج يومئذ من داره الملكية الخاصة بحى البيازين ، ولم يخرج من قصر الحمراء ، وأنه كان يعيش فى هذه الدار مع أهله وولده مذ عاد من الأسر ،

حتى أعلن الخلاف والحرب على الملكين الكاثوليكيين(١) ، وأنه كان يشعر وهو فى هذه الدار ، أنه بين أنصاره ومؤيديه ، وأخيراً أنه كان قد أمر بإخلاء قصر الحمراء ، وندب من يقوم بمهمة التسليم فى اليوم الثانى من يناير . وفى هذا اليوم خرج فى نفر من صحبه ، ليقدم إلى الملكين الكاثوليكيين شعائر التحية والخضوع ، ثم عاد إلى داره فبقى بها أياماً ، حتى سويت مسألة مصيره مع الملكين الكاثوليكيين

على أنه يبدو لنا من تتبع حوادث حصار غرناطة ، وما تلاه من مفاوضات على التسليم ، أن الرواية الراجحة فى هذا الشأن ، هو أن أبا عبدالله ، حتى مع افتراض أنه لم يشهد رسوم التسليم ، ولم يقم بها بنفسه ، كان يقيم بقصر الحمراء ، يحيط به وزراؤه وقواده طيلة هذه الأحداث الخطيرة ، أو على الأقل مذ بدأت مفاوضات التسليم بينه وبين الملكين الكاثوليكيين ، ومذ أبرمت بينهما معاهدة التسليم ، حتى يوم الحسم النهائى الذى تم فيه ذلك التسليم ، وأنه خرج فى ذلك اليوم المشهود من الحمراء للقاء عدوه الظافر . ومن المعقول أن تكون الحمراء قد أخليت قبل ذلك استعداداً لتسليمها لسادتها الجدد ، وذلك حسبما يشير إليه صاحب «أخبار العصر»(٢) .

هذا وتلقى الرواية الإسلامية المعاصرة ضوءاً على دخول ملك قشتالة مدينة غرناطة ، وتصفه على النحو الآتى :

« فلما كان اليوم الثانى لربيع الأول عام سبعة وتسعين وثمانمائة (٢ يناير سنة ١٤٩٢) أقبل ملك الروم بجيوشه حتى قرب من البلد ، وبعث جناحاً من جيشه فدخلوا مدينة الحمراء ، وأقام هو ببقية الجيوش خارج البلد ، لأنه كان يخاف من الغدر ، وكان طلب من أهل البلد حين وقع الإتفاق على ماذكر ، رهوناً من أهل البلد ليطمئن بذلك ، فأعطوه خمسمائة رجل منهم ، وأقعدهم بمحلته . فلما اطمأن من أهل البلد ، ولم ير منهم غدراً ، سرح جنوده لدخول البلد والحمراء ، فدخل منهم خلق كثير وبقى هو خارج البلد ، وأشحن الحمراء بكثير من الدقيق والطعام والعدة ، وترك فيها قائداً من قواده ، وانصرف راجعاً إلى محلته .. ثم إن ملك الروم

(١) راجع فى روايات تسليم غرناطة : Lafuente Alcantara (y citaciónes); ibid, V-III p. 72 & 73; Mamol: Historia del Rebelión y Castigo de los Moriscos del Reino de Granada, Lib. I. Cap. XX ; Gaspar y Remiro : Entrada de los Reyes Católicos en Granada al Tiempo de su Rendición. (Revista del Centro de Estudios historicos de Granada y su Reino - Ano I., Num. I, p. 7 - 24)

(٢) أخبار العصر ص ٥٠ .

سرح الناس الذين كانوا عنده مرتهنين ، ومؤمنين فى أموالهم وأنفسهم مكرمين . وأقبل فى جيوشه حين اطمأن ، فدخل مدينة الحمراء فى بعض خواصه ، وبقى الجند خارج البلد ، وبقى يتنزه فى الحمراء فى القصور والمنارة المشيدة إلى آخر النهار ، ثم خرج بجنوده وصار إلى محلته . فمن غد أخذ فى بناء الحمراء وتشييدها ، وتحصينها وإصلاح شأنها ، وفتح طرقها ، وهو مع ذلك يتردد إلى الحمراء بالنهار ويرجع بالليل لمحلته ، فلم يزل كذلك إلى أن اطمأنت نفسه من غدر المسلمين ، فحينئذ دخل البلد ، ودار فيه فى نفر من قومه وحشمه ... »[1] .

* * *

وهكذا اختتمت المأساة الأندلسية ، واستولى القشتاليون على غرناطة آخر الحواضر الإسلامية فى اسبانيا ، وخفق علم النصرانية ظافراً فوق صرح الإسلام المغلوب ، وانتهت بذلك دولة الإسلام بالأندلس ، وطويت إلى الأبد تلك الصفحة المجيدة المؤثرة من تاريخ الإسلام ، وقضى على الحضارة الأندلسية الباهرة ، وآدابها وعلومها وفنونها ، وكل ذلك التراث الشامخ ، بالفناء والمحو .

شهد المسلمون احتلال العدو الظافر لحاضرتهم ودار ملكهم ، وموطن آبائهم وأجدادهم ، وقلوبهم تتفطر حزناً وأسى . على أن هذه المناظر المحزنة ، كانت تحجب مأساة أئمة أخرى ؛ تلك هى مأساة الملك التعس أبى عبد الله آخر ملوك بنى الأحمر وآخر ملوك الإسلام بالأندلس .

فقد تقرر مصيره ، وبينت حقوقه وامتيازاته وفقاً للمعاهدة السرية التى عقدت بينه وبين الملكين الكاثوليكيين . وقد نصت المعاهدة المذكورة على أن يقطع أبو عبد الله طائفة من الأراضى والضياع فى برجة ودلاية وأندرش وأجيجر وأرجبة ولوشار وبضعة بلاد أخرى من أعمال منطقة البشرات ، وهذه البلاد يقع بعضها فى جنوب غربى ولاية ألمرية ، والبعض الآخر قبالتها فى جنوب شرقى ولاية غرناطة ، وأن يحكم أبو عبد الله فى هذه المنطقة باسم ملك قشتالة وتحت حمايته ، ويتمتع بدخلها وسائر غلاتها وحقوقها . وقد حددت إقامته ، أو اختار هو الإقامة فى إحداها وهى بلدة أندرَش الواقعة على النهر الأخضر شمالى ثغر أدرة الصغير .

ولما اقترب اليوم المروع — يوم التسليم — قام أبو عبد الله باتخاذ أهبته للرحيل مع أهله وحشمه وخاصته . وفى صباح اليوم الثانى من يناير سنة ١٤٩٢ ، فى الوقت

---

(١) أخبار العصر ص ٥٠ و ٥١ .

للذى اقترب فيه النصارى من أسوار غرناطة ، كان أبو عبد الله قد غادر قصره وموطن عزه ومجد آبائه إلى الأبد ، فى مناظر تثير الأسى والشجن .

وهنالك روايتان ، فهل خرج أبو عبد الله عندئذ لآخر مرة من الحمراء مع أهله وحشمه وأمتعته ؟ أم هل خرج بمفرده فى صحبه من الحمراء للقاء الملكين الكاثوليكيين ، ثم لحق به بعد ذلك ركب أهله وأمتعته ؟ وهل سار توآ إلى طريق البشرات حيث تعين محل إقامته ، أم عرج على المعسكر القشتالى الملكى فى شنتفى فلبث فيه مع أهله أياماً ، ثم سار بعد ذلك إلى البشرات ؟

أما الرواية الأولى ، وهى أكثر الروايات ذيوعاً لدى المؤرخين القشتاليين ، فتجرى على النحو الآتى :

فى فجر اليوم الثانى من يناير ، وهو اليوم الذى حدد لتسليم الحمراء ، كان رنين البكاء يتردد فى غرف قصر الحمراء وأبهائه ، وكانت الحاشية منهمكة فى حزم أمتعة الملك المخلوع وآله ، وقد ساد الوجوم كل محيا ، واحتبست الزفرات فى الصدور . وماكادت تباشير الصبح تبدو ، حتى غادر القصر ، ركب قاتم موثر هو ركب الملك المنفى ، يحمل أمواله وأمتعته ، ومن ورائه أهله وصحبه القلائل ، وحوله كوكبة من الفرسان المخلصين . وكانت أمه الأميرة عائشة تمتطى صهوة جوادها ، يشع الحزن من محياها الوقور ، وكان باقى السيدات من آله وحشمه ، يرسلن الزفرات العميقة والدموع السخينة . واخترق الركب غرناطة فى صمت البكور وستره ؛ وحين بلغ الباب الذى سيغادر منه المدينة إلى الأبد، ضج الحراس بالبكاء لرؤية ذلك المنظر المؤلم؛ ثم اتجه الركب صوب نهر شنيل فى طريق البشرات .

وليس أبلغ فى وصف هذه المناظر المؤسية من قول شوقى طيب الله ثراه:[1]

مشت الحادثات فى غرف الحمـ ... راء مشى النعش فى دار عرس
هتكت عزة الحجاب وفضت ... سدة الباب من سمير وأنس
عرصات تخلت الخيل عنها ... واستراحت من احتراس وعس
ومغارة على الليالى وضاء ... لم تجد للعشى تكرار مس

* * *

آخر العهد بالجزيرة كانت ... بعد عرك من الزمان وضرس
فتراها تقول راية جيش ... باد بالأمس بين أسر وحس

---

(١) من قصيدته السينية الأندلسية الشهيرة ، التى ينحو فيها نحو البحترى فى سينيته .

ومفاتيحهـــا مقـــاليد ملك باعها الوارث المضيع ببخس
خرج القوم فى كتائب صم عن حفاظ كوكب الدفن خرس
ركبــوا بالبحـــار نعشــا وكانت تحت آبائهم هى العرش أمس

* * *

وأما أبو عبد الله ، فقد اتجه إلى وجهة أخرى ليتجرع كأسه المرة إلى الثمالة ، وكان قد تقرر اللقاء فى صباح ذلك اليوم بينه وبين ملك قشتالة ، فخرج من باب مدينة الحمراء المسمى باب الطباق السبع Siete Suelos ، فى طريقه إلى لقاء عدوه الظافر ، وسيده الجديد، فى نفر من الفرسان والخاصة . فاستقبله فرناندو بترحاب وحفاوة فى محلته على ضفة نهر شنيل . وتصف لنا الرواية القشتالية هذا المنظر المؤثر فتقول إن أبا عبد الله حين لمح فرناندو هم بترك جواده ، ولكن فرناندو بادر بمنعه وعانقه بعطف ومودة ، فقبل أبوعبد الله ذراعه اليمنى إيماءة الخضوع . ثم قدم إليه مفتاحى البابين الرئيسيين للحمراء قائلا : « إنهما مفتاحى هذه الجنة ، وهما الأثر الأخير للدولة المسلمين فى اسبانيا ، وقد أصبحت أيها الملك سيد تراثنا وديارنا وأشخاصنا . وهكذا قضى الله ، فكن فى ظفرك رحيما عادلا » . وتضيف الرواية القشتالية إلى ذلك أن فرناندو تناول المفتاحين قائلا : « لا تشك فى وعودنا ، ولا تعوزنك الثقة خلال المحنة ، وسوف تعوض لك صداقتنا ما سلبه القدر منك »[1]. بيد أن مؤرخاً قشتالياً عاش قريباً من ذلك العصر ، يقدم إلينا رواية أخرى ربما كانت أقرب إلى الصحة والمعقول ، وهى أن مفاتيح الحمراء قدمها القائد ابن كماشه مأمور التسليم إلى الملك فرناندو حينما وصل إلى الباب الرئيسى ، وأن فرناندو ناولها بدوره إلى قائده لوبث دى مندوسا (كونت تندليا) الذى عينه حاكماً عسكرياً لغرناطة[2]. وسار أبو عبد الله بعد ذلك صحبة فرناندو ، إلى حيث كانت الملكة إيسابيلا فى ضاحية أرمليا، فقدم إليها تحياته وطاعته . ثم ارتد إلى طريق البشرات ليلحق بأسرته وخاصته . وهنا تقول الرواية القشتالية إن أباعبد الله

---

(١) تردد معظم التواريخ القشتالية اللاحقة وصف هذا المنظر الذى يصطبغ بلون الأسطورة . وقد خلدته ريشة المصور الإسبانى فى أكثر من لوحة شهيرة تعرض فى المتاحف الإسبانية ، وحفرته يد الفنان فى داخل كنيسة طليطلة العظمى . راجع فى ذلك: **L. Alcantara : ibid ; V. III p. 73**

(٢) **Luis del Marmol : Rebelión y Castigo de los Moriscos de Granada, Lib. I, Cap. XX**

أشرف أثناء مسيره فى شعب تل البذول (بادول) على منظر غرناطة ، فوقف يسرح بصره لآخر مرة فى هاتيك الربوع العزيزة التى ترعرع فيها ، وشهدت مواطن عزه وسلطانه ، فانهمر فى الحال دمعه ، وأجهش بالبكاء . فصاحت به أمه عائشة : « أجل فلتبك كالنساء ، ملكاً لم تستطع أن تدافع عنه كالرجال » . وتعرف الرواية الإسبانية تلك الأكمة التى كانت مسرحاً لذلك المنظر المحزن باسم شعرى مؤثر هو « زفرة العربى الأخيرة » El ultimo Suspiro del Moro ، وما تزال قائمة معروفة حتى اليوم ، يعينها سكان تلك المنطقة للسائح المتجول .

ثم تقول الرواية أيضاً إن باب الحمراء الذى خرج منه أبو عبد الله لآخر مرة ، وهو باب الطباق السبع قد سد عقب خروجه برجاء منه إلى ملك قشتالة ، وبنى مكانه ، حتى لا يجوزه من بعده إنسان(١) . وما زالت الرواية تعين لنا مكان هذا الباب بين الأطلال الدارسة . وهو يقع فى طرف الهضبة فى الجنوب الشرقى منها على مقربة من « برج الماء » . وقد رأيناه ، وقد سد فراغه حقيقة بالبناء .

وأما الرواية الأخرى ، وهى الأقل ذيوعاً ، فخلاصتها أن أبا عبد الله خرج من الحمراء فى صبيحة يوم التسليم بمفرده وفى نفر من صحبه إلى لقاء الملكين الكاثوليكيين وخرج بعد ذلك ركب أهله وأمتعته من الدار الملكية بحى البيازين ليلتقى به بعد انتهاء مهمته ، وأنه لم يسر بعد ذلك توا إلى البشرات ، بل سار بأهله وأمتعته إلى المعسكر القشتالى فى شنتفى ، فقضى به أياماً ، حتى سويت المسائل المتعلقة بمصيره ، ثم سار الجميع بعد ذلك إلى أندرش التى اختارها أبو عبد الله مستقراً ومقاماً .

* * *

وقد كان لمحنة الأندلس المؤلمة ونهايتها المحزنة ، وقع عميق فى جنبات العالم الإسلامى ، ولا سيا فى أمم المغرب ، فى الضفة الأخرى من البحر . غير أن هذه المحنة الغامرة لم تثر وحى الشعر ، كما أثاره من قبل سقوط الثغور والقواعد الأندلسية ، أيام أن كان للدولة الإسلامية بقية من القوة والأمل . ذلك أن دولة الشعر الأندلسى كانت قد انهارت منذ بعيد ، وتحطمت الأقلام ، وعقدت المحنة الغامرة كل لسان . ومع ذلك فقد صدرت فى رثاء الأندلس نفثات قوية مؤثرة تهز أوتار القلوب ، معظمها من الضفة الأخرى من البحر من شعراء المغرب .

ومن أشهر المراثى التى نظمت فى رثاء الأندلس عقب المحنة بقليل ، رثاء طويل

---

(١) Marmol: ibid; Lib. I; Cap. XX; L. Alcantara; ibid; V. III. p. 80.

موثر لشاعر أندلسي مجهول، يبدو أنه عاصر حوادث المحنة من بدايتها حتى نهايتها .
وإليك مقتطفات من تلك المرثية المشجية التي رتبت وفقاً للوقائع والتواريخ :

أحقاً خبا من جو رندة نورها ... وقد كسفت بعد الشموس بدورها
وقد أظلمت أرجاؤها وتزلزلت ... منازلها ذات العلا وقصورها
فيا ساكني تلك الديار كريمة ... سقى عهدكم مزن يصوب نميرها
أحقاً أخلائي القضاء أبادكم ... ودارت عليكم بالصروف دهورها
فقتل وأسر لا يفادى وفرقة ... لدى عرصات الحشر يأتي سفيرها

* * *

فواحسرتا كم من مساجد حولت ... وكانت إلى البيت الحرام شطورها
وواأسفا كم من صوامع أوحشت ... وقد كان معتاد الأذان يزورها
فمحرابها يشكو لمنبرها الجوى ... وآياتها تشكو الفراق وسورها
وكم طفلة حسناء فيها مصونة ... إذا أسفرت يسبي العقول سفورها
فأضحت بأيدى الكافرين رهينة ... وقد هتكت بالرغم منها ستورها(١)
وكم فيهم من مهجة ذات ضجة ... ترد لو انضمت عليها قبورها
لها روعة من وقعة البين دائم ... أساها وعين لا يكف هديرها
وكم من صغير فى حجر أمه ... فأكبادها حراء لفح هجيرها
وكم من صغير بدل الدهر دينه ... وهل يتبع الشيطان إلا صغيرها

* * *

لأندلس ارتجت لها وتضعضعت ... وحق لديها محوها ودثورها
منازلها مصدورة وبطاحها ... مدائنها موتورة وثغورها
تهائمها مفجوعة ونجودها ... وأحجارها مصدوعة وصخورها
وقد لبست ثوب الحداد ومزقت ... ملابس حسن كان يزهو حبورها
فأحياؤها تبدى الأسى وجمادها ... يكاد لفرط الحزن يبدو ضميرها
فمالقة الحسناء ثكلى أسيفة ... قد استفرغت ذبحاً وقتلا حجورها
وجزت نواصيها وشلت يمينها ... وبدل الويل المبين سرورها

(١) يكرر الشاعر فى هذه الأبيات نفس المعانى التى وردت فى مرثية أبى الطيب الرندى الشهيرة .

وقد كانت الغربية الجنن التى   تقيها فأضحى جنة الحرب سورها
وبلّش قطعت رجلهـا بيمينها   ومن سريان الداء بان قطورها
وضحت على تلك الثنيات حجرها   فأقفر مغناها وطاشت حجورها
وبالله إن جئت المنكّب فاعتبر   فقد خف ناديها وجف نضيرها
ألا ولتقف ركب الأسى بمعـالم .   قد ارتج باديها وضج حضورها
بدار العلا حيث الصفات كأنها   من الخلد والمأوى غدت تستطيرها
محـل قرار الملك غرناطة التى   هى الحضرة العليا زهتها زهورها
ترى الأسى أعلامها وهى خُشّع   ومنـبرها مسـتعبر وسريرها
ومأمومها ساهى الحجى وإمامها   وزائرها فى مأتم ومزورها
وبَسْطة ذات البسط ما شعرت بما   دهاها وأنى يستقيم شـعورها
وما أنس لا أنس المريّة إنهـا   قتيلة أوجال أزيل عـذارها
منازل آبائى الكرام ومنشئ   وأولى أوطان غذانى خيرها(١)

ثم يشير الشاعر بعد هذا الترتيب التاريخى لسقوط قواعد الأندلس ، إلى محاولة الإسبان تنصير المسلمين لأول مرة ، وما ترتب على ذلك من قيام الثورة فى بعض الجهات :

وجاءت إلى استئصال شأفة ديننا   جيوش كموج هبت دبورها
علامات أخذ ما لنا قبل بهـا   جنايات أخذ قـد جناها مثيرها
فلا تنمحى إلا بمحو أصولها   ولا تنجلى حتى تخط أصورها
معاشر أهل الدين هبوا لصعقـة   وصاعقة وارى الجسوم ظهورها
أصابت منـار الدين فانهد ركنه   وزعزع من أكنافه مستطيرها
إلا واسـتعدوا للجهـاد عزائماً   يلوح على ليل الوغى مستنيرها
بأنفس صـدق موقنات بأنهـا   إلى الله من تحت السيوف مصيرها
تروم إلى دار السـلام عرائساً   على الله فى ذاك النعيم مهورها(٢)

---

(١) يبدو من هذا البيت أن الشاعر كان من أهل المرية ونشأ بها .

(٢) نشر هذه المرثية وهى فى أكثر من مائة بيت أحد أدباء الجزائر ، مقرونة بترجمة فرنسية تحت عنوان : **Une Elégie andalouse sur la guerre de Grenade** وذكر الناشر وهو صويلح محمد ، أنه نقلها عن مخطوط محفوظ بمكتبة الجزائر ومؤرخ فى شعبان سنة ٨٩٧ هـ (يونيه سنة ١٤٩٢ م) أعنى بعد سقوط غرناطة ببضعة أشهر . والظاهر أنه حينما وضعت هذه القصيدة كان الإسبان قد بدأوا محاولتهم الأولى لتنصير المسلمين .

هذا وقد صدرت عن أدباء المغرب ، فى الضفة الأخرى من البحر ، طائفة كبيرة من المراثى البليغة ، فى نعى الأندلس والإشادة بفضائلها ، وفداحة الخطب فيها . وكان شعراء المغرب لقربهم من مسرح الحوادث ، ووقوفهم على كثير من الأخبار والسير المفجعة عن إخوانهم بالأندلس ، أشد من غيرهم تأثراً بالمحنة ، وأكثرهم إفاضة فى ندب ويلاتها[1] .

(١) نقل إلينا المقرى فى أزهار الرياض بعض هذه المراثى المغربية ، ومن ذلك قصيدة أبى العباس أحمد بن محمد الصنهاجى المشهور بالدقون (ج ١ ص ١٠٤ وما بعدها) .

الفصل الرابع

ختـــام المأســـاة

وقع محنة الأندلس فى العالم الإسلامى . سفارة فرناندو إلى بلاط مصر . موضوع هذه السفارة حسبما دونها بيترو مارتيرى . صدى المأساة فى المغرب . مسير أبى عبد الله إلى أندرش وحياته فيها . خطة الملكين الكاثوليكيين لإبعاده عن الأندلس . الاتفاق على بيع حقوقه وجوازه إلى المغرب . نص قبول أبى عبد الله . جوازه إلى فاس والتجاؤه إلى ملكها . دفاع أبى عبد الله المسمى بالروض العاطر الأنفاس . الوزير العقيلى كاتب هذا الدفاع . بعض ما ورد فى الدفاع من المنظوم . بعض ما ورد فيه من المنثور . اعتذار أبى عبد الله ودفعه لتهمة التفريط والخيانة . استعراض لموقفه وتصرفاته . معترك الفتنة الذى أودى بمملكة غرناطة . تبعة أبى عبد الله . حياته بمدينة فاس . وفاته وعقبه . حمراء غرناطة . تاريخها وأوصافها . ما بقى من أبنيتها وأبهائها . تشويه الإسبان لجمالها الأثرى . روعتها وتراثها القصصى . تغدو مسرحاً لحوادث غرناطة . ما يدور حولها من الأساطير . الأساطير الغرامية . أصل هذه الأساطير ومغزاها . قصيدة شوقى فى رثاء الحمراء .

لم يكن سقوط غرناطة فى يد النصارى حادثاً فجائياً ، بل كان بالعكس نتيجة طبيعية ، لما تقدمه من الحوادث الاندلسية ، وكان خاتمة محتومة لاستشهاد طويل الأمد . ومع ذلك فقد كان لسقوط غرناطة أوبعبارة أخرى لانتهاء دولة الإسلام فى الأندلس ، وقع عميق فى الضفة الأخرى من البحر ، فى أمم المغرب التى لبثت عصوراً ترتبط بالأندلس بأوثق الروابط ، وفى سائر أنحاء العالم الإسلامى .

وكان للحادث أيضاً وقعه العميق فى سائر الأمم النصرانية ؛ فقد ابتهجت له أيما ابتهاج ، واعتبرته من بعض الوجوه عوضاً لسقوط قسطنطينية فى قبضة الإسلام قبل ذلك بأربعين عاماً . وخلدت ذكرى الحادث فى رومة بإقامة قداس أعظم ، واستمر ابتهاج الشعب أياماً . ورحبت سائر قصور أوربا بالنبأ ، وأقامت لإحيائه الحفلات الدينية والمدنية ، منوهة بفضل فرناندو وإيسابيلا فى تحقيق هذه الأمنية العظيمة[1] .

وقد كانت الأندلس تثير منذ البداية جزع الأمم الإسلامية وعطفها . ولكن الأمم الإسلامية لم تستطع أن تبذل أى مجهود على لإنقاذ الأندلس من قدرها المحتوم ،

---

(1) Prescott : Ferd. & Isabella p. 299 والهامش .

ولم يتحقق من جهة أخرى ما كانت ترجوه مصر بتدخلها السياسي لدى ملوك النصرانية من أثر ملطف فى سير الحوادث الأندلسية . وقد كانت مصر بالرغم من بعدها تتبع أحوال الأندلس باهتمام خاص، لم ينتقص منه سوى اضطراب شئونها الداخلية فى ذلك الحين . ولما استولى النصارى على غرناطة ، وحققت بذلك أمنية اسبانيا التاريخية كاملة شاملة، لم ينس ملك قشتالة ما جاء فى سفارة سلطان مصر من وعيد بأن ينكل برعاياه النصارى ، ولم يقنع بالخطاب الذى وجهه إليه على يد سفيريه الراهبين . فلما استقرت الأمور وخضعت سائر الأراضى الإسلامية ، رأى فرناندو أن يسعى إلى إقناع سلطان مصر ، بما يلقاه مسلمو الأندلس من الرعاية والرفق فى ظل الحكم الجديد ، فأوفد إلى بلاط القاهرة سفارة جديدة . وكان سفيره إلى السلطان هو پيترو مارتيرى دى أنجلريا ، وهو حبر نابه ، وكاتب ومؤرخ كبير ، وكان من مستشارى الملك . ندبه فرناندو لهذه السفارة فى أغسطس سنة ١٥٠١ ، وزوده بالكتب والوثائق اللازمة . ووصل مارتيرى إلى الإسكندرية بعد رحلة بحرية شاقة عن طريق إيطاليا واليونان فى أواخر شهر ديسمبر ، ثم وصل إلى القاهرة فى آخر يناير ، وكان سلطان مصر فى ذلك الحين الملك الأشرف جان بلاط ، فاستقبل سفير الملكين الكاثوليكيين عقب وصوله برفق ورعاية ، ولكن نقلت إليه على أثر ذلك أقاويل كثيرة من بعض الأشراف والمغاربة والأندلسيين المنفيين ، الذين استنكروا مسلكه وتكريمه لسفير ملك استولى على أراضى المسلمين فى الأندلس ، وهو الآن يسومهم الخسف والعذاب . فبعث إلى السفير يرجوه الانصراف من حيث أتى خوفاً من سوء العواقب ، ولكن مارتيرى بعث إلى السلطان يشرح له خطورة الأمر ، ويصف عظمة مليكيه ، وروعة سلطانهما الباذخ الذى يمتد حتى أواسط البحر الأبيض المتوسط ، وكونهما يستطيعان الانتقام والإضرار بمن يسىء إليهما . فعاد السلطان واستقبله فى مقابلة سرية خاصة استمرت من الصباح إلى الظهر . وكان ذلك فى السادس من فبراير سنة ١٥٠٢ (شعبان سنة ٩٠٧ هـ) ، وألقى مارتيرى بين يديه خطاباً ضافياً فند فيه ما ينسب لمليكه من الاستيلاء ظلماً على غرناطة ، واضطهاده للمسلمين ، وقهرهم على التنصير ؛ وبين مارتيرى حق سيده فى الفتح ، وكونه يحكم مئات الألوف من الرعايا المسلمين الذين يعيشون فى بلنسية وأراجون ، وهم جميعاً يتمتعون بشعائرهم أحراراً ، واستطاع بكياسته وبراعته ، أن يقنع السلطان بصدق رسالته ، وحسن نيات مليكيه ، وقدم إلى

السلطان شهادات من حكام الثغور المغربية ، تفيد بأن المسلمين المهاجرين إلى المغرب يصلون إلى الشواطىء مع نسائهم وأولادهم فى أمن وسلام ، ويلقون من مندوبى الملكين كل رفق ورعاية(١) ، واستطاع فوق ذلك بذلاقته أن يقنع السلطان بأن يجيب مطالبه فى إعفاء نصارى بيت المقدس من طائفة من المغارم والفروض .

ويصف لنا مارتيرى قصر السلطان بأنه يقوم على ربوة ، على نمط قصر الفاتيكان فى رومة ، وقصر الحمراء فى غرناطة ؛ ويصف السلطان بأنه رجل فى نحو الخمسين من عمره ، ذو لحية كعادة أهل البلاد ، ولكن صغيرة نحيلة ، وهو مهيب الطلعة ذو وجه عبل أسمر ، وهيئة حوشية نوعاً ، وعينين صغيرتين غائرتين ؛ وحركاته ثقيلة ، وقوامه فوق المتوسط حسبما يبدو من جلسته ، وهو يرتدى ثوباً لا يختلف كثيراً عما يسميه أهل غرناطة « بالجبة ».

ويورد مارتيرى أثناء وصف حوادث سفارته نبذة طويلة عن تاريخ مصر الإسلامية ، ووصفاً ضافياً للقاهرة والنيل والأهرام ، ووصفه قوى شائق(٢) .

وهكذا كان الصدى الأليم الذى أثارته حوادث الأندلس فى الأمم الإسلامية يخبو شيئاً فشيئاً . ولم تمض أعوام قلائل حتى أسدل عليها فى المشرق حجاب من النسيان ولكن ذكرى الأندلس وحوادثها ، لبثت حية قوية فى عدوة المغرب عصوراً أخرى. ذلك أن المأساة الأندلسية لم تنته بسقوط غرناطة ، بل كان عليها أن تجوز ثمة فصولا مفجعة أخرى، قبل أن تصل إلى نهايتها . وكانت هذه الفواجع أول ما تلقى صداها العميق فى الضفة الأخرى من البحر ، حيث كانت العدوة دائما ملاذ الضحايا الأخير .

— ٢ —

ولنبدأ الحديث عن مصير الملك المنكود أبى عبد الله محمد بن على آخر ملوك الأندلس ، فقد غادر غرناطة ، ساعة استيلاء النصارى عليها ، وسار مع آله وصحبه وحشمه إلى منطقة البشرّات ، واستقر هنالك فى بلدة أنْدَرَش ، وهى إحدى

---

(١) Marmol : ibid ; Lib. I. Cap. XXVI

(٢) بيترومارتيرى دى أنجلريا Pietro Martiri de Angleria إيطالى النشأة ، ولد سنة ١٤٥٥ وتوفى سنة ١٥٢٥ . وكان حبراً وكاتباً كبيراً . شهد حرب غرناطة الأخيرة إلى جانب فرناندو . وكتب عن سفارته إلى مصر باللاتينية كتاباً خاصاً عنوانه Legatio Babylonice ؛ وقد ترجم إلى الإسبانية بعنوان Una Embajada de los Reyes Catolicos a Egipto (سفارة من الملكين الكاثوليكيين إلى مصر) وقد نقلنا منه ملخص هذه السفارة حسبما تقدم. وللمارتيرى مؤلفات أخرى فى تاريخ اسبانيا فى ذلك العصر .

البلاد التى أقطعت له فى تلك المنطقة ، ليقيم فيها فى ظل ملك قشتالة وتحت حمايته، وصحبه إلى وطنه الجديد ، كثير من الفرسان والسادة والفقهاء ، وفى مقدمتهم وزيراه يوسف بن كماشه ، وأبو القاسم عبد الملك (المليخ) ، وكانا ألصق الناس به ، وأقربهم إلى ثقته . وكانت أسرة السلطان المنفى تتألف من والدته السلطانة عائشة ، وأخته عائشة ، وزوجه مريم (أو مريمة) وولده الصغير[1] . أما أخوه الأصغر يوسف فكان قد قتل فى ألمرية أيام الفتنة بتحريض أبيه السلطان أبى الحسن حسبما قدمنا .

وكان أبو عبد الله عندئذ ، فتى فى نحو الثلاثين من عمره . وبالرغم من أننا لا نعرف بالضبط تاريخ مولده ، فإن صديقه المؤرخ القشتالى هرناندو دى بايثا ، يقول لنا إنه كان فى نحو العشرين ، يوم استطاع الفرار من سجن أبيه السلطان أبى الحسن فى سنة ١٤٨٢ (٨٨٧ هـ) ؛ وبذلك يكون سنه وقت تسليم غرناطة نحو الثلاثين[2] .

وقد تركت لنا الرواية القشتالية المعاصرة أيضاً ، وصفاً لشخص أبى عبدالله ، خلاصته أنه كان ممشوق القد، حسن الطلعة ، شاحب اللون ، له عينان سوداوان نجلاوان ، ولحية قوية[3] .

وعاش أبو عبد الله وآله وصحبه ، فى تلك المملكة الصغيرة الذليلة حيناً ،

---

(١) تشير بعض الوثائق المعقودة بين الملكين الكاثوليكيين وأبى عبد الله إلى « إخواته » مما يدل على أنه كانت له أكثر من أخت . والمرجح أن عائشة كانت كبراهن .

(٢) راجع رواية **Hernando de Baeza** القشتالية المنشورة ضمن كتاب أخبار العصر ص٦٣.

(٣) **Lafuente Alcantara: ibid, V. III. p. 74** . هذا وقد انتهت إلينا عن أبى عبد الله صورتان اسبانيتان ، كانت تحفظ إحداهما من قبل ، بمتحف قصر جنة العريف قبل إلغائه ، وفيها يبدو أبوعبد الله بوجه وسيم ولون جميل وشعر كثيف أصفر ولحية مفروقة . ويرتدى ثوباً أصفر ، يظله حرير أسود ، وعلى رأسه قلنسوة عالية . وقد نقلت هذه الصورة فيما بعد إلى إيطاليا ، وأضحت ملكاً لبعض الأسر الخاصة . والصورة الثانية تحفظ اليوم بمتحف غرناطة المسمى **Casa de los Tiros** والمعروف أنها رسمت لأبى عبد الله حينما كان فى أسر الملكين الكاثوليكيين ، عقب موقعة اللسانة ، وهى عبارة عن لوحة صغيرة الحجم ، وفيها يبدو أبوعبد الله فتى فى عنفوانه ، بوجه عريض وأنف منسق، وعينين خضراوين ، ونظرات حادة ، تغشاها الكآبة ، وشعر كستنى غزير ، ولحية صغيرة مفروقة . وقد رسمت حول عنقه حلقة رمزية لوقوعه فى الأسر . وقد شهدنا هذه الصورة ، أثناء وجودنا بغرناطة، ونقلنا عنها صورة فتوغرافية هى التى نشرناها من قبل (فى ص ٢٠٧) .



أبو عبد الله محمد آخر ملوك الأندلس
عن الصورة التي كانت محفوظة من قبل بمتحف جنة العريف بغرناطة .

وأنشأ له فى أندرش بلاطاً صغيراً . وتقول لنا الرواية القشتالية ، إنه كان يعيش هنالك فى ترف ورغد ، وإنه كان يعشق الصيد ويقضى فيه كثيراً من أوقاته ، ويجوب أطراف مملكته الصغيرة فوق جواده(١) .

وكان فرناندو وإسابيلا ، بالرغم من انتصارهما الشامل ، وقضائهما الأخير على المملكة الأندلسية ، قد لبثا يتوجسان فى أعماق نفسيهما ، من بقاء السلطان المخلوع فى الأراضى الإسبانية ، ويخشيان أن يكون مثار القلاقل والفتن ، ويتوقان إلى إبعاده وحاشيته عنها ، مبالغة فى الحيطة ، واتقاء لكل خطر ، وكان يفرضان على أبى عبد الله رقابة صارمة ، ويتلقيان أدق التقارير والأنباء ، عن حركاته وسكناته ، وكانت عينهما الساهرة على رقابته ، الوزيران الماكران يوسف بن كماشه وأبو القاسم عبد الملك(٢) . ولم يمض على إقامة أبى عبد الله فى أندرش زهاء عام ، حتى بدأ الملكان الكاثوليكيان يسعيان سرًّا ، فى تحقيق غايتهما الأخيرة ، وكان سبيلهما إلى ذلك أيضاً ابن كماشه وأبا القاسم . ففى مارس سنة ١٤٩٣ وقعت مفاوضات جديدة بين الوزيرين ، وبين فرناندو دى ثافرا أمين الملكين الكاثوليكيين ، فى شأن مغادرة أبى عبد الله الأراضى الإسبانية ، والعبور إلى المغرب . ويقال إن أبا عبد الله لم يأذن لوزيريه فى إجراء هذه المفاوضات ، ولم يعلم بأمرها حتى تمخضت عن مشروع جديد ، يقرر فيه أبو عبد الله بتنازله عن جميع حقوقه وأملاكه ، نظير ثمن معين ، ويتعهد بالعبور إلى المغرب . ويقال إن الملك المنكود ، حينما عرض عليه ابن كماشة هذا الاتفاق ، ثار لعقده ، وكاد يبطش بوزيره ، ولكنه عاد فاستمع إلى شرح الوزير ونصحه ، بأن البقاء فى أرض العدو ، وفى ظل العبودية والهوان ، لم يبق له محل ، وأنه ليس مكفول السلامة والطمأنينة ، وأن العبور إلى أرض الإسلام خير وأبقى . هذا ولعل أبوعبد الله نفسه قد أدرك ، كما أدرك عمه مولاى الزغل من قبل ، أن تلك الحياة الذليلة التى فرضت عليه ، لا تخلق به ولا تجمل ، وأنه يستحيل عليه البقاء فى هذا الوضع المؤلم ، كتابع لملك قشتالة . وعلى أى حال فقد اقتنع أبو عبد الله ، بوجهة نظر وزيره . ولكنه أرسل أمينه ومدير شئونه أبا القاسم عبد الملك (المليخ) ، ليسعى إلى تعديل الاتفاق لمصلحته . وبعد مفاوضات جديدة ، وضع الاتفاق النهائى ، الذى قبله السلطان

---

(١) Lafuente Alcantara: ibid; V. III. p. 80

(٢) Lafuente Alcantara: ibid, V. III. p. 81

المخلوع . وخلاصته أنه يتعهد بالعبور إلى المغرب ، فى موعد أقصاه نهاية شهر أكتوبر سنة ١٤٩٣ ، وأنه يتنازل عن سائر ضياعه ، فى أندرش ولوشار وبرشينا وغيرها ، وكذلك عن أملاكه الأخرى بغرناطة ، بالبيع للملكين الكاثوليكيين ، وذلك نظير ثمن إجمالى قدره واحد وعشرون ألف جنيه قشتالى (كاستليانو) من الذهب الحر ، أو الدوقات المضروبة ، من الذهب الخالص . كما يتنازل أبو عبد الله عن اختصاصه المدنى والجنائى . ويحمل إليه المال قبل رحيله بثمانية أيام ، ويقدم إليه الملكان عربتين لحمل متاعه ، وسفناً ينتقل عليها مع صحبه ، إلى المغرب ، ويتضمن الاتفاق نصوصاً أخرى ببيع الأميرات لأملاكهن ، إلى الملكين الكاثوليكيين ، وكذلك ببيع الوزير ابن كماشه والوزير أبى القاسم كل لأملاكه ، نظير مقادير من المال ، وبنفس الشروط .

تلك خلاصة الإتفاق الأخير ، الذى عقد بين الملكين الكاثوليكيين ، وبين آخر ملوك الأندلس ، للتنازل عن سائر حقوقه وحقوق آله وصحبه ، ومغادرته لأرض الوطن القديم ، بصورة نهائية . ويحمل هذا الاتفاق ، تاريخ ١٥ ابريل سنة ١٤٩٣ ، وتملأ نسخته القشتالية عشر صفحات كبيرة . وهو يمتاز دون سائر الوثائق القشتالية الأخرى ، التى تتعلق بهذه الفترة ، بأنه يحمل فى ذيله موافقة أبى عبد الله بالعربية ممهورة بتوقيعه وخاتمه ، وإلى القارئ نص هذه الموافقة ، التى تدلى ألفاظها ومعانيها بكثير من العبر المؤلمة:(١)

« الحمد لله إلى السلطان والسلطانة أضيافى ، أنا الأمير محمد بن على بن نصر خديمكم ، وصلتنى من مقامكم العلى ، العقيد وفيها جميع الفصول ، الذى عقدها عنى وبكم التقديم ، من خديمى القائد أبو القاسم المليخ ، ووصلت بخط يدكم الكريمة عليها ، وبطابعكم العزيز ، كيف هيت مذكورة بهذا الذى هى تصلكم ؛ وإنى نوفى ونحلف أنى رضيت بها ، بكلام الوفا مثل خديم جيد . وترى هذا خط يدى وطابعى أرقيته عليها ، لتظهر صحة قولى . ووصلت بتاريخ الثالث والعشرين من شهر رمضان المعظم عام ثمانية وتسعون وثمانمائة . أنا كاتبه محمد بن على بن نصر

(١) حصلنا على صورة فتوغرافية لهذه الوثيقة ، وهى تحفظ بدار المحفوظات العامة فى سيمانقا Archivo general de Simancas برقم P. R. 11 - 3 ، وتعرض الصفحة الأخيرة ، التى تضمنت خط أبى عبد الله ، فى قاعة المعرض بدار المحفوظات ، كما تعرض صورة مكبرة من موافقة أبى عبد الله ، بمتحف مدريد الحربى مقرونة بترجمة قشتالية .

رضيت وقبلت جميع ما فى هذا المكتوب الثابت ، وتقبل بيدى ، إلى أضيافى السلطان والسلطانة مدّ لى هنا كما » .

وهكذا اعتزم أبو عبد الله أمره ، وعول فى النهاية على مغادرة الوطن المغلوب وتوفيت زوجته أثناء ذلك ، فلم يحل الرزء دون مضيه ، فى اتخاذ أهبة الرحيل . وفى أوائل شهر أكتوبر سنة ١٤٩٣ ، غادر أبو عبد الله الوطن القديم ، فى غمر من الحسرات والأسى ، وجاز البحر إلى المغرب ، بأسرته وأمواله وحشمه ، من ثغر أدرة الصغيرة الواقع جنوبى برجة ، فى سفينة كبيرة أعدت لجوازه ، وعبر فى نفس الوقت من ثغر المنكب ؛ عدد كبير من الوزراء والقادة والأكابر ، من صحبه ممن آثروا الرحيل ، وبلغ جميع الذين عبروا مع الملك المخلوع ألفاً ومائة وثلاثين شخصاً (١) .

ونزل أبو عبد الله أولا فى مليلة ثم قصد إلى فاس واستقر بها(٢). وتقدم إلى ملكها السلطان أبى عبد الله محمد الشيخ ، زعيم بنى وَطّاس(٣) الذين خلفوا بنى مرين فى الملك، مستجيراً به ، مستظلا بلوائه ورعايته، معتذراً عما أصاب الإسلام فى الأندلس على يده ، متبرئا مما نسب إليه من إثم وتفريط فى حق الوطن والدين .

وهذا الدفاع الشهير الذى يقدمه إلينا أبو عبد الله عن موقفه وتصرفه ، هو قطعة رائعة من الفصاحة السياسية والبيان الساحر ، وهو يدل فى روحه وقوته وروعته ، على فداحة التبعة التى شعر آخر ملوك الأندلس أنه يحملها أمام الله والتاريخ ، وأمام الأمم الإسلامية والأجيال القادمة كلها ، وعلى أن هذا الأمير المنكود لم يرد أن ينحدر إلى غمر النسيان والعدم ، محكوماً عليه دون أن يبسط للتاريخ قضيته ، فيصدر حكمه فيها على ضوء أقواله ودفاعه .

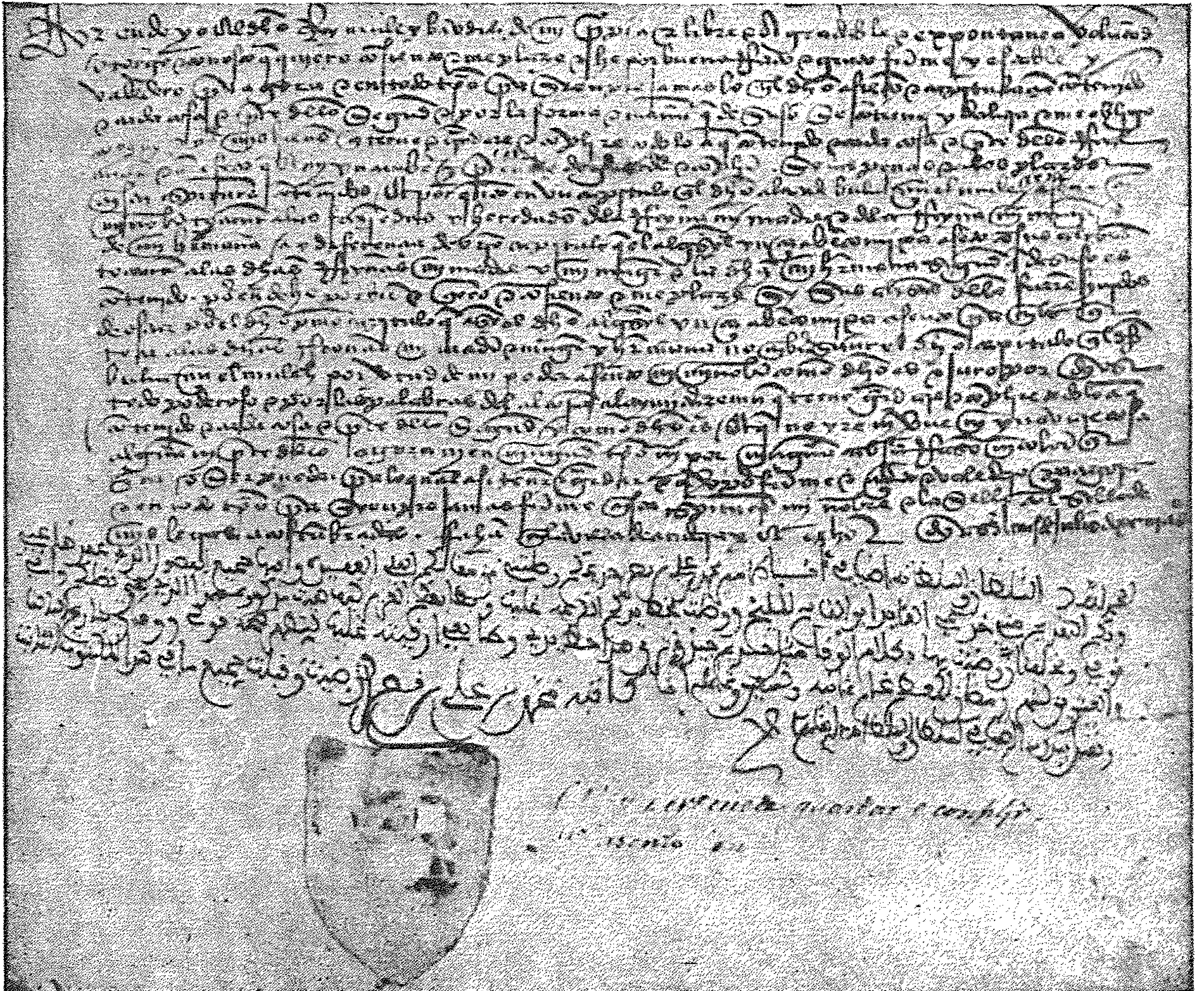
وقد كتب هذا الدفاع الشهير ، الفريد فى التاريخ الإسلامى، على لسان أبى عبد الله

---

(١) Lafuente Alcantara: ibid, V. III. p. 81 . ويقول صاحب أخبار العصر إن الذين رحلوا مع أبى عبد الله بلغوا نحو سبعمائة فقط (طبعة تطوان ص ٤٧) .

(٢) أزهار الرياض ج ١ ص ٦٧ و ٧١ .

(٣) هم بطن من بطون بنى مرين . وقد ظهروا فى بداية أمرهم بتولى الوزارة ، ونشأت بينهم وبين بنى مرين فيما بعد خصومة ومنافسة . وقام كبيرهم ومؤسس دولتهم أبو عبد الله محمد الشيخ بن زكريا أولا فى ثغر آصيلا ، واستفحل أمره ثم زحف على فاس واستولى عليها فى سنة ٨٧٦ هـ (١٤٧٢ م) ثم غلب على سائر الجهات والقبائل المحيطة بها، وقامت فوق أنقاض ملك بنى مرين دولة مغربية جديدة .



ذيل المعاهدة النهائية التى عقدت بين الملكين الكاثوليكيين وأبى عبد الله بتاريخ ١٥ ابريل سنة ١٤٩٣ وفيها يتعهد ببيع أملاكه ومغادرة اسبانيا نهائياً . وقد ذيل عليها أبوعبد الله بخطه بالقبول ، وبصمها بخاتمه وذلك بتاريخ ٢٣ رمضان سنة ٨٩٨ هـ (٧ أغسطس سنة ١٤٩٣) . والأصل محفوظ بدار المحفوظات العامة فى سيمانقا برقم P.R. 11-3

وزيره وكاتبه ، محمد بن عبد الله العربى العقيلى ، فى رسالة مستفيضة قوية مؤثرة ، موجهة إلى ملك فاس ، وجعل لها عنواناً شعرياً مشجياً هو : « الروض العاطر الأنفاس فى التوسل إلى المولى الإمام سلطان فاس » . وقد كان العقيلى من أعلام البلاغة فى هذا العصر .

ولما عول أبو عبد الله على الرحيل إلى المغرب جاز العقيلى البحر مع أميره ، وجازت قبل سقوطه غرناطة وبعده إلى المغرب جمهرة كبيرة من أقطاب العلم والأدب ، هم البقية الباقية من مجتمع الأندلس الفكرى[1]. وللعقيلى آثار فى النظم والنثر ، تبلو لروعتها كأنها نفثات أخيرة ، لآداب الأندلس المحتضرة ، وكان دفاع أبى عبد الله من أبدعها وأروعها .

ونقل إلينا المقرى مؤرخ الأندلس هذا الدفاع الشهير بنصه فى مؤلفه الجامع « نفح الطيب » ، وكذلك فى كتابه « أزهار الرياض »[2]. وقد قدم له كاتبه بعد الديباجة بقصيدة رائعة جاء فى مطلعها :

مولى الملوك ملوك العرب والعجم ... رعيا لما مثله يرعى من الذمم
بك استجرنا وأنت نعم الجار لمن ... جار الزمان عليه جور منتقم
حتى غدا ملكه بالرغم مستلباً ... وأفظع الخطب ما يأتى على الرغم
حكم من الله حتم لا مرد له ... وهل مرد لحكم منه منحتم
وهى الليالى وقاك الله صولتها ... تصول حتى على الآساد فى الأجم
كنا ملوكاً لنا فى أرضنا دول ... نمنا بها تحت أفنان من النعم
فأيقظتنا سهام للردى صُيُبٌ ... يُرمى بأفجع حتف من بهن رُمى
فلا تنم تحت ظل الملك نومتنا ... وأى ملك بظل الملك لم ينم
يبكى عليه الذى كان يعرفه ... بأدمع مزجت أمواهها بدم

ومنها فى التوسل والاعتذار وهو لب موضوعها :

وصل أواصر قد كانت لنا اشتبكت ... فالملك بين ملوك الأرض كالرحم
وابسط لنا الخلق المرجو باسطه ... واعطف ولا تنحرف واعذر ولا تلم
لا تأخذنا بأقوال الوشاة ولم ... نذنب ولو كثرت أقوال ذى الوخم
فما أطقنا دفاعاً للقضاء وما ... ارادت انفسنا ما حل من نقم

---

(١) راجع أزهار الرياض ج ١ ص ٧١ .

(٢) نفح الطيب ج ٢ ص ٦١٧ — ٦٢٨ ، وأزهار الرياض ج ١ ص ٧٢ — ١٠٢ .

ولا ركوباً بإزعاج لسابحة ... في زاخر بأكنف الموج ملتطم
والمرء مالم يعنه الله أضيع من ... طفل تشكى بفقد الأم في اليم
وكل ماكان غير الله يحرسه ... فإن محروسه لحم على وضم

* * *

ولا تعاتب على أشياء قد قدرت ... وخط مسطورها في اللوح بالقلم
وعدٌ عما مضى إذ لا ارتجاع له ... وعُــد أحرارنا في جملة الخدم
إيه حنانيك يابن الأكرمين على ... ضيف ألم بفاس غير محتشم
فأنت أنت ولولا أنت ما نهضت ... بنا إليها خطا الوخادة الرسم
رحماك يا راحماً ينمى إلى رُحما ... في النفس والأهل والأتباع والحشم
فكم مواقف صدق في الجهاد لنا ... والخيل عالكة الأشــداق للجم
والسيف يخضب بالمحمرّ من علق ... ما ابيضّ من سبل واسود من لمم
ولا ترى صدر عضب غير منقصف ... ولا ترى متن لدن غير منحطم
حتى دهينا بدهيا لا اقتدار بها ... سوى على الصون للأطفال والحرم

* * *

تالله ما أضمرت غشا ضمائرنا ... ولا طوت صحة منها على سقم
لكن طلبنا من الأمر الذى طلبت ... ولاتنا قبلنا في الأعصر الدهم
فخاننا عنده الجدّ الخئون ومن ... تقعد به نكبات الدهر لم يقم
فاسود ما اخضر من عيش دهته عداً ... بالأسمر اللدن أو بالأبيض الخذم
وشتت البين شملا كان منتظماً ... والبين أقطع للموصول من جلم
فرب مبنى شديد قد أناخ به ... ركب البلا فقرته أدمع الديم
قمنا لديه أصــيلانا نسائله ... أعيا جوابا وما بالربع من أرم
وما ظننا بأن نبقى إلى زمن ... نرى به غرر الأحباب كالحمم
لكن رضاً بالقضا الجارى وإن طويت ... منا الضلوع على برح من الألم
لبيك يا من دعانا نحو حضرته ... دعاء ابراهيم الحجاج للحرم
وأعط الأمن الذى رصت قواعده ... على أســاس وفاء غــير منهدم
خليفة الله وافاك العبيد فكن ... في كل فضل وطَوْل عند ظنهم
وبين أسلافنا ما قد علمت به ... من اعتقــاد بحكم الإرث مقتسم
وأنت منهم كأصل مطلع غصنا ... أو كالشراك الذى قد قدّ من أدم

وقد خطوت خطاهم فى مآثرهم ... فلم يُذموا إذن فيها ولم تُذم

وهى طويلة فى أكثر من مائة بيت ، وفيها يعطف الشاعر بعد ذلك على مديح ملوك فاس ، وجهادهم فى الأندلس ، والإشادة بعلائقهم القديمة مع بنى الأحمر ملوك غرناطة ، ومما يقول فى ذلك :

أهل الحفيظة يوم الروع يحفظهم ... من عصمة الله ما يربى على العِصم

بأس تطير شرار منه محرقة ... لكل مدَّرع بالحزم محتزم

هم بطائفة التثليث قد فتكوا ... كمثل ما يفتك السرحان بالغنم

وإن يلثِّمهم يوم الوغى رهج ... أنسوْك ما ذكروه عن ذوى اللُّثُم

تضىء آراؤهم فى كل معضلة ... إضاءة السُّرج فى داج من الظلم

هذا ولو من حياء ذاب محتشم ... لذاب منهم حياءً كل محتشم

طابت مدائحهم إذ طابت انفسهم ... فاشتقت النسمات اسما من النَّسم

وفى مديح السلطان القائم أبى عبد الله الوطاسى قوله :

أنسى الخلائف فى حلم وفى شرف ... وفى سخاء وفى علم وفى فهم

فجاز معتمداً منهم ومعتضداً ... وامتاز عن قائم منهم ومعتصم

وناصر الدين فى الإقبال فاق وفى ... محبة العلم أزرى بابنه الحكم

أفعال أعدائه معتلة أبداً ... متى يرم جزمها بالحذف تنجزم

ويلى هذه القصيدة الطويلة دفاع أبى عبد الله المنثور ، فى أسلوب يفيض قوة وبياناً . وفيه يشير أبو عبد الله إلى حوادث الأندلس ، ويعتذر عن محنته ، ويعترف بخطئه فى عبارات مؤثرة ، ويقول بعد الديباجة موجهاً خطابه إلى سلطان فاس :

« هذا مقام العائذ بمقامكم ، المتعلق بأسباب ذمامكم ، المترجى لعواطف قلوبكم ، وعوارف إنعامكم ، المقبل الأرض تحت أقدامكم ، المتلجلج اللسان عند محاولة مفاتحة كلامكم . وماذا الذى يقول من وجهه خجِل ، وفؤاده وجل ، وقضيته المقضية عن التنصل والاعتذار تجل . بيد أنى أقول لكم ما أقوله لربى ، واجترائى عليه أكثر ، واجترامى إليه أكبر : اللهم لا برىء فأعتذر ، ولا قوى فأنتصر ، لكنى مستقيل مستنيل ، مستعتب مستغفر ، وما أبرئ نفسى إن النفس لأمارة بالسوء » .

« على أنى لا أنكر عيوبى ، فأنا معدن العيوب ، ولا أجحد ذنوبى فأنا جبل الذنوب ، إلى الله أشكر عُجرى وبُجرى وسقطاتى وغلطاتى ... » .

بيد أنه يدفع عن نفسه تهم التفريط والزيغ والخيانة ويقول:

« فمثلي كان يفعل أمثالها ، ويحمل من الأوزار المضاعفة أحمالها ، ويهلك نفسه ويحبط أعمالها ؛ عياذاً بالله من خسران الدين . وإيثار الجاحدين والمعتدين ؛ قد ضللت إذن وما أنا من المهتدين . وايم الله لو علمت شعرة فى فودى تميل إلى تلك الجهة لقلعتها. بل لتطفت ما تحت عمامتى من هامتى وقطعتها . غير أن الرعاع فى كل وقت وأوان . للملك أعداء وعليه أحزاب وأعوان ... وأكثر ما تسمعه الكذب . وطبع جمهور الخلق إلا من عصمه الله إليه منجذب ؛ ولقد قذفنا من الأباطيل بأحجار ؛ ورمينا بما لا يرمى به الكفار . فضلا عن الفجار ؛ وجرى من الأمر المنقول على لسان زيد وعمرو . ما لكم منه حفظ الجبار ... أكثر المكثرون، وجهد فى تعثيرنا المتعثرون . ورمونا عن قوس واحدة ؛ ونظمونا فى سلك الملاحدة . أكفراً أيضاً كفراً . غفراً اللهم غفراً . وهل زدنا على أن طلبنا حقنا ممن رام محقه ومحقنا . فطاردنا فى سبيله عُداة كانوا لنا غائظين ؛ فانفتق علينا فتق لم تمكنا له رتق ؛ وما كنا للغيب حافظين » .

ثم يقول أبو عبد الله . لئن كان قد نزل به القضاء فثل عرشه . ونُكس لواؤه، ومُلِك مثواه؛ فهو مِثْل من سواه فى ذلك . ولئن كان مروعاً مصير غرناطة ومصير ملكها وأمجادها ؛ فإنها لم تنفرد بين قواعد الإسلام بذلك المصير المحزن . ألم يقتحم التتار بغداد . عروس الإسلام ومثوى الخلافة . ومهد العلوم . ويستبيحوا ذمارها وحُرَمها . ويسحقوا الخلافة وكل معالمها ورسومها ؟ وماذا كانت تستطيع غرناطة إزاء قدر محتوم ؛ وقضاء لا مرد له ؟ « والقضاء لا يرد ولا يصد ؛ ولا يغالب ولا يطالب ، والدائرات تدور ؛ ولابد من نقص وكمال للبدور ، والعبد مطيع لا مطاع ، وليس يطاع إلا المستطاع ؛ وللخالق التدبير جلت قدرته ، فى خليقته علم غيب . للأذهان عن مداه انقطاع » .

ثم يعطف إلى التجائه إلى ساحة السلطان بقوله : « وأيها لقد أرهقتنا إرهاقاً، وجرعتنا من صاب الأوصاب كأساً دهاقاً ؛ ولم نفزع إلى غير بابكم المنيع الجناب، المتفتح حين سدت الأبواب ؛ ولم نلبس غير لباس نعمائكم ، حين خلعنا ما ألبسنا الملك من الأثواب . وإلى أمه يلجأ الطفل لجأ اللهفان ، وعند الشدائد تمتاز السيوف من الأجفان ، ووجه الله تعالى يبقى ؛ وكل من عليها فان » .

ويشير أبو عبد الله إلى رفضه لما عرضه عليه ملك اسبانيا ؛ من الإقامة فى كنفه

وتحت حمايته فيقول : « ولقد عرض علينا صاحب قشتالة مواضع معتبرة خير فيها ، وأعطى من أمانه ، المؤكد فيه خطه بإيمانه ، ما يقنع النفوس ويكفيها ، فلم نر ونحن من سلالة الأحمر مجاورة الصُّفر ، ولا سوغ لنا الإيمان ، الإقامة بين ، ظهرانى الكفر ما وجدنا عن ذلك مندوحة ولو شاسعة ، وأمنّا من المطالب المشاغب ، حمة شر لنا لاسعة » .

ثم يشير إلى أنه تلقى كذلك دعوات كريمة من المشرق للذهاب والإقامة ، ولكنه آثر الجواز إلى المغرب ، دار آبائه من قبل ، وملاذهم دائماً عند النوائب ، ولم يرتض سوى الانضواء إلا لتلك الجناب ، أعنى سلاطين المغرب ، الذين أوصى آباؤه وأجداده بالانضواء إليهم ، وقت الخطر الداهم .

ويختم أبو عبد الله دفاعه برثاء مؤثر لملكه ومصيره فيقول : « ثم عزاء حسناً وصبراً جميلا ، عن أرض أورثها من شاء من عباده ، معقباً لهم ومديلا ، سادلا عليهم من ستور الإملاء الطويلة سدولا ، « سنة الله التى قد خلت من قبل ، ولن تجد لسنة الله تبديلا » ، فليطر طائر الوسواس المرفرف مطيراً ، كان ذلك فى الكتاب مسطوراً ، ولم نستطع عن مورده صدوراً ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً » .

ويعود أبو عبد الله بعد هذا الدفاع المستفيض المؤثر ، إلى الإشادة بخلال سلاطين فاس ومآثرهم ، ويقرر أنه يضع نفسه تحت حماية السلطان ورعايته منتظماً فى سلك أوليائه ، متشرفاً بخدمة عليائه » ، ليقضى بقية عمره فى كنفه مصوناً من المخاطر والضيم .

* * *

تلك خلاصة الدفاع الشهير الذى تركته آخر ملوك الأندلس للخلف من بعده. وهو دفاع حار مؤثر يذكرنا بتلك الإعتذارات الشهيرة (أبولوچيا) ، التى لجأ إليها الأقدمون فى ظروف مختلفة ، لتبرير بعض المواقف والآراء . وفيه يقف أبو عبد الله موقف المذنب البرىء معاً ، فهو لا يتنصل من جميع الأخطاء ، ولكنه يتنصل من تبعة ما حدث ، ويصور نفسه قبل كل شىء ضحية القدر ، ويدفع عن نفسه بالأخص تهمة التفريط والخيانة والزيغ . فإلى أى حد تتفق هذه الصورة مع الحقيقة ، ومع منطق الحوادث والظروف التى وقعت فيها المأساة ؟ لقد تبوأ أبو عبد الله عرش غرناطة لأول مرة وهو فتى فى الحادية والعشرين ، ثم عاد إلى تبوئه بعد ذلك بعدة أعوام ، وكان جلوسه فى كل مرة نتيجة حرب أهلية مخربة

طاحنة . وقد نشأ هذا الأمير الضعيف فى بلاط منحل ، يضطرم بصنوف الدس والخصومة ، ولم تهيئه تربيته وصفاته للاضطلاع بمهام الملك الخطيرة ، ولاسيما فى مثل تلك الظروف الدقيقة ، التى كانت تجوزها مملكة محتضرة . أجل كانت الأندلس تسير إلى قدرها المحتوم ، قبل المأساة ببعيد ، ولم يك ثمة شك فى مصير غرناطة ، بعد أن سقطت جميع القواعد الأندلسية الأخرى فى يد العدو القوى الظافر ؛ ولكن ليس من شك أيضاً فى أن الأواخر من ملوك غرناطة ، يحملون كثيراً من التبعة ، فى التعجيل بوقوع المأساة . فنحن نراهم يجنحون إلى الدعة والخمول ، ويتركون شئون الدفاع عن المملكة ، ويجنحون إلى حروب أهلية يمزق فيها بعضهم بعضاً ، والعدو من ورائهم متربص ومتوثب يرقب الفرص . وقد كان هذا شأن مملكة غرناطة وشأن بنى الأحمر ، ولاسيما منذ أوائل القرن التاسع الهجرى أو أوائل القرن الرابع عشر الميلادى . ومنذ عهد الأمير على أبى الحسن ، تبلغ الحرب الأهلية ذروتها الخطرة ، ويغدو مصير المملكة الإسلامية رهين رحمة القدر ، وقد شاء القدر أن يكون السلطان أبوالحسن ، وأخوه الأمير محمد بن سعد المعروف بالزغل ، وولده أبو عبد الله محمد أبطال المأساة الأخيرة ، حملتهم نفس الأطماع والأهواء الخطرة ، فانحدروا إلى معترك الحرب الأهلية ، وشغلتهم الحرب الأهلية طول الوقت عن أن يقدروا حقائق الموقف ، وأن يستشعروا الخطر الداهم ، وأن يستجمعوا قواهم المشتركة لمواجهة العدو المشترك ، وانحدر أبوعبد الله إلى أخطر ما فى هذه المعركة المميتة من وسائل الإغراء والتفوق ، فجنح إلى محالفة العدو الخالد ، ولم يحجم عن أن يستعدى ملك النصارى على أبيه وعمه ، كى ينتزع الملك لنفسه ، فلما ظفر بعرش غرناطة بمؤازرة ملك قشتالة ، لم يكن سوى صنيعته وأسير وحيه . وكان عمه الزغل قد بسط سلطانه على الأنحاء الشرقية والجنوبية ، فلم يحجم عن مهاجمته فى نفس الوقت الذى هاجمه فيه ملك النصارى لينتزع منه ما تحت يده ، وكان الزغل فى الوقع بطل المعركة الأخيرة ، وقد أبدى فى مقاومة العدو بسالة رائعة خلدتها سير العصر ؛ ولم يشعر أبوعبد الله بفداحة خطئه ، إلا حينما تحول إليه حليفه الغادر ملك قشتالة بجيشه الضخم ، ليحاصر غرناطة ويضربها الضربة الأخيرة ، وكانت قوى غرناطة ومواردها قد بددت فى حروب أهلية عقيمة ، فلم يغن دفاعها شيئاً أمام القوة القاهرة والقدر المحتوم ، فكانت النكبة ، وكانت الخاتمة المؤسية .

ولم يكن موقف أبى عبد الله خلال تلك اللحظات الحاسمة فى مصيره ومصير أمته ، سوى موقف الأمير الضعيف المتخاذل ، الذى يسعى إلى سلامة نفسه وإنقاذ ما يمكن إنقاذه من ذلك التراث العريض الذى أصبح وشيك الزوال ، وهو موقف لم يكن بلا شك مشرفاً ، ولا متفقاً مع مقتضيات البسالة والتضحية والشهامة .

أليس لنا بعد ذلك أن نحكم على آخر ملوك الأندلس ؟ إن أبا عبد الله يحمل أمام الله والتاريخ تبعة لا ريب فيها . بيد أنه من الحق أيضاً أن نقول إنها ليست تبعة الخيانة المقصودة أو الجريمة العمد ، بل هى تبعة « التفريط » ، والتخاذل ، والخطأ ، وعدم التبصر فى العواقب .

على أن أبا عبد الله ، مع ما يستحقه من لوم التاريخ وإدانته على النحو المتقدم ، يستحق فى نظرنا تقديراً خاصاً ، لما وفق إليه من الاحتفاظ بدينه ودين آبائه وأجداده . والواقع أن فداحة المحنة التى نزلت به ، وظروف الإغراء التى كانت تحيط به ، والتى حملت بعض أكابر الزعماء والقادة المسلمين على التنصر ، حسبما نوضح بعد ، وسعى الملكين الكاثوليكيين المتعصبين إلى تنصير من يمكن تنصيره من الزعماء المسلمين بكل الوسائل : هذه الظروف كلها كانت خليقة بأن تحمل أبى عبد الله على الاستجابة إلى دواعى التحريض والإغراء فتزل قدمه إلى الدرك السحيق الذى انحدر إليه بعض قادته ووزرائه ، ولكنه استطاع أن يخرج من هذه الغمار معتصماً بدينه المتين ، وهو ما يشير إليه بحرارة فى دفاعه المتقدم .

* * *

استقر أبو عبد الله بعد جوازه إلى فاس فى ظل بنى وَطَّاس ، وشيد بها قصوراً على طراز الأندلس ، رآها وتجول فيها المقرى مؤرخ الأندلس بعد ذلك بنحو قرن وربع (١٠٢٧ هـ — ١٦١٨ م)[١] . ويروى أنه لما نزل أبو عبد الله وصحبه مدينة فاس ، أصابت الناس بها شدة عظيمة من الجوع والغلاء والوباء ، حتى غادرها كثير من أهلها ، ورجع بعض الأندلسيين إلى بلادهم ، وتقاعس كثير منهم عن الجواز إلى المغرب خوف الشدة والفاقة[٢] . وعاش الملك المخلوع فى منفاه طويلاً يجرع كأسه المرة حتى الثمالة ، ويتقلب فى غمر الحسرات والذكريات المفجعة ، ويشهد خلال هذه الفترة المؤلمة ، جهود السياسة الإسبانية فى سحق

---

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٦١٧ .

(٢) أزهار الرياض ج ١ ص ٦٨ .

الإسلام بالأندلس ، ومحق مدنيته وكل رسومه وآثاره ، ويشهد يد الفناء والمحو ، تعمل لاستئصال هذا الشعب الأندلسى النبيل التالد ، من الأرض التى لبث يرعاها ثمانية قرون ، وينثر فى أرجائها فيض عبقريته .

وتختلف الرواية فى تاريخ وفاة أبى عبد الله اختلافاً بيناً . فيقول لنا المقرى فى « نفح الطيب » ، إنه توفى بفاس سنة أربعين وتسعمائة (١٥٣٤ م) وإنه « دفن بإزاء المصلى خارج باب الشريعة »[١] . ثم يعود فى « أزهار الرياض » فيقول إنه توفى بفاس فى سنة أربعة وعشرين وتسعمائة (١٥١٨ م)[٢] . وتذكر لنا الرواية القشتالية القريبة من ذلك العصر أن أبا عبد الله توفى قتيلا فى موقعة أبى عقبة الشهيرة التى نشبت بين السلطان أحمد أبى العباس الوطاسى حفيد أبى عبد الله محمد الوطاسى ، وبين خصومه السعديين الأشراف الخوارج عليه ، واشترك فيها أبو عبدالله محارباً إلى جانب أصدقائه وحماته الوطاسيين . وقد حدثت هذه الموقعة فى سنة ٩٤٣ هـ (١٥٣٦م) وهزم فيها بنو وطاس هزيمة شديدة[٣] ، فاذا صحت هذه الرواية[٤] ، فإن أبا عبد الله يكون قد توفى فى نحو الخامسة والسبعين من عمره . بيد أننا نرجح رواية المقرى الأولى ، وهى أن أبا عبد الله توفى بقصره فى فاس سنة ٩٤٠ هـ . أما روايته الثانية ، وهى أنه توفى فى سنة ٩٢٤ هـ ، فالمرجح أنها تحريف رقمى للأولى . وترك أبو عبد الله ولدين هما أحمد ويوسف ، واستمر عقبه متصلا معروفاً بفاس مدى أحقاب ، ولكنهم انحدروا قبل بعيد إلى هاوية البؤس والفاقة . ويذكر لنا المقرى أنه رآهم وتتبع أخبارهم حتى سنة ١٠٣٧ هـ (١٦٢٨م) ، وأنهم كانوا معدمين يعيشون من أموال الصدقات[٥] .

---

(١) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ٦١٧ ؛ ويتابع السلاوى المقرى فى روايته (الإستقصاء ج ٢ ص ١٦٨) .

(٢) أزهار الرياض ج ١ ص ١٦٨ .

(٣) الإستقصاء ج ٢ ص ١٧٧ .

(٤) هذه هى رواية **Luis del Marmol** فى كتابه **Rebeliôn y Castigo de los Moriscos:** **Lib. I. Cap. XXI** ، ويعلق هذا المؤرخ على هذه الرواية قائلا : « ومن سخرية القدر أن يموت هذا الملك دفاعا عن مملكة أخرى ، بينما هو لم يجرؤ أن يموت دفاعا عن مملكته » . وينقل هذه الرواية عنه كثير من المؤرخين الإسبان والبرتغاليين . راجع **Lafuente Alacantara; ibid;V. III. p. 84** . وينقل صاحب الإستقصاء هذه الرواية عن مؤرخ برتغالى (ج ٢ ص ١٦٨) . وينقلها واشنطن ايرفنج فى الملحق الخاص بأبى عبد الله فى آخر كتابه : **Conquest of Granada**

(٥) نفح الطيب ج ٢ ص ٦١٧ .

ولم نعثر على تاريخ وفاة الأميرة الباسلة عائشة الحرة والدة أبى عبد الله ، ولابد أنها توفيت قبله بمدة طويلة .

ويعرف أبو عبد الله محمد آخر ملوك الأندلس بأبى عبد الله ، الغالب بالله وهى شعار سائر ملوك غرناطة ، ويعرف فى الرواية الإسبانية ، بمحمد الحادى عشر ، وبالملك الصغير El Rey Chico ، تمييزاً له من عمه أبى عبد الله الزغل ، ويلقب أيضاً بالزغيبي ومعناها المنكود أوعاثر الجد ، تنويهاً بأحداث حياته المؤسية . وبما أصاب الإسلام على يديه من الخطوب والمحن[1] .

— ٣ —

ولابد لنا قبل أن نختتم الكلام على تلك الصفحة المؤسية من تاريخ الأندلس ، أن نتحدث عن ذلك الصرح الخالد الذى مازال رمزاً حياً لتلك المأساة المفجعة ، التى اختتمت بين جدرانه الصامتة ، واقترنت باسمه إلى الأبد ، ونعنى بذلك حمراء غرناطة ، ذلك الصرح الذى يمثل فى تاريخ الأندلس عصراً بأسره ، وحضارة بأسرها ، والذى ما يزال يثير بجلاله وروعته ، كثيراً من المواقف والذكريات الخالدة .

لبثت حمراء غرناطة زهاء قرنين عنواناً لمجد الإسلام ودولته ، وملاذاً ساطعاً للحضارة الأندلسية ، التى كانت أنوارها الباهرة تشع فى أرجاء أوربا ، خلال حلك العصور الوسطى ، فلما أشرفت الدولة الإسلامية على الفناء ، غدت حمراء غرناطة قبرها الأخير ، وطوت بين جدرانها صفحتها المجيدة . ومازالت الحمراء وساحاتها الشاسعة ، وأبهاؤها الفخمة ، وأبراجها الشامخة ، منذ أكثر من أربعة قرون عنواناً للمجد الذاهب ، وشاهداً صامتاً لجليل الحوادث والذكريات .

وتاريخ الحمراء هو تاريخ الصروح والهياكل العظيمة ، التى تتبوأ مقامها الراسخ فى تاريخ الدول التى شادتها ، والعصور التى شهدتها ، فهو جزء لا ينفصل من تاريخ الأندلس ، كما أن قصر الڤاتيكان جزء لا ينفصل من تاريخ البابوية . وما تاريخ الحمراء وسير بناتها وسادتها ، إلا تاريخ مملكة غرناطة ، وما الحمراء ذاتها ، وما تعرضه من روعة فى الصنع والإنشاء ، وما تحوى من بدائع الفن والزخرف ، إلا صفحة جامعة من تاريخ الحضارة الأندلسية ، فالسائح المتأمل فى جنبات هذا

---

(١) الزغيبى مصغر « زغبى » ، ومعناها فى لغة أهل غرناطة : المنكود أو التعيس . ومعناها وفقاً لمارمول « التعس الصغير » « الرجل المسكين » Le petit Malheureux : Le pauvre Homme (راجع دوزى . Supp. aux Dict. arabes p. 594) .

الصرح الخالد ، لا يسعه إلا أن يرتد بذهنه إلى الماضي البعيد ، فيذكر قصة أمة مجيدة ، كانت سيدة هذه الأرض والمهاد ، وحضارة زاهرة كانت تفيض على هذه الأرض والمهاد ، عظمة ونعماء ونوراً .

وللحمراء تاريخ قديم يرجع إلى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) أيام الدولة الإسلامية الكبرى . وقد كانت يومئذ قلعة متواضعة . وتتحدث الرواية الأندلسية المعاصرة عن قلعة بنيت على ضفة نهر حدرُّه El Darro اليسرى ، تسمى قلعة الحمراء ، وتذكرها بالأخص أيام الحروب الأهلية التى اضطرمت فى منطقة غرناطة ، بين المولدين والبطون العربية ، ومما قاله شاعر من شعراء ذلك العصر هو عبد الله العبلى ، فى الإشارة إلى فتن غرناطة وإلى قلعة الحمراء :

منازلهم منهم قفـار بلاقـع   تجارى السَّفا فيها الرياحُ الزعازع
وفى القلعة الحمراء تبديد جمعهم   وفيهـا عليهم تستدير الوقائع
كما جدَّلت آباءهم فى خلائها   أسنتها والمرهفـاتُ القواطع

ولما تولى باديس بن حبُّوس زعيم البربر حكم غرناطة ، واتخذها قاعدة لملكه فى أوائل القرن الخامس الهجرى ، أنشأ سوراً ضخماً حول التل الذى تقع عليه القلعة المذكورة ، وأنشأ فى داخله قصبة (قلعة) اتخذها مقاماً له ، ومركزاً لحكومته ، وسميت بالقلعة الحمراء ، تجديداً لاسمها القديم . ثم زيد فى القلعة ، واتسع نطاقها بمضى الزمن ، وغدت حصن غرناطة وقصبتها أو بعبارة أخرى معقلها الرئيسى . ولما غلب محمد بن الأحمر على غرناطة فى سنة ٦٣٥هـ (١٢٣٨م) ، أنشأ فوق هذا الموقع القديم ، وداخل الأسوار ، حصنه أوقصره الذى أطلق عليه اسم الحمراء ، وجلب له الماء من نهر حدرُّه ، واتخذه قاعدة للملك ، وأنشأ فيه عدة أبراج منيعة منها البرج الكبير المسمى برج الحراسة Torre de la Vela ، والبرج المقابل له ، وأنشأ له سوراً ضخماً يمتد حتى مستوى الهضبة . والظاهر أنه بنى مسكنه فى الجنوب الغربى من الحصن ، أعنى فى نفس المكان الذى يقوم عليه قصر الإمبراطور شرلكان . ومن المرجح أن اسم الحمراء يرجع إلى قيام قصر ابن الأحمر فوق أطلال قلعة الحمراء القديمة ، وليس إلى تسميته باسمه . وقد ذكر البعض أن إطلاق اسم الحمراء على صرح غرناطة الملكى يرجع إلى احمرار أبراجه الشاهقة ، أو إلى لون الآجر الأحمر الذى بنيت به الأسوار الخارجية . وقيل أيضاً إن التسمية ترجع إلى لون المشاعل الحمراء التى كان يجرى البناء ليلا على ضوئها . ولكنا نؤثر الأخذ

بالتعليل الأول فهو أقوى وأرجح . وما زالت ثمة بجوار قصر الحمراء أطلال القلعة القديمة تحمل إلى اليوم اسم « قلعة الأبراج الحمراء » Castillo de Torres bermejas وهو ما يؤيد صحة هذا التعليل لاسم « الحمراء »[١] .

واستمر فى البناء من بعد محمد بن الأحمر ، ولده محمد الفقيه الملقب بالغالب بالله ، فأنشأ الحصن والقصر الملكى فى أواخر القرن السابع الهجرى ، وأنشأ حفيده محمد إلى جانب القصر فى الجنوب الشرقى منه ، مسجداً بديعاً افتن فى ترقيشه وزخرفته[٢] فى المكان الذى تحتله اليوم كنيسة سانتا ماريا ، التى بنيت فى القرن السابع عشر ؛ ولم يبق اليوم من آثار مسجد الحمراء سوى مصباح برونزى فخم محفوظ بمتحف مدريد الوطنى .

وقد بنيت معظم أجنحة الحمراء الملكية فى القرن الرابع عشر فى عهد السلطان أبى الوليد إسماعيل ، وولده يوسف أبى الحجاج ، وابنه محمد الغنى بالله . ولسنا نعرف شيئاً محققاً عن المهندسين أو الفنانين الذين قاموا على إنشائها . وتدين الحمراء بفخامتها الرائعة إلى السلطان يوسف أبى الحجاج ، الملك الشاعر والفنان الموهوب ، فقد زاد فى القصر زيادة كبيرة ، وأكمل بهو قمارش الضخم ، والبرج الشاهق الذى يعلوه ، وأسبغ عليه روائع الفن والزخرف ، وأنشأ العقد الشاهق الذى يكون مدخل القصر الرئيسى ، وهو المسمى « باب الشريعة » وهو يحمل فوق عقده ، اسمه وتاريخ إنشائه (٧٤٩ هـ — ١٣٤٨م) . وكان اسم الحمراء يطلق على هذه المجموعة الملكية الفخمة كلها .

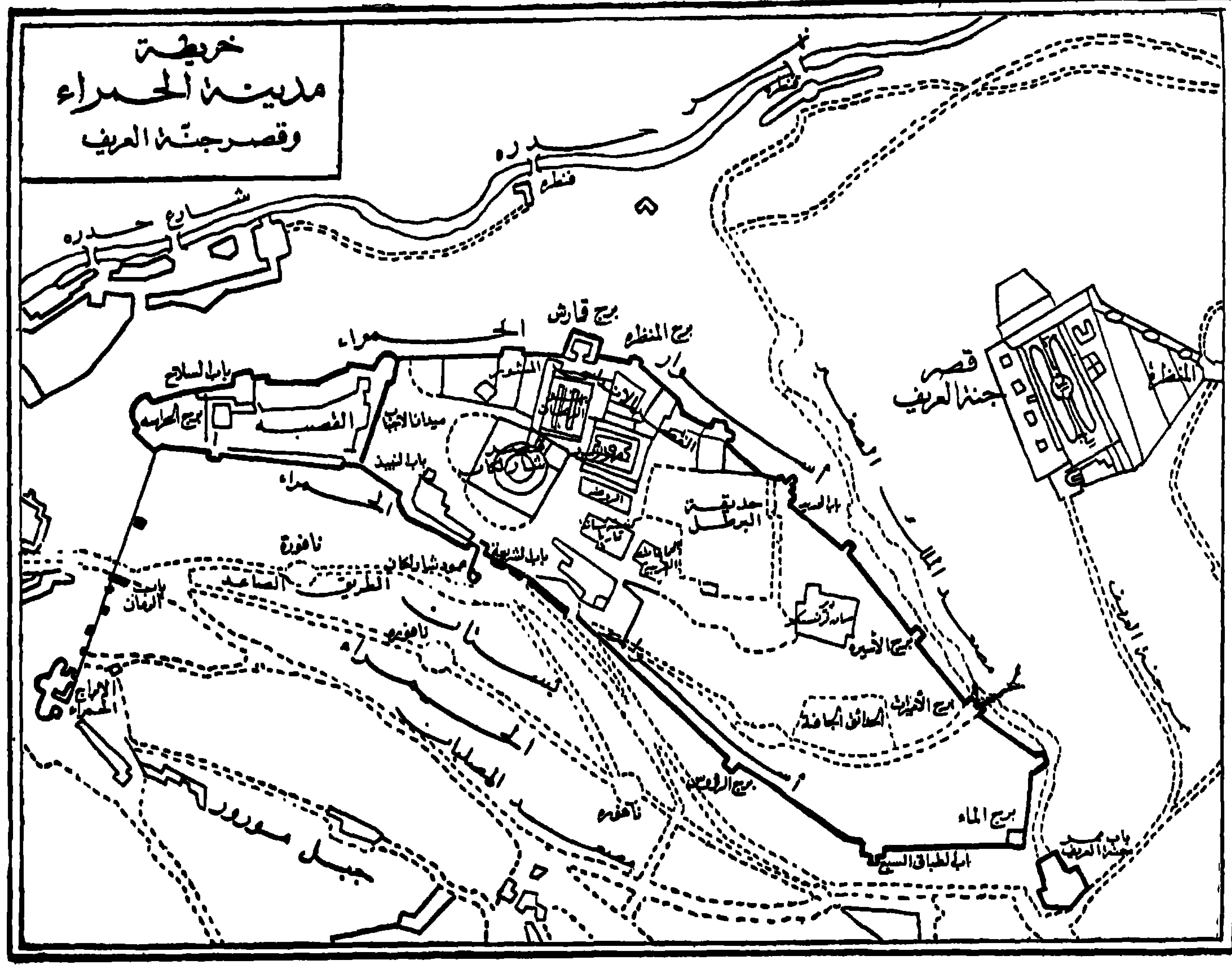
وتقع أبنية الحمراء فوق هضبة مرتفعة يبلغ طولها ٧٣٦ متراً وعرضها نحو مائتى متر ، وتشغل نحو خمسة وثلاثين فداناً . ويحيط بالحمراء سور ضخم يتخلله ثلاثة عشر برجاً ، بقى منها إلى اليوم عدة ، منها برج قمارش وهو أعظمها ، وبرج السلاح ، وبرج المتزين ، وبرج العقائل ، وبرج الأسيرة وغيرها[٣] . ويجرى

---

(١) راجع المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد ج ٢ ص١٢٥ ، ومقدمة المستشرق جاينجوس لأطلس « الحمراء » Alhambra الذى تقدمت الإشارة إليه ، ص ٥ الهامش وص ٧ و ٨ . وراجع أيضاً المستشرق سيبولد فى Ency. de l'Islam تحت كلمة Alhambra

(١) اللمحة البدرية ص ٥٠ . وراجع الإحاطة فى أخبار غرناطة ج ١ ص ٥٥٤ و ٥٥٥ .

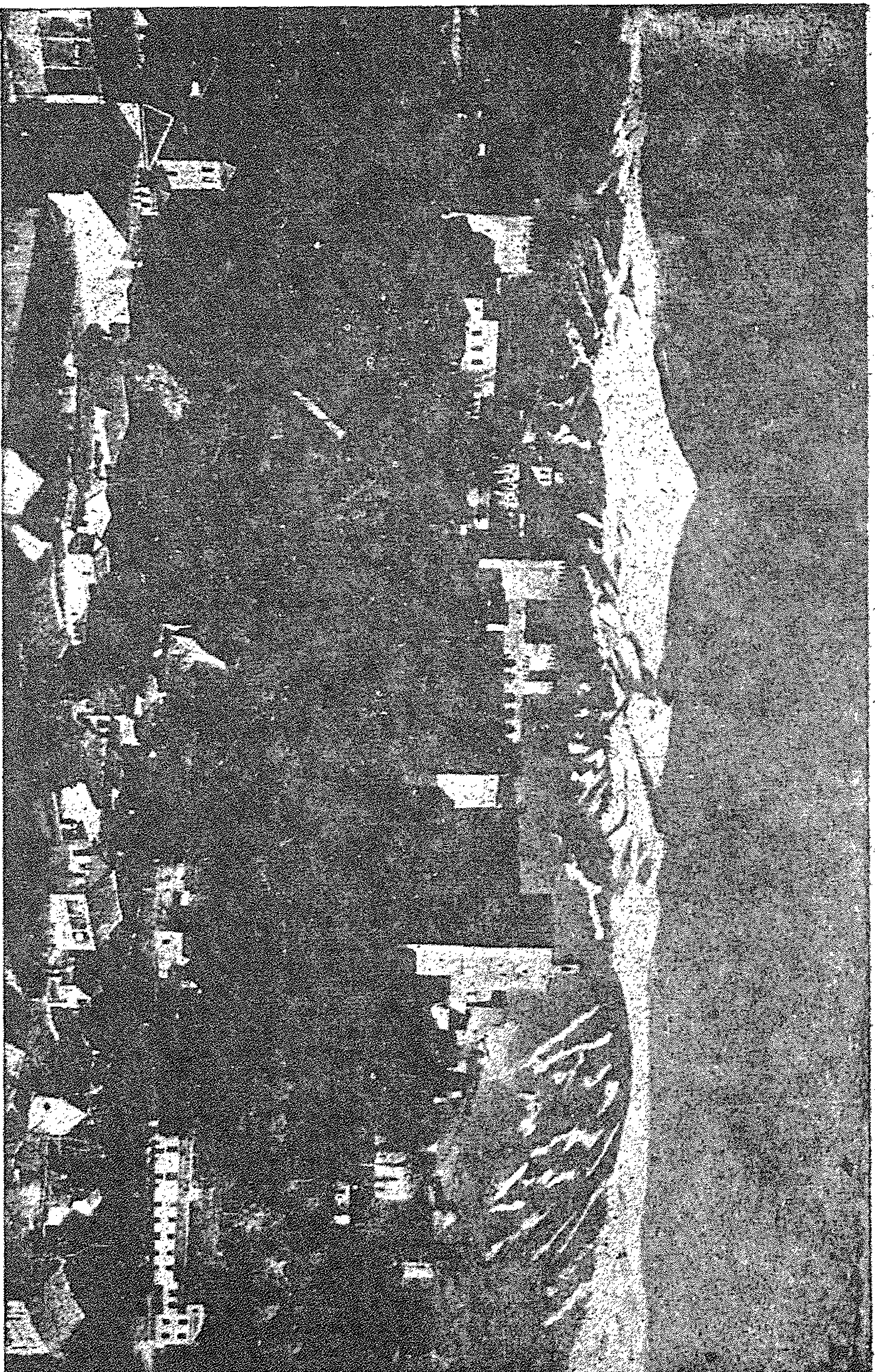
(٣) وهى بالإسبانية على التوالى Torre de Comares 'T. de las Armas' 'T. del Peinador 'T. de las Damas' T. de la Cautiva وفيما عدا برج قمارش ، فإن هذه الأسماء كلها من تسمية الإسبان .


خريطة
مدينة الحمراء
وقصر جنة العريف
شارع حدره
حدره
قنطرة
برج قارش
برج المنظرة
الحمراء
باب السلاح
برج الحراسة
القصبة
ميدان الاجباب
باب النبيذ
حديقة البرطل
برج الأسيرة
برج الأميرات
الحدائق الجافة
برج الماء
باب الطباق السبع
برج الرؤوس
باب الشريعة
نافورة
الطريق الصاعد
باب الرمان
نافورة
نافورة
جبل سورور
قصر جنة العريف
باب جنة العريف
أبراج الحمراء

نهر حدره فى الوادى الواقع فى غربها، وقد جف اليوم مجراه وغطى معظمه . وموقع الحمراء ذو جمال طبيعى نادر ، فهى تشرف من الشمال والغرب إشرافاً شاملا على المدينة وعلى فحص غرناطة La Vega ، وتشرف من الشرق والجنوب على آكام جبال سيرّا نڤادا (جبل شُلير) . ولم يبق اليوم من قلعة الحمراء التى كانت تشغل منحدر الهضبة فى الشمال الغربى ، سوى أسوارها الخارجية وأبراجها . وأما القصر الملكى فقد بقيت معظم أجزائه . ويعتبر قصر الحمراء من أبدع الآثار الإسلامية التى أبقت عليها حوادث الزمن ، وليس له مثيل فى الحسن والروعة من حيث عمده الرخامية الرائعة، وعقوده، وسقوفه ذات الزخرف البديع ؛ ويغمره الضوء والهواء بوفرة ، ويبدو فى مجموعه فى منتهى الظرف والإناقة . ويقع إلى جنوب الهضبة وشرقها بستان عظيم من صنع الإسبان ، تتخلله طرق حديثة صاعدة ، وقد كان مكانه أيام المسلمين الساحة المعروفة بالسبيكة ، وهو يغص أيام الربيع والصيف بالبلابل ، ويتخلله خرير الماء المتدفق عن عدد كبير من الجداول والنوافير ، وكان يجاور الحمراء أيام المسلمين حدائق مزروعة بأشجار البرتقال والورود والريحان . ويُدخل إلى هضبة الحمراء من بابها الرئيسى المسمى « باب الرمان » Puerta de Granadas وهو من صنع الإسبان ، وقد بنى أيام الإمبراطور شرلكان ، وهو عبارة عن عقد حجرى ضخم ، نصبت فى أعلاه ثلاث رمانات صخرية على هيئة مثلث . ثم تسير فى طريق صاعدة حتى « باب الشريعة » وهو مدخل الحمراء ، وهو عقد ضخم يبلغ ارتفاعه خمسة عشر متراً .

ويفضى باب الشريعة إلى مجاز معقود ، ثم إلى درب صغير صاعد ، ينتهى إلى ميدان أطلق عليه الإسبان اسم « ميدان الأجباب » Plaza de los Aljibis ومنه ترى لأول مرة مجموعة الصروح والأماكن الأثرية التى تضمها قصبة الحمراء .

فإلى يمينك ترى القصر الذى أنشأه الإمبراطور شرلكان جنوبى قصر الحمراء ، وعلى موقع بعض أجزائه ، وإلى يسارك ترى الساحة التى يطلق عليها اسم القصبة أو الحصن ، وفى نهايتها البرج الضخم المسمى « برج الحراسة » Torre de la Vela وهو يشرف عالياً على مرج غرناطة كله ، وهذا البرج هو الذى اختاره الإسبان عند دخولهم غرناطة لرفع الصليب ، وما يزال هذا الصليب الذى وضع يوم دخول الإسبان قائماً فى مكانه ، وهو صليب خشبى كبير وضع فى الزاوية الشمالية الغربية .



غرناطة : منظر عام للمدينة الحمراء وقد ظهرت من ورائها جبال سيرا نفادا مجللة بالثلوج .

وأمامك ترى جانباً من قصر الحمراء ، وهو الذى يسميه الإسبان « القصر العربى » Palacio Arabe .

ويمكن أن نقسم أبنية قصر الحمراء إلى مجموعتين أو جناحين كبيرين ، الأول قصر قمارش ، الذى يضم البهو المسمى بهذا الإسم وبرجه الشاهق ، وقد كان هذا الجناح هو المقام الرسمى لملوك غرناطة ، وسمى بقصر قمارش نسبة إلى البهو الفخم الذى يقع تحت برج قمارش ، والذى كان يعقد فيه السلطان مجالسه الرسمية ، وكان به مجلس العرش .

والثانى قصر السباع ، وهو الذى يتوسطه بهو الأسود أو بهو السباع ونافورته الشهيرة .

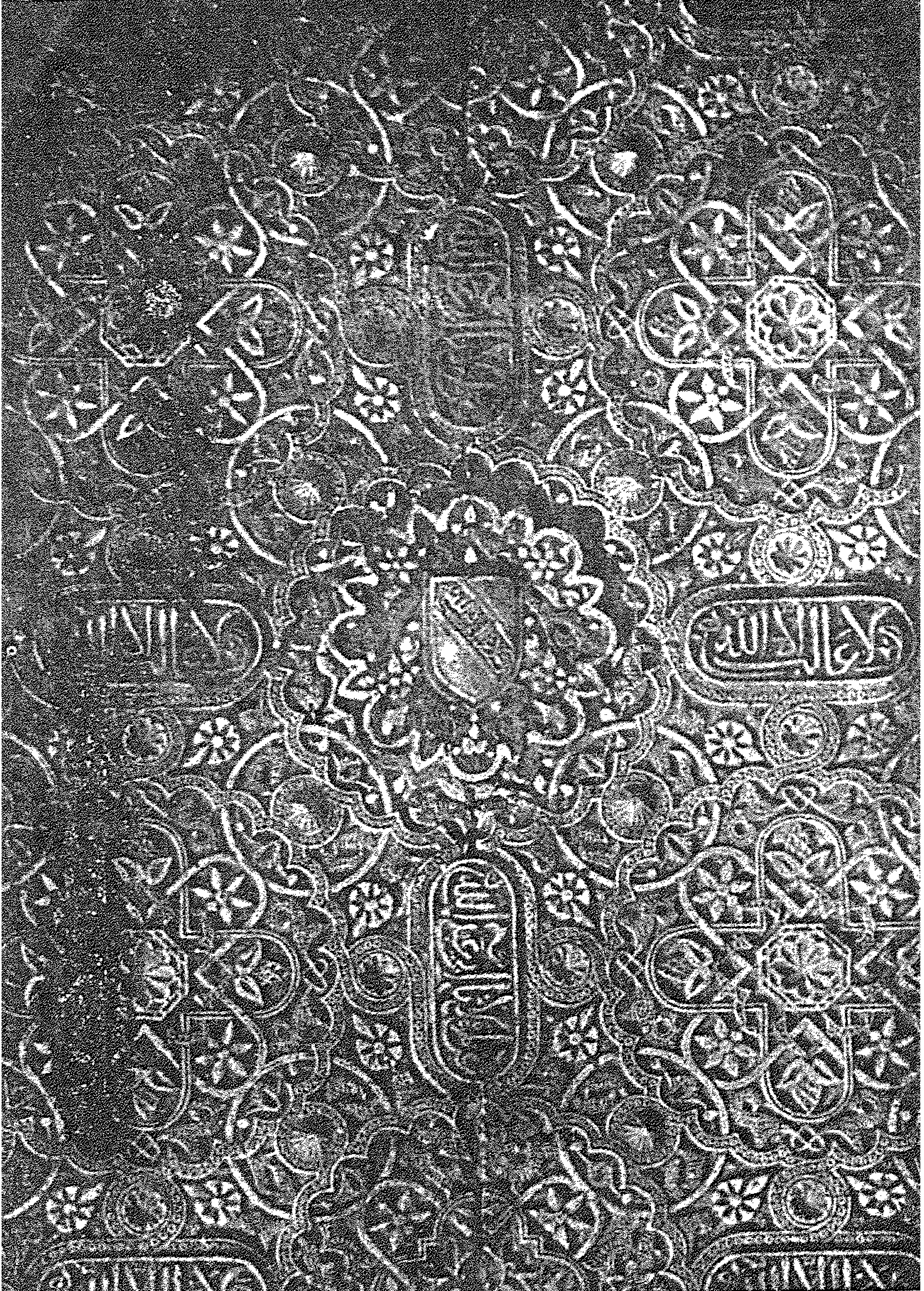
١ — قصر قمارش

والجناح الأول هو أول ما يرى الزائر ، تتقدمه الساحة المعروفة « بفناء البركة » Patio de Al-Berca ، أو فناء الريحان ، وهى عبارة عن فناء كبير مستطيل مكشوف ، تتوسطه بركة من الماء تظللها أشجار الريحان .

ويفضى فناء الريحان من ناحيته الشمالية ، إلى بهو صغير به قبلة زينت بنقوش بديعة ، ويفضى هذا البهو الصغير بدوره إلى أعظم وأفخم أبهاء الحمراء ، وهو بهو قمارش ، أو بهو السفراء Salón de Embajadores كما يسميه الإسبان .

وبهو قمارش ، هو عبارة عن بهو مستطيل ، طوله ثمانية عشر متراً وعرضه أحد عشر ، تعلوه قبة خشبية شاهقة يبلغ ارتفاعها ثلاثة وعشرون متراً ، وقد حفرت زخارفها على شكل النجوم ، وزخرفت جدرانها على نفس الطراز ، وفى هذا البهو كان يعقد مجلس العرش ، ولهذا سمى أيضاً بالمشور . ويعلو بهو قمارش، البرج المسمى بهذا الاسم وهو برج شاهق فى مثل مساحته .

وقد بدأ بإنشاء بهو قمارش ، السلطان أبو الوليد إسماعيل ، فى أوائل القرن الثامن للهجرة (أوائل الرابع عشر الميلادى) وأكمله ولده السلطان يوسف أبو الحجاج . وأروع ما فيه زخارف قبته التى احتفظت بنقوشها الأصلية ؛ أما نقوش الجدران ، فإنها مع جمالها ليست إلا تجديداً مقلداً لنقوشها القديمة ، قام به الفنانون الإسبان . وقد وردت فيها العبارة الآتية مكررة « عز لمولانا السلطان أبى الحجاج » ، وتخللها فى سائر جوانبها شعار بنى نصر المشهور ، وهو « ولا غالب إلا الله » .



الحمراء : من زخارف بهو السفراء (بهو قمارش) .

ويفضى بهو البركة من ناحيته اتمنى إلى فناء سفلى يعرف بفناء السرو ، وقد زرعت فيه بالفعل بعض أشجار السرو. وليس لهذا الفناء أهمية أثرية تذكر ، وهو من صنع الإسبان ، وإلى جانبه يقع جناح الحمامات السلطانية .

وتقع شرقى فناء البركة ، قاعة الأختين Sala de las dos Hermanas ، وقد سميت بهذا الاسم لأن أرضها تحتوى على قطعتين متساويتين من الرخام ، فريدتين فى ضخامة الحجم .

٢ — قصر السباع

وتفضى قاعة الأختين من بابها الجنوبى ، إلى أجمل وأشهر أجنحة الحمراء ، ونعنى بهو السباع ، أوبهو الأسود وما إليه .

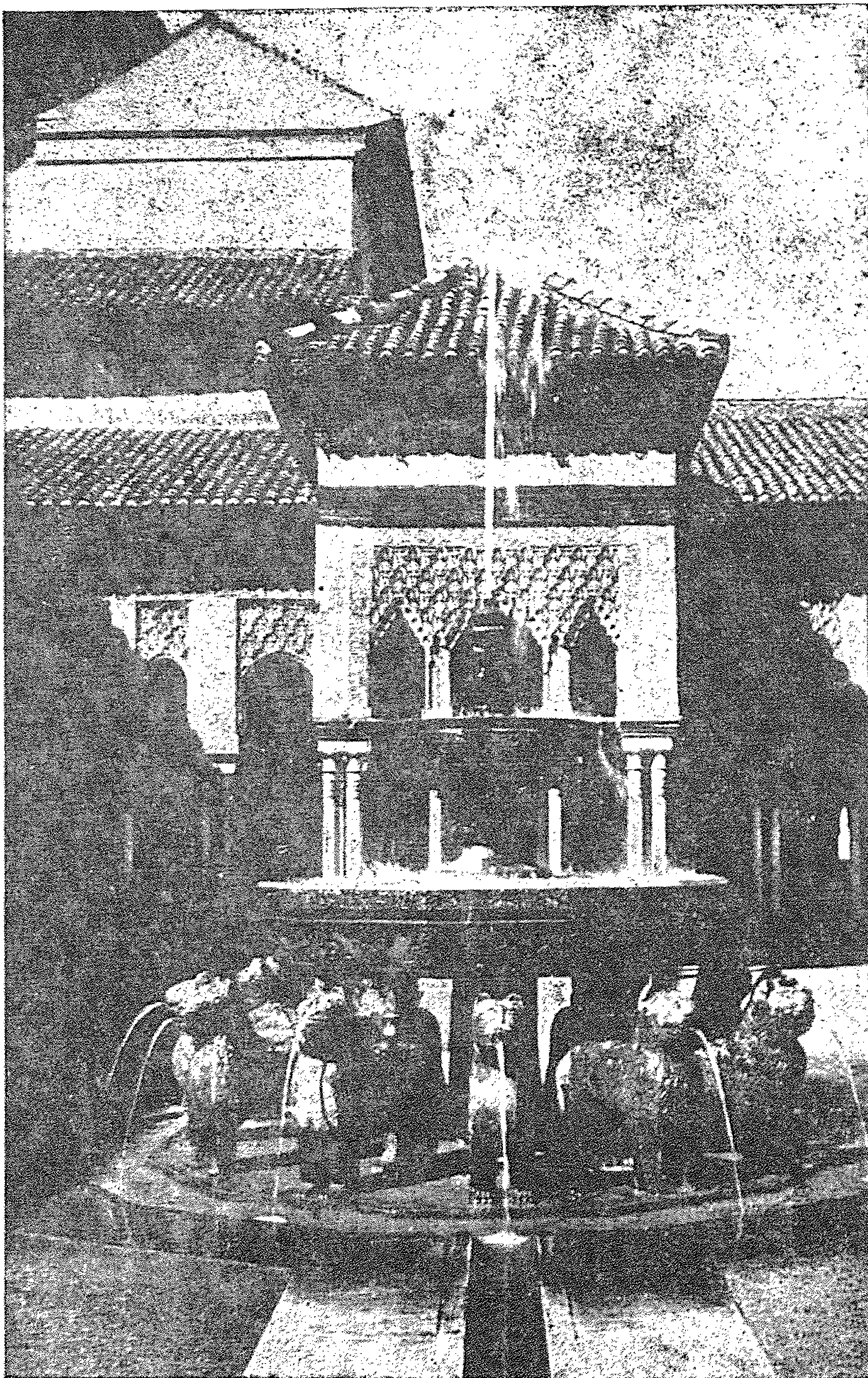
ويعتبر فناء السباع أو كورة السباع Patio de los Leones ، أجمل وأرشق أبهاء الحمراء . وقد قام بإنشائه السلطان محمد الغنى بالله ، الذى حكم من سنة ١٣٥٤ — ١٣٩١م ، وما زال اسمه ماثلا فى مواضع كثيرة من هذا الجناح .

وهوعبارة عن فناء مستطيل مكشوف ، طوله خمسة وثلاثون متراً ، وعرضه عشرون ، تحيط به من الجوانب الأربع مشرفيات أو أروقة ذات عقود ، تحملها مائة وأربعة وعشرون عموداً من الرخام الأبيض ، صغيرة الحجم ، متناهية فى الجمال والرشاقة ، وعليها أربع قباب مضلعة ، تقع كل واحدة منها وسط ضلع من أضلاع المستطيل .

وفى وسط الفناء نافورة الأسود الشهيرة ، وهى عبارة عن نافورة ماء، يحمل حوضها المرمرى المستدير الضخم ، اثنا عشر أسداً على شكل دائرة ، وقد نقشت فوق دائرة هذا الحوض اثنى عشر بيتا من قصيدة ابن زمرك الشهيرة فى وصف الحمراء ، أمام كل أسد بيت منها ، وهذا مطلعها :

تبارك من أعطى الإمام محمدا ... مغانىَ زانت بالجمال المغانيا
والا فهذا الروض فيه بدايع ... أبى الله أن يلقى لها الحسن ثانيا

وفى منتصف الناحية الجنوبية من بهو السباع ، يوجد مدخل قاعة بنى سراج Sala de los Abencerrajes ، وهو اسم الأسرة الغرناطية الشهيرة ، التى لعبت دوراً كبيراً فى حوادث غرناطة الأخيرة . وهى عبارة عن مستطيل طوله اثنا عشر متراً وعرضه ثمانية ، وفوقه قبة عالية مضلعة ، وفى وسطه حوض نافورة مرمرى



نافورة الأسود ومن ورائها الشرفة الوسطى لبهو الأسود .

مستدير ، وفى قاعه بقع داكنة ثابتة ، تزعم الأسطورة أنها آثار من دماء بنى سراج ، الذين دبر لهم السلطان كميناً ، واستدرجهم إلى الحمراء ، ودبر مقتلهم فى هذه القاعة واحداً بعد الآخر .

وفى الناحية الشرقية لفناء الأسود، يوجد مدخل القاعة التى تسمى قاعة الملوك أو قاعة العدل Sala de los Reyes ، وبها ثلاث عقود أو حنايا ، رسمت فى سقف الحنية الوسطى منها، صور عشرة فرسان مسلمين، يلبسون العمائم ويجلسون على وسائد . وهيئاتهم تشع بالوقار والعزة ، ويقول بعض الباحثين إن هذه هى صور ملوك غرناطة العشرة . الذين سبقوا أبى عبد الله فى تولى العرش .

وفى شمال فناء الأسود يقع البهو المسمى «منظرة الندراخا» Mirador de Lindar ja.

ويوجد بين قاعة الأختين وبين منظرة االندراخا : باب يفضى إلى ساحة مستطيلة لم تكن من أبنية الحمراء الأصلية . ولكنها أنشئت أيام الإمبراطور شرلكان . ويتصل بهذه الساحة رواق ضيق يفضى إلى متزين الملكة Peinador de la Reina، وهو عبارة عن بهو صغير منخفض، وقد أنشىء فى القرن السادس عشر ، ورسمت على جدرانه صور وزخارف نصرانية من طراز عصر الأحياء .

تلك هى محتويات قصر الحمراء ؛ ولا يتسع المقام هنا لننقل إلى القارئ ، ما نقش على جدرانه ؛ وما فى قبابه من النقوش والقصائد العديدة . ولكن الذى يلفت النظر بنوع خاص ، أن شعار بنى نصر وهو « ولاغالب إلا الله » ، قد نقش فى كل ركن من أركانه . وكل ناحية من نواحيه . وتكرار هذا الشعار على هذا النحو يبعث إلى النفوس شعور النبوءة والنذير ، ويذكرها بالمأساة الخالدة ، التى توالت حوادثها بين هذه الجدران الصامتة ، التى يكاد الأسى يرتسم على زخارفها العربية ونقوشها الإسلامية[1] .

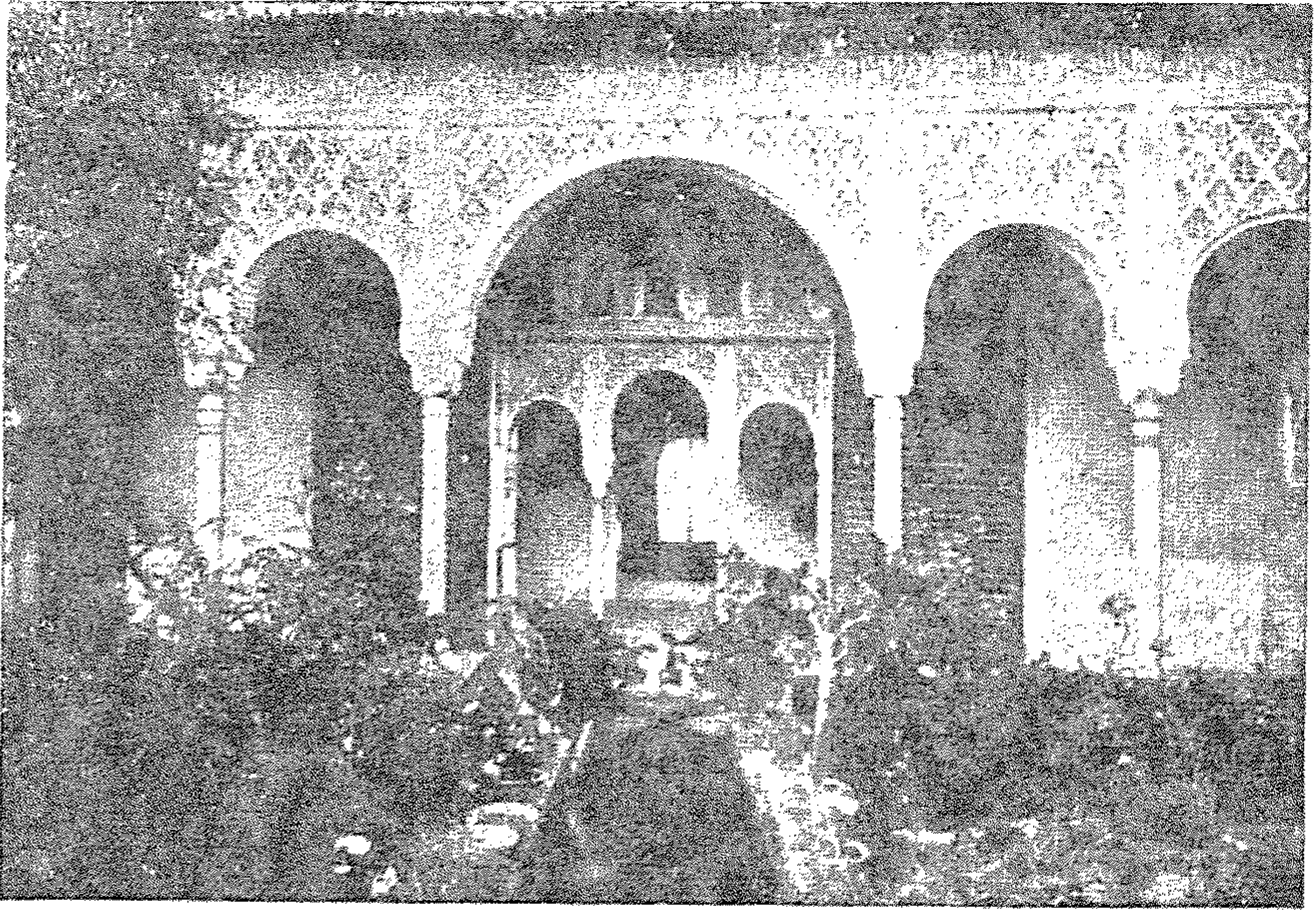
وهناك على مقربة من قصر الحمراء ، يقع أثر أندلسى آخر هو قصر جنة العريف El Generalife ، وهو يقوم على ربوة مستقلة عالية ، تقع فى ركن منعزل فى شمال شرقى الهضبة . ويشرف من ربوته العالية على صروح قصبة الحمراء ، وتبدو من ورائه آكام جبال سيرّا نڤادا الشامخة (جبل الثلج) . وهو عبارة عن صرح صغير أنيق المنظر ، قد اختلطت أوضاعه العربية السفلى . بما أنشأه الملوك

(١) يجد القارئ وصفاً ضافياً لقصر الحمراء ومنشآته ، ونقوشه ، فى كتابى « الآثار الأندلسية الباقية » . الطبعة الثانية ص ١٨٤ — ٢١٤ .

الإسبان فوقها من أبنية دخيلة ، وتجوز إليه من مدخل بسيط متواضع ، يفضى إلى ساحة فسيحة ، قد أقيم على جانبها رواقان ضيقان طويلان ، وفى وسطها بركة ماء ، وقد غرست حولها الرياحين والزهور الساحرة .

وقد كان قصر جنة العريف فيما يبدو مصيفاً أو متنزهاً لسلاطين غرناطة ، يؤمونه للاستجمام والراحة ، والاستمتاع بجمال موقعه ، وروعة المناظر الطبيعية التى تحيط به .

* * *



واجهة قصر جنة العريف

ولم ينج هذا الأثر الإسلامى العظيم ، عنوان الحضارة الأندلسية الباهرة ، من يد العدوان والتشويه المنظم . فقد كان مثل بناته المغلوبين ضحية للسياسة الإسبانية الغاشمة ، وقد عمل الإسبان منذ سقوط غرناطة على محو جمال الحمراء الرائع بأعمال تخريب وتشويه متتالية ، فمسخوا الزخارف والنقوش أومحوها ، ونقلوا الأثاث والرياش أو أتلفوه ، وبنى الإمبراطور شرلكان فى سنة ١٥٢٦ إلى جانب الحمراء فى الجنوب الغربى منها قصراً جديداً ، وهدم معظم القصر الشتوى القديم ليفسح مكاناً للقصر الجديد . وعمل فيليب الخامس (١٧٠٠ — ٤٦) على مسخ طراز الغرف العربى ، واستبداله بالطراز الإيطالى ؛ وأتم تشويه القصر بإقامة حواجز

سدت المنافذ والطرق بين مختلف الأجنحة . وعلى الجملة فقد تركت الحكومات الإسبانية المتعاقبة هذا الأثر الإسلامى العظيم فى زوايا الإهمال ، وأسلمته إلى يد العفاء والتخريب ، ولم تعن بإصلاحه وترميمه فى العصور الأولى إلا مرة واحدة ، فى أواسط القرن السادس عشر . وفى سنة ١٥٩٠ وقع بالحمراء حريق تسبب عن انفجار مصنع بارود مجاور ، فأصابها بأضرار كبيرة . ومنذ القرن السابع عشر تغلب مظاهر الخراب على الحمراء ، ويسودها النسيان والوحشة . وفى سنة ١٨٠٢ — أيام الغزو النابليونى — نسف الفرنسيون بعض أبراجها ولم ينج القصر إلا بأعجوبة . وفى أواسط القرن التاسع عشر ، أفاقت الحكومة الإسبانية من سباتها الطويل ، وعنيت بإصلاح الحمراء وترميمها ، واستمر الترميم والإصلاح فيها زهاء نصف قرن ، وتبدو الحمراء اليوم فى ثوبها المجدد ، وقد جددت الزخارف والنقوش القديمة فى معظم الأبهاء ، وفقاً لأوضاعها ونصوصها القديمة ، ولكن تتخللها أخطاء المطابقة والنقل فى مواطن كثيرة .

ولكن الحمراء مازالت بالرغم من كل ما أصابها من ضروب التشويه والإهمال ، تعتبر أعظم الآثار الأندلسية الباقية ، كما تعتبر أكمل نموذج للفن الأندلسى فى تطوره النهائى ، بعد تحرره من أثر الفن البيزنطى . وهى اليوم علم على غرناطة تشتهر بها عاصمة الأندلس القديمة فى سائر الآفاق ، ويهرع إليها الرواد من كل صوب ليصعدوا إلى هضبة الحمراء ، ويقضون لحظات فى تأمل صرحها الرائع (١).

* * *

وقد لبثت الحمراء بأبراجها المنيعة ، وأجنحتها الملوكية البديعة ، زهاء قرنين مقاماً فخماً لملوك غرناطة ، وحصناً أميناً يعتصمون به وقت الخطر والأزمات العامة ، حتى شهدت فى النهاية ذهاب ملكهم ، كما شهدت من قبل عظمتهم وسلطانهم .

وإلى جانب الحوادث التاريخية التى كانت الحمراء مسرحها ، والتى فصلناها فى مواضعها ، تتبوأ القصة والأسطورة فى تاريخ الحمراء مكاناً كبيراً ، وتقدم للقصصى مادة شائقة مؤثرة . ويرجع معظم هذا القصص إلى الفترة الأخيرة من حياة مملكة غرناطة ، وإلى حوادث مصرعها النهائى ، وقد كانت الحمراء كما رأينا مسرح كثير من حوادث المأساة ، وكانت بالأخص مسرح فصلها الختامى .

---

(١) هذا وقد رجعنا فى كتابة هذا الفصل أيضاً إلى كتاب **Alhambra** المنشور بعناية السنيور **M. Gomez - Moreno** فى سلسلة **El Arte en Espana** .

أجل إن للحمراء إلى جانب تاريخها الحافل ، تراثها من القصص والأساطير ، وهو تراث يمتزج أحياناً بالتاريخ الحق ، ويجنح أحياناً إلى الأسطورة الشائقة . بيد أنه يثير الشجن دائما ، وينفث الإعجاب والسحر . ذلك أنه مستمد من الحوادث والذكريات العظيمة ، التي ترتبط بتاريخ غرناطة ، ومن الروايات المؤثرة التي ذاعت عن مصرعها ، وعن بسالة فروسها ، حين المعركة الحاسمة ، وعن خلال مجتمعها ، ومخاوفه وهواجسه وآماله . وإذا كان المؤرخ لا يجد في هذا التراث دائماً ، مادة وثيقة يستطيع الوقوف بها ، فإنه يجد على الأقل صوراً مؤثرة مما تسبغه الروايات المعاصرة ، على تلك الحوادث العظيمة ، من ألوان الروع والشجن والأسى .

وفي هذه الحوادث المشجية يغلب التاريخ على الرواية والقصة . ولكن توجد إلى جانب ذلك طائفة من الأساطير الشائقة ، التي أحاطت بها الرواية الإسبانية قصة الحمراء ، وقصة أبهائها وأبراجها . وأول ما يروى في ذلك أن منشئ قصر الحمراء السلطان محمد الغالب بالله (ابن الأحمر) (٦٧١–٧٠١ هـ) كان ساحراً ، وأنه استعان بالسحر والشياطين في إنشاء الحصن والقصر ، ومن ثم استطاعت الجدران والأبراج المنيعة أن تغالب فعل الحوادث والعواصف والزلازل حتى يومنا ، دون أن تتصدع أو تنهار . والسر في ذلك يرجع إلى الطلاسم والتعاويذ السحرية التي تحمي البناء من كل شر . وتقول الأسطورة إن الحمراء لن تنهدم أو تسقط إلا حين يميل اللسان المثبت في أسفل البرج الخارجي ، ويصل إلى موضع القفل ، فعندئذ تنهار الحمراء دفعة واحدة ، وتنكشف جميع الكنوز التي أودعها المسلمون في أعماقها .

وعلى ذكر هذه الكنوز تقول الأسطورة إن المسلمين عندما سقطت غرناطة في أيدي النصارى ، كانوا يعتقدون أن سقوطها حادث موقت ، وأن دولة المسلمين في الأندلس لن تلبث أن تعود قوية عزيزة ، وأن بعدهم عن أوطانهم لن يطول ، ولذلك عمدوا إلى إخفاء ذخائرهم وحليهم وأموالهم في أعماق الحمراء ، في جوانب متعددة منها ، وأنهم لجأوا في حفظها وحمايتها إلى السحر ، فرصدوا لحفظها الطلاسم والأسماء . وقد يبدو حراسها أحياناً في صور مردة أو وحوش ، أو فرسان مسلمين مدججين بالسلاح ، يسهرون عليها أبد الدهر جامدين لا يغمض لهم طرف . وليس في الحمراء برج أو بهو أو قاعة ، إلا اقترن ذكرها بقصة هذه الكنوز الخفية ، وكانت الأسطورة تضطرم من عصر إلى آخر ، ولاسيما في جنوبي اسبانيا ،

كلما كشفت المباحث الأثرية فى أنحاء الحمراء أو حولها ، عن بعض النقود والتحف الإسلامية .

وتقدم إلينا الرواية بعض الأساطير المروعة عن « بهو السباع » والبهو الذى يقابله وهو المسمى بهو بنى سراج . فأما بهو السباع فتزعم الرواية أنه كان مسرحاً دموياً لمصرع بعض أبناء السلطان أبى الحسن . وأما بهو بنى سراج فتقول الرواية إنه كان مسرحاً لمصرع بنى سراج أعرق الأسر الغرناطية وأوفرها جاهاً وفروسة ، وكانت فى أواخر عهد السلطان أبى الحسن قد انتظمت إلى جانب خصومه ، وأمعنت فى مناوأته ، فقرر إهلاكهم (١) . وقيل إن عميدهم محمد بن سراج ، وهو من أكابر الفرسان والسادة ، هام بحب أميرة من البيت المالك ، فوجد عليه السلطان وقرر سحق الأسرة كلها ، ودبر كميناً لإهلاكهم ، فدعا أكابرهم ذات مساء إلى حفل أقامه ، وأدخلوا واحداً بعد واحد بترتيب معين ، من باب البهو المذكور ، وكلما دخل أحدهم بادره القتلة ونحروه على حافة الحوض الرخامى الواقع وسطها ، حتى أعدموا جميعاً ، وفقدت الأسرة كل أنجادها . وسمى المكان من ذلك الحين « بهو بنى سراج » . وما زالت ثمة بقع داكنة فى قاع الحوض الذى سالت فيه دماء القتلى تقول الرواية إنها بقع من دمائهم ، وأنها لن تمحى قط ، وتزيد الأسطورة على ذلك أنه ما زالت تسمع فى ذلك البهو فى بعض الليالى أنات خافتة ، وقعقعة سلاح ، وأنه حدث أكثر من مرة أى رأى حراس الحمراء فى جوف الليل ، بعض الجند المسلمين ، وقد لمعت أثوابهم الزاهية وأسلحتهم البراقة ، يقطعون البهو جيئة وذهاباً (٢) .

وهناك طائفة كبيرة من الأساطير الغرامية ، تروى عن الملوك والسادة الذين

---

(١) راجع رواية هرناندو دى بايثا المنشورة ضمن « أخبار العصر » ص ٦٦ .

(٢) يلاحظ أن الرواية الإسلامية لا تحدثنا عن هذه المأساة بشىء . ولكن الرواية والأغانى الإسبانية تكثر الحديث عنها . ويشير الوزير محمد بن عبد الوهاب الغسانى سفير ملك المغرب إلى ملك اسبانيا فى أواخر القرن السابع عشر إلى تلك الأسطورة فى رحلته نقلا عن التواريخ لإسبانية (راجع رحلة الوزير فى افتكاك الأسير ص ٢٤) . وقد كانت حوادث هذه المأساة المزعومة وما اقترن بها من الأساطير مستقى خصباً لكتاب القصص . وقد وضع الكاتب الفرنسى شاتوبريان عن بنى سراج قصة عنوانها مغامرات آخر بنى سراج (**Aventures du dernier Abencérrages**) يحدثنا فيها عن فتى أندلسى هو آخر سليل لبنى سراج ، وكانت الأسرة قد نزحت إلى تونس عقب سقوط غرناطة ، وعاشت هناك فى فقر وضعة ، فاعتزم الفتى أن يحج إلى غرناطه موطن آبائه القديم ، وهنالك هام حباً بفتاة اسبانية رائعة الحسن ، وهامت بحبه ، ولكن اختلاف الدين حال دون زواجهما ، فارتد الفتى المسلم إلى الصحراء وانقطع أثره ، وعاشت حبيبته فى عزلة محتفظة بحبه وذكراه .

سكنوا الحمراء، وعن أبهائها الفخمة وأبراجها القائمة . ويقال إن كثيراً من الأميرات والغيد الحسان الذين استحقوا اللعنة الملكية زجوا إلى أقبيتها أو أبراجها السحيقة وأعدموا فى ظلماتها . ومن ذلك ماتزعمه الأسطورة من أن سلطاناً مستبداً من سلاطين غرناطة سجن بناته الثلاث فى أحد أبراج الحمراء ، ولم يك يسمح لهن إلا بالتريض ليلا فى بعض التلال المجاورة بحيث لا يراهن إنسان قط ، وأن أولئك الأميرات الثلاث ما زلن يظهرن فى بعض الليالى المقمرة فى هاتيك التلال ، يمتطين جيادهن الفخمة ، وتسطع حليهن النفيسة تحت أشعة القمر ، فإذا حاول إنسان أن يخاطبهن أو يزعجهن ، اختفين فى الحال تحت جنح الظلام .

وقد ذاعت هذه الأساطير عن الحمراء وعن ملوكها ، ودونت عقب سقوط غرناطة ، فى بعض التواريخ والقصص المغرق . ومن ذلك كتاب ظهر فى أواخر القرن السادس عشر عنوانه «حروب غرناطة الأهلية Guerras civiles de Granada» وزعم مؤلفه، وهو اسبانى من أهل مرسية يدعى خينس بيرث دى إيتا Gines Perez de Hita أنه نقله عن مؤلف لكاتب أندلسى يدعى ابن أمين، وهو مزيج من بعض الوقائع التاريخية المحرفة ، وكثير من القصص الخرافية ، ويدور معظمه حول حوادث غرناطة الأخيرة ومعاركها الأهلية ، وأحوال بلاطها وما يقع فيه من مكائد ودسائس سياسية وغرامية ، ومنافسات بنى سراج وبنى الثغرى وغيرهم من أمجاد غرناطة . وقد ذاع هذا المؤلف فى اسبانيا ولاسيما فى ريف الأندلس ، وترجم إلى لغات عديدة . بيد أنه يبدو من سياقه أنه لا يمكن أن يكون ترجمة لرواية عربية ، وكل ما هنالك أنه مزيج من بعض الأساطير النصرانية والشعبية، التى ذاعت فى ذلك العصر عن حوادث غرناطة ، وأذكاها خيال الأحبار ، والفرسان ، وأذكتها بالأخص عوامل دينية وسياسية خاصة .

هذا بعض ما يروى من قصص الحمراء وأساطيرها . وإذا كان المؤرخ لا يستطيع أن يقف بهذا التراث المغرق من القصص والأساطير ، فإنه يستطيع على الأقل أن يستخرج منه مغزى بليغاً ، وهو مغزى ينم فى كثير من الأحيان عما كان للأندلس المسلمة فى اسبانيا وفى الغرب ، من عظيم الهيبة والشأن ، وما كان لذكريات غرناطة وحمرائها من بالغ الروع والسحر والإجلال[1] .

* * *

(١) جمع الكاتب الأمريكى واشنطون إيرفنج W. Irving طائفة من الأساطير والقصص التى تتعلق بالحمراء وكنوزها وملوكها فى كتابه : Tales of the Alhambra

ورحم الله شوقى إذ يقول فى سينيته الأندلسية الشهيرة فى رثاء الحمراء :

لا ترى غير وافدين على التـــا ريخ ساعين فى خشوع ونكس
نقلوا الطرف فى نضارة آس من نقوش وفى عصارة ورس
وقبـــاب من لازورد وتـــبر كالربى الشم بين ظل وشمس
وخطوط تكفلت للمعـــانى ولألفاظهـــا بأزين لبس
وترى مجلس السباع خــلاء مقفر القاع من ظباء وخُنس
لا « الثريا » ولا جوارى الثريا ينزلن فيـــه أقمار إنس
مرمر قامت الأسـود عليـه كلة الظفر لينـات الجس
تنثر المـاء فى الحياض جمانا يتنزى على ترائب ملس
آخر العهـد بالجزيرة كانت بعد عرك من الزمان وضرس
يا دياراً نزلت كالخلد ظــلا وجنًى دانيـاً وسلسال أنس
لا تحس العيون فوق رباهـا غير حور حُو المراشف لعس
كسيت أفرخى بظلك ريشـا وربا فى رباك واشتد غرسى
هم بنو مصر لا الجميل لديهم بمضـاع ولا الصنيع بمنسى
من لسان على ثنـائك وقف وجنان على ولائك حبس
حسبهم هـذه الطلول عظات من جديد على الدهور ودرس
وإذا فاتك التفات إلى المـــا ضى فقد غاب عنك وجه التأسى

مأساة الموريسكيين

أو العرب المتنصرين

٨٩٧ – ١٠١٨ هـ : ١٤٩٢ – ١٦٠٩ م

الكتاب الثالث

مراحل الاضطهاد والتنصير

الفصل الأول

بدء التحول فى حياة المغلوب

نقص الروايات العربية عن المأساة الأندلسية . علة هذا النقص . اهتمام الرواية الإسبانية بالإفاضة فيها . هجرة الأندلسيين إلى المغرب . إنشاؤهم لمدينة تطوان . بداية عصر الإستعباد . السياسة الإسبانية ومصير المسلمين . أقوال الرواية القشتالية . اتجاه ملكى اسبانيا إلى النكث . تعليق النقد الحديث . بدء الاضطهاد . تحوير المعاهدة . خمنيس يحاول تنصير المسلمين . بعض من تنصر من أكابرهم . إحراق الكتب العربية . تعليق النقد الحديث على هذا العمل . الروايات الإسلامية عن مأساة التنصير . صدى المحنة فى مصر . نفى المسلمين من البرتغال . أمة الموريسكيين أو العرب المتنصرين . قرار مجلس الدولة . الثورة فى بعض النواحى . التنصير المغصوب . نشاط فرناندو وإيسابيلا . إستغاثة المسلمين بملك مصر . سفارة فرناندو إليه . الثورة فى ثليا لونجا وهزيمة الإسبان . جنوح فرناندو إلى اللين . أقوال الرواية الإسلامية عن هذه الحوادث . حشد المسلمين والمتنصرين فى أحياء خاصة . تحريم إحراز السلاح عليهم . حظر هجرتهم إلى غرناطة . تحريم بيع الأملاك .

لم يكن ظفر اسبانيا النصرانية بالاستيلاء على غرناطة ، وسحق دولة الإسلام فى الأندلس ، سوى بداية النهاية فى مصير الأمة الأندلسية ؛ ولم يكن فقد السيادة القومية ، وفقد الإستقلال والحرية ، والذلة السياسية ، والاضطهاد الدينى والاجتماعى ، وهى المحن التى تنزل عادة بالأمم المغلوبة ، سوى لمحة يسيرة مما كتب على الأمة الأندلسية أن تعانيه على يد اسبانيا النصرانية . أجل كان مصير مسلمى الأندلس بعد فقد دولتهم وزوال مملكتهم ، من أروع ما عرفت الأمم الكريمة المغلوبة ، وكان مأساة من أبلغ مآسى التاريخ .

تلك هى مأساة الموريسكيين أو العرب المتنصرين ، ومن الأسف أن الرواية الإسلامية لم تخص تاريخ الأمة الأندلسية بعد سقوط غرناطة بكثير من عنايتها ، ولم ينته إلينا عن تلك المأساة سوى رسائل وشذور يسيرة ، بل لم ينته إلينا سوى القليل عن مراحل التاريخ الأندلسى الأخيرة قبل سقوط غرناطة ، ولا توجد لدينا عن تلك المرحلة سوى رواية إسلامية واحدة هى كتاب « أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر » الذى سبقت الإشارة اليه غير مرة ، والذى كتبه فى سنة ٩٤٧ هـ (١٥٤٠ م) أعنى بعد سقوط غرناطة بخمسين سنة ، كاتب مجهول كان فيما يبدو

من أشراف غرناطة الذين بقوا فيها، وأرغموا على التنصر، ولكنهم بقوا مع ذلك مسلمين في روحهم وسريرتهم . وقد كانت هذه الرواية أساساً لكل ماكتبه المسلمون المتأخرون عن سقوط غرناطة . ولم تصل إلينا إلى جانب هذه الرواية الوحيدة ، سوى رسائل وشذور وقصائد نقلها إلينا المقرى مؤرخ الأندلس فى مؤلفه « أزهار الرياض » ، ومعظمها مما كتبه أدباء المغرب عقب وقوع المأساة بقليل .

ونستطيع أن نرجع هذا النقص فى الرواية الإسلامية عن حوادث المأساة الأندلسية إلى عاملين : الأول هو أنه فى عصور الإنحلال والسقوط تخمد الحركات الأدبية والفكرية ، وتقل العناية بالتدوين التاريخى، كما تقل فى جميع نواحى التفكير والأدب ، وأن نظام الطغيان المطبق والاضطهاد المروع ، الذى فرض على العرب المتنصرين، كان كفيلا بإخماد كل صوت وتحطيم كل قلم . والثانى وهو مانرجحه ، هو فقد معظم الكتب والوثائق العربية التى وضعت فى هذا الوقت، والتى استطاع المقرى أن ينقل إلينا شذوراً منها ، مما يدل على أن بعضها كان موجوداً حتى عصره أعنى فى القرن السابع عشر . ومن الغريب أن صاحب « أخبار العصر » لم يقدم إلينا عن مأساة العرب المتنصرين سوى نبذة يسيرة ، مع أنه عاصر معظم حوادثها ، وشهدها على الأغلب. ولسنا نجد مانفسر به هذا الصمت من جانب الرواية الإسلامية الوحيدة، التى انتهت إلينا عن سقوط غرناطة، وما تلاه من الحوادث والخطوب، إلا نظام الإرهاب الشامل ، الذى سحق كل متنفس للشعب المغلوب .

على أن هذه المرحلة المؤلمة من تاريخ الأمة الأندلسية ، تشغل بالعكس فى تاريخ اسبانيا القومى حيزاً كبيراً يمتد زهاء قرن وربع ، وتخصه الرواية الإسبانية بكثير من عنايتها . ولكن الرواية الإسبانية تتأثر دائماً بالعوامل القومية والديلية إلى أبعد حد ، وتنظر دائماً إلى ذلك الإستشهاد المفجع ، الذى فرضته اسبانيا على العرب المتنصرين ، وإلى تلك الأعمال المروعة التى كانت ترتكبها محاكم التحقيق(١) باسم الدين ، وإلى تلك الوسائل البربرية ، التى اتخذت لتشريد العرب المتنصرين وإبادتهم ، بعين الكبرياء والرضى ، وترى فيها دائماً نوعاً من الإنقاذ القومى ، وتطهيراً للدين والوطن من آثار الإسلام الأخيرة . وهى تحيط هذه المرحلة من تاريخ اسبانيا ، بكثير من القصص والأساطير الحماسية ، التى تشيد بظفر اسبانيا

(١) هى المعروفة خطأ « بمحاكم التفتيش » Inquisition, Inquisición ، وسنعود إلى الكلام عليها .

النصرانية ، وبما أسبغته العناية الإلهية على خطتها وسياستها ، فى إبادة تراث الإسلام والعرب المتنصرين ، وفى القضاء إلى الأبد على آثار تلك الدولة الإسلامية المجيدة ، التى ازدهرت فى اسبانيا زهاء ثمانية قرون ، وعلى حضارتها وآدابها ، وكل ذلك التراث العظيم الباهر .

على أن الرواية الإسبانية بالرغم من تأثرها العميق بالعوامل القومية والدينية ، تعرض علينا حوادث هذا النضال الأخير فى أسلوب موثر . وقد لا تضن فى بعض المواطن والمواقف بعطفها ، وأحياناً بإعجابها ، على تلك الأمة المغلوبة الباسلة ، التى لبثت تناضل حتى الرمق الأخير عن كرامتها ، وعن تراثها القومى والروحى .

— ٢ —

لبثت السياسة الإسبانية بعد سقوط غرناطة ، وبعد أن حققت اسبانيا النصرانية بالقضاء على دولة الإسلام فى الأندلس ، أعظم أمانيها القومية ، مدى حين تلتزم جانب الرواية والاعتدال .

ولما غادر فرناندو وإسابيلا غرناطة بعد دخولها ، أوصيا حاكمها الجديد الكونت تندليا (المركيز دى مونتخار فيما بعد) بالرفق فى معاملة الرعايا الجدد ، والعمل على التقريب بين العناصر . وكان من أثر ذلك فى البداية أن رغب الكثيرون فى البقاء ، واشتروا الرباع العظيمة من الراحلين بأبخس الأثمان[1] . وهناك من جهة أخرى ما يدل على أنه ماكاد يتم تسليم غرناطة حتى بدأ أعيان المسلمين فى بيع أملاكهم وضياعهم إلى القادة والأشراف القشتاليين الذين قدموا للتوطن فى المدينة المفتوحة ، فمثلا باع القائد أبو عبد الله محمد الينشتى إلى القائد القشتالى أندريس قلدرون حديقته ومنزله بباب الفخارين ، وذلك فى جمادى الثانية سنة ٨٩٧ هـ (مارس ١٤٩٢م) ؛ وباعت فاطمة بنت أبى القاسم الأبار إلى نفس القائد القشتالى حديقتها الكائنة بربض باب الفخارين ، وذلك فى نفس التاريخ ، وباع عدة آخرون من المسلمين أملاكهم فى مرج غرناطة وفى عين الدمع ، إلى بعض أعيان القشتاليين ، وذلك فى نفس السنة (١٤٩٢م)[2] . واتخذت الأهبة من جهة أخرى لنقل المسلمين الراغبين فى الهجرة إلى المغرب ، وهاجر كثير من أشراف غرناطة ، وفى مقدمتهم

---

(١) أزهار الرياض ، ج ١ ص ٦٧ .

(٢) راجع : «وثائق عربية غرناطية » الوثائق رقم ١٨١ (ص ١٣٠) ، ورقم ٦٨٤ (ص ١٣٤) ورقم ٨٥ (ص ١٣٥) .

بنوسراج وغيرهم من أنجاد غرناطة القدماء ، وأقفرت مناطق بأسرها من أعيان المسلمين ، ولاسيما منطقة البشرات . وكان تدفق سيل المهاجرين دليلا على أن الشعب المغلوب ، لم يكن واثقاً فى ولاء سادته الجدد ، وأنه كان ينظر إلى المستقبل بعين التوجس والريب .

ويفصل لنا صاحب أخبار العصر بعض حركات الهجرة التى وقعت على أثر سقوط غرناطة ، فيقول لنا إن من بقى من المسلمين فى مالقة عبروا البحر إلى باديس وعبر أهل ألمرية إلى تلمسان ، وعبر أهل الجزيرة الخضراء إلى طنجة ، وعبر أهل رندة وبسطة وحصن موجر وقرية قردوش وحصن مرتيل إلى تطوان وأحوازها ، وعبر أهل لوشة وقرية الفخار وبعض أهل غرناطة ومرشانة وأهل البشرّة إلى أراضى قبيلة غمارة ، وعبر أهل بيرة وبرجة وأندرش إلى ما بين طنجة وتطوان ، وعبر أهل بلّش إلى سلا ، وخرج كثير من أهل غرناطة إلى بجاية ووهران وقابس وصفاقص وسوسة ، وخرج أهل مدينة طريف إلى آسفى وأزمور[1] .

وقد كان ممن هاجر من غرناطة إلى العدوة عقب سقوطها بقليل جماعة من أهلها برياسة زعيم جندى هو أبو الحسن على المنظرى (أو المندرى) وكان من أكابر جند الجيش الغرناطى ، فنزلوا فى موقع قرية مرتيل (أومرتين) الواقع على البحر على مقربة من تطوان ، وكانت يومئذ خربة مهجورة ، فاستأذن الأندلسيون سلطان فاس ، محمداً الشيخ الوطّاسى ، فى تعميرها وسكناها ، فأذن لهم ، فأقاموا فوق موقعها القديم محلة حصينة بها مسجد وقصبة ؛ وكان ذلك فى سنة ٨٩٨ هـ (أواخر سنة ١٤٩٢م) . وفى رواية أخرى أن الأندلسيين الذين عمروا تطوان لأول مرة ، وفدوا إلى العدوة قبل سقوط غرناطة ببضعة أعوام فى سنة ٨٨٨ هـ (١٤٨٣ م) ، وأنهم كانوا نحو ستين أو ثمانين . ثم جاء من بعدهم عقب سقوط غرناطة قوم آخرون ، قاموا بتوسيعها وتحصينها ، وعلى أى حال فإن المرجح أن هجرة المنظرى وقومه كانت عقب سقوط غرناطة ، وأن هذا الفوج من المهاجرين الأندلسيين هو الذى يجب أن يحسب حسابه فى تعمير تطوان وتحصينها . ومن ذلك الحين تغدو تطوان ملاذا لكثير من الأسر الأندلسية التى أرغمت على التنصير ، ثم آثرت الهجرة إلى دار الإسلام فراراً من اضطهاد الإسبان ومحاكم التحقيق ، وعادت إلى دينها القديم ، وما تزال بها أعقابهم إلى اليوم[2] .

---

(١) أخبار العصر (طبعة العرايش) ص ٤٨ .

(٢) راجع الإستقصاء للسلاوى (ج ٢ ص ١٦٢) ، ومختصر تاريخ تطوان للسيد محمد داود —

وهكذا أبدى فرناندو وإسابيلا فى الأعوام الأولى رفقاً وليناً فى معاملة المسلمين ، ولاح مدى حين أن اسبانيا النصرانية تنوى أن تحافظ على العهود التى قطعت ، وعاش المسلمون بضعة أعوام فى نوع من السكينة والاطمئنان .

ولكن السياسة الإسبانية كانت تخشى دائماً ذلك الشعب الذكى النابه ، وكانت الكنيسة تجيش دائماً بنزعتها الصليبية القديمة ، وتضطرم رغبة فى القضاء على البقية الباقية من الأمة الإسلامية فى اسبانيا ؛ وكانت مملكة غرناطة القديمة ما تزال تضم كتلة مسلمة كبيرة ، تربطها بثغور المغرب صلات وثيقة ، هذا عدا ماكان من جموع المدجّنين فى منطقة بلنسية، وفى منطقة سرقسطة وغيرها من بلاد أراجون ، وكان كثير من أولئك المدجنين ، إلى ما بعد سقوط غرناطة بأعوام عديدة ، يحتفظون بدينهم الإسلامى . وكان وجود هذه الكتلة المسلمة فى قلب اسبانيا النصرانية ، شغلا شاغلا للسياسة الإسبانية .

والظاهر أن السياسة الإسبانية ، لبثت مدى حين مترددة فى انتهاج المسلك الذى تسلكه إزاء المسلمين ، وقد كانوا من أهم عوامل النشاط والرخاء والعرفان فى اسبانيا ، وكانت براعتهم قدوة فى الزراعة والصناعة والعلوم والفنون ، وخلالهم قدوة فى النشاط والمثابرة والزهد والعفة والرفق ، وكانوا على الجملة من أفضل

= (ص ١٤ – ١٧) . وقد أتيح لى أن أزور تطوان غير مرة ، وأن أتجول فى ربوعها القديمة ، وهى اليوم تكون القسم الشرقى والشمالى من مدينة تطوان الحديثة ، وما تزال بها بقايا المسجد والقصبة المنسوبين لأبى الحسن المنظرى . وقد علمت من صديقى العلامة السيد محمد داود مؤرخ تطوان ، أنه ما يزال يوجد بها إلى اليوم كثير من أعقاب الأسر الموريسكية القديمة، ما تزال تحمل أسماءها الموريسكية معربة لا تبغى بها بديلا لأنها عنوان الأرومة الأندلسية . وإليك طائفة من هذه الأسماء نوردها كما تثبت بالعربية ، ونورد مقابلها الإسبانى :

ملينة (Molina) . أولاد مرتين (Martin) . مدينة (Medina) . مراريش (Morales) . الطريس(Las Torres) . صالص (Salas) . برميخو (Bermejo) . مرشينة (Marchina) . قسطيلية (Castillo) . بايص (Paez) . الركينة (Requina) . لوقش (Lucas) . راغون (Aragon) .

وفى معظم مدن المغرب الأخرى مثل الرباط وسلا والدار البيضاء ومراكش وفاس وغيرها ، يوجد أعقاب كثير من الأسر الموريسكية . يحملون حتى اليوم ألقابهم الموريسكية القديمة معربة . وقد أورد لنا صاحب كتاب « مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح » جملة كبيرة منها ، مثل أسر بركاش . وبلافريج . ونكيطو . وملاط . ودنية . والرندة . وملين . ومرينو . واشكلانط . وبلانيو . وإبيرو . ولباريس . وكريسبو . وكيلطو . ومريبش . وروديسا . وبلامينو . وباينة . وبونو . والقسطالى . وفرتون . وقديره . وفلوريش . وغيرها (الكتاب المذكور ص ٢١٥) .

العناصر الذين يمكن أن تضمهم دولة متمدنة(١) . ولكن الكنيسة كانت تضطرم حماسة فى سبيل تحقيق مثلها ، ولم تكن السياسة الإسبانية فى تلك الفترة من تاريخ اسبانيا سوى أداة لينة فى يد الكنيسة ، التى بلغت عندئذ ذروة قوتها ونفوذها .

ويصف لنا مؤرخ اسبانى عاش قريباً من ذلك العصر ، نيات الكنيسة نحو المسلمين فى قوله : « إنه منذ استولى فرناندو على غرناطة ، كان الأحبار يطلبون إليه بإلحاح ، أن يعمل على سحق طائفة محمد من اسبانيا ، وأن يطلب إلى المسلمين الذين يودون البقاء ، إما التنصير ، أو بيع أملاكهم والعبور إلى المغرب ؛ وأنه ليس فى ذلك خرق للعهود المقطوعة لهم ، بل فيه إنقاذ لأرواحهم ، وحفظ لسلام المملكة ، لأنه من المستحيل أن يعيش المسلمون فى صفاء وسلام مع النصارى ، أو يحافظون على ولائهم للملوك ، ما بقوا على الإسلام ، وهو يحثهم على مقت النصارى أعداء دينهم »(٢) .

ولم تكن هذه السياسة فى الواقع بعيدة عما يخالج ملكى اسبانيا ، فرناندو الخامس وزوجه الملكة المتعصبة إيسابيلا الكاثوليكية ، من شعور نحو المسلمين ، ولم تكن العهود التى قطعت للمسلمين بتأمينهم فى أنفسهم وأموالهم ، واحترام دينهم وشعائرهم ، لتحول دون تحقيق أغراض السياسة القومية . ذلك أن فرناندو لم يحجم قط عن أن يقطع العهود والمواثيق متى كانت سبيلا لتحقيق مآربه ، وأن يسبغ على سياسته الغادرة ثوب الدين والورع ، ولكنه لم يعتبر نفسه قط ملزماً بعهود يقطعها متى أصبحت تعارض سياسته وغاياته .

ويعلق النقد الغربى الحديث على ذلك بقوله : « ولو نفذت هذه العهود (العهود التى قطعت لمسلمى غرناطة) بولاء ، لتغير مستقبل اسبانيا كل التغيير ، ولجمع الامتزاج الرفيق بين الأجناس ، ولغاض الإسلام مع الزمن ، ولتفوقت المملكة الإسبانية فى فنون الحرب والسلم ، وتوطدت قوتها ورخاؤها . ولكن ذلك كان غريباً على روح العصر الذى انقضى ، وأفضى التعصب والجشع إلى المطاردة والظلم ، وأنزلت الكبرياء القشتالية بالمغلوبين ذلة مروعة ، فاتسعت الهوة بين الأجناس على كر الزمن ، حتى استعصى الموقف ، وأدى إلى علاج كان من جرائه أن تحطم رخاء اسبانيا »(٣) .

---

(١) Dr. Lea : The Moriscos ; p. 7

(٢) Luis del Marmol : Rebelión y Castigo de los Moriscos de Granada ; Lib. I Cap. XXII

(٣) Dr. Lea : The Moriscos, p. 22

وأخذت سياسة الإرهاق تجرف فى طريقها كل شىء ، ونشط ديوان التحقيق ، (Inquisition) أو الديوان المقدس ، يدعمه وحى الكنيسة وتأييد العرش ، إلى مزاولة قضائه المدمر . وكانت مهمة هذه المحاكم الكنسية المروعة أن تعمل على حماية الدين (الكثلكة) ، ومطاردة الكفر والزيغ بكل ما وسعت ، وكان جل ضحاياها فى البداية من اليهود والمسلمين ، ثم الموريسكيين أو العرب المتنصرين . وسنعرض فى فصل خاص إلى تاريخ هذه المحاكم وإجراءاتها ووسائلها ، التى تنافى كل عدالة وكل قضاء متمدن .

وهكذا فإنه لم تمض بضعة أعوام على تسليم غرناطة ، حتى بدت نيات السياسة الإسبانية واضحة نحو المسلمين ، وكانت الكنيسة تحاول خلال ذلك أن تعمل لتحقيق غايتها أعنى تنصير المسلمين بالوعظ والإقناع ، ومختلف وسائل التأثير المادية ، ولكن هذه الجهود لم تسفر عن نتائج تذكر ، فجنحت الكنيسة عندئذ إلى سياسة العنف والمطاردة ، وأذعنت السياسة الإسبانية لوحى الكنيسة ، ولم تذكر ما قطعت من عهود مؤكدة للمسلمين باحترام دينهم وشعائرهم . وكان روح هذه السياسة العنيفة حبران كبيران ، هما الكردينال خمنيس مطران طليطلة ، ورأس الكنيسة الإسبانية ، والدون ديجو ديسا « المحقق العام » لديوان التحقيق[1] .

وحاولت السياسة الإسبانية من جانبها أن تسبغ على هذه التصرفات ثوب الحق والعدالة ، فأخذت فى تحوير العهود والنصوص التى تضمنتها معاهدة التسليم ، وتعديلها وتفسيرها بطريق التعسف والتحكم ، ثم خرقها نصاً فنصاً ، واستلاب الحقوق والضمانات الممنوحة تباعاً ، فأغلقت المساجد ، وحظر على المسلمين إقامة شعائرهم ، وانتهكت عقائدهم وشريعتهم[2] . وأدرك المسلمون ما ترمى إليه السياسة الكنسية من محو دينهم ولغتهم وشخصيتهم ، ودوت فى آذانهم تلك الكلمة الخالدة والنبوءة الصادقة ، التى ألقاها إليهم فارس غرناطة يوم اعتزموا التسليم للعدو :

« أتعتقدون أن القشتاليين يحفظون عهودهم ، وأن يكون لهذا الملك الظافر من الشهامة والكرم ما له من حسن الطالع ؟ لشد ما تخطئون . إنهم جميعاً ظمئون إلى دمنا ، والموت خير ما تلقون منهم ، إن ما ينتظركم شر الإهانات ، والانتهاك والرق ؛

---

(١) كان المحقق العام General Inquisitor وهو قاضى قضاة الديوان ، يمثل يومئذ أعظم السلطات الدينية والقضائية فى اسبانيا .

(٢) أخبار العصر ص ٥٤ .

ينتظركم نهب منازلكم ، واغتصاب نسائكم وبناتكم ، وتدنيس مساجدكم ، تنتظركم المحارق الملتهبة ، لتجعل منكم حطاماً هشيما » .

وكان فرناندو يخشى فى البداية عواقب التسرع فى تنفيذ هذه السياسة ، لأن الأمن لم يكن قد توطد بعد فى المناطق المفتوحة ، ولأن المسلمين لم ينزع سلاحهم تماماً ، وقد يؤدى الضغط إلى الثورة ، فتعود الحرب كما كانت . ولكنه انتهى إلى الخضوع لرأى الكنيسة ، واستدعى الكردينال خمنيس إلى غرناطة ليعمل على تحقيق مهمة تنصير المسلمين ، فوفد عليها فى شهر يوليه سنة ١٤٩٩ (٩٠٥هـ) ، ودعا أسقفها الدون تالاقيرا إلى اتخاذ وسائل فعالة لتنصير المسلمين ، وأمر بجمع فقهاء المدينة ودعاهم إلى اعتناق النصرانية ، وأغدق عليهم التحف والهدايا ، فأقبل بعضهم على التنصير ، وتبعهم جماعة كبيرة من العامة ، واستعمل الوعد والوعيد والبذل والإرغام ، فى تنصير بعض أعيان المسلمين .

وكان قد اعتنق النصرانية قبيل سقوط غرناطة وبعدها ، جماعة من الأمراء والوزراء ، وفى مقدمتهم الأميران سعد ونصر ، ولدا السلطان أبى الحسن من زوجه النصرانية الزابيث دى سوليس المعروفة باسم ثريا ، فقد تنصرا ومنحا ضياعاً فى أرجبة ، وتسمى أحدهما باسم « الدوق فرناندو دى جرانادا » (أى صاحب غرناطة) ، وخدم قائداً فى الجيش القشتالى ، واشتهر بغيرته فى خدمة العرش ، وتسمى الثانى باسم « دون خوان دى جرانادا »[1] . وتنصر سيدى يحيى النيار قائد ألمرية وابن عم مولاى الزغل ، عقب تسليمه لألمرية ، وتسمى باسم « الدون پيدرو دى جرانادا » وتنصرت زوجه السيدة مريم ابنة الوزير بنيغش ، وتنصر ابنه على ، باسم « الدون ألونسو دى جرانادا ڤنيجاس » ، وتزوج من دونيا خوانا دى منلوثا وصيفة الملكة . وتنصر الوزير أبو القاسم بن رضوان بنيغش ، ومعظم أفراد أسرته ، وعادت أسرته تحمل لقبها القشتالى القديم Los Venegas ، واشتهرت فى تاريخ اسبانيا الحديث ، وأنجبت كثيراً من أكابر القادة والأحبار . ونصر آل الثغرى الذين اشتهروا فى الدفاع عن مالقة وغرناطة قسرا ، وسمى عميدهم باسم « جونثالڤو فرنانديث ثجرى » ، وتنصر الوزير يوسف بن كماشه وانتظم فى سلك الرهبان . وهكذا اجتاحت موجة التنصير كثيراً من الأكابر والعامة معاً .

وتمركزت حركة التنصير فى غرناطة بالأخص فى حى البيازين ، حيث حول

---

(١) Hernando de Baeza : ibid, p. 65

مسجده فى الحال إلى كنيسة سميت باسم «سان سلبادور»[1]. واحتج بعض أكابر المسلمين على هذه الأعمال ، ولكن ذهب احتجاجهم وتمسكهم بالعهود المقطوعة سدى. وثار أهل البيازين وتحصنوا بحيهم، ونددوا بخرق العهود ، فبذل الكردينال خمنيس وحاكم المدينة ، جهوداً فادحة لإقناعهم بالهدوء والسكينة ، وبذلا لهم من التأكيدات والضمانات الكلامية ما شاءوا[2] .

ولم يقف الكردينال خمنيس عند تنظيم هذه الحركة الإرهابية ، التى انتهت بتوقيع التنصير المغصوب ، على عشرات الألوف من المسلمين ، ولكنه قرنها بارتكاب عمل بربرى شائن ، هو أنه أمر بجمع كل ما يستطاع جمعه من الكتب العربية من أهالى غرناطة وأرباضها ، ونظمت أكداساً هائلة فى ميدان باب الرملة، أعظم ساحات المدينة ، ومنها كثير من المصاحف البديعة الزخرف ، وآلاف من كتب الآداب والعلوم ، وأضرمت النيران فيها جميعاً ، ولم يستثن منها سوى ثلاثمائة من كتب الطب والعلوم ، حملت إلى الجامعة التى أنشأها فى مدينة ألكالا دى هنارس[3] ، وذهبت ضحية هذا الإجراء الهمجى عشرات ألوف من الكتب العربية ، هى خلاصة ما بقى من تراث التفكير الإسلامى فى الأندلس[4] .

ولسنا نحن فقط الذين نصف عمل خمنيس بالبربرية والهمجية ، بل قالها ويقولها مفكرو الغرب أنفسهم ، فمثلا يشير العلامة الإيطالى الأب سكياپرلى Schiaparelli فى مقدمة إحدى كتبه إلى « التعصب الكاثوليكى ، وثورات خمنيس

---

(١) ما تزال كنيسة «سان سلبادور» San Salvador ، تقوم حتى اليوم على موقع مسجد البيازين القدم ، وما تزال توجد فى مؤخرتها بعض عقود المسجد القديمة .

(٢) Luis del Marmol : ibid, I. Cap. XXIII

(٣) Alcalá de Henares ، وتسمى فى الرواية العربية بقلعة عبد السلام أوقلعة النهر لوقوعها على نهر هنارس ، أحد أفرع نهر التاجه ، وهى تقع فى جنوب غربى وادى الحجارة فى منتصف المسافة بينها وبين مدريد .

(٤) تختلف المؤرخون الإسبان فى تقدير عدد الكتب العربية التى ذهبت ضحية هذا الإجراء ، فيقدرها دى روبلس E, de Robles ، الذى كتب بعد ذلك بقرن كتاباً عن حياة الكردينال خمنيس، Compenido de la Vida y Hazanas del Cardinal Ximenez ، بمليون وخمسة آلاف كتاب. ويقدرها برمندث دى بدرازا B. de Pedraza الذى كتب بعده بقليل ، بمائة وخمسة وعشرين ألفاً فى كتابه Historia Eclesiastica de Granada ، ويقدرها البعض الآخر بخمسة آلاف فقط ، ويقدرها كوندى بثمانين ألفاً ، وربما كان تقديره أقرب إلى المعقول . راجع Prescott : Ferd. and Isabella .p 451 - 53 & notes.



الكردينال خمنيس دى سيسنيروس

البربرية ، التى ترتب عليها حرق المصاحف والكتب الإسلامية الأخرى لمسلمى غرناطة ، وذلك لكى يتوسل بذلك إلى تنصيرهم » .

ويقول المؤرخ الأمريكى وليم پرسكوت : « إن هذا العمل المحزن لم يقم به همجى جاهل ، وإنما حبر مثقف ، وقد وقع لا فى ظلام العصور الوسطى ، ولكن فى فجر القرن السادس عشر ، وفى قلب أمة مستنيرة ، تدين إلى أعظم حد بتقدمها إلى خزائن الحكمة العربية ذاتها »[١] .

ثم يشير إلى ما ترتب على هذا العمل بقوله : « لقد غدت الآداب العربية نادرة فى مكتبات نفس البلد الذى نشأت فيه ، وإن الدراسات العربية التى كانت من قبل زاهرة فى اسبانيا ، حتى فى العصور الأقل لمعاناً ، انهارت لأنها عدمت غذاء يؤدها ؛ وهكذا كانت النتائج المحزنة للمطاردة الأدبية ، التى يراها البعض أشد تقويضاً من تلك التى توجه إلى الحياة ذاتها » .

على أن هذا العمل الذى يثير غضب النقد الغربى الحديث وزرايته ، نجد مع ذلك بين العلماء الإسبان من يبرره بل ويمجده . وقد تولى المستشرق سيمونيت الدفاع عن الكردينال خمنيس ، الذى يصفه بأنه أحد أمجاد الكنيسة الإسبانية ، فى رسالة عنوانها : « الكردينال خمنيس دى سيسنيروس والمخطوطات العربية الغرناطية »[٢] يقول فيها ، إن ما قام به الكردينال من حرق الكتب أمر لا غبار عليه ، إذ هو إعدام للشئ الضار ، وهو بالعكس أمر محمود ، كما تعدم عناصر العدوى وقت الوباء ، وإن الملكين الكاثوليكيين قد أمرا عقب تنصير المسلمين أن تؤخذ منهم كتب الشريعة والدين ، لكى تحرق فى سائر مملكة غرناطة ، وألا يبقى لديهم سوى الكتب التى لا علاقة لها بالدين الذى نبذوه ، وإن تأجيل تنفيذ هذا الأمر حتى عهد الملكة خوانا ، كان تسامحاً وتساهلا ، وقد استشارت الملكة مجلسها ، وأصدرت بتاريخ ٢٠ يونيه سنة ١٥١١ أمراً ملكياً ، تلزم فيه جميع السكان الذين تنصروا حديثاً ، سواء فى غرناطة أوغيرها من نواحى مملكة غرناطة ، أن يسلموا سائر الكتب العربية التى لديهم سواء فى الدين أو الشريعة أو كتب الطب والفلسفة والتاريخ أو غيرها إلى قاضى الجهة ، وذلك فى ظرف خمسين يوماً من تاريخ هذا الأمر ،

---

(١) W. Prescott : ibid, p. 453 & 454

(٢) F. Javier Simonet : El Cardinal Ximenez de Cisneros y los Manuscritos Arabigo - Granadinos

لكي يفحصها القضاة ، وتؤخذ منها كتب الدين والسنة ، ويرخص القضاة بعد ذلك بحيازة غيرها .

ويدافع سيمونيت عن تصرف الكردينال خمنيس بحماسة ، ويقول إن إحراقه للكتب ، يمكن أن يقارن بما وقع من أعمال مماثلة خلال الثورات الحديثة ، منذ البروتستانتية الإنجليزية والألمانية إلى الثورة الفرنسية ، وأنه خلال هذه الثورات ، قد أحرق أو أتلف كثير من الآثار الأدبية والفنية في كثير من البلاد الأوربية ، وأنه لا يمكن مقارنة عمل خمنيس ، بما وقع من إحراق مكتبة الإسكندرية (المزعوم) ، بأمر الخليفة عمر ، وأن معظم الكتب العربية قد أخرج من اسبانيا مع الهجرة ، ومع من هاجروا من المسلمين من القواعد الأندلسية المختلفة ، وأخيراً أن كثيراً منها قد جمع أيام الملك فيليب الثانى وأودع بقصر الإسكوريال[1] .

ذلك هو ملخص رسالة المستشرق سيمونيت فى الدفاع عن تصرف الكردينال خمنيس ، وهو دفاع يبدو ركيكاً مصطنعاً إزاء أحكام النقد الغربى المستنير ، وتطبعه نزعة تحيز وتعصب واضحة ، تبدو فى كل ما كتبه هذا العلامة الإسبانى عن الأمة الأندلسية ، وهو لا يمكن مهما أسبغ عليه من المقارنات ، أن يزيل أثر هذه الوصمة المشينة من حياة خمنيس ، أو من التاريخ الإسبانى .

ولنعد إلى حديث تنصير المسلمين ، فنقول إن ما حدث فى غرناطة ، حدث فى باقى البلاد والنواحى الأخرى ، فنصر أهل البشرات وألمرية وبسطة ووادى آش فى العام التالى ، أعنى فى سنة ١٥٠٠ ، وعم التنصير سائر أنحاء مملكة غرناطة . على أن هذه الحركة التى نظمت لتنصير بقية الأمة الأندلسية والتى لم تدخر فيها أساليب الوعود والوعيد والإغراء والإكراه ، لم تقع دون قلائل واضطرابات عديدة حسبما نفصل بعد .

وكان الإغراء بالتنصير يتخذ أحياناً ، شكل هبات ومنح جماعية لبلدة أو منطقة بأسرها ، كما حدث بالنسبة لأهل وادى ألكرين (الإقليم) ولانخرون والبشرات ، فقد أصدر الملكان الكاثوليكيان مرسوماً (فى ٣٠ يوليه سنة ١٥٠٠) بإبراء سائر أهالى النواحى المذكورة ، الذين تنصروا أو يتنصرون ، من جميع الحقوق والتعهدات المفروضة على الموريسكيين لصالح العرش ، ورفعها عن منازلهم وأراضيهم وسائر أملاكهم المنقولة والثابتة ، وهبتهما لهم ، وإلغاء ضريبة الرأس

---

(1) Simonet : ibid, p. 3, 8,-10, 17, 18, 20 - 27 & 31

المفروضة عليهم لمدة ست سنوات ، وإقالتهم من الغرامة التى فرضت عليهم من جراء ثورتهم ، وقدرها خمسون ألف دوقية ، هذا إلى منح وإبراءات أخرى تضمنها المرسوم المشار إليه[١] .

وصدر كذلك مرسوم مماثل من الملكين الكاثوليكيين فى ٣٠ سبتمبر سنة ١٥٠٠ ، إلى « المسلمين » القاطنين بحيهم Moreria بمدينة بسطة ، بإقالة الذين تنصروا منهم أو يتنصرون ، من جميع الفروض والمغارم التى فرضت على الموريسكيين ، وتحريرهم منها سواء بالنسبة لأنفسهم أو منازلهم وأموالهم الثابتة والمنقولة من يوم التنصير ، وألا يدخل أحد منازلهم ضد إرادتهم ، ومن فعل عوقب بغرامة فادحة ، وأن يعفوا من سائر الذنوب التى ارتكبت ضد خدمة العرش ، وأن تحترم جميع العقود والمحررات التى كتبت بالعربية ، وصادق عليها فقهاؤهم وقضاتهم ، وأن يعامل المتنصرون منهم كسائر النصارى الآخرين فى بسطة ، ولهم أن ينتقلوا وأن يعيشوا فى أى مكان آخر من أراضى مملكة قشتالة ، دون قيد أو عائق ، إلى غير ذلك من المنح والامتيازات[٢] .

وصدر أخيراً مرسوم بالعفو عن جميع سكان « حى المسلمين » Moreria بغرناطة والقرى الملحقة بها ، بالنسبة لجميع الذنوب والأخطاء ، التى ارتكبت حتى يوم تنصيرهم ، وألا يتخذ فى شأنها أى إجراء ، سواء ضد أشخاصهم أو أملاكهم[٣] .

ولم تقدم الرواية الإسلامية المعاصرة إلينا كثيراً من التفاصيل عن هذه الحوادث والتطورات ، ولكنها تكتفى بأن تجمل مأساة تنصير المسلمين فى هذه الكلمات المؤثرة :

« ثم بعد ذلك دعاهم (أى ملك قشتالة) إلى التنصير ، وأكرههم عليه وذلك فى سنة أربع وتسعمائة ، فدخلوا فى دينهم كرهاً ، وصارت الأندلس كلها نصرانية ، ولم يبق فيها من يقول « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » إلا من يقولها فى قلبه ، وفى خفية من الناس ، وجعلت النواقيس فى صوامعها بعد الأذان ، وفى مساجدها الصور والصلبان ، بعد ذكر الله وتلاوة القرآن ، فكم فيها من عين باكية وقلب حزين ، وكم فيها من الضعفاء والمعذورين ، لم يقدروا على الهجرة واللحوق بإخوانهم المسلمين ، قلوبهم تشتعل ناراً ، ودموعهم تسيل سيلا غزيراً ، وينظرون إلى

---

(١) يحفظ هذا المرسوم بدار المحفوظات الإسبانية العامة Archivo general de Simancas برقم P. R 11-98 ، وقد حصلنا منه على صورة فتوغرافية .

(٢) Archivo general de Simancas: P. R. 11-107

(٣) Arch. gen. Leg. 28; Fol. 22

أولادهم وبناتهم يعبدون الصلبان ، ويسجدون للأوثان ، ويأكلون الخنزير والميتات ، ويشربون الخمر التي هي أم الخبائث والمنكرات ، فلا يقدرون على منعهم ولا على نهيهم ، ولاعلى زجرهم ، ومن فعل ذلك عوقب بأشد العقاب ، فيالها من فجيعة ما أمرها ، ومصيبة ما أعظمها ، وطامة ما أكبرها » . ثم يختتم بقوله : « وانطفأ من الأندلس الإسلام والإيمان ، فعلى هذا فليبك الباكون ، ولينتحب المنتحبون ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، كان ذلك في الكتاب مسطورا ، وكان أمر الله قدراً مقدورا »[1] .

ونقل إلينا المقرى نبذة من رسالة أخرى ، يشير كاتبها إلى تنصير مسلمي الأندلس فيما يلي :

« وتعرفنا من غير طريق ، وعلى لسان غير فريق ، أن قطر الأندلس طرق أهله خطب لم يجد في سالف الدهر . وذلك أنهم أكرهوا بالقتل إن لم يقع منهم النطق بما يقتضي في الظاهر الكفر ، ولم يقبل منهم الأسر . وكان الابتداء في ذلك من أهل غرناطة ، وخصوصاً أهل واسطها لقلة الناس ، وكونهم من الرعية الدهماء ، مع عدم العصبية بسبب اختلاف الأجناس ، وعلم النصارى بأن من بقي بها من المسلمين إنما هم أسارى في أيديهم ، وعيال عليهم ، وبعد أن انتزعوا منهم الأسلحة والمعاقل ، وعتوا فيهم بالخروج والجلاء ، فلم يبق من المسلمين طائل ، ونقض اللعين طاغية النصارى عهوده ، ونشر بمحض الغدر بنوده .... الخ »[2] .

وجاء في رواية أخرى هذا الوصف لمأساة التنصير : « إن طاغية قشتالة وأرغون صدم غرناطة صدمة ، وأكره على الكفر من بقي بها من الأمة ، بعد أن هيض جناحهم ، وركدت رياحهم ، وجعل بعد جنده الخاسر على جميع جهات الأندلس ينثال ، والطاغية يزدهي في الكفر ويختال ، ودين الإسلام تنثر بالأندلس نجومه ، وتطمس معالمه ورسومه ؛ فلو رأيتم ما صنع الكفر بالإسلام بالأندلس وأهليه ، لكان كل مسلم يندبه ويبكيه ، فقد عبث البلاء برسومه ، وعفى على أقماره ونجومه ، ولو حضرتم من جبر بالقتل على الإسلام ، وتوعد بالنكال والمهالك العظام ، ومن كان يعذب في الله بأنواع العذاب ، ويدخل به من الشدة في باب ويخرج من باب ، لأنساكم مصرعه ، وساءكم مقطعه ، وسيوف النصارى

---

(١) أخبار العصر ص ٥٤ و٥٥ و٥٦ .

(٢) أزهار الرياض ج ١ ص ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١

إذ ذاك على رؤوس الشرذمة القليلة من المسلمين مسلولة ، وأفواه الذاهلين محلولة ، وهم يقولون : ليس لأحد بالتنصر إن يمطل ، ولا يلبث حيناً ولا يمهل ، وهم يكابدون تلك الأهوال ، يطلبون لطف الله على كل حال » .

وقد تردد صدى هذه المحنة التي نزلت بمسلمي الأندلس بسرعة سائر في جنبات العالم الإسلامي ، فنرى ابن إياس مؤرخ مصر ، وهو راوية معاصر ، يدون في حوادث صفر سنة ٩٠٦ ﻫ (أغسطس سنة ١٥٠٠ م) أعني عقب محنة التنصير بأشهر قلائل ما يأتي : « وفيه جاءت الأخبار من المغرب بأن الفرنج قد استولوا على غرناطة التي هي دار ملك الأندلس ، ووضعوا فيها السيف بالمسلمين ، وقالوا من دخل ديننا تركناه ، ومن لم يدخل قتلناه ، فدخل في دينهم جماعة كثيرة من المغاربة خوفاً على أنفسهم من القتل ، ثم ثار عليهم المسلمون ثانياً وانتصفوا عليهم بعض شيء ، واستمر الحرب ثائراً بينهم ، والأمر لله تعالى في ذلك »[١] .

أما المسلمون الذين بقوا في مملكة البرتغال ، فقد كان مصيرهم فيما يبدو أفضل من مصير إخوانهم مسلمي الأندلس ، فقد قضى العرش البرتغالي بإخراجهم من أراضي المملكة في سنة ١٤٩٦م ، والسماح لهم بالعبور إلى المغرب أو إلى حيث شاءوا ، ونظراً لما لقوه من صعاب في اختراق الأراضي الإسبانية ، فقد أصدر الملكان الكاثوليكيان ، تحقيقاً لرغبة ملك البرتغال ، مرسوماً (في ابريل سنة ١٤٩٧) يصرح فيه للمسلمين البرتغاليين ونسائهم وأولادهم وخدمهم ، أن يخترقوا أراضي مملكة قشتالة ، وأن يذهبوا بأموالهم وأمتعتهم إلى البلاد الأخرى ، وأن يبقوا في أراضي قشتالة الوقت الذي يرغبون ثم يغادرونها بأموالهم متى شاءوا ، وفقط لا يسمح لهم بحمل الذهب والفضة إلى الخارج ، ويؤمنون في أنفسهم وأموالهم ضد كل اعتداء ولا يؤخذ منهم شيء بلا حق[٢] .

* * *

تلك هي المأساة التي استحالت فيها بقية الأمة الأندلسية بالتنصير المفروض ، إلى طائفة جديدة ، عرفت من ذلك التاريخ بالموريسكيين Moriscos ، أو المسلمين الأصاغر أو العرب المتنصرين[٣] . وقد فرض التنصير على المسلمين فرضاً ، ولم تحجم

(١) ابن إياس (بولاق) ج ٢ ص ٣٩٢ .

(٢) **Arch. gen. de Simancas, P.R. Leg. 78 Fol. 3**

(٣) **Moriscos** هي تصغير كلمة **Moros** ، ومعناها المسلمون أو العرب الأصاغر ، رمزاً إلى ما انتهت إليه الأمة الأندلسية من السقوط والانحلال .

السلطات الكنسية والمدنية ، عن اتخاذ أشد وسائل العنف . ولم يستكن المسلمون إلى هذا العنف دون تذمر ودون مقاومة ، وسرت إليهم أعراض الثورة ولاسيما فى المناطق الجبلية ، حيث كان ما يزال ثمة قبس من الحماسة الدينية . وكانت السياسة الإسبانية تلتمس الوسيلة للتخلص نهائياً من العهود المقطوعة ، فألفت فى التذمر والمقاومة سندها ، وقرر مجلس الدولة بأن المسلمين أصبحوا خطراً على الدين والدولة ، ولاسيما بعد ما تبين من جنوحهم إلى الثورة ، ومحاولتهم الاتصال بإخوانهم فى المغرب ومصر وقسطنطينية ، وقضى بوجوب اعتناق المسلمين للنصرانية ، ونفى المخالفين منهم من الأراضى الإسبانية . وهكذا حاول مجلس الدولة أن يسبغ صفة الحق والعدالة على التنصير المغصوب ، وعلى كل ما يتخذ لتحقيقه من إجراءات العسف والإرهاق .

وقع هذا القرار على المسلمين وقع الصاعقة ، وسرعان ماسرت إليهم الحمية القديمة ، فاعلنوا الثورة فى معظم نواحى غرناطة ، وفى ربض البيازين وفى البشرات واشتد الهياج بالأخص فى بلفيق ، وفى أندرش حيث نسف حاكم البلدة مسجدها بالبارود ، وفى نيخار وجوبخار وغيرها ، واعتزم المسلمون الموت فى سبيل دينهم وحريتهم ، ولكنهم كانوا عزلا ، وكانت جنود النصرانية صارمة شديدة الوطأة فمزقتهم بلا رأفة ؛ وكثر بينهم القتل ، وسبيت نساؤهم ، وقضى بالموت على مناطق بأسرها ، ما عدا الأطفال الذين دون الحادية عشرة ، فقد حولوا إلى نصارى . وحمل التعلق بالوطن وخوف الفاقة وهموم الأسرة ، كثيراً منهم على الإذعان والتسليم ، فقبلوا التنصير المغصوب ملاذاً للنجاة ؛ ولجأت الحكومة بعد إخماد الهياج فى غرناطة والبيازين إلى أساليب الرفق ، فبعثت بالعمال والقسس فى مختلف الأنحاء ، ولم يدخر هؤلاء وسعاً فى اجتذاب المسلمين بالوعيد والوعود ، وهكذا ذاع التنصر فى سائر مملكة غرناطة القديمة[1] .

وفى الوقت نفسه اضطر المسلمون المدجنون فى آبلة وسمورة ، وبلاد أخرى فى جليقية ، إلى اعتناق النصرانية ، وكانوا حتى ذلك الوقت يحتفظون بدينهم القديم .

ونشط فرناندو إلى إخماد الهياج حيث يقع . وفى الوقت الذى غدا فيه التنصير أمراً محتوماً ، وأضحى فرناندو يعتبر نفسه فى حل من عهوده المقطوعة للمسلمين ، تقدم إليه ديسا المحقق العام بوجوب إنشاء ديوان للتحقيق فى غرناطة ، لكى يعاون على

(١) Marmol : ibid, I. Cap. XXVII ، وكذلك Prescott : ibid ; p. 462

مطاردة الزيغ بوسائله الفعالة . فألفت لجنة ملكية للتحقيق فى حوادث غرناطة ، وقبض على كثير من المسلمين بتهمة التحريض ، وهرع آلاف أخر منهم إلى اعتناق النصرانية خيفة السجن والمطاردة . وعارض فرناندو وإسابيلا فى إنشاء ديوان التحقيق فى غرناطة ذاتها ، واقترحا أن تحال شئونها إلى اختصاص ديوان التحقيق فى قرطبة ، وألا يقدم المسلمون أو الموريسكيون إلى الديوان إلا لتهم خطيرة ، ولكن الكنيسة لم تقنع باتخاذ الإجراءات الجزئية ، ومضت تعمل لغايتها الشاملة . وكان فرناندو من جهة أخرى لا يزال يتوجس من المسلمين شراً ، ويرى فى منطق الكنيسة قوة ، وهو أن احتفاظ المسلمين بدينهم يقوى الروابط بينهم وبين إخوانهم فى إفريقية ، وأن اسبانيا ما تزال تضم بين جوانحها عدواً يخشى بأسه ، وأن فى تنصير المسلمين أو إخراجهم من اسبانيا ، سلام اسبانيا ونقاء دينها .

وكانت الكلمة للكنيسة دائماً ، ففى ٢٠ يوليه سنة ١٥٠١ أصدر فرناندو وإسابيلا أمراً ملكياً خلاصته « أنه لما كان الله قد اختارهما لتطهير مملكة غرناطة من الكفرة ، فإنه يحظر وجود المسلمين فيها ، فإذا كان بها بعضهم فإنه يحظر عليهم أن يتصلوا بغيرهم ، خوفاً من أن يتأخر تنصيرهم ، أو بأولئك الذين نصروا لئلا يفسدوا إيمانهم ، ويعاقب المخالفون بالموت أو مصادرة الأموال .

وحاول المسلمون فى يأسهم أن يلجأوا إلى معاونة سلطان مصر ، فأرسلوا إليه كتبهم يصفون إكراههم على التنصر ، ويطلبون إليه أن ينذر ملك اسبانيا بأنه سوف ينكل بالنصارى المقيمين فى مملكته ، إذا لم يكف عنهم ، فنزل سلطان مصر عند هذه الرغبة ، وأرسل إلى فرناندو يخطره بما تقدم ؛ وانتهز فرناندو هذه الفرصة فأوفد إلى بلاط القاهرة (سنة ١٥٠١) سفارته التى تحدثنا عنها فيما تقدم والتى كان سفيره فيها بيترو مارتيرى الحبر الكاتب والمؤرخ . فأدى مارتيرى سفارته ببراعة ، واستطاع أن يقنع السلطان بما يلقاه مسلمو الأندلس من الرعاية ، وأن يطمئنه على مصيرهم[١] .

وهكذا خبت آمال المسلمين تباعاً ، ولم تصمد الثورة إلا فى المنطقة الجبلية الواقعة بين آكام ڤليا لونجا وسيرّا ڤرمليا (الجبال الحمراء) بجوار رندة ، حيث احتشدت بعض البطون المغربية ، وحيث استطاع الثوار أن يقتحموا شعب الجبال ، وأن يفتكوا بعمال الحكومة وجندها . وسير فرناندو إلى تلك المنطقة حملة قوية تحت

---

(١) راجع : Prescott : Ibid ; p. 287 ؛ وكذلك Dr. Lea : The Moriscos, p. 36

إمرة قائده الشهير ألونسو دى آجيلار دوق قرطبة ، ونفذ الجند الإسبان إلى شعب ڤليا لونجا ، ووقعت الواقعة الحاسمة بين المسلمين والنصارى ، فهزم النصارى هزيمة فادحة وقتل منهم عدد جم ، وكان قائدهم آجيلار وعدة آخرون من السادة الأكابر ، فى مقدمة القتلى (مارس سنة ١٥٠١) .

فكان لهذه النكبة التى نزلت بالجنود الإسبان وقوادهم ، أعمق وقع فى البلاط الإسبانى . وهرع فرناندو إلى غرناطة ، ورأى بالرغم مما كان يحدوه من عوامل السخط والانتقام ، أن يجنح إلى اللين والمسالمة ، فأعلن العفو عن الثوار بشرط أن يعتنقوا النصرانية فى ظرف ثلاثة أشهر ، أويغادروا اسبانيا تاركين أملاكهم للدولة ، فآثر معظمهم النفى والجواز إلى إفريقية ، وهاجرت منهم جموع كبيرة إلى فاس ووهران وبجاية وتونس وطرابلس وغيرها ، وقدمت الحكومة الإسبانية السفن اللازمة لنقلهم مغتطبة لرحيلهم(١) ، إذ كانوا أشد العناصر مراساً وأكثرها نزوعاً إلى الثورة . واستقر الباقون وهم الكثرة الغالبة من المسلمين فى البلاد خاضعين مستسلمين ، وقد وصفهم دى پدراثا ، وهو مؤرخ من أحبار الكنيسة عاش قريباً من ذلك العصر بقوله : إنهم شعب ذو مبادئ أخلاقية متينة ، أشراف فى معاملاتهم وتعاقدهم ، ليس بينهم عاطل ، وكلهم عامل ، يعطفون أشد العطف على فقرائهم(٢) .

ولم يفت الرواية الإسلامية أن تشير إلى هذه الصفحة الأخيرة من جهاد المسلمين الباسل فى سبيل دينهم ، فقد نقل إلينا المقرى عنها ما يأتى :

« وبالجملة فإنهم (أى أهل غرناطة) تنصروا عن آخرهم بادية وحاضرة ، وامتنع قوم عن التنصر ، واعتزلوا النصارى فلم ينفعهم ذلك ، وامتنعت قرى وأماكن كذلك منها بلفيق وأندرش وغيرها ، فجمع لهم العدو الجموع واستأصلهم عن آخرهم قتلا وسبياً ، إلا ما كان من جبل بلنقة (أى ڤليا لونجا) ، فإن الله تعالى أعانهم على عدوهم ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، مات فيها صاحب قرطبة ، وأخرجوا على الأمان إلى فاس بعيالهم وما خف من أموالهم دون الذخائر . ثم بعد هذا كله كان من أظهر التنصير من المسلمين ، يعبد الله خفية ويصلى ، فشدد عليهم النصارى فى البحث ، حتى أنهم أحرقوا منهم كثيراً بسبب ذلك ، ومنعوهم من

---

(١) Prescott : ibid ; p. 467

(٢) P. Longàs (Cit. B. de Pedraza ; Hist. Eclesiastica) : Vida Religiosa de los Moriscos (p. LII).

حمل السكين الصغيرة ، فضلا عن غيرها من الحديد ، وقاموا فى بعض الجبال على النصارى مراراً ، ولم يقيض الله تعالى لهم ناصراً»[١] .

ومضت السياسة الإسبانية فى اضطهادها المسلمين والموريسكيين بمختلف الفروض والوسائل . وكان من الإجراءات الشاذة التى اتخذت فى هذا السبيل ، تشريع أصدره فرناندو بإلزام المسلمين والموريسكيين فى المدن ، بالسكنى فى أحياء خاصة بهم ، على نحو ماكان متبعاً نحو اليهود فى العصور الوسطى ونفذ هذا التشريع فى غرناطة عقب حركة التنصير الشامل ، وأفرد بها للمسلمين والمتنصرين حيان ، أحدهما يضم نحو خمسمائة منزل وهو الحى الصغير وهو داخل المدينة ، والثانى يضم نحو خمسة آلاف منزل ، ويشمل ضاحية البيازين . وكانت الأحياء التى يشغلها المسلمون أو المتنصرون فى المدن الأندلسية تسمى « موريريا » Moreria أو أحياء الموريسكيين ، على نحو ماكانت أحياء اليهود الخاصة تسمى « الجيتو » Ghetto . وكانت تفصل بينها وبين أحياء النصارى أسوار كبيرة ، وكان عدد المسلمين الذين بقوا فى غرناطة يبلغ فى ذلك الحين نحو أربعين ألفاً[٢] .

وصدر فى نفس الوقت فى سبتمبر سنة ١٥٠١ ، قانون يحرم على المسلمين إحراز السلاح علناً أو سراً ، وينص على معاقبة المخالفين لأول مرة بالحبس والمصادرة ، ثم بالموت بعد ذلك ، وهو قانون تكرر صدوره بعد ذلك غير مرة ، فى ظروف وعصور مختلفة ، وكان يطبق بصرامة بالأخص كلما حدث من الموريسكيين هياج أو مقاومة مسلحة تخشى عواقبها .

وكانت السياسة الإسبانية تخشى احتشاد الموريسكيين وتجمعاتهم فى مملكة غرناطة ، ولهذا صدر فى فبراير سنة ١٥١٥ مرسوم ملكى أعلن فى طليطلة ، وفيه يحرم بتاتاً على المسلمين المتنصرين حديثاً ، والمدجنين من أى جهة من مملكة قشتالة ،

---

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٦١٦ و ٦١٧ . وراجع أخبار العصر ص ٥٥ .

(٢) Dr. Lea : The Moriscos; p. 31, 151 & 152 . ويبدو هذا الالتزام بسكنى المسلمين فى أحياء خاصة فى غرناطة وغيرها من المدن الأندلسية القديمة فى كثير من المراسم الملكية التى صدرت منذ سنة ١٥٠٠ . مثال ذلك المرسوم الصادر بالإعفاء لأهل بسطة ، والذى أشرنا إليه من قبل Arch. gen. P.R. 11 — 107 ، والمرسوم الصادر بالعفو عن سكان « حى المسلمين » Moreria فى غرناطة الذى سبقت الإشارة إليه أيضاً (ص ٣٢٠) .

أن يخترقوا أراضي مملكة غرناطة ، ويعاقب المخالفون بالموت والمصادرة . ونص هذا المرسوم أيضاً بأنه يحرم بتاتاً على المتنصرين حديثاً فى مملكة غرناطة أو فى أية جهة أخرى من المملكة ، أن يبيعوا أملاكهم لأى شخص دون ترخيص سابق ، ومن فعل عوقب بالموت والمصادرة ، وذلك لأنه تبين كما ورد فى المرسوم ، أن كثيراً من المسلمين المتنصرين يبيعون أملاكهم ، ويحصلون على أثمانها ، ثم يعبرون إلى المغرب ، وهنالك يعودون إلى الإسلام (١) .

(١) Archivo general de Simancas, P.R. Legajo 8, Fol. 120:

الفصل الثانى

ديوان التحقيق الإسبانى

ومهمته فى إبادة الأمة الأندلسية

أصل الفكرة فى محاكم التحقيق الأولى . إجراءاتها وعقوباتها . التوسع فى اختصاصاتها . قيام محاكم التحقيق فى أراجون . النزعة الصليبية فى اسبانيا . مطاردة اليهود المتنصرين . محاولة البابوية إقامة الديوان فى قشتالة . معارضة فرناندو وإيسابيلا . مساعى الأحبار والقس تركيمادا . موافقة فرناندو وإيسابيلا . صدور المرسوم البابوى بإنشاء ديوان التحقيق فى قشتالة . قيام ديوان التحقيق الإسبانى . بداية نشاطه فى إشبيلية . اتساع نطاق أعماله . إنشاء المجلس الأعلى أو السوبريما . المحقق العام . جهود تركيمادا فى تنظيم الديوان . إجراءات ديوان التحقيق . التبليغ وطرقه وآثاره . الأحبار المقررون . القبض على المتهم . سجون الديوان . المحاكمة وإجراءاتها . الإحالة على التعذيب . أحكام التعذيب . تعليق الدون لورنتى . أنواع التعذيب واجراءاته . الأستجواب . الدفاع والمرافعات . الأحكام. تنفيذ العقوبة . حكم الإعدام . الأوتو دافى . محاكمة الغائبين والمتوفين .أثر الأحكام . بطش الديوان وحصانة المحققين . موقف العرش . خمنيس وجهوده فى إصلاح الديوان . شارل الخامس وموقفه من الديوان . بدء مطاردة المدجنين والموريسكيين . مهمة محاكم التحقيق . فكرة القضاء على الأمة الأندلسية . ديوان التحقيق يضطلع بهذه المهمة . اضطهاد الموريسكيين وريب الكنيسة فى إخلاصهم . تحرجهم من دينهم الجديد . أقوال الرواية القشتالية . وثيقة عربية تؤيد تمسكهم سراً بدينهم القديم ، وتحايلهم على نبذ شعائر النصرانية . السياسة الإسبانية نحو الموريسكيين . إجراءات القمع . ذرائع الإتهام . الشبهات الخطرة . الموريسكيون فى غرناطة وبلنسية . استغاثة الموريسكيين بالسلطان با يزيد الثانى . وثيقة عربية عن أحوالهم وآلامهم .

قام ديوان التحقيق (La Inquisición) فى مطاردة الموريسكين بأعظم دور ، وترك فى مأساتهم أعمق الأثر ، ومن ثم فإنه يجدر بنا أن نتحدث عن تاريخ هذه المحاكم الشهيرة ، ونظمها وأعمالها الرهيبة .

ويرجع قيام محاكم التحقيق إلى فكرة الرقابة القديمة على العقيدة ، والتحقق من سلامتها ونقائها . وقد ظهرت فكرة التحقيق فى أمر العقائد فى الكنيسة الرومانية فى عصر مبكر جداً ، وبدئ بتطبيقها منذ أوائل القرن الثالث عشر ، فكان البابا يعهد إلى الأساقفة وإلى الآباء الدومنيكيين ، فى تعقب المارقين والكفرة ومعاقبتهم . وطبق هذا النظام منذ البداية فى إيطاليا وألمانيا وفرنسا . وكان مندوبو البابوية

يتجولون فى مختلف الأنحاء، لتقصى أخبار الكفرة والقبض عليهم ومعاقبتهم، وكانت تعقد لذلك مجالس كنسية مؤقتة كانت هى النواة الأولى لمحاكم التحقيق، تعمل حيث يوجد الكفرة والملاحدة، ثم تحل متى تمت مهمة مطاردتهم والقضاء عليهم.

ثم أنشئت بعد ذلك مراكز ثابتة لمحاكم التحقيق، أقيم معظمها فى أديار الآباء الدومنيكين والفرنسيسكانيين. ولم تك ثمة فى هذه العصور سجون خاصة أو مراكز خاصة لمحاكم التحقيق، وإنما كان يتخذ من أى مكان صالح مركزاً أو سجناً. وكان الأساقفة يتولون رياسة هذه المحاكم، ولهم سلطة مطلقة. وكانت التحقيقات والمرافعات تجرى بطريقة سرية، وتصدر الأحكام على المتهمين نهائية غير قابلة للطعن. وكان يسمح للنساء والصبية والعبيد بالشهادة ضد المتهم وليس له، ويؤخذ الإعتراف من المتهم بالخديعة والتعذيب. وكان التعذيب يعتبر طبقاً للقوانين الكنسية وسيلة غير مشروعة للاعتراف، ولكن البابوية لم تجد بأساً من إقرار هذه الوسيلة. وكانت السجون التى يستعملها ديوان التحقيق مظلمة رهيبة، يموت فيها الكثيرون من المرض والآلام النفسية. وكان السجناء يصفدون عادة بالأغلال الثقيلة. وكانت العقوبات الرئيسية هى السجن المؤبد والإعدام والمصادرة. وكانت السلطات الدينية والبابوية تحصل على أوفر نصيب من الأموال المصادرة، وتحصل السلطات المدنية أيضاً على نصيبها منها. وألفى ديوان التحقيق ميداناً خصباً لنشاطه فى مطاردة الألبيين[1] وغيرهم من الملاحدة الذين ظهروا منذ أوائل القرن الثالث عشر فى جنوب فرنسا. وفى عهد لويس التاسع ملك فرنسا وضع أول قانون ينظم إجراءات هذه المحاكم الكنسية الجديدة.

وكان ديوان التحقيق فى تلك العصور يصدر أيضاً أحكامه ضد الكتب المحرمة، ويأمر بإحراقها، ومن ذلك أحكام صدرت بإحراق التلمود وبعض كتب أرسطو وغيرها من كتب الفلسفة فى العهد القديم.

ثم اتسع اختصاص محاكم التحقيق بمضى الزمن، فلم تبق مهمتها قاصرة على مطاردة الكفر، والزيغ فى العقيدة، بل تعدته إلى مطاردة السحر والسحرة والعرافة والعرافين، وشبه هؤلاء بالكفرة. وجاء بعد ذلك دور اليهود، فاتهموا بسب النصرانية وأخذت عليهم مزاولة الربا، وتتبعهم ديوان التحقيق بالمطاردة والعقاب. على أن الديوان لم ينس دائماً أن مهمته الأصلية تنحصر فى مطاردة الكفر والزيغ، والمحافظة على سلامة العقيدة الكاثوليكية ونقائها.

---

(١) نسبة إلى « ألبى » وهى مدينة بجنوبى فرنسا، وكانت من أهم مراكز هذه الطائفة الملحدة.

— ٢ —

تلك هى الظروف التى قامت فيها محاكم التحقيق الأولى ، فى مختلف أنحاء أوربا ، فى إيطاليا وألمانيا وفرنسا . ويرجع قيام ديوان التحقيق الإسبانى إلى نفس البواعث الدينية ، ولكنه نشأ مع ذلك نشأة مستقلة ، وأحاطت بقيامه ظروف خاصة .

وقد أنشئت محاكم التحقيق فى مملكة أراجون منذ أوائل القرن الثالث عشر ، ووضعت لها فى سنة ١٢٤٢م إجراءات جديدة ، كان لها فيما بعد أكبر الأثر فى صوغ نظم ديوان التحقيق الإسبانى . وعرف هذا الديوان الأرجونى بالديوان القديم وعكف حيناً على مطاردة طوائف الألبيين ، وإخماد دعوتهم فى أراجون ، ولم يلبث أن غدا سلطانه ، وغدت وسائله وإجراءاته مثار الرهبة والروع .

على أن هذه لم تكن سوى بداية محدودة المدى لنشاط ديوان التحقيق الإسبانى . ذلك أن ظروف اسبانيا النصرانية فى ذلك العصر ، واضطرام الصراع الأخير بينها وبين اسبانيا المسلمة ، ورجحان كفتها فى ميدان الحرب والسياسة ، كانت كلها تذكى النزعة الصليبية ، التى كانت تجيش بها اسبانيا دائماً . وكانت الأمة الأندلسية قد استحالت منذ القرن الرابع عشر ، إلى طوائف كبيرة من المدجنين فى مهاد عزها القديم ، فى قشتالة وأراجون ، ولم تبق منها سوى بقية أخيرة تحتشد فى مملكة غرناطة الصغيرة ، التى كان مصيرها المحتوم يلوح قوياً فى الأفق . وكان تفوق اسبانيا النصرانية ونصرها المضطرد ، يذكى عوامل التعصب الدينى الذى تبثه الكنيسة وترعاه ، وتتخذه اسبانيا الظافرة يومئذ شعارها المفضل فى ميدان السياسة . وكانت موجة من التعصب تضطرم فى هذا الوقت بالذات ، حول طوائف المتنصرين من اليهود (Conversos) ؛ وكان أولئك المحدثون فى النصرانية ، قد سما شأنهم ووصل كثير منهم إلى المناصب الكنسية الكبيرة ، وإلى مجلس الملك ، وتبوأوا بأموالهم ونفوذهم مكانة قوية فى الدولة والمجتمع ، وكان أحبار الكنيسة ينظرون إليهم بعين الريب ، ويعتبرونهم شراً من اليهود الخلص أنفسهم ، ويتهمونهم بالإلحاد والزيغ ، ومزاولة شعائرهم القديمة سراً . ولما تفاقم الإتهام من حولهم صدر فى سنة ١٤٦٥م فى عهد الملك هنرى الرابع ملك قشتالة ، أمر ملكى إلى الأساقفة ، بالاستقصاء والبحث فى دوائرهم ، وتتبع هذا اللون من المروق والزيغ ومعاقبة المارقين ، وتلا ذلك موجة من الاضطهاد اتخذت صورة المحاكمات الدينية ،

وأحرق عدد من أولئك المتنصرين . ولكن قشتالة التى شغلت يومئذ بمشاكلها الداخلية ، لم تعن بأمر المتنصرين ولم تزعجهم . وهنا تدخل البابا سكستوس الرابع ، وحاول أن يدخل نظام التحقيق فى قشتالة ، فأرسل إليها مبعوثاً بابوياً مزوداً بكل السلطات ، للتحقيق والقبض على المارقين ومعاقبتهم . ولكن فرناندو وإيسابيلا وقفا فى وجه هذه المحاولة حرصاً على سلطانهما ، وحداً من سلطة الكنيسة ، وأغضت إيسابيلا مدى حين عن تحريض الأحبار ، على مطاردة الكبراء المنتمين إلى أصل يهودى إذ كانت تثق بهم وبصادق نياتهم وغيرتهم فى خدمة الدولة والعرش .

على أن هذه المقاومة لم تلبث طويلا . ذلك أن كل الظروف كانت تمهد لظفر السياسة الكنسية ، فلم تلبث أن غلبت مساعى الأحبار ، وقبل الملكان إنشاء ديوان التحقيق فى قشتالة ، ليضطلع بمثل المهام الخطيرة التى يضطلع بها فى أراجون . وهنا يقال إن الفضل فى إقناع الملكة إيسابيلا بتحقيق هذه الفكرة يرجع إلى القس توماس دى تُركيمادا رئيس دير الآباء الدومنيكان فى سانتا كروث بشقوبية ، وقد كان معترف الملكة وله عليها نفوذ قوى ، فقيل إنه استطاع أن يحصل منها قبل اعتلائها العرش ، على وعد بأنها متى ظفرت بالملك ، فإنها تكرس حياتها لسحق الكفر وحماية الكثلكة ، وأنه كان أكثر العاملين على إقناعها بالموافقة على إنشاء ديوان التحقيق . وفى سنة ١٤٧٨ أرسل فرناندو وإيسابيلا سفيرهما إلى البابا ، للحصول على المرسوم البابوى ، وصدر المرسوم بالفعل فى نوفمبر من هذا العام بالتصريح بإنشاء ديوان التحقيق فى قشتالة ، وتعيين المحققين « لمطاردة الكفر ومحاكمة المارقين » ، واتخذت الخطوة الحاسمة لتنفيذ المرسوم فى سبتمبر سنة ١٤٨٠ ، حيث ندب المحققون الثلاثة الأول ، وأنشئت محكمة التحقيق الأولى فى إشبيلية . وهكذا بدأ ديوان التحقيق الإسبانى نشاطه المروع فى قشتالة .

— ٣ —

وبدأ الديوان أعماله فى إشبيلية بإصدار قرارات يحث فيها كل شخص أن يساعد الديوان ، فى البحث عن الملحدين والكفرة ، وكل من فى عقيدتهم زيغ ، وفى جمع الأدلة على إدانتهم ، وفى التبليغ عنهم بأية وسيلة ، وانقضت العاصفة بالأخص على اليهود المتنصرين ، وكانت منهم طائفة كبيرة فى إشبيلية ، فلم يمض عام حتى بلغت ضحاياهم ألوفاً أحرق منهم عدد كبير ، وعوقب الكثيرون بالسجن والغرامات الفادحة ، والمصادرة والتجريد من الحقوق المدنية .

وحاول كثير من المتنصرين النجاة بالفرار إلى ضياع الأشراف ، فصدر أمر ملكي بتسليم الهاربين إلى محكمة التحقيق ، وهدد الأشراف بفقد وظائفهم والنفي من الكنيسة ، إذا تخلوا عن تنفيذ الأمر . وحاول بعض أكابر المتنصرين في الوقت نفسه تدبير مؤامرة ، لمقاومة محكمة التحقيق والفتك بأعضائها ، ولكن المؤامرة اكتشفت وقبض على كثير منهم ، وقضى بإعدام البعض حرقاً ، وبذا سحقت كل مقاومة لنشاط الديوان الجديد .

واتسع نشاط الديوان بسرعة ، واستصدر الملكان من البابا مرسوماً بتعيين سبعة من « المحققين » الجدد (فبراير سنة ١٤٨٢) ، وأنشئت على أثر ذلك محاكم التحقيق في قرطبة وجيان وشقوبية وطليطلة وبلد الوليد ، وشمل نشاط الديوان سائر أنحاء المملكة الإسبانية (قشتالة وأراجون) .

وكان فرناندو وإيسابيلا يرميان إلى أن تسبغ الصفة القومية على ديوان التحقيق ، وأن يكون سلطانه مستمداً من العرش ، أكثر مما هو مستمد من البابوية . ولتحقيق هذه الغاية روئى أن ينظم الديوان على أسس جديدة . وكان الديوان قد غدا في الواقع أداة هامة مرهوبة الجانب ، ولابد لهذه الأداة من سلطة عليا تقوم بالتوجيه والإرشاد . ومن ثم فقد صدر المرسوم البابوى في سنة ١٤٨٣ بإنشاء مجلس أعلى لديوان التحقيق (Suprema) له اختصاص مطلق في كل ما يتعلق بشئون الدين ، ويتألف من أربعة أعضاء منهم الرئيس ، وأطلق على منصب الرئيس منصب « المحقق العام » Inquisitor-General ، وصدر المرسوم البابوى في أكتوبر سنة ١٤٨٣ بتعيين القس توماس دى تركيمادا معترف الملكين ، في هذا المنصب الخطير ، وخول في الوقت نفسه سلطة مطلقة في وضع دستور جديد للديوان المقدس .

وكان تركيمادا حبراً شديد التعصب ، وافر البأس والعزم ، فبذل في تنظيم الديوان وتوطيد سلطانه جهوداً عظيمة ، وبث إليه روحاً من الصرامة . وكان جل غايته أن يجعل من ديوان التحقيق الإسباني ، أداة قومية تعمل وفقاً لحاجات اسبانيا ، وقد وفق في تحقيق هذه الغاية إلى أبعد حد . وبدئ بوضع دستور الديوان الجديد في سنة ١٤٨٥ ، على يد جمعية من المحققين العامين عقدت في إشبيلية ، ووضعت طائفة من القرارات واللوائح ، ثم عقدت بعد ذلك جمعية أخرى في بلد الوليد سنة ١٤٨٨ ووضعت عدة لوائح جديدة ، وعقدت جمعية ثالثة في آبلة سنة ١٤٩٨ . وتولى المجلس الأعلى (السوبريما) بعد ذلك صياغة اللوائح وتنقيحها . وكان هذا

التنظيم عظيم الأثر فى تطور ديوان التحقيق الإسبانى . ذلك أنه غدا من ذلك الحين محكمة قومية مستقلة ، وغدا سلطة يخافها أعظم العظماء فى اسبانيا ، ويرتجف لذكرها الفرد العادى ، وأضحى نشاطها الرهيب ، وقضاؤها المدمر ، عنصراً بارزاً فى التاريخ الإسبانى ، يقوم بدوره الفعال فى دفع اسبانيا إلى شفا المنحدر ، الذى لبثت تتردى فى غمره زهاء ثلاثة قرون .

ولبث تُركيمادا فى منصب المحقق العام حتى توفى فى سنة ١٤٩٨ . وفى عهده اشتد نشاط محاكم التحقيق واتسعت أعمالها ، وكان هذا القس المتعصب بالرغم من تقشفه ، يعتبر بعد العرش أعظم سلطة فى اسبانيا ، ويعيش فى قصور باذخة ، وله حرس كبير من الفرسان والمشاة . وكان من جراء شدته وعسفه أن ندب البابا سنة ١٤٩٤ إلى جانبه خمسة من المحققين العامين ، يتمتع كل منهم بنفس سلطته . ولما توفى خلفه فى منصب المحقق العام ديجو ديسا أسقف جيان ، واستمر فى منصبه حتى سنة ١٥٠٧ م .

— ٤ —

ونقدم الآن عرضاً موجزاً لإجراءات ديوان التحقيق . وسنرى أنها بأصولها وتفاصيلها ، أبعد ما يكون عن مبادئ المنطق والعدالة ، وأشد ما يكون عسفاً وقسوة وهمجية .

تبدأ قضايا الديوان أومحاكماته الفرعية ، بالتبليغ أوما يقوم مقامه ، كورود عبارة فى قضية منظورة تلقى شبهة على أحد ما . ولافرق بين أن يكون التبليغ من شخص معين أويكون غفلا . فى الحالة الأولى يدعى المبلغ ويذكر أقواله وشهوده ، وتعتبر أقوال المبلغ وشهوده « تحقيقاً تمهيدياً » . كذلك يمكن التبليغ بواسطة « الإعتراف » الذى يتلقاه القسس ، ولهم أن يبلغوا عما يقعون عليه من حالات الإشتباه فى العقائد ، ولا توضح لهم الوقائع التى يُسئلون عنها بل يسئلون بصفة عامة ، عما إذا كانوا قد رأوا أو سمعوا شيئاً يناقض الدين الكاثوليكى أوحقوق الديوان . ويقوم الديوان فى الوقت نفسه بإجراء التحريات السرية المحلية عن المبلغ ضده . ثم تعرض نتيجة التحقيق التمهيدى على « الأحبار المقررين » ليقرروا ما إذا كانت الوقائع والأقوال المنسوبة إلى المبلغ ضده تجعله مرتكباً لجريمة الكفر أوتلقى عليه فقط شبهة ارتكابها . وقرارهم يحدد الطريقة التى تتبع فى سير القضية . ويقسم المقررون يمين الكتمان أيضاً ، وكان معظم أولئك المقررين من القسس الجهلاء المتعصبين ، ومن ثم فقد كانت

أخلاقهم وآراؤهم ، بل ذمتهم وشرفهم مثاراً للريب ، وكان رأيهم الإدانة دائماً إلا في أحوال نادرة .

وعلى أثر صدور هذا التقرير ، يصدر النائب أمره بالقبض على المبلغ ضده وزجه إلى سجن الديوان السرى . وكانت سجون الديوان المخصصة لاعتقال المتهمين بالكفر أو الزيغ ، وهي المعروفة بالسجون السرية ، غاية في الشناعة والروعة ، تتصل مباشرة بغرف التحقيق والعذاب ، عميقة مظلمة رطبة تغص بالحشرات والجرذان . ويصفد المتهمون بالأغلال[1] . ويقول لورنتى مؤرخ ديوان التحقيق الإسبانى إن أفظع ما في أمر هذه السجون هو أن من يزج إليها ، يسقط في الحال في نظر الرأى العام ، وتلحقه وصمة لا تلحقه من أى سجن آخر مدنى أو دينى ، وفيها يسقط في غار حزن لا يوصف وعزلة عميقة دائمة ، ولا يعرف إلى أى مدى وصلت قضيته ، ولا ينعم بتعزية مدافع عنه . غير أن لورنتى ينفى تصفيد المتهمين بالأغلال الثقيلة في أرجلهم وأيديهم وأعناقهم ، ويقول إن هذا الإجراء لم يكن يتبع إلا في أحوال نادرة[2] . ويقول الدكتور لى : « كان القبض الذى يجريه ديوان التحقيق في ذاته عقوبة خطيرة . ذلك أن أملاك السجين كلها تصادر وتصفى على الفور ، وتقطع جميع علائقه بالعالم حتى تنتهى محاكمته . وتستغرق المحاكمة عادة من عام إلى ثلاثة ، لا يعرف السجين أو أسرته خلالها شيئاً عن مصيره ، وتدفع نفقات سجنه من ثمن أملاكه المصفاة ، وكثيراً ما تستغرقه المحاكمة »[3] .

ولا يخطر المتهم بالتهم المنسوبة إليه ، ولكنه يمنح عقب القبض عليه ثلاث جلسات في ثلاثة أيام متوالية ، تعرف بجلسات الرأى أو الإنذار ، وفيها يطلب إليه أن يقرر الحقيقة ، ويوعد بالرأفة إذا قرر وفق ما ينسب إليه ، وينذر بالشدة والنكال إذا كذب أو أنكر ، لأن « الديوان المقدس » لا يقبض على أحد دون قيام الأدلة الكافية على إدانته ، وهي طريقة غادرة محيرة . فإذا اعترف المتهم بما ينسب إليه ولو كان بريئاً ، اختصرت الإجراءات وقضى عليه بعقوبة أخف ، ولكنه إذا اعترف بأنه كافر مطبق ، فإنه

---

(١) Dr. Lea : History of the Inquisition of Spain, V.I. Chap. IV

(٢) Don S.A.Llorente : Historia Critica de la Inquisicion de Espana(1815-1817)
وهو مؤلف نقدى ضخم ويمتاز بكون مؤلفه اسبانى ، وهو حبر خدم ديوان التحقيق أعواماً طويلة . وكان في أواخر حياته يشغل فيه منصب السكرتير العام .

(٣) Dr. Lea : The Moriscos of Spain

لا ينجو من عقوبة الموت ، مهما كانت الوعود التى بذلت له بالرأفة والعفو .

فإذا أبى المتهم الاعتراف بعد الجلسات الثلاث ، وضع النائب له قرار الإتهام طبقاً لما ورد فى التحقيق من الوقائع ، وذلك مهما كانت الأدلة المقدمة من الركاكة والضعف . بيد أن أفظع ما يحتويه القرار هو إحالة المتهم على التعذيب ، وغالباً ما يطلب النائب هذه الإحالة ، وذلك بالرغم من اعتراف المتهم بما ينسب إليه ، لأنه يفترض دائماً أنه أخفى أو كذب فى اعترافه . وتصدر المحكمة قرار التعذيب مجتمعة بهيئة غرفة مشورة . وكان قرار التعذيب فى العصور الأولى يصدر عقب الاشتباه والقبض فوراً . وقد استعمل التعذيب فى محاكم التحقيق للحصول على الإعتراف ، منذ منتصف القرن الثالث عشر . وكان التعذيب فى قشتالة إجراء يسوغه القضاء العادى ، وكان يعتبر وسيلة مشروعة لنيل الإعتراف ، فلم يكن غريباً أن يدمجه ديوان التحقيق فى دستوره . وقد نوه كثير من المؤرخين بروعة الإجراءات والوسائل التى كانت تلجأ إليها محاكم التحقيق فى توقيع العذاب . ويعلق عليها دون لورنتى بقوله : « لست أقف لأصف ضروب التعذيب التى كان يوقعها ديوان التحقيق على المتهمين ، فقد رواها بما تستحق من الدقة كثير من المؤرخين . ولكنى أصرح أن أحداً منهم لا يمكن أن يتهم بالمبالغة فيما روى . ولقد تلوت كثيراً من القضايا ، فارتجفت لها اشمئزازاً وروعاً ، ولم أر فى « المحققين » الذين التجأوا إلى تلك الوسيلة إلا رجالا بلغ جمودهم حد الوحشية »(١) . بيد أن مؤرخا حديثاً لديوان التحقيق هو الدكتور لى يرى فى هذه الأقوال مبالغة ، ويقول لنا إن ديوان التحقيق لم يكن فى إجراءاته الخاصة بالتعذيب ، أكثر قسوة أو إرهاقا من القضاء العادى ، وأن ديوان التحقيق الرومانى ، كان فى إجراءاته أشد قسوة وفظاعة من الديوان الإسبانى(٢) .

وكانت معظم أنواع التعذيب المعروفة فى العصور الوسطى ، تستعمل فى محاكم التحقيق ، ومنها تعذيب الماء ، وهو عبارة عن توثيق المتهم فوق أداة تشبه السلم وربط ساقيه وذراعيه إليها ، مع خفض رأسه إلى أسفل ، ثم توضع فى فمه من زلعة جرعات كبيرة ، وهو يكاد يختنق ، وقد يصل ما يتجرعه إلى عدة لترات . وتعذيب « الجاروكا » وهو عبارة عن ربط يدى المتهم وراء ظهره ، وربطه بحبل حول راحتيه وبطنه ، ورفعه وخفضه معلقاً ، سواء بمفرده أو مع أثقال تربط معه .

---

(١) Llorente : ibid.

(٢) Dr. Lea: The History of the Inquisition ; V. III. Ch. VII.

وتعذيب الأسياخ المحمية للقدم ، والقوالب المحمية للبطن والعجز ، وسحق العظام بآلات ضاغطة ، وتمزيق الأرجل ، وفسخ الفك ، وغيرها من الوسائل البربرية المثيرة .

ولم يك ثمة حدود مرسومة لروعة التعذيب وآلامه . ولما كان التعذيب يعتبر خطراً لا تؤمن عواقبه ، نظراً لاختلاف المتهمين فى قوة البنية والاحتمال المادى والعقلى ، فإنه لم يك ثمة قواعد معينة تتبع فى إجراء التعذيب ، بل كان الأمر يترك لتقدير القضاة وحكمهم وضمائرهم(١). ولا يحضر التعذيب سوى الجلاد والأحبار المحققون ، والطبيب إذا اقتضى الأمر ، ولا يخطر المتهم بأسباب إحالته على التعذيب ، ولا يسئل ليقرر وقائع معينة ، بل يعذب ليقرر ما شاء ، ويمكن الطعن فى القرار بطريق الاستئناف أمام المجلس الأعلى (السوپريما) إلا فى أحوال استثنائية . ولكن الطعن لا يقبل ولا ينظر ، حيثما كان القانون صريحاً فى وجوب إجراء التعذيب . وقد يأمر الطبيب بوقف التعذيب إذا رأى حياة المتهم فى خطر ، ولكن التعذيب يستأنف متى عاد المتهم إلى رشده أو جف دمه ، فإذا اعترف المتهم واعتبر القضاة اعترافه صحيحاً ، بمعنى أنه يتضمن عنصر التوبة ، كف عن تعذيبه ، وإذا استطاع المتهم احتمال العذاب وأصر على الإنكار ، لم يفده ذلك شيئاً ، لأن القضاة يتخذون غالباً من الوقائع المنسوبة للمتهم أدلة على الإدانة ، ويحكم عليه طبقاً لهذا الاعتبار . ويجب أن يؤيد المعترف ما قاله وقت التعذيب ، باعتراف حر يقرره فى اليوم التالى ، وذلك حتى يؤكد صحة الإعتراف ، فإذا أنكر أو غير شيئاً أعيد إلى التعذيب .

وبعد انتهاء التعذيب يحمل المتهم ممزقاً دامياً إلى قاعة الجلسة ، ليجيب عن التهم التى توجه إليه لأول مرة ، ويسئل عند تلاوة كل تهمة عن جوابه عنها مباشرة ، ثم يسئل عن دفاعه . وكان مبدأ الدفاع أمراً مقرراً من الوجهة النظرية ، فإن كان له دفاع ، اختارت المحكمة له محامياً من المقيدين فى سجل الديوان للدفاع عنه ، وقد يسمح للمتهم باختيار محام من الخارج فى بعض الأحوال الاستثنائية ، ويقسم المحامى اليمين بأن يؤدى مهمته بأمانة ، وألا يعرقل الإجراءات بسوء نية ، وأن يتخلى عن موكله إذا تبين له فى أية مرحلة من مراحل الدعوى ، أن الحق ليس فى جانبه . على أن الدفاع لم يكن فى الغالب سوى ضرب من السخرية ، ولم يكن عملا مأمون العاقبة ، ولم يكن يسمح للمحامى أن يطلع على أوراق القضية الأصلية ، أو يتصل بالمتهم

---

(١) Dr. Lea : Ibid; V. III ; p. 22

على انفراد ، بل تقدم إليه خلاصة التحقيق مرفقة بقرار الإحالة وقرار الإتهام . وكان المحامى الذى يبدى فى تأدية مهمته غيرة خاصة ، يخاطر بأن يقع تحت سخط الديوان .

وبعد الرافعة واستجواب المتهم ، تحال القضية على الأحبار المقررين ليبدوا فيها رأيهم من جديد . وكانت هذه خطوة حاسمة فى الواقع ، لأنها تمهيد إلى الحكم النهائى . ويصدر الأحبار المقررون قرارهم ، وقلما كان يختلف عن القرار الأول . فإذا كان الحكم بالإدانة ، كان للمتهم فرصة الاستئناف أمام المجلس الأعلى (السوپريما) . بيد أنها كانت على الأغلب فرصة عقيمة ، إذ قلما كان المجلس الأعلى ينقض حكماً من الأحكام . وكان للمتهم أيضاً أن يلتمس العفو من الكرسى الرسولى . وكانت الخزانة البابوية تغنم من هذه الإلتماسات أموالا طائلة ، فكانت فرصة لا يستفيد منها سوى ذوى الغنى الطائل .

وقلما كان يصدر حكم البراءة أو « الإقالة » ، إذ أن أقل شك فى براءة المتهم براءة مطلقة ، كان يوجب اعتباره مذنباً من النوع الخفيف de Levi ، وعندئذ تصدر عليه عقوبات تتناسب مع ذنبه ، ويقضى عليه أن يتطهر من كل شبهة للكفر وفقاً لإجراءات معينة . وإذا قضى بالبراءة وهو ما يندر وقوعه ، أطلق سراح المتهم ، وأعطيت له شهادة بطهارته من الذنوب ، وهى كل ما يعوض به ، عما أصابه فى شخصه وفى شرفه وماله ، من ضروب الأذى والألم .

وأما إذا قضى بالإدانة ، فإن الحكم لا يبلغ إلى المتهم إلا عند التنفيذ ، وهو إجراء من أشنع الإجراءات الجنائية التى عرفت ، فيؤخذ المتهم من السجن دون أن يدرى مصيره الحقيقى ، ويجوز رسوم الإيمان « الأوتودافى » Auto-da-fé وهى الرسوم الدينية التى تسبق التنفيذ ، وخلاصتها أن يلبس الثوب المقدس ، ويوضع فى عنقه حبل وفى يده شمعة ، ويؤخذ إلى الكنيسة ليجوز رسوم التوبة ، ثم يؤخذ إلى ساحة التنفيذ ، وهنالك يتلى عليه الحكم لأول مرة . وقد يكون الحكم فى حالة التهم الخطيرة بالسجن المؤبد والمصادرة ، أو بالإعدام حرقاً فى حالة « الكفر الصريح » ، وقد يكون فى حالة الذنوب الخفيفة ، بالسجن لمدة محدودة أو بالغرامة ، وهو ما يسمى حكم « التوفيق » . وكانت أحكام الإعدام ، هى الغالبة فى عصور الديوان الأولى فى قضايا الكفر . وكان التنفيذ يقع فى ساحات المدن الكبيرة ، وفى احتفال رسمى يشهده الأحبار والكبراء بأثوابهم الرسمية ، وقد يشهده الملك . وكان يقع على الأغلب جملة ،

فينفذ حكم الحرق فى عدد من المحكوم عليهم ، قد يبلغ العشرات أحياناً ، وينتظم الضحايا فى موكب (الأوتودافى) Auuto-da-fé التى اشتهرت فى اسبانيا منذ القرن الخامس عشر ، والتى كانت بالرغم من مناظرها الرهيبة من الحفلات العامة ، التى تهرع لشهودها جموع الشعب . ومما يذكر فى ذلك ، أن فرناندو الكاثوليكى كان من عشاق هذه المواكب الرهيبة ، وكان يسره أن يشهد حفلات الإحراق ، وكان يمتدح الأحبار المحققين كلما نظمت حفلة منها[١] .

وكان قضاء محاكم التحقيق بطيئاً ، يبث اليأس فى النفوس ، وكان الأمر يترك لهوى القضاة فى تحديد مواعيد دعوة المتهم ، والسير بإجراءات الدعوى ، وكانت الإجراءات والمرافعات تستغرق وقتاً طويلا ، وقد تستغرق الأعوام أحياناً ، وقد يموت المتهم فى سجنه قبل أن يصدر الحكم فى قضيته .

وكان دستور ديوان التحقيق يجيز محاكمة الموتى والغائبين . وتصدر الأحكام فى حقهم وتوقع العقوبات عليهم كالأحياء ، فتصادر أموالهم وتعمل لهم تماثيل تنفذ فيها عقوبة الحرق ، أو تنبش قبورهم وتستخرج رفاتهم ، لتحرق فى موكب « الأوتودافى » .

وكذلك يتعدى أثر الأحكام الصادرة بالإدانة من المحكوم عليه إلى أسرته وولده ، فيقضى بحرمانهم من تولى الوظائف العامة ، وامتهان بعض المهن الخاصة ، وبذا يؤخذ الأبرياء بذنب المحكوم عليه[٢] .

— ٥ —

هذا استعراض موجز لإجراءات تلك المحاكم الكنسية الشهيرة ، التى سودت بقضائها المروع صحف التاريخ الإسبانى زهاء ثلاثة قرون .

وقد بث ديوان التحقيق منذ قيامه بقضائه وأساليبه ، حوله جواً من الرهبة والروع . ولما ذاع بطشه وعسفه ، عمد كثير من النصارى المحدثين من يهود ومسلمين إلى الفرار ، حتى اضطرت الحكومة إلى أن تصدر فى سنة ١٥٠٢ ، قراراً يحرم على ربان أية سفينة وأى تاجر ، أن ينقل معه نصرانياً محدثاً دون ترخيص خاص ، وقبض بهذه الصورة على كثيرين من النصارى المحدثين ، فى مختلف الثغور الإسبانية ، وأحيلوا إلى محاكم التحقيق .

---

(١) Dr. Lea : Ibid ; V.I.

(٢) رجعت فى معظم ما ورد عن دستور ديوان التحقيق وإجراءاته ، إلى كتابى « ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى » الفصل الأول ص ٢٤ — ٣٢ .

وكان أعضاء محاكم التحقيق يتمتعون بحصانة خارقة ، وسلطان مطلق تنحنى أمامه أية سلطة ، وتحمى أشخاصهم وتنفذ أوامرهم بكل وسيلة . وكان من جراء هذه السلطة المطلقة ، وهذا التحلل من كل مسئولية ، أن ذاع فى هذه المحاكم العسف وسوء استعمال السلطة ، والقبض على الأبرياء دون حرج ، بل كثيراً ما وجد بين المحققين رجال من طراز إجرامى ، لا يتورعون عن ارتكاب الغصب والرشوة وغيرها لملء جيوبهم ، وكانت أحكام الغرامة والمصادرة أخصب مورد ، لاختلاس المحققين والمأمورين وعمال الديوان وقضاته ، وكانت الخزينة الملكية ذاتها تغنم مئات الألوف من هذا المورد ، هذا بينما يموت أصحاب هذه الأموال الطائلة فى السجن جوعاً[١].

وكان يبلغ من عسف الديوان أحياناً أن يبسط حكم الإرهاب فى بعض المناطق ، وهذا ما حدث فى قرطبة على يد المحقق العام لوسيرو ، الذى يعتبر من أشد المحققين قسوة وإجراماً . ففى عهده ذاعت جرائم النهب واغتصاب البنات والزوجات ، وتعالت الصيحة بالشكوى من هذا العدوان الفظيع ، الذى يجرى باسم الديوان المقدس ، وفى ظله ، والذى يصم اسم الديوان والحكومة ، واستغاث كبراء قرطبة بالملك ، وجرت فى الموضوع تحقيقات طويلة انتهت بالقبض على المحقق العام وعزله[٢] .

وكان العرش يعلم بأمر هذه الآثام المثيرة ، التى تصم سمعة الديوان والمحققين ، ولا يستطيع دفعاً لها ، لما بلغه الديوان من السلطان الذى لا يناهضه سلطان آخر ، ولأن العرش كان يرى فيه فى الوقت نفسه ، أصلح أداة لتنفيذ سياسته فى إبادة الموريسكيين . وفى الوصية التى تركها فرناندو الكاثوليكى عند وفاته فى يناير سنة ١٥١٦ ، لحفيده شارل الخامس (كارلوس كنتو أوشرلكان) ، ما يلقى ضياء على هذه الحقائق ، ففيها يحث على حماية الكثلكة والكنيسة ، واختيار المحققين ذوى الضمائر الذين يخشون الله ، لكى يعملوا فى عدل وحزم ، لخدمة الله وتوطيد الدين الكاثوليكى ، كما يجب أن يضطرموا حماسة لسحق طائفة محمد[٣] .

ولما توفى فرناندو ، كان المحقق العام هو الكردينال خمنيس مطران طليطلة ، الذى أبدى من الحماسة فى مطاردة المسلمين وتنصيرهم ، ما سبقت الإشارة إليه ، وقد حاول خمنيس أن يطهر قضاء الديوان وسمعته ، فعزل كثيراً من المحققين الذين

---

(١) Dr. Lea : ibid ; V.I. p. 190-192

(٢) Dr. Lea : ibid ; V.I. p 210

(٣) Dr. Lea : ibid ; cit. Mariana; V.I. p. 215

لا يُرغب فيهم ، ولكنه لم يعش طويلا ليتم برنامجه فى الإصلاح ، فعادت المساوئ القديمة أشد ما كانت ، وسار الديوان فى قضائه المدمر وأساليبه المثيرة ، لا يلوى على شىء . ولما جلس شارل الخامس على العرش كتب إليه مجلس قشتالة يقول : إن سلام المملكة وتوطيد سلطانه ، يتوقفان على تأييده لديوان التحقيق . ولم ير شارل بعد فترة من التردد، إلا أن ينزل عند هذا النصح ، وأن يفسح الطريق لسلطان الديوان القاهر ، وذهبت كل الجهود للحد من عسف الديوان وعيثه سدى ، وتوطد سلطان الديوان بقشتالة مدى قرون ثلاثة ، كانت فى الواقع أخطر ما فى حياة الشعب الإسبانى(١)

— ٦ —

وقد رأينا كيف أنشئ ديوان التحقيق الإسبانى فى الأصل ، لمطاردة الكفر وحماية الكثلكة من شبه المروق والزيغ ، وكان إنشاؤه فى قشتالة قبيل انهيار مملكة غرناطة بقليل ، وكان اليهود الذين تمتعوا عصوراً بالحرية والأمن ، فى ظل الحكم الإسلامى ، أول ضحايا سياسية الإرهاق والمحو التى رسمتها اسبانيا الجديدة . ذلك أنه ماكادت تسقط غرناطة فى أيدى الملكين الكاثوليكيين وماكاد اليهود ينتقلون إلى الحكم الجديد ، حتى شهرت عليهم السياسة الإسبانية حربها الصليبية ، وأصدر الملكان قرارهما الشهير فى ٣٠ مارس سنة ١٤٩٢ ، وهو يقضى بأن يغادر سائر اليهود — الذين لم يتنصروا — من أى سن وظرف ، أراضى مملكة قشتالة فى ظرف أربعة أشهر من تاريخ القرار ، وألا يعودوا إليها قط ، ويعاقب المخالفون بالموت والمصادرة ، ويجب ألا يقوم أحد من سكان مملكة قشتالة على حماية أو إيواء أى يهودى أو يهودية سراً أو جهراً متى انتهى هذا الأجل، ولليهود أن يبيعوا أملاكهم خلال هذه المدة ، وأن يتصرفوا فيها وفق مشيئتهم(٢) . فأذعن كثير من اليهود للتنصير إشفاقاً على الوطن والمال ، وهلك كثير منهم فى سجون الديوان المقدس ومحارقه، أوشردوا فى مختلف الأقطار بعد التجريد والحرمان . بل لم ينج المتنصرون منهم ، من المطاردة والإرهاق لأقل الشبه حسبما قدمنا . ولقيت طوائف المدجنين من بقايا الأمة الأندلسية ، وهى التى بقيت فى بعض مدن قشتالة وأراجون فى ظل الحكم النصرانى ، نفس المصير المحزن . وبدأ ديوان التحقيق نشاطه فى قشتالة منذ

(١) D:. Lea : ibid; V. I. p. 250

(٢) Archivo general de Simancas : P. R. Legajo 28 ; Fol. 6

سنة ١٤٨٠ ، قبيل انهيار مملكة غرناطة بقليل ، وأقيمت محارقه الأولى فى إشبيلية عاصمة المملكة . فلما سقطت غرناطة ، وطويت بسقوطها صفحة الدولة الإسلامية فى الأندلس ، ووقع ملايين المسلمين فى قبضة اسبانيا النصرانية ، ولما أكره المسلمون على التنصير ، واستحالت بقايا الأمة الأندلسية إلى طوائف الموريسكيين ، ألفى ديوان التحقيق فى هذا المجتمع النصرانى المحدث أخصب ميدان لنشاطه ، وغدت محاكم التحقيق يد الكنيسة القوية فى تحقيق غايتها البعيدة . ذلك أن هذه المحاكم الشهيرة كانت تضطلع بمهمة مزدوجة دينية وسياسية معاً ، فكانت تعمل باسم الدين لتحقيق أغراض السياسة ، وكان للسياسة الإسبانية بعد ظفرها النهائى بإخضاع الأمة الأندلسية أمنية أخطر وأبعد مدى ، هى القضاء على بقايا هذه الأمة المسلمة ، ومحق دينها وكل خواصها الجنسية والاجتماعية ، وإدماجها فى المجتمع النصرانى . ولم تشأ السياسة الإسبانية ، أن تترك تحقيق هذه الغاية لفعل الزمن والتطور التاريخى ، بل رأت نزولا على وحى الكنيسة وتوجيهها المباشر ، أن تعجل بإجراءات التنصير والقمع ، وأن تذهب فى ذلك إلى حدود من الإسراف والغلو ، هى التى أسبغت على مأساة الموريسكيين أو العرب المتنصرين صبغتها المفجعة ، كما أسبغت على السياسة الإسبانية المعاصرة وصمة عار ، لم يمحها إلى اليوم كر الأجيال والعصور .

وقد اضطلع ديوان التحقيق الإسبانى بأعظم قسط من هذه الإجراءات الهمجية التى أريد بها تنفيذ حكم الإعدام فى أمة بأسرها ، وأخضعت غرناطة لقضاء ديوان التحقيق منذ سنة ١٤٩٩ ، أعنى منذ أكره المسلمون على التنصير ، ولكنها جُعلت من اختصاص محكمة التحقيق فى قرطبة ، وهكذا بدأ الديوان المقدس أعماله فى غرناطة ، بحماسة يذكيها احتشاد الضحايا من حوله . ولم تغفل الرواية الإسلامية أن تشير إلى محارق ديوان التحقيق ، أو إحراق المسلمين بتهمة المروق أو الزيغ ، ولم يجد المسلمون الذين آثروا البقاء فى الوطن القديم ، وأكرهوا على التنصير واعتناق الدين الجديد ، ملاذاً أو عاصما من الإضطهاد والمطاردة . ذلك أن الموريسكيين أو العرب المتنصرين لبثوا دائماً موضع البغض والريب ، وأبت اسبانيا النصرانية بعد أن أرغمتهم على اعتناق دينها ، أن تضمهم إلى حظيرتها ، وأبت الكنيسة الإسبانية أن تؤمن بإخلاصهم لدينهم الجديد ، ولبثت تتوجس من رجعتهم وحنانهم لدينهم القديم ، وترى فيهم دائماً منافقين مارقين . وهكذا كانت السياسة الإسبانية ، كما كانت الكنيسة الإسبانية ، أبعد من أن تقنع بتنصير المسلمين الظاهرى ، وإنما كانت

ترمى إلى إبادتهم ، ومحو آثارهم ودينهم وحضارتهم ، وكل ذكرياتهم .

والواقع أن الموريسكيين لبثوا بالرغم من تنصرهم ، نزولا على حكم القوة والإرهاب ، مخلصين فى سرائرهم لدينهم القديم ، ولم تستطع الكنيسة بالرغم من جهودها الفادحة أن تحملهم على الولاء لدين قاسوا فى سبيل اعتناقه ضروباً مروعة من الآلام النفسية والاضطهاد المضنى ، وإليك ما يقوله فى ذلك مؤرخ إسبانى كتب قريباً من ذلك العصر ، وأدرك الموريسكيين وعاش بينهم حيناً فى غرناطة :

« كانوا يشعرون دائماً بالحرج من الدين الجديد ، فإذا ذهبوا إلى القداس أيام الآحاد ، فذلك فقط من باب مراعاة العرف والنظام ، وهم لم يقولوا الحقائق قط خلال الاعتراف . وفى يوم الجمعة يحتجبون ويغتسلون ويقيمون الصلاة فى منازلهم المغلقة ، وفى أيام الآحاد يحتجبون ويعملون . وإذا عُمد أطفالهم ، عادوا فغسلوهم سراً بالماء الحار ، ويسمون أولادهم بأسماء عربية ، وفى حفلات الزواج متى عادت العروس من الكنيسة بعد تلقى البركة ، تنزع ثيابها النصرانية وترتدى الثياب العربية ، ويقيمون حفلاتهم وفقاً للتقاليد العربية »(١) .

وقد انتهت إلينا وثيقة عربية هامة تلقى ضوءاً كبيراً على أحوال الموريسكيين فى ظل التنصير ، وتعلقهم بدينهم القديم ، وكيف كانوا يتحيلون لمزاولة شعائرهم الإسلامية خفية ، ويلتمسون من جهة أخرى سائر الوسائل والأعذار الشرعية التى يمكن أن تبرر مسلكهم ، وتشفع لهم لدى ربهم ، مما يرغمون على اتباعه من الشعائر النصرانية .

وهذه الوثيقة هى عبارة عن رسالة وجهت من أحد فقهاء المغرب إلى جماعة العرب المتنصرين ممن يسميهم « الغرباء » يقدم إليهم بعض النصائح التى يعاون اتباعها على تنفيذ أحكام الإسلام خفية ، وبطريق التورية والتستر . وتاريخ هذه الرسالة هو غرة رجب سنة ٩١٠ هـ ، (٢٨ نوفمبر سنة ١٥٠٤) . وإليك نص هذه الوثيقة :

« الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما . إخواننا القابضين على دينهم ، كالقابض على الجمر ، من أجزل الله ثوابهم ، فيما لقوا فى ذاته ، وصبروا النفوس والأولاد فى مرضاته ، الغرباء القرباء إن شاء الله ، من مجاورة نبيه فى الفردوس الأعلى من جناته ، وارثو سبيل السلف الصالح ،

---

(١) Marmol: Ibid ; II. Cap. 1

فى تحمل المشاق ، وإن بلغت النفوس إلى التراق ، نسأل الله أن يلطف بنا ، وأن يعيننا وإياكم على مراعات حقه ، بحسن إيمان وصدق ، وأن يجعل لنا ولكم من الأمور فرجاً ، ومن كل ضيق مخرجاً . بعد السلام عليكم ، من كاتبه إليكم ، من عبيد الله أصغر عبيده ، وأحوجهم إلى عفوه ، ومزيده ، عبيد الله تعالى أحمد ابن بوجمعة المغراوى ثم الوهرانى ، كان الله للجميع بلطفه وستره ، سائلا من إخلاصكم وغربتكم حسن الدعاء ، بحسن الخاتمة والنجاة من أهوال هذه الدار ، والحشر مع الذين أنعم الله عليهم (F. 2) من الأبرار ، وموكداً عليكم فى ملازمة دين الإسلام آمرين به من بلغ من أولادكم . إن لم تخافوا دخول شر عليكم من إعلام عدوكم بطويتكم ، فطوبى للغرباء الذين يصلحون إذا فسد الناس ، وإن ذاكر الله بين الغافلين كالحى بين الموتى ؛ فاعلموا أن الأصنام خشب منجور ، وحجر جلمود لا يضر ولاينفع ، وأن المُلك ملك الله ما اتخذ الله من ولد ، وماكان معه من إله . فاعبدوه، واصطبروا لعبادته، فالصلاة ولو بالإيماء ، والزكاة ولوكأنها هدية لفقيركم أو رياء ؛ لأن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن إلى قلوبكم ، والغسل من الجنابة ولو عوماً فى البحور ، وإن منعتم فالصلاة قضاء بالليل لحق النهار ، وتسقط فى الحكم طهارة الماء ؛ وعليكم بالتيمم ولو مسحاً بالأيدى للحيطان ، فإن لم يمكن فالمشهور سقوط الصلاة وقضاؤها لعدم الماء (F. 3-1) والصعيد إلا أن يمكنكم الإشارة إليه بالأيدى والوجه إلى تراب طاهر أوحجر أو شجر مما يتيمم به ، فاقصدوا بالإيماء ، نقله ابن ناجى فى شرح الرسالة لقوله عليه السلام : فأتوا منه ما استطعتم . وإن أكرهوكم فى وقت صلاة إلى السجود للأصنام أوحضور صلاتهم فأحرموا بالنية ، وانووا صلاتكم المشروعة ، وأشيروا لما يشيرون إليه من صنم ، ومقصودكم الله ، وإن كان لغير القبلة تسقط فى حقكم كصلاة الخوف عند الالتحام ؛ وإن أجبروكم على شرب خمر ، فاشربوه لا بنية استعماله ، وإن كلفوا عليكم خنزيراً فكلوه ناكرين إياه بقلوبكم ، ومعتقدين تحريمه، وكذا إن أكرهوكم على محرم ، وإن زوجوكم بناتهمْ ، فجائز لكونهم أهل الكتاب ، وإن أكرهوكم (F. 3-2) على إنكاح بناتكم منهم ، فاعتقدوا تحريمه لولا الإكراه، وأنكم ناكرون لذلك بقلوبكم ، ولو وجدتم قوة لغيرتموه . وكذا إن أكرهوكم على رباً أوحرام فافعلوا منكرين بقلوبكم، ثم ليس عليكم إلا رءوس أموالكم، وتتصدقون بالباقى ، إن تبتم لله تعالى . وإن أكرهوكم على كلمة الكفر ، فإن أمكنكم التورية والإلغاز

فافعلوا ، وإلا فكونوا مطمئنى القلوب بالإيمان إن نطقتم بها ناكرين لذلك، وإن قالوا اشتموا محمداً فإنهم يقولون له مُمَد ، فاشتموا مُمَدّاً، ناوين أنه الشيطان أو ممد اليهود فكثير بهم اسمه . وإن قالوا عيسى ابن الله ، فقولوها إن أكرهوكم ، وانووا إسقاط مضاف أى عبد اللاه مريم معبود بحق. وإن قالوا قولوا المسيح ابن الله فقولوها إكراهاً، وانووا بالإضافة للملك كبيت الله لا يلزم أن يسكنه أو يحل به ؛ وإن قالوا قولوا مريم زوجة له فانووا بالضمير ابن عمها الذى تزوجها فى بنى إسرائيل ثم فارقها قبل البناء . قاله السهيلى فى تفسير المبهم من الرجال فى القرآن . أو زوجها الله منه بقضائه وقدره . وإن قالوا عيسى توفى بالصلب ، فانووا من التوفية والكمال والتشريف من هذه،وإماتته وصلبه وإنشاد ذكره، وإظهار الثناء عليه بين الناس،وأنه استوفاه الله برفعه إلى العلو ، ومايعسر عليكم فابعثوا (F. 4. I) فيه إلينا نرشدكم إن شاء الله على حسب ماتكتبون به، وأنا أسأل الله أن يديل الكره للإسلام حتى تعبدوا الله ظاهراً بحول الله من غير محنة ولا وجلة ، بل بصدمة الترك الكرام . ونحن نشهد لكم بين يدى الله أنكم صدقتم الله ورضيتم به . ولابد من جوابكم . والسلام عليكم جميعاً . بتاريخ غرة رجب عام عشرة وتسع مائة ، عرف الله خيره » .

« يصل إلى الغرباء إن شاء الله تعالى »[1] .

ومن ثم فقد لبث الموريكسيون ، شغلا شاغلا للكنيسة وللسياسة الإسبانية ، فهم عنصر بغيض فى المجتمع الإسبانى ، وهم خطر على الدولة وعلى الوطن ، وهم بالرغم من ردتهم مازالوا خونة مارقين ، وما زالوا أعداء للدين فى سريرتهم. وكان يذكى هذا البغض والتحامل ضد الموريسكيين كل تذمر من جانبهم . فلما دفعهم اليأس إلى الثورة فى مفاوز البشرّات ، ولما آنست السياسة الإسبانية أن هذه البقية الممزقة من الأمة الأندلسية القديمة ، ما زالت تجيش برمق من الحياة والكرامة ،

---

(١) عثرت على هذه الوثيقة خلال بحوثى فى مكتبة الفاتيكان الرسولية بروما . وهى تقع ضمن مجموعة خطية من المخطوطات البورجوانية (Borgiani) . وقد وصف هذا المخطوط فى فهرس مكتبة الفاتيكان (فهرس دللاڤيدا) بأنه « المقدمة القرطبية » . وفى صفحة عنوانه بأنه « كتاب نزهة المستمعين». وتشغل هذه الوثيقة فى المخطوط المشار إليه أربع صفحات (١٣٦ — ١٣٩) ومن جهة أخرى فقد عثرت بنص هذه الوثيقة مثبتا فى إحدى مخطوطات الألخميادو المحفوظة بمكتبة أكاديمية التاريخ بمدريد (مجموعة ساقدرا) . وتوجد ترجمتها القشتالية فى كتاب :

P. Longas : La Vida Religiosa de los Moriscos (P. 305-307)

رأت أن تضاعف إجراءات القمع والمطاردة، ضد هذا الشعب المهيض الأعزل ، حتى لا ينبض بالحياة مرة أخرى .

وكانت ثورة البشرات نذير فورة جديدة، من هجرة الموريسكيين إلى ماوراء البحر ، فجازت منهم إلى إفريقية جموع عظيمة كما قدمنا ، ولكن الكثرة الغالبة منهم بقيت فى الوطن القديم، هدفاً للاضطهاد المنظم، والقمع الذريع المدنى والدينى ، فإلى جانب الأوامر الملكية بمنع الهجرة ، وحظر التصرف فى الأملاك أوحمل السلاح وغيرها من القوانين المقيدة للحقوق والحريات ، كان ديوان التحقيق من جانبه ، يشدد الوطأة على الموريسكيين ، ويرقب كل حركاتهم وسكناتهم ، ويغمرهم بشكوكه وريبه ، ويتخذ من أقل الأمور والمصادفات ذرائع لاتهامهم بالكفر والزيغ ، ومعاقبتهم بأشد العقوبات وأبلغها . وقد نقل إلينا اللدون لورنتى مؤرخ ديوان التحقيق الإسبانى ، وثيقة من أغرب الوثائق القضائية، تضمنت طائفة من القواعد والأصول التى رأى الديوان المقدس أن يأخذ بها العرب المتنصرين ، فى تهمة الكفر والمروق ، وإليك ما ورد فى تلك الوثيقة الغريبة :

« يعتبر الموريسكى أو العربى المتنصر قد عاد إلى الإسلام ، إذا امتدح دين محمد ، أوقال إن يسوع المسيح ليس إلهاً ، وليس إلا رسولا ، أو أن صفات العذراء أو اسمها لا تناسب أمه ، ويجب على كل نصرانى أن يبلغ عن ذلك ، ويجب عليه أيضاً أن يبلغ عما إذا كان قد رأى أوسمع ، بأن أحداً من الموريسكيين يباشر بعض العادات الإسلامية ، ومنها أن يأكل اللحم فى يوم الجمعة ، وهو يعتقد أن ذلك مباح ، وأن يحتفل يوم الجمعة بأن يرتدى ثياباً أنظف من ثيابه العادية ، أو يستقبل المشرق قائلا بسم الله ، أو يوثق أرجل الماشية قبل ذبحها، أويرفض أكل تلك التى لم تذبح ، أو ذبحتها امرأة ، أو يختن أولاده أو يسميهم بأسماء عربية ، أو يعرب عن رغبته فى اتباع هذه العادة ، أويقول إنه يجب ألا يعتقد إلا فى الله وفى رسوله محمد ، أو يقسم بأيمان القرآن،أو يصوم رمضان ويتصدق خلاله ، ولايأكل ولا يشرب إلا عند الغروب ، أو يتناول الطعام قبل الفجر (السحور) ، أويمتنع عن أكل لحم الخنزير وشرب الخمر ، أو يقوم بالوضوء والصلاة ، بأن يوجه وجهه نحو الشرق ويركع ويسجد ويتلو سوراً من القرآن، أو أن يتزوج طبقاً لرسوم الشريعة الإسلامية ، أوينشد الأغانى العربية ، أو يقيم حفلات الرقص والموسيقى العربية ، أو أن يستعمل النساء الخضاب فى أيديهن أوشعورهن ، أويتبع

قواعد محمد الخمس ، أويلمس بيديه على رؤوس أولاده أو غيرهم تنفيذاً لهذه القواعد ، أويغسل الموتى ويكفنهم فى أثواب جديدة ، أو يدفنهم فى أرض بكر ، أو يغطى قبورهم بالأغصان الخضراء ، أو أن يستغيث بمحمد وقت الحاجة منعتاً إياه بالنبي ورسول الله ، أويقول إن الكعبة أول معابد الله ، أويقول إنه لم ينصر إيماناً بالدين المقدس ، أو إن آباءه وأجداده قد غنموا رحمة الله لأنهم ماتوا مسلمين ... الخ »[1] .

كانت هذه الشبه وأمثالها ، تتخذ ذريعة للتنكيل بالموريسكيين ، بالرغم من تنصرهم وانتمائهم إلى دين سادتهم الجدد . ومن الطبيعى أن يكون موقف المسلمين الذين آثروا الاحتفاظ بدينهم أدق وأخطر ، وكانت قد بقيت منهم جماعات كبيرة فى غرناطة وبلنسية وغيرها ، يعيشون فى غمرة من الجزع الدائم ، وكانت محارق ديوان التحقيق تلتهم الكثير من هؤلاء وهؤلاء ، لأقل الشبه والوشايات . ولقد كان الإسراف فى مطاردة المسلمين والموريسكيين ، نذير السخط فالثورة ، ولكن الثورة أخمدت ، ولم تعدل السياسة الإسبانية عن مسلكها ، وضاعفت محاكم التحقيق إجراءات القمع والتنكيل . وقد انتهت إلينا عن تلك الفترة الدقيقة من تاريخ الموريسكيين وثيقة عربية ذات أهمية خاصة ، كتبها فيما يظهر أندلسى متنصر (موريسكى) إلى بايزيد الثانى سلطان الترك العثمانيين ، يستغيث به ويستصرخه ، لنصرة إخوانه العرب المتنصرين ، ويصف له فى شعر ركيك ولكن قوى التعبير ، ما تنزل له اسبانيا النصرانية برعاياها الجدد ، وما يصيب المتنصرين من عسف ديوان التحقيق ، وروائع مطاردته وعقوباته . وإليك بعض ما ورد فى تلك القصيدة المؤثرة ، فى وصف أنواع الاضطهاد والعسف ، التى نزلت بالعرب المتنصرين ، وذلك بعد ديباجة نثرية قصيرة ، وديباجة شعرية طويلة فى تحية السلطان بايزيد :

فلما دخلنا تحت عقد ذمامهم ... بدا غدرهم فينا بنقض العزيمة
وخان عهوداً كان قد غرّنا بها ... ونصرنا كرهاً بعنف وسطوة
وكل كتاب كان فى أمر ديننا ... ففى النار ألقوه بهزء وحقرة
ولم يتركوا فيها كتاباً لمسلم ... ولا مصحفاً يخلى به للقراءة
ومن صام أو صلى ويعلم حاله ... ففى النار يلقوه على كل حالة

(1) Don Antonio Llorente : Historia Critica de la Iquisición de Espana
وأيضاً Dr. Lea : The Moriscos ; p. 130-131

ومن لم يجئ منا لموضع كفرهم | يعاقبه اللباط شر العقوبة
ويلطم خديه ويأخذ ماله | ويجعله فى السجن فى سوء حالة
وفى رمضان يفسدون صيامنا | بأكل وشرب مرة بعد مرة
وقد أمرونا أن نسب نبينا | ولا نذكرنه فى رخاء وشدة
وقد سمعوا قوماً يغنون باسمه | فأدركهم منهم أليم المضرة
وعاقبهم حكامهم وولاتهم | بضرب وتغريم وسجن وذلة
وقد بدلت أسماؤنا وتحولت | بغير رضا منا وغير إرادة
فآها على تبديل دين محمد | بدين كلاب الروم شر البرية
وآهاً على تلك الصوامع علقت | نواقيسهم بها نظير الشهادة
وآها على تلك البلاد وحسنها | لقد أظلمت بالكفر أعظم ظلمة
وصارت لعبادة الصليب معاقلا | وقد أمنوا فيها وقوع الإغارة
وصرنا عبيداً لا أسارى نفتدى | ولا مسلمين نُطقهم بالشهادة
فلو أبصرت عيناك ما صار حالنا | إليه لجادت بالدموع الغزيرة
فياولنا يا بؤس ما قد أصابنا | من الضر والبلوى وثوب المذلة(١)

وهذه الأبيات تنم بالرغم من ركاكتها عن دقة مدهشة، فى تتبع أعمال السياسة الإسبانية، لمطاردة العرب المتنصرين، وفى وصف إجراءات محاكم التحقيق وعقوباتها. والظاهر أن صاحبها كان من الكبراء المتصلين بالشئون العامة. والمرجح أن هذه الرسالة وجهت إلى السلطان بايزيد الثانى، عقب ثورة البشرات وما تلاها من إجراءات القمع المشددة ضد العرب المتنصرين، وذلك حوالى سنة ١٥٠٥، وقد توفى السلطان بايزيد الثانى سنة ١٥١٢، فلابد أن تكون الرسالة قد وجهت إليه قبل ذلك. ونحن نعرف أنها لم تكن أول رسالة من نوعها، وجهها مسلمو الأندلس والعرب المتنصرون إلى قصور قسطنطينية ومصر والمغرب، فقد أشرنا فيما تقدم إلى سفارة السلطان أبى عبد الله الأيسر إلى سلطان مصر الملك الظاهر جقمق يستمد عونه، ثم إلى سفارة مولاى الزغل سلطان غرناطة إلى بلاط مصر وبلاط قسطنطينية، يستغيث بهما ويستصرخهما لإنجاده، وإلى ما قام به بلاط مصر من توجيه سفارته إلى فرناندو الخامس، يحذره من المضى فى إرهاق المسلمين، وينذره باضطهاد النصارى الذين

(١) أورد لنا المقرى فى أزهار الرياض تلك القصيدة بأكلها، وهى طويلة فى نحو مائة بيت (ج ١ ص ١٠٩ – ١١٥).

يعيشون فى المملكة المصرية ، وما كان من تكرار نذيره إلى ملك اسبانيا ، حينما اشتدت وطأة التنصير على مسلمى الأندلس ؛ ولكن تدخل مصر وقسطنطينية على هذا النحو لم يغن شيئا ، وهذا ما يشير إليه صاحب القصيدة المذكورة فى قوله مخاطباً السلطان بايزيد :

وقد بلغ المكتوب منكم إليهم ... فلم يعملوا منه جميعاً بكلمة
وما زادهم إلا اعتداء وجرأة ... علينا وإقداماً بكل مساءة
وقد بلغت إرسال مصر إليهم ... وما نالهم غدر وهتك حرمة
وقالوا لتلك الرسل عنا بأننا ... رضينا بدين الكفر من غير قهرة
لقد كذبوا فى قولهم وكلامهم ... علينا بهذا القول أكبر فرية
ولكن خوف القتل والحرق ردنا ... نقول كما قالوه من غير نية

وقد كانت السياسة الإسبانية تتخذ من هذه الرسائل ، التى يوجهها العرب المتنصرون إلى إخوانهم المسلمين فيما وراء البحر ، كلما تفاقمت آلامهم ومحنتهم ، ذريعة للاشتداد فى مطاردتهم ، واعتبارهم خطراً على سلامة الدولة ، لأنهم يأتمرون بها مع ملوك الدول الإسلامية أعداء اسبانيا النصرانية .

الفصل الثالث

ذروة الاضطهاد وثورة الموريسكيين

نظرة اسبانيا إلى الموريسكيين . وفاة فرناندو الكاثوليكى وخلاله . سياسة الرفق فى عهد شارل الخامس . عود الاضطهاد . قرار المحكمة الملكية فى ظلامة المسلمين . تعليق المؤرخ كوندى. ثورة المسلمين فى سرقسطة و بلنسية . تنصير المسلمين فى أراجون . القوانين و القرارات المرهقة . مساعى الموريسكيين فى بلنسية وغرناطة . مراسم جديدة ضد الموريسكيين . تحريم الهجرة إلى الثغور. قرار بالعفو عن الموريسكيين فى مدينة دلكامبو. التردد بين الشدة و الرفق فى عهد شارل الخامس . ولده فيليب الثانى . التنصر يعم الموريسكيين . تحريض الكنيسة لفيليب الثانى . تحريم السلاح على الموريسكيين . تحريم استعمال اللغة العربية والثياب والتقاليد العربية . إعلان القانون فى غرناطة . سخط الموريسكيين . فشل السعى إلى التخفيف . اضطراب الخواطر فى غرناطة . العزم على الثورة . خطة ابن فرج لإضرامها. قصيدة عربية فى وصف آلام الموريسكيين . استغاثتهم بأمراء المغرب . نذير الانفجار. محاولة ابن فرج لإثارة غرناطة . ارتداده إلى الهضاب الجنوبية . انتشار الثورة . فتك الموريسكيين بالنصارى . فرناندو دى ڤالور أو محمد بن أمية سلطان الموريسكيين . الفتك بالنصارى فى منطقة البشرات . أهبة الإسبان لقمع الثورة . مسير المركيز مندبخار لمقاتلة الموريسكيين . اتساع نطاق الثورة . هزيمة الموريسكيين وفرار محمد بن أمية . معركة دامية أخرى. الفتك بالموريسكيين فى غرناطة . عود محمد بن أمية. استغاثته بأمراء المغرب وسلطان الترك . تشريد الموريسكيين فى البيازين . مصرع محمد بن أمية . ابن عبو أو مولاى عبدالله يخلفه فى الرياسة . غارات الموريسكيين على أحواز غرناطة . تعيين دون خوان قائداً عاماً لغرناطة . مسيره إلى مقاتلة الثوار. المعارك الطاحنة بين الفريقين . الحكومة الإسبانية تجنح إلى اللين . محاولات الإسبان لعقد الصلح . المفاوضات بين الفريقين . خطاب لابن عبو . تصميم مولاى عبد الله على القتال. اجتياح الإسبان للمناطق الثائرة . مرسوم بنفى الموريسكيين إلى الداخل. الحوادث الدموية . قوانين جديدة مرهقة . مصرع مولاى عبد الله . انهيار الثورة الموريسكية .

لبث الموريسكيون فى عهد فرناندو الخامس (الكاثوليكى) زهاء عشرين عاماً ، يتراوحون بين الرجاء واليأس ، ويرزحون تحت غمر المطاردة المنظمة . وكان هذا الشعب المهيض الذى أدخل قسراً فى حظيرة النصرانية، والذى أنكرته مع ذلك اسبانيا سيدته الجديدة، وأنكرته الكنيسة التى عملت على تنصيره، يحاول أن يروض نفسه على حياته الجديدة ، وأن يتقبل مصيره المنكود بإباء وجلد . ولكن اسبانيا النصرانية ، لبثت ترى فى هذه البقية الباقية من الأمة الأندلسية ، عدوها القديم الخالد ، وتتصور أن هذا المجتمع المهيض الأعزل، الذى أحكمت أغلالها فى عنقه ،

ما يزال مصدر خطر دائم على سلامتها وطمأنينتها ، ومن ثم كان هذا الإمعان فى مطاردته وإرهاقه ، بمختلف الفروض والقيود والمغارم ، وفى انتهاك عواطفه وحرماته ، وفى تعذيبه وتشريده ، وكان يلوح أن ليس لهذا الإستشهاد الطويل المؤثر من آخر سوى الفناء ذاته .

توفى فرناندو الكاثوليكى فى ٢٣ يناير سنة ١٥١٦ ، بعد أن عانت بقية الأمة الأندلسية من غدره وعسفه ما عانت ؛ وكانت زوجه الملكة إسابيلا قد سبقته إلى القبر ، قبل ذلك بأحد عشر عاماً ، فى ٢٦ نوفمبر سنة ١٥٠٤ ، ودفنت تحقيقاً لرغبتها فى غرناطة ، فى دير سان فرنسيسكو القائم فوق هضبة الحمراء ، ودفن فرناندو إلى جانب زوجه بالحمراء ، تحقيقاً لوصيته ، ثم نقل رفاتهما فيما بعد إلى كنيسة غرناطة العظمى ، التى أقيمت فوق موقع مسجد غرناطة الجامع ، فى عهد حفيدهما الإمبراطور شارلكان ، وأقيم لهما فيها ضريح رخامى فخم ، ما يزال حتى اليوم فى مقدمة مزارات غرناطة النصرانية . وفى دفن فاتحى غرناطة الإسلامية فى حرم جامع غرناطة القديم ، مغزى خاص ينطوى على تنويه ظاهر بظفر اسبانيا ، وظفر النصرانية على الإسلام .

وقد كان الغدر والرياء ، أبرز صفات هذا الملك العظيم المظفر ، الذى أتيح له القضاء على دولة الإسلام بالأندلس . وقد نوه بهذه الصفة الذميمة أكابر المؤرخين المعاصرين واللاحقين ، ومنهم المؤرخون القشتاليون أنفسهم[1]. ويقول معاصره الفيلسوف السياسى مكيافيللى فى حقه : « إن فرناندو الأرجونى غزا غرناطة فى بداية حكمه ، وكان هذا المشروع دعامة سلطانه . وقد استطاع بمال الكنيسة والشعب أن يمد جيوشه ، وأن يضع بهذه الحرب أسس البراعة العسكرية التى امتاز بها بعد ذلك ، وقد كان دائماً يستعمل الدين ذريعة ليقوم بمشاريع أعظم ، وقد كرس نفسه بقسوة تسترها التقوى لإخراج المسلمين من مملكته وتطهيرها منهم ، وبمثل هذه الذريعة غزا إفريقية ، ثم هبط إلى إيطاليا ، ثم هاجم فرنسا ... »[2] .

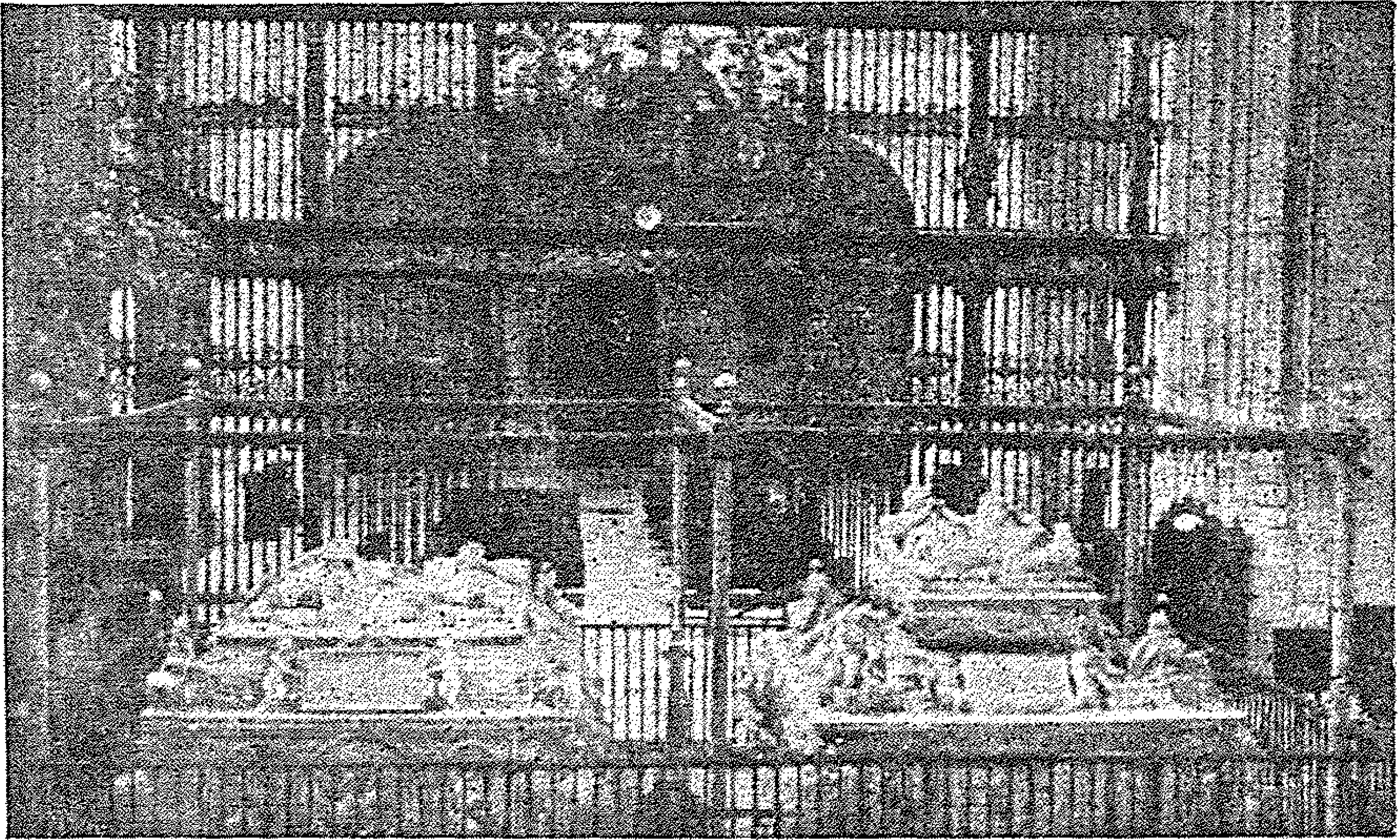
---

(١) فمثلا يقول المؤرخ ثوريتا Zurita ، وهو من أكابر المؤرخين الإسبان فى القرن السادس عشر فى وصفه : « وكان مشهوراً لا بين الأجانب فقط ، ولكن بين مواطنيه أيضاً ، بأنه لا يحافظ على الصدق ، ولا يرعى عهداً قطعه ، وأنه كان يفضل دائماً تحقيق صالحه الخاص ، على كل ما هو عدل وحق » . راجع : Prescott, cit. Zurita (Anales) ; ibid ; p. 697 (note)

(٢) Machiavelli : The Prince (Everyman), p. 177 & 178.

وكانت سياسة فرناناندو الكاثوليكى مثال الغدر المثير فى جميع ما اتخذه نحو معاملة المسلمين عقب تسليم غرناطة ، وما تلاه من حوادث تنصيرهم قسراً ، ثم اضطهادهم ، ومطاردتهم بأقسى الوسائل ، وأشدها إيلاماً لمشاعرهم وأرواحهم .

فلما توفى فرناندو ، وخلفه حفيده شارل أوكارلوس الخامس (الإمبراطور شارلكان) بعد فترة قصيرة من وصاية الكردينال خمنيس على العرش ، تنفس الموريسكيون الصعداء ، وهبت عليهم ريح جديدة من الأمل ، ورجوا أن يكون العهد الجديد خيراً من سابقه . وأبدى الملك الجديد فى الواقع شيئاً من اللين والتسامح ،



ضريح فرناندو وإيسابيلا بكنيسة غرناطة العظمى

نحو المسلمين والموريسكيين ، وجنحت محاكم التحقيق إلى نوع من الاعتدال فى مطاردتهم ، وكفت عن التعرض لهم فى أراجون بسعى النبلاء والسادة ، الذين يعمل المسلمون فى ضياعهم . ولكن هذه السياسة المعتدلة لم تدم سوى بضعة أعوام ، وعادت العناصر الرجعية فى البلاط وفى الكنيسة ، فغلبت كلمتها ، وصدر مرسوم جديد فى ١٢ مارس سنة ١٥٢٤ يحتم تنصير كل مسلم بقى على دينه ، وإخراج كل من أبى النصرانية من اسبانيا ، وأن يعاقب كل مسلم أبى التنصير أو الخروج فى المهلة الممنوحة بالرق مدى الحياة ، وأن تحول جميع المساجد الباقية إلى كنائس .

عندئذ استغاث المسلمون بالإمبراطور ، والتمسوا عدله وحمايته ، على يد وفد

منهم يعثوه إلى مدريد ، ليشرح للمليك ظلاماتهم وآلامهم (سنة ١٥٢٦) . فندب الإمبراطور محكمة كبرى من النواب والأحبار والقادة وقضاة التحقيق ، برياسة المحقق العام لتنظر فى ظلامة المسلمين ، ولتقرر بالأخص ما إذا كان التنصير الذى وقع على المسلمين بالإكراه ، يعتبر صحيحاً ملزماً ، بمعنى أنه يحتم عقاب المخالف بالموت ، أم يطبق القرار الجديد عليهم كمسلمين. وقد أصدرت المحكمة قرارها بعد مناقشات طويلة ، بأن التنصير الذى وقع على المسلمين صحيح لا تشوبه شائبة ، لأنهم سارعوا بقبوله اتقاء لما هو شرمنه ، فكانوا بذلك أحراراً فى قبوله . ويعلق المؤرخ الغربى النصرانى على ذلك القرار بقوله : « وهكذا اعتبر التنصير الذى فرضه القوى على الضعيف ، والظافر على المغلوب ، والسيد على العبد ، منشئاً لصفة لا يمكن لإرادة معارضة أن تزيلها »[١] . وعلى أثر ذلك صدر أمر ملكى بأن يرغم سائر المسلمين الذين نصروا كرهاً ، على البقاء فى اسبانيا ، باعتبارهم نصارى ، وأن ينصر كل أولادهم ، فإذا ارتدوا عن النصرانية ، قضى عليهم بالموت والمصادرة ، وقضى الأمر فى الوقت نفسه ، بأن تحول جميع المساجد الباقية فى الحال إلى كنائس .

فكان لهذه القرارات لدى المسلمين أسوأ وقع ، وما لبثت الثورة أن نشبت فى معظم الأنحاء التى يقطنها المسلمون ، فى أحواز سرقسطة وفى منطقة بلنسية وغيرها ، وأخمدت هذه الثورات المحلية الضئيلة تباعاً . ولكن بلنسية كان لها شأن آخر . ذلك أنها كانت تضم حشداً كبيراً من المسلمين ، يبلغ زهاء سبعة وعشرين ألف أسرة[٢] ، وكان وقوعها على البحر يمهد للمسلمين سبل الإتصال بإخوانهم فى المغرب ، ومن ثم فقد كانت دائماً فى طليعة المناطق الثائرة ، وكانت الحكومة الإسبانية تنظر إليها باهتمام خاص ؛ فلما فرض التنصير العام أبدى المسلمون فى بلنسية مقاومة عنيفة ، ولجأت جموع كبيرة منهم إلى ضاحية (بنى وزير) **Benaguacil** ، واضطرت الحكومة أن تجرد عليهم قوة كبيرة مزودة بالمدافع ، وأرغم المسلمون فى النهاية على التسليم والخضوع ، وأرسل إليهم الإمبراطور إعلان الأمان على أن ينصروا ، وعدلت عقوبة الرق إلى الغرامة[٣] .

---

(١) راجع تاريخ **De Mariés** الذى وضعه بالاقتباس من تاريخ كوندى : **Hist. de la Domination des Arabes en Espagne ; V. III. p. 389**

(٢) **Llorente ; ibid.**

(٣) **Dr. Lea : The Moriscos ; p. 91 & 92**

وفى باقى ولايات أراجون ، أشفق السادة والنبلاء على مصالحهم وضياعهم من الخراب ، إذا اضطهد المسلمون ومزقوا كما حدث فى بلنسية ، فأوضحوا للإمبراطور خطأ هذه السياسة ، وأكدوا له أن المسلمين فى أراجون جماعة هادئة عاملة ذلولة ، لم ترتكب جرماً قط ، ولم تبدر منهم خطيئة دينية أو سياسية ، ومعظمهم زراع فى أراضى الملك والسادة ، ومنهم صناع مهرة ، فإخراجهم من أراجون خسارة



شارل الخامس (الإمبراطور شارلكان)

فادحة ، ولا داعى لإرغامهم على التنصير ، لأن ذلك لا يعنى إخلاصهم للدين الجديد ، ومن الخير أن يتركوا فى سلام ؛ ولكن مساعى السادة فى هذا السبيل ذهبت عبثاً ، وأصر الإمبراطور على أن يطبق التشريع الجديد على جميع مسلمى أراجون ، وأصدر أوامره إلى ديوان التحقيق أن يقوم بتلك المهمة ، فأذعن المسلمون إلى التنصير راغمين ، وتم بذلك تنصيرهم جميعاً (سنة ١٥٢٦) .

وتوالت الأوامر والقوانين المرهقة ، فصدر قانون يحظر على الموريسكيين بيع الحرير والذهب والفضة والحلى والأحجار الكريمة ، وحتم على كل مسلم بقى على

دينه أن يحمل شارة زرقاء فى قبعته، وحظر عليهم حمل السلاح إطلاقاً، وإلا عوقب المخالفون بالجلد، وأمروا بأن يسجدوا فى الشوارع متى مر كبير الأحبار. وفى بلنسية صدر قرار بأن يغادر المسلمون الأراضى الإسبانية من طريق الشمال ، وحظر على السادة أن يقوهم فى ضياعهم ، وإلا عوقبوا بالغرامة الفادحة . فعاد المسلمون فى بلنسية إلى الثورة، وقاوموا جند الحكومة حيناً ، ولكن الثورة ما لبثت أن أخمدت، وتقدم المسلمون خاضعين على يد وفد منهم مثل فى البلاط ، يعرضون الدخول فى النصرانية ، على أن تحقق لهم بعض المطالب والظروف المخففة ، فلا تمتد إليهم قضاء ديوان التحقيق مدى أربعين عاماً، لا فى أنفسهم ولا فى أموالهم، وأن يحتفظوا خلال هذه المدة بلغتهم وملابسهم القومية ، وبعض حقوقهم فى الزواج والميراث طبقاً لتقاليدهم ، وأن ينفق على من كان منهم من الفقهاء من دخل الأراضى التى وقفها المسلمون لأغراض البر ، ويرصد الباقى لإنشاء الكنائس الجديدة، وأن يسمح لهم بحمل السلاح وتخفيض الضرائب[1] . ولكن مجلس الدولة رأى أن يطبق عليهم سائر الأوامر ، التى طبقت على الموريسكيين فى غرناطة وغيرها ، وأن يسمح لهم بالاحتفاظ بلغتهم وأزيائهم مدى عشرة أعوام فقط ، وأن يمنحوا بعض الإمتيازات فيما يتعلق بالزواج ودفع الضرائب . وكانت هذه المنح أفضل ما يمكن نيله فى هذه الظروف ، فأقبل المسلمون فى منطقة بلنسية على التنصير أفواجاً ، عدا أقلية صغيرة آثرت المضى فى المقاومة ، ومزقتها جند الإمبراطور بعد قليل ، وألفت محاكم التحقيق غير بعيد ، فى مجتمع الموريسكيين فى بلنسية ، ميداناً خصباً لنشاطها .

وحذا الموريسكيون فى غرناطة حذو إخوانهم فى بلنسية ، فسعوا لدى البلاط فى تخفيف الأوامر والقوانين المرهقة التى فرضت عليهم ، وانتهزوا فرصة زيارة الإمبراطور لغرناطة (سنة ١٥٢٦) فقدموا إليه على يد ثلاثة من أكابرهم ، هم الدون فرناندو بنجاس والدون ميشيل داراجون وديجو لويز بنشارا ، وهم من سلالة أمراء غرناطة الذين نصروا منذ الفتح ، مذكرة يشرحون فيها ظلاماتهم ، وما يعانونه من آلام المطاردة والإرهاق المستمر ، ولاسيما من أعمال القسس والقضاء الدينى ؛ فندب الإمبراطور لجنة محلية للتحقيق فى أمر الموريسكيين فى سائر أنحاء غرناطة ، ثم عرضت نتائج بحثها على مجلس دينى قرر ما يأتى : أن يترك الموريسكيون استعمال لغتهم العربية وثيابهم القومية، وأن يتركوا استعمال الحمامات ،

---

(١) P. Longás : Vida Religiosa de los Moriscos, p. XLII

وأن تفتح أبواب منازلهم أيام الحفلات وأيام الجمع والسبت ، وألا يقيموا رسوم المسلمين أيام الحفلات ، وألا يتسموا بأسماء عربية . ولكن تنفيذ هذه القرارات أرجئ بأمر الإمبراطور ؛ ثم أعيد إصدارها ، ثم أرجئ تنفيذها مرة أخرى.

وصدرت عدة أوامر ملكية بالعفو عن الموريسكيين فيما تقدم من الذنوب ، فإذا عادوا طبقت عليهم أشد القوانين والفروض ، فأذعن الموريسكيون لكل ما فرض عليهم ، ولكنهم افتدوا من الإمبراطور بمبلغ طائل من المال، حق ارتداء ملابسهم القومية ، وحق الإعفاء من المطاردة إذا اتهموا بالردة[1] .

وكان الإمبراطور شارلكان حينما أصدر قراره بتنصير المسلمين ، قد وعد بتحقيق المساواة بينهم وبين النصارى فى الحقوق والواجبات ، ولكن هذه المساواة لم تحقق قط ، وشعر العرب المتنصرون منذ الساعة الأولى، أنهم مازالوا موضع الريب والإضطهاد ، وفرضت عليهم فروض وضرائب كثيرة لا تخضع لها النصارى ، وكانت وطأة الحياة تثقل عليهم شيئاً فشيئاً، وتترى ضدهم السعايات والإتهامات ، وقد غدوا فى الواقع أشبه بالرقيق منهم بالرعايا الأحرار. ولما شعرت السلطات بميل الموريسكيين إلى الهجرة ، وفشت فيهم هذه الرغبة ، صدر قرار فى سنة ١٥٤١ ، يحرم عليهم تغيير مساكنهم ، كما حرم عليهم النزوح إلى بلنسية ، التى كانت دائماً طريقهم المفضل إلى ركوب البحر ، ثم صدر قرار بتحريم الهجرة من أى الثغور إلا بترخيص ملكى نظير رسم فادح . وكانت السياسة الإسبانية تخشى دائماً اتصال الموريسكيين بمسلمى المغرب ، وكان ديوان التحقيق يسهر على حركة الهجرة ويعمل على قمعها بمنتهى الشدة، ومع ذلك فقد كانت الأنباء تأتى من سفراء اسبانيا فى البندقية وغيرها من الثغور الإيطالية ، بأن كثيراً من الموريسكيين الفارين ، يمرون بها فى طريقهم إلى إفريقية والشرق الإسلامى[2] .

وخلال هذا الاضطهاد الغامر ، كانت السياسة الإسبانية فى بعض الأحيان ، تجنح إلى شيء من الرفق، فنرى الإمبراطور فى سنة ١٥٤٣ يبلغ « المحققين العامين» بأنه تحقيقاً لرغبة مطران طليطلة والمحقق العام ، قد أصدر أمره بالعفو عن المسلمين المتنصرين من أهل « مدينة دلكامبو » و « أريفالو » فيما ارتكبوه من ذنوب الكفر والمروق ، وأنه يكتفى بأن يطلب إليهم الإعتراف بذنوبهم أمام الديوان

---

(١) Dr. Lea : The Moriscos; p. 214 & 215 ; P. Longas: Ibid; p. XLIII

(٢) Dr. Lea: ibid ; p. 187 & 189

(ديوان التحقيق) ، ثم ترد إليهم أملاكهم الثابتة والمنقولة التى أخذت منهم إلى الأحياء منهم ، ويسمح لهم بتزويج أبنائهم وبناتهم من النصارى الخلص ، ولا تصادر المهور التى دفعوها للخزينة بسبب الذنوب التى ارتكبوها ، بل تبقى هذه المهور للأولاد الذين يولدون من هذا الزواج ، وأن يتمتع بهذا الإمتياز النصرانيات الخلص اللاتى يتزوجن من الموريسكيين ، بالنسبة للأملاك التى يقدمها الأزواج الموريسكيون برسم الزواج أو الميراث[1] .

وهكذا لبثت السياسة الإسبانية أيام الإمبراطور شارلكان (١٥١٦—١٥٥٥) إزاء الموريسكيين ، تتردد بين الإقدام والإحجام ، واللين والشدة . بيد أنها كانت على وجه العموم أقل عسفاً وأكثر اعتدالا ، منها أيام فرناندو وإسابيلا . وفى عهده نال الموريسكيون كثيراً من ضروب الإعفاء والتسامح الرفيقة نوعاً ، ولكنهم لبثوا فى جميع الأحوال موضع القطيعة والريب ، عرضة للإرهاق والمطاردة ، ولبثت محاكم التحقيق تجد فيهم دائماً ميدان نشاطها المفضل .

— ٢ —

على أن هذه السياسة المعتدلة نوعاً ، لم يتح لها الاستمرار فى عهد ولده وخلفه فيليب الثانى (١٥٥٥ — ١٥٩٨) . وكان التنصر قد عم الموريسكيين يومئذ ، وغاضت منهم كل مظاهر الإسلام والعروبة ؛ ولكن قبساً دفيناً من دين الآباء والأجداد ، كان لا يزال يجثم فى قراره هذه النفوس الأبية الكليمة ، ولم تنجح اسبانيا النصرانية بسياستها البربرية فى اكتساب شىء من ولائها المغصوب . وكان الموريسكيون يحتشدون جماعات كبيرة وصغيرة فى غرناطة وفى بسائطها ، وفى منطقة البشرات الجبلية ، تتوسطها الحاميات الإسبانية والكنائس ، لتسهر الأولى على حركاتهم ، وتسهر الثانية على إيمانهم وضمائرهم ، وكانوا يشتغلون بالأخص بالزراعة والتجارة ، ولهم صلات تجارية واجتماعية وثيقة بثغور المغرب ، وهو ماكانت ترقبه السلطات الإسبانية دائماً بكثير من الحذر والريب .

وكانت بقية من التقاليد والمظاهر القديمة ، ما زالت تربط هذا الشعب الذى زادته المحن والخطوب اتحاداً ، وتعلقاً بتراثه القومى والروحى ؛ وكانت الكنيسة تحيط هذا الشعب العاق ، الذى لم تنجح تعاليمها فى النفاذ إلى أعماق نفسه ، بكثير من البغضاء والحقد . فلما تولى فيليب الثانى ألفت فرصتها فى إذكاء عوامل الاضطهاد

---

(١) Arch. gen. de Simancas; P.R. Leg. 28, Fol. 49

والتعصب ، التى خبت نوعاً فى عهد أبيه شارل الخامس . وكان هذا الملك المتعصب حبراً فى قرارة نفسه ، يخضع لوحى الأحبار والكنيسة ، ويرى فى الموريسكيين ما تصوره الكنيسة والسياسة الرجعية ، عنصراً بغيضاً خطراً دخيلا على المجتمع الإسبانى ، فلم تمض أعوام قلائل على تبوئه الملك ، حتى ظهرت بوادر التعصب والتحريض ضد الموريسكيين ، فى طائفة من القوانين والفروض المرهقة .

وكانت مسألة السلاح فى مقدمة المسائل ، التى كانت موضع الاهتمام والتشدد ، وقد عنيت السياسة الإسبانية منذ البداية بتجريد الموريسكيين من السلاح ، واتخذت أيام فرناند و إجراءات لينة نوعاً ، فكان يسمح بحمل أنواع معينة من السلاح المنزلى كالسكين وغيرها ، وذلك بترخيص ورسوم معينة . ولكن الحكومة خشيت بعد ذلك عواقب هذا التسامح ، فأخذت تشدد فى الترخيص ، وجرد المسلمون فى بلنسية من سلاحهم جملة ، وقيل لهم حينما أذعنوا للتنصير ، أنهم سيعاملون كالنصارى فى سائر الحقوق والواجبات ويرد لهم سلاحهم ، ولكن الحكومة لم تف بعهدها . وفى سنة ١٥٤٥ صدر قرار بمنع حمل السلاح كافة ، ولكنه نفذ بشئ من اللين . وفى سنة ١٥٦٣ ، فى عهد فيليب الثانى ، صدر قانون جديد يحرم حمل السلاح على الموريسكيين ، إلا بترخيص من الحاكم العام ، وأحيط تنفيذه بمنتهى الشدة ، فأثار صدوره سخط الموريسكيين ، وكان السلاح ضرورياً للدفاع عن أنفسهم فى محلاتهم المنعزلة النائية ،

بيد أن قانون تحريم السلاح ، لم يكن سوى مقدمة لقانون أقسى وأشد إيلاماً ، هو القانون الخاص بتحريم استعمال اللغة العربية ، وارتداء الثياب العربية ، على الموريسكيين . وقد لبثت اللغة والتقاليد العربية فى الواقع للموريسكيين ، أوثق الروابط بماضيهم وتراثهم ، وكانت عماد قوتهم المعنوية ، ومن ثم كانت عناية السياسة الإسبانية ، بالعمل على محوها بطريق التشريع الصارم ، والقضاء بذلك على آخر الروابط التى تربط الموريسكيين ، بماضيهم وتراثهم القومى . وقد فكر بعض أحبار الكنيسة أن يتعلم القسس الذين يقومون بحركة التنصير اللغة العربية ، لكى يستطيعوا إقناع الموريسكيين بلغتهم ، والنفاذ إلى أعماق نفوسهم ، ولكن فيليب الثانى لم يوافق على هذا الرأى ، وآثر أن تعلم القشتالية لأبناء الموريسكيين منذ طفولتهم ؛ وكانت السياسة الإسبانية قد حاولت تنفيذ مشروعها منذ عهد الإمبراطور شارلكان ، فصدر فى سنة ١٥٢٦ قانون يحرم على الموريسكيين التخاطب باللغة العربية وارتداء الثياب العربية ، واستعمال الحمامات ، وإقامة الحفلات على الطريقة الإسلامية ، ولكنه لم ينفذ بشدة ،

والتمس الموريسكيون فى بلنسية وغرناطة وقف تنفيذه أربعين عاماً، يحتفظون خلالها بلغتهم وثيابهم القومية ، وقرنوا ملتمسهم بمطالب أخرى تتعلق بتطبيق شريعتهم وتقاليدهم ، وتخفيف الضرائب عن كاهلهم، وبالرغم من أن مطالبهم لم تجب يومئذ كلها ، فإن قانون تحريم اللغة والثياب القومية ، أرجىء تنفيذه مرة بعد أخرى ، وأجيز للموريسكيين استعمال اللغة والثياب القومية ، نظير ضريبة معينة ، واستمر هذا المنح سارياً حتى عهد فيليب الثانى ، وكان يجمع من هذه الضريبة مبلغ طائل . ولكن فيليب الثانى كان ملكاً شديد التعصب ، كثير التأثر بنفوذ الأحبار ، وكانت الكنيسة ترى أن بقاء اللغة العربية من أشد العوامل لمنع تغلغل النصرانية فى نفوس الوريسكيين ، وأنه لابد من القضاء على ذلك الحاجز الصخرى الذى تتحطم عليه جهود الكنيسة ؛ وكانت قد مضت فوق ذلك أربعون عاماً مذ صدر قانون التحريم فى عهد الإمبراطور شارلكان ، ولم يبق للموريسكيين بذلك حجة ولا ملتمس ، وانتهت الكنيسة كالعادة بإقناع الملك بصواب رأيها ، فلم يلبث أن استجاب لتحريضها ، وأمر فى مايو سنة ١٥٦٦ بأن يجدد القانون القديم بتحريم اللغة والثياب العربية ، وهكذا حاول بطريق التشريع أن يسدد الضربة الأخيرة للغة الموريسكيين وتقاليدهم العربية ، فأصدر هذا القانون الهمجى الذى لم يسمع بصدور مثله فى تاريخ المجتمعات المتمدنة .

ويقضى هذا القانون بأن يمنح الموريسكيون ثلاثة أعوام لتعلم اللغة القشتالية ، ثم لا يسمح بعد ذلك لأحد أن يتكلم أو يكتب أو يقرأ العربية أو يتخاطب بها ، سواء بصفة عامة أو بصفة خاصة ، وكل معاملات أو عقود تجرى بالعربية تكون باطلة ولا يعتد بها لدى القضاء أو غيره . ويجب أن تسلم الكتب العربية ، من أية مادة فى ظرف ثلاثين يوماً إلى رئيس المجلس الملكى فى غرناطة ، لتفحص وتقرأ، ثم يرد غير الممنوع منها إلى أصحابها لتحفظ لديهم مدى الأعوام الثلاثة فقط . وأما الثياب فيمنع أن يصنع منها أى جديد مما كان يستعمل أيام المسلمين ، ولا يصنع منها إلا ما كان مطابقاً لأزياء النصارى ، وحتى لا يتلف منها ما كان من زى المسلمين فإنه يسمح بارتداء الثياب الحريرية منها لمدة عام ، والصوفية لمدة عامين ، ثم لا يسمح باستعمالها بعد ذلك . ويحظر التحجب على النساء الموريسكيات وعليهن أن يكشفن وجوههن ، وأن يرتدين عند الخروج المعاطف والقبعات على نحو ما تفعل النساء الموريسكيات فى أراجون . ويحظر فى الحفلات إجراء أية رسوم



الملك فيليب الثانى

عن صورة « سانشيث كويليو » المحفوظة بمتحف « البرادو » بمدريد .

إسلامية ، ويجب أن يجرى كل ما فيها طبقاً لعرف الكنيسة وعرف النصارى ؛ ويجب أن تفتح المنازل أثناء الاحتفال ، وكذلك أيام الجمعة وأيام الأعياد، ليستطيع القسس ورجال السلطة أن يروا ما يقع بداخلها من المظاهر والرسوم المحرمة . ويحرم إنشاد الأغانى القومية ، ولا يشهر الزمر (الرقص العربى) أو ليالى الطرب بالآلات ، أو غيرها من العوائد الموريسكية ، ويحرم الخضاب بالحناء . ولا يسمح بالاستحمام فى الحمامات ، ويجب أن تهدم سائر الحمامات العامة والخاصة . ويحرم استعمال الأسماء والألقاب العربية ، ومن يحملها يجب عليه أن يبادر بتركها . ويجب أخيراً على الموريسكيين الذين يستخدمون العبيد السود أن يقدموا رخصهم باستخدامهم للنظر فيما إذا كان حرياً بأن يسمح لهم باستبقائهم[1].

هذه هى نصوص ذلك القانون الهمجى الذى أريد به تسديد الضربة القاتلة لبقايا الأمة الأندلسية ، وذلك بتجريدها من مقوماتها القومية الأخيرة . وقد فرضت على المخالف عقوبات فادحة ، تختلف من السجن إلى النفى والإعدام ؛ وكان إحراز الكتب والأوراق العربية ولاسيما القرآن ، يعتبر فى نظر السلطات من أقوى الأدلة على الردة ، ويعرض المتهم لأقسى أنواع العذاب والعقاب .

أعلن هذا القانون المروع فى غرناطة فى يوم أول يناير سنة ١٥٦٧ ، وهو اليوم الذى سقطت فيه غرناطة ، واتخذته اسبانيا عيداً قومياً تحتفل به فى كل عام ، وأمر ديسا رئيس المجلس الملكى بإذاعته فى غرناطة ، وسائر أنحاء مملكتها القديمة ، وتولى إذاعته موكب من القضاة شق المدينة ، ومن حوله الطبل والزمر ، وعلق فى ميدان باب البنود أعظم ميادينها القديمة ، وفى سائر ميادينها الأخرى ، وفى ربض البيازين ، فوقع لدى الموريسكيين وقع الصاعقة ، وفاضت قلوبهم الكسيرة سخطاً وأسى ويأساً ، وأحيط تنفيذه بمنتهى الشدة ، فحطمت الحمامات تباعاً . واجتمع زعماء الموريسكيين وتباحثوا فيما يجب عمله إزاء هذه المحنة الجديدة ، وحاولوا أن يسعوا بالضراعة والحسنى لإلغاء هذا القانون أو على الأقل لتخفيف وطأته ، ورفعوا احتجاجهم أولا إلى الرئيس ديسا ، عن يد رئيس جماعتهم مولاى فرنسيسكو نونيز ، فخاطب الرئيس ديسا ، وبين له ما فى القانون من شدة وتناقض وخرق للعهود ، وطلب إرجاء تنفيذه . ثم قرروا التظلم للعرش . وحمل رسالتهم

(١) نقلنا نصوص هذا القانون عن مارمول ، وقد عاصر صدوره . انظر : Marmol: ibid; Lib. II. Cap. VI. وراجع أيضاً : P. Longas: ibid; p. XLV.XLVI

إلى فيليب الثانى ، وإلى وزيره الطاغية الكردينال اسپينوسا ، سيد اسبانى نبيل من أعيان غرناطة يدعى الدون خوان هنريكس ، وكان يعطف على هذا الشعب المنكود ، ويرى خطر السياسة التى اتبعت لإبادته ، وسار معه إلى مدريد اثنان من أكابرهم هما خوان هرناندث من أعيان غرناطة ، وهرناندو الحبقى من أعيان وادى آش ، والتمس الوفد إلى الملك إرجاء تنفيذ القانون كما حدث أيام أبيه ، وبعث الدون هنريكس بمذكرة إلى جميع أعضاء مجلس الملك يبين فيها ما يترتب على تنفيذ القانون من حرج واضطراب ، ولكن مساعيه كلها ذهبت عبثاً ، وأجاب الكردينال اسپينوسا ، بأن جلالته مصمم على تنفيذ القانون ، وأنه أصبح أمراً واقعاً . وكذا عرض المركيز دى مونديخار حاكم غرناطة على الملك اعتراض الموريسكيين ، وأوضح له خطورة الموقف ، وأن اليأس قد يدفعهم إلى الثورة ، وأن الترك ، أصبحوا فى شواطىء المغرب على مقربة من اسبانيا ، وأن الموريسكيين شعب عدو لا يدين بالولاء ، فلم تفد هذه الاعتراضات شيئاً ، وقيل إن الموريسكيين شعب جبان ، ولا سلاح لديه ولا حصون . وهكذا حملت سياسة العنف والتعصب فى طريقها كل شىء ، ونفذت الأحكام الجديدة فى المواعيد التى حددت لها ، ولم تبد السلطات فى تنفيذها أى رفق أو مهادنة(١) .

ولم يحظ بلمحة من الرفق سوى الموريسكيين فى بلنسية ، وكان زعيمهم وكبير أشرافهم كوزمى بن عامر من المقربين إلى البلاط ، فسعى للتخفيف عنهم ، وكللت مساعيه بالنجاح فى بعض النواحى ، وهو أن يعامل الموريسكيون بالرفق فى حالة الإتهام بالردة ، ولا تنزع أملاكهم بتهمة المروق ، وذلك على أن يدفعوا إتاوة سنوية قدرها ألفان وخمسمائة مثقال لديوان التحقيق(٢) .

وأما فى غرناطة فقد بلغ اليأس بالموريسكيين ذروته ، فتهامسوا على المقاومة والثورة ، والذود عن أنفسهم إزاء هذا العسف المضنى ، أو الموت قبل أن تنطفىء فى قلوبهم وضمائرهم ، آخر جذوة من الكرامة والعزة ، وقبل أن تقطع آخر صلاتهم بالماضى المجيد والتراث العزيز ، وكانت نفوسهم ماتزال تضطرم ببقية من شغف النضال والدفاع عن النفس ، وكانوا يرون فى المناطق الجبلية القريبة ملاذاً للثورة ،

---

(١) Prescott : Philip II of Spain; V. III. p. 12-29; Marmol: ibid; II. Cap. IX & XIII وكذلك Dr. Lea : The Moriscos p. 150, 151 & 230.240

(٢) Dr. Lea : ibid; p. 126

ويؤملون أن يصلوا بالمقاومة إلى إلغاء هذا القانون الهمجي أو تخفيفه .

وهنا يبدأ الصراع الأخير بين الموريسكيين واسبانيا النصرانية . ومن الأسف أننا لم تتلق عن هذه المرحلة المؤسية والأخيرة من تاريخ الأمة الأندلسية ، شيئاً من الروايات العربية ، وهي تقف كما رأينا عند محنة التنصير الأولى عقب سقوط غرناطة ، فلابد لنا هنا من أن نرجع إلى الرواية النصرانية دون سواها .

سرى إلى الموريسكيين يأس بالغ يذكيه السخط العميق فعولوا على الثورة ، مؤثرين الموت على ذلك الإستشهاد المعنوى الهائل . ونبتت فكرة الثورة أولا فى غرناطة حيث يقيم أعيان الموريسكيين ، وحيث كانت جمهرة كبيرة منهم تحتشد فى ضاحية « البيازين » . وكان زعيم الفكرة ومثير ضرامها موريسكى يدعى فرج بن فرج ؛ وكان فرج صباغاً بمهنته ، ولكنه حسبما تصفه الرواية القشتالية ، كان رجلا جريئاً وافر العزم والحماسة ، يضطرم بغضاً للنصارى ، ويتوق إلى الانتقام الذريع منهم ؛ ولاغرو فقد كان ينتسب إلى بنى سراج ، وهم كما رأينا من أشراف غرناطة وفرسانها الأنجاد أيام الدولة الإسلامية . وكان ابن فرج كثير التردد على أنحاء البشرّات ، وثيق الصلة بمواطنيه ، فاتفق الزعماء على أن يتولى حشد قوة كبيرة منهم ، تزحف سراً إلى غرناطة ، وتجوز إليها من ضاحية البيازين ، ثم تفاجىء حامية الحمراء وتسحقها ، وتستولى على المدينة ، وحددوا للتنفيذ « يوم الخميس المقدس » من شهر ابريل سنة ١٥٦٨ ، إذ يشغل النصارى يومئذ باحتفالاتهم وصلواتهم . ولكن أنباء هذا المشروع الخطير تسربت إلى السلطات منذ البداية ، فاتخذت التحوطات لدرئه ، وعززت حامية غرناطة وحاميات الثغور ، واضطر الموريسكيون إزاء هذه الأهبة ، أن يرجئوا مشروعهم إلى فرصة أخرى .

ووضع أديب من زعماء الثورة يدعى باسمه المسلم محمد بن محمد بن داود ، قصيدة ملتهبة يصف فيها آلام بنى وطنه ، ويستمد فيها الغوث والعون من الله ونبيه ، فضبطت معه فى ثغر أدرة ، وأرسلت إلى البلاط مع ترجمتها القشتالية ، وإليك ملخص ما ورد فى هذه القصيدة التى تعتبر كأنها صرخة ألم أخيرة لشعب شهيد :

تفتتح القصيدة بحمد الله والثناء عليه والتنويه بقدرته ، وخضوع جميع الناس والأشياء لحكمه ، ثم يقول أن استمعوا إلى قصة الأندلس المحزنة ، وهى تلك الأمة العظيمة ، التى غدت اليوم ضعيفة مهيضة ، يحيط بها الكفرة من كل صوب ، وأضحى أبناؤها كالأغنام الذين لا راعى لهم .

وفى كل يوم نسام سوء العذاب ، ولا حيلة لنا سوى المصانعة ، حتى ينقذنا الموت مما هو شر وأدهى .

وقد حكّموا فينا اليهود الذين لا عهد لهم ولا ذمام ، وفى كل يوم يبحثون عن ضلالات وأكاذيب وخدع وانتقامات جديدة .

ونرغم على مزاولة الشعائر النصرانية وعبادة الصور ، وهى مسخ للواحد القهار ، ولا يجرؤ أحد على التذمر أو الكلام . وإذا ما قرع الناقوس ألقى القس عظته بصوت أجش ، وفيها يشيد بالنبيذ ولحم الخنزير ، ثم تنحنى الجماعة أمام الأوثان دون حياء ولا خجل ...

ومن عبَـد الله بلغته قضى عليه بالهلاك ، ومن ضبط ألقى إلى السجن وعذب ليل نهار حتى يرضخ لباطلهم .

ثم يصف وسائل إرهاقهم والتضييق عليهم ، من التسجيل والتفتيش وغيرها ، وما يفرض عليهم من الضرائب الفادحة ، وكيف تؤدى عن الحى والميت ، والكبير والصغير والغنى والفقير ، وكيف يرهقهم القضاة الظلمة ، ولا يفلت من ظلمهم كائن ، وكيف يلقى بهم فى السجن ، ويرغمون على التنصير بالاعتقال والتعذيب ، وكيف تهشم أوصال الفرائس ، ثم تحمل إلى الميدان لتحرق أمام الجمع الحاشد .

وكيف تكدس المظالم على رؤوسهم تكديساً ، ويسومهم الخسف أصاغر النصارى ، وكل منهم يفتن فى ضروب الإضطهاد .

ثم يقول : ولقد علقوا يوم العيد (عيد سقوط غرناطة) ، فى ميدان باب البنود ، قانوناً جديداً ، وأخذوا يدهمون الناس فى نومهم ، ويفتحون كل باب ، يزمعون تجريدنا من ثيابنا وقديم عاداتنا ، ويمزقون الثياب ويحطمون الحمامات .

ونحن إذ نيأس من عدل الإنسان نستغيث بالنبى ، معتمدين على ثواب الآخرة ، وقد حثنا شيوخنا على الصلاة والصوم ، وأن نقصد وجه الله ، فهو الذى يرحمنا فى نهاية الأمر »[1] .

وضبط فى نفس الوقت مع ابن داود خطاب موجه من أحد زعماء البيازين إلى رؤساء المغرب وإخوانهم فى الدين . وكان هذا الكتاب واحداً من كتب عديدة وجهت خفية ، إلى أمراء الثغور فى المغرب ، يطلبون إليهم الغوث والعون ، فحمل

---

(١) أورد مارمول ترجمة قشتالية كاملة لهذه القصيدة ومنها لخصنا ماتقدم . راجع :
Marmol: ibid; III. Cap. IX

الكتاب إلى حاكم غرناطة، وفيه يناشد كاتبه إخوانه بالمغرب، ويستحلفهم الغوث بحق روابط الدين والدم، ويصف ماقرره النصارى « من إرغامهم على ترك اللغة، وتركها فقد للشريعة، وكشف الوجوه الحيية المحتشمة، وفتح الأبواب، وما أنزل بهم من محن السجن والأسر ونهب الأملاك » ويطلب إليهم أن يبلغوا استغاثتهم إلى سلطان المشرق، قاهر أعدائه، ثم يقول: « لقد غمرتنا الهموم وأعداؤنا يحيطون بنا إحاطة النار المهلكة. إن مصائبنا لأعظم من أن تحتمل، ولقد كتبنا إليكم فى ليال تفيض بالعذاب والدمع، وفى قلوبنا قبس من الأمل، إذا كانت ثمة بقية من الأمل فى أعماق الروح المعذب»[1]؛ ولكن الحكومات المغربية كانت مشغولة بمشاكلها الداخلية، فلم يلب داعى الغوث سوى جماعة من المتطوعين، الذين نفذوا سراً إلى إخوانهم فى البشرات، ومنهم كثيرون من البحارة المجاهدين، الذين كانوا حرباً عواناً على الثغور والسفن الإسبانية فى ذلك العصر.

واستمر الموريسكيون على عزمهم وأهبتهم، وأرسلت خطابات عديدة من ابن فرج وزملائه إلى مختلف الأنحاء يدعون فيها إخوانهم إلى التأهب وإخطار سائر إخوانهم. وفى شهر ديسمبر سنة ١٥٦٨ وقع حادث كان نذير الانفجار، إذ اعتدى الموريسكيون على بعض المأمورين والقضاة الإسبانيين فى طريقهم إلى غرناطة، ووثبت جماعة منهم فى نفس الوقت بشرذمة من الجند، كانت تحمل كمية كبيرة من البنادق، ومثلت بهم جميعاً. وفى الحال سار ابن فرج على رأس مائتين من أتباعه، ونفذ إلى المدينة ليلا، وحاول تحريض مواطنيه فى « البيازين » على نصرته، ولكنهم أبوا أن يشتركوا فى مثل هذه المغامرة الجنونية. ولقد كان موقفهم حرجاً فى الواقع، لأنهم يعيشون إلى جانب النصارى على مقربة من الحامية، وهم أعيان الطائفة ولهم فى غرناطة مصالح عظيمة، يخشون عليها من انتقام الإسبان. بيد أنهم كانوا يؤيدون الثورة: يؤيدونها برعايتهم ونصحهم ومالهم؛ فارتد ابن فرج على أعقابه واجتاز شعب جبل شلير (سيراً نفادا) إلى الهضاب الجنوبية، فيما بين بلش والمرية. فلم تمض بضعة أيام، حتى عم ضرام الثورة جميع الدساكر والقرى الموريسكية فى أنحاء البشرات، وهرعت الجموع المسلحة إلى ابن فرج، ووثب الموريسكيون بالنصارى القاطنين فيما بينهم، ففتكوا بهم ومزقوهم شر تمزيق.

---

(١) أورد مارمول أيضاً ترجمة قشتالية كاملة لهذا الخطاب. راجع؛ Marmol : ibid III. Cap .IX

— ٣ —

اندلع لهيب الثورة فى أنحاء الأندلس، ودوت بصيحة الحرب القديمة ، وأعلن الموريكسيون استقلالهم ، واستعدوا لخوض معركة الحياة أو الموت . وبدأ الزعماء باختيار أمير يلتفون حوله ، ويكون رمز مُلكهم القديم، فوقع اختيارهم على فتى من أهل البيازين يدعى الدون فرناندو دى كردوبا وڤالور[1] . وكان هذا الإسم النصرانى القشتالى ، يحجب نسبة عربية إسلامية رفيعة . ذلك أن فرناندو دى ڤالور كان ينتمى فى الواقع إلى بنى أمية ، وكان سليل الملوك والخلفاء ، الذى سطعت فى ظلهم الدولة الإسلامية فى الإندلس، زهاء ثلاثة قرون . وكان فتى فى العشرين تنوه الرواية القشتالية المعاصرة بوسامته ونبل طلعته ، وكان قبل انتظامه فى سلك الثوار مستشاراً ببلدية غرناطة، ذا مال ووجاهة . وكان الأمير الجديد يعرف خطر المهمة التى انتدب لها ، وكان يضطرم حماسة وجرأة وإقداماً . فنى الحال غادر غرناطة سراً إلى الجبال ، ولجأ إلى شيعته آل ڤالور فى قرية برذنار Beznar ، فهرعت إليه الوفود ، والجموع من كل ناحية ، واحتفل الموريسكيون بتتويجه فى التاسع والعشرين من ديسمبر (سنة ١٥٦٨) فى احتفال بسيط مؤثر ، فرشت فيه على الأرض أعلام إسلامية ذات أهلة ، فصلى عليها الأمير متجهاً صوب مكة ، وقبل أحد أتباعه الأرض رمزاً بالخضوع والطاعة ؛ وأقسم الأمير أن يموت فى سبيل دينه وأمته ، وتسمى باسم ملوكى عربى هو محمد بن أمية صاحب الأندلس وغرناطة، واختار عمه المسمى فرناندو الزغوير (الصغير) ، واسمه المسلم ابن جوهر قائداً عاماً لجيشه، وقد كان صاحب الفضل الأكبر فى اختياره للرياسة ، وانتخب ابن فرج كبيراً للوزراء ، ثم بعثه على رأس بعض قواته إلى هضاب البشرّات ، ليجمع ما استطاع من أموال الكنائس ؛ واتخذ مقامه فى أعماق الجبال فى مواقع منيعة ، وبعث رسله فى جميع الأنحاء ، يدعون الموريسكيين إلى خلع طاعة النصارى والعود إلى دينهم القديم[2] .

ووقعت نقمة الموريسكيين بادئ ذى بدء ، على النصارى المقيمين بين ظهرانيهم فى أنحاء البشرات ، ولاسيما القسس وعمال الحكومة ، وكان هؤلاء يقيمون فى محلات متفرقة سادة قساة ، يعاملون الموريسكيين بمنتهى الصرامة والزراية ، وكان

---

(١) كردوبا أى قرطبة ، وڤالور قرية غرناطية تقع على مقربة من أجيجر .

(٢) Marmol : ibid ; IV, Cap. VII

القسس بالأخص سبب بلائهم ومصائبهم ، ومن ثم فقدكانوا ضحايا الثورة الأولى . وانقض ابن فرج ورجاله على النصارى فى تلك الأنحاء ومزقوهم تمزيقاً ، وقتلوا القسس وعمال الحكومة ، ومثلوا بهم أشنع تمثيل ؛ وكانت حسبما تقول الروايات القشتالية مذبحة عامة ، لم ينج منها حتى النساء والأطفال والشيوخ . وذاعت أنباء المذبحة الهائلة فى غرناطة ، فوجم لها الموريسكيون والنصارى معاً ، وكل يخشى عواقبها الوخيمة ؛ وكان الموريسكيون يخشون أن يبطش النصارى بهم انتقاماً لمواطنيهم ؛ وكان النصارى يخشون أن يزحف جيش الموريسكيين على غرناطة ، فتسقط المدينة فى أيديهم ، وعندئذ يحل بهم النكال الرائع . بيد أن الرواية القشتالية تنصف هنا محمد بن أمية ، فتقول إنه لم يحرض على هذه المذابح ، ولم يوافق عليها ، بل لقد ثارلها وحاول أن يحول دون وقوعها ، وعزل نائبه ابن فرج عن القيادة ، فنزل راضياً واندمج فى صفوف المجاهدين . وهنا يختفى ذكره ولايبدو على مسرح الحوادث بعد(١) .

— ٤ —

وكانت غرناطة فى أثناء ذلك ترتجف سخطاً وروعاً ، وكان حاكمها المركيز دى مندیخار يتخذ الأهبة لقمع الثورة منذ الساعة الأولى . بيد أنه لم يكن يقدر مدى الإنفجار الحقيقى ، فغصت غرناطة بالجند ، ووضع الموريسكيون أهل البيازين تحت الرقابة ، رغم احتجاجاتهم وتوكيدهم بأن لا علاقة لهم بالثائرين من مواطنيهم ؛ وخرج مندیخار من غرناطة بقواته فى ٢ يناير سنة ١٥٦٩ ، تاركاً حكم المدينة لابنه الكونت تندليا ، وعبر جبل شلير (سيرًا نفادا) ، وسار توًا إلى أعماق البشرات حيث يحتشد جيش الثوار . وكانت الثورة الموريسكية فى تلك الأثناء قد عمت أنحاء البشرات الشرقية والجنوبية ، واضطرمت فى أجيجر وبرجة وأدرة وأندرش ودلاية ولوشار ومرشانة وشلوبانية وغيرها من البلاد والقرى . واستطاع الموريسكيون أن يتغلبوا بسهولة على معظم الحاميات الإسبانية المتفرقة فى تلك الأنحاء ، بل لقد سرت الثورة إلى أطراف مملكة غرناطة القديمة ، حيث اندلع لهيبها فى وادى المنصورة فى قراه ودساكره ، ولم يتخلف عن الاشتراك فى الثورة سوى رندة ومربلة ومالقة ، وكانت بها حاميات اسبانية قوية ، ونشبت الثورة

---

(١) Prescott: Philip II; V. III. Ch. II. وكذلك Dr. Lea: The Moriscos p. 237 ؛

فى معظم أنحاء ألمرية ، وهكذا عمت الثورة الموريسكية معظم أنحاء الأندلس ، واشتد الأمر بنوع خاص فى بسطة ووادى آش وألمرية[1] .

وكان محمد بن أمية متحصناً بقواته فى آكام بوكيرا الوعرة ، وكان الموريسكيون رغم نقص مواردهم وسلاحهم ، قد حذقوا حرب الجبال ومفاجآتها ، فما كاد الإسبان يقتربون حتى انقضوا عليهم ، ونشبت بين الفريقين معركة عنيفة ، ارتد الموريكسيون على أثرها إلى سهول بطرنة ، وتخلف كثيرون منهم ولاسيما النساء ، ففتك الإسبان بهم فتكاً ذريعاً ، وحاول منديخار أن يتفاهم مع الثائرين على العفو ، وأن يخلدوا إلى السكينة ، وبعث إليهم بعض المسالمين من مواطنيهم . وكتب الدون ألونسو ڤنيجاس (بنيغش) سليل الأسرة الغرناطية القديمة إلى ابن أمية يعاتبه ، وأنه قد جانب العقل والحزم فى القيام بهذه الحركة التى تعرضه وتعرض أمته للهلاك ، ونصحه بالتوبة والتماس العفو . وكان محمد بن أمية يميل إلى الصلح والتفاهم ، وتبودلت بالفعل المكاتبة بينه وبين المركيز دى منديخار فى أمر التسليم ، ولكن المتطرفين من أنصاره ولاسيما المتطوعين المغاربة ، رفضوا الصلح ، فاستؤنفت المعارك ، ورجحت كفة الإسبان ، وهزم الموريسكيون مرة أخرى ، وأعلن المركيز دى منديخار أن الأسرى الموريسكيين يعتبرون رقيقاً ، وفرّ محمد بن أمية ، وأسرت أمه وزوجه وأخواته . وأصيب الإسبان بهزيمة شديدة فى آكام « جواخاريس » وقتل منهم مائة وخمسون جندياً مع ضباطهم ، ولكن الموريسكيين آثروا الارتداد ، وقتل الإسبان من تخلف منهم أشنع قتل ، وكان ممن تخلف منهم زعيم باسل يدعى « الزمار » أسره الإسبان مع ابنته الصغيرة ، وأرسلوه إلى غرناطة حيث عذبوه عذاباً وحشياً إذ نزع لحمه من عظامه حياً ، ثم مزقت أشلاؤه . وهكذا كانت أساليب الإسبان ومحاكم التحقيق إزاء العرب المتنصرين .

واختفى محمد بن أمية مدى حين فى منزل قريبه « ابن عبو » ، وكان من أنجاد الزعماء أيضاً ، وطارده الإسبان دون أن يظفروا به . على أن هذه المزائم لم تنل من عزم الموريسكيين ، فقد احتشدوا فى شرقى البشرات فى جموع عظيمة ، وأخذوا يهددون ألمرية ، فسار إليهم المركيز « لوس ڤيليس » على رأس جيش آخر ، ووقعت بين الفريقين عدة معارك شديدة ، قتل فيها كثير من الفريقين ، ومزق الموريسكيون ، وفتك الإسبان كعادتهم بالأسرى ، وقتلوا النساء والأطفال قتلاً ذريعاً .

---

(1) Marmol: ibid; IV; Cap. XXXVI

ووقعت فى نفس الوقت فى غرناطة مذبحة مروعة أخرى ، فقد كان فى سجنها العام نحو مائة وخمسين من أعيان الموريسكيين ، اعتقلوا رهينة وكفالة بالطاعة ، فأذاع الإسبان أن الموريسكيين سيهاجمون غرناطة لإنقاذ السجناء ، بمؤازرة مواطنيهم فى البيازين ، وعلى ذلك صدر الأمر بإعدام السجناء ، فانقض الجند عليهم وذبحوهم فى مناظر مروعة من السفك الأثيم .

وكان لهذه الحوادث الأخيرة أثر فى إذكاء الثورة ، وكان نذيراً جديداً للموريسكيين بأن الموت فى ساحة الحرب خير مصير يلقون ، فسرى إليهم لهب الثورة بأشد من قبل ، وطافت بهم صيحة الإنتقام ، فانقضوا على الحاميات الإسبانية المبعثرة فى أنحاء البشرّات ومزقوها تمزيقاً ، وهزموا قوة إسبانية تصدت لقتالهم ، واحتشدت جموعهم مرة أخرى تملأ الهضاب والسهل ، وعاد محمد بن أمية ثانية إلى تبوىء عرشه الخطر ، والتف حوله الموريسكيون أضعاف ما كانوا ، وبعث أخاه عبدالله إلى قسطنطينية بطلب العون من سلطانها ، وأرسل فى نفس الوقت إلى أمير الجزائر وإلى سلطان مراكش الشريفى يطلب الإنجاد والغوث ؛ ولكن سلاطين قسطنطينية لم يلبوا ضراعة الموريسكيين بالرغم من تكرارها منذ سقوط غرناطة ، وأرسل أمير الجزائر مشجعاً ومعتذراً عن عدم إمكان إرسال السفن ، ووعد سلطان مراكش بالمساعدة والغوث ، ولكن هذا الصريخ المتكرر من جانب الموريسكيين لم ينتج أثره المنشود ، ولم يلبه غير إخوانهم المجاهدين فى إفريقية ؛ فقد استطاعت جموع جريئة مخاطرة ، أن تجوز إلى الشواطىء الإسبانية ، ومنهم فرقة من الترك المرتزقة ، وأن تهرع إلى نصرة المنكوبين .

وهكذا عاد النضال إلى أشده ، وخشى الإسبان من احتشاد الموريسكيين فى البيازين ضاحية غرناطة ، فصدر قرار بتشريدهم فى بعض الأنحاء الشمالية . وكانت مأساة جديدة مزقت فيها هذه الأسر التعسة ، وفرق فيها بين الآباء والأبناء والأزواج والزوجات ، فى مناظر مؤثرة تذيب القلب ، وسار المركيز لوس ڤيليس فى نفس الوقت إلى مقاتلة الموريسكيين ، فى سهول المنصورة على مقربة من أراضى مرسية ، ونشبت بينه وبينهم وقائع غير حاسمة ، ولم يستطع متابعة القتال لنقص فى الأهبة والمؤن ؛ وكان بينه وبين زميله منديخار خصومة ومنافسة ، كانتا سبباً فى اضطراب الخطط المشتركة . واتهم منديخار بالعطف على الموريسكيين فاستدعى إلى مدريد ، وأقيل من القيادة ، واتخذت مدريد خطوتها الجديدة الحاسمة فى هذا الصراع الذى لا رحمة فيه ولا هوادة .

بينما كانت هذه الحوادث والمعارك الدموية تضطرم فى هضاب الأندلس وسهولها وتحمل إليها أعلام الخراب والموت ، إذ وقع فى المعسكر الموريسكى حادث خطر ، هو مصرع محمد بن أمية . وكان مصرعه نتيجة المؤامرة والخيانة ، وكانت عوامل الخلاف والحسد ، تحيط هذا العرش بسياج من الأهواء الخطرة . وكان محمد بن أمية يثير بين مواطنيه بظرفه ورقيق شمائله كثيراً من العطف ، ولكنه كان يثير بصرامته وبطشه ، الحقد فى نفوس نفر من ضباطه . وتقص علينا الرواية القشتالية سيرة مقتله فتقول ، إنه كان ثمة ضابط من هؤلاء يدعى ديجوالجوازيل (الوزير) له عشيقة حسناء تسمى زهرة ، فانتزعها محمد منه قسراً ، فحقد عليه وسعى لإهلاكه بمعاونة خليلته ، فزور على لسانه خطاباً إلى القائد العام « ابن عبو » يحرضه على التخلص من المرتزقة الترك ، وكان ثمة منهم فرقة فى المعسكر الموريسكى ، فعلم الترك بأمر الخطاب ، واقتحموا المعسكر إلى مقر ابن أمية وقتلوه ، بالرغم من احتجاجه وتوكيد براءته ، واستقبل الجند الحادث بالسكون . وفى الحال اختار الزعماء ملكاً جديداً هو ابن عبو ، واسمه الموريسكى ديجو لوبيث ، وهو ابن عم الملك القتيل ، فتسمى بمولاى عبد الله محمد ، وأعلن ملكاً على الأندلس بنفس الاحتفال المؤثر الذى وصفناه . وكان مولاى عبد الله أكثر فطنة وروية وتدبراً ، فحمل الجميع على احترامه ، واشتغل مدى حين بتنظيم الجيش ، واستقدم السلاح والذخيرة من ثغور المغرب ، واستطاع أن يجمع حوله جيشاً مدرباً قوامه زهاء عشرة آلاف ، بين مجاهد ومرتزق ومغامر .

وفى أواخر أكتوبر سنة ١٥٦٩ سار مولاى عبد الله بجيشه صوب « أرجبة » وهى مفتاح غرناطة ، واستولى عليها بعد حصار قصير ، فذاعت شهرته وهرع الموريسكيون فى شرق البشرات إلى إعلان طاعته ، وامتدت سلطته جنوباً حتى بسائط رندة ومالقة ، وكثرت غارات الموريسكيين على فحص غرناطة La Vega ، وقد كان قبل سقوطها ميدان المعارك الفاصلة بين المسلمين والنصارى ؛ وكان فيليب الثانى حينما رأى استفحال الثورة الموريسكية ، وعجز القادة المحليين عن قمعها ، قد عين أخاه الدون خوان قائداً عاماً لولاية غرناطة ؛ ولما رأى الدون خوان اشتداد ساعد الموريسكيين اعتزم أن يسير لمحاربتهم بنفسه ، فخرج فى أواخر ديسمبر على رأس جيشه ، وسار صوب وادى آش ، وحاصر بلدة « جليرا » وهى من أمنع مواقع الموريسكيين ، وكان يدافع عنها زهاء ثلاثة آلاف موريسكى ، منهم فرقة

تركية ، فهاجمها الإسبان عدة مرات وصوبوا إليها نار المدافع بشدة ، فسقطت فى أيديهم بعد مواقع هائلة ، أبدى فيها الموريسكيون والنساء الموريسكيات أعظم ضروب البسالة ، وقتل عدد من الأكابر الإسبان وضباطهم ، ودخلها الإسبان دخول الضوارى المفترسة ، وقتلوا كل من فيها ولم يفروا النساء والأطفال ، وكانت مذبحة رائعة (فبراير سنة ١٥٧٠) ، وتوغل الدون خوان بعد ذلك فى شعب الجبال حتى سيرون الواقعة على مقربة من بسطة ، وكانت هنالك قوة أخرى من الموريسكيين بقيادة زعيم يدعى « الحبقى » تبلغ بضعة آلاف ، ففاجأت الإسبان فى سيرون ومزقت بعض سراياهم ، وأوقعت الرعب والخلل فى صفوفهم ، وقتل منهم عدد كبير ، ولم يستطع الدون خوان أن يعيد النظام إلا بصعوبة ؛ فجمع شتات جيشه ، وطارد الموريسكيين ، واستمر فى سيره جنوباً حتى وصل إلى أندرش فى مايو سنة ١٥٧٠ ،

وهنا رأت الحكومة الإسبانية أن تجنح إلى شىء من اللين ، خشية عواقب هذا النضال الرائع ، فبعث الدون خوان رسله إلى الزعيم « الحبقى » يفاتحه فى أمر الصلح ، وصدر أمر ملكى بالوعد بالعفو عن جميع الموريسكيين الذين يقدمون خضوعهم فى ظرف عشرين يوماً من إعلانه ، ولهم أن يقدموا ظلاماتهم ، فتبحث بعناية ، وكل من رفض الخضوع ، ما عدا النساء والأطفال دون الرابعة عشرة ، قضى عليه بالموت . فلم يصغ إلى النداء أحد . ذلك أن الموريسكيين أيقنوا نهائياً أن اسبانيا النصرانية لا عهد لها ولا ذمام ، وأنها غير أهل للوفاء ، فعاد الدون خوان إلى استئناف المطاردة والقتال ، وانقض الإسبان على الموريكسيين محاربين ومسالمين ، يمعنون فيهم قتلا وأسراً ، وسارت قوة بقيادة دون سزا إلى شمال البشرات ، واشتبكت مع قوات مولاى عبد الله فى معارك غير حاسمة ، وسارت مفاوضات الصلح فى نفس الوقت عن طريق الحبقى ؛ وكان مولاى عبد الله قد رأى تجهم الموقف ، ورأى أتباعه ومواطنيه يسقطون من حوله تباعاً ، والقوة الغاشمة تجتاح فى طريقها كل شىء ، فمال إلى الصلح والمسالمة ، واستخلاص ما يمكن استخلاصه من براثن القوة القاهرة ؛

وتقدم للوساطة بين الثوار وبين الدون خوان كبير من أهل وادى آش يدعى الدون هرناندو دى براداس ، وكانت له صلات طيبة مع زعماء الموريسكيين قبل الثورة . وقد انتهت إلينا فى ذلك وثيقة مؤثرة هى عبارة عن خطاب كتبه مولاى عبد الله إلى دون هرناندو هذا يعرض استعداده للصلح والمفاوضة ، وفيه تبدو لغة الموريسكيين العربية فى دور احتضارها ، ويبدو أسلوب اللهجة الغرناطية التى انتهى الموريسكيون



دون خـــوان

إلى التحدث والكتابة بها بعد نحو ثمانين عاماً من الكبت والمطاردة . وإليك ما ورد فى هذا الخطاب الذى ربما كان آخر وثيقة عربية عثر بها البحث الحديث :

١ الحمد لله وحدهو قبل الكلم

٢ اسلم الكرمو على من اكرمهو الكرمو سيديا وحبيبى وعز اسر عنديا دن هرننلو ونى نعلم حرمتكم ين

٣ اكن انت تقول يجى عنديا يجى عند أخكم وحبيبك وتجى مطمن وكل ميجكم قليا

٤ وذمتى وكن انت تريد تتوطل فلى المبرك مين سلح كل متعمل تعملومعى ونى

٥ نعمل معك كل مَتريد بحق وبل غلر وذَهَرلى مين الحبقى ين اشمكين يعمل

٦ معلمن وتطلعنى على حق وذهر لى ين اشم طلب طلب يرخو وينسو ويسحبو وبعد رعى

٧ ودين انى نعرف حرمتك بهذا شى وحرمتك اعمل الذى يذهر لكم وعمل مَيسُلح بنتور .

٨ وبين وعسى يقذيا الله خير بينين وتكن حرمتكم اسبَبْ فذا شى وعملن فعدلكم يل اش

٩ كن معى من يكتب لى يل كينكن كتبت لكم أكثر وسلموا عليكم ورحمتو الله وبركتو الله

١٠ كتيب الكتب يوم الثليث فشهر وليو فعم ..

ملاى عبد الله[١]

وكتب الدون ألونسو دى ڤنيجاس (بنيغش) أيضاً إلى مولاى عبد الله يحثه على المسالمة ، والتنكب عن هذا الطريق الخطر ، ورد عليه عبدالله يلقى المسئولية على أولى الأمر ، وعلى ما أحدثوه من بدع جعلت الحياة مستحيلة على الشعب الموريسكى[٢] . وجرت المفاوضات بين الزعيم الحبقى قائد قوات الثورة ، وبين

---

(١) نشر هذا الخطاب وصورته الفتوغرافية التى ننقلها هنا العلامة المستشرق M. Alarcón فى مجموعة بالإسبانية عنوانها: Misceláneo de Estudios y Textos Arabes (Madrid 1915) ; p. 691: وقد وجد هذا الخطاب فى مجموعة المخطوطات الشرقية للمركيز بنيافلور Pena Flor ، وتحفظ نسخته العربية فيها برقم ٢٤٦ ، وتحفظ ترجمته القشتالية برقم ٢٤٥ . وقد أورد مارمول ترجمته القشتالية فى الكتاب التاسع الفصل التاسع .

(٢) Marmol : ibid; VIII. Cap. XXVII

صورة خطاب مولاي عبد الله إلى دون هرناندو دي براداس مكتوب بخطه ومذيل بتوقيعه .

الدون هرناندو دى براداس، واتفق فى النهاية على أن يتقدم الحبقى إلى الدون خوان بإعلان خضوعه ، وطلب العفو لمواطنيه ، فيصدر العفو العام عن الموريسكيين ، وتكفل الحكومة الإسبانية حمايتها لهم أينما ارتأت مقامهم . وفى ذات مساء سار الحبقى فى سرية من فرسانه إلى معسكر الدون خوان فى أندرش ، وقدم له الخضوع وحصل على العفو المنشود .

ولكن هذا الصلح لم يرض بالأخص مولاى عبد الله وباقى الزعماء ، لأنهم لمحوا فيه نية اسبانيا النصرانية فى نفيهم ونزعهم عن أوطانهم ، ففيم كانت الثورة إذاً وفيم كان النضال ؟ لقد ثار الموريسكيون لأن اسبانيا أرادت أن تنزعهم لغتهم وتقاليدهم ، فكيف بها إذ تعتزم أن تنزعهم ذلك الوطن العزيز ، الذى نشأوا فى ظلاله الفيحاء، والذى يضم تاريخهم وكل مجدهم وذكرياتهم ؟ أنكر الموريسكيون ذلك الصلح المجحف ، وارتاب مولاى عبد الله فى موقف الحبقى ، إذ رآه يروج لهذا الصلح بكل قواه ، ويدعو إلى الخضوع والطاعة للعدو ، فاستقدمه لمعسكره بالحيلة وهنالك أعدم سراً .

ووقف الدون خوان على ذلك بعد أسابيع من الانتظار والتريث ، وبعث رسوله إلى مولاى عبد الله، فأعلن إليه أنه يترك الموريسكيين أحراراً فى تصرفاتهم. بيد أنه يأبى الخضوع ما بقى فيه رمق ينبض، وأنه يؤثر أن يموت مسلماً مخلصاً لدينه ووطنه، على أن يحصل على مُلْك اسبانيا بأسره . والظاهر أن مولاى عبد الله كانت قد وصلته أمداد من المغرب شدت أزره وقوت أمله ، وعادت الثورة إلى اضطرامها حول رندة، وأرسل مولاى عبدالله أخاه الغالب ليقود الثوار فى تلك الانحاء، وثارت الحكومة الإسبانية لهذا التحدى، واعتزمت سحق الثوار بما ملكت ، فسار الدون خوان فى قواته إلى وادى آش، وسار جيش آخر من غرناطة بقيادة دون ركيصانص إلى شمال البشرات ، وسار جيش ثالث إلى بسائط رندة ، واجتاح الإسبان فى طريقهم كل شىء ، وأمعنوا فى التقتيل والتخريب ، وعبثاً حاولت السرايا الموريسكية أن تقف فى وجه هذا السيل فزقت تباعاً، وهدم الإسبان الضياع والقرى والمعاقل ، وأتلفت الأحراش والحقول، حتى لا يبقى للثائرين مثوى أو مصدر للقوت ، وأخذت الثورة تنهار بسرعة، وفر كثير من الموريسكيين إلى إخوانهم فى إفريقية ، ولم يبق أمام الإسبان سوى مولاى عبد الله وجيشه الصغير . بيد أن مولاى عبد الله لبث معتصماً بأعماق الجبال ، يحاذر الظهور أمام هذا السيل الجارف

وفى ٢٨ أكتوبر سنة ١٥٧٠، أصدر فيليب الثانى قراراً بنفى الموريسكيين من مملكة غرناطة إلى داخل البلاد، ومصادرة أملاكهم العقارية ، وترك أملاكهم المنقولة يتصرفون فيها . ويقضى هذا القرار بأن الموريسكيين فى غرناطة والفحص ووادى لكرين (الإقليم) وجبال بونتوفير حتى مالقة، وجبال رندة ومربلة، يؤخذون إلى ولاية قرطبة ، ومن هنالك يفرقون فى أراضى ولايتى إسترامادورة وجليقية . والموريكسيون فى وادى آش وبسطة ووادى المنصورة يؤخذون إلى جنجالة والبسيط ثم يفرقون فى أراضى قلعة رباح ومونتيل . والموريسكيون فى ألمرية يؤخذون إلى ولاية إشبيلية. ونفذ القرار الجديد بمنتهى الصرامة والتحوط، وجمع الموريسكيون المسالمون من غرناطة وبسطة ووادى آش وغيرها، وسيقوا إلى الكنائس أكداساً ، يحيط بهم الجند فى كل مكان ، ونزعوا من أوطانهم وربوعهم العزيزة ، وشتتوا على النحو المتقدم فى مختلف أنحاء قشتالة وليون (١) .

ووقعت أثناء تنفيذ هذا القرار مناظر دموية ، حيث جنح رجال الحكومة فى بعض الأنحاء ولاسيما فى رندة، إلى نهب المنفيين والفتك بالنساء والأطفال . ولما سمع الموريسكيون المعتصمون بالجبال هذه الأنباء انحدروا إلى السهل، وقتلوا كثيراً من الجند المثقلين بالغنائم . وكان مصير المنفيين مؤلماً ، إذ هلك الكثير منهم من المشاق والمرض ، وعانى الذين سلموا منهم مرارة غربة جديدة مؤلمة ، ونص على وجوب وضعهم تحت الرقابة الدائمة، وتسجيلهم وتسجيل مساكنهم فى سجلات خاصة، وعين لهم حيث وجدوا مشرفاً خاصاً يتولى شئونهم، وحرم عليهم أن يغيروا مساكنهم إلا بتصريح ملكى، وحرم عليهم بتاتاً أن يسافروا إلى غرناطة، وفرضت على المخالفين عقوبات شديدة تصل إلى الموت؛ وهكذا شرد الموريسكيون فى مملكة غرناطة أفظع تشريد ، وانهار بذلك مجتمعهم القوى المتماسك فى الوطن القديم (٢) .

ولم يبق إلا أن يسحق مولاى عبد الله وجيشه الصغير ، وكان هذا الأمير المنكود يرى قواه وموارده تذوب بسرعة ، وقد انهار كل أمل فى النصر أو السلم الشريف ، بيد أنه لبث مختفياً فى أعماق جبال البشرات بين آكام برشول وترفليس مع شرذمة من جنده المخلصين . وفى مارس سنة ١٥٧١ كشف بعض الأسرى سر مخبئه للإسبان، فأوفدوا رسلهم إلى معسكره فى بعض المغائر، وهنالك استطاعوا

(١) Marmol : ibid; X . Cap. VI.

(٢) Dr. Lea: The Moriscos p. 256, 268 & 265

إغراء ضابط مغربى من خاصته يدعى جونثالفو « الشنيش » . وكان الشنيش يحقد عليه لأنه منعه من الفرار إلى المغرب ؛ وأغدق الإسبان له المنح والوعود ، وقطعوا له عهداً بالعفو الشامل ، وضمان النفس والمال ، وأن ترد إليه زوجته وابنته الأسيرتان ، إذا استطاع أن يسلمهم مولاى عبد الله حياً أو ميتاً . وكان الإغراء قوياً مثيراً ، فدبر الضابط الخائن خطته لاغتيال سيده ، وفى ذات يوم فاجأه مع شرذمة من أصحابه ، فقاوم مولاى عبد الله ما استطاع ، ولكنه سقط أخيراً مثخناً بجراحه ، فألقى الخونة جثته من فوق الصخور لكى يراها الجميع ، ثم حملها الإسبان إلى غرناطة ، وهناك استقبلوها فى حفل ضخم ، ورتبوا موكباً أركبت فيه الجثة مسندة إلى بغل ، وعليها ثياب كاملة كأنما هى إنسان حى ، ومن ورائها أفواج كثيرة من الموريسكيين الذين سلموا عقب مصرع زعيمهم ، ثم حملت إلى النطع وأجرى فيها حكم الإعدام ، فقطع رأسها ثم جرت فى شوارع غرناطة مبالغة فى التمثيل والنكال ، ومزقت أربعاً ، وأحرقت بعد ذلك فى الميدان الكبير ، ووضع الرأس فى قفص من الحديد ، رفع فوق سارية فى ضاحية المدينة تجاه جبال البشرات(١) .

* * *

وهكذا انهارت الثورة الموريسكية وسحقت ، وخبت آخر جذوة من العزم والنضال ، فى صدور هذا المجتمع الأبى المجاهد ، وقضت المشانق والمحارق والمحن المروعة ، على كل نزعة إلى الخروج والنضال ، وهبت روح من الرهبة والاستكانة المطلقة ، على ذلك المجتمع المهيض المعذب ، وعاش الموريسكيون لا يسمع لهم صوت ، ولا تقوم لهم قائمة ، فى ظل العبودية الشاملة والإرهاق المطلق ، حقبة أخرى .

---

(١) Marmol : ibid; X. Cap. VIII

الكتاب الرابع

نهاية النّهاية

الفصل الأول

توجس السياسة الإسبانية

وعصر الغارات البحرية الإسلامية

الموريسكيون قوة أدبية واجتماعية . بعض ما قيل فى وصفهم . تعلقهم بتراثهم الروحى . يكتبون كتبهم بالألخميادو . نشاط ديوان التحقيق فى مطاردتهم . قضية موريسكية شهيرة . عدد الموريسكين . ما يقوله عنهم سفير البندقية. أقوال ثرفانتس . براعتهم الاقتصادية . تخوف السياسة الإسبانية من وجودهم. صلات الموريسكين بمسلمى إفريقية والترك . دسائس ومؤامرات مزعومة . غارات البحارة المجاهدين على الشواطىء الإسبانية . البحر المتوسط مسرح القراصنة منذ العصور الوسطى . ظهور المغامرين المسلمين فى هذه المياه . ظهور البحارة الترك والموريسكين . النزعة الانتقامية فى هذه الغارات . تحوط اسبانيا ضد الغارات . غارات المجاهدين المغاربة . معاونة الموريسكين للبحارة المغيرين . ظهور أوروج وخير الدين . استيلاء خير الدين على الجزائر والثغور المغربية . غاراته المتوالية على الشواطىء الإسبانية . توالى صريخ الموريسكين . تحطيم سلطان البحارة الترك لمشاريع اسبانيا فى المغرب . استنصار أمراء المغرب باسبانيا . غارات طرغود خلف خير الدين . غارات البحارة التونسيين . انزعاج اسبانيا ولوم الموريسكين. اتساع نطاق الغارات فى البحر المتوسط . انتشار تجارة الرقيق . حوادث المغرب الأقصى . فرار الأمير الشيخ إلى اسبانيا واستغاثته بفيليب الثانى . الموريسكيون يحرضون مولاى زيدان على غزو اسبانيا . استيلاء الإسبان على ثغر العرائش . مقتل الشيخ وانتهاء مغامراته . الكفاح بين مولاى زيدان واسبانيا .

كان انهيار الثورة الموريسكية وسحق الموريسكين ، خاتمة عهد من الكفاح المرير بين شعب مهيض أعزل ، يحاول أن يحتفظ بشخصيته وكرامته وحقه فى الحياة ، وبين القوة الغاشمة ، التى تريد أن تسحق فى بقية الأمة المغلوبة ، كل أثر للحياة الحرة الكريمة . ولكن الثورة الموريسكية كانت من جهة أخرى ، نذيراً عميق الأثر للسياسة الإسبانية . ذلك أن الموريسكين لبثوا بالرغم من تجريدهم من كل مظاهر القوة المادية ، قوة أدبية واجتماعية يخشى بأسها .وكان هذا الشعب المستكين الأعزل ما يزال رغم ضعفه وذلته ، يملأ جنبات الجزيرة بفنونه ونشاطه المنتج ، ويحتل مكانة بارزة فى الشئون الاقتصادية . وكانت الكنيسة ماتزال تنفث إلى الدولة تحريضها البغيض ، على مجتمع لم تطمئن لولائه وصدق إيمانه . وقد وصف المطران جريرو الموريسكين فى سنة ١٥٦٥ بقوله: « إنهم خضعوا للتنصير ،

ولكنهم لبثوا كفرة فى سرائرهم، وهم يذهبون إلى القداس تفادياً للعقاب ، ويعملون خفية فى أيام الأعياد ، ويحتفلون يوم الجمعة أفضل من احتفالهم بيوم الأحد ، ويستحمون حتى فى ديسمبر ، ويقيمون الصلاة خفية، ويقدمون أولادهم للتنصير خضوعاً للقانون ، ثم يغسلونهم لمحو آثار التنصير ، ويجرون ختان أولادهم ، ويطلقون عليهم أسماء عربية، وتذهب عرائسهم إلى الكنيسة فى ثياب أوربية ، فإذا عدن إلى المنزل استبدلنها بثياب عربية، واحتفل بالزواج طبقاً للرسوم العربية»(١)

والظاهر أن هذه الأقوال تنطوى على كثير من الصدق . ذلك أن الأمة الموريسكية المهيضة ، بقيت بالرغم مما يصيبها من شنيع العسف والإرهاق، متعلقة بتراثها الروحى القديم . وبالرغم مما فرض على الموريسكيين من نبذ دينهم ولغتهم ، فقد لبث الكثير منهم مسلمين فى سرائرهم ، يزاولون شعائرهم القديمة خفية ، ويكتبون أحكام الإسلام والأدعية والمدائح النبوية بالقشتالية الأصلية، أو بالقشتالية المكتوبة بأحرف عربية، وهى التى تعرف بالألخميادو Aljamiado أى « الأعجمية» وهو ما نعود إلى التحدث عنه بعد . وقد انتهى إلينا الكثير من الكتب الدينية والأدعية والمدائح الإسلامية الموريسكية مكتوبة « بالألخميادو » وكثير منها يدور حول سيرة النبى العربى ،وشرح تعاليم القرآن والسنة ، يتخللها كثير من الخرافات والأساطير المقدسة(٢). بيد أنها تدلى بما كانت تجيش به هذه النفوس المعذبة من إخلاص راسخ لدينها القديم ، وأن التبست عليهم أصوله وشعائره بمضى الزمن .

وقد لبث ديوان التحقيق على نشاطه ضد الموريسكيين طوال القرن السادس عشر ، ولم يفتر هذا النشاط حتى أواخر هذا القرن ، مما يدل على أن آثار الإسلام الراسخة بقيت بالرغم من كر الأعوام وتوالى المحن، دفينة فى قلب الشعب المضطهد، تنضح آثارها من آن لآخر . يدل على ذلك ما تسجله محفوظات الديوان ، من أن قضايا الموريسكيين أمام محاكم التحقيق ، بلغت فى سنة ١٥٩١ ، ٢٩١ قضية ، وبلغت فى العام التالى ١١٧قضية، وظهر فى حفلة « الأوتو دافى » Auto da-fé التى أقيمت فى ٥ سبتمبر سنة ١٦٠٤ ثمانية وستون موريسكياً، نفذت فيهم الأحكام ،

---

(١) Marmol: ibid,II.Cap.I وكذلك : Dr. Lea : The Moriscos; p. 213 & 214

(٢) وضع القس الإسبانى Pedro Longás عن حياة الموريسكيين الدينية كتابه الذى سبقت الإشارة إليه غير مرة (Vida Religiosa de los Moriscos (Mardrid 1914 ، وفيه يورد كثيراً من رسومهم وعوائدهم الدينية ، وكثيراً من الآيات والمدائح النبوية بالقشتالية .

وظهر فى حفلة ٧ يناير سنة ١٦٠٧ ثلاثة وثلاثون موريسكياً ، واستعمل التعذيب فى محاكمتهم خمس عشرة مرة ، وكان الإتهام يوجه أحياناً إلى الموريسكيين جملة ، على أثر بعض الحملات الفجائية على المحلات الموريسكية ؛ فقد حدث مثلا فى سنتى ١٥٨٩ و ١٥٩٠ ، أن سجلت فى قرية مسلاتها الموريسكية بالقرب من بلنسية مائة قضية ، وسجلت فى قرية كارليت مائتان ، واتهم أربعون أسرة بصوم شهر رمضان .

والواقع أنه كان من الصعب ، على من بقيت فى نفوسهم جذوة أخيرة من دين الآباء ، ولم يخمدها تعاقب جيلين أو ثلاثة من النصرانية المفروضة ، أن يكونوا دائماً بمنجاة من الإتهام ، ولهذا كان الشعب الموريسكى بأسره أينما وجد ، عرضة للاتهام بالحق وبالباطل . وإذا كانت ثمة فترات يهدأ فيها نشاط محاكم التحقيق ، فذلك يرجع بالأخص إلى استعمال الرشوة مع المأمورين ، أو الحصول على براءات الحصانة بالمال . وتوضح لنا قضية بنى عامر زعماء الموريسكيين فى بلنسية هذه الحقيقة أتم وضوح .

كانت أسرة بنى عامر من أعرق الأسر المسلمة القديمة ، التى أكرهت على التنصير ، وكان زعماؤها إخوة ثلاثة ، هم : دون كوزمى ودون خوان ودون هرناندو بنى عامر ، ومنزل الأسرة فى بنجوازيل (بنى وزير) ضاحية بلنسية . وكان الثلاثة من ذوى المكانة والنفوذ ، يسمح لهم بحمل السلاح وامتيازات أخرى ، محرمة على الموريسكيين . ففى مايو سنة ١٥٦٧ صدر قرار محكمة التحقيق باتهامهم ، وتقرر القبض عليهم ، ولكن بعد أن وافقت المحكمة العليا (سوپريما) نظراً لخطر مكانتهم ، فاختفى الإخوة الثلاثة حيناً ؛ ولكن الدون كوزمى قدم نفسه للسلطات فى يناير سنة ١٥٦٨ ، وقرر فى التحقيق أنه يعتقد أنه نصر طفلا ، ومع ذلك فإنه لا يعتبر نفسه نصرانياً بل مسلماً ، وأنه جرى خلال حياته على مراعاة الشعائر الإسلامية ، ولم يذهب إلى المعترف إلا خضوعاً للأوامر ، على أنه يبغى أن يكون فى المستقبل نصرانياً ، وأن يؤدى ما يطلبه المحققون إليه ، ولم يقدم دون كوزمى خلال محاكمته أى دفاع ، ولكنه أفرج عنه فى ١٥ يوليه بضمان قدره ألفى دوقة ، على أن يبقى فى بلنسية ولا يبرحها ؛ ومع ذلك فقد سافر دون كوزمى إلى مدريد ، وحصل على عفو عنه وعن أخويه من الملك والمحكمة العليا ، نظير فداء قدره سبعة آلاف دوقة ، واستطاع فوق ذلك بنفوذه القوى ، أن يحصل للموريسكيين فى بلنسية على قرار التوفيق الصادر فى سنة ١٥٧١ حسبما قدمنا .

وفى سنة ١٥٧٧ جددت التهم القديمة ضد بنى عامر ، وقبض على كوزمى وأخيه خوان ، وحوكم كوزمى وشرح للمحكمة عقيدته الدينية ، وهى مزيج من الإسلام والنصرانية ، وعقدت الجلسات الأولى ، ولكن القضية أوقفت قبل أن يصل التحقيق إلى مرحلة التعذيب ، مما يدل على أن بنى عامر استطاعوا بالرغم من سوء حالتهم المالية يومئذ ، أن يحصلوا على براءتهم وإطلاق سراحهم بدفع مبلغ آخر من المال(١) .

وهكذا نرى أن الموريسكيين استطاعوا بالرغم من العسف المنظم ، الذى فرضته الدولة والكنيسة عليهم زهاء قرن ، أن يحتفظوا فى قرارة نفوسهم الكليمة ، ببقية راسخة من تراثهم الروحى القديم .

هذا من ناحية الدين والعقيدة ؛ وأما من الناحية الاجتماعية ، فقد كان الموريسكيون يكونون مجتمعاً متماسكاً متضامناً ، قوياً بنشاطه ودأبه وذكائه ، وقد بلغ عددهم فى أواخر القرن السادس عشر وفقاً لتقدير سفير البندقية زهاء ستمائة ألف نفس ، وقدر البعض الآخر عددهم يومئذ بأربعمائة ألف نفس ، وهو عدد ضخم بالنسبة لمجموع سكان اسبانيا فى ذلك الحين ، وهو لم يتعد الثمانية ملايين . ووصفهم سفير البندقية فى سنة ١٥٩٥ ، أى بعد قرن من سقوط غرناطة ، بأنهم شعب ينمو باضطراد فى العدد والثروة ، وأنهم لا يذهبون إلى الحرب ، ولكن يكرسون نشاطهم للتجارة واجتناء الربح . وذكر الكاتب الإسبانى الكبير ثرڤانتيس(٢) فى بعض رسائله أن الموريسكيين يتكاثرون وكلهم يتزوج ، ولا يدخلون أولادهم قط فى سلك الكهنوت أو الجيش ، ويقتصلون فى الإنفاق ويكتنزون المال ، فهم الآن أغنى الطوائف فى اسبانيا . وأما عن الناحية الاقتصادية فقد قيل إن الموريسكيين كانوا يحتكرون تجارة الأغذية ، ويضعون يدهم على المحاصيل عند نضجها ، ومنهم تجار البقالة والماشية ، ومنهم القصابون والخبازون وأصحاب الفنادق وغيرهم ، وهم لا يشترون العقارات احتفاظاً بحرية استعمال أموالهم ، وقد كان ذلك من أسباب غناهم وقوتهم الإقتصادية(٣) .

---

(١) Dr. Lea : History of the Inquisition ; V. III. p. 362 - 365

(٢) مجيل ثرفانتس دى ساڤدرا (١٥٤٧ — ١٦١٦) من أعظم كتاب اسبانيا وشعرائها ، وهو مؤلف قصة الفروسية الشهيرة « دون كيخوتى دى لامانشا » .

(٣) Dr. Lea : The Moriscos p. 204 & 210

كانت اسبانيا النصرانية إذاً، أبعد من أن تطمئن إلى مجتمع العرب المتنصرين ، فقد كانوا فى نظر الكنيسة أبداً كفرة مارقين ، وكانت الدولة من جانبها تلتمس المعاذير لاضطهاد هذا المجتمع الدخيل ومطاردته ، فهى تخشى أن يعود إلى الثورة ، وهى تخشى من صلاته المستمرة مع مسلمى إفريقية ومع سلطان الترك ، وهى مازالت تحلم بتطهير اسبانيا من الآثار الأخيرة للشعب الفاتح ، والقضاء إلى الأبد على تلك الصفحة من تاريخ اسبانيا .

* * *

والواقع أن صلات الموريسكين مع أعداء اسبانيا ، لبثت شغلا شاغلا للسياسة الإسبانية . وقد كانت الممالك والإمارات المغربية فى الضفة الأخرى من البحر ، على استعداد دائماً لأن تصغى إلى هذا الشعب المنكود ، سليل إخوانهم الأمجاد فى الدين ، وأن تعاونه كلما سنحت الفرص . وكان سلاطين الترك يتلقون من الموريسكين صريخ الغوث من آن لآخر ، وكانت المنافسة بين الترك واسبانيا يومئذ على أشدها ، فى مياه البحر المتوسط ، وكانت طوائف الموريسكين تعيش على مقربة من الثغور الشرقية والجنوبية . وأكثر من ذلك أن السياسة الإسبانية كانت تخشى دسائس فرنسا خصيمتها القوية يومئذ ، وتخشى تفاهمها المحتمل مع الموريسكين . وكانت هذه الظروف كلها تحمل اسبانيا النصرانية ، على أن تعتبر الموريسكين خطراً قومياً يجب التحوط منه ، والعمل على درئه بكل الوسائل .

وتسوق الرواية الإسبانية إلينا دلائل هذا الخطر فى حوادث كثيرة . فى سنة ١٥٧٣ وقفت السلطات الإسبانية على أنباء مفادها أن أمراء تلمسان والجزائر يدبرون حملة بحرية لمهاجمة « المرسى الكبير » فى مياه بلنسية ، يعاونهم الموريسكيون فيها بالثورة ، ولذا بادرت السلطات بنزع السلاح من الموريسكين فى بلنسية ، وقيل بعد ذلك إن هذه الحملة المغربية كانت ستقترن بغزوة فرنسية لأراجون ، ينظمها حاكم بيارن الفرنسى ، وأن سلطان الترك وسلطان الجزائر كلاهما يؤيد المشروع ، وأن أساطيل الغزو كانت تزمع النزول فى مياه برشلونة وفى دانية ، وفيما بين مرسية وبلنسية ، وأن الفضل فى فشل هذا المشروع كله يرجع إلى حزم اللون خوان ونزع سلاح الموريسكين . ومما يدل على أن اسبانيا لبثت حيناً على توجسها من فرنسا ودسائسها لدى الموريسكين ، ما تسوقه الرواية الإسبانية من أن هنرى الرابع ملك فرنسا ، كانت له فى ذلك مشاريع خطرة ، ترمى إلى غزو اسبانيا من

ناحية بلنسية ، حيث يوجد حشد كبير من الموريسكيين ، وأن زعماء الموريسكيين وعدوا بإضرام نار الثورة ، وتقديم عدد كبير من الجند ، ولم يطلبوا سوى السلاح ، وكان من المنتظر أن تقوم الثورة الموريسكية فى سنة ١٦٠٥ ، ولكن المؤامرة اكتشفت فى الوقت المناسب ، وانهار مشروع الغزو . وهذه الروايات العديدة التى جمعها « ديوان التحقيق » الإسبانى على يد أعوانه وجواسيسه ، تنقصها الأدلة التاريخية الحقة(١) .

على أن الخطر الحقيقى ، كان يتمثل فى غارات المجاهدين من خوارج البحر المسلمين ، على الثغور والشواطىء الإسبانية . وتملأ سير هذه الغارات فراغاً كبيراً فى الرواية الإسبانية ، وتسبغ عليها الرواية صفة الإنتقام للأندلس الشهيدة . وقد لبثت هذه الغارات طوال القرن السادس عشر ، واستمرت دهراً بعد إخراج العرب المتنصرين من اسبانيا . ويشير المقرى مؤرخ الأندلس إلى مغزى هذه الغارات البحرية بعد إخراج الموريسكيين ، فيقول إنهم انتظموا فى جيش سلطان المغرب ، وسكنوا سلا وكان منهم من الجهاد فى البحر ما هو مشهور الآن(٢) .

ويجب أن نذكر أن مياه البحر المتوسط شرقه وغربه ، كانت خلال العصور الوسطى ، دائماً مسرحاً سهلا للأساطيل الإسلامية . فمنذ أيام الأغالبة والفاطميين ، ومنذ خلافة قرطبة ثم المرابطين والموحدين ، كانت الأساطيل الإسلامية تجوس أواسط هذا البحر وغربيه ، وكانت الدول الإسلامية الأندلسية والمغربية ، ترتبط مع الدول النصرانية الواقعة فى شمال هذا البحر ، مثل البندقية وجنوة وبيزة ، بمعاهدات ومبادلات تجارية هامة ،وكان التسامح يسود يومئذ علائق المسلمين والنصارى ، وتغلب المصالح التجارية والمعاملات المنظمة ، على النزعات الدينية والمذهبية .

وقد كانت المغامرات البحرية الحرة وأعمال «القرصنة» ، توجد فى هذه العصور دائماً : إلى جانب نشاط الأساطيل الرسمية . وكان البحر المتوسط منذ أقدم العصور مسرحاً لهذه المغامرات ، وكان معظم خوارج البحر (القراصنة) يومئذ من النصارى ، من الأمم التى غزت البحر فى عصور متقدمة ، مثل اليونان وأهل سردانية وجنوة ومالطة . وفى أيام الصليبيين ازدهرت المغامرات فى البحر المتوسط ،

(١) **Dr. Lea : The Moriscos; p. 281 - 284 & 286 - 288**

(٢) نفح الطيب ج ٢ ص ٦١٧ . وقد أنجز المقرى كتابه سنة ١٦٣٠ .

واستمر النصارى عصوراً زعماء هذه المهنة. ولم تكن ثمة بحريات منظمة تقوم بمطاردة أولئك الخوارج. وكانت المغانم الوفيرة من الإتجار فى الرقيق، والبضائع المهربة، وافتداء الرقيق، تذكى عزمهم، وتدفع إليهم بسيل من المغامرين من سائر الأمم، ولما ظهرت الأساطيل الكبرى منذ القرن الرابع عشر، ضعف أمر أولئك المغامرين. ولم تكن هذه المياه خلوا من نشاط المغامرين المسلمين، ولكنهم لم يظهروا فى هذا الميدان إلا منذ القرن الخامس عشر، حينما ضعف أمر الأندلس والدول المغربية وسادتها الفوضى، واضطربت العلائق البحرية والتجارية المنظمة بين دول المغرب والدول النصرانية. وكانت الشواطىء المغربية تقدم إليهم المراسى الصالحة. ولما اشتد ساعد البحرية التركية بعد استيلاء الترك على قسطنطينية، زاد نشاط المغامرين المسلمين فى البحر. وكان سقوط غرناطة واضطهاد الإسبان للمسلمين، ايذاناً بتطور هذه المغامرات البحرية، ونزول الأندلسيين والموريسكيين المنفيين إلى ميدانها واتخاذها مدى حين صورة الجهاد والإنتقام القومى والدينى، لما نزل بالأمة الأندلسية الشهيدة من ضروب العسف والإرهاق(1).

وقد بدأت هذه الغارات البحرية على الشواطىء الإسبانية، عقب استيلاء الإسبان على غرناطة، وأكراههم للمسلمين على التنصر. فى ذلك الحين غادر الأندلس آلاف من الأندلسيين المجاهدين، أنفوا العيش فى الوطن القديم، فى مهاد الذلة والاضطهاد، تحت نير الإسبان، وعبروا البحر إلى عدوة المغرب، وقلوبهم تفيض حقداً ويأساً، واستقروا فى بعض القواعد الساحلية، مثل وهران والجزائر وبجاية، ووهب الكثيرون منهم حياتهم للجهاد فى سبيل الله، والانتقام من أولئك الذين قضوا على وطنهم، وظلموا أمتهم، وانتهكوا حرمة دينهم. وكان البحر يهيىء لهم هذه الفرصة، التى لم تهيؤها لهم الحرب البرية. وكانت شواطىء المغرب بطبيعتها الوعرة، وثغورها ومراسيها وخلجانها الكثيرة، التى تحميها وتحجبها الصخور العالية، أصلح ملاذ لمشاريع أولئك البحارة المجاهدين والقراصنة المغيرين. وكانت الجزائر وبجاية وتونس أفضل قواعدهم للرسو والإقلاع، وكانت هذه الغارات البحرية تعتمد بالأخص على عنصر المفاجأة، وتنجح فى معظم الأحيان فى تحقيق غاياتها.

ويصف بيترومارتيرى هذه الغارات بإسهاب ويقول إن فرناندو الخامس أمر فى سنة ١٥٠٧، للتحوط ضد هذه الغارات بإخلاء الشاطىء الجنوبى، من جبل طارق

Lane - Poole : The Barbary Corsairs p. 26 & 27 (1)

إلى ألمرية ، لمدى فرسخين إلى الداخل . ثم صدرت مراسم متعددة تحظر على الموريسكيين السفر على أبعاد معينة من الشواطىء ، ولكن هذا التحوط لم يغن شيئاً واستمرت الغارات على حالها . وكان اللوم يلقى فى ذلك منذ البداية على الموريسكيين ولاسيما أهل بلنسية . وكان الموريسكيون كلما اشتدت عليهم وطأة الاضطهاد والمطاردة، اتجهوا إلى إخوانهم فى المغرب، يستصرخونهم للتدخل والانتقام . وكان المجاهدون المغاربة ، يغيرون فى سفنهم على الشواطىء الإسبانية، ويخطفون النصارى الإسبان ، ويجعلونهم رقيقاً يباع فى أسواق المغرب ، وكان الموريسكيون يزودون الحملات المغيرة بالمعلومات الوثيقة ، عن أحوال الشواطىء ومواضع الضعف فيها ويمدونها بالأقوات والمؤن . وكانت هذه الحملات تجهز فى أحيان كثيرة لنقل الموريسكيين الراغبين فى الهجرة ، وقد استطاعت خلال القرن السادس عشر ، أن تنقل منهم إلى الشواطىء الإفريقية جماعات كبيرة .

وقد ظهر منذ أوائل القرن السادس عشر فى الميدان ، عنصر جديد أذكى موجة الغارات البحرية فى هذه المياه . ذلك أن البحارة الترك، وعلى رأسهم الأخوان الشهيران أوروج (عروج) وخير الدين[1]، اندفعوا من شرقى البحر المتوسط إلى غربيه ، فى طلب المغامرة والكسب . وفى سنة ١٥١٧ سار أوروج فى قوة برية وبعض السفن إلى الجزائر واستولى عليها . ولما قتل فى العام التالى فى معركة نشبت بينه وبين الإسبان ، استولى أخوه خير الدين على الجزائر ، ثم استولى على معظم الثغور المغربية الساحلية، وعينه السلطان سليم حاكماً على هذه الأنحاء، وأمده بالسفن والجند . وتألق نجم خير الدين من ذلك الحين ، وأضحى اسمه يقرن بذكر أعظم أمراء البحر فى هذا العصر . وكان من معاونيه نخبة من أمهر الربابنة الترك ، مثل طرغود الذى خلفه فى الرياسة فيما بعد ، وصالح ريس ، وسنان اليهودى ، وإيدين ريس وغيرهم من المغامرين ، الذين اشتهروا بالجرأة والبراعة . وبسط أولئك البحارة الترك سلطانهم على معظم جنبات البحر المتوسط ، واشتهروا بغاراتهم على الشواطىء الإيطالية والإسبانية ، والتف حولهم معظم المجاهدين والمغامرين من

---

(١) ويعرف كلاهما فى الرواية الأوربية « بارباروسا » أو ذو اللحية الحمراء . وقد انتهى إلينا عن مغامرات هذين الأخوين الشهيرين وغاراتهما البحرية كتاب بالعربية منقول عن أصل تركى ، نشر فى الجزائر سنة ١٩٣٤ بعنوان « غزوات عروج وخير الدين » . والظاهر أنه من تأليف راوية معاصر أو قريب من العصر .

المغاربة والموريسكيين . وبدأ خير الدين غاراته فى المياه الإسبانية بمهاجمة الشواطىء الشرقية ، وقطع خلال هذه الغارة ثلاثة أشهر عاث فيها فى البقاع الساحلية ، وجمع فى سفنه كثيراً من الموريسكيين الراغبين فى الهجرة ، وأسر كثيراً من الإسبان . وعرج أثناء عوده على جزيرة منورقة . وكان من أهم الغارات التى نظمها خير الدين على الشواطىء الإسبانية غارة وقعت فى سنة ١٥٢٩ ؛ وذلك أن جماعة من الموريسكيين فى بلنسية فاوضوه لكى ينقلهم خلسة إلى عدوة المغرب ، فأرسل عدة سفن بقيادة نائبيه إيدين ريس ، وصالح ريس ، إلى المياه الإسبانية ، ورست السفن المغيرة ليلا عند أوليفا الواقعة شمال غربى دانية أمام مصب نهر « ألتيا » ، ونزلت منها إلى البر قوة استطاعت أن تجمع من الأنحاء المجاورة نحو ستمائة من الموريسكيين الراغبين فى الهجرة ، وهنا فاجأت السفن المغيرة عدة من السفن الإسبانية الكبيرة ، وطاردتها حتى مياه الجزائر الشرقية (البليار) . ولكن سفن « القراصنة » انقلبت فجأة من الدفاع إلى الهجوم ، وانقضت على السفن الإسبانية وأغرقت بعضها ، وأسرت البعض الآخر ، وسارت سالمة إلى الجزائر تحمل الموريسكيين الفارين ، وعدداً من أكابر الإسبان أخذوا أسرى ، ومعها عدة من السفن الإسبانية الفخمة . وكان صريخ الموريسكيين يتوالى إلى خير الدين وحلفائه من أمراء المغرب ولاسيما أيام الثورات المحلية التى تشتد فيها وطأة الإسبان على الأمة المغلوبة ، ومن ثم فقد توالت بعوث خير الدين وغاراته على الشواطىء الإسبانية ، وتتابعت الفرص لدى الموريسكيين ، للفرار والهجرة رفق السفن المغيرة ، حتى بلغ ما نقلته سفن خير الدين منهم إلى شواطىء المغرب نحو سبعين ألفا[1] .

وكان سلطان خير الدين وزملائه البحارة الترك فى المياه المغربية عاملا فى تحطيم كثير من مشاريع اسبانيا البحرية فى المغرب . وكان الإسبان قد استولوا على ثغر وهران منذ سنة ١٥٠٥ ، واحتلوا مياه تونس سنة ١٥٣٥ ، بانضواء أميرها الحفصى المعزول تحت لوائهم ، وكان كثير من أمراء الثغور والقواعد المغربية الذين يهدد الترك سلطانهم يتجهون بأبصارهم إلى الإسبان للاحتفاظ برياستهم . ولدينا

---

(١) راجع كتاب الأستاذ لاين پول **The Barbary Corsairs** فى الفصول الأول والثانى والثالث ، حيثما يورد كثيراً من التفاصيل الشائقة ، عن هذه الغارات البحرية ، وعن مغامرات أوروج وخير الدين . وراجع كتاب « غزوات عروج وخير الدين » الذى سبقت الإشارة إليه ص ١٩ و ٤٨ و ٨١ و ٨٢ .



أمير البحر خير الدين

عن صورة بلاثكيث المحفوظة بمتحف البرادو بمدريد ، وهى صورة رائعة بالحجم الطبيعى ، وفيها يبدو خير الدين مرتدياً ثوباً طويلا أحمر ، وعباءة بيضاء ، وقلنسوة صغيرة حمراء ، وله شارب طويل أشهب .

صور من علة وثائق موجهة من هؤلاء الأمراء إلى الإمبراطور شرلكان ، يستنصرون به ، ويقطعون العهد على أنفسهم بطاعته ، والانضواء تحت حمايته ، وهى تدلى بموضوعها وأسلوبها بما انتهت إليه الجبهة الإسلامية فى المغرب فى هذا العهد من التخاذل والتفرق المؤلم[١] .

وفى سنة ١٥٥٩ قام أمير البحر التركى طرغود ، الذى خلف خير الدين فى الرياسة ، بغارة كبيرة على الشواطىء الإسبانية ، واستطاع أن يحمل معه ألفى وخمسمائة موريسكى ؛ وفى سنة ١٥٧٠ ، استطاعت السفن المغيرة أن تحمل معها جميع الموريسكيين فى بالميرا . وفى سنة ١٥٨٤ سار أسطول من الجزائر إلى ثغر بلنسية وحمل ألفين وثلاثمائة . وفى العام التالى استطاعت السفن المغيرة أن تحمل جميع سكان مدينة كالوسا . وبلغت الغارات البحرية التى وقعت على الشواطىء الإسبانية بين سنتى ١٥٢٨ و١٥٨٤ ثلاثاً وثلاثين . هذا عدا الغارات المحلية التى كانت تقوم بها سفن صغيرة لحمل جماعات من الموريسكيين المهاجرين . وقد وصف لنا الكاتب الإسبانى الكبير ثرفانتيس هذه الغارات البحرية المروعة فى صور مثيرة شائقة ، ولا غرو فقد كان هو أيضاً من ضحاياها ، إذ أسر فى الغارات التى وقعت سنة ١٥٧٥ ، وحمل أسيراً إلى الجزائر ، ولبث يرسف فى أسره بضعة أعوام حتى تم افتداؤه فى سنة ١٥٨٠[٢] .

وكان ممن عملوا فى الجهاد فى البحر فى ذلك الحين ضد الإسبان بعض أكابر الزعماء الموريسكيين المنفيين الذين غدوا من أثر الاضطهاد من ألد أعداء اسبانيا مثل الريس بلانكيو Blanquillo ، والريس أحمد أبو على من أشونية ، ومراد الكبير جواديانو من مدينة ثيوداد ريال (المدينة الملكية) وغيرهم . وقد أبلى هؤلاء

---

(١) حصلنا على مجموعة من هذه الوثائق من دار المحفوظات الإسبانية العامة Arch.gen. de Simancas ومنها وثيقة هى عبارة عن اتفاق معقود بين أبى عبد الله محمد الحسن سلطان تونس والإمبراطور شرلكان بتاريخ ١٢ صفر سنة ٩٤٢هـ (١٣ أغسطس سنة ١٥٣٥) يتعهد فيه السلطان بتسليم مدينة بونه للإمبراطور شرلكان بشروط معينة ويحمل توقيعهما . وخطاب كتبه السلطان المذكور إلى الإمبراطور بتاريخ ذى الحجة سنة ٩٤٢ (١٥٣٥) يحدثه فيه عن شئون قصبة بونة . وخطاب من أبى عبد الله المتوكل أمير تلمسان إلى السلطانة الإنبرطريس (الإمبراطورة) دونيا إيزابيل (زوجة الإمبراطور شرلكان) مؤرخ فى سنة ٩٣٩هـ (١٥٣٢) ، وخطاب من أبى عبد الله محمد بن القاضى صاحب حصن كوكو بالمغرب الأوسط إلى الإمبراطور مؤرخ سنة ٩٤٩ هـ (١٥٤٢م) يستحثه فيه لقتال الترك وإراحة الناس منهم ... الخ .

(٢) Dr. Lea : History of the Inquisition in Spain ; V. III. p. 368

الزعماء الموريسكيون فى البحر خير بلاء ، وكانوا خير مرشد لإحكام الغارات البحرية على الشواطىء الإسبانية ، ومضاعفة عصفها وعيثها .

ووقعت فى سنة ١٦٠٢ غارة كبيرة ، قام بها بحار مغامر يدعى مراد الريس على مدينة لورقة الواقعة غرب قرطاجنة على مقربة من الشاطىء ، وحمل عدداً من الأسرى . وكثرت الغارات فى الأعوام التالية على الشاطىء الجنوبى ، وظهر فيها بعد أن منظمها بحار إنجليزى مغامر ، يحشد فى سفنه نواتية من المغاربة ، وكان يعيث فى الشواطىء الأندلسية ويقتنص الأسرى النصارى ، ويبيعهم عبيداً فى أسواق المغرب .

وكانت ثغور تونس فى ذلك الوقت نفسه ، فى أيام حاكمها عثمان داى (سنة ١٠٠٧ — ١٠١٩هـ ١٥٩٨ — ١٦١٠ م) ، ملاذاً لطائفة قوية من البحارة المغامرين ، كانت تتكرر غاراتهم على الشواطىء الإسبانية بلا انقطاع . وكان من أشهر أولئك البحارة المغامرين يومئذ ، عمر محمد باى الذى اشتهر بجرأته وبراعته ، وقد قام بعدة غارات جريئة على شواطىء اسبانيا الجنوبية ، وكان فى كل مرة يعود مثقلا بالغنائم والسبى[1] .

وهكذا لبثت الغارات البحرية عصراً ، تزعج الحكومة الإسبانية ، وقد زاد عددها واشتد عيثها ، بالأخص منذ منتصف القرن السادس عشر ؛ وكان هذا غريباً فى الواقع ، إذ كانت اسبانيا يومئذ سيدة البحار ، وكانت أساطيلها الضخمة ، تجوب مياه الأطلنطيق حتى بحر الشمال وجزائر الهند الغربية ، وتسيطر على مياه البحر المتوسط الغربية . بيد أنها لم تستطع أن تقمع هذه الغارات الصغيرة المفاجئة ، التى كانت يقوم بها على الأغلب جماعات مجاهدة ، من القراصنة المغاربة ، فى سفن صغيرة ، تدفعهم روح من المغامرة والاستبسال ، وكان اللوم يلقى فى ذلك دائماً على الموريسكيين ، ولاسيما سكان الثغور منهم ، فهم الذين يمدون هذه الحملات المغيرة بالمعلومات ، ويزودونها بالمؤن والعون ، ويعينون لها موضع الرسو والإقلاع ؛ وقد كانت تأتى على الأغلب لمعاونتهم على الفرار إلى ثغور المغرب ، وقد كان الموريكسيون بالرغم من اضطهادهم ، والتشدد فى مراقبتهم ، على اتصال دائم بمسلمى إفريقية وأمراء المغرب جميعاً .

لبثت هذه الغارات البحرية عصراً شغلا شاغلا للحكومة الإسبانية لا تجد سبيلا إلى قمعها أو التخلص من آثارها . وكان اقترانها خلال القرن السادس عشر بنضال

---

(١) كتاب المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس ص ١٩٢ .

الموريسكيين ، عنصراً بارزاً فى تنظيمها وتوجيهها ، وكانت فكرة الانتقام للأمة الشهيدة ، تجثم فى معظم الأحيان وراء هذه الغارات المخربة . ولما تم نفى الموريسكيين من الأراضى الإسبانية حسبما نفصل بعد ، زادت هذه الفكرة وضوحاً واشتدت وطأة الغارات ، بما انتظم فى صفوف المجاهدين من المنفيين ، وغدت سلا بالأخص بمرفئها البديع ، الذى تحميه الخلجان المحجوبة مركزاً لأولئك المجاهدين ، ومنها توجه أقوى الحملات المغيرة على الشواطىء الإسبانية(١) .

ولبث البحارة الترك عصراً ، يتزعمون هذه الغارات البحرية ، وجل اعتمادهم على النواتية المغامرين من المغاربة والموريسكيين ؛ ثم أخذت هذه الغارات تفقد مغزاها القديم بمضى الزمن ، وتنقلب إلى حملات ناهبة ، تنظم على الشواطىء الإيطالية كما تنظم على الشواطىء الإسبانية ، وترمى قبل كل شىء إلى تغذية أسواق المغرب والشرق الأدنى ، بأسراب الرقيق . وكان يشترك مع البحارة الترك والمغاربة مغامرون من الإفرنج من سائر الأمم . وألفى الباشوات أو الدايات الترك ، الذين بسطوا حكمهم منذ أواخر القرن السادس عشر على طرابلس وتونس والجزائر ، فى هذه الحملات الناهبة ، فرصة سانحة للغنم ، فكانوا يمدون الرؤساء والزعماء بصنوف العون ، عند الحط والإقلاع فى ثغورهم ، وكان الرؤساء من جانبهم ، يقدمون إلى خزينة الباشا أو الداى عشر الغنائم . واسترق بهذه الطريقة عشرات الألوف من النصارى ، واستمرت هذه الغارات بعد ذلك زمناً طويلا(٢) .

وحدثت فى تلك الآونة التى اشتدت فيها الغارات البحرية على الشواطىء الإسبانية ، فى أوائل عهد فيليب الثالث ، فى عدوة المغرب أحداث أخرى ، زادت فى توجس السياسة الإسبانية ، من مساعى الموريسكيين فى استعداء مسلمى إفريقية. وذلك أنه على أثر وفاة السلطان أحمد المنصور ملك المغرب فى سنة ١٠١٢ هـ (١٦٠٣ م) اضطرمت الحرب الأهلية بين أبنائه الثلاثة ، أبى عبد الله المأمون المعروف بالشيخ ، وكان ولى عهده الذى اختاره للملك من بعده ،

---

(١) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ٦١٧ .

(٢) استمرت غارات القراصنة فى البحر المتوسط طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وكانت بعض الدول الأوربية تعمل على تشجيعها لمضايقة البعض الآخر ، والإضرار بتجارتها . ومنذ القرن السابع عشر تعمل انجلترا وهولندة وفرنسا على مقاومة هذه الحملات البحرية الجريئة والقضاء عليها ، وذلك بمهاجمة الشواطىء المغربية وتدمير ثغورها ، ولا سيما تونس والجزائر . على أنها لم تنقطع نهائياً إلا بعد أن غزت فرنسا الجزائر واستولت عليها فى سنة ١٨٣٠ .

وأبى فارس الملقب بالواثق بالله ، ومولاى زيدان . وكان أعيان فاس وعلماؤها ، قد بايعوا عقب وفاة المنصور ، لولده زيدان ، وبايع أهل مراكش لولده أبى فارس ولكن معركة نشبت بين زيدان وأخيه الشيخ ، انتهت بهزيمة زيدان ، واستيلاء الشيخ على فاس . ثم نشبت بعد ذلك بين الأبناء الثلاثة سلسلة من المعارك الأهلية المتوالية ، كانت سجالا بينهم ، وهزم خلالها مولاى زيدان غير مرة ، ودخل العاصمة مراكش غير مرة . واستمرت هذه الحرب الأهلية ، بضع سنوات (١٠١٢ — ١٠١٦ هـ) ، وانتهت آخر الأمر ، بانتصار مولاى زيدان واستيلائه على الملك ، ومقتل أخيه أبى فارس ، وفرار الشيخ فى أهله وولده . ولكن الشيخ لم يستكن للهزيمة ، بل فكر فى الاستنصار بالإسبان ، فعبر البحر مع أسرته وأمه الخيزران إلى اسبانيا ، واستغاث بملكها فيليب الثالث ، وتعهد بأن يقدم ثغر العرائش إلى اسبانيا نظير معاونته على استرداد عرشه . وكان ذلك فى أوائل سنة ١٦٠٨ (١٠١٧ هـ)[١] . وهنا أرسل الموريسكيون فى بلنسية ، رسلهم إلى مولاى زيدان ، يوضحون له سهولة غزو اسبانيا ومحاربتها ، وأنهم على استعداد لأن يقدموا له مائتى ألف مقاتل ، متى أقدم على الغزو واحتلال أحد الثغور الإسبانية الهامة ؛ ولكن السلطان زيدان لم يحفل بهذا العرض ، وأجاب الرسل بأنه لن يحارب خارج بلاده[٢] . واستجاب فيليب الثالث لدعوة الشيخ ، وأرسل معه بعض قواته وسفنه إلى شاطىء المغرب ، فنزل الشيخ وحلفاؤه الإسبان أولا فى حجر باديس ، غربى مليلة وذلك فى رمضان سنة ١٠١٩ هـ (أوائل سنة ١٦١٠م) ، ثم انتقل فى صحبه إلى قصر عبد الكريم (القصر الكبير) ، وبعث سرية من رجاله ، فقامت بإخلاء العرائش من أهلها المسلمين قسرا ، وبعد مقاومة عنيفة ، وسلمتها إلى الإسبان ، تحقيقاً لتعهد الشيخ . وحاول الشيخ أن يعتذر عن تصرفه بأن الإسبان ، احتجزوا أهله وولده ، وأنه فعل ذلك فى سبيل افتدائهم ، واستصدر فتوى بشرعية تصرفه من بعض العلماء . ولكن ذلك لم يغنه شيئاً ، واشتد السخط عليه ، وانفض عنه كثير من أنصاره . ثم سار الشيخ فى قواته إلى تطاون (تيطوان) ، وأخذ يعيث فسادا فى تلك المنطقة ، وما زال فى

---

(١) كتاب نزهة الحادى بأخبار ملوك القرن الحادى لأبى عبد الله اليفرنى (طبع فاس) ص ١٦٢ — ١٦٧ ، وراجع الإستقصاء ج ٣ ص ١٠٢ .

(٢) Dr. Lea : The Moriscos ; p. 289-290

مغامراته حتّى تصدى له بعض زعماء غمارة وقتلوه على مقربة من تطاون ، وذلك في رجب سنة ١٠٢٢ هـ (١٦١٣ م) ، وانتهى بذلك أمره ، وتوطد بذلك مركز مولاى زيدان ، وتمكن عرشه ، وإن كان قد لبث بعد ذلك حيناً فى مقارعة الخوارج عليه من أبناء الشيخ وغيرهم[1] . واستمر السلطان زيدان حتّى وفاته فى سنة ١٠٣٧ هـ (١٦٢٧ م) أعنى بعد نفى الموريسكيين بنحو تسعة عشر عاماً ، فى كفاح دائم مع اسبانيا . وحدث خلال هذا الكفاح ذات مرة فى سنة ١٦١٢ م ، أن غنمت السفن الإسبانية فى مياه المغرب على شاطىء الأطلنطى فيما بين آسفى وأغادير ، مركباً لمولاى زيدان شحنت بالتحف ، وبها ثلاث آلاف سفر من كتب الدين والأدب والفلسفة[2] ، وكان مولاى زيدان قد غادر مراكش تحت ضغط الحوادث ، وركب البحر ماتجئاً إلى الجنوب وحمل معه مكتبته الثمينة وتحفه ، فانتهبها الإسبان على هذا النحو ، وحملت هذه الكتب إلى اسبانيا ، وضمت فيما بعد إلى مجموعة الكتب الأندلسية بقصر الإسكوريال .

---

(١) نزهة الحادى بأخبار ملوك القرن الحادى ص ١٦٨ و ١٦٩ . وراجع الاستقصاء ج ٣ ص ١٠٦ .

(٢) الإستقصاء ج ٣ ص ١٣٠ .

الفصل الثانى

مأســاة النــفى

قضية الموريسكين مشكلة قومية لإسبانيا . استحالة العرب المتنصرين إلى شعب جديد . تشعب الآراء حول التخلص منهم . ولاية فيليب الثالث . مشروع دوق دى ليرما القضاء على الموريسكين . تقرير المطران ريبرا ومقترحاته . مجلس الدولة يبحث مشروع نفى الموريسكين . مقترحات الهيئة الملكية . قرار مجلس الدولة . الإستعداد للتنفيذ . صدور مرسوم النفى النهائى . ما يحتويه المرسوم من الأحكام . موقف الموريسكين . تظلم المدجنين . بدء التنفيذ فى بلنسية . الرحيل إلى وهران وتلمسان . المنفيون من لقنت . مقاومة الموريسكين فى بعض الأنحاء . إعلان قرار النفى فى قشتالة . إحصاءات عن المنفيين . إعلان قرار النفى فى غرناطة . إعلانه فى باقى الجهات . تفرق المنفيين فى مختلف الثغور . الإعتداء على المنفيين . عدد الموريسكين الذين أخرجوا من اسبانيا . رواية موريسكية عن أحوال الموريسكين وظروف النفى . رواية المقرى عن مأساة النفى . روايات عربية أخرى . آثار الموريسكين الأخيرة فى اسبانيا .

تلك هى البواعث والظروف التى حملت اسبانيا النصرانية ، على التوجس من العرب المتنصرين ، واعتبارهم خطراً قومياً يجب العمل على درئه والتخلص منه . وكان هذا التوجس يزيد على كر الأعوام ، وتذكيه الحوادث المتوالية : ثورات الموريسكين ولاسيما ثورة غرناطة الكبرى ، وغارات القراصنة على الشواطىء الإسبانية ، وصلات الموريسكين الدائمة بمسلمى إفريقية وبلاط قسطنطينية ؛ وسواء أكان هذا الخطر حقيقياً يهدد سلامة اسبانيا ، أم كان للتحامل والبغض أثر فى تصويره ، فقد غدت قضية العرب المتنصرين ، غير بعيد فى نظر السياسة الإسبانية ، مشكلة قومية خطيرة يجب التذرع لمعالجتها بأشد الوسائل وأنجعها .

وكانت السياسة الإسبانية ، تعتزم منذ أواخر عهد فيليب الثانى ، أن تتخذ خطوتها الحاسمة ، فى شأن الموريسكين . وكان هذا الملك المتعصب يعتزم نفى الموريسكين بعد الذى عانته اسبانيا فى قمع ثورتهم ، ووضع بالفعل فى سنة ١٥٨٢ مشروعاً لنفيهم ، ولكن مشاغل السياسة الخارجية حالت دون تحقيق مشروعه . وكان قد مضى يومئذ زهاء قرن على سقوط غرناطة ، واستحالت بقية الأمة الأندلسية إلى شعب جديد ، لا تكاد تربطه بالماضى المجيد سوى ذكريات

غامضة . وكان التنصر قد عم الموريسكيين يومئذ ، وغدا أبناء قريش ومضر بحكم القوة والإرهاق ، نصارى يشهدون القداس فى الكنائس ، ويتكلمون ويكتبون القشتالية ؛ غير أنهم لبثوا مع ذلك فى معزل ، وأبت اسبانيا النصرانية ، بعد أن فرضت عليهم دينها ولغتها ومدنيتها ، أن تضمهم إلى حظيرتها القومية . وكانت ما تزال ثمة منهم جموع كبيرة فى بلنسية ومرسية وغرناطة ، وغيرها من القواعد الأندلسية القديمة، وكانوا مايزالون رغم العسف والإرهاق، والاضطهاد والتشريد والذلة، قوة أدبية واجتماعية خطيرة، وعنصراً بارزاً فى إنتاج اسبانيا القومى ،ولاسيما فى الصناعات والفنون . ولكن السياسة الإسبانية كانت تخشاهم بالرغم من ضعفهم وخضوعهم ، بعد أن فشلت بوسائلها الهمجية البغيضة فى كسب محبتهم وولائهم . وكان ديوان التحقيق من جهة أخرى ، ومن ورائه الأحبار والكنيسة ، يعتبرهم بالرغم من تنصرهم، أبدا وصمة فى نقاء النصرانية ، ويتصور الإسلام دائماً يجرى كالدم فى عروقهم .

وقد تضاربت آراء الساسة والأحبار الإسبان ، فى شأن الخطوة الحاسمة التى يجب اتخاذها ، للقضاء على خطر الموريسكيين . ورأى بعض أكابر الأحبار أن خطر الموريسكيين لا يزول إلا بالقضاء على الموريسكيين أنفسهم . وكان مما اقترحه المطران ريبرا أن يقضى عليهم بالرق ، وأن يؤخذ منهم كل عام بضعة آلاف للعمل فى السفن ومناجم الهند ، حتى يتم إفناؤهم بهذه الطريقة ، وذهب البعض الآخر إلى وجوب قتل الموريسكيين دفعة واحدة، أو قتل البالغين منهم، واسترقاق الباقين وبيعهم عبيداً ، وكان مما اقترحه بعض وزراء فيليب الثانى أن يجمع الموريكسيون ، ويحملوا على السفن ثم يغرقوا فى عرض البحر[1] . واستمرت السياسة الإسبانية حينا تتلمس المخرج وسط هذه الحلول الهمجية ، حتى توفى فيليب الثانى (سنة ١٥٩٨) وخلفه ولده فيليب الثالث. وكان هذا الملك الفتى ، ضعيف الرأى والإرادة، يتأثر كأبيه بنفوذ الأحبار ، ويخضع لوحى وزيره وصفيه الدوق دى لرما . وكان الدوق من أشد أنصار فكرة القضاء على الموريسكيين، وقد أشار بها منذ سنة ١٥٩٩، ووضع لتنفيذها مشروعاً ، خلاصته أن الموريسكيين إنما هم عرب ، ويجب أن يعدم الشبان والكهول منهم، ما بين الخامسة عشرة والستين، أو أن يسترقوا ويرسلوا للعمل فى السفن ، وتنزع أملاكهم . أما الرجال والنساء الذين جاوزوا الستين ،

---

(١) Dr. Lea : The Moriscos, p. 296-299

فينفوا إلى المغرب ، وأما الأطفال فيؤخذوا ويربوا فى المعاهد الدينية ، وهو مشروع أقره مجلس الدولة ، وأخذ يعمل سراً لحشد القوى اللازمة لحصر عدد الموريسكيين فى اسبانيا .

وفى سنة ١٦٠١ قدم المطران ربيرا إلى الملك ، تقريراً يقول فيه إن الدين هو دعامة المملكة الإسبانية ، « وإن الموريسكيين لا يعترفون ، ولا يتقبلون البركة ولا الواجبات الدينية الأخيرة ، ولا يأكلون لحم الخنزير ، ولا يشربون النبيذ ، ولايعملون شيئاً من الأمور التى يعملها النصارى » ثم يوضح الأسباب التى تدعو إلى عدم الثقة فى ولائهم بقوله : « إن هذا المروق العام لا يرجع إلى مسألة العقيدة ، ولكنه يرجع إلى العزم الراسخ فى أن يبقوا مسلمين ، كما كان آباؤهم وأجدادهم ، ويعرف المحققون العامون أن الموريسكيين بعد أن يعتقلوا عامين وثلاثة وتشرح لهم العقيدة فى كل مناسبة ، يخرجون دون أن يعرفوا كلمة منها . والخلاصة أنهم لا يعرفون العقيدة ، لأنهم لا يريدون معرفتها ، ولأنهم لا يريدون أن يعملوا شيئاً يجعلهم يبدون نصارى »[١] ، ثم يقول المطران فى تقرير آخر ، إن الموريسكيين كفرة متعنتون يستحقون القتل ، وإن كل وسيلة للرفق بهم قد فشلت ، وإن اسبانيا تتعرض من جراء وجودهم فيها ، إلى أخطار كثيرة ، وتتكبد فى رقابتهم ، والسهر على حركاتهم ، وإخماد ثوراتهم ، كثيراً من الرجال والمال . ثم يقترح أن تؤلف محكمة سرية من الأحبار ، تقضى بردة الموريسكيين وخياناتهم ، ثم تحكم علناً بوجوب نفيهم ومصادرة أملاكهم ، وأنه لا ضير على الملك فى ذلك ولاحرج . ولكن مشروع المطران لم ينفذ ، لأن مجلس الدولة كان يرى أن يسير فى تحقيق غايته سراً ، وألا تصطبغ إجراءاته فى ذلك بالصبغة الدينية .

ومضت بضعة أعوام أخرى ، والفكرة تبحث وتختمر وتتوطد ، حتى كانت حوادث المغرب فى أواخر سنة ١٦٠٧ ، وما نسب للموريسكيين من صلة بمولاى زيدان ومشاريعه لغزو اسبانيا ، وعزمهم على الثورة . عندئذ بادر مجلس الدولة بالاجتماع فى أواخر يناير سنة ١٦٠٨ ، واستعرضت جميع الآراء والمشاريع السابقة ، وبحثت جميع الاقتراحات ؛ وكرر المطران ربيرا اقتراحه بوجوب نفى الموريسكيين إلى المغرب ، وقال بأن النفى أرفق ما يمكن عمله ، وأيد رأيه معظم الأعضاء الآخرين وذكروا أن نفى الموريسكيين أصبح ضرورة لا مفر منها ، لأنهم يتكاثرون بسرعة ،

---

(١) P. Longás : Vida Religiosa de los Moriscos ; p. LXVIII

بينما يتناقص عدد النصارى القدماء . وبحثت تفاصيل المشروع ووسائله، وما يجب اتخاذه من التحوطات لضمان تنفيذه ، خصوصاً وقد بدأت أنباء المشروع تتسرب إلى الموريسكيين ، وظهرت بينهم أعراض الهياج فى سرقسطة وبلنسية . وكانت الخطوة التالية أن عُهد بدرس المشكل كله ، إلى لجنة خاصة على رأسها الدوق دى لرما ، ووضعت هذه اللجنة أسس المشروع التمهيدية بعد كبير جدل ؛ وخلاصتها أن يمنح الموريسكيون شهراً لبيع أملاكهم ومغادرة اسبانيا إلى حيث شاءوا ، فمن جاز منهم إلى إفريقية منح السفر الأمين، ومن جاز إلى أرض نصرانية أوصى به خيراً ، ومن تخلف عن الرحيل بعد انقضاء هذه المدة ، عوقب بالموت والمصادرة ؛ ولم يعترض أحد على هذه الأسس فى ذاتها ، على أن هذه الأسس الرفيقة نوعاً لم يؤخذ بها .

وفى يناير سنة ١٦٠٩ بحث مجلس الدولة المسألة لآخر مرة ، وقدم تقريراً ينصح فيه بوجوب نفى الموريسكيين ، لأسباب دينية وسياسية فصلها ، وأهمها تعرض اسبانيا يومئذ لخطر الغزو من مراكش وغيرها ، وقيام الأدلة على أن الموريسكيين جميعاً خونة مارقون، يستحقون الموت والرق، ولكن اسبانيا تؤثر الرفق بهم، وتكتفى بنفيهم من أراضيها . وتقرر أن ينفذ المشروع كله فى خريف هذا العام ، وأرسلت الأوامر إلى حكام صقلية ونابولى وميلان، بإعداد جميع السفن الممكنة لنقل الموريسكيين ، وجميع القوات اللازمة لحراستهم، واجتمعت منذ أوائل الصيف فى مياه ميورقة ، عشرات من السفن المطلوبة ، وسارت أهبة التنفيذ بسرعة ونشاط .

وهكذا انتهت السياسة الإسبانية بعد فترة من التردد، إلى اتخاذ خطوتها الحاسمة فى القضاء على البقية الباقية من الموريسكيين ، وتحقيق أمنيتها القديمة ،فى « تطهير » اسبانيا نهائياً من آثار الإسلام وآثار العرب ، ومحو تلك الصفحة الأخيرة لشعب عظيم تالد .

— ٢ —

وفى ٢٢سبتمبر سنة ١٦٠٩ أعلن قرار (مرسوم) النفى النهائى للموريسكيين أو العرب المتنصرين ، فساد بينهم الروع والاضطراب ، وإليك نصوص هذا القرار الشهير فى صحف المآسى والاستشهاد :

يبدأ القرار بالتنويه بخيانة الموريسكيين ، واتصالهم بأعداء اسبانيا ، وإخفاق كل الجهود التى بذلت لتنصيرهم ، وضمان ولائهم ، وما استقر عليه رأى الملك من نفيهم جميعاً إلى بلاد البربر (المغرب) . وبناء على ذلك فإنه يجب على جميع

الموريسكيين من الجنسين ، أن يرحلوا مع أولادهم، فى ظرف ثلاثة أيام من نشر هذا القرار، من المدن والقرى إلى الثغور التى يعينها لهم مأمورو الحكومة ، والموت عقوبة المخالفين ؛ وأن لهم أن يأخذوا من متاعهم ما يستطاع حمله على ظهورهم ، وأن السفن قد أعدت لنقلهم إلى بلاد المغرب ، وسوف تتكفل الحكومة بإطعامهم أثناء السفر ، ولكن عليهم أن يأخذوا ما استطاعوا من المؤن، وأنه يجب عليهم أن يبقوا خلال مهلة الأيام الثلاثة فى أماكنهم رهن إشارة المأمورين، ومن وجد متجولا بعد ذلك يكون عرضة للنهب والمحاكمة ، أو الإعدام فى حالة المقاومة . وقد منح الملك السادة كل الأملاك العقارية والأمتعة الشخصية التى لم تحمل ، فإذا عمد أحد إلى إخفاء الأمتعة أو دفنها ، أو أضرم النار فى المنازل أو المحاصيل ، عوقب جميع سكان الناحية بالموت . ونص القرار على استبقاء ستة فى المائة فقط من الموريسكيين للانتفاع بهم فى صون المنازل ، والعناية بمعامل السكر، ومحصول الأرز ، وتنظيم الرى ، وإرشاد السكان الجدد ، وهؤلاء يختارهم السادة ، من بين الأسر الأكثر خبرة وأشد ولاء للنصرانية . أما الأطفال فإذا كانوا دون الرابعة ، فإنه يسمح لهم بالبقاء إذا شاءوا (كذا) ورضى آباؤهم أو أولياؤهم ، وإذا كانوا دون السادسة ، سمح لهم بالبقاء إذا كانوا من أبناء النصارى القدماء ، (أعنى من غير العرب المتنصرين) ، وسمح كذلك بالبقاء لأمهم الموريسكية ؛ فإذا كان الأب موريسكياً والأم نصرانية أصيلة ، نفى الأب وبقى الأولاد الذين دون السادسة مع أمهم . كذلك يسمح بالبقاء للموريسكيين الذين أقاموا بين النصارى مدى عامين ، ولم يختلطوا « بالجماعة » إذا زكاهم القسس . وحظر القرار إخفاء الهاربين أو حمايتهم . ويعاقب المخالف بالأشغال الشاقة لمدة ستة أعوام . كذلك حظر على الجنود والنصارى القدماء ، أن يتعرضوا للموريسكيين أو يهينوهم بالقول أو الفعل ، وهدد المخالفون بالعقاب الصارم . وأخيراً نص على السماح لعشرة من الموريسكيين بالعودة عقب كل نقلة ، لكى يشرحوا لإخوانهم كيف تم النقل إلى المغرب على أحسن حال .

وقع قرار النفى على الموريسكيين وقع الصاعقة ، وسادهم الوجوم والذهول . وكان عصر الثورة والمقاومة قد ولى ، ونهكت قواهم ، ونضبت مواردهم. وكانت الحكومة الإسبانية قد اتخذت عدتها للطوارىء ، وحشدت قواتها فى جميع الأنحاء الموريسكية ، واجتمع زعماء الموريسكيين وفقهاؤهم فى بلنسية ، وقرروا أنه لا أمل فى المقاومة وأنه لا مناص من الخضوع ، واستقر الرأى على أن يرحلوا جميعاً ، وألا

يبقى منهم أحد ، حتى ولا نسبة الستة فى المائة التى سمح ببقائها ، وأن من بقى منهم اعتبر مرتداً مارقاً . ومع ذلك فقد وقعت ثورات محلية ، وتأهبت بعض الجماعات المحتشدة فى المناطق الجبلية للمقاومة ، وعاثت فى الأنحاء المجاورة ، ولكنها كانت فورة المحتضر ، فأخمدت حركاتهم بسرعة وقتل منهم عدد جم .

وتظلم كثير من المدجنين من قرار النفى ، وقالوا إنهم اعتنقوا النصرانية طوعاً قبل التنصير الإجبارى ، وغدوا نصارى واسبانيين قبل كل شىء ، فصدر الأمر إلى الأساقفة ببحث ظلاماتهم ، وأن يسمح بالبقاء لمن توفرت فيه منهم شروط الولاء والإخلاص (١) .

أما الكثرة الساحقة من الموريسكيين فقد هرعت إلى اتخاذ أهبة الرحيل ، وأخذوا فى بيع ما تيسر بيعه من المتاع ، وتدفقت السلع على الأسواق ، من الماشية والحبوب والسكر والعسل والملابس والأثاث وغيرها ، لتباع بأبخس الأثمان . وبدئ بتنفيذ قرار النفى فى الجهات التى نشر فيها أولا ، وهى أعمال بلنسية منذ أوائل أكتوبر (سنة ١٦٠٩) . وخرجت أول شحنة من هذه الكتلة البشرية المعذبة على سفن الحكومة من ثغر دانية وبعض الثغور القريبة ، وقدرت بثمانية وعشرين ألف نفس ، حملوا إلى ثغر وهران فى الضفة الأخرى من البحر ، وقد كان يومئذ بيد الإسبان ، ثم نقلوا إلى تلمسان بحماية فرقة من الجند المرتزقة ، وهناك استظلوا بحماية السلطان ؛ وعاد البعض منهم إلى اسبانيا ليروى عن رحيل الراحلين ، وكيف وصلوا فى أمن وسلام . ومع ذلك فقد آثر معظم المهاجرين السفر بأجر ، على سفن غير التى عينتها الحكومة ، لنقل المهاجرين وإطعامهم دون أجر ؛ واضطرت الحكومة تلقاء ذلك ، أن تستدعى عدداً كبيراً من السفن الحرة ، إلى مياه بلنسية ؛ ورحل بهذه الطريقة من ثغر بلنسية زهاء خمسة عشر ألفا ، معظمهم من الموسرين والمتوسطين ؛ ورحل المنفيون من ثغر لقنت على عزف الموسيقى ونشيد الأغانى ، وهم يشكرون الله على العود إلى أرض الآباء والأجداد ؛ ولما سئل فقيه من زعمائهم عن سبب اغتباطهم ، أجاب بأنهم كثيراً ماسعوا إلى شراء قارب أو سرقته ، للفرار إلى المغرب ، مستهدفين لكثير من المخاطر ، فكيف إذا عرضت لنا فرصة السفر الأمين مجاناً ، لاننتهزها للعود إلى أرض الأجداد ، حيث نستظل بحماية سلطاننا ، سلطان الترك ، وهنالك نعيش أحراراً مسلمين لا عبيداً كما كنا ؟

(١) Dr. Lea : History of the Inquisition in Spain ; Vol. III. p. 390



الملك فيليب الثالث

عن صورة بلاثكيث المحفوظة بمتحف البرادو بمدريد ، وفيها يبدو أحمر الشعر واللحية والشارب ، فوق جواد أشهب

وكانت الجنود تحرس المنفيين فى معظم الأحوال، حماية لهم من جشع النصارى الإسبان الذين انتظموا فى عصابات لمهاجمة المنفيين ونهبهم وقتلهم أحياناً . وفضلا عن ذلك فإن تنفيذ قرار النفى لم يجر دائماً فى يسر وسهولة ، فقد رأينا أن كثيراً من الموريسكيين فى المناطق الجبلية أبوا الخضوع للأوامر لعدم ثقتهم فى ولاء الحكومة ، وفضلوا المقاومة حتى الموت ، واحتشدوا بالأخص فى « وادى أجوار » حيث اجتمع منهم زهاء خمسة عشر ألفاً ، وفى مويلا دى كورتيس حيث اجتمع نحو تسعة آلاف فبادرت قوات الحكومة بمحاصرة وادى أجوار وفتكت بالموريسكيين العزل ، وقتلت منهم بضعة آلاف ، ومات كثير منهم من الجوع والبرد . وأخيراً سام من بقى منهم وحملوا قسراً إلى ميناء السفر ، وسبى الجند منهم كثيراً من النساء والأطفال ، باعوهم رقيقاً ، ولم يصل منهم إلى شواطىء المغرب سوى القليل ، وفى مويلا دى كورتيس لم يبق منهم عند الإبحار سوى ثلاثة آلاف ؛ ولبثت فلولهم تقاوم مستميتة ، وتبث الاضطراب نحو عام حتى قضى عليها(١) .

وصدر قرار النفى فى قشتالة فى ١٥ سبتمبر سنة ١٦٠٩ . ولكن أجل تنفيذه حتى ينفذ أولا فى بلنسية ، ولم ينفذ بالفعل إلا فى أواخر ديسمبر ، ومنح الموريسكيون فيه شهراً للسفر بنفس الشروط التى تضمنها قرار النفى فى الأندلس ؛ وسافر منهم فى اتجاه الشمال إلى حدود فرنسا نحو أربعة آلاف عائلة ، وسافر إلى قرطاجنة نحو عشرة آلاف بحجة السفر إلى الأراضى النصرانية ، وذلك لكى يحتفظوا بأولادهم الصغار ، ولكن تسرب الكثير منهم إلى الثغور المغربية .

وبلغ عدد المنفيين فى الثلاثة أشهر الأولى زهاء مائة وخمسين ألفاً ، وسافر منهم ألوف كثيرة من الأغنياء والموسرين على نفقتهم الخاصة ، وقصدت جموع كثيرة من الموريسكيين فى أراجون قدرت بنحو خمسة وعشرين ألفاً ، إلى ولاية ناقار الفرنسية ، ودخل فرنسا من قشتالة نحو سبعة عشر ألفاً ، وسمح لهم هنرى الرابع ملك فرنسا بالتوطن فيما وراء نهر الجارون ، بشرط بقائهم على دين الكثلكة ، وأن تهيىء السفن لمن أراد السفر منهم إلى شواطىء المغرب .

أما فى غرناطة وأنحاء الأندلس، فقد أعلن قرار النفى فى ١٢ يناير سنة ١٦١٠ بعد أن عدلت بعض أحكامه ، وفيه يمنح الموريسكيون للرحيل ثلاثين يوماً ، ويباح لهم أن يبيعوا سائر أملاكهم المنقولة وأخذ ثمنها ، على أن يقتنى به عروض أوبضائع

(١) Dr. Lea : History of the Inquisition ; Vol. III. p. 397 & 398

اسبانية ، ولا يسمح لهم بأن يحملوا معهم من النقد أو الذهب أو الحلى ، إلا ما يكفى نفقات الرحلة بالبر والبحر. وأما الأملاك العقارية فتصادر لجهة العرش. وقد استقبل الموريسكيون فى الأندلس قرار النفى بالاستبشار والرضى ، ويقدر من نزح منهم إلى المغرب ، سواء على سفن الحكومة أو السفن الحرة ، بنحو مائة ألف نفس ، وقد نزح معظمهم إلى مراكش .

ثم توالى إعلان قرار النفى ، فى جميع الجهات التى تضم مجتمعات موريسكية ، فى سائر أنحاء المملكة الإسبانية . فى قطلونية وأراجون فى مايو سنة ١٦١٠ ، ثم فى إشبيلية وإسترمادوره ، ثم فى مرسية وغيرها . وتأخر تنفيذه فى مرسية نحو أربعة أعوام حتى يناير سنة ١٦١٤ ، وخرج من مرسية زهاء خمسة عشر ألفاً ، واتجهت جموع كثيرة من الشمال إلى الثغور الجنوبية .

واتجهت بعض الجماعات منهم إلى الثغور الإيطالية مباشرة ، أو عن طريق فرنسا ، ومنها أبحرت إلى مصر والشام وقسطنطينية[1]. وبلغ السلطان أحمد سلطان الترك ، ما أصاب الكثير منهم فى أرض فرنسا من الاعتداء والنهب ، فأرسل إلى ملكتها (وهى يومئذ مارى دى مديتشى الوصية على ولدها لويس الثالث عشر) يحتج على هذا الإيذاء ، ويطلب حماية المنفيين[2]. وكان بين هؤلاء الذين اتجهوا نحو المشرق ، بعض طوائف اليهود الأندلسيين ، ولاسيما طائفة « الحسديم » التى ما زالت تقيم حتى اليوم فى قسطنطينية ، ويقيم بعضها فى مصر .

ونفذ قرار النفى فى كل مكان بصرامة ووحشية ، واستمرت السفن شهوراً بل أعواماً تحمل أكداساً من تلك الكتلة البشرية المعذبة ، فتلقى بها هنا ، وهنالك ، فى مختلف الثغور الإفريقية ، فى غمر من المناظر المروعة المفجعة .

وقد رويت روايات كثيرة محزنة عن مصير بعض جماعات المنفيين ، فإن الذين نزلوا منهم فى وهران ليسيروا منها إلى داخل البلاد المغربية ، اعتدت عليهم بعض العصابات الناهبة ، لما كان معروفاً من أنهم يحملون أموالا وحلياً نفيسة ، وسبى كثير من نسائهم . وقد كان منهم فى الواقع كثير من الأغنياء والأشراف القدماء ، ولاسيما من أهل إشبيلية ، وكتب الكونت أجيلار حاكم وهران ، أن كثيرين منهم بقوا فى وهران ، خوفاً من اعتداء الأعراب ، وقيل إن ثلثى القادمين إلى وهران

---

(١) المقرى فى نفح الطيب ج ٢ ص ٦١٧ .

(٢) Dr. Lea : The Moriscos ; p. 364

أو أكثر من ذلك ، هلكوا من المرض أو نتيجة الاعتداء ، ومن ثم فإن كثيرين منهم عادوا إلى اسبانيا ، والتمسوا إلى السلطات أن يبقوا نصارى وأن يكونوا عبيداً . وقد ألقى هؤلاء بعض الأسر التى قبلت استرقاقهم ، واعترض على ذلك رجال الدين ، وصدرت الأوامر برفض نزولهم إلى الشواطىء الإسبانية ؛ ولكن كثيرين تسربوا إلى أنحاء بلنسية وغيرها ، وبقوا فى اسبانيا رغم جميع الجهود التى بذلت لإخراجهم (١) .

وقد اختلف المؤرخون أيما اختلاف ، فى تقدير عدد الموريسكيين الذين أخرجوا من اسبانيا تطبيقاً لقرار النفى ، ويقول نابارِّيتى وهو من أعظم مؤرخى اسبانيا ، إنه قد نفى من اسبانيا فى مختلف العصور ، نحو مليونين من اليهود ، وثلاثة ملايين من الموريسكيين . ويقدر آخرون المنفيين من الموريسكيين بأربعمائة ألف أو تسعمائة ألف ، ويقدرهم دون لورنتى مؤرخ «ديوان التحقيق» بمليون ، ويقدرهم المستشرق فون هامار بثلاثمائة ألف وعشرة آلاف . وفى الرواية العربية الموريسكية التى نثبتها فيما بعد ، يقدر عدد المنفيين الموريسكيين بستمائة ألف ، ونحن نميل إلى الاعتقاد بأن عدد من نفى من الموريسكيين لا يمكن أن يتجاوز هذا القدر ، وقد كان مجموعهم فى أواخر القرن السادس عشر لا يتجاوز ستمائة ألف حسبما قدمنا . ويقدر من هلك من الموريسكيين أو استرق منهم أثناء مأساة النفى بنحو مائة ألف نفس (٢) .

وقد عاد معظم الموريسكيين ، الذين نفوا إلى إفريقية والمشرق ، إلى الإسلام دين الآباء والأجداد ، ولم تخمد مائة عام من التنصير المغصوب ، والإرهاق المستمر جذوة الإسلام فى نفوسهم ، وقد لبث على كر العصور متغلغلا فى أعماق سرائرهم .

وبذلك ينتهى الفصل الأخير من مأساة الموريسكيين أو العرب المتنصرين ، وتطوى إلى الأبد صفحة شعب ، من أنبل وأمجد شعوب التاريخ ، وحضارة من أزهر الحضارات .

— ٣ —

وتقدم إلينا الرواية الغربية ، تفاصيل ضافية عن مأساة الموريسكيين ، منذ بدايتها إلى نهايتها ، وتخصها بكثير من التعليق والنقد . ولكن الرواية الإسلامية مقلة فى هذا الموطن ، شأنها فى تاريخ الأندلس منذ سقوط غرناطة ، فهى لا تعنى بتتبع

(١) Lea : The Moriscos ; p. 363 & 364 . وراجع نفح الطيب ج ٢ ص ٦١٧ .

(٢) راجع : Lea : The Moriscos ; p. 359

مصير العرب المتنصرين ، كما تعنى الرواية الغربية ، ولا تقدم إلينا عن مأساة النفى سوى بعض الشذور والإشارات الموجزة .

وأهم وأوفى ما وقفنا عليه من ذلك ، رواية معاصرة عن أحوال الموريسكيين ، ومساعيهم السرية للمحافظة على دينهم ، وظروف نفيهم ، كتبها موريسكى عاش فى جيان وغيرها من قواعد الأندلس الجنوبية فى أواخر عهد الموريسكيين ، ثم هاجر إلى تونس قبيل النفى بقليل ، وكتب فيما بعد بالعربية كتابا عنوانه : « الأنوار النبوية فى آباء خير البرية » ، يتحدث فى نهايته فى فصل خاص عن الموريسكيين المهاجرين ، وشرف نسبهم ، وينوه بحسن إيمانهم وتمسكهم بالإسلام دين آبائهم وأجدادهم ، ووردت خلال هذا الفصل حقائق تاريخية هامة ، عن النفى وأسبابه وملابساته . وقد رأينا أن ننقله فيما يلى :(١)

« قد كثر الإنكار علينا معشر أشراف الأندلس من كثير من إخواننا فى الله بهذه الديار الإفريقية من التونسيين وغيرهم ، حفظهم الله تعالى ، بقولهم من أين لهم هذا الشرف ، وقد كانوا ببلاد الكفار ، دمرهم الله ، ولهم مئون من السنين كذا وكذا ، ولم يبق فيهم من يعرف ذلك من مدة الإسلام وقد اختلطوا مع النصارى ، أبعدهم الله تعالى ، إلى غير ذلك من الكلام الذى لا نطيل به ولا أذكره هنا صونا لعرضهم وحيى فيهم .

« مع أنى صغير السن حين دخولنا هذه الديار عمرها الله تعالى بالإسلام وأهله بجاه النبى المختار فقد أطلعنى الله تعالى على دين الإسلام بواسطة والدى رحمة الله عليه وأنا ابن ستة أعوام وأقل ، مع أنى كنت إذ ذاك أروح إلى مكتب النصارى لأقرأ دينهم، ثم أرجع إلى بيتى فيعلمنى والدى دين الإسلام ، فكنت أتعلم فيهما معاً ، وسنى حين حملت إلى مكتبهم أربعة أعوام . فأخذ والدى لوحاً من عود الجوز كأنى أنظر الآن اليها مملسا ، فكتب لى فيه حروف الهجاء وهو يسألنى حرفاً حرفاً

---

(١) مؤلف هذا الكتاب هو حسبما ورد فى نسخته المخطوطة ، محمد بن عبد الرفيع بن محمد الشريف الحسينى الجعفرى الأندلسى ، المتوفى سنة ١٠٥٢ هـ (١٦٥٢ م) ، أعنى بعد نفى الموريسكيين باثنتين وأربعين عاما . وتوجد هذه النسخة الوحيدة منه بخزانة الرباط بالمكتبة الكتانية رقم 1238 ، ومذكور فى نهاية الكتاب ، أنه قد تم تحريره بحضرة تونس سادس شعبان سنة ١٠٤٤ هـ (١٦٤٤ م) . ويشغل الفصل الخاص بأحوال الموريسكيين فيه من ص ٣١٩ إلى ص ٣٣٦ . وقد نقل هذا الفصل الشاعر المغربى محمد بوجندار مع بعض التصرف فى كتابه المسمى « مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح » (الرباط ١٣٤٥ هـ) ص ٢٠٠ — ٢١٤ .

عن حروف النصارى تدريباً وتقريباً ، فإذا سميت له حرفاً أعجمياً كتب لى حرفاً عربياً ، فيقول حينئذ هكذا حروفنا ، حتى أستوفى لى جميع حروف الهجاء فى كرتين ؛ فلما فرغ من الكرة الأولى ، أوصانى أن أكتم ذلك حتى عن والدتى وعمى وأخى ، وجميع قرابتنا ، وأمرنى أن لا أخبر أحداً من الخلق . وشدد على الوصية ، وصار يرسل والدتى التى تسئلنى ما الذى يعلمك والدك فأقول لها لا شيء . وكذا كان يفعل عمى وأنا أنكر أشد الإنكار . ثم أروح إلى مكتب النصارى وآتى إلى الدار فيعلمنى والدى إلى أن مضت مدة .

« وقد كان والدى رحمه الله ، يلقننى حينئذ ما كنت أقوله حين رؤيتى للأصنام ... فلما تحقق والدى أنى أكتم أمور دين الإسلام عن الأقارب فضلا عن الأجانب ، أمرنى أن أتكلم بإفشائه لوالدتى وعمى ، وبعض أصحابه الأصدقاء فقط ، وكانوا يأتون إلى بيتنا فيتحدثون فى أمر الدين ، وأنا أسمع . فلما رأى حزمى مع صغر سنى ، فرح كثيراً غاية ، وعرفنى بأصدقائه وأحبائه وإخوانه فى دين الإسلام ، فاجتمعت بهم واحدا واحدا ، وسافرت الأسفار لأجتمع بالمسلمين الأخيار ، من جيان ، مدينة ابن مالك ، إلى غرناطة ، وإلى قرطبة وإشبيلية ، وطليطلة ، وغيرها من مدن الجزيرة الخضراء ، أعادها الله تعالى للإسلام ، فتلخص لى من معرفتهم أنى ميزت سبعة رجال كانوا كلهم يحدثونى بأمور غرناطة وما كان بها فى الإسلام حينئذ ، فباجتماعى بهم حصل لى خير كثير ، وقد قرأوا كلهم على شيخ من مشايخ غرناطة ، أعادها الله للإسلام ، يقال له الفقيه اللوطورى رحمه الله تعالى ونفعنا به ، فإنه كان رجلا صالحاً ، ولياً لله ، فاضلا زاهداً ، ورعاً ، عارفاً سالكاً ، ذا مناقب ظاهرة مشهورة ، وكرامات طاهرة مأثورة ، قد قرأ القرآن الكريم فى مكتب الإسلام بغرناطة ، قبل استيلاء أعداء الدين عليها ، وهو ابن ثمانية أعوام وقرأ الفقه وغيره على مشايخ أجلا حسب الإمكان . ثم بعد مدة يسيرة ، انتزعت غرناطة من أيدى المسلمين أجدادنا ، وقد أذن العدو فى ركوب البحر والخروج منها لمن أراده ، وبيع ما عنده ، وإتيانه لهذه الديار الإسلامية وذلك فى مدة ثلاثة أعوام ، ومن أراد أن يقيم على دينه وماله فليفعل ، بعد شروط اشترطوها ، والزامات كتبها عدو الدين على أهل الإسلام . فلما تحركوا لذلك أجدادنا ، وعزموا على ترك ديارهم وأموالهم ، ومفارقة أوطانهم للخروج من بينهم ، وجاز إلى هذه الديار التونسية ، والحضرة الخضراء بغتة من جاز إليها حينئذ ، ودخلوا فى زقاق

الأندلس المعروف الآن بهذا الاسم ، وذلك سنة اثنين وتسعمائة ، وكذا للجزائر وتطاون وفاس ومراكش وغيرها ، ورأى العدو العزم فيهم لذلك ، نقض العهد ، فردهم رغم أنوفهم من سواحل البحر إلى ديارهم ، ومنعهم قهراً عن الخروج واللحوق بإخوانهم ، وقرابتهم بديار الإسلام ، وقد كان العدو يظهر شيئاً ، ويفعل بهم شيئاً آخر ، مع أن المسلمين أجدادنا استنجدوا مراراً ملوك الإسلام ، كملك فاس ومصر حينئذ ، فلم يقع من أحدهما إلا بعض مراسلات ، ليقضى الله أمراً كان مفعولا .

« ثم بقى العدو يحتال بالكفر عليهم غصباً ، فابتدأ يزيل لهم اللباس الإسلامى ، والجماعات ، والحمامات ، والمعاملات الإسلامية ، شيئاً فشيئاً ، مع شدة امتناعهم والقيام عليه مرار ، وقتالهم إياه ، إلى أن قضى الله سبحانه ما قد سبق من علمه ، فبقينا بين أظهرهم ، وعدو الدين يحرق بالنار من لاحت عليه إمارة الإسلام ، ويعذبه بأنواع العذاب ، فكم أحرقوا ، وكم عذبوا ، وكم نفوا من بلادهم ، وضيعوا من مسلم ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، حتى جاء النصر والفرج من عند الله سبحانه ، وحرك القلوب للهروب ، وكان ذلك سنة ثلاثة عشرة وألف ، فخرج منا بعض للمغرب ، وبعض للمشرق خفية ، مظهراً دين الكفار أبعدهم الله ، فخرج بعض أحبابنا وإخواننا وهو الفقيه الأجل محمد أبو العباس أحمد الحنفى ، المعروف بعبد العزيز القرشى ، ومعه أحد أخواله ، إلى مدينة بلغراد من عمالة القسطنطينية ، فالتقيا بالوزير مراد باشا وزير السلطان المعظم المرحوم السلطان أحمد بن السلطان محمد نجل آل عثمان نصرهم الله تعالى وأيدهم ، فأخبراه عما حل بإخواننا بالأندلس من الشدة بفرانسة وغيرها ، فكتب أمراً لصاحب فرانسة دمرها الله ، بإعلام السلطان نصره الله ، يأمره بأن يخرج من كان عنده من المسلمين بالأندلس وخدام آل عثمان ، ويوجههم إليه فى سفن من عنده مع ما يحتاجون إليه . فلما قرىء الأمر السلطانى فى ديوان الفرنسيس ، فسمعه من كان عنده مرسلا من قبل صاحب الجزيرة الخضراء ، وهو اللعين فيليبو الثالث ، فأرسل لسيده ، يخبره بالواقع ، وأن السلطان أحمد آل عثمان ، أرسل أمره إلى فرانسة ، وأمر صاحبها أن يخرج من كان عنده من الأندلس ، فقبل كلامه ، وأمر بإخراج المسلمين ، وأذن لمن جاء من الأندلس بأن لا بأس عليهم ، وأن يركبوا عنده فى سواحله مراكبه ، ويبلغهم إلى حيث شاءوا من بلاد المسلمين . فلما أحس بهذا الأمر عدو الله فيليبو صاحب إسبانية ، دخله الرعب والخوف الشديد ، وأمر حينئذ فجمع أكابر

القسيسين والرهبان والبطارقة ، وطلب منهم الرأى ، وما يكون عليه العمل فى شأن المسلمين الذين هم ببلاده كافة ، فبدا الشأن فى أهل بلنسية ، فأخذوا الرأى ، وأجمعوا كلهم على إخراج المسلمين كافة من مملكته ، وأعطاهم السفن ، وكتب أوامر وشروطاً فى شأنهم ، وفى كيفية إخراجهم ، وشدد على عماله بالوصية ، والاستحفاظ على كافة المسلمين من الأندلس . نعم أريد أن أذكر لك نبذة يسيرة اختصرتها ، وترجمتها ، من جملة أسباب ذكرها الملك الكافر أبعده الله ، فى أوامره ، التى كتبها فى شأن إخواننا الأندلس حين إخراجهم من الجزيرة الخضراء ، لتكون على بصيرة من أمرهم ، وتعلم بعض الأسباب التى أخرجوا لأجلها على التحقيق ، لا كما يزعم بعض الحاسدين ، وليؤيد ما قدمناه آنفاً من أمر السلطان أحمد آل عثمان ، وتكمل الفايدة ، ولئلا يساء الظن بنا معشر الأندلس

« قال الملك الكافر ، أبعده الله تعالى وزلزله آمين : لما كانت السياسة السلطانية الحسنة الجيدة موجبة لإخراج من يكدر المعاش على كافة الرعية النصرانية ، فى مملكتها التى تعيش عيشاً رغداً صالحاً ، والتجربة أظهرت لنا عياناً ، أن الأندلس الذين هم متولدون من الذين كدروا مملكتنا فيما مضى ، بقيامهم علينا ، وقتلهم أكابر مملكتنا ، والقسيسين والرهبان الذين كانوا بين أظهرهم ، وقطعهم لحومهم ، وتمزيقهم أعضاءهم ، وتعذيبهم إياهم بأنواع العذاب ، الذى لم يسمع فيما تقدم مثله ، مع عدم توبتهم فيما فعلوه ، وعدم رجوعهم رجوعاً صالحاً من قلوبهم ، لدين النصرانية ، وأنه لم ينفع فيهم وصايانا ، ورأينا عيانا أن كثيراً منهم قد أحرقوا بالنار ، لاستمرارهم على دين المسلمين ، وظهر منهم العناد بعيشهم فيه خفية ، واستنجادهم كذلك عون السلطان العثمانى ، لينصرهم علينا ، وظهر لى أن بينهم وبينه مراسلات إسلامية ، ومعاملات دينية ، وقد تيقنت ذلك من إخبارات صادقة وصلت إلى . ومع هذا أن أحداً منهم لم يأت إلينا ليخبرنا بما هم يدبرونه فى هذه المدة بينهم ، وفيما سبق من السنين ، بل كتموه بينهم ؛ علمت بذلك أن كلهم قد اتفقوا على رأى واحد ، ودين واحد ، ونيتهم واحدة ؛ وظهر لى أيضاً ، ولأرباب العقول والمتدينين من القسيسين والرهبان والبطارقة الذين جمعتهم لهذا الأمر واستشرت ، مع أن من ابقائهم بيننا ينشأ عنه فساد كبير ، وهول شديد بسلطنتنا ، وأن بإخراجهم من بيننا يصلح الفساد الناشىء من إبقائهم بمملكتى ، أردت إخراجهم من سلطنتنا جملة ، ليزول بذلك الكدر الواقع ، والمتوقع للنصارى

الذين هم رعيتنا ، طائعين لأوامرنا ودينا ، ورميتهم إلى بلاد المسلمين أمثالهم ، لكونهم مسلمين. انتهى المراد بأكثر لفظه ولم أتعرض لذكر شروط كتبها ودققها .

« فانظر رحمك الله ، كيف شهد عدو الدين، الملك الكافر ، بأنهم مسلمون ، واعترف أنه لم يقدر على إزالة دينهم من قلوبهم ، وأنهم متمسكون كلهم به ، مع أنه كان يحرق منهم من ظهر عليه الدين ، ثم وصفهم بالعناد لرؤيته فيهم لوائح المسلمين وإماراتهم ، فأى علامة أكبر من صبرهم على النار لدين الحق ، ومن استنجادهم ملك دين الإسلام المؤيد لحماية الدين ، أمير المسلمين السلطان أحمد آل عثمان نصرهم الله تعالى ، فهذا غاية الخير والعز والبركة لهذه الطائفة الطاهرة الأندلسية التى قال فيها شيخنا الأستاذ القطب الغوث سيدى أبو الغيث القشاش نفعنا الله به دنيا وأخرى فى بعض مكاتبه التى كان يكاتبهم بها ، فقال لى وسلم على هؤلاء الأنصار الأطهار الأخيار فإنه لا يحبكم إلا مؤمن ولا يبغضكم إلا منافق .

« فخرجوا كلهم سنة تسعة عشر وألف . ووجد فى دفاتر السلطان الكافر ، أبعده الله تعالى ، أن جملة من أخرج من أهل الأندلس كافة ، نيف وستمائة ألف نسمة ، كبيراً وصغيراً . فكانت هذه الواقعة ، منقبة عظيمة ، وفضيلة عجيبة ، لجماعتنا الأندلس زادهم الله شرفاً عنه . وأمر أيضاً بإخراج من كان مسجوناً فى كافة مملكته ، وكل من كان أمر بإحراقه فأخرجه، وعفا عنه، وزوده وأرسله إلى بلاد الإسلام سالماً . ولا يخفى أن هذا أمر عظيم ، ومحال عادة ، فسبحان رب السموات ورب الأرض الذى إذا أراد أمراً قال له كن فيكون . فيالها من أعجوبة ما أعظمها، ومن فضيلة ما أشرفها، ومن كرامة ما أجملها، ومن نعمة ما أكبرها ، فما سمع من أول الدنيا إلى آخرها مثل هذه الواقعة » .

* * *

وقد صدر قرار النفى كما قدمنا فى ٢٢ سبتمبر سنة ١٦٠٩ ، وهو يوافق جمادى الثانية سنة ١٠١٨ هـ . ولكن الرواية الإسلامية تضع تاريخ القرار أحياناً فى سنة ١٠١٦ هـ أو ١٠١٧ هـ ، وهو تحريف واضح . وأقرب إلى الصحة ، ما ذكره ابن عبد الرفيع فى روايته المتقدمة وهو سنة ١٠١٩ هـ (١٦١٠ م) .

قال المقرى مؤرخ الأندلس ، وقد كان معاصراً للمأساة : « إلى أن كان إخراج النصارى إياهم (أى العرب المتنصرين) بهذا العصر القريب أعوام سبعة عشرة وألف فخرجت ألوف بفاس، وألوف أخر بتلمسان من وهران، وجمهورهم خرج بتونس

فتسلط عليهم الأعراب ومن لا يخشى الله تعالى فى الطرقات، ونهبوا أموالهم، وهذا ببلاد تلمسان وفاس، ونجا القليل من هذه المضرة. وأما الذين خرجوا بنواحى تونس، فسلم أكثرهم، وهم لهذا العهد عمروا قراها الخالية وبلادها، وكذلك بتطاون وسلا وفيجة الجزائر. ولما استخدم سلطان المغرب الأقصى منهم عسكرا جراراً وسكنوا سلا، كان منهم من الجهاد فى البحر، ماهو مشهور الآن. وحصنوا قلعة سلا وبنوا بها القصور والحمامات والدور، وهم الآن بهذه الحال. ووصل جماعة إلى القسطنطينية العظمى، وإلى مصر والشام وغيرها من بلاد الإسلام، وهم لهذا العهد على ما وصفت »[1].

وقال ابن دينار التونسى، وقد كتب بعد المأساة بنحو سبعين عاماً، فى أخبار سنة ١٠١٧ هـ: « وفى هذه السنة والتى تليها، جاءت الأندلس من بلاد النصارى، نفاهم صاحب إسبانية، وكانوا خلقاً كثيراً، فأوسع لهم عثمان داى فى البلاد، وفرق ضعفاءهم على الناس، وأذن لهم أن يعمروا حيث شاءوا، فاشتروا الهناشير وبنوا فيها، واتسعوا فى البلاد، فعمرت بهم، واستوطنوا فى عدة أماكن، وعمروا نحو عشرين بلداً، وصارت لهم مدن عظيمة، وغرسوا الكروم والزيتون والبساتين، ومهدوا الطرقات، وصاروا يعتبرون من أهل البلاد »[2].

وقال صاحب « الخلاصة النقية »، وهو من الكتاب المتأخرين: « وفى سنة ست عشرة وألف، قدمت الأمم الجالية من جزيرة الأندلس، فأوسع لهم صاحب تونس عثمان داى كنفه، وأباح لهم بناء القرى فى مملكته، فبنوا نحو العشرين قرية، واغتبط بهم أهل الحضرة، وتعلموا حرفهم وقلدوا ترفهم »[3].

وهذه النصوص الموجزة، هى كل ما تقدم إلينا الرواية الإسلامية عن نفى العرب المتنصرين، وقد لبثت رواية المقرى عن المأساة، مصدراً لكل ماكتبه الكتاب المتأخرون[4]. وربما كان هذا النقص راجعاً إلى أنه لم يعن أحد من كتاب المغرب المعاصرين، باستيفاء التفاصيل الضافية المؤثرة عن المأساة، أولعله قد ضاع ماكتبه المعاصرون عنها فيما ضاع، مما كتب عن المراحل الأخيرة لتاريخ الأندلس

---

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٦١٧.

(٢) المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس (تونس) ص ١٩٣.

(٣) الخلاصة النقية (تونس) ص ٩١.

(٤) راجع الإستقصاء ج ٣ ص ١٠١، حيث تنقل هذه النصوص.

والعرب المتنصرين ، ولم تصلنا منه على يد المقرى سوى لمحات يسيرة .

وهكذا بذلت اسبانيا كل ما وسعت لإخراج البقية الباقية ، من فلول الأمة الأندلسية ، ولم تدخر وسيلة بشرية للقضاء على آثار الموريسكيين إلا اتخذتها . ومع ذلك فإن آثار الموريسكيين لم تنقطع بعد النفى بصورة نهائية . فقد رأينا أن كثيرين من المنفيين قد عادوا إلى اسبانيا ، فراراً مما لقوا فى رحيلهم من ضروب الإعتداء المفزع ، وأسلموا أنفسهم رقيقاً يقتنى . كذلك كانت ثمة جماعات من الأسرى المسلمين ، من مغاربة وغيرهم ، ممن يؤخذون فى المعارك البحرية مع المغيرين ، يباعون رقيقاً فى اسبانيا ، ويفرض عليهم التنصير . ومع أنه صدر قرار بحظر وجودهم فى العاصمة الإسبانية ، فإنه كان من الصعب إخراجهم من المملكة ، نظراً لما ترتب لأصحابهم عليهم من الحقوق ، وكان البعض منهم يفلح فى ابتياع حريته ، ويعيد حياة الموريسكيين سراً ، وأخيراً توجست الحكومة الإسبانية من وجودهم ، فصدر فى سنة ١٧١٢ قرار بنفيهم ، خلال المدد التى يحددها القضاة المحليون ، وسمح لهم بأن يأخذوا معهم أسرهم وأموالهم إلى إفريقية .

وقد كان من المستحيل بعد ذلك كله ، أن يبقى فى البلاد أحد من الموريسكيين أو سلالتهم ، وقد كانت ذكراهم أو أشباحهم ، تثير حولها أيما توجس وتعصب . وكان من المتعذر أن يفلت أحد منهم من بطش ديوان التحقيق ، وكان الديوان المقدس أبدا على أهبته لضبط أية قضية ضد موريسكى مختف أوعبد متنصر ، لكن هذه القضايا كانت نادرة مما يدل على انقراض هذا العنصر بمضى الزمن . بيد أن أسرى المعارك البحرية الذين كانوا يكرهون على التنصير ، كان بعضهم ينبذ النصرانية خفية ، وكن معظم هؤلاء من الموريسكيين الذين عادوا إلى الإسلام ، وخرجوا إلى الجهاد فى البحر ، وكان ديوان التحقيق طوال القرن السابع عشر يجد بينهم فرائس من آن لآخر . وعلى الجملة فإن آثار الموريسكيين والإسلام لم تعف نهائياً من اسبانيا ، وقد لبث كثير من الأسر والأفراد الموريسكيين ، الذين اندمجوا فى المجتمع الإسبانى ، على صلاتهم الخفية بالماضى البعيد ، وقد ضبطت خلال القرن الثامن عشر أمام محاكم التحقيق بعض قضايا الموريسكيين ، كانوا يجرون شعائر الإسلام خفية ، وضبط فى سنة ١٧٦٩ مسجد صغير فى قرطاجنة ، أنشأه المتنصرون المحدثون ، مما يدل على أنه كانت ما تزال ثمة آثار ضئيلة للموريسكيين والإسلام .

ولا تقدم إلينا محفوظات ديوان التحقيق منذ أواخر القرن الثامن عشر ، أى ذكر للموريسكيين ، أو الإسلام والمسلمين ، مما يدل على أن الآثار الأخيرة لمأساة الموريسكيين قد غاضت ، وأسبل عليها الزمن عفاءه إلى الأبد[١] .

على أن يقال أخيراً إنه ما زالت ثمة إلى اليوم ، فى بلنسية وفى غرناطة ومقاطعة لامنشا ، جماعات من الإسبان تغلب عليها تقاليد الموريسكيين فى اللباس والعادات ، ويجهلون الطقوس النصرانية الخالصة[٢] .

والحقيقة أنه يصعب على الباحث أن يعتقد أن اسبانيا النصرانية ، قد استطاعت حقاً بكل ما لجأت إليه من الوسائل المغرقة ، أن تقضى نهائياً على آثار الأمة العربية فإن تاريخ الحضارة يدلنا على أنه من المستحيل ، أن تجتث آثار السلالات البشرية ، خصوصاً متى لبثت آماداً متخلفة متداخلة ، وعلى أن حضارة أمة من الأمم إنما هى خلاصة لتفاعل الأجيال المتعاقبة ، وفى وسع مؤرخ الحضارة أن يلمس فى تكوين المجتمع الإسبانى الحاضر ، ولاسيا فى الجنوب فى ولايات الأندلس القديمة ، وفى خصائصه وتقاليده ، وفى حياته الاجتماعية ، وفى حضارته على العموم ، كثيراً من الخلال والظواهر ، التى ترجع فى روحها إلى تراث العرب والحضارة الإسلامية .[٣]

---

(١) Lea : The Moriscos p. 391 & 392

(٢) Lea : Ibid ; p. 365

(٣) استطعت خلال رحلاتى الأندلسية المتوالية أن أتبين هذه الظاهرة ، وأن أشعر بها شعوراً قوياً ، ولا سيما فى غرناطة ، وقد تناولت مظاهرها المادية والأدبية فى فصل خاص فى كتابى « الآثار الأندلسية الباقية » الطبعة الثانية ص ٤٣٦ — ٤٤٤ .

الفصل الثالث

تأملات وتعليقات عن آثار المأساة

مأساة الموريسكيين وعلاقتها بانحطاط اسبانيا . آثار نفى الموريسكيين المخربة . ركود الزراعة وخراب الضياع الكبيرة . تأثر محاكم التحقيق . ذيوع العملة الزائفة . تقرير مجلس الدولة عن الاضطراب الاقتصادى . تعليقات الدكتور لى . خطأ السياسة الإسبانية . آراء التفكير الإسبانى . تأييد الأحبار لسياسة الإبادة . حملة دون لورنتى عليها . ورأى الكردينال ريشليو . آراء المؤرخين الإسبان . مأساة النفى بين التأييد والإنكار . آراء لافونتى وخانير وبكاتوسّى ومننديث إى بلايو . تعليقات النقد الحديث . أقوال الدكتور لى . أقوال العلامة سكوت . أقوال مننديث بيدال . أقوال المستشرق كوندى . تعليق المستشرق لاين بول .

تلك هى قصة الموريسكيين أو العرب المتنصرين : قصة مؤسية تفيض بألوان الإستشهاد المحزن ، ولكن تفيض فى نفس الوقت بصحف من الإباء والبسالة والجلد ، تخلق بأعظم وأنبل الشعوب . وقد لبثت السياسة البربرية التى اتبعتها اسبانيا النصرانية ، واتبعها ديوان التحقيق الإسبانى ، إزاء العرب المتنصرين على كر العصور ، مثار الإنكار والسخط ، يدمغها المفكرون الغربيون ، والإسبان أنفسهم ، حتى يومنا بأقسى النعوت والأحكام .

ويرى النقد الحديث ، أن العمل على إبادة الموريسكيين ، كان ضربة شديدة لعظمة اسبانيا ورخائها؛ ولم تنهض اسبانيا قط من عواقب هذه السياسة الغاشمة ، بل انحدرت منذ نفى الموريسكيين ، من أوج عظمتها التى سطعت فى عصر شارلكان وفيليب الثانى ، إلى غمرة التدهور والإنحلال التى ما زالت تلازمها حتى عصرنا .

بل ترجع عوامل هذا الإنحلال ، إلى ما قبل مأساة الموريسكيين ببعيد ، أو بعبارة أخرى إلى السياسة التى اتبعتها اسبانيا النصرانية ، نحو الأمة الأندلسية ، منذ بداية عصر الغلبة والفتح ، فى أوائل القرن الثالث عشر . فقد كانت القواعد والولايات الإسلامية الزاهرة ، تسقط تباعاً فى يد اسبانيا النصرانية ، ولكنها كانت تفقد فى نفس الوقت أهميتها العمرانية والاقتصادية ، إذ كانت العناصر الإسلامية الذكية النشيطة من السكان، تغادرها إلى القواعد الإسلامية الباقية، فراراً من عسف

النصارى، وتغادرها حاملة أموالها وفنونها وصنائعها، تاركة وراءها الخراب والفقر والضيق الاقتصادى . واستمر سيل هذه الهجرة المخربة زهاء قرنين، حتى سقطت غرناطة، واحتشدت البقية الباقية من الأمة الأندلسية فى المنطقة الجنوبية، فى بعض القواعد الأندلسية القديمة، مثل بلنسية ومرسية، وهاجرت قبل سقوط غرناطة وبعده، جموع غفيرة من المسلمين إلى إفريقية، واستحالت الأمة الأندلسية غير بعيد، إلى شعب مهيض ممزق هو شعب الموريسكيين أو العرب المتنصرين . ومع ذلك فقد لبثت هذه الأقلية الأندلسية المضطهدة، عاملا خطيراً فى اقتصاد اسبانيا القومى، وفى ازدهار زراعتها وتجارتها وفنونها وصناعاتها. وكان الموريسكيون يحملون الكثير من تراث الأمة المغلوبة، وإلى نشاطهم ودأبهم، يرجع ازدهار الضياع الكبيرة التى يملكها السادة الإقطاعيون . فلما اشتد بهم الإضطهاد والعسف، وأخذت يد الإبادة تعمل لتمزيق طوائفهم، وسحق نشاطهم وقتل مواهبهم، ولما اتخذت اسبانيا النصرانية أخيراً خطوتها الحاسمة بإخراجهم، كانت الضربة القاضية لرخاء اسبانيا ومواردها، فانحط الإنتاج الزراعى الذى برع الموريسكيون فيه، وخربت الضياع الكبيرة بفقد الأيدى الماهرة، وكسدت التجارة التى كان الموريسكيون من أنشط عناصرها، وركدت ريح الصناعة، وعفت كثير من الصناعات التالدة التى كانوا أساتذتها، وغاضت الفنون الرفيعة التى استأثروا بها منذ أيام الدولة الإسلامية . وأحدثت هذه العوامل بمضى الزمن نتائجها المخربة، فتناقص عدد السكان، وانكمشت المدن الكبيرة، وذوى عمرانها، وتضاءلت موارد الخزينة العامة، وشلت جهود الإصلاح والتقدم، ولم يمض على إخراج الموريسكيين زهاء قرن، حتى أصبح سكان المملكة الإسبانية كلها ستة ملايين، وكان سكان قشتالة وحدها أيام سقوط غرناطة سبعة ملايين، وفقدت معظم المدن الكبرى مثل قرطبة وإشبيلية وطليطلة وغرناطة أربعة أخماس سكانها، وعم الفقر والخراب مئات المناطق والمدن، وخيم على اسبانيا كلها جو من الفاقة والركود والانحلال .

وإذا كان النقد الحديث، ينوه بخطورة السياسة التى اتبعتها اسبانيا، فى إبادة الأمة الأندلسية ونفى الموريسكيين، كعامل قوى الأثر فيما أصاب اسبانيا من أسباب الدمار والبؤس والانحطاط، التى لم تبرأ منها حتى عصرنا، فإنه يعتمد فى هذا الرأى على طائفة من النتائج المادية والأدبية، التى ترتبت على « النفى »، وحرمان اسبانيا من الثروات العقلية والفنية والصناعية، التى كانت تتمتع بها الأمة الأندلسية .

وقد ظهرت هذه الآثار المخربة ، بالأخص فى محيط الزراعة والصناعة ، وكان تدهور إيراد الضياع الكبيرة ، وإيراد الكنائس والأديار ، دليلا على ما أصاب قوة اسبانيا المنتجة ، الزراعية والصناعية ، بسبب نفى طائفة كبيرة ، من أنشط طوائف السكان وأغزرهم إنتاجاً . وكان من الحقائق المعروفة أن السكان الإسبان ، كانوا يبغضون الأعمال الزراعية والفنية ، ويعتبرونها أمراً شائناً ، وأن الإسبانى لا يربى أولاده لمزاولة العمل الشريف ، وأن أولئك الذين لا يجدون عملا فى الجيش أو الحكومة ، يلتحقون بالكنيسة . ويبدى المؤرخ الإسبانى الكبير نابارّيتى أسفه لوجود أربعة آلاف مدرسة فى عصره (أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر) ، يتعلم فيها أبناء الفلاحين ، بينما تهجر الحقول ، ولأن أولئك الذين لا يجدون منهم عملا فى الكنيسة لنقص تعليمهم ، يحترفون التسول أو التشرد أو السرقة . وقد كتب سفراء البندقية منذ القرن السادس عشر إلى حكومتهم ينوهون بهذه الحقائق ، ويصفون الإسبان بأنهم زراع وعمال كسالى ، يحتقرون العمل اليدوى ، حتى أن ما يمكن عمله فى البلاد الأخرى فى شهر ، يعمله الإسبان فى أربعة أشهر(١) .

ويردد الوزير محمد بن عبد الوهاب الغسانى سفير سلطان المغرب مولاى اسماعيل إلى اسبانيا ، وقد زارها فى سنة ١٦٩١ ، أعنى بعد النفى بثمانين عاماً ، عن الإسبان مثل هذا الرأى إذ يقول فى رحلته :

« وبحصول هذه البلاد الهندية (يقصد أمريكا) ومنفعتها وكثرة الأموال التى تجلب منها ، صار هذا الجنس الإسبنيولى اليوم أكثر النصارى مالا ، وأقواهم مدخولا ، إلا أن الترف والحضارة غلبت عليهم ، فقلما تجد أحداً من هذا الجنس يتاجر أو يسافر للبلدان بقصد التجارة كعادة غيرهم من أجناس النصارى مثل الفلامنك والإنجليز والفرنسيس والجنويين وأمثالهم ، وكذلك الحرفة التى يتداولها السقطة والرعاع وأراذل القوم يتأبى عنها هذا الجنس ، ويرى لنفسه فضيلة على غيره من الأجناس المسيحيين »(٢) .

وقد كان النبلاء والأحبار ، وأصحاب الضياع الكبيرة بوجه عام ، يعتمدون فى تعهد أراضيهم وفلاحتها ، على نشاط الموريسكيين وبراعتهم ، فلما وقع النفى

---

(١) Lea : The Moriscos ; p. 879 - 881

(٢) رحلة الوزير الغسانى المسماة « رحلة الوزير فى افتكاك الأسير » (العرائش ١٩٤٠) ص ٤٤ و ٤٥ .

جمد النشاط الزراعى ، وخلت معظم الضياع من الزراع ، وأقفر كثير من القرى ، وهدمت ضياع كثيرة لخلوها من السكان، ولاسيا فى منطقة بلنسية، واضطر النبلاء إلى استقدام العمال الزراعيين من الجزائر الشرقية (البليار) وأنحاء البرنيه وقطلونية ؛ ومع ذلك فقد حدث نقص ملحوظ فى غلات الضياع الكبيرة، ولم ينتفع النبلاء بما أصابوه من الاستيلاء على الأراضى التى نزعت، وتعذر عليهم تعميرها وفلاحتها ، وحاق بهم الضيق حتى اضطر العرش إلى منح كثيرين منهم نفقات سنوية من خاصة أمواله ، هذا فضلا عما أصاب طوائف السكان الأخرى ، التى كانت تتصل بالموريكسيين فى المعاملات والتبادل ، من العسر والضيق .

وكما انحط دخل الكنائس والأديار ، فكذلك خسر ديوان التحقيق شطراً كبيراً من دخله، مما كان يصيبه من مصادرة أموال الموريسكيين والحكم عليهم بالغرامات الفادحة ، واضطرت الحكومة أن تعول كثيراً من محاكم التحقيق ، التى أوشكت على الإفلاس ، من جراء اختفاء الجماعة التى كانت تزدهر بمطاردتها واستصفاء أموالها . وقد بيعت أملاك الموريسكيين وأراضيهم بمبالغ كبيرة ، ولكن العرش استولى عليها ، ووزع معظمها على أصفيائه من الوزراء والنبلاء والأحبار ، ولم ينل ديوان التحقيق سوى جزء يسير منها .

ويقدمون مثلا لما أصاب اسبانيا من الخراب من جراء «النفى» ، هو مثل مدينة ثيوداد ريال (المدينة الملكية)[1] عاصمة لامنشا ، فقد أسس هذه المدينة ألفونسو العالم فى القرن الثالث عشر ، ومنح سكانها شروطاً حرة مغرية ، شجعت كثيراً من اليهود والمسلمين على النزوح إليها . وفى سنة ١٢٩٠م كان دافعو الضرائب فيها من اليهود (٨٨٢٨) ، فلما أخرج اليهود منها فى سنة ١٤٩٢ ، حل محلهم الموريسكيون من غرناطة ، ولما أخرج منها هؤلاء مع المدجنين القدماء ، خربت المدينة وعفا رخاؤها وانحطت زراعتها، وخربت صناعة النسيج التى أنشأها الموريسكيون فيها ، وهبط عدد سكانها فى سنة ١٦٢١ إلى ٥٠٦٠ نفساً ونحو ألف أسرة فقط ، فى حين أنها كانت تضم من السكان قبل « النفى » اثنتى عشرة ألف أسرة[2] .

وكان مما ترتب على نفى الموريسكيين أيضاً ، ذيوع العملة الفضية الزائفة ، وقد تركوا وراءهم منها مقادير عظيمة، وكانت لهم بصنعها براعة خاصة . وأحدث

---

(١) Ciudad Real

(٢) Lea : The Moriscos ; p. 372 - 384

ذيوع النقد الزائف اضطراباً شديداً فى المعاملات ، وحاولت الحكومة جمعه ، والمعاقبة على ترويجه بعقوبات رادعة بلغت حد الإعدام ، ولكنها لم تفلح فى استئصال الشر ، واستمرت هذه الحركة أعواماً طويلة ، وعمد الإسبان بدورهم إلى التزييف ، وعوقب كثير منهم أمام محاكم التحقيق والمحاكم المدنية ، وعانى التجار والمتعاملون كثيراً من الضرر والإرهاق .

ولم تمض أعوام قلائل على نفى الموريسكيين ، حتى ظهرت هذه الآثار المخربة كلها فى حياة المجتمع الإسبانى بصورة مزعجة ، وهال العرش والحكومة ما أصاب الأمة من ضروب البؤس والخراب ، وطلب رئيس الحكومة الدوق دى لبرما فى سنة ١٦١٨ ، إلى مجلس الدولة ، أن ينظر فى هذا الأمر ، ويعمل على تحقيقه ومعالجته ؛ وقدم مجلس الدولة تقريره بعد عام ، وأشير فيه إلى خراب المدن والقرى ، ولكنه لم يشر إلى نفى الموريسكيين ، وإلى تكاثر عدد رجال الدين وتزييف العملة ، وبغض الشعب للعمل الشريف ، بل حاول أن يرجع الشر إلى فداحة الضرائب ، وإلى الترف الذى تعيش فيه الطبقات الممتازة ، وإسراف الملك فى الإغداق على أصفيائه ؛ وكذلك اهتم مجلس النواب (الكورتيس) بالأمر وقدم عنه تقريراً إلى الملك . ومع أن التقارير الحكومية التى وضعت عن هذه المحنة ، لم تشر إلى نفى الموريسكيين كعامل أساسى فيما أصاب اسبانيا من الخراب والفقر ، فقد كان فى القرارات الملكية ما ينطق بهذه الحقيقة . فى سنة ١٦٢٢ أصدر الملك فيليب الرابع ، قراراً بخفض الضرائب فى بلنسية يشير فيه إلى هجرة السكان ، وإلى ماخسرته المدينة من ضروب الدخل ، التى كانت تجبى على ما يستهلكه الموريسكيون ، وما خسره التجار من انقطاع التعامل معهم .

على أن جهود العرش والحكومة ، لم تجد شيئاً فى تخفيف هذه الضائقة ، التى طافت بالمجتمع الإسبانى ، وشملت سائر الطبقات سواء فى الإنتاج أو الاستهلاك . ومضى وقت طويل قبل أن تستقر الأحوال نوعاً ، وتفيق الزراعة والصناعة والتجارة من الضربة التى أصابتها .

يقول الدكتور لى : « إنه لا يمكن لفريق من السكان ، كان يعتمد عليه مدى القرون ، فى القيام بقسط عظيم من الإنتاج والتنظيمات المالية فى البلاد ، أن يمزق فجأة وينبذ ، دون أن يبث ذلك الخراب الواسع ، ويثير معتركا من المشاكل يمتد أثرها إلى أجيال مرهقة » .

ثم ينعى على السياسة الإسبانية تخبطها وقصر نظرها فيقول : « وإنه لمن خواص السياسة الإسبانية فى ذلك العصر ، أنه لم يفكر أحد فى هذه الشئون ، ولم يحتط لها أحد فى المباحثات الطويلة ، التى جرت فى قضية الموريسكيين . وقد حدثت ثمة مناقشات لا نهاية لها حول مختلف المشاريع ومزاياها ، والوسائل التى ينفذ بها النفى ، وماذا يسمح به للمنفيين ، وماذا يكون مصير الأطفال . ولكن النتائج المحتملة تركت للمصادفة ، واحتقرت التفاصيل العملية ، واحتقر رخاء الفرد ، وهو ما يوضح فشل السياسة الإسبانية »[1] .

تلك هى النتائج المادية الواضحة ، الإقتصادية والاجتماعية ، التى جنتها اسبانيا النصرانية من جراء سياستها المبيتة لإبادة الأمة الأندلسية . فقد لبثت اسبانيا زهاء قرن ، تعمل بأقسى وسائل الإرهاق والمطاردة ، على استصفاء ما بقى من فلول الأمة الأندلسية ، فى الأرض التى بسطت عليها زهاء ثمانية قرون ، ظلال الرخاء والأمن ، وضوء العلم والعرفان ، ولم تطق حتى بعد أن استحالت هذه الفلول ، إلى شراذم معذبة مهيضة ، وأكرهت على نبذ دينها ولغتها وتقاليدها ، أن تبقى عليها ، وعلى ماتبقى لها من مواهب وقوى منتجة ، ورأت فى سبيل أسطورة من التعصب والجهالة ، أن تقضى عليها بالتشريد والنفى النهائى ، وأن تخرج من بين سكانها زهاء نصف مليون من أفضل العناصر العاملة . وكان من سوء طالع اسبانيا أن جاء نفى الموريسكيين ، فى وقت أخذت فيه عظمة اسبانيا ورخاؤها ، ينحدران سراعاً إلى الحضيض ، وجنح المجتمع الإسبانى إلى حياة الدعة والخمول ، وأخذ سكانها فى التدهور ، فجاء نفى الموريسكيين ضربة جديدة لحيوية اسبانيا ، التى أخذت فى التفكك والذبول ، وتركت وراءها جرحاً عميقاً لم يقو الزمن على محو آثاره بصورة حاسمة . ومن ثم فإنه من الواضح أن يعلق النقد الحديث أهمية بالغة على نفى الموريكسيين ، ويعتبره عاملا بعيد المدى فيما أصاب اسبانيا الحديثة ، من ضروب التفكك والإنحلال .

على أن التفكير الإسبانى يختلف فى قبول هذا الرأى وتقدير مداه ؛ ويهاجمه وينكره بالأخص رجال الدين ، وقد كانوا منذ البداية روح هذه السياسة المخربة ، وأكبر العاملين على تنفيذها . وقد استقبل رجال الدين نفى الموريسكيين بأعظم مظاهر الغبطة والرضى ، واعتبروه ذروة النصر الدينى ؛ ويقول أحدهم وهو القس بليدا وهو من مؤرخى القرن الماضى ، فى كتابه الذى نشره دفاعاً عن هذا الإجراء :

---

(١) Lea : The Moriscos ; p. 387

« بأن عصر اسبانيا الذهبي بدأ بذهاب الموريسكيين ، وان اسبانيا قد حققت به وحدتها الدينية ، وأنقذت من مشاغلها الداخلية ، وأن النفي كان أعظم حادث بعد بعث المسيح ، واعتناق اسبانيا للنصرانية »[١]. ويقول حبر آخر : « لقد زعم الموريسكيون أن رخاء اسبانيا قد ذهب منذ أكرهوا على التنصير ، ولكن الرخاء قد عم بنفيهم ، وازدهرت التجارة ، وساد الأمن فى الداخل والخارج »[٢]. ويقول الحبر بثنى دى لافونتى فى تاريخه الدينى ، إنه من السخرية أن يقال إن نفى الموريسكيين كان سبباً فى انحطاط اسبانيا ، فإن أمة قد تفقد مائة وخمسين ألفاً فى وباء أو حرب أهلية . ثم يتساءل فى تهكم لماذا ينحى على فيليب الثالث بمثل هذا اللوم ؟ على أنه يعترف مع ذلك بأن النفى كان سبباً فى تدهور دخل الأشراف والكنائس[٣].

ويرى آخرون من الأحبار أن اسبانيا قد دفعت بالنفى ثمناً باهظاً ، ولكن تحملهم نزعة فلسفية فيقولون إن وفرة الرخاء تذهب بالفضائل ، وإنه لا بأس من التقشف مع الإيمان ، وإن الفقراء استطاعوا بعد إجلاء الموريكسيين أن يجلوا أعمالا[٤].

ولكن حبراً ومؤرخاً اسبانيا كبيراً ، هو دون لورنتى مؤرخ ديوان التحقيق ، يحدثنا عن وسائل الديوان ونفى الموريسكيين فى قوله : « كانت هذه الوسائل بقسوتها الشائنة ، تذكى روع الموريسكيين من تلك المحكمة الدموية ، وكانوا بدلا من التعلق بالنصرانية ، وهو ما كانت تؤدى إليه معاملتهم بشىء من الإنسانية ، يزدادون مقتاً للدين لم تحملهم على اعتناقه سوى القوة ، وكان هذا سبب الإضطرابات التى أدت فى سنة ١٦٠٩ إلى نفى هذا الشعب ، وعدده يبلغ المليون يومئذ ، وهى خسارة فادحة لاسبانيا تضاف إلى خسائرها الفادحة ، فنى مائة وتسع وثلاثين سنة انتزع ديوان التحقيق من اسبانيا ثلاثة ملايين ، ما بين يهود ومسلمين وموريسكيين »[٥].

ويقول الكردينال ريشليو الفرنسى ، وهو من أعظم أحبار الكنيسة فى مذكراته وكان معاصراً للمأساة : « إنها أشد ما سجلت صحف الإنسانية جرأة ووحشية » .

* * *

(١) Bleda : Defensio fidei in Causa Neophglorum sive Morischorum in Hispania

(٢) Lea : The Moriscos ; p. 366

(٣) Lea : ibid, p. 394 & 396

(٤) Lea : ibid, p. 367

(٥) Llorente : Historia Critica de la Inquisición de Espana (1815-1817)

هذا عن الأحبار . وأما عن آراء البحث الإسبانى الحديث ، فإنها تختلف فى تقدير آثار نفى الموريسكيين اختلافاً بيناً ، بيد أنها تميل على الأغلب إلى الاعتراف بفداحة الآثار المخربة التى أصابت اسبانيا من جرائه ، وإلى اعتباره عاملا قوياً فى تدهور اسبانيا وانحلالها. بيد أنها مع ذلك تحاول الاعتذار عن النفى ، ويرى البعض أنه كان إجراء طبيعياً ، وضرورة لا محيص منها ، وينكر البعض الآخر أنه كان كارثة أو أنه ترتبت عليه آثار مخربة . وقد رأينا أن نورد هنا طائفة من آراء عدة من أكابر المؤرخين والمفكرين الإسبان المحدثين ، وأن نوردها بدقة وإفاضة تسمحان بفهم الروح الإسبانية ، إزاء هذا الحدث التاريخى الخطير ، وتقديرها على حقيقتها .

يقول دانفيلا إى كوليادو :

« وهكذا تحقق نفى الموريسكيين الإسبان ، بغض النظر عن كونهم شبانا أوشيوخاً ، صالحين ، أو عقماء ، مذنبين أو أبرياء . وكانت مسألة الوحدة السياسية تحمل فى ثنيتها ضرورة الوحدة الدينية ؛ وضع خطتها الملكان الكاثوليكيان ، وحاول تحقيقها الإمبراطور كارلوس الخامس (شارلكان) وفيليب الثانى ، ولكنهما ارتدا خشية من عواقبها . أما فيليب الثالث ، فكان يزاول سلطانه عن يد أصفيائه ، ولذا ألفى سلطة العرش الدينية والسياسية ، أيسر وأهون . وكانت الحرب الدينية تضطرم ضد الجنس الأندلسى ، وقد ألفت عواطف الروح الرقيقة نفسها ، وجهاً لوجه أمام المسألة السياسية . ودخلت الإنسانية والدين فى صراع وخرج الدين ظافراً وفقدت اسبانيا أنشط أبنائها ، وانتزع الأبناء من حجور أمهاتهم وحنان آبائهم ، ولم يلق الموريسكى أية رأفة أو رحمة . ولكن الوحدة الدينية بدت ساطعة رائعة فى سماء اسبانيا ، واغتبطت الأمة إذ أضحت واحدة فى جميع مشاعرها العظيمة .

« كان الموريسكيون شديدى المراس . وكان الوطن ينشد وحدة معنوية ، تغدو متممة للوحدة السياسية ، التى تحققت باندماج سائر العروش فى شبه الجزيرة ، وكان عنصر تناقض قوى ، كالذى تمثله طائفة الموريسكيين ، لا يكون فقط عقبة شديدة يصعب تذليلها ، ولكنه كان استحالة مطلقة ، تحول دون تحقيق الغاية ، التى تتجه إليها الحركة العامة للفكر القومى . وكانت الصعوبة كلها تجثم فى الدين. ولم تكن اللغة التى تبدو خاصة قومية أخرى ، تكون يومئذ أو فى أى وقت عقبة بمثل هذه الخطورة ، ففى شمال اسبانيا ، وفى شرقها ، توجد اللهجات المختلفة ، من الجليقية والقطلونية والميورقية والبلنسية وغيرها . وكذلك يوجد مثل هذا

التباين فى النظم القضائية ، والثياب والعادات الخاصة بكل منطقة ، ولكن ذلك لم يكن عقبة كأداء فى سبيل وحدة الدين ، والروح القومى ، ولم يخلق مثل المعضلة الدائمة ، التى خلقها الدين بالنسبة للموريسكيين ، والتى جعلتهم فى حالة دائمة من التربص والتوجس . إن ما بذله كارلوس الخامس وفيليب الثانى ، لإخضاع الموريسكيين للنصرانية ، مما لا يمكن وصفه ، ولكن جهودهم كلها ذهبت عبثاً . ذلك أنه بعد ثلاثة قرون من الخضوع ، لبث الموريكسيون فى عصر فيليب الثالث ، يضطرمون بنفس الروح المتمردة ، التى كانت لأسلافهم الذين أخضعوا بالسيف ، وقد ارتضوا حالتهم كمحنة موقتة عابرة ، ولم ينبذوا الأمل قط ، ولم يتركوا قط الوسائل التى يعتقدون أنها تمكنهم ذات يوم من الأخذ بالثأر ، واسترداد استقلالهم وسيادتهم » .

ثم يقول : « وإنها لخرافة أن يقال إن الموريسكيين كانوا عنصراً مفيداً فى إنتاج اسبانيا ، ولو أنهم كذلك لحملوا الرخاء إلى بلاد المغرب حيث ذهبوا »[1] .

ويقول المؤرخ الكبير مودستو لافونتى ، وسنرى أنه يذهب فى الصراحة وتقدير الحقائق المنزهة إلى أبعد حد :

« وعلى أى حال فإن مراسيم فيليب الثالث الشهيرة ضد الموريسكيين ، قد جردت اسبانيا — وقد كانت يومئذ جد مقفرة من السكان بسبب الإدارة السيئة والحروب المستمرة — من طائفة كبيرة من السكان ، أو بعبارة أخرى من السكان الزراعيين والتجاريين والصناعيين ، من السكان المنتجين ، أولئك الذين يساهمون بأكبر قسط فى الضرائب . وكان أقل ما فى ذلك تسرب الملايين من الدوقيات ، التى حملتها الطائفة المنفية معها ، فى الوقت التى كانت فيه المملكة تعانى من قلة النقد ، فكان نقص الذهب الفجائى على هذا النحو أشد وطأة عليها . وكذلك وقع ضرر أفدح بذيوع النقد الزائف أو المنقوص ، الذى روجه المنفيون بسوء قصد قبل رحيلهم . وأسوأ ما فى ذلك كله ، هو أنه فقد برحيلهم العنصر العامل الذكى المتمرس فى الفنون النافعة . وهم قد بدأوا بالزراعة ، وزراعة السكر والقطن والحبوب ، التى كان لهم فى إنتاجها التفوق الجم ، وذلك لنظامهم المدهش فى الرى بواسطة السواقى والقنوات ، وتوزيع المياه بواسطة هذه الشرايين توزيعاً مناسباً ،

---

(1) M. Danvila y Collado : La Expulsiôn de los Moriscos Espanoles. (Madrid 1889) p. 320-22

كان له أثره فى الإنتاج العظيم الذى امتازت به مروج بلنسية وغرناطة ؛ ثم تابعوا بنسج الأصواف والحرائر ، وصنع الورق والجلود المدبوغة ، وهى صناعات برع الموريسكيون فيها أيما براعة ، واتهوا بمزاولة الحرف الميكانيكية ، وهى حرف كان الإسبان لكسلهم وتكبرهم يحتقرونها ، ومن ثم فقد احتكرها الموريكسيون واختصوا بها . وقد عانى كل شىء من نقص فى السواعد وفى البراعة ، وهو نقص جعلت المفاجأة من المستحيل تداركه ، ثم غدا بعد ذلك ملؤه مبهظاً بطيئاً صعبا .

« ويقول نفس المؤرخ البلنسى الذى شهد النفى ، وكتب عقب إتمامه ، إنه ترتب على ذلك أن بلنسية ، وهى حديقة اسبانيا الغناء ، استحالت إلى قفر جاف موحش . وحدث هنالك كما حدث فى قشتالة ، وفى باقى البلاد ، أن بدا شبح الجوع الداهم ؛ وبالرغم من أنه قد جىء بسكان جدد إلى الأماكن التى هجرها الموريسكيون، لكى يتدربوا على العمل فى الحقول والمصانع والمعامل ، إلى جانب أولئك القلائل الذين ارتضوا البقاء (وهو اعتراف مخجل بلاريب) . على أن مثل هذا التمرن لم يؤت نتائجه السريعة ، والتدرب والدأب ليسا من الفضائل التى ترتجل ، ولم يكن من السهل أن يعوض مثل هذا الجنس من البشر ، وهو الذى استطاع بعبقريته ، ومركزه الخاص فى البلاد ، ووفرة براعته ، وجلده ، أن يحقق ما يشبه قهر الطبيعة ، واستغلالها لسائر مبتكراته . وهكذا حل مكان ضجيج القرى ، الصمت الموحش فى الأماكن المهجورة ، وبدلا من السيل المستمر من العمال والصناع فى الطرق، حل خطر لقاء الأشرار الذين يذرعونها، ويجثمون فى أطلال القرى المهجورة . وإذا كان ثمة بعض السادة الإقطاعيين قد غنموا من تراث المنفيين ، فقد كان عدد الذين خسروا أعظم بكثير ، وبلغ الأمر بالبعض أن طلبوا نفقات للطعام . أما الذين غنموا ، فقد كانوا بلاشك هم الدوق دى لرما وأسرته وقد استولوا على نصيب مما تحصل من بيع منازل الموريسكيين .

« ومن ثم فقد اعتبر نفى الموريسكيين من الناحية الاقتصادية ، بالنسبة إلى اسبانيا أفدح إجراء مخرب يمكن تصوره . وإنه ليمكن أن نغض الطرف عن المبالغة التى دفعت بأحد الساسة الأجانب ، وهو الكردينال ريشليو ، أن يسميه « أعرق إجراء فى الجرأة والبربرية مما عرفه التاريخ فى أى عصر سابق » والحق أن الصدع الذى أصاب ثروة اسبانيا العامة من جرائه ، كان من الفداحة بحيث أنه ليس من المبالغة أن نقول إنه لم يبرأ حتى عصرنا .

« فأما من الناحية الدينية ، فقد كان هذا الإجراء ، ثمرة الأفكار التى سادت فى اسبانيا قبل ذلك بقرون ، وثمرة البغض التقليدى المتأصل، الذى يكنه الشعب لغالبيه وأعدائه الألداء القدماء . وليس مما يمكن إنكاره ، أنه كان مؤيداً لفكرة الوحدة الدينية ، التى دأب على العمل لتحقيقها وإكمالها الملوك الإسبان والشعب الإسبانى . بيد أنا لانعتقد أنه كان من البراعة (ما عدا اعتباره صراعاً مقرراً هو من خصائص العصور الوسطى) أن نصل إلى الوحدة الدينية بطريق إفناء أولئك الذين يعتنقون عقائد أخرى . وقد كانت البراعة أن نعمل على اجتذاب المخالفين المعاندين ، بالتعاليم والإقناع ، والحزم ، والرفق ، وتفوق الحضارة .

وأما كونه إجراء سياسياً، قصد به إلى تحقيق سلامة الدولة وسلامها، فقد كان ممكناً أن نبرر اتخاذه لوكانت المؤامرات حقيقية وخطيرة، وكانت الخطط شنيعة ، وكانت الوسائل قوية، والخطر داهماً ، وذلك كما افترض الوزير المقرب، والأسقف ريبرا والنصحاء الآخرون . أجل لم يك ثمة شك فى أنه كانت هنالك مكاتبات وعلائق ومشاريع معادية لإسبانيا ، بين بعض الموريسكيين البلنسيين وبين المغاربة والترك ، بل بينهم وبين بعض الفرنسيين . بيد أننا لم نقتنع بأن هذه الخطط كانت من الجسامة والخطر بمثل ما كان يصورها أنصار النفى ، ولم نقتنع بأن النصارى المحدثين فى بلنسية كان لهم من القوة ما يمكن أن يثير مخاوف ذات شأن ، كما أنه لم يكن ثمة ما يثير المخاوف من جانب الموريسكيين فى أراجون وفى مرسية ، مثلما زعمت الوفود التى أتت من هذين الإقليمين ، وكذلك لم يكن الموريسكيون فى قشتالة يعرفون التآمر أو يقدرون عليه . وعلى أى حال فإنه متى ذكرنا ، أننا بعد مضى أكثر من قرن على قهر الموريسكيين وإخضاعهم لقوانين المملكة، وتفريقهم ومزجهم بالإسبان والنصارى ، لم نوفق إلى تأليفهم فى العادات والعقائد ، أو أن ندمج بقية الأمة المغلوبة فى الكتلة الكبرى للأمة الغالبة ، ولم نوفق إلى جعلهم نصارى واسبانيين ، ثم لجأنا بلا ضرورة إلى وسيلة إفناء جيل برمته ، متى ذكرنا ذلك فإنا لا نستطيع أن ننظر بعطف إلى مهارة فيليب الثالث والملوك الذين سبقوه، ولا إلى حزمهم أوسياستهم »[١] .

ويقول فلورثيو خانير ، وهو يحذر حذو لافونتى فى تقديره وتعليله ، وينقل بعض أقواله :

---

(١) Modesto Lafuente : Historia General de Espana (Madrid 1862) T. VIII, p. 211-214

« ومع ذلك ، فإنه لمصلحة الدين ، والسلام الداخلى ، وسلامة الدولة ، قد وقع الإغضاء عن المزايا التى كان يسبغها الموريكسيون على الصناعة والتجارة والزراعة ، بل وعلى ثروة الأمة الإسبانية كلها، وذلك حينما أخرج بواسطة مراسيم فيليب الثالث ، آلاف من الصناع الموريسكين ، يحملون معهم بنور الحضارة والحرث . وقد قال كامبومانس الشهير : « إن بدء تدهور صناعاتنا يرجع إلى سنة ١٦٠٩ ، حينما بدئ بنفى الموريسكين . فمن ذلك الحين ، تبدأ مع خراب المصانع صيحات الأمة المتوالية ؛ وعبثاً يحاول ساستنا أن ينسبوا بؤس القرن السابع عشر ، إلى أسباب أخرى ، فهى وإن كانت جزئية ، لا يمكن أن تضارع ضربة بهذه المفاجأة ، وهى ضربة لم تستطع الأمة حتى اليوم أن تنهض من عثارها » . ولقد أحدثت مزاولة العرب للمهن الفنية فى الإسبان أثرين سيئين ، الأول أنهم اعتبروا هذه المهن من الأمور الشائنة ، والثانى أنهم لم يتعلموا شيئاً منها حتى لا يتشبهوا بأولئك الذين يزاولونها . وهم قد بدأوا بالزراعة وزراعة السكر والقطن والحبوب ، التى كان للموريسكين فى إنتاجها التفوق الجم ، وذلك لنظامهم المدهش فى الرى بواسطة السواقى والقنوات ، وتوزيع المياه بواسطة هذه الشرايين توزيعاً مناسباً ، كان له أثره فى الإنتاج العظيم الذى امتازت به مروج بلنسية وغرناطة الخصبة ؛ ثم تابعوا بنسج الأصواف والحرائر ، وصنع الورق والجلود المدبوغة ، وهى صناعات برع فيها الموريكسيون أيما براعة، وانتهوا بمزاولة الحرف الميكانيكية وهى حرف كان الإسبان لكسلهم وتكبرهم يحتقرون مزاولتها ؛ ومن ثم فقد كان الموريسكيون يحتكرونها ، وقد وقع من جراء ذلك نقص فى الأيدى وفى المهارة كان من المستحيل ملؤه فى الحال ، ثم غدا بعد ذلك ملؤه مهظاً بطيئاً صعباً . وقد بلغ النقص فى الأنفس ، وفقاً للدراسات التى قمنا بها لنتائج الحادث ، على الأقل نحو مليون . ثم يأتى بعد ذلك نقص العملة الذهبية ، بسبب الكميات الكبيرة التى حملوها معهم من الدوقيات ، وأخيراً يأتى ذيوع النقد الزائف أو ناقص الوزن، وهو الذى ملئوا به المملكة قبل نزوحهم منها ، على أن الضرر الفادح الذى لم يعوض لسنين بعيدة ، هو بلا ريب ما أصاب الزراعة والصناعة والتجارة .

« ومن ثم فنى وسعنا أن نقول عن بلادنا بحق ، إن بلاد العرب السعيدة ، قد استحالت إلى بلاد العرب القفراء ، وعن بلنسية بوجه خاص ، إن حديقة اسبانيا الغناء قد استحالت إلى صحراء جافة مشوهة . وقد حل شبح الجوع بالاختصار

فى كل مكان ، وحل مكان المرح الصاخب للقرى العامرة ، الصمت الموحش فى الأمكنة المهجورة ؛ وبدلا من أن ترى أمامك العمال والصناع ، فإنك تغامر بأن تقابل قطاع الطرق يملؤونها ويجثمون فى أطلال القرى المهجورة . ولئن كان ثمة فريق من السادة الملاك الذين أفادوا من تراث المنفيين ، فقد كان ثمة عدد أكبر بكثير ممن خسروا ، وانتهى بعضهم إلى الموقف المؤلم ، بأن يلتمسوا من الحكومة نفقة لإطعامهم ، ولم يك بينهم أحد قط ممن غنم كما غنم الدوق دى لبرما وأسرته ، وقد استولوا على جزء من أثمان بيع منازل الموريسكيين ، بلغ نحو خمسة ملايين ونصف ريال .

« وإذاً فقد كان نفى الموريسكيين من الناحية الإقتصادية ، يعتبر بالنسبة إلى اسبانيا ، أفدح إجراء مخرب يمكن تصوره . وإنه ليمكن أن نتسامح فى المبالغة التى يصفه بها سياسى أجنبى هو الكردينال ريشليو ، حيث يصفه بأنه « أعرق إجراء فى الجرأة والبربرية مما عرفه التاريخ فى أى عصر سابق » . والحق أن الصدع الذى منيت به ثروة اسبانيا العامة من جرائه ، كان من الفداحة بحيث أنه ليس من المبالغة أن نقول إنه لم يبرأ حتى يومنا »(١). بيد أن خانير مع ذلك يقول إن النفى كان ضرورة دينية وسياسية ، وإن الوحدة الدينية ، تغدو اليوم أسطع جوهرة للأمة الإسبانية .

ويعلق المؤرخ الإجتماعى بكاتوسى ، فى الفصل الذى عقده عن « بؤس اسبانيا العام » فى كتابه عن « عظمة اسبانيا وانحلالها » على نفى الموريسكيين بما يأتى :

« كان نفى الموريسكيين من أفدح المصائب التى نزلت باسبانيا . أجل لقد وجد أيام الملكين الكاثوليكيين بعض المتعصبين الذين كانوا يقترحون هذا النفى ويعملون له . ولكنهم وجدوا عقبة كأداة فى معارضة الملكة إيسابيلا . وفى سنة ١٥٢٩ ، بذل أسقف إشبيلية ، جهوداً مضاعفة فى هذا السبيل ، وكذا طوال حكم فيليب الثانى ، كان هذا الموضوع يثار من وقت إلى آخر . ولكن أمكن فقط فى عصر فيليب الثالث المحزن ، أن يرتكب هذا الخطأ الفادح .

« والمسئولية الكبرى التى تقع على عاتق هذا الملك ، وعلى نصحائه وأسلافه ، تتلخص فى أنهم لم يحموا مصالح الموريسكيين المادية ، فيمهدوا لتلك الطائفة العاملة ، سبل الحياة المستقرة الهادئة ؛ ولم يكن لهم من القوة أو الكياسة أو الحزم ما يمكنهم

(١) D. Florecio Janer : Condición Social de los Moriscos de Espana (Madrid 1875) p. 100 & 101

من إخضاع هذه الطائفة المتمردة ، التي عاشت في اسبانيا في أوقات ، كانت فيها الأحقاد في أوج اضطرامها بين الغالبين والمغلوبين ؟

« ولقد أثار الإسراف في فرض الضرائب وبخس الأعمال ، والاضطهاد الديني ، ومساوئ ديوان التحقيق ، هذه الأرواح التي قابلت حكومة ضعيفة التدبير ، حتى أنه أضحى من المحتوم أن يتخذ هذا الإجراء الشاذ المتطرف .

« إن المؤرخين والساسة الذين دافعوا عن نفي الموريسكيين ، بعضهم للدفاع عن أخطاء هذه المدرسة ، وبعضهم لكي يشيد بالعمل الرائع ، إنما يدافعون عن أمور سيئة ، أو يرغبون في أن يضعوا السياسة والسلطة فوق رأس الأمة ، وهم في تبرير مثل هذا الإجراء ، لم يراعوا إلا ضرورة الساعة . وإذا فرضنا جدلا ضرورته السياسية باسم السلام والسكينة العامة ، وهي التي اتخذت لتبرير كثير من الأخطاء ، بل وكثير من الجرائم ، فإنا لانستطيع أن ننسى أن هذا الموقف المحزن ، قد خلقته أخطاء السلطة التي واجهت تلك المشكلة القاسية ، ورأت أن تقصي الموريسكيين عن اسبانيا ، لأنها شعرت أنها عاجزة عن إخماد ثوراتهم المستمرة .

إن فقد هذه السواعد في الأعمال الزراعية ، وفي كثير من الفنون والأعمال ، والازدراء الذي كان الإسبان يضمرونه لهذه الطائفة ولنشاطها ، والسرعة التي وقعت بها هذه الخسارة ، وعدم تحوط الحكومة ، التي لم تحاول بأية وسيلة أن تعوض عن نشاطها ، وزيادة الضرائب وغيرها من المغارم ، التي أضحى عبؤها يقع فقط على عاتق الشعب الإسباني ، لكي يعوض ذلك ماخسرته الدولة مما كان يؤديه الموريكسيون : هذه ربما كانت الأسباب السريعة للبؤس العام .

ولقد قام بعض المؤرخين ببحوث مدهشة لتقدير عدد المنفيين ، ونحن لا نجاريهم في ذلك ، إذ يبدو لنا العدد أمراً لا أهمية له . وسواء أكان المنفيون كثرة أوقلة ، فقد كانوا هم الوحيدون الذين يعملون ، وقد أحدث خروجهم من المملكة اضطراباً خطيراً .

بمثل هذه العوامل ، وصل البؤس الداخلي في المملكة إلى حد لا يمكن تصوره ، ولا تمكن مقارنته ، هذا بينما كان البلاط يغرق في الحفلات الشائقة ، وينسب لفيليب الثالث ما كان يمكن صدوره من فيليب الثاني أوكارلوس الخامس »(١) .

(١) D. Felipe Picatosti : Estudios sobre la Grandeza y Decadencia de España. (Madrid 1887). p. 101 & 102

ويرى العلامة مننديث إى بلايو ، وهو من أعظم المفكرين، والنقدة الإسبان المحدثين ، أن نفى الموريسكيين كان نتيجة محتومة لسير التاريخ ، ويشرح رأيه فى كتابه عن « الخوارج الإسبان » على النحو الآتى :

« ولنقل الآن رأينا فى مسألة النفى بكل وضوح وإخلاص ، وذلك بالرغم من أنه يستطيع أن يتكهن به من تتبع القصة السابقة، بروية وبلا تحيز ، ولن أتردد فى الجهر به ، وإن كان من المؤسف أن يكون ثمة ما أخر إبداءه . فهل كان من الممكن أن يقوم الدين الإسلامى بيننا فى القرن السادس عشر؟ من الواضح أن لا ، بل ولا يمكن أن يكون ذلك الآن فى أى جزء من أوربا . فكيف يستسيغ وجوده فى تركيا أولئك الإنسانيون الأجانب الذين يصفوننا بالبربرية لأننا قمنا بإجراء النفى ؟ وإنهم لأسوأ مائة مرة من المسلمين الخلص ، مهما كان دينهم عائق لكل تمدن، أولئك النصارى المنافقون ،والمرتدون والمارقون، الذين لم يحسن إخضاعهم وأولئك الإسبان الأوغاد ، الأعداء الداخليون ، خميرة كل غزو أجنبى ، الجنس الذى لا يقبل الاندماج، كما أثبتت ذلك التجارب المحزنة مدى قرن ونصف . فهل يعتبر ذلك تبريراً لأولئك الذين مزقوا عهود غرناطة، أو لأولئك الثوار الذين أضرموا الهياج فى بلنسية ونصروا الموريسكيين بصورة منافية للدين ؟ كلا على الإطلاق . بيد أنه وقد سارت الأمور منذ البداية على هذا النحو ، فإنه لم يكن من الممكن أن تكون ثمة نتيجة أخرى ، فقد كانت الأحقاد والشكوك المتبادلة ، تضطرم باستمرار بين النصارى القدامى والمحدثين ، وقد لطخت بقاع البشرات بالدماء غير مرة ، وفقد الأمل فى تحقيق التنصير بالوسائل السلمية ، وذلك بالرغم من تسامح ديوان التحقيق ، والغيرة الطيبة التى أبداها رجال مثل تلافيرا ، وڤيلانيڤا ، وربيرا ، وإذاً فلم يك ثمة محيص من النفى . وأكرر أن فيليب الثانى قد أخطأ فى كونه لم ينفذه فى الوقت المناسب . وإنه لمن الحق أن نعتقد أن الصراع من أجل البقاء والمعارك ، والمذابح بين الأجناس ، تنتهى بصورة أخرى غير النفى أو الفناء . ذلك أن الجنس الأدنى ينهار دائماً ، ويفوز بالنصر مبدأ القومية الأقوى .

وأما إن النفى كان حدثاً مقوضاً ، فهذا ما لا ننكره ، فإنه من المقرر أنه فى العالم يمتزج الخير والشر دائماً . وخسارة مليون بأسره من الناس ، لم تكن هى السبب الأساسى فى إقفار بلادنا من السكان، وإن كان لها أثر فى ذلك . وبعد فإن ذلك يجب ألا يعد إلا كإحدى قطرات الماء فى جانب نفى اليهود ، واستعمار أمريكا ،

والحروب الخارجية فى مائة مكان معاً ، وعدد الجند النظاميين الضخم ، وهى أسباب نوه بها كلها بإيجاز اقتصاديونا القدامى ، ومنهم من لم يتردد كالحبر فرناندث نابارتى فى نقد نفى الموريسكيين بعد وقوعه بأعوام قليلة . وما كانت بل وليست الأجزاء المقفرة من السكان فى اسبانيا ، هى التى تركها العرب ، كما أنها ليست أسوأها زراعة ، وهو مايدل على أن الخسارة التى لحقت بالزراعة ، من جراء نفى كبار الزراع المسلمين ، لم تكن عميقة أو باقية الأثر ، كما قد يتبادر إلى الذهن ، لو أننا وقفنا فقط عند عويل أولئك الذين تأملوا الحقول المجدبة غداة تنفيذ أوامر النفى . ونحن أبعد من أن نعتقد مع الشاعر الساذج الشيوعى نوعاً جسبار دى أجيلار ، أنه لم يخسر بالنفى سوى السادة الذين فقدوا أتباعهم المسلمين ، وأن الكثرة من الناس قد غنمت ، وغدا :

الأغنياء فقراء ، والفقراء أغنياء
والصغار كباراً ، والكبار صغاراً

ذلك أن مثل هذه النظريات ، وان أملاها الإخلاص والحماسة الشعبية ، اللذان يضطرم بهما الشاعر ، ليست إلا من أسخف وأضل ضروب الاقتصاد السياسى . ذلك أن مملكة بلنسية كلها كان لزاماً أن تخسر ، وقد خسرت برحيل مثل هذا العدد الجم من عمال مهرة هادئين مثابرين ، وقد كانوا حسبما يصفهم السكرتير فرنسيسكو إدياكيث « يكفون وحدهم لإحداث الخصب والرخاء فى سائر الأرض ، لبراعتهم فى الزراعة ، وقناعتهم فى الطعام » . هذا بينما يصف هذا السكرتير النصارى القدماء بقوله « إنهم قليلو الخبرة فى الزراعة » . على أنه من المحقق أنهم تعلموا ، وأن بلنسية قد عمرت فيما بعد ، وأن سائر الطرق الزراعية ونظم الرى البديعة ، التى ربما كان من الخطأ أن تنسب إلى العرب وحدهم ، قد أحييت فى هذه المناطق حتى أيامنا .

وإذا كان تدهور الزراعة مما لا ينكر ، ولعله مبالغ فيه ، فإن تأثر الصناعة كان أقل . ذلك لأن الصناعة كانت قبل ذلك بنصف قرن قد أصيبت باضمحلال واضح ، وكذلك لأن الصناعات الرئيسية ، إذا استثنينا الورق والحرير ، لم تكن فى أيدى الموريسكيين ، وقد كانوا دائماً عمالا أكثر منهم صناعاً . فإذا قيل مثلا إن المناسج التى بلغ عددها من قبل فى إشبيلية ستة عشر ألفاً ، لم يبق منها فى عهد فيليب الخامس سوى ثلاثمائة ، ونسب ذلك كله إلى واقعة النفى ، فإن أصحاب هذا

القول ينسون أنه لم يكن فى إشبيلية أحد من الموريسكيين ، وأن هذه المصانع كانت قد تركت قبل النفى بخمسين عاماً ، كأنما آثر أجدادنا أن يحققوا الثراء بالحرب فى إيطاليا وبلاد الفلاندر ، وبغزو أمريكا ، وكأنهم كانوا ينظرون باحتقار سخيف مؤسف للفنون والأعمال الصناعية . إن اكتشاف العالم الجديد ، والثروات التى كانت تتدفق من هنالك ، فتثير الجشع ، وتذكى أطماعاً يسهل تحقيقها : ذلك هو السبب الحقيقى الذى أسكت مناسجنا وأمحل زراعتنا ، وجعل منا أول طائفة من المغامرين المحظوظين ، ثم بعد ذلك شعباً من الأشراف المتسولين ، وإنه لمن المضحك أن ننسب إلى سبب واحد ، ربما كان أقل الأسباب ، ما كان نتيجة لأخطاء اقتصادية يعسر علينا أن نتبين علاقتها بالتعصب الدينى .

والخلاصة أنه متى تدبرنا المزايا والمضار ، فإننا ننظر إلى إجراء النفى العظيم ، بنفس الحماسة التى امتدحه بها لوبى دى ڤيجا وثرڤانتس ، وكل اسبانيا فى القرن السابع عشر ، باعتباره ظفراً لوحدة الجنس ووحدة الدين واللغة ، والتقاليد . أما الأضرار المادية فقد شفاها الزمن ، وقد استحال ما كان صحراء بلقع قاتمة ، إلى مهاد خصبة وحدائق غناء . وأما الذى لا يشفى ، وأما الذى يترك دائماً الأحقاد الدموية الأبدية ، فهى جرائم تشبه جرائم الوندال . ولما هدأت آثار النفى ، أضحى النفى ليس فقط إجراء محموداً ، بل كذلك إجراء ضرورياً . لم يكن ميسوراً أن تحل العقدة ، فكان لابد من قطعها ، ومثل هذه النتائج تقترن دائماً بالانقلابات المفروضة »[1] .

ويعلق العلامة الدكتور لى ، وهو من أحدث الباحثين فى هذا الموضوع على آراء المفكرين والمؤرخين الإسبان بقوله : « إذا كان نفى الموريسكيين كما يقول متنديث إى بلايو ، نتيجة محتومة لقانون تاريخى ، وإذا كان قد غدا ضرورة فى عهد فيليب الثالث ، فقد كانت ضرورة مصطنعة ، خلقها تعصب القرن السادس عشر ، وإذا كان وجود المدجنين ، منذ أيام ملوك ليون وقشتالة وأراجون فى الأراضى الإسبانية ، من الأمور المأمونة ، وذلك فى الوقت الذى كان فيه زعماء اسبانيا النصرانية يشغلون بحروب أهلية مضطرمة ، ويواجهون دول العرب والمرابطين والموحدين القوية ، وإذا كان فى وسع الملوك النصارى فى هذه العصور

---

(1) M. Menendez y Pelayo : Historia de los Heterodoxes Espanoles p. 339 - 343

المضطربة ، أن يركنوا إلى ولاء رعاياهم المسلمين أثناء الحرب ، وأن يفيدوا من نشاطهم أثناء السلم ، فإن الضرورة السياسية للوحدة الدينية ، بعد أن غدت اسبانيا دولة قوية موحدة ، وغدا المسلمون طوائف ممزقة ، لم تكن بلا ريب سوى ضرب من الخيال المغرق الذى يخلقه التعصب . وقد كان هذا التعصب ، نتيجة لتعاليم الكنيسة المستمرة ، وهى التعاليم التى اعتنقتها اسبانيا مذ غدت قوة عالمية . وما أن انحدرت اسبانيا إلى طريق التعصب ، حتى دفعه توقد المزاج الإسبانى إلى نهايته المحتومة باكمال لا نظير له . ولما قضت غطرسة الكردينال خمنيس العنيفة ، على ثقة المسلمين فى عدالة اسبانيا وشرفها ، اتخذت الخطوة المحتومة فى طريق لم تكن له سوى نهاية واحدة ... ولقد كان الموريسكيون بالضرورة أعداء فى الداخل ، حملوا بكل وسيلة على بغض دين فرض عليهم بالقوة ، وتبلورت مثله فى الظلم والاضطهاد وفظائع ديوان التحقيق ، وكان من المستحيل فى ظل المؤثرات الدينية ، التى غلبت على السياسة الإسبانية ، أن يعامل الموريسكيون بالرفق والتسامح ، وبهما فقط يمكن العمل على إرضائهم ، وتحقيق رخائهم ، وبث محبة النصرانية فى قلوبهم . وقد كانت كل محاولة لتلطيف الموقف ، تزيده سوءاً حتى غدلوا إغراء دائماً لاتصال كل عدو من الخارج ، ومثاراً دائماً لجزع السياسة الإسبانية . فلما اضمحلت قوة اسبانيا ، وفقد حكامها الثقة بالنفس ، لم يكن ثمة بد من أن يتوج قرن من الغدر والظلم ، بالنفى والإبعاد . وقلما يقدم لنا التاريخ مثلا ، كوفئت فيه السيئة بأمثالها ، وطمت كوارثه ، كذلك الذى ترتب على جهود الكردينال خمنيس بما يطبعها من تعصب مضطرم » .

ثم يقول : « على أنه مهما كان من فداحة الضربة ، فقد كان الميسور تداركها بسرعة لو أن اسبانيا كانت تملك الحيوية القوية ، التى مكنت أمماً أخرى من أن تنهض من كوارث أشد . إن انحلال اسبانيا لا يرجع فقط إلى خسارتها لجزء من السكان ، بنفى اليهود والعرب المتنصرين ، فقد كان من المستطاع أن تعوض هذه الخسارة ؛ ولكن الخطب يرجع إلى أن اليهود والعرب المتنصرين كانوا من الناحية الإقتصادية أقيم عنصر بين سكانها ، وكان نشاطهم معيناً لحياة الآخرين ، وبينما كانت أمم أوربا الأخرى تنهض وتسير إلى الأمام فى مضمار التقدم ، كانت اسبانيا وشعارها أن تضحى كل شىء فى سبيل الوحدة الدينية ، تنحدر سراعاً إلى غمر البؤس والشقاء ، وتغدو جنة للأحبار والقساوسة ، وعمال ديوان التحقيق ، تخمد

فيها كل نزعة إلى الرقى العقلى ، وتقطع فيها كل صلة مع العالم الخارجى ، ويشل فيها كل جهد يبذل فى سبيل التقدم المادى . وقد كان من العبث أن تنهمر ثروات العالم الجديد ، إلى أيدى شعب لا تقل مواهبه الطبيعية عن أى شعب آخر ، وإلى أرض كانت مواردها عظيمة ، مثلما كانت حينما جعلتها براعة العرب ونشاطهم فى طليعة الأمم الأوربية ازدهاراً . ومهما كانت قيمة الخدمات التى أدتها إسابيلا الكاثوليكية والكردينال خمنيس ، فإن السيئ فى عملهما يفوق الحسن ، لأنهما علما الأمة أن الوحدة الدينية هى أول غاية يجب تحقيقها ، وقد ضحت فى سبيل هذه الغاية برخائها المادى ورقيها العقلى »[1] .

وأخيراً يجمل الدكتور لى خلاصة بحثه المستفيض فى مأساة الموريسكيين فى هذه العبارة الموجزة القوية : « إن تاريخ الموريسكيين لا يتضمن فقط مأساة تثير أبلغ عطف ، ولكنه أيضاً خلاصة لجميع الأخطاء والأهواء ، التى اتحدت لتنحدر باسبانيا فى زهاء قرن ، من عظمتها أيام شارل الخامس إلى ذلها فى عصر كارلوس الثانى »[2] .

ويقول العلامة سكوت : « لقد كانت نتائج هذه الجريمة التى ارتكبت ضد الحضارة ، سواء البعيد منها والمباشر ، ضربة لاسبانيا . فقد عصفت بموارد عيشها ، ودفع بها القحط إلى الخراب ، وأضحى من الضرورة أن تمد الحكومة يد الغوث إلى كثير من الأسر النبيلة ، التى أودى بثرواتها تصرف العرش الانتحارى ، وخيم الصمت والوجوم على مناطق شاسعة ، كان يغمرها الخصب الأخضر ، وظهر اللصوص والخوارج على القانون مكان الزراع والصناع ، وحل الجزاء المروع عقب مأساة لم تقدم على مثلها لحسن الطالع أية أمة أخرى ، مأساة أنزلت منذ وقوعها بالأمة التى ارتكبت فظائعها ، كل صنوف الدمار والويل حتى الجيل الأخير »[3] .

ويمكن أن نلخص رأى النقد الإسبانى المعاصر فيما سمعته من العلامة الأستاذ مننديث پيدال ، أعظم المؤرخين والنقدة الإسبان فى عصرنا ، فقد حدثته وأنا بمدريد عن قضية الموريسكيين ونفيهم ، فأدلى إلى بالآراء الآتية :

« لا ريب أن اسبانيا قد منيت من جراء نفى الموريسكيين بخسارة مادية لأنها

---

(١) Dr. Lea : The Moriscos ; p. 395 - 397 & 399 - 401

(٢) Lea : The Moriscos, p V.

(٣) Scott : The Moorish Empire in Europe ; V. III. p. 328

خسرت بإخراجهم شعباً مجداً عاملا بارعاً فى الزراعة والصناعة ، ولكن الواقع أن حركة الإنقلاب البروتستانتى حملت اسبانيا على أن تتبع من جانبها سياسة كاثوليكية شديدة ، وكان من جراء ذلك أن اشتدت فى معاملة الموريسكيين ، ويمكن أن نصف هذه السياسة بأنها كانت عنيفة مغرقة .

ولم يكن نفى الموريسكيين خطوة موفقة ، وكان أيضاً من آثار الحركة الرجعية الكاثوليكية . وما كان ملك قوى مثل فيليب الثانى ليقدم على اتخاذ مثل هذه الخطوة ، ولكن ولده فيليب الثالث كان ملكاً ضعيفاً يعوزه الذكاء والحصافة . وقد غلبت السياسة الدينية والكنسية فى هذه المسألة . ويبدو خطأ هذه السياسة بالأخص من الناحية العنصرية ، فإن العلامة ريبرا يعتقد مثلا أن الموريسكيين كان نصفهم على الأقل من الإسبان الخلص الذين اعتنقوا الإسلام فى عهود مختلفة ، ثم أرغموا على التنصير بعد سقوط غرناطة وصاروا موريسكيين .

ويسلم الأستاذ پيدال بأن نفى الموريسكيين كان من عوامل انحلال اسبانيا ، ولكنه يرى من المبالغة أن يقال إنه السبب الرئيسى لهذا الانحلال . ثم يقول : « الواقع أن هذه مسألة معقدة ، وأعتقد أن من أهم أسباب انحلال اسبانيا ، عنف السياسة الكنسية المناهضة لحركة الإصلاح الدينى — البروتستانتية — وهو عنف لم يقع مثله فى أى بلد أوربى آخر بل انفردت به اسبانيا والكنيسة الإسبانية » .

ويبدى دى ماريليس الذى اتخذ مؤلف كوندى أساساً لكتابه عن « تاريخ دولة المسلمين فى اسبانيا والبرتغال » حماسة فى تقدير تراث الأمة الأندلسية وما أصاب اسبانيا من جراء القضاء عليها ، ويعلق فى خاتمة تاريخه على مأساة الموريسكيين فى تلك العبارات الشعرية المؤثرة :

« وهكذا اختفى من الأرض الإسبانية إلى الأبد ذلك الشعب الباسل اليقظ الذكى المستنير ، الذى أحيى بهمته وجده تلك الأراضى ، التى أسلمتها كبرياء القوط الخاملة إلى الجدب ، فدر عليها الرخاء والفيض ، واحتفر لها عديد القنوات ، ذلك الشعب الذى أحاطت شجاعته الفياضة فى السعود والشدائد معاً ، عرش الخلفاء بسياج من البأس ، والذى أقامت عبقريته بالمران والتقدم والدرس ، فى مدنه صرحاً خالداً من الأنوار ، التى كان ضوؤها المنبعث ينير أوربا ، ويبث فيها شغف العلم والعرفان ، والذى كان روحه الشهم يطبع كل أعماله بطابع لا نظير له من العظمة والنبل ، ويسبغ عليه فى نظر الخلف ، لوناً غامضاً من العظمة الخارقة ، ودهاناً سحرياً

من البطولة ، يذكرنا بعصور هومير السحرية ، ويقدم لنا فيهم أنصاف آلهة اليونان ، ولكن شيئاً لا يدوم فى هذا العالم . فإن هذا الشعب قاهر القوط ، الذى كان يبدو أنه صائر خلال القرون ، إلى أقصى الأجيال ، قد ذهب ذهاب الأشباح ، وعبثاً يسائل اليوم السائح الفريد ، قفار الأندلس المحزنة ، التى كان يعمرها من قبل شعب غنى منعم . ظهر العرب فجأة فى اسبانيا ، كالقبس الذى يشق عباب الهواء بضوئه ، وينشر لهبه فى جنبات الأفق ، ثم يغيض سريعاً فى عالم العدم ، ظهروا فى اسبانيا فملأوها فجأة بنشاطهم وثمار براعتهم ، وأظلها كوكب من المجد شملها من البرنيه إلى صخرة طارق ، ومن المحيط إلى شواطىء برشلونة . ولكن هوى يضطرم إلى الحرية والاستقلال ، وخلقاً متقلباً يميل إلى الخفة والمرح ، ونسيان الفضائل القديمة ، وميل نكد إلى التمرد والثورة ، يثيره دائماً خيال ملتهب ، وشهوات وأطماع عنيفة ، ونزعة إلى التغلب وغيرها ، من عوامل الاضمحلال ، قد عملت شيئاً فشيئاً ، على هدم ذلك الصرح العتيد ، الذى شاده رجال كطارق وعبد الرحمن الناصر ومحمد بن الأحمر ، وأفضت بالعرب إلى خلافات داخلية ، فلت من بأسهم وحملتهم إلى هاوية الفناء .

خرج ملايين العرب من اسبانيا ، حاملين أموالهم وفنونهم ، ثروات الدولة ، فماذا أنشأ الإسبان مكانهم ؟ لا نستطيع أن نجيب بشىء ، الا أن حزناً خالداً يغمر هذه الأرض ، التى كانت من قبل تتنفس فيها أبهج الطبائع . أن ثمة بعض الآثار المشوهة ما زالت تقوم فى هذه البقاع الموحشة ، ولكن صرخة حقيقية تدوى من أعماق هذه الأطلال الدارسة : الشرف والمجد العربى المغلوب ، والانحلال والبؤس للإسبانى الظافر » (١) .

ويقول الأستاذ لاين پول فى مقدمة كتابه عن « العرب فى اسبانيا » ؛ « لبثت اسبانيا فى يد المسلمين ثمانية قرون ، وضوء حضارتها الزاهرة يبهر أوربا ، وازدهرت بقاعها الخصبة بمجهود الفاتحين ، وأنشئت المدائن العظيمة فى سهول الوادى الكبير ، فلم يبق ثمة ما يذكرنا بماضيها المجيد ، سوى الأسماء والأسماء فقط — وتقدمت بها الآداب والعلوم والفنون ، دون سائر الأمم الأوربية ، ولم تثمر وتكتمل زهرة العلوم

---

(١) De Marlès : Histoire de la Domination des Arabes et des Maures en Espagne et Portugal (redigé sur l'Histoire de M. Joseph Condé). V. III. p 404 - 406

الرياضية والفلكية والنباتية ، والتاريخ والفلسفة والتشريع ، إلا فى اسبانيا المسلمة ، فكل ما يدعو إلى عظمة أمة وسعادتها ، وكل ما يؤدى إلى رقى باهر وحضارة سامية ، فاز به مسلمو اسبانيا .

ثم ذوت عظمة اسبانيا بسقوط غرناطة . وقد سطعت لمدى قصير أشعة من ضوء الحضارة العربية، فوق الأرض التى كان ينعشها بحرارته . ثم تضاءلت عظمة عصور فرديناند وإسابيلا ، وشارل الخامس ، وفيليب الثانى ، وكلومبوس وكورتيس وبيثارو ، لتموت بموتها دولة عظيمة . ثم خفقت أعلام الخراب بسيادة ديوان التحقيق وسادت اسبانيا بعد ذلك ظلمة حالكة ؛ فأصبح لا يعرف الأطباء بأرض كانت علومها منيرة إلا بالجهل والقصور ... وقضى على فنون إشبيلية وطليطلة وألمرية وعفت صناعاتها ، وصحيت المعاهد العامة حتى تزول بزوالها آثار الإسلام ، وخربت المدائن الكبيرة ، وذوت نضرة الوديان الخصبة ، فحل البؤساء والدهماء واللصوص مكان الطلاب والتجار والفرسان : ذلك مبلغ انحطاط اسبانيا بعد إقصائها للعرب ، وهكذا يبدو البون شاسعاً بين أدوار تاريخها »(١).

Lane-Poole : The Moors in Spain (١)

الكتاب الخامس

نظم الحكم

والحياة الاجتماعية والفكرية في مملكة غرناطة

الفصل الأول

نظم الحكم فى مملكة غرناطة

وخواصها الإجتماعية

مكانة الحضارة الأندلسية . ذوبها عقب انهيار الخلافة . انتعاشها أيام الطوائف . ركودها أيام المرابطين وانتعاشها أيام الموحدين . بنو زهر . ابن ميمون وابن رشد . الإضطهاد الفكرى أيام الموحدين . الآداب والفنون فى هذا العهد . مملكة غرناطة وخواصها الطبيعية . دولة بنى الأحمر أو الدولة النصرية . شعارها الحكم المطلق . الوزراء الطغاة . أخطار هذا النظام . حمية الشعب الغرناطى . مناصب الحكم الرئيسية . الوزارة . خواصها ومهامها . قيادة الجيوش . الجيش والأسطول . قاضى الجماعة أو قاضى القضاة . الحسبة . صاحب الشرطة . إقليم غرناطة وموارده . تقدم الرى والزراعة . غرس الحدائق . بسائط غرناطة . الصناعات الأندلسية . التجارة الخارجية . الموارد السلطانية . الضرائب . تكوين الأمة الأندلسية . أحوال المجتمع الأندلسى . الفروسة الأندلسية .

تعرض لنا الحضارة الأندلسية ، صفحة من أجمل وأروع صحف الحضارة الإسلامية ، والحضارة الإنسانية ، بصفة عامة . وقد نشأت حضارة الإسلام فى الأندلس فى بيئة وظروف خاصة ، واكتسبت بفعل المؤثرات التاريخية والإقليمية والاجتماعية ، لونها الخاص ومميزاتها الخاصة .

وتحتل قصة الحضارة الأندلسية ، فى تاريخ الحضارات الأوربية مكانة رفيعة ، وتملأ فراغاً كبيراً . ولكنها لم تنل مع الأسف مكانها من الرعاية والدرس فى المصادر الإسلامية ، ولم تكتب حتى اليوم كتابة شافية . وأغلب ما كتب عنها فى مصادرنا ، شذور ونبذ متفرقة غير متناسقة ، وتراجم لأعلام التفكير والأدب لم يعن فيها بدراسة الجوانب الهامة . وإنه لمن الإسراف أن نقول ، إننا نستطيع أن نستعرض هذه القصة الباهرة المتعددة النواحى ، فى فصل أو فصول ، من سفر مخصص لكتابة تاريخ المراحل الأخيرة ، من حياة الأمة الأندلسية . على أننا سوف نحاول مع ذلك أن نستعرض صور الحضارة الأندلسية فى ظل مملكة غرناطة ، استكمالا لموضوعنا ، وأن نلقى بذلك شيئاً من الضياء على النظم والأحوال ، التى عاشت فى ظلها الأمة الأندلسية فى مراحلها الأخيرة ، وما انتهت إليه فى ميدان التفكير والآداب والفنون .

وكما أن مصادرنا الإسلامية فى هذا القسم من تاريخ الأندلس قليلة ضنينة، فهى كذلك بالنسبة لصور الحضارة الأندلسية ، وقد هلكت معظم الآثار والوثائق الأندلسية المتعلقة بهذا العصر ، كما رأينا على يد الإسبان ، ولم يسعفنا فى ذلك سوى بعض الآثار القليلة الباقية ، التى نجت من المحنة ، ولاسيما آثار ابن الخطيب ، وما نقله إلينا المقرى عن آثار ووثائق ضاعت ، وكان له فضل إيصالها إلينا .

* * *

وإذا كان تاريخ الأندلس السياسى ، يقدم إلينا صوره المتباينة ، من الإضطرام والركود ، والقوة والضعف ، فكذا شأن الحضارة الأندلسية . فقد وصلت فى ظل الخلافة الأموية فى عهد عبد الرحمن الناصر وولده الحكم المستنصر ، حينما وصلت الدولة الإسلامية إلى أوج سلطانها السياسى ، إلى ذروة القوة والبهاء ، وإن لم تصل يومئذ إلى ذروة نضجها الفكرى . ولما انهارت الخلافة الأموية ، واضمحلت النظم السياسية والاجتماعية ، وسادت الثورة والفوضى أرجاء الأندلس ، وهلكت معظم الآثار العمرانية والفكرية فى غمر الفتنة ، ذوت الحضارة الأندلسية مدى حين ، حتى قامت دول الطوائف فوق أنقاض الدولة الأموية ، واستطاعت بالرغم من صغرها ، وتنافسها وتطاحنها فى ميدان الحرب ، أن تعيد لمحة من بهاء الدولة الإسلامية ، وسطعت آيات الحضارة الأندلسية فى قصورها ومنشآتها ، وفى مجتمعاتها ، وأينعت فى ظلها دولة التفكير والأدب ، وعرفت الأندلس فى هذه الحقبة المضطربة من تاريخها ، طائفة من أعظم مفكريها وأدبائها وشعرائها ، مثل الفيلسوف ابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ هـ (١٠٦٤ م) وابن حيان أعظم مؤرخى الأندلس ، وقد توفى سنة ٤٦٩ هـ (١٠٧٦ م) ، وتلميذه الحميدى المتوفى سنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م) . ومن الأدباء والشعراء ، ابن زيدون المتوفى سنة ٤٦٢هـ (١٠٦٩ م) ، وابن عبدون المتوفى سنة ٥٢٠هـ (١١٢٦م) وعشرات آخرين من الكتاب والشعراء ، يقدمهم إلينا الفتح بن خاقان فى مؤلفه « قلائد العقيان » . بل لقد كان ملوك الطوائف أنفسهم فى طليعة العلماء والأدباء والشعراء ، مثل الأمير العالم عمر بن الأفطس صاحب بطليوس ، والشاعرين الكبيرين ، المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية ، والمعتصم بن صمادح صاحب ألمرية[1] . ولكن

---

(١) توفى ابن الأفطس قتيلا بيد المرابطين سنة ٤٨٨ هـ ؛ وتوفى ابن عباد فى الأسر بالمغرب فى شوال سنة ٤٨٨ هـ ؛ وتوفى المعتصم بن صمادح فى سنة ٤٨٤ هـ .

سرعان ما انكمشت هذه النهضة الفكرية والأدبية الزاهرة ، عقب مصرع دول الطوائف ، واستيلاء المرابطين على الأندلس فى سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١ م) . وكان أولئك البربر الصحراويون قوماً غلاظاً ، يؤثرون مهاد الجندية والخشونة ، وتغلب عليهم الأفكار الرجعية العتيقة ، لم تأخذهم مظاهر الحضارة الأندلسية المصقولة ، ولم تكن – إذا استثنينا العلوم الدينية – تهزهم أصداء الشعر والآداب الرفيعة ، اللهم إلا ما كان من حشدهم لبعض أكابر الكتاب الأندلسيين فى البلاط المرابطى ، ليكونوا ترجماناً للدولة . وحتى العلوم الدينية كانت تدرس فى ظلهم فى إطار خاص يغلب فيه علم الفروع على الأصول ، ومن ثم فقد طوردت فى ظلهم – فضلا عن الكتب الفلسفية والعلمية – كتب الأصول المشرقية ، وفى مقدمتها كتب الغزالى . وترتب على ذلك أن ركدت فى ظلهم دولة التفكير والأدب وذوى بهاء الحضارة الأندلسية . أجل ، سطعت فى ظل دولتهم القصيرة الأمد ، فى ميدان التفكير الأندلسى ، جمهرة من الشخصيات اللامعة من حفاظ وكتاب وشعراء ، وعلماء ، مثل الحافظ ابن الجد الفهرى المتوفى سنة ٥١٥ هـ (١١٢١م) ، وأبو عبد الله بن أبى الخصال المتوفى سنة ٥٤٠هـ (١١٤٥م) ، وأبو بكر الصيرفى المتوفى سنة ٥٧٠ هـ (١١٧٤ م) . وأبو بكر الطرطوشى الفيلسوف السياسى المتوفى سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) ، صاحب كتاب « سراج الملوك » ، والفتح ابن خاقان المتوفى سنة ٥٣٥ هـ (١١٤٠ م) ، وابن بسام الشنتريني صاحب « الذخيرة » المتوفى سنة ٥٤٢ هـ (١١٤٧م) ، وابن قزمان أمير الزجل الأندلسى المتوفى سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠م) ، ومن العلماء أبو القاسم خلف بن عباس القرطبى الطبيب الأشهر المتوفى سنة ٥١٩ هـ (١١٢٢م) ، وابن باجة الطبيب الفيلسوف المتوفى سنة ٥٣٣ هـ (١١٣٨ م) – وهو المعروف باللاتينية باسم Avempace . ولكن ظهور هؤلاء وأضرابهم فى هذه الفترة ، لم يكن إلا أثراً من آثار النهضة الفكرية والأدبية فى ظل دول الطوائف[1] .

وفى ظل دولة الموحدين ، التى خلفت دولة المرابطين فى حكم الأندلس ، انتعشت الحضارة الأندلسية والتفكير الأندلسى . وقد نشأ الموحدون كالمرابطين فى مهاد الخشونة والتقشف ، ولكنهم كانوا أوسع أفقاً ، وأكثر قبولا لثمار التمدن .

---

(١) تناولنا سير الحركة الفكرية الأندلسية خلال العهد المرابطى بتفصيل واف فى كتابنا « عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس » (القسم الأول) ص ٤٣٨ – ٤٧٤ .

وكان للدولتهم بالأخص صبغة علمية دينية ، إذ كان مؤسسها المهدى ابن تومرت ، من أئمة التفكير الدينى . وأبدى خلفاؤه عبد المؤمن وبنوه اهتماماً بالعلوم والفنون ، وأطلقت حرية التفكير والبحث ، وكانت قد صفدت فى عهد المرابطين ، وأفرج عن كتب الغزالى وغيره من مفكرى المشرق ، وكانت قد طوردت ومنعت فى أيامهم بالمغرب والأندلس . وفى تلك الفترة بالذات أعنى فى أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع الهجرى ، بلغ التفكير الأندلسى ذروة النضج ، وتفجرت ينابيع النبوغ ، وظهرت طائفة من أعظم أقطاب العلم والأدب . وكان فى طليعة أقطاب العلم فى هذا العصر ، بنو زهر الإشبيليون ، وعميدهم الوزير والطبيب الأشهر أبو العلاء زهر ابن عبد الملك بن زهر ، ثم ولده أبو مروان عبد الملك بن زهر المتوفى سنة ٥٥٧ هـ (١١٦١ م) ، وهو المعروف باللاتينية باسم Avenzoar . ويعتبر ابن زهر أعظم طبيب ومشخص فى العصور الوسطى بعد أبى بكر الرازى ، ويعتبره ابن رشد أعظم طبيب بعد جالينوس ، ويعتبر كتابه « التيسير » من أعظم مراجع الطب فى العصور الوسطى ، وكان لمؤلفاته التى ترجمت كغيرها إلى اللاتينية فى عصر مبكر ، أثر عظيم فى سير البحوث الطبية فى أوربا ، وخلفه فى مهنته ولده الطبيب الأشهر أبو بكر بن زهر ، وحظى لدى حكومة الموحدين ، وتوفى سنة ٥٩٥ هـ (١١٩٨ م) . وظهر إلى جانب هؤلاء عدة من أقطاب الفلاسفة ، مثل أبى بكر ابن طفيل الوادى آشى ، المتوفى سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥م) ، وهو صاحب رسالة حى بن يقظان الشهيرة ، والإمام الفيلسوف أبى الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبى ، المتوفى سنة ٥٩٤ هـ (١١٩٨م) . والرئيس موسى بن ميمون اليهودى القرطبى ، المتوفى سنة ٦٠٢ هـ (١٢٠٥ م) .

وفى حياة ابن ميمون وابن رشد بالأخص ، ما يمثل لنا طرفاً من سياسة الموحدين تجاه التفكير ، وترددها بين التسامح والاضطهاد . فقد كان ابن ميمون من أعظم الأطباء والفلاسفة فى عصره ، ولكنه اضطهد ليهوديته خلال الإضطهاد العام ، الذى لقيه اليهود فى ظل عبد المؤمن خليفة الموحدين ، فغادر الأندلس إلى المشرق ، ونزل بمصر وخدم بلاطها ، وعين طبيباً خاصاً للسلطان صلاح الدين ، وندب للتدريس بالقاهرة . وقد كان ابن رشد بلا ريب أعظم فلاسفة الإسلام ومفكريه فى ذلك العصر ، ولد بقرطبة سنة ٥٢٠هـ (١١٢٦م) واتصل منذ فتوته بأبى يوسف يعقوب ابن عبد المؤمن ، المشرف على شئون الأندلس ، وكان الأمير مثل أبيه يجمع حوله

أعلام المفكرين والعلماء؛ وبرع ابن رشد فى الفقه والطب والفلسفة ، وتولى قضاء إشبيلية فى سنة ٥٦٥ هـ ، ثم ولى قضاء قرطبة ، واستمر زهاء خمسة وعشرين عاماً ، يتقلب فى مناصب القضاء والإدارة ، فى ظل حكومة الموحدين بالأندلس والمغرب ، وتولى أثناء ذلك منصب الطبيب الخاص للخليفة أبى يعقوب يوسف ، ثم لولده الخليفة يعقوب المنصور بعد وفاته . واتهمه بعض خصومه بالزندقة والخروج على شريعة الإسلام ، فأمر الخليفة المنصور بنفيه إلى بلدة اليسّانة على مقربة من غرناطة ، وفرضت عليه رقابة شديدة ، ثم عفا عنه واسترد مكانته فى أواخر حياته ، واستدعى ثانية إلى مراكش ، وهنالك توفى بعد قليل فى سنة ٥٩٥ هـ (١١٩٨م) . وأعظم آثار ابن رشد هو شروحه لفلسفة أرسطو ، فى المنطق وما وراء الطبيعة ، وقد ترجمت إلى اللاتينية منذ القرن الثالث عشر ، وكانت مفتاح الدراسات الأرسطوطالية فى العصور الوسطى . وقد كان يغمرها الغموض والحلك ، قبل أن يتصدى ابن رشد لشرحها . وغدت شروح ابن رشد فى الوقت نفسه أساساً لكثير من المباحث الفلسفية ، التى ازدهرت أيام حركة الإحياء الأوربى . بل يرى مؤرخو الفلسفة ، أن الفلسفة الجدلية الأوربية استمدت من العرب والفلسفة العربية ، أكثر مما استمدت من قسطنطينية التى كانت مستودعاً لتراث الفلسفة اليونانية . وكتب ابن رشد فى الطب مؤلفه « الكليات » وهو من أهم الآثار الطبية فى العصور الوسطى ، وقد ترجم إلى اللاتينية وغيرها من اللغات الأوربية منذ القرن الثالث عشر . ولابن رشد طائفة كبيرة أخرى من الرسائل والبحوث الفلسفية والكلامية .

وكانت الفلسفة على الأغلب علماً خطراً فى ظل حكومة الموحدين ، وقد رأيت ما كان من اضطهاد ابن رشد ونفيه بسبب آرائه الفلسفية ، وقد كان من ضحايا هذا الإضطهاد ، فى هذا العصر ، مفكر أندلسى آخر هو ابن حبيب الإشبيلى ، الذى اتهم بالزندقة بسبب آرائه الفلسفية ، أيام المأمون بن المنصور ، وقتل لهذا السبب[1] . وهكذا كانت الفلسفة أيام الموحدين قرينة الإلحاد والزندقة ، وكانت خطراً يجتنبه كثير من مفكرى العصر .

وظهر فى تلك الفترة ، إلى جانب هؤلاء العلماء ، جمهرة من أقطاب الرواية والأدب ، مثل أبى القاسم خلف بن بشكوال القرطبى المتوفى سنة ٥٧٨ هـ ، (١١٨٣ م) ، وهو مؤلف كتاب الصلة الذى ذيل به على كتاب علماء الأندلس

---

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ١٣٨ .

لابن الفرضى[1] وابن بدرون الإشبيلى المتوفى فى فاتحة القرن السابع ، وهو شارح قصيدة ابن عبدون الشهيرة فى رثاء بنى الأفطس ، وابن الصابونى الصدفى الإشبيلى الشاعر ، المتوفى فى سنة ٦٠٤ هـ (١٢٠٧ م) ، وقد قال ابن الأبار فى حقه « ذهبت الآداب بذهابه ، وختمت الأندلس شعراءها » .

وازدهرت المعاهد العلمية أيام الموحدين بالمغرب والأندلس ، وكانت المعاهد الأندلسية فى إشبيلية وقرطبة وغرناطة وبلنسية ومرسية ، يومئذ مجمع العلوم والمعارف الرفيعة فى تلك العصور ، وكانت مقصد الطلاب من كل فج ، وكانت مزودة بالمكتبات التى تضم أنفس الكتب والمصنفات ، فى مختلف العلوم والفنون[2]

وعنى الموحدون أيضاً برعاية الفنون ، وأقيمت فى عهدهم فى معظم قواعد الأندلس ، طائفة من المساجد والصروح العظيمة ، التى تمتاز بجمالها الفنى . وكان يعقوب المنصور حفيد عبد المؤمن ، من أشدهم شغفاً بالمنشآت الفخمة ، ومن آثاره الشهيرة بالأندلس مسجد إشبيلية الجامع ومنارته العظيمة التى بقيت إلى اليوم وحولها الإسبان إلى برج الأجراس لكنيسة إشبيلية العظمى التى بنيت مكان الجامع ، وهى من أروع الآثار الأندلسية الباقية ، ويطلق عليها الإسبان اسم « لاخيرالدا » La Giralda

وكذلك تقدمت الزراعة والصناعة والتجارة فى عهد الموحدين ، وازدهرت الزراعة بنوع خاص ، وارتقت أساليبها الفنية ، وتنوعت المحاصيل وانتشرت زراعة الفاكهة ، فى أحواز بلنسية وإشبيلية ، وتقدمت الصناعات الحربية والمدنية ، ولاسيما صناعة الأقمشة الممتازة ، والصناعات الجلدية ، وصناعة الورق وغيرها . وازدهرت التجارة وعم الرخاء . وكانت ثغور الأندلس مثل بلنسية ودانية وإشبيلية وألمرية ومالقة ، من أعظم مراكز التجارة الخارجية فى هذا العصر .

ولما اضمحل شأن الموحدين ، وضعف أمرهم بالمغرب والأندلس ، فى أوائل القرن السابع الهجرى ، واجتاحت الثورة معظم القواعد والثغور الأندلسية ، ونهض المتغلبون يتنافسون فى اجتناب أسلاب الدولة الذاهبة ، شعرت اسبانيا النصرانية بدنو الفرصة السانحة ، لاقتطاع ما يمكن اقتطاعه من أطراف الأندلس الممزقة .

(١) وقد نشر ضمن المكتبة الأندلسية فى مجلدين طبع مدريد فى سنة ١٨٨٣ .

(٢) تناولنا سير الحركة الفكرية الأندلسية فى عصر الموحدين بتفصيل واف فى كتابنا « عصر المرابطين والموحدين » (القسم الثانى) ص ٦٤٤ — ٧٢٦ .

وبدأت قواعد الأندلس التالدة ، تسقط تباعاً فى يد النصارى . وشغلت الأندلس بمحنتها الغامرة ، وانصرفت إلى متابعة الجهاد ، ومدافعة المغيرين عليها بكل ما وسعت ، فانكمشت فنون السلم ، وتضاءلت دولة التفكير والأدب ، وإن كانت المحنة قد أذكت لوعة الشعر ، وبعثت إلينا بطائفة جمة من أروع المراثى ، التى ما زالت تحتفظ إلى يومنا بكثير من قوتها وروعتها .

— ٢ —

وانجلت الفتن الداخلية ، وانجلى الصراع بين اسبانيا المسلمة واسبانيا النصرانية بعد نحو ثلث قرن ، عن سقوط معظم القواعد الأندلسية التالدة ، مثل قرطبة وإشبيلية وبلنسية ومرسية وجيان وغيرها ، فى أيدى النصارى ، وانكمشت رقعة الأندلس تباعاً ، وانحصرت فى الركن الجنوبى الغربى للمملكة الإسلامية القديمة ، فى مملكة غرناطة الصغيرة ، التى برزت من غمر الفوضى ، واستقرت فى رقعتها المتواضعة ، بين نهر الوادى الكبير والبحر ، وهرعت إليها معظم الأسر الأندلسية القديمة ، التى أبت التدجن والبقاء فى ظل حكم النصارى ؛ ولم يمض سوى قليل ، حتى غدت مستودع تراث الأندلس القومى والسياسى ، ومستودع الحضارة الأندلسية والتفكير الأندلسى .

وكانت مملكة غرناطة ، بالرغم من صغرها وانكماش رقعتها ، تضم ثروات عظيمة من الموارد الطبيعية ، فإلى جانب وديانها الخصبة النضرة التى تغص بالبسائط الخضراء والجنات الفيحاء ، والتى تجود بها الحبوب والكروم والزيتون والفواكه وغيرها ، توجد الجبال الوعرة تخترقها من كل صوب ، وبها الكثير من الثروات المعدنية ، ومن بينها الذهب والفضة والرصاص والحديد (١) . وتفيض الأنهار والنهيرات العديدة على بسائطها الماء الغزير . وكانت ثغورها وهى ثغور الأندلس الجنوبية ، ولاسيما مالقة وألمرية ، من أغنى الثغور الإسبانية وأزخرها بالحركة التجارية ، وكانت ولاية غرناطة وحدها تضم من البلاد والقرى العامرة نيفاً ومائة بلدة وقرية ذكرها لنا ابن الخطيب ، وقد دثر الكثير منها اليوم (٢) . أما غرناطة عاصمة المملكة ، فقد غدت عقب سقوط القواعد الأندلسية الأخرى فى يد النصارى ، أعظم القواعد الأندلسية الباقية ، وأغناها وأكثرها ازدحاماً بالسكان . وكانت بحمرائها المطلة عليها من ربوتها المنيعة ، وشوارعها الزاخرة ، وميادينها الفسيحة ، وقصورها

(١) الإحاطة فى أخبار غرناطة (القاهرة ١٩٥٦) ج ١ ص ١٠٤ .
(٢) الإحاطة ، ج ١ ص ١٣٣ — ١٣٨ .

البديعة ، وحدائقها ومتنزهاتها اليانعة ، من أجمل مدن العصور الوسطى . وكانت غاية فى الحصانة ، سواء بموقعها الطبيعى ، أو بأسوارها الكثيفة ، التى يتخللها ألف وثلاثمائة برج منيع ، وكانت تضم فى أيامها الزاهرة من السكان مع أرباضها وضواحيها زهاء نصف مليون من الأنفس ، وذلك بما تقاطر عليها من سيل المهاجرين من المدن الأندلسية الأخرى. وكان بوسع العاصمة وقت الحرب ، أن تعبىء وحدها زهاء خمسين ألف مقاتل ، وكانت أبهاء قصر الحمراء تتسع وحدها لأربعين ألف رجل(١) .

وقد رأينا كيف نشأت مملكة غرناطة ، على يد رجل ذى عبقرية هادئة ، ولكن واسعة الأفق ، هو محمد بن الأحمر ، زعيم بنى نصر ، وكيف استمر أعقابه يتوارثون عرش غرناطة أكثر من قرنين ، حتى سقطت فى أيدى النصارى. وتسمى دولتهم بالدولة النصرية أودولة بنى الأحمر ، وقد تسمى زعيمهم ومؤسس دولتهم بأمير المسلمين ، وهو اللقب الذى كان يتسم به ملوك العدوة (المغرب) فى تلك العصور ، وغلب هذا اللقب على سلاطين غرناطة حتى نهاية دولتهم ، وكان يقرن فى أحيان كثيرة بلقب « الغالب بالله » .

وكان ملوك بنى نصر ، كسائر ملوك العصور الوسطى ، يدينون بمبدأ الحكم المطلق ، ولايرون له بديلا . على أنه فى وقت الخطر العام والأحداث الخطيرة ، كان السلطان يستعين برأى الزعماء والقادة ذوى العصبية والتوجيه . وكان السلطان يستأثر بكل سلطة حقيقية ، ويباشر مهام الأمور بنفسه ، إلا فى فترات قليلة يستأثر بالسلطة فيها وزير قوى ، كما حدث فى عهد السلطان أبى عبد الله محمد الملقب بالمخلوع (٧٠١ — ٧٠٨ هـ) ، حيث استأثر بالحكم وزيره أبوعبد الله ابن الحكيم اللخمى . وعهد السلطان أبى عبد الله محمد بن اسماعيل (٧٢٥ — ٧٣٣ هـ) ، حيث استبد بالحكم دونه وزيره ابن المحروق ، وعهد أخيه السلطان أبى الحجاج يوسف (٧٣٣ — ٧٥٥ هـ) حيث استبد بالحكم الحاجب أبو النعيم رضوان ، ثم فى عهد السلطان الغنى بالله (٧٥٥ — ٧٩٣هـ) حيث استبد بالحكم حيناً وزيره ابن الخطيب . وكان نظام الطغيان الذى يفرضه الوزير المتغلب ، ينتهى فى كل مرة بانقلاب عنيف ، ويستعيد السلطان سلطته الحقيقية ، فى غمرة من الحوادث الدموية .

وكان هذا النظام المطلق الذى يسود حكومة غرناطة ، يؤدى إلى نشوب الثورة

(١) Prescott: (Cit, Zurita): Ferdinand and Isabella; p. 189

فى أحيان كثيرة ، ويذكى من عواملها فى الوقت نفسه ، تطاحن الأحزاب فى البلاط والجيش . وكان هذا النظام يتطور أحياناً فى ظل الملوك الضعاف إلى نوع من الإقطاع ، ويستأثر بعض الزعماء الأقوياء والأسر ذات العصبية ، بحكم المدن والثغور وكان الشعب الغرناطى سريع التقلب والغضب ، يأخذ فى الثورات والإنقلابات السياسية بأعظم قسط .

وكانت مناصب الحكم الرئيسية فى حكومة غرناطة ، تنحصر فى الوزارة وقيادة الجيوش والقضاء . فأما الوزارة فكانت تسند غالباً إلى أحد الأعلام من رجال القلم ، وبين وزراء الدولة النصرية ثبت حافل من هؤلاء ، مثل ابن الحكيم اللخمى ، وابن الجياب ، وابن الخطيب ، وتلميذه ابن زمرك ، وكلهم من أقطاب الكتابة والشعر . وكانت مهام الوزارة تتلخص فى أن يتلقى الوزير أوامر السلطان ، ويعمل على تنفيذها ، ويقوم بتوزيع مختلف الأعمال على أرباب المناصب ، ويعنى بتحرير المكاتبات السلطانية ، وصياغة المراسيم ، وكان أكابر الكتاب من الوزراء يجدون فى هذه المهمة بالذات مجالا لعرض براعتهم النثرية والتحريرية . ولدينا فى مختلف الرسائل التى تركها لنا ابن الخطيب أروع نماذج للرسائل السلطانية التى تمتاز بأسلوبها العالى ، وبيانها القوى[1] ، وكان الوزير فى بعض الأحيان يقوم بقيادة الجيش ، ويسير على رأسه للغزو ، كما حدث أيام الحاجب رضوان ، وأحياناً يتولى الوزير مهام السلطنة فى غياب السلطان ، كما حدث أيام ابن الخطيب ، حيث كان ينوب عن السلطان حين تغيبه فى الغزو . وقد أسبغ على ابن الخطيب أيام وزارته لقب « ذى الوزارتين » ، وهو لقب لم يحمله فى ظل الدولة النصرية سواه وابن الحكيم الرندى وزير السلطان محمد المخلوع ، ويترتب عليه أن يتمتع الوزير بمقام الرياسة العليا ويغلو فى مرتبة « الحاجب » ، ويتناول ضعف مخصصاته . ولم يحمل من وزراء الدولة النصرية لقب الحاجب سوى الحاجب رضوان ، وزير السلطان يوسف أبى الحجاج .

وكان الوزير يستعين بطائفة من « الكتاب » لتنفيذ مختلف المهام . وللسلطان كاتب سر أو أمين خاص . وكثيراً ما يرتقى « الكاتب » إلى منصب الوزير . والخلاصة أن الوزير كان رأس السلطة التنفيذية الحقيقية ، وهو الذى يشرف سواء

---

(١) وقد أورد ابن الخطيب عدداً كبيراً منها فى كتابه ، « ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب » وهو ما يزال مخطوطاً .

بطريقة مباشرة أو بتوجيه سلطانه القوى ، على تصريف شئون المملكة ، وتوجيه سياستها الداخلية والخارجية .

وأما قيادة الجيوش ، فكانت أهم المناصب فى دولة تواجه إغارة العدو على أراضيها باستمرار . وكان يختص بهذا المنصب الخطير ، منذ أواخر القرن السابع الهجرى أسرة بنى العلاء ، أحد بطون بنى مرين ملوك العدوة، وكان توليهم لقيادة الجيوش الأندلسية ، نتيجة للتحالف التى توثقت أواصره بين بنى الأحمر وبنى مرين عصراً[1]. وقد اشتهر أولئك القواد المغاربة بالبراعة والشجاعة ، وكانت لهم فى ميادين الحرب والجهاد مواقف مشهورة . وكان المتولى لمنصب القيادة العامة يلقب بشيخ الغزاة ، وكانت الجنود المغربية عنصراً بارزاً فى الجيش الأندلسى ، وقد تخلفت بالأندلس منذ أيام المرابطين والموحدين جموع كثيرة من البربر[2]. وكانوا لبداوتهم وخشونتهم يؤثرون الحياة العسكرية على الحياة المدنية ، وقد زاد عددهم بالأخص أيام عبور الجيوش المرينية إلى الأندلس . وبالرغم مما أداه القواد والجند المغاربة لمملكة غرناطة ، من الخدمات الجليلة فى ميدان الحرب ، فقد كانوا أحياناً خطراً على النظام والعرش ، وكان لبنى العلاء شيوخ الغزاة أطماع سياسية ، ظهرت خطورتها فى بعض الثورات والإنقلابات العنيفة .

وقد كانت قوة غرناطة العسكرية ، فى الواقع عماد حياتها ، التى استطالت أكثر من قرنين ، وذلك بالرغم من القوى الجرارة المعادية ، التى لبثت باستمرار ترهقها ، وتستنفد مواردها . وكان الجيش الأندلسى ، فضلا عما كان يزخر به من العناصر المجاهدة الباسلة ، من البربر وجند البشرات وغيرها ، من المناطق الجبلية ، يتمتع بكثير من المزايا البارزة ، فكان يضم فرقاً من أبرع الرماة ، وكان بالأخص يتفوق بفرق الفرسان ، التى اشتهرت فى تلك العصور ببراعتها التى لا تبارى . وإلى جانب ذلك كانت الطبيعة تحبو غرناطة برعايتها ، وتساعدها التلال المرتفعة والمفاوز الوعرة ، التى تتخللها فى كل ناحية ، على شدة المقاومة ، وإتقان حرب العصابات التى ترهق الجيوش المنظمة . وكانت القواعد الأندلسية ، من جراء الحروب المتواصلة ، قد حولت جميعها إلى قلاع منيعة ، وشيدت الحصون القوية فى كل مكان يصلح للمقاومة . وكان للحاجب رضوان النصرى وزير السلطان يوسف أبى الحجاج ثم ولده الغنى بالله ، فى ذلك مجهود بارز ، حيث أنشأ سور غرناطة الكبير المحيط

---

(١) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ٥٣٨ . (٢) راجع ص ٧٣ من هذا الكتاب .

بربض البيازين، وشيد سلسلة من الأبراج المنيعة أربت على أربعين، تمتد من شرق المملكة إلى غربها[1] . وأهم من ذلك كله أن مسلمي الأندلس ، كانوا قد وقفوا فيما يبدو على سر البارود[2] ، واستعملوه منذ منتصف القرن الرابع عشر ، حسبما فصلنا في موضع سابق[3] . وكان لذلك كله أثر واضح في تمكين مملكة غرناطة الصغيرة ، من الوقوف في وجه عدوها القوى بنجاح ، طيلة هذه العصور .

وكان للقوى البحرية أيضاً شأنها ، في كفاح الأندلس من أجل حياتها ، وكانت مملكة غرناطة تسيطر من ثغورها الشهيرة : جبل طارق والجزيرة وطريف ومالقة، على مدخل البحر الأبيض المتوسط ، وكانت أهم مهام الأسطول، بعد حماية الشواطىء والثغور ، تأمين الصلة المباشرة بين مملكة غرناطة، وبين إخوانها المسلمين فيما وراء البحر في المغرب الأقصى ، وقد استطاعت الأساطيل الأندلسية والمغربية ، أن تحتفظ بسيادتها في هذه المياه عصوراً ، وكان انهيار قوة غرناطة البحرية ، وسقوط ثغورها في يد النصارى ، نذير السقوط النهائي .

وكان أرفع المناصب القضائية ، منصب قاضي الجماعة ، وهو ما يقابل في الأندلس ، منصب قاضي القضاة في مصر الإسلامية . وقاضي الجماعة هو أيضاً قاضي الحضرة أو قاضي غرناطة ، والغالب أن يجمع في نفس الوقت بين منصبه ومنصب خطيب الحمراء ، أو خطيب الجامع الأعظم[4]، وهو أيضاً من المناصب الدينية الرفيعة . وكان القضاء يجرى في مملكة غرناطة ، على مذهب الإمام مالك ، وهو مذهب الأندلس المفضل منذ أواخر القرن الثاني الهجري. وكان يجرى تعيين قاضي الجماعة « بظهير » أي مرسوم ملكي . وكانت كلمة « الظهير » هي الغالبة في مملكة غرناطة للتعبير عن المراسيم والقوانين السلطانية، وهي ما زالت تستعمل حتى اليوم في المغرب الأقصى ، حيث يوصف المرسوم بأنه « ظهير ملكي » . وكان لكل مدينة قاضيها وخطيبها ، ولا يشغل مناصب القضاء سوى أكابر العلماء والفقهاء .

ويتبع القضاء وظيفة الحسبة وهي أيضاً وظيفة دينية، تقوم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ويختص صاحبها بمطاردة المنكرات ، والتعزير والتأديب على

---

(١) الإحاطة في أخبار غرناطة ج ١ ص ٥١٧ .

(٢) Prescott : Ferdinand and Isabella p. 193-194

(٣) راجع ص ٢١٢ من هذا الكتاب .

(٤) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٧٠ و ٧٤ و ١٩٧ .

قدرها ، والعمل على احترام الأحكام الشرعية ، وقمع الغش والاختلاس فى المعاملات ، وأمور المعيشة والمكاييل والموازين ، وله أيضاً أن يحمل الناس على أداء المصالح العامة ، مثل تمهيد الطرقات والإضاءة بالليل وغير ذلك .

وكان يعهد بحفظ النظام والأمن إلى متوالى الشرطة ، وكان يسمى أيام الدولة الأموية صاحب الشرطة ، ويعتبر منصبه من أعظم المناصب القضائية والإدارية ، وكان ينتخب عادة من كبار القواد أو الخاصة ، ويتمتع بسلطات قضائية وإدارية واسعة . ثم سمى بعد ذلك بصاحب المدينة وصاحب الليل . وكان يعتبر فى منصبه تابعاً للوزارة ، مسئولا أمامها ، وكان جل اختصاصه أن يتولى حفظ النظام والأمن ، ومطاردة المجرمين وأهل الفساد ، وتنفيذ العقوبات الجنائية ، من الحد والتعزير وغيرهما فيمن وجب عليه ذلك ، وهو الذى يتولى الإتهام والتحقيق وتوقيع العقوبة ، دون تدخل القاضى ، ويعاونه فى مهمته جماعات من الحراس ، تجوب أنحاء المدينة ليلا ، وتشرف على حراسة الطرق والأمكنة وتعقب الجناة[1] .

— ٣ —

وقد أشرنا فيما تقدم ، إلى ما كانت تتمتع به مملكة غرناطة ، بالرغم من انكماش رقعتها من الموارد والثروات الطبيعية الوفيرة . وكانت الزراعة منذ أيام الدولة الأندلسية الكبرى ، من أعظم موارد الأندلس ، وكانت وديان اسبانيا الخصبة ، التى تتخللها عدة من الأنهار العظيمة ، وتربتها البديعة ، وأقليمها المتقلب بين الحرارة والبرودة ، تفسح أعظم مجال لشعب عامل ذكى . وكان مسلمو الأندلس من أنبغ الشعوب ، فى فلاحة الأرض وتربية الماشية وغرس الحدائق ، وتنظيم طرق الرى ، ومعرفة أحوال الجو ، وكل ما يتعلق بفنون الزراعة وخواص النبات ، وكانت مزارعهم وحدائقهم مضرب الأمثال فى الجودة والنماء ؛ وقد نقل العرب من المشرق وشمال إفريقية إلى اسبانيا كثيراً من الأشجار والمحاصيل ، كالقطن والأرز وقصب السكر والزعفران والنخيل ، وكانت بسائط شبه الجزيرة الإسبانية فى أيامهم رياضاً نضرة ، وكانت غياض القمح وغابات الزيتون ، وحدائق البرتقال والتوت والكروم ، من أبدع ما ترى العين فى وديان الأندلس ومروجها النضرة . وأما نبوغ مسلمى الأندلس فى تنظيم وسائل الرى والصرف ، واستجلاب الماء وتوزيعه بالطرق الفنية ، فما زالت تشهد به آثارهم الباقية إلى الآن ، فى وديان الأندلس ، من القناطر والجداول الدارسة .

(١) ابن خلدون : المقدمة ج ١ ص ٢٠٩ و ٢١٠ ؛ ونفح الطيب ج ١ ص ١٠١ .

وقد أقيمت أيام الدولة الأموية عدة من القناطر الشهيرة، وحفرت ترع ومصارف لا حصر لها ، فى مختلف أنحاء اسبانيا ، وكلها مما يشهد لصانعها بالمهارة والتفوق . وقد شاهدت أثناء تجوالى فى اسبانيا بعض المناطق التى ما زالت تقوم فى زراعتها على مشاريع الرى الأندلسية القديمة مثل منطقة لاردة وأحوازها ومنطقة بلنسية وأحوازها ومرسية وأحوازها .وكان لأهل الأندلس شهرة خاصة فى غرس الحدائق وتنسيقها، وقد كانت حدائق الرصافة والزهراء والزاهرة، بدائع تشهد لهم بوفرة البراعة وحسن الذوق ، وكانت روعتها مستقى خصباً لخيال الشعراء والكتاب ، وما زالت هذه البراعة حتى اليوم علماً على جمال الحدائق الأندلسية . وقد اتخذت فنون الزراعة على يد الأندلسيين طابعاً علمياً ، وألفت فيها الكتب القيمة . وقد انتهى إلينا من آثارهم فى ذلك كتاب «الفلاحة» لابن بصال الطليطلى (القرن الحادى عشر الميلادى) ، وكتاب « الفلاحة » أيضاً لتلميذه أبى زكريا ابن العوام الإشبيلى (أواخر القرن الثانى عشر) ، ومؤلف ثالث فى « الفلاحة » أيضاً للطغنرى الغرناطى[1] . وفى هذه الكتب كلها ما يدل على مبلغ ما وصل إليه مسلمو الأندلس من معرفة بخواص التربة، واستخراج كنوز الأرض، وطرق الرى والصرف ، وأحوال الطقس وغيرها .

وكانت مملكة غرناطة بالرغم مما يتخللها من الجبال والهضاب الوعرة، تضم كثيراً من الوديان والبسائط الخصبة ، وكانت ضفاف شنيل سلسلة من البسائط الخضراء ، تتخللها مئات الترع والقنوات ؛ وكان المرج الشهير ، الواقع غربى غرناطة La Vega ، وهو الذى لبث أكثر من قرنين مسرحاً للمعارك المستمرة بين المسلمين والنصارى ، بحقوله وحدائقه النضرة، كأنه قطعة من الجنان، أودعها المسلمون كل براعتهم . وكانت المحاصيل المختلفة تتعاقب طول العام ، وتنتج البلاد كل ما يكفيها من الأطعمة والمؤن . وكانت مزارع الكروم الأندلسية الشهيرة ، تغطى مساحات واسعة فى غرناطة ومالقة وشريش .

وكذلك ضرب مسلمو الأندلس فى الصناعة بأوفر سهم . وكانت اسبانيا المسلمة أيام قوتها ، أعظم الأمم الصناعية فى أوربا ؛ وكانت ثرواتها المعدنية ، من الحديد والرصاص والزئبق والذهب والفضة وغيرها، تمدها بأسباب التفوق فى هذا الميدان.

---

(١) نشر كتاب « الفلاحة » لابن بصال بعناية معهد مولاى الحسن بتطوان سنة ١٩٥٥ ، وتوجد نسخة مخطوطة من كتاب « الفلاحة » لابن العوام بمكتبة دير الإسكوريال . وكذلك توجد نسخة من كتاب الطغنرى .

وقد اشتهرت الأندلس بنوع خاص ، بصناعة الأسلحة الجيدة ، تنتجها بوفرة وتصدرها إلى أمم أوربا وإفريقية . وكذا اشتهرت بصناعة الصوف والحرير ، والأقمشة الملونة الممتازة ، وصناعة الجلود الدقيقة التى برع فيها أهل قرطبة بنوع خاص . وطبق مسلمو الأندلس تفوقهم فى الكيمياء فى ميدان الصناعة ، فبرعوا فى صنع الأدوية والعقاقير ، واستخراج العطور من الأزهار ، وتركيب الأصباغ المختلفة ، ولاسيما اللون الذهبى ، وغيره من الألوان الزاهية . وقد استطاعت مملكة غرناطة ، أن تستبقى كثيراً من الصناعات الأندلسية القديمة ، فاستمرت غرناطة مركزاً عظيماً لصناعة الأسلحة والذخائر ، وكان تفوقها فى هذه الصناعة من أسباب قوتها ، وتمكنها طويلا من مدافعة أعدائها . وكذلك استمرت صناعة الحرير على تقدمها وازدهارها ، ولاسيما فى مالقة وألمرية ، وكانت يومئذ من أعظم موارد الأندلس . وقد نقلت المدن الإيطالية ، التى اشتهرت بصناعة الحرير فى العصور الوسطى ، عن الأندلسيين معظم فنونهم وطرائقهم فى هذه الصناعة المربحة ، وكانت مدينة فيرنتزا (فلورنس) تستورد كميات كبيرة من الحرير الخام من غرناطة ، حتى أواخر القرن الخامس عشر(١) . ولبثت صناعة الأوانى الخزفية الجميلة ، مزدهرة حتى العصر الأخير ، وما زالت بقايا هذه الصناعة الأندلسية القديمة قائمة حتى اليوم فى بعض المدن الإسبانية ولاسيما فى إشبيلية ومالقة ، وما زالت المتاحف الإسبانية تغص بكثير من الأوانى الخزفية الأندلسية والموريسكية البديعة الصنع والزخرف . وكذلك لبثت صناعة الجلود الفاخرة الملونة ، حتى نفى الموريسكيين ، وقد نقلت بعد نفيهم على يدهم إلى أوربا . واشتهرت الأندلس أيضاً بصناعة الورق ، وأنشئت لها المصانع العظيمة ولاسيما فى طليطلة وشاطبة ، ونقلها الإسبان عن المسلمين ، ثم انتقلت إلى أوربا عن طريق فرنسا ، وذاعت فيها منذ القرن الثالث عشر . وقد اكتشف الغزيرى ، عدة مخطوطات بمكتبة الإسكوريال ، ترجع إلى القرن الحادى عشر ، كتبت على ورق مصنوع من القطن ، وأخرى ترجع إلى القرن الثانى عشر ، كتبت على ورق مصنوع من الكتان ، وكان لهذه الصناعة مكانتها فى مملكة غرناطة .

أما التجارة فقد بلغت شأواً بعيداً فى الأندلس ، وذلك لحسن موقعها وكثرة ثغورها ، وتوسطها بين أوربا وإفريقية ، وانتظام صلاتها البحرية ، مع سائر ثغور

---

(١) Prescott : Ferdinand Isabella : p. 191

البحر المتوسط . وكانت علائقها التجارية تمتد حتى قسطنطينية ، وثغور الشأم والإسكندرية ، وترسو سفنها التجارية فى الثغور الإيطالية ، ولاسيما جنوة وروما والبندقية . وكانت ثغورها تزخر بمختلف الواردات ، من بلاد أوربا وإفريقية والمشرق . وازدهرت الحركة التجارية فى غرناطة ولاسيما التجارة الخارجية، وكان للجنويين وغيرهم ، من الأمم ذات الصلات الإقتصادية الوثيقة بالأندلس ، منشآت تجارية فى غرناطة . وعقدت غرناطة مع جمهورية جنوة ومع مملكة أراجون معاهدات تجارية عديدة أشرنا إلى بعضها فيما تقدم. وكانت خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر من أعظم المراكز التجارية فى جنوب أوربا، حتى لقد وصفها بعض المؤرخين المعاصرين بأنها « مدينة جميع الأمم » . ويقول مؤرخ إسبانى « إن شهرة سكانها فى الأمانة والثقة، بلغت إلى حد أن كلمتهم المجردة، كان يعتمد عليها ، أكثر مما يعتمد على عقد مكتوب بيننا »(١) .

وكان الرخاء يسود مملكة غرناطة طوال أيامها ، وقلما كانت تصدع منه الثورات الطارئة أو الحروب المتواصلة . وكانت موارد الخزينة أو الموارد السلطانية كثيرة منوعة، تتكون من ضريبة الأراضى المزرعة، وتبلغ فى المتوسط نحو سبع قيمة المحصول، والأموال المرسومة على السفن الواردة والصادرة، ودخل دار السكة ، ودخل بيت المال، من زكاة وصدقات وميراث من لاوارث له ، وأخماس الغنائم التى كانت تحصل من العدو ، ومختلف الضرائب التجارية والمهنية . وكانت للعرش فوق ذلك أملاك ومزارع عظيمة فى فحص غرناطة (المرج) تعرف بالمستخلص . وكانت الضرائب فى مملكة غرناطة على وجه العموم . أكثر مما كانت عليه فى الدول الإسلامية السابقة. وقد يرجع ذلك من بعض الوجوه إلى استمرار الصراع بلا انقطاع بينها وبين النصارى . وقدر دخل مملكة غرناطة فى تلك العصور ؛ بنحو مليون ومائتى ألف دوقة(٢) ؛ وهى قيمة لا يستهان بها فى ذلك العصر ؛ وكان يتولى الإشراف على شئون الدخل والخرج وأعمال الجباية موظف كبير يسمى « صاحب الأشغال » ، وكانت ثمة طوائف كبيرة من الشعب الغرناطى تتمتع بالثراء ، ويقتنى الكثيرون الحلى والجواهر النفيسة ولاسيما أبناء الطبقات العليا . وكانت غرناطة

---

(١) Prescott : ibid ; p. 190

(٢) الدوقة هى عملة ذهبية كانت ذائعة فى أوربا فى العصور الوسطى وتبلغ قيمتها نحو نصف جنيه من عملتنا الحديثة .

تتمتع فوق ذلك بنقد سليم ثابت[1] ، تخرجه دار السكة الملكية التى اشتهرت بأمانتها ودقتها ، ولايتطرق إليه شىء من ذلك الزغل الذى كان فى أحيان كثيرة يؤدى إلى الانهيار المالى .

— ٤ —

وقد أشرنا فى بداية هذا الكتاب ، إلى تكوين الأمة الأندلسية فى مراحلها الأخيرة فى ظل مملكة غرناطة ، وإلى خصائصها العنصرية . والحقيقة أن المجتمع الأندلسى بمختلف عناصره الأصيلة والدخيلة ، كان قد استحال بمضى الزمن ، وتعاقب الحوادث والدول ، والمؤثرات الإجتماعية والإقليمية ، إلى أمة عربية إسلامية ذات طابع مستقل ومميزات خاصة ، تدعمها طائفة من الخلال البديعة ، وتصقلها حضارة رفيعة زاهرة . ثم قامت مملكة غرناطة التى اجتمعت فيها بقية الأمة الأندلسية لتعرض لنا خلال حياتها الطويلة ، المراحل الأخيرة لعظمة الأمة الأندلسية ، وحضارتها .

وقد وصف لنا ابن الخطيب فى « الإحاطة » ، أحوال المجتمع الأندلسى ، وخواصه الجنسية والعقلية والاجتماعية ، فى هذا العصر ، الذى مالت فيه شمس الأندلس إلى الأفول . فذكر لنا أن الشعب الأندلسى ، كان يتمتع بصفات أخلاقية طيبة ، وأن صورهم حسنة ، وأنوفهم معتدلة ، وألوانهم بيضاء ، وشعورهم سوداء ، وقدودهم متوسطة ، وألسنتهم عربية فصيحة ، تغلب عليها الإمالة ، وأنسابهم عربية ، وفيهم كثير من البربر والمهاجرين[2] .

وكان نساؤهم يتميزن بالجمال والسحر ، واعتدال السمن ، ونعومة الجسم ، ورشاقة الحركة ، ونبل الكلام ، وحسن المحاورة ، ولكن يندر الطول فيهن . وقد بلغن فى التفنن فى الزينة شأواً بعيداً ، يسرفن فى الأصباغ والعطور ، والتزين بنفيس الحلى .

وكان اللباس الغالب بين الأندلسيين شتاء ، الملف[3] المصبوغ على اختلاف أصنافه وألوانه ؛ ويرتدون فى الصيف ، الكتان والحرير والقطن والأردية الإفريقية ، والمقاطع التونسية ، والمآزر المشقوقة « فتبصرهم فى المساجد أيام الجمع ، كأنهم الأزهار المفتحة ، فى البطاح الكريمة ، تحت الأهوية المعتدلة »[4] .

---

(١) ابن الخطيب فى الإحاطة ج ١ ص ١٤٣ ، واللمحة البدرية ص ٢٩ .
(٢) الإحاطة ج ١ ص ١٤٠ .
(٣) نسيج من الصوف .
(٤) الإحاطة ج ١ ص ١٤١ .

ومما يجدر ذكره ، أن العمامة كانت يومئذ قد اختفت تقريباً كلباس رأس بين الشعب الأندلسي ، ولم يكن يلبسها سوى العلماء والقضاة[1]. وقد حلت القلانس منذ عهد بعيد مكان العمائم . وكان أهل شرق الأندلس أسبق من غيرهم في نبذ العمامة ، وذاعت القلانس بينهم منذ أوائل القرن السابع ، حتى كان أمراؤهم وشيوخهم وقضاتهم يلبسون القلانس ، وكان كثير من أمراء المسلمين مثل ابن مردنيش وغيره يرتدون الثياب القشتالية[2]. ولم يلبس ملوك بني الأحمر العمامة ، بل فضلوا القلنسوة (كاب) واتخذوها لباساً حتى آخر دولتهم . وكان بمتحف جنة العريف بغرناطة قبل إلغائه ، صورة يقال إنها لأبي عبد الله آخر ملوك الأندلس ، وهي تصوره بقلنسوة عالية[3] . وأما القضاة فقد احتفظوا بالعمامة كلباس رسمي . وتوجد في سقف قاعة الملوك أو قاعة العدل بقصر الحمراء ، صورة تمثل مجلس القضاة وهم بالعمائم والبرانس ، وهي الصورة التي يعتقد البعض أنها تمثل ملوك غرناطة .

وكان الأمراء والأكابر ، وفريق كبير من أبناء الطبقات الميسورة ، يؤثرون ارتداء الثياب الإفرنجية ، اقتداء بجيرانهم النصارى ، ولاسيما في عصور الأندلس الأخيرة . وأما ثياب الجندي الأندلسي فقد كانت في العصور المتأخرة مشابهة لثياب الجند النصارى ، وكذلك عدتهم وسلاحهم ونظامهم في الصفوف ، ثم عدلوا في عصر ابن الخطيب عن هذا الزي ، إلى الجواشن المختصرة والبيضات المذهبة ، والسروج العربية . وكانت الجنود البربرية من جانبها ، تحافظ على زيها المغربي[4] .

وكان أهل الأندلس مضرب الأمثال في النظافة ، يبالغون في العناية بنظافة أبدانهم وثيابهم ، ويكثرون من الاستحمام . وقد كانت هذه العادات فيما بعد ، حينما أكره المسلمون على التنصير ، من الشبه التي تثيرها ضدهم محاكم التحقيق ، للتدليل على تشبثهم بالإسلام ، وارتدادهم عن النصرانية .

وكان المجتمع الغرناطي يعيش في رخاء وسعة ، تكثر لديه الأقوات في الشتاء والصيف ، ولاسيما الفاكهة من العنب والتين والزبيب والتفاح والقسطل والجوز واللوز وغيرها ، ويدخرها الناس يابسة على كر الفصول ، ومتى حل الصيف ، هرع الناس إلى الفحوص (المروج) أعني الضواحي ، للتمتع بجمال البسائط النضرة ، ونسيمها العليل[5] .

---

(١) الإحاطة ج ١ ص ١٤٢ . (٢) راجع ص ٨١ و٩٩ من هذا الكتاب .
(٣) نشرنا هذه الصورة في ص ٢٧٥ . (٤) الإحاطة ج ١ ص ١٤٢ .
(٥) راجع ابن الخطيب في الإحاطة ج ١ ص ١٤٣ و ١٤٤ ، واللمحة البدرية ص٢٧ — ٢٩.

وكان احتفالهم بالأعياد أنيقاً ، ولكن فى حدود الإعتدال والاقتصاد . وكان الشعب الغرناطى يعشق مباهج الحياة والحفلات العامة ، وكانت الحياة لديه كأنها سلسلة من الأعياد المتواصلة . وكان الغناء ذائعاً ، ويكثر فى المنتديات والمقاهى العامة ، حيث يجتمع الشباب بكثرة ؛ ولم تنس غرناطة مرحها حتى فى أيام محنتها ، ولم تغلبها الكآبة إلا حينما أصبح العدو على الأبواب يهدد حياتها[١] .

وقد استمرت الفروسة الأندلسية فى مملكة غرناطة على ازدهارها ، ولبثت عصوراً تجذب الأنظار باكمالها وروعتها ورقة شمائلها . وفضلا عن كونها كانت عماد الدفاع القومى ، حسبما أشرنا من قبل ، فقد كانت مظاهرها وحفلاتها من أمتع المباهج العامة ، فى ميدان كان التسامح المؤثر يسود فيه علائق المسلمين والنصارى ، بالرغم مما كان يدور بين الفريقين من صراع مستمر . وقد اشتهر ملوك غرناطة ، فضلا عن الجود ، بميلهم نحو الحرية والتسامح ، فكان الأمراء المسلمون والنصارى يتبادلون الزيارات ، وكانوا يتلاقون أيام السلم وفى المفاوضات أنداداً كراماً . ومن أشهر مظاهر هذا التواصل ماحدث فى ربيع سنة ١٤٦٣ ، حيث سار هنرى الرابع ملك قشتالة إلى أراضى غرناطة ، وزار ملكها ابن اسماعيل ، والتقى الملكان فى مكان بقرب الفحص La Vega ، ضربت فيه خيمة ملكية أمام أبواب العاصمة ، ولما انتهت الزيارة وتبادل الفريقان الهدايا ، رافقت ملك النصارى كوكبة من الفرسان المسلمين ، وشيعته حتى الحدود . وكذلك كان الفرسان المسلمون والنصارى يتبادلون الزيارات ، وكثيراً ما كان الفرسان النصارى يقصدون إلى غرناطة ، لقضاء مصالحهم وتسوية منازعاتهم ، وكذا كان كثير من الأسر القشتالية النبيلة ، يلجأ إلى حماية ملك المسلمين كلما شعرت بالإضطهاد والحيف ، وكان فى مقدمة هؤلاء آل ڤيلا وآل كاسترو ؛ وكانت مباريات الفروسة وحفلاتها تتوالى فى غرناطة ، وفيها يبدى الفرسان المسلمون ضروباً رائعة من البراعة والرشاقة . وكان من أهم مميزات هذه الحفلات الشهيرة اختلاط الجنسين ، فكان نساء غرناطة ، البارعات فى الحسن والإناقة ، يشهدن هذه الحفلات وغيرها من الحفلات العامة سافرات ، ويسبغن بوجودهن عليها روعة وسحراً ، وكن يتمتعن بقسط وافر من الحرية الاجتماعية[٢] .

---

(١) الإحاطة ج ١ ص ١٤٣ ، واللمحة البدرية ص ٢٨ ؛ وكذلك فى Prescott: Ferd.&Isabella, p. 192

(٢) Prescott : Ferdinand & Isabella, p. 192

الفصل الثانى

الحركة الفكرية فى مراحلها الأولى

الحركة الفكرية الأندلسية فى أوائل القرن السابع . الشعر والأدب . ابن حريق . ابن مرج الكحل . ابن الجيان المرسى . ابن الأبار القضاعى . أبو الطيب الرندى . أقطاب اللغة . الفقه وعلوم الدين . المؤرخون . العلوم . أبو بكر بن زهر . ابن البيطار المالقى . بنو الأحمر حماة العلوم والآداب . محمد الفقيه وولده المخلوع . السلطان أبو الحجاج . الأمير الأديب أبو الوليد اسماعيل . الوزراء الكتاب والشعراء . ازدهار الشعر والأدب . ركود الحركة العلمية . ابن الحكم الرندى . حياته وشعره. ابن خميس التلمسانى . أبو الجيان الغرناطى . الرئيس ابن الجياب . ابن جابر الضرير . أقطاب اللغة . علماء الفقه والدين . التصوف . المؤرخون والرحل . العلوم .

أتينا فى الفصل السابق ، على لمحة من سير الحركة الفكرية ، فى ظل الدولة الإسلامية بالأندلس ، حتى بداية القرن السابع الهجرى ، أعنى إلى ما قبل قيام مملكة غرناطة بقليل . ونريد الآن أن نتحدث عن سير العلوم والآداب والفنون ، فى ظل مملكة غرناطة ذاتها . وسنحاول أن نتوسع فى هذا الحديث قدر الاستطاعة ، وإن كانت المصادر العربية ، ضنينة فى ذلك حسبما أشرنا ، أولا لهلاك معظم الآثار والوثائق الأندلسية المتعلقة بهذه المرحلة من تاريخ الأندلس ، وثانياً لأن كثيراً من المفكرين والكتاب المتأخرين ، الذين رأوا الوطن الأندلسى مشرفاً على السقوط فى يد العدو ، بادروا بالهجرة إلى المغرب والبلاد الإسلامية الأخرى ، وأقفرت الأندلس بذلك من مفكريها وأدبائها .

بيد أنه يجدر بنا قبل ذلك ، أن نعنى بالفترة العصيبة المضطربة التى جازتها الأندلس ، فى أواخر أيام الموحدين قبيل قيام مملكة غرناطة . وقد شهدت الأندلس فى هذه الفترة ، أعنى فى أوائل القرن السابع الهجرى ، سلسلة من الأحداث الجسام. ذلك أن سلطان الموحدين أخذ ينهار سراعا ، واضطرمت ثورة ابن هود فى الولايات الشرقية ، وأخذت قواعد الأندلس الكبرى ، تسقط تباعاً فى يد النصارى ، واستطاع ابن الأحمر فى الوقت نفسه ، أن ينشىء مملكة غرناطة فى جنوبى الأندلس . وكان من جراء الفوضى السياسية التى غمرت الأندلس يومئذ ، أن تصدعت الحركة

الأدبية ، وانتثر شملها ، وفقدت وسيلة الاستقرار والتجمع ، وشغل الأدباء والمفكرون يومئذ بالمحنة وآثارها . وغادر الأندلس فى تلك الفترة ، كثير من الكتاب والعلماء الذين توقعوا سوء المصير ، وآثروا العمل فى جو أكثر استقراراً وطمأنينة ، مثل الشيخ محيي الدين ابن عربي المرسى قطب التصوف الشهير ، وابن البيطار المالقى ، وابن الأبار القضاعى ، وابن حمدون الحميرى النحوى ، وابن سعيد الأندلسى ، وكثيرون غيرهم ، ممن رحلوا إلى المشرق أو عبروا البحر إلى المغرب.

وهكذا طلعت أوائل القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) على الأندلس ، بأحداثها وفتنها المتوالية ، والحركة الفكرية فى ربوعها حائرة غير مستقرة ، يتبدى ضوؤها باهتاً ، فى ظل دول وإمارات تتصدع أركانها تباعاً . ومع ذلك فقد ظل تراث الأندلس الفكرى فى هذه الفترة متواصلا ، يمتاز على اضطرابه بكثير من نواحي القوة والنضج ، التى امتاز بها فى ظل دولة الموحدين ، وقت أن كانت فى عنفوانها .

وسوف نستعرض فيما يلى أعلام التفكير والأدب فى تلك الفترة المضطربة ، التى مهدت حوادثها لقيام مملكة غرناطة ، فهى ليست فى الواقع سوى حلقة اتصال ، بين العصر الذى اختتمته الأندلس الكبرى ، وبين العصر الذى بدأت فيه حياتها الجديدة[1] .

الشعر والأدب

وكانت الحركة الأدبية يومئذ ما تزال فى عنفوانها . وكانت دولة النثر والنظم تحتل مكانتها الرفيعة ، بل لقد بعثت الأحداث والمحن ، التى توالت على الأندلس يومئذ ، إلى الشعر بكثير من أسباب الإنفعال والقوة . فامتلأت الأندلس يومئذ بالشعر المؤسى ، والمراثى القوية المؤثرة ، التى نقل المقرى إلينا كثيراً منها ، فى كتابيه نفح الطيب وأزهار الرياض .

وكان من أعلام الشعر فى تلك الفترة ، على بن محمد بن أحمد بن حريق الشاعر البلنسى المتوفى فى سنة ٦٢٢ هـ (١٢٢٧ م) ؛ كان شاعراً مجيداً كثير النظم ، ذاع

---

(١) عرضنا فى هذا الفصل بإيجاز إلى عدد من العلماء والكتاب والشعراء الذين تناولناهم فى خاتمة كتابنا « عصر المرابطين والموحدين » فى القسم الذى خصصناه للحركة الفكرية الأندلسية (القسم الثانى ص ٦٤٤ — ٧٢٦) حسبما أشرنا إليه من قبل . وقد كان هذا التكرار العرضى ضرورة المحافظة على السياق ، والتمهيد لما سيرد من بعده خلال العصر الغرناطى .

شعره فى الأندلس ، وكتب فوق ذلك عدة كتب فى الأدب[1] .

ومنهم ابن مرج الكحل ، وهو أبو عبد الله محمد بن إدريس بن على ، أصله من جزيرة شُقر ، وكان من شعراء عصره . وبرع بنوع خاص فى الغزل والشعر الوصفى المبتكر ، وعاش حيناً فى غرناطة ، وذاع صيته فى سائر نواحى الأندلس ، وتوفى سنة ٦٣٣ هـ (١٢٣٥ م) . ومن شعره يصف عشة ،بنهر لمنداق الذى عر بلوشة :

عرج بمنعرج الكثيب الأعفر   بين الفرات وبين شط الكوثر
ولتغتبقها قهـوة ذهبيـــة   من راحتى أحوى المراشف أحور
والروض بين مفضض ومذهّب   والزهـر بين مدرهم ومدنّر
والنهر مرقـوم الأباطح والربـا   بمصـندل من زهره ومعصفر
وكأنه وكأن خضرة شــطه   سيف يسيل على بســاط أخضر
وكأن ذاك الحبـاب فـرنده   مهما طفا فى صفحه كالجوهر[2]

ومنهم عزيز بن عبد الملك القيسى ؛ كان من أعيان مرسية واشترك فى حوادثها السياسية ، واستطاع أن يظفر بإمارتها لمدى قصير ،وتوفى سنة ٦٣٨ هـ (١٢٤٠ م) قتيلا ، فى معركة نشبت بينه وبين خصومه ، وكان شاعر مجيداً ، ومن قوله عندما حلت به المحنة :

نصحت فلم أفلح وخانوا فأفلحوا   فأعقبنى نصحى بدار هوان[3]

ومنهم على بن ابراهيم بن على المعروف بابن الفخار ، أصله من شريش وكان من أعلام الكتابة والنظم وتولى القضاء حيناً ، وتوفى سنة ٦٤٢ هـ (١٢٤٤م)[4]

ومنهم إبراهيم بن سهل الإشبيلى . وقد كان يهودياً ثم أسلم ، وبرع فى الشعر ولاسيما فى التوشيح ، ومن أبدع شعره قصيدة طويلة نظمها فى مدح النبى . وقد توفى غريقاً فى النهر ، وهو شاب فى عنفوانه ، وذلك سنة ٦٤٩ هـ (١٢٥١م) . ومن شعره قوله :

مضى الوصل إلا منية تبعث الأسى   أدارى بها همى إذا الليل عسعسا

---

(١) ابن الأبار فى تكملة الصلة (رقم ١٨٩٥) ، وصلة الصلة لأبى جعفر ابن الزبير ص ١٢٩
(٢) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٢٦ و٢٧ و٢٨ .
(٣) راجع صلة الصلة ص ١٦٥ ، وابن الأبار فى التكملة رقم ١٩٥٢ .
(٤) راجع صلة الصلة ص ١٣٥ ، والتكملة رقم ١٩٠٧ .

أتانى حديث الوصل زوراً على النوى أعيد ذلك الزور اللذيذ المؤنسا
ويا أيها الشوق الذى جاء زائراً أصبت الأمانى خذ قلوباً وأنفسا

ومن موشحاته :

ليـل الهوى يقظـان والحب ترب السـهر
والصـبر لى خـوان والنوم من عينى برى[1]

ومنهم أبو عبد الله محمد بن الجيان المرسى ، صديق ابن هود وكاتبه . وكان عالماً بالحديث والرواية ، بارعاً فى النثر والنظم . تولى الوزارة حيناً لابن هود ، وهو الذى كتب عن لسانه وصيته الشهيرة لأخيه . ولما استولى النصارى على مرسية سنة ٦٤١ هـ ، غادرها إلى أوريولة ، ثم نزح إلى المغرب ، واستقر بمدينة بجاية ، وتوفى هنالك سنة ٦٥٠ هـ (١٢٥٢ م) . وكان ابن الجيان صغير القد ، حتى ليخاله الناظر إليه طفلا ، ومن شعره قصيدته الدالية المشهورة التى مطلعها :

ياحادى الركب قف بالله ياحادى وارحم صبابة ذى نأى وإبعاد[2]

ومنهم الفقيه والكاتب الشاعر المؤرخ ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى بكر القضاعى البلنسى ، المعروف بابن الأبار . ولد سنة ٥٩٥ هـ وبرز فى الفقه واللغة ، وبرع فى النثر والنظم ، وتولى الكتابة للأمير أبى جميل زيان أمير بلنسية ، حفيد ابن مردنيش . ولما حاصر النصارى بلنسية سنة ٦٣٦ هـ (١٢٣٨ م) واشتد الخطب بالمسلمين ، أرسل أميرها زيان كاتبه ابن الأبار ، سفيراً إلى أبى زكريا الحفصى أمير تونس ، يستغيث به ويستنصره على العدو . وألقى ابن الأبار بهذه المناسبة بين يدى أبى زكريا قصيدته السينية الشهيرة ، يردد فيها صريخ الأندلس ، ويصف آلامها ومحنها ، وهذا مطلعها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسـا إن السبيل إلى منجاتها درسـا
وهب لها من عزيز النصر ما التمست فلم يزل عز النصر منك ملتمسا

وهى من غرر القصائد التى ذاعت بالأندلس أيام المحنة . ولما سقطت بلنسية بعد ذلك بقليل فى يد النصارى ، نزح ابن الأبار فى أهله إلى تونس ، وعاش هنالك حيناً فى كنف أميرها المستنصر الحفصى . ولكنه تغير عليه بعد ذلك ونكبه ، ثم أمر

---

(١) راجع نفح الطيب ج ٤ ص ٣٠٤ .
(٢) راجع نفح الطيب ج ٤ ص ٤٣٢ وما بعدها ، حيث ينقل وصية ابن هود لأخيه ؛ وص ٤٤٠ وما بعدها حيث يذكر طائفة من نظم ابن الجيان .

بقتله متأثراً بتحريض خصومه ، وأحرقت كتبه فى موضع قتله ، وذلك فى سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦٠ م) . ولابن الأبار كثير من الشعر الجيد . ومن قوله فى الغزل :

لم تدر ما خلدت عيناك فى خلدى ... من الغرام ولاما كابدت كبدى
أفديك من رائد رام الدنو فلم ... يسطعه من فرق فى القلب متقد
خاف العيون فوافانى على عجل ... معطلا جيده إلا من الجيـــد

ومنه يصف نهراً :

ونهر كما ذابت ســبائك فضة ... حكى بمجانيه العطاف الأراقم
إذا الشفق استولى عليه احمراره ... تراءى قضيباً مثل دامى الصوارم

وكتب ابن الأبار فى الأدب والتاريخ . ومن آثاره تكملة كتاب الصلة لابن بشكوال ، ترجم فيها لأعيان أهل الأندلس وعلمائها وشعرائها . وله أيضاً كتاب الحلة السيراء، ترجم فيها لطائفة مختارة من أعيان الأندلس من أمراء ووزراء وكتاب وشعراء ، وهو قيم جداً بالنسبة لتاريخ الطوائف وتاريخ عصره[1]. وله مؤلفات أخرى مثل كتاب تحفة القادم ، وفيه يقدم طائفة مختارة من نظم شعراء الأندلس الذين سبقت وفاتهم مولده ، وبعض الطارئين عليها من الغرباء ؛ وإعماض البرق ؛ وكتاب الإعتاب ، أو إعتاب الكتاب ، ويشتمل على تراجم طائفة من كتاب الأندلس وبعض الكتاب المشارقة ، وغيرها ، وهى آثار وصل معظمها إلينا[2].

ومنهم أبو الطيب صالح بن شريف الرندى . وكان أديباً شاعراً جزلا . بيد أننا لا نعرف كثيراً عن حياته ، ولانعرف إلا أنه كانت من أهل رندة كما يدل على ذلك لقبه ؛ وقد ولد بها فى سنة ٦٠١ هـ ، وتوفى سنة ٦٨٤ هـ . ويصفه ابن عبدالملك فى « التكملة » أنه « خاتمة أدباء الأندلس » . وكان بارعاً فى النثر والنظم معاً .

---

(١) نشر كتاب التكلة فى مجلدين ضمن المكتبة الأندلسية ، ونشر كتاب الحلة السيراء بعناية المستشرق دوزى (ليدن سنة ١٨٥١) ، ولكن مع إغفال بعض التراجم . وتوجد منه نسخة خطية كاملة بمكتبة الإسكوريال (رقم ١٦٥٤ الغزيرى) . وقد قام بتحقيقها ونشرها الدكتور حسين مؤنس فى مجلدين (القاهرة ١٩٦٤) .

(٢) راجع فى ترجمة ابن الأبار ، فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٢٦ — ٢٢٧ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٧٨—٥٨٠ ؛ وراجع فى محنته ومقتله ، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية للزركشى (تونس ١٢٨٩ هـ) ص ٢٧ . ويضع الزركشى تاريخ وفاته فى سنة ٦٥٨ هـ . هذا وتوجد نسخة خطية من كتاب تحفة القادم بمكتبة الإسكوريال تحمل(رقم ٣٥٦ الغزيرى)، كما توجد بها نسخة من كتاب إعتاب الكتاب وهى تحمل(رقم ١٧٣١ الغزيرى) .

وله مقامات بديعة فى أغراض شتى . وكان كثير الوفود على غرناطة والتردد على بلاطها . وقد عاش الرندى فى عصر الفتنة الكبرى التى اضطرمت بها الأندلس فى أواسط القرن السابع الهجرى ، والتى تمخضت عن قيام مملكة غرناطة وسقوط معظم القواعد الأندلسية الكبرى فى يد النصارى ، وقال فى المحنة مرثيته الشهيرة التى أتينا على ذكرها فى موضعها ، والتى خلدت ذكره إلى يومنا . وقد وهم المقرى فاعتقد أنه قد عاش فى أواخر القرن التاسع الهجرى ، أو عصر سقوط الأندلس النهائى[1] . ومن شعره فى الغزل والتصوف :

سلم على الحى بذات العرار ... وحى من أجل الحبيب الديار
وخل من لام على حبهم ... فما على العشاق فى الذل عار
ولا تقصر فى اغتنام المنى ... فما ليالى الأنس إلا قصار
وإنما العيش لمن رامه ... نفس تدارى وكؤوس تدار
وروحه الراح وريحانه ... فى طيبه بالوصل أو بالعقار[2]
لا صبر للشىء على ضده ... والخمر والهم كماء ونار

وكان الرندى من خاصة المقربين إلى السلطان محمد بن الأحمر ، وكان يطرب لشعره ، ومن أشهر قصائده فى مدح السلطان قصيدته التى مطلعها :

سرى والحب أمر لا يرام ... وقد أغرى به الشئون والغرام

وكتب الرندى برسم السلطان كتاباً فى التاريخ سماه « روض الأنس ونزهة النفس » . ونثره لا يقل روعة عن شعره[3] .

* * *

وظهر فى تلك الفترة أيضاً جماعة من أقطاب اللغة ، مثل على بن محمد بن خروف الإشبيلى المتوفى سنة ٦٠٩هـ (١٢١٢م) ، وقد طاف بقواعد الأندلس والمغرب ، وذاع صيته ، ووضع شرحاً لكتاب سيبويه[4] ؛ وعمر بن محمد الأزدى الإشبيلى

---

(١) راجع أزهار الرياض ج ١ ص ٤٧ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٩٥

(٢) تراجع القصيدة بأكلها فى نفح الطيب ج ٢ ص ٥٩٥ و ٤٩٦ .

(٣) نقلنا ملخص ترجمة صالح بن شريف عن مخطوط « الإحاطة فى تاريخ غرناطة » المحفوظ بالإسكوريال . واطلعنا فى المغرب على نسخة مخطوطة من تاريخه المذكور ، وهو مجلد كبير فى تاريخ الإسلام والخلفاء الراشدين والدولتين الأموية والعباسية .

(٤) راجع ترجمته فى صلة الصلة ص ١٢٢ .

المعروف بالشلوبين ، وكان إماماً فى العربية ، وبرع فى النحو والفقه ، وتوفى سنة ٦٤٥ هـ (١٢٤٧ م)(١) .

وظهر جماعة فى الفقه وعلوم الدين ، مثل على ابن أحمد بن محمد الغسانى ، من أهل وادى آش ، وقد ألف فى شرح « الموطأ » كتاباً ضخماً سماه « نهج السالك للتفقه فى مذهب مالك » ، ووضع شرحاً لكتاب مسلم ، وتوفى سنة ٦٠٩ هـ (١٢١٢)(٢) ؛ وعمر بن عبد المجيد بن عمر الأزدى الرندى المحدث ، المتوفى سنة ٦١٦ هـ (١٢١٨م)(٣) ، وقرينه ومواطنه المحدث المؤرخ عيسى بن سليمان الرعينى الرندى ، المتوفى سنة ٦٣٢ هـ (١٢٣٤ م)(٤) .

ونبغ فى تلك الفترة بالذات ، أعظم متصوفة الأندلس الشيخ محيى الدين أبو بكر الطائى المعروف بابن عربى ، وقد ولد بمرسية سنة ٥٦٠ هـ ونزح إلى المشرق فى شبابه ، وحج وطاف بمعظم قواعده ، وبقى به حتى توفى سنة ٦٣٨ هـ (١٢٤٠ م) ، وله ثبت حافل من المصنفات الجليلة ، منها كتاب فصوص الحكم ، والفتوحات المكية ، والتدبيرات الإلهية ، وعشرات غيرها ، ذكرها صاحب فوات الوفيات ، وله شعر جيد(٥) .

ونستطيع أن نذكر من المؤرخين فى تلك الفترة ، إلى جانب ابن الأبار القضاعى ، الذى سبقت ترجمته ، على بن موسى بن سعيد الأندلسى ، المعروف بابن سعيد المغربى ، وهو أديب ورحالة وسليل أسرة من الأدباء والمؤرخين ، تعاقب منها قبله خمسة فى مدى قرن ، على تصنيف مؤلف ضخم فى فضائل مدن الأندلس والمغرب والمشرق ، يضم كتابين كبيرين هما : كتاب « المشرق فى حلى المشرق » « والمغرب فى حلى المغرب » وأتمه على بن موسى آخر من نبغ من هذه الأسرة . وقد ولد فى غرناطة سنة ٦١٠ هـ وتوفى بدمشق سنة ٦٧٣هـ (١٢٧٤ م) ، وطاف بقواعد الأندلس والمغرب والمشرق ، ومؤلفه الكبير أثر أدبى وتاريخى وجغرافى

(١) راجع ترجمته فى صلة الصلة ص ٧١ .

(٢) راجع ترجمته فى صلة الصلة ص ١٢١ .

(٣) راجع ترجمته فى صلة الصلة ص ٧١ .

(٤) « « « « ص ٥١ .

(٥) راجع فى ترجمة ابن عربى ، فوات الوفيات ص ٢٤١ — ٢٤٣ .

جليل بارع الأسلوب(١) . وله كتب أخرى ذكر منها صاحب فوات الوفيات ، المرقص والمطرب ، وملوك الشعر . وله شعر رقيق .

العلوم

وكان للعلوم أيضاً مجالها بالأندلس فى أوائل القرن السابع الهجرى ، وربما كانت هذه آخر مرحلة ازدهر فيها العلم الأندلسى ،واستطاع أن يحتفظ بقبس من تقاليده القديمة الراسخة .

وكان ممن ظهر فى تلك الحقبة ، أبو الفضل محمد بن عبد المنعم الجليانى ، الطبيب والشاعر الأديب ، أصله من جليانة من أعمال غرناطة ، ونبغ فى الطب فى ظل الموحدين ، ثم رحل إلى المشرق ، وطاف بمصر والشأم ، ونظم كثيراً فى الإلهيات والرياضيات وآداب النفس(٢) .

ومنهم أبو بكر بن عبد الملك بن زهر الإشبيلى ، سليل أسرة بنى زهر الشهيرة ، التى نبغ منها فى الطب والكيمياء والصيدلة ، أبو العلاء بن زهر ، ثم ولده عبدالملك حسبما سبقت الإشارة إليه ، ثم ابنه أبو بكر هذا ، وقد برع كأبيه وجده فى الطب والكيمياء ، وكان من أعظم أطباء الأندلس فى أواخر القرن السادس الهجرى .

ومنهم أبو العباس أحمد بن محمد بن مفرج الأموى المعروف بابن الرومية الإشبيلى العلامة الطبيب والنباتى ، وقد اشتهر بالأندلس فى أوائل القرن السابع الهجرى ، وكان إماماً فى الحديث وحجة فى علم النبات لا يبارى . ولد بإشبيلية سنة ٥٦١ هـ وتوفى بها سنة ٦٣٧ هـ (١٢٣٩ م) . وله مؤلفات نفيسة فى النبات والطب . منها شرح حشائش دياسقوريدس، وأدوية جالينوس ، والرحلة النباتية ، والمستدركة ، وله كتاب فى الأدوية المفردة على نمط الكتب التى ألفها بنو زهر فى هذا الموضوع(٣) .

وكان من أعظم علماء الأندلس فى هذا العصر ، ابن البيطار المالقى العالم

---

(١) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ١٣٧ . وقد انتهت إلينا من هذا الأثر الضخم نسخة مشوهة ناقصة ، وهى محفوظة بدار الكتب المصرية رقم ٢٧١٢ ،تاريخ . وقد نشر أخيراً كتاب « المغرب فى حلى المغرب » فى جزأين محققاً بعناية الدكتور شوقى ضيف وصادراً عن دار المعارف بالقاهرة (١٩٥٣—١٩٥٥) .

(٢) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ١٦ ، وقد أورد المقرى شيئاً من شعره .

(٣) ترجم له ابن الخطيب فى الإحاطة (ج ١ ص ٢١٥ وما بعدها) . وراجع نفح الطيب ج ٢ ص ١٣٧ .

النباتى والطبيب المشهور ، وهو ضياء الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد ، ولد بمالقة فى أواخر القرن السادس الهجرى ، ودرس على أبى العباس النباتى ، ثم غادر الأندلس فى شبابه ، وطاف بأنحاء المغرب ، وقدم إلى مصر أيام الملك الكامل ، فدخل طبيباً فى خدمته ، ثم خدم ابنه الملك الصالح من بعده ، وعنى بدراسة النبات والأعشاب فى مصر والشام وآسيا الصغرى وبلاد اليونان ، وألف فى ذلك كتابين ؛ «كتاب الجامع فى الأدوية المفردة» تناول فيه الأدوية النباتية المعروفة فى عصره ، ورتبها على حروف المعجم ، وكتاب «المغنى فى الأدوية المفردة» ، وهو مرتب على مداواة الأعضاء ، وله أيضاً كتاب «الأفعال الغريبة والخواص العجيبة» . ودرس عليه ابن أبى أصيبعة العالم المشهور ، وصاحب معجم تراجم الأطباء ، وقد أشاد ببراعته وغزارة علمه ، ودقة فهمه لكتب الأقدمين . وتوفى ابن البيطار بدمشق سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٨ م)[١] .

وظهر فى هذا العصر علماء آخرون فى الرياضيات والفلك ، وكان منهم مطرّف الإشبيلى ، وقد برع فى الفلك ، واشتغل بالتصنيف فيه ، وكان ينسب إلى الزندقة بسبب اعتكافه فى هذا الشأن ، فكان يخفى تصانيفه ونتائج بحوثه عن أهل عصره[٢] .

— ٢ —

وهكذا كانت الحركة الفكرية بالأندلس فى النصف الأول من القرن السابع الهجرى ، تحاول رغم اضطرابها أن تعمل على وصل ماضيها بحاضرها . فلما نهضت مملكة غرناطة من غمر الفوضى ، وبدأت الأندلس حياتها الجديدة فى ظل هذه المملكة الفتية الجديدة ، أخذت الحركة الفكرية فى الاستقرار ، وآنست جواً من الهدوء والطمأنينة . وكان ملوك غرناطة جرياً على سنن ملوك الأندلس السالفين ، من حماة العلوم والآداب ، وكان بلاط غرناطة يسطع بتقاليده الأدبية الزاهرة ، كما سطعت من قبل قصور ملوك الطوائف ، وكان أمراء بنى الأحمر أنفسهم فى طليعة العلماء والأدباء . واشتهر عميدهم ومؤسس دولتهم محمد بن الأحمر ، بحمايته للعلم والأدب ، وكانت له أيام خاصة يستقبل فيها الشعراء وينشدونه قصائدهم[٣] ،

(١) راجع فوات الوفيات ج ١ صح ٢٠٤ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٤٤ و ٤٥ .
(٢) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ١٣٨ .
(٣) اللمحة البدرية ص ٣١ .

وكان من خاصة شعرائه الأثيرين لديه صالح بن شريف الرندى حسبما قدمنا . وكان ابنه محمد الفقيه عالماً ضليعاً ، يعشق مجالس العلم ويؤثر العلماء بعطفه ، ويقرض الشعر[١] ، وكذا كان ولده أبو عبد الله محمد الملقب بالمخلوع ، عالماً شاعراً ينظم الشعر المستظرف ، وقد أوردلنا ابن الخطيب قصيدة من شعره يقول فيها :

واعــدنى وعداً وقــد أخلفــا ... أقل شيء فى المــلاح الوفا
وحال عن عهــدى ولم يرعه ... ما ضره لو أنه أنصـــــفا
ما بالهــــا لم تتعطف عـــلى ... صب لهــا ما زال مستعطفــا
يستطلع الأنباء من نحــــوها ... ويرقب البرق إذا ما هفــا[٢]

وبلغت الحركة الفكرية والأدبية ذروة ازدهارها ، فى مملكة غرناطة ، فى عصر السلطان أبى الحجاج يوسف بن اسماعيل النصرى (٧٣٣ — ٧٥٥ هـ) ، وولده السلطان محمد الغنى بالله (٧٥٥ — ٧٩٣ هـ) . وكان السلطان أبو الحجاج نفسه ، عالماً أديباً يشغف بالفنون . واشتهر الأمير أبو الوليد اسماعيل بن السلطان يوسف الثانى بأدبه وبارع نثره ، وهو صاحب كتاب « نثير الجمان فيمن ضمنى وإياهم الزمان » الذى يترجم فيه لأعلام عصره فى الشعر والأدب[٣] .

وكان من بين وزراء الدولة النصرية وكتابها ، كثير من أعلام الشعر والأدب . ويكفى أن نذكر فى هذا المقام ابن الحكيم الرندى ، وابن الجياب ، وابن الخطيب ، وابن زمرك ، والشريف العقيلى خاتمة أدباء الأندلس ووزرائها ، وهم جميعاً من أقطاب الحركة الأدبية فى مملكة غرناطة ، ومن أعلام وزرائها وسادتها ، وسنعود إلى التحدث عنهم فيما بعد .

ومما تجدر ملاحظته ، أن الحركة الفكرية الأندلسية فى ذلك العصر ، تكاد تنحصر فى النواحى الأدبية ، فقد ازدهر الأدب والشعر ، وحفلت غرناطة بجمهرة من أكابر الأدباء والشعراء ، ولكن العلوم العقليه أصابها الركود ، وقلما نجد فى هذه الفترة أحداً من أقطاب الطب والفلسفة أو العلوم الرياضية ، أوغيرها من العلوم المحضة ، التى ازدهرت من قبل بالأندلس ، ونبغ فيها ثبت حافل من أكابر

---

(١) اللمحة البدرية ص ٣٨ .

(٢) راجع هذه القصيدة فى اللمحة البدرية ص ٤٩ ، وراجع الإحاطة ج ١ ص ٥٥٣ و ٥٥٤ .

(٣) نفح الطيب ج ٢ ص ٤٠٤ ، وراجع أزهار الرياض ج ١ ص ١٨٦ . وتوجد نسخة مخطوطة وحيدة من هذا الكتاب بدار الكتب المصرية .

العلماء والفلاسفة ، هذا بينما احتفظت الآداب فى مملكة غرناطة بروائها وازدهارها ، حتى اللحظة الأخيرة من حياتها .

وقد تقلبت الحركة الفكرية الأندلسية فى المائتين وخمسين عاماً التى عاشتها مملكة غرناطة ، فى أطوار ثلاثة : طور الفتوة ، وطور النضج ، وطور الإنحلال الأخير . وسوف نحاول أن نستعرض هذه الأطوار الثلاثة تباعاً ، ذاكرين أقطاب التفكير والأدب فى كل مرحلة منها .

— ٣ —

ويبدأ الطور الأول باستقرار مملكة غرناطة وتوطدها ، فى أواخر القرن السابع الهجرى وأوائل القرن الثامن .

وقد حفلت هذه الفترة التى بزغت فيها شمس الأندلس من جديد ، بجمهرة من الشعراء والأدباء والعلماء ، وازدهر الأدب ، واستعاد الشعر بنوع خاص ، كثيراً من روعته وروائه القديم .

وكان فى طليعة شعراء هذه الفترة ، الكاتب البليغ والأديب البارع ، الوزير ابن الحكيم . وهو أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن ابراهيم بن يحيى اللخمى الرندى وأصلهم من بيوتات إشبيلية ، وكان جد والده يحيى طبيباً عرف بالحكيم ، وأسبغ لقبه على الأسرة . ولما اضطرمت الفتنة بالأندلس أيام الطوائف ، انتقلت الأسرة إلى رندة ، وولد ابن الحكيم برندة سنة ٦٦٠هـ ، ووفد على غرناطة فتى ، أيام السلطان أبى عبد الله محمد المعروف بالفقيه ، فولاه كتابته فى ديوان الإنشاء . ثم تقلد بعد وفاته الوزارة لولده السلطان أبى عبد الله محمد المخلوع ، إلى جانب وزيره أبى سلطان عزيز الدانى . فلما توفى أبو سلطان ، انفرد ابن الحكيم بالوزارة ، ولقب بذى الوزارتين لجمعه بين الكتابة والوزارة . واستبد بالحكم حيناً حتى نشبت الثورة فى غرناطة ضد السلطان أبى عبد الله المخلوع وحكومته الطاغية ، وقتل فيها ابن الحكيم يوم عيد الفطر سنة ٧٠٨ هـ (١٣٠٨ م) حسبما أسلفنا فى موضعه . وكان ابن الحكيم شاعراً مجيداً وكاتباً بليغاً وخطيباً ذلقاً ، وقد وصفه ابن الخطيب فى الإحاطة بقوله : «كان علماً فى الفضيلة والسراوة ومكارم الأخلاق ، كريم النفس ، واسع الإيثار ، متين الحرمة ، عالى الهمة ، كاتباً بليغاً ، أديباً ، شاعراً » ، وفى كتاب « عائد الصلة » بقوله : «كان فريد دهره سماحة وبشاشة ولوذعية وانطباعاً ، رقيق الحاشية ،

نافذ العزمة ، مهتزاً للمديح ، طلقاً للآمال ، كهفاً للغريب »(١) وزار ابن الحكيم المشرق ، وحج ودرس وتلقى عن مشايخه . ومن شعر ابن الحكيم قوله :

ما أحسن العقل وآثاره   لو لازم الإنسان إيثاره
يصون بالعقل الفتى نفسه   كما يصون الحر أسراره
لاسيما إن كان فى غربة   يحتاج أن يعرف مقداره

ومن قوله فى الغزل :

هل إلى رد عشيات الوصال   سبب أم ذاك من ضرب المحال
وليال ما تبقى بعدها   غير أشواقى إلى تلك الليال
إذ مجال الوصل فيها مسرحى   ونعيمى آمر فيها ووال
ولحالات التراضى جولة   مزجت بين قبول واقتبال
وغزال قد بدا لى وجهه   فرأيت البدر فى حال الكمال
ما أمال التيه من أعطافه   لم يكن إلا على خصل اعتدال
خص بالحسن فما أنت ترى   بعده للناس حظاً فى الجمال

وقوله :

ألا واصل مواصلة العقار   ودع عنك التخلق بالوقار
وقم واخلع عذارك فى غزال   يحق لمثله خلع العذار
قضيب مائس من فوق دعص   تعمم بالدجى فوق النهار
ولاح بخده ألف ولام   فصار معرفا بين الدرارى(٢)

وكان ولده أبو بكر محمد بن الحكيم أيضاً من أعلام الأدب والشعر فى تلك الفترة ، وقد تولى مثله الوزارة فيما بعد ، وكان من أساتذة ابن الخطيب ، وقد ألف فى الأدب كتاباً سماه « بالموارد المستعذبة »(٣) .

ومن أكابر الشعراء فى تلك الفترة أبو عبد الله محمد بن خميس التلمسانى ، أصله من تلمسان كما يدل عليه اسمه . ووفد على غرناطة واتصل بالوزير ابن الحكيم ومدحه ، ونزل بألمرية سنة ٧٠٦ هـ واتصل بحاكمها القائد أبى الحسن بن كماشة ،

---

(١) راجع الإحاطة ج ٢ ص ٢٧٩ .
(٢) راجع فى ترجمة ابن الحكيم وشعره : الإحاطة ج ٢ ص ٢٧٨ — ٣٠٣ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٧ — ٩ ، وج ٢ ص ٢٦٣ — ٢٧١ .
(٣) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٢٦٣ .

وملحه فأجزل صلته ، ووصفه ابن خاتمة بأنه من فحول الشعراء وأعلام البلغاء ، وقد جمع شعره فى ديوان سمى « الدر النفيس فى شعر ابن خميس » . وكانت وفاته قتيلا بغرناطة يوم مقتل مخدومه الوزير ابن الحكيم وذلك فى يوم عيد الفطر سنة ٧٠٨ هـ (١٣٠٨ م) ، ويمتاز شعره بالجودة والروعة ، ومن نظمه قوله :

نظرت إليك بمثل عيني جوذر ... وتبسمت عن مثل سمطى جوهر
عن ناصع كالدر أو كالبرق أو ... كالطلح أو كالاقحوان مؤشر
تجرى عليه من لماها نطفة ... بل خمرة لكنها لم تعصر
لو لم يكن خمراً سلافاً ريقها ... تزرى وتلعب بالنهى لم تخطر

وقوله :

عجباً لها أيذوق طعم وصالها ... من ليس يأمل أن يمر ببالها
وأنا الفقير إلى تعلة ساعة ... منها وتمنعنى زكاة جمالها
كم ذا وعن عيني الكرى متأنف ... يبلو ويخفى فى خفى مطالها
يسمو لها بدر الدجى متضائلا ... كتضاؤل الحسناء فى أسمالها

ومنه :

أتت ولكن بعد طول غياب ... وفرط لجاج ضاع فيه شبابى
وما زلت والعليا تعنى غريمها ... أعلل نفسى دائماً بمشاب
وهيهات من بعد الشباب وشرخه ... يلذ طعامى أو يسوغ شرابى
خدعت بهذا العيش قبل بلائه ... كما يخدع الصادى يلمع سراب

ومنه قوله فى الحنين إلى بلده تلمسان قصيدة من أبدع قصائده هذا مطلعها :

تلمسان لو أن الزمان بها يسخو ... منى النفس لادار السلام ولا الكرخ
ودارى بها الأولى التى حيل دونها ... مثار الأسى لو أمكن الحنق اللبخ
وعهدى بها والعمر فى عنفوانه ... ومنه شبابى لا أجين ولا مطخ[1]

ومنهم أبو حيان الغرناطى ، محمد بن يوسف بن على ، ولد بغرناطة سنة ٦٥٤ هـ وطاف بالمشرق ، وتوفى بمصر سنة ٧٤٥ هـ (١٣٤٤ م) ، وكان فوق تضلعه فى الحديث والتفسير بارعاً فى اللغة والأدب ، إماماً فى النثر ، ونظم

---

(١) راجع فى أخبار ابن خميس شعره : نفح الطيب ج ٣ ص ١٨٤ — ١٩٤ ؛ وأزهار الرياض ج ٣ ص ٣٠٣ .

الموشحات ، وقد ترك مؤلفات كثيرة فى التفسير واللغة والأدب ، وله شعر كثير ومن نظمه قوله فى موشحته :

إن كان ليل داج . وخاننا الإصباح . فنورها الوهاج . يغنى عن المصباح

سلافة تبدو كالكوكب الأزهر
مزاجها شهد وعرفها عنبر
يا حبذا الورد منها وإن سكر(١)

وكان الرئيس أبو الحسن على بن الجياب ، وزير السلطان يوسف أبى الحجاج وكاتبه ، فى طليعة أقطاب النثر والنظم فى تلك الفترة ؛ ولد بغرناطة سنة ٦٧٣هـ ، وبرع فى الشعر والأدب ، وتقلب فى مناصب الكتابة حتى غدا رئيساً لديوان الإنشاء ، وكان من معاونيه فى الكتابة لسان الدين بن الخطيب وقد ورث منصبه عقب وفاته . وتوفى ابن الجياب ضمن ضحايا الوباء الكبير سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٨م) . ومن شعره قوله :

لله عصر الشباب عصرا فتح للخير كل باب
حفظت ما شئت فيه حفظا كنت أراه بلا ذهاب
حتى إذا ما المشيب وافى نَدَّ ولكن بلا إياب

ومنه فى الوعظ :

يا أيها المساك البخيل إلهك المنفق الكفيل
أنفق وثق بالإله ترع فإن إحسانه جزيل(٢)

ومن شعراء ذلك العصر أبو عبد الله محمد بن جابر الأندلسى الهوارى الضرير ، وقد رحل إلى المشرق ، ومدح بعض أمرائه ، وقصد إلى سلطان ماردين فأجزل صلته ، وقد أشار ابن بطوطة الرحالة إلى ذلك عند ذكره فى رحلته لسلطان ماردين(٣) ؛ ولابن جابر موشحات كثيرة ومدائح جيدة فى الصحابة وآل البيت ، ومن شعره فى الغزل قوله :

شغفت بها حيناً من الدهر لم يكن سوى سكب دمعى فى محبتها كسبى
وما أصل هذا كله غير نظرة إلى مقلة منها أصغت لها قلبى

(١) راجع ترجمته وشيئاً من شعره فى فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٨٢ — ٢٨٥ .
(٢) راجع ترجمة ابن الجياب وشعره : نفح الطيب ج ٣ ص ٢٢٣ — ٢٢٩ .
(٣) نفح الطيب ٤ ص ٣٩٣ ؛ ورحلة ابن بطوطة ج ١ ص ١٥٠ .

ومنـــه :

تجنت فجن فى الهوى كل عاقل رآها وأحـوال المحب جنـون
وما وعدت إلا غلت فى مطالها كذلك وعـد الغانيات يكون

ومنه فى الحكم :

مهـلا فما شيم الوفا منقادة لمن ابتغى من نيلها أوطارا
رتب المعالى لا تنال بحيـلة يوماً ولو جهـد الفتى أوطارا

وقال يتشوق إلى حمراء غرناطة :

دامت على الحمراء حمر مدامعى والقلب فيما بين ذلك ذائب
طال المـدى بى عنهم ولربمـا قد عاد من بعد الإطالة غائب

* * *

وظهر من أقطاب اللغة فى تلك الفترة عدة ، منهم أبو بكر محمد بن إدريس القرانى القضاعى المتوفى سنة ٧٠٧ هـ (١٣٠٧ م) . وقد كتب فى علم العروض كتاب « الختام المفضوض عن خلاصة علم العروض » ومنه نسخة بمكتبة الإسكوريال (١) .

ومنهم أبو جعفر أحمد بن ابراهيم بن الزبير الحافظ النحوى شيخ ابن الخطيب الأب ، وقد ولد بجيان سنة ٦٢٦هـ وتوفى سنة ٧٠٨هـ (١٣٠٨م) . قال ابن الخطيب فى حقه : « انتهت إليه رياسة العربية بالأندلس » ؛ وكان عالماً بالقرآن والحديث ، مجيداً للنثر والنظم ، ولى القضاء بغرناطة ، واتصل بسلطانها الأمير أبى عبد الله محمد بن محمد بن الأحمر فأكرم مثواه ، وقد صنف كتباً عدة فى مختلف الفنون ، ومن آثاره المنشورة كتاب « صلة الصلة » الذى ألفه ذيلا على كتاب الصلة لابن بشكوال (٢) .

ومنهم أبو الحسن على بن يحيي الفزارى المالقى المعروف بابن البرزى المتوفى سنة ٧٥٠هـ (١٣٤٩ م) ، وكان بارعاً فى اللغة ، وله شعر يصفه ابن الخطيب بالضعف والهزال .

ومنهم أبو عبد الله محمد بن على الفخار البيرى ، كان شيخ النحاة بالأندلس فى عصره ؛ درس عليه الكثيرون ومنهم ابن الخطيب وابن زمرك ، وقد وصفه

---

(١) المستشرق بروكلمان فى تاريخ الأدب العربى **Geschichte der Arabischen Litteratur 1943 .B . II: p. 259.**

(٢) راجع فى ترجمة ابن الزبير ، كتاب « صلة الصلة » المنشور بعناية الأستاذ ليفى بروفنسال فى المقدمة ص : و — ج . وكذلك الإحاطة ج ١ ص ١٩٥ — ٢٠٠ .

ابن الخطيب فى الإحاطة « بالإمام المجمع على إمامته فى العربيه ، المفتوح عليه من الله فيها حفظاً واطلاعاً ، واضطلاعا ، ونقلا وتوجيها بما لا مطمع فيه لسواه » ، وكانت وفاته بغرناطة سنة ٧٥٤ هـ (١٣٥٣ م)[١] .

* * *

ونبغ من علماء الدين والفقه فى تلك الفترة ، القاسم بن عبد الله بن الشط الأنصارى الإشبيلى ، المتوفى سنة ٧٢٥ هـ (١٣٢٤ م) وله كتاب « البرنامج » عن قضاة الأندلس [٢] . وأبو القاسم بن جزى الكلبى (محمد بن أحمد بن محمد) وهو من أهل غرناطة ، وأصل سلفه من ولبة بولاية الغرب ، كان فقيها حافظا مشاركا فى فنون كثيرة ، ولاسيما اللغة والفقه ، والقراءات والأدب . اشتغل بالتدريس بغرناطة ، وتولى منصب الخطابة بالجامع الأعظم ، وله عدة مؤلفات منها كتاب « التسهيل لعلوم التنزيل » و « الأنوار السنية فى الألفاظ السنية » و « القوانين الفقهية فى تلخيص مذهب المالكية » وكتاب « تقريب الوصول إلى علم الأصول » وغيرها ، وله فهرسة اشتملت على طائفة كبيرة من علماء المشرق والمغرب ، ولد بغرناطة سنة ٦٩٣ هـ وتوفى قتيلا فى موقعة طريف سنة ٧٤١ هـ[٣] .

وازدهر التصوف فى هذا العصر ، وكان من أقطابه يومئذ أبو الحسن على ابن فرحون القرشى القرطبى ، المتوفى سنة ٧٥١ هـ (١٣٥٠ م) ؛ وأبو اسحاق ابراهيم بن يحيى الأنصارى المرسى ، وقد ولد فى سنة ٦٨٧ هـ وتوفى بغرناطة سنة ٧٥١ هـ (١٣٥٠م) ، وله كتاب « زهرة الأكمام » فى قصة يوسف ؛ وأبو عبد الله محمد بن محمد الأنصارى المالقى المولود سنة ٦٤٩ هـ ، والمتوفى سنة ٧٥٤ هـ (١٣٥٣ م) ، وله كتاب « بغية السالك فى أشرف المسالك » فى مراتب الصوفية وطرائق المريدين[٤] .

وظهر من المؤرخين ، محمد بن يحيى بن أبى بكر بن سعيد الأنصارى المالكى . وقد ولد سنة ٦٧٤ هـ ، وتولى الخطابة والقضاء بغرناطة ، وتوفى قتيلا فى

---

(١) نفح الطيب ج ٣ ص ١٨٢ و ١٩٦ .

(٢) بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٤ .

(٣) نفح الطيب (عن الإحاطة) ج ٣ ص ٢٧١ ، وبروكلمان المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٥ .

(٤) بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٥ .

سنة ٧٤١ هـ (١٣٤٠ م) فى موقعة طريف . ومن آثاره كتاب « التمهيد والبيان فى مقتل الشهيد عثمان بن عفان »[١] .

ومن الرحل والرواة ، أبو البقاء خالد بن عيسى البلوى ، وقد رحل إلى إفريقية والمشرق بين سنتى ٧٤٦ و٧٤٠ هـ ، وكتب عن رحلته كتاب « تاج المفرق فى تحلية علماء المشرق » وانتفع فى مؤلفاته بما كتبه ابن جبير عن المشرق[٢] .

* * *

وأما العلوم فلم تزدهر مثل إزدهارها فى الماضى ، ولم تشغل فى الحركة الفكرية سوى مجال محدود . وكان من أشهر علماء ذلك العصر أبو زكريا يحيى بن هذيل حكيم غرناطة وفيلسوفها المتوفى سنة ٧٥٣ هـ (١٣٥٣ م) ، وقد برع فى الطب والفلسفة والعلوم والرياضة ، وكان من شيوخ ابن الخطيب[٣] وقد وصفه ابن الخطيب فى الإحاطة بأنه « درة بين الناس معطلة ، وخزانة على كل فائدة مقفلة » ونوه بروعة محاضراته وأدبه . وله شعر جمع فى ديوان سمى « بالسليمانيات » . وقد نقل إلينا المقرى طائفة من نظمه[٤] . ونستطيع أن نضع فى العلماء المعاصرين أيضاً شيخ ابن الخطيب أبا عثمان سعد بن أحمد بن ليون التجيبى ، وكان من أكابر الأئمة فى الفقه ، واختصر عدة من أمهات الكتب مثل كتاب « بهجة المجالس » لابن عبد البر . وكتب كتباً فى الهندسة والفلاحة[٥] .

---

(١) بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٠ ، وتوجد من هذا الكتاب نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية .

(٢) بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٦ ، وتوجد من كتابه نسخة خطية بدار الكتب المصرية .

(٣) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٥٢ . وص ٢٥٨ .

(٤) نفح الطيب ج ٣ ص ٢٥٨ — ٢٦٣ .

(٥) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٣٠٢ .

الفصل الثالث

عهـــد النضج والازدهار

تقدم الحركة الفكرية . ابن سلبطور الشاعر . أبو القاسم الحسنى . ابن خاتمة . ابن الخطيب . نشأته وحياته . سفارته إلى المغرب وقصيدته للسلطان . وصفه لحياته فى الوزارة . سقوطه وجوازه إلى المغرب . احتفاء السلطان به وإنشاده فى حضرته . ابن الخطيب وابن خلدون . ما قاله الأمير ابن الأحمر فى تقدير ابن الخطيب . تهنئته السلطان . عوده إلى الأندلس وإلى تولى الوزارة . وصفه لجهوده يومئذ . ما ينسب إليه من طغيان . فقده لحظوته وجوازه إلى المغرب . كيد خصومه له . اتهامه بالزندقة . تطور الحوادث فى المغرب . تفاهم بلاط غرناطة مع سلطان المغرب على الإيقاع به . الوزير ابن زمرك يلاحقه فى فاس . اتهامه ومصرعه . مؤلفاته وآثاره . أثره فى تطور الحركة الأدبية . ابن زمرك تلميذ ابن الخطيب . نشأته وحياته . مكانته الأدبية . نماذج من شعره وموشحاته . الموازنة بينه وبين ابن الخطيب. بقية الشعراء والأدباء فى تلك الفترة . الفقهاء . المؤرخون .

شهدت الحركة الفكرية الأندلسية فى مملكة غرناطة ، مرحلة النضج فى أواسط القرن الثامن الهجرى وأواخره ، وشهدت فى النصف الأخير من هذا القرن ، ذروة قوتها وازدهارها .ولا غرو فهذه الفترة هى التى سطع فيها ابن الخطيب ، أعظم مفكرى الأندلس ، وأعظم كتابها وشعرائها فى ذلك العصر . وامتازت هذه الفترة ، بروعة إنتاجها الأدبى فى النثر والنظم ، وربما كان للأحداث والفتن الداخلية الخطيرة التى جازتها الأندلس يومئذ ، أكبر أثر فى تغذية هذه الحركة الممتازة ،وإمدادها بمختلف الإنفعالات القوية ، التى طبعت إنتاجها .

وقد بدأت هذه الحركة فى عصر السلطان أبى الحجاج يوسف بن اسماعيل ، أعظم سلاطين بنى نصر (٧٣٣ – ٧٥٥ هـ) وأشدهم حماسة فى تعضيد الآداب والفنون ، واستمرت من بعده طوال القرن الثامن الهجرى ، وحفلت بعدد كبير من الأدباء والشعراء الممتازين . وقد استعرضنا الكثير منهم فيما تقدم حتى منتصف القرن الثامن ، وسنمضى هنا فى استعراض بقية هذا الثبت الحافل حتى أواخر هذا القرن .

كان من أكابر الشعراء فى بداية هذه الفترة ، ابن سلبطور شاعر المرية ،وهو أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد بن سلبطور الهاشمى ، والظاهر أنه قد يرجع إلى أصل من أصول المولدين الإسبان ،كما يدلى بذلك اسمه سلبطور Salvador ؛

وقد نشأ بألمرية ، وبرع فى الأدب ، وتدرب منذ فتوته على ركوب البحر وقيادة السفن ، وناب فى قيادة الأسطول عن خاله القائد أبى على الرنداحى أحد أبناء أسرة الرنداحى، التى اشتهرت عصراً بقيادتها للأساطيل الأندلسية وأساطيل سبتة . واشتهر ابن سليطور برائق نظمه . وفى أواخر حياته انحرف عن جادة الصواب، وانكب على ملاذه وشهواته ، وأضاع كل ثروته ، حتى ساءت حالته ، وانحدر إلى هاوية الفقر والبؤس ، فعبر البحر إلى العدوة ، وتوفى بمراكش سنة ٧٥٥ ﻫ (١٣٥٤ م) . ومن شعره يمتدح السلطان حين حل بألمرية :

أثغرك أم سمط من الدر ينظم ... وريقك أم مسك من الراح تختم
ووجهك أم باد من الصبح نير ... وفرعك أم داج من الليل مظلم
أعلل منك الوجد والليل ملتق ... وهل ينفع التعليل والخطب مؤلم
وأقنع من طيف الخيال بزورة ... لو ان جفونى بالمنام تنعم[1]

ومنهم أبو عبد الله محمد بن جزى ، الكاتب الشاعر ، ولد بغرناطة سنة ٧٢١ﻫ، وانتظم منذ فتوته بين كتاب السلطان أبى الحجاج يوسف ، وحظى لديه ومدحه بطائفة من القصائد الرنانة ، ثم غضب عليه ونكبه ، فغادر الأندلس إلى العدوة ، ودخل فى خدمة السلطان أبى عنان المرينى ومدحه ؛ وكان بارعاً فى النثر والنظم ؛ ذكره ابن الأحمر فى « نثير الجمان » وأشاد بمقدرته ، ووصفه بأنه أعظم شاعر فى عصره . وكانت وفاته بمراكش سنة ٧٥٧ ﻫ (١٣٥٦ م)[2] . وهو الذى أنشأ رحلة ابن بطوطة من مذكرات صاحبها حسبما ينوه بذلك فى خاتمة الكتاب[3] .

ومنهم قاضى الجماعة ، أبو القاسم محمد بن أحمد الشريف الحسينى ، ولد سنة ٦٩٧ ﻫ ، وتوفى بغرناطة سنة ٧٦٠ ﻫ (١٣٥٨ م) ، ولى رياسة القضاء ، وكان فوق تضلعه فى الحديث والفقه ، شاعراً مجيداً ، وكتب فى العروض والأدب، وجمع شعره فى ديوان أسماه « جهد المقل »[4] .

ومنهم أبو جعفر أحمد بن على بن محمد بن خاتمة الأنصارى؛ ولد بألمرية

---

(١) نفح الطيب (عن الإحاطة) ج ٣ ص ٤٥٠ .

(٢) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٢٨٤ وما بعدها ، وأزهار الرياض ج ٢ ص ١٨٩ وما بعدها وفيه يورد بعض شعره .

(٣) أزهار الرياض ج ٢ ص ١٩٥ ، ورحلة ابن بطوطة (مصر) ج ٢ ص ٢٠٧

(٤) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ١٠٧ .

سنة ٧٢٤ هـ . وتوفى سنة ٧٧٠هـ (١٣٦٩م) . وكان أديباً كبيراً وشاعراً مبرزاً . وقد خصه ابن الخطيب فى الإحاطة بترجمة قوية[1] ، ووصفه بأنه « صدر يشار إليه متفنن ، مشارك ، قوى الإدراك ، سديد النظر ، قوى الذهن ، جيد القريحة » . ووصفه فى كتابه « التاج المحلى » بقوله : « ناظم درر الألفاظ ، ومقلد جواهر الكلام ، نحور الرواة ولبات الحفاظ » .

وكتب ابن خاتمة عن مسقط رأسه ألمرية ، كتاباً أسماه « مزية ألمرية على غيرها من البلاد الأندلسية » ، وكتب عن الوباء الكبير الذى عصف بالأندلس سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٨ م) رسالة عنوانها : « تحصيل غرض القاصد فى تفصيل المرض الوافد » يصف فيها عصف الوباء ومسيره بمدينة ألمرية[2] . وله ديوان شعر محفوظ بمكتبة الإسكوريال . ومن شعره قوله من قصيدة طويلة :

من لم يشاهد موقفاً لفراق ... لم يدر كيف توله العشـــاق
إن كنت لم تره فسائل من رأى ... يخـــبرك عن ولهى وعن أشـواقى
من حر أنفـاس وخفق جوانح ... وصلوع أكباد وفيض مآق
دهى الفؤاد فلا اللسان بناطق ... عند الوداع ولا بلفظ فـراق

وقوله من قصيدة أخرى :

لولا حيائى من عيون النرجس ... للثمت خد الورد بين السندس
ورشفت من ثغر الأقاحة ريقها ... وضممت أعطاف الغصون الميس
شتان بين مظاهر ومخـــاتل ... وعف الحجا ومطهر ومدنس
ومجمجم بالعـــذل باكرنى به ... والطير أفصح مسعد بتأنس[3]

وقوله :

هو الدهر لا يبقى على عائذ به ... فمن شاء عيشاً يصطبر لنوائبه
فمن لم يصب فى نفسه فمصابه ... بفوت أمانيـه وفقد حبائبـــه

وكتب ابن خاتمة إلى صديقه ابن الخطيب ، حينما أزمع الرحلة عن الأندلس ، رسالة مؤثرة يخاطبه فيها بقوله : « إنكم بهذه الجزيرة شمس أفقها ، وتاج مفرقها ،

---

(١) تراجع هذه الترجمة فى الإحاطة ج ١ ص ٢٤٧ — ٢٦٧ .

(٢) توجد من هذه الرسالة نسخة مخطوطة ضمن مجموعة تحفظ بمكتبة الإسكوريال (رقم ١٧٨٥ الغزيرى) .

(٣) تراجع هاتان القصيدتان فى الإحاطة ج ١ ص ٢٥٢ — ٢٥٤ و٢٥٥ — ٢٥٧ .

وواسطة سلكها ، وطراز ملكها ، وقلادة نحرها ، وفريدة دهرها ، وعقد جيدها المنصوص ، وتمام زينتها على المعلوم والمخصوص ؛ ثم أنتم مدار أفلاكها ، وسر سياسة أملاكها ، وترجمان بيانها ، ولسان إحسانها ، وطبيب مارستانها ، والذى عليه عقد إدارتها ، وبه قوام إمارتها » . وقد رد عليه ابن الخطيب برسالة مؤثرة كذلك تفيض بلاغة وبياناً(١) .

— ٢ —

نعرض بعد ذلك ، إلى ألمع فترة فى الحركة الفكرية ، فى ظل مملكة غرناطة ، وهى الحركة التى كان قطبها ومحورها ، أعظم مفكرى الأندلس ، وأعظم شعرائها وكتابها ، فى القرن الثامن الهجرى ، ونعنى لسان الدين بن الخطيب .

وقد أشرنا فيما تقدم إلى نشأة ابن الخطيب ،واستعرضنا طرفاً من حياته السياسية ، ونريد هنا أن نبسط القول فى حياته الفكرية والأدبية .

وهو لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن الخطيب ؛ ولد فى لوشة من أعمال غرناطة ، فى بيت من أكرم بيوت الأندلس فى شهر رجب سنة ٧١٣ هـ (١٣١٣ م) ، ثم انتقل بيتهم من لوشة إلى غرناطة . وخدم أبوه عبد الله فى القصر الخاص فى عهد السلطان يوسف أبى الحجاج . وتلقى ابن الخطيب دراسة حسنة . ودرس الطب والفلسفة والشريعة والأدب ، وبرز فى النثر والنظم منذ حداثته ، ولما توفى أبوه فى سنة ٧٤١ هـ قتيلا فى موقعة طريف حل مكانه فى خدمة القصر ، وهو فتى فى عنفوانه ، وتولى أمانة السر للوزير أبى الحسن بن الجياب ، وزير السلطان يوسف. ولما توفى ابن الجياب فى الوباء الكبير سنة ٧٤٩هـ ، خلفه فى الوزارة والكتابة ، إلى جانب كبير الوزراء الحاجب أبى النعيم رضوان ، وندبه السلطان لبعض السفارات والمهام السياسية . ولما توفى السلطان أبوالحجاج يوسف (٧٥٥ هـ) ، وخلفه ولده محمد الغنى بالله ، استمر الحاجب رضوان فى الاضطلاع برياسة الوزارة ، واستمر ابن الخطيب إلى جانبه فى منصبه ، وندب للوصاية على الأمراء القصر ، وأرسله السلطان لأول ولايته (أواخر سنة ٧٥٥ هـ) سفيراً إلى السلطان أبى عنان المرينى سلطان المغرب ، على رأس وفد من وزراء

---

(١) راجع الإحاطة حيث يورد رسالة ابن خاتمة ورد ابن الخطيب عليها ج ١ ص٢٦١—٢٦٧ وكذلك أزهار الرياض ج ١ ص ٢٦٥ — ٢٧٠ . وراجع عن ابن خاتمة نفح الطيب ج ٣ ص ١٨٤ و٤١١ ما بعدها ؛ وكذلك بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٥٩ .

الأندلس ، يستنصره ويستغيث به على مقاومة طاغية قشتالة ، وأنشد ابن الخطيب بين يدى السلطان قصيدة يقول فيها :

خليفة الله ساعد القدر ... علاك ما لاح فى الدجى قمر
ودافعت عنك كف قدرته ... ما ليس يستطيع دفعه البشر
وجهك فى النائبات بدر دجى ... لنا وفى المحل كفك المطر
والناس طرا بأرض أندلس ... لولاك ما أوطنوا ولا عمروا
وجملة الأمر أنه وطن ... فى غير علياك ما له وطر

فاهتز السلطان لقصيدته ، ووعدهم بإجابة ملتمسهم وتحقيق رغباتهم(١) .

ثم وقعت الثورة فى غرناطة فى شهر رمضان سنة ٧٦٠ هـ (١٣٥٩ م) ، وقتل الحاجب رضوان ، وأقصى الغنى بالله عن الملك ، وفر إلى وادى آش ، وخلفه على العرش أخوه اسماعيل ، وولى ابن الخطيب الوزارة للملك الجديد حيناً ، ولكن سرعان ما غضب عليه ، وأمر باعتقاله ومصادرة أمواله . ويصف لنا ابن الخطيب فى ترجمته لنفسه ، فى نهاية كتاب الإحاطة ، هذه المراحل الأولى من حياته فى قوله : « فقلدنى السلطان سره (يريد أبا الحجاج) ولما يستكمل الشباب ، واستعملنى فى السفارة إلى الملوك ، واستنابنى بدار ملكه ، ورمى إلى بخاتمه وسيفه ، وائتمننى على صون حضرته وبيت ماله ، وسجوف حرمه . ومعقل امتناعه . ولما هلك السلطان ، ضاعف ولده حظوتى ، وأعلى مجلسى ، وقصر المشورة على نصحى ، إلى أن كانت الكائنة ، فاقتدى فى أخوه المتغلب على الأمر ، فسجل الاختصاص وعقد القلادة ، ثم حمله أهل الشحناء من أعوان ثورته ، على القبض على ، فكان ذلك » .

وتدخل السلطان أبو سالم ملك المغرب ، فى شأن السلطان المخلوع الغنى بالله ، وكانت تربطه به مودة وصداقة ، مذ كان أيام محنته يلوذ بحمايته بغرناطة ، وأرسل إلى ملك غرناطة الجديد سفيراً يطلب إجازة الغنى بالله ووزيره المعتقل إلى المغرب ، فأجابه السلطان اسماعيل إلى مطلبه ، وجاز الغنى بالله وابن الخطيب إلى المغرب ووصلا إلى فاس فى أوائل شهر المحرم سنة ٧٦١ هـ ، واستقبلهما السلطان أبو سالم بترحاب ، واحتفل بقدومهما فى يوم مشهود ، وأنشده ابن الخطيب يومئذ قصيدته المشهورة ، التى يدعوه فيها لنصرة سلطانه وهذا مطلعها :

---

(١) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٥٢ ؛ وابن خلدون ج ٧ ص ٣٢٣ .

سلا هل لديها من مخبرة ذكر ... وهل أعشب الوادى ونم به الزهر
وهل باكر الوسمىّ داراً على اللوى ... عفت آيها إلا التوهم والذكر
بلادى التى عاطيت مشمولة الهوى ... بأكنافها والعيش فينان مخضر
وجوّى الذى ربى جناحي وكره ... فها أنا ذا ما لى جناح ولا وكر

ومنهـا :

قصدناك يا خير الملوك على النوى ... لتنصفنا مما جنى عبدك الدهر
كففنا بك الأيام عن غلوائها ... وقد رابنا منها التعسف والكبر
وعُذنا بذاك المجد فانصرم الردى ... ولذنا بذاك العزم فانهزم الشر
ولما أتينا البحر يرهب موجه ... ذكرنا نداك الغمر فاحتقر البحر

ومنهـا :

وأنت الذى تدعى إذا دهم الردى ... وأنت الذى ترجى إذا أخلف القطر
ومثلك من يرعى الدخيل ومن دعا ... بيالمرين جاءه العـز والنصر
وخـذ يا إمام الحق بالحق ثأره ... فنى ضمن ما تأتى به العز والأجر (١)

وكان لإنشاد ابن الخطيب فى السامعين أعظم وقع . ويقول لنا ابن خلدون، وقد كان من شهود ذلك الحفل ، إن ابن الخطيب أبكى سامعيه تأثراً وأسى . وكان هذا أول لقاء بين هذين المفكرين العظيمين ، اللذين تجمع بينهما مشابهات عدة . فقد كان كلاهما أستاذ عصره فى التفكير والكتابة، وقد خاض كلاهما نفس الحياة السياسية المضطربة ، وأخذ بقسط بارز فى حوادث عصره ، وفى توجيه شئونه ؛ وكان ابن خلدون يشغل فى دول المغرب، نفس المركز الذى يشغله ابن الخطيب بالأندلس ، وقد استأثر فى المغرب بزعامة التفكير والكتابة ، التى يستأثر بها ابن الخطيب فى الأندلس . وتوثقت بين المفكرين العظيمين مدى حين ، أواصر المودة والصداقة ، ثم فرقت بينهما عوامل الغيرة والتنافس ، حينما عبر ابن خلدون بعد ذلك إلى الأندلس ، واتصل بسلطانها الغنى بالله . وكان كل منهما يقدر صاحبه ويجل مواهبه ، وقد ترجم كلاهما صاحبه بما ينم عن هذا التقدير والإجلال، فيقول لنا ابن خلدون مثلا فى ترجمته لابن الخطيب إنه « بلغ فى الشعر والترسل حيث لا يجارى فيهما ، وملأ الدولة بمدايحه ، وانتشرت فى الآفاق قدماه » . ثم ينوه بعد ذلك

(١) تراجع هذه القصيدة بأكلها فى نفح الطيب ج ٣ ص ٤٥ — ٤٧ ، وأزهار الرياض ج ١ ص ١٩٦ — ٢٠٠ .

بروعة رسائله السلطانية ، وبراعته فى الإدارة والحكم[1] .

ويصف لنا الأمير أبو الوليد اسماعيل بن الأحمر ، معاصر ابن الخطيب ، خلاله ومواهبه « فى كتابه نثير الجمان » فى تلك العبارات الرنانة :

« هو شاعر الدنيا ، وعلم الفرد والثنيا ، وكاتب الأرض إلى يوم العرض ، لا يدافع مدحه فى الكتب ، ولا يمنح فيه إلى العتب ، آخر من تقدم فى الماضى ، وهو نفيس العدوتين ، ورئيس الدولتين ، بالاطلاع على العلوم العقلية ، والإمتاع بالفهوم النقلية » . ثم يشير بعد ذلك إلى قسوته فى الهجاء ، وإلى كونه قد هجا ابن عمه سلطان الأندلس بما لا يليق ويجمل[2] .

وتجول ابن الخطيب حيناً بالمغرب ، واستقر بسلا ، وتوالت مدائحه للسلطان أبى سالم ، ومنها قصيدة طويلة يهنئ فيها السلطان بفتح تلمسان (٧٦١هـ) هذا مطلعها :

أطاع لسانى فى مديحك إحسانى ‏ ‏ ‏ ‏ وقد لهجت نفسى بفتح تلمسان

فأطلعتها تفتر عن شنب المنى ‏ ‏ ‏ ‏ وتسفر عن وجه من السعد حيانى

كما ابتسم النوار عن أدمع الحيا ‏ ‏ ‏ ‏ وجف بخد الورد عارض نيسان

كما صفقت ريح الشمال شمولها ‏ ‏ ‏ ‏ فبان ارتياح السكر فى غصن البان[3]

وبعث إلى السلطان فى الوقت نفسه من سلا ، برسالة بليغة يهنئه فيها بذلك الفتح الكبير[4] .

أنفق ابن الخطيب ومليكه فى المنفى زهاء عامين ونصف ، حتى مهدت حوادث الأندلس لسقوط المغتصب ، واستطاع الغنى بالله بمعاونة الوزير عمر المتغلب على المغرب ، أن يسترد ملكه ، وذلك فى جمادى الآخرة سنة ٧٦٣ هـ (١٣٦١ م) ، ورد السلطان وزيره ابن الخطيب إلى سابق مكانته فى الوزارة؛ ولكنه لم ينعم تلك المرة بسابق حظوته ونفوذه ، إذ كان ينافسه فى السلطة شيخ الغزاة عثمان بن يحيى ، الذى قربه السلطان وأولاده عطفه ، لما قام به

---

(١) كتاب العبر ج ٧ ص ٣٣٢ وما بعدها .

(٢) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٣٣٤ ، حيث ينقل تلك الفقرات . وتوجد من كتاب « نثير الجمان » نسخة خطية وحيدة بدار الكتب المصرية تحفظ برقم ١٨٦٣ آداب .

(٣) وردت هذه القصيدة بأكلها فى نفح الطيب ج ٣ ص ١٦ — ١٩ ؛ وفى بعض أجزائها ينحو ابن الخطيب نحو أبى البقاء فى مرثيته الأندلسية .

(٤) وردت هذه الرسالة فى نفح الطيب ج ٣ ص ١٩ و ٢٠ .

من معاونته فى استرداد ملكه . ونشبت بين الرجلين منافسة شديدة ، وما زال ابن الخطيب يحرض السلطان ويحذره من نفوذ عثمان وآله ، ويذكره بسابق غدرهم ، حتى استجاب السلطان إلى تحريضه ونكبهم (رمضان سنة ٧٦٤ هـ) ، وبذا خلا له الجو ، وتبوأ ذروة النفوذ والسلطان .

ويصف لنا ابن الخطيب ، جهوده وعمله فى الوزارة يومئذ فى قوله : « ثم صرفت الفكر إلى بناء الزاوية والمدرسة والتربة ، بكر الحسنات بهذه الخطة ، بل بالجزيرة فيما سلف من المدة ، فتأتى بمنة الله تعالى من صلاح السلطان ، وعفاف الحاشية ، والأمن ، وروم الثغور ، وتثمير الجباية ، وإنصاف الحماة والمقاتلة ، ومقارعة الملوك المجاورة ، فى إيثار المصلحة الدينية ، والصدع فوق المنابر ، ضماناً من السلطان ، بترياق سم الثورة ، وإصلاح بواطن الخاصة والعامة... »[1] .

غير أن معظم الروايات تدل من جهة أخرى ، على أن ابن الخطيب جنح عندئذ إلى الاستبداد وسوء المسلك والسيرة . وإليك كيف يصف صديقه ومعاصره ابن خلدون هذه المرحلة من حياته :

« وغلب على هوى السلطان ، ودفع إليه تدبير الدولة ، وخلط بنيه بندمائه وأهل حكومته ، وانفرد ابن الخطيب بالحل والعقد ، وانصرفت إليه الوجوه ، وعلقت به الآمال ، وغشى بابه الخاصة والكافة ، وغصت به بطانة السلطان وحاشيته ، فتفننوا فى السعاية فيه »[2] .

وأنفق ابن الخطيب بضعة أعوام أخرى فى الوزارة وهو يستأثر بكل سلطة ويتصرف تصرف الحاكم المطلق ، ويثير حوله ضراماً من البغضاء والحسد . وكان السلطان يعرض فى البداية عن الإصغاء لأعدائه والوشاة به ، ولكنه بدأ فى النهاية يتأثر بسعايتهم . وشعر ابن الخطيب أنه قد بدأ يتغير عليه ، وخشى العاقبة ، فعول على مغادرة الأندلس ، واستأذن السلطان فى تفقد الثغور الغربية ، وسار إليها فى نفر من خاصته ومعه ولده على ، وما كاد يصل إلى جبل الفتح (جبل طارق) ، حتى عبر البحر إلى سبتة (٧٧٢ هـ) ، وذلك بتفاهم سابق بينه وبين السلطان عبد العزيز المرينى ، ملك المغرب ، وكان يقيم يومئذ فى تلمسان عقب افتتاحه لها ، فقصد إليها ابن الخطيب ، واستقبله السلطان بحفاوة ، وأنزله أكرم منزل ، وبعث سفيراً إلى الأندلس ليسعى فى استقدام أسرة الوزير المنفى ، فأتى بها معززة مكرمة ،

---

(١) نفح الطيب ج ٣ ص ٤١ .   (٢) ابن خلدون فى كتاب العبر ج ٧ ص ٣٣٥ .

وتبوأ ابن الخطيب فى بلاط ملك المغرب أسمى مكانة . وغص خصوم ابن الخطيب بغرناطة ، بنجاته على هذا النحو ، فعولوا على ملاحقته ومحق هيبته ، فاتهموه بالزندقة والخروج على شريعة الإسلام ، والطعن فى النبى ، والقول بالحلول ، وسلوك مذهب الفلاسفة الملحدين ، واستندوا فى ذلك إلى بعض أقوال وردت فى رسائله ومقالاته أولوها وفق مقاصدهم . وكان تلميذه وخلفه فى الوزارة أبو عبد الله بن زمرك ، أكبر مروج لهذه الدعاية ، وتولى صوغ الإتهام القاضى أبو الحسن على بن عبد الله النباهى عدو ابن الخطيب الألد ، وأفتى بوجوب حرق كتبه التى تتناول العقائد والأخلاق ، فأحرقت فى غرناطة بمحضر من الفقهاء والمدرسين والعلماء « لما تضمنته من المقالات التى أوجبت ذلك عندهم وحققته لديهم » (سنة ٧٧٣ هـ)(١) . ووجه أبو الحسن إلى ابن الخطيب بالمغرب رسالة شديدة ، ينوه فيها بما ارتكبه من الطعن فى حق النبى ، ويقول : « فإنه نقل عنكم فى هذا الباب أشياء منكرة ، يكبر فى النفوس التكلم بها ، أنتم تعلمونها وهى التى زرعت فى القلوب ما زرعت من بغضكم وإيثار بعدكم ، مع استشعار الشفقة والوجل ، من وجه آخر عليكم ، ولولا أنكم سافرتم قبل تقلص السلطة عنكم ، لكانت الأمة المسلمة امتعاضاً لدينها ودنياها ، قد برزت بهذه الجهات لطلب الحق منكم » . ثم يعدد مثالبه فى الحكم قائلا : « فليس يعلم أنه صدر عن مثلكم من خدام الدول ، ما صدر من العبث ، فى الإبشار والأموال ، وهتك الأعراض وإفشاء الأسرار ، وكشف الأستار ، واستعمال المكر والحيل والغدر ، فى غالب الأحوال ، للشريف والمشروف والخادم والمخدوم »(٢) . وسجل القاضى أبو الحسن تهمة الزندقة على ابن الخطيب ، وصادق السلطان على حكمه ، وأرسل القاضى رسله إلى السلطان عبد العزيز ، يطالب بتنفيذ حكم الشرع فى الوزير الملحد وهو الإعدام ، فأنف السلطان لطلبه وعنف رسل الأندلس ، وقال لهم : « هلا أنفذتم فيه حكم الشرع وهو عندكم ، وأنتم عالمون بما كان عليه » وردهم خائبين ، وزاد فى إكرام ابن الخطيب ورعايته(٣) .

---

(١) كتاب المرقبة العليا ، أو تاريخ قضاة الأندلس لأبى الحسن النباهى المنشور بعناية الأستاذ ليفى بروفنسال ص ٢٠٢ .

(٢) نفح الطيب ج ٣ ص ٦٩ .

(٣) راجع ابن خلدون فى كتاب العبر ج ٧ ص ٢٣٥ و ٢٣٦ ؛ ونفح الطيب ج ٣ ص ٦٧ و ٦٨ .

ولما توفى السلطان عبد العزيز بعد ذلك بقليل (٧٧٤ هـ) ، وخلفه ولده السعيد طفلا على العرش ، غادر بلاطُ المغرب تلمسان ، وسار ابن الخطيب برفقة الوزير أبى بكر بن غازى القائم بالدولة ، ونزل بفاس ، واقتنى الضياع والدورر ، واستمر على مكانته فى الدولة . ولكن حوادث المغرب ما لبثت أن تمخضت عن انقلاب جديد . ذلك أن الثورة نشبت فى شمال المغرب ، على يد بعض الزعماء من بنى مرين . وعضدت حكومة الأندلس هذه الحركة وأمدتها بالعون ، ونادى الثوار بولاية الأمير أحمد بن السلطان أبى سالم . وحاول الوزير ابن غازى مقاومة الثوار فلم يفلح ، واقتحم الخوارج فاس فأذعن الوزير ، وخلع الملك الطفل السعيد ، وجلس السلطان أحمد على العرش وذلك فى أوائل سنة ٧٧٦ هـ (١٣٧٤م) .

وكان ابن الخطيب قد لجأ فى أثناء ذلك إلى البلد الجديد (ضاحية فاس) ، وكان التفاهم قد تم بين السلطان ابن الأحمر (الغنى بالله) وزعماء الفتنة ، بشأن ابن الخطيب ومصيره ؛ فلما وقع الانقلاب بادر السلطان الجديد بالقبض على ابن الخطيب واعتقاله ، تنفيذاً للعهد الذى قطعه لابن الأحمر ، ولم يدخر وزيره سليمان بن داود ، وقد كان من ألد خصوم ابن الخطيب ، جهداً فى تشديد النكير عليه وتدبير مصرعه . وكان ابن الأحمر يتوق إلى الانتقام من وزيره السابق ، لما نمى إليه من أنه كان يحرض السلطان عبد العزيز على غزو الأندلس . وبعث ابن الأحمر وزيره أبا عبد الله بن زمرك إلى فاس ليعمل على تحقيق هذه الغاية ، وعقد السلطان أحمد مجلساً من رجال الدولة وأهل الشورى ، استدعى إليه ابن الخطيب لمناقشته ، ومواجهته بالتهم المنسوبة إليه ، وأخصها تهمة الزندقة ، استناداً إلى ما ورد فى بعض رسائله ، وعزر ابن الخطيب وعذب أمام الملأ ، وأفتى بعض الفقهاء المتعصبين بوجوب قتله ، ودس عليه الوزير سليمان بعض الأوغاد فقتلوه خنقاً فى سجنه ، وأخذت جثته فى الغد وأضرمت فيها النار ، ثم دفنت خارج فاس على مقربة من باب المحروق ؛ وما زال قبره المتواضع قائماً هنالك فى مكانه حتى يومنا[1] .

وهكذا ذهب الكاتب والمفكر الكبير ، ضحية الجهالة والتعصب والأحقاد

---

(١) كتبت ترجمة مستفيضة لحياة ابن الخطيب ، والحوادث السياسية التى تقلب فيها ، صدرت بها كتاب « الإحاطة فى أخبار غرناطة » ، الذى عنيت بتحقيقه ، وصدر منه الجزء الأول بالقاهرة فى سنة ١٩٥٦ (ص ٣٠ — ٨٢) .

السياسية الوضيعة ؛ وقد نقل إلينا صديقه ابن خلدون عنه أبياتاً من الشعر ، كان يرددها وهو فى سجنه ، ويرثى بها نفسه توقعاً لمصيره المحزن :

بعدنا وإن جاورتنا البيوت وجئنا بوعظ ونحن صُموت
وأنفاسنا سكنت دفعة كجهر الصلاة تلاه القنوت
وكنا عظاماً فصرنا عظاما وكنا نقوت فها نحن قوت
وكنا شموس سماء العلا غربن فناحت عليها البيوت
فقل للعدا ذهب ابن الخطيب وفات ومن ذا الذى لا يفوت
فمن كان يفرح منكم له فقل يفرح اليوم من لا يموت(١)

* * *

ومن الصعب علينا أن نلم بمجهود ابن الخطيب الفكرى والأدبى فى هذا المقام الضيق . والحقيقة أن ابن الخطيب كان عبقرية متعددة الجوانب ، فكان طبيباً وفيلسوفاً وشاعراً وكاتباً ، وكان سياسياً ومؤرخاً ، وقد ترك لنا تراثاً ضخماً منوعاً ، من مؤلفات عديدة ، أدبية وتاريخية وطبية ، وطائفة كبيرة من غرر القصائد والموشحات ، ورسائل أدبية وسياسية لا تحصى ؛ ومن أشهر رسائله بنوع خاص رسائله السلطانية ، التى كان يكتبها عن حوادث عصره برسم ملوك المغرب ، وتلك التى كان يوجهها إلى أهل الأندلس من وقت إلى آخر ، يحثهم فيها على الجهاد ، والذود عن وطن يتربص به العدو ، ويعتزم القضاء عليه ، وهى رسائل تدلى بما كان لابن الخطيب من فكر ثاقب وبصيرة نافذة ، هذا فضلا عما تمتاز به من روعة البيان والأسلوب.

ونستطيع أن نذكر من مؤلفات ابن الخطيب الكتب الآتية :

الإحاطة فى أخبار غرناطة وهو أشهر آثاره التاريخية والأدبية . التاج المحلى فى مساجلة القدح المعلى . ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب ، وهو يضم طائفة من أشهر رسائله السلطانية . اللمحة البدرية فى الدولة النصرية . رقم الحلل فى نظم الدول ، وهو تاريخ شعرى لدول الإسلام والأندلس . نفاضة الجراب وعلالة الاغتراب ، وفيه يصف أحواله وأخباره أثناء إقامته منفياً بالمغرب . كناسة الدكان بعد انتقال السكان . معيار الاختيار فى ذكر المشاهد والديار . السحر والشعر ، وهو من مختاراته الشعرية . ويوجد من هذه الآثار كلها نسخ مخطوطة بمكتبة دير الإسكوريال

(١) كتاب العبر ج ٧ ص ٣٤١ ، و٣٥٢ ؛ وأزهار الرياض ج ١ ص ٢٣١ .

والكتيبة الكامنة فى أدباء المائة الثامنة . وأعمال الأعلام ، وكلاهما يوجد بمكتبة أكاديمية التاريخ الملكية بمدريد .

ومن مؤلفاته الطبية : عمل من طب لمن حب ، وهو كتاب فى وصف الأمراض والعلاج ألفه للسلطان أبى سالم المرينى (ومنه نسخة خطية بخزانة القرويين وأخرى بمكتبة مدريد الوطنية) . والرجز فى عمل الترياق . رسالة تكوين الجنين . الوصول لحفظ الصحة فى الفصول . مُقنعة السائل فى المرض الهائل ، وفيه يصف أعراض الوباء الكبير فى سنة ٧٤٩ هـ (ومنه نسخة بمكتبة الإسكوريال) .

ومن مؤلفاته السياسية : رسالة فى السياسة . كتاب الإشارة إلى أدب الوزارة ، (وهما أيضاً بالإسكوريال) وقد نقلهما المقرى فى نفح الطيب(١) .

وله ديوان شعر عنوانه : «الصيب والجهام ، والماضى والكهام» توجد منه نسخة مخطوطة بخزانة جامع القرويين بفاس .

ولابن الخطيب تراث حافل من الرسائل الأدبية والسياسية التى وردت فى مختلف مؤلفاته ، وقد نقل إلينا المقرى منها العدد الجم ، ونقل إلينا ابن خلدون بعض ماكان يتبادله معه من رسائل خاصة(٢) .

ويفرد المقرى فى كتابه نفح الطيب مجلدين كاملين (هما الثالث والرابع) لابن الخطيب وأخباره ، وشعره ونثره ، وشيوخه وتلاميذه ؛ وقد نقل إلينا فيهما ، من مختلف كتبه ورسائله ، فصولا وشذوراً لا تحصى ، كما نقل إلينا وصيته لأولاده ، وهى من أبدع ماكتب(٣) .

وكان ابن الخطيب من أئمة الموشحات الأندلسية ، ومن أشهر نظمه الموشحة الذائعة الصيت التى مطلعها :

جادك الغيث إذا الغيث همى ... يا زمان الوصـــل بالأندلس
لم يكن وصـــلك إلا حلمـــاً ... فى الكرى أو خُلسة المختلس

---

(١) يراجع الثبت الكامل لمؤلفات ابن الخطيب وأمكنة وجودها ، وما نشر منها وما لم ينشر ، فى مقدمة كتاب الإحاطة التى سبقت الإشارة إليه (ج ١ ص ٦٨ — ٧٨) .

(٢) راجع كتاب العبر ج ٧ ص ٤٢١ — ٤٣٠ ، وكذلك التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا (القاهرة ١٩٥١) . وقد أورد لنا المقرى فى أزهار الرياض ثبتاً لآثار ابن الخطيب (ج ١ ص ١٨٩ و١٩٠) .

(٣) راجع نفح الطيب ج ٤ ص ٤١٩ — ٤٢٦ .

إذ يقود الدهر أشتات المنى ينقل الخطو على ما يُرْسَمُ
زُمراً بين فرادى وثُنا مثل ما يدعو الوفودَ الموسمُ
والحيا قد جلّل الروض سنا فثغور الزهر منه تبسم (١)

— ٣ —

كان ابن الخطيب قطب الشعر والنثر فى عصره ، وكان محور الحركة الفكرية الأندلسية كلها ، فى أواسط القرن الثامن الهجرى ، تجتمع إليه وتلتف حوله ؛ وقد أتينا على ذكر بعض أكابر الشعراء من معاصريه ، المتقدمين عنه ، مثل ابن الجياب وابن سلبطور وابن خاتمة . وسنأتى هنا على ذكر أقطاب الشعر والأدب من معاصريه المتأخرين عنه . بيد أنه يجب أن نلاحظ أن عبقرية ابن الخطيب الأدبية ، قد طبعت هذه المرحلة كلها ، من تاريخ الحركة الفكرية الأندلسية ، بطابعها القوى ، وبعثت إليها كثيراً من أسباب القوة والروعة ، حتى ليسوغ لنا أن نقول إن مدرسة ابن الخطيب الأدبية ، امتدت منذ عصره إلى أواخر القرن الثامن ، وأوائل القرن التاسع الهجرى .

بل يلوح لنا أن الأثر القوى الذى بثته هذه المدرسة الأدبية الباهرة ، لم يقتصر على مملكة غرناطة ، بل تعدى حدود الأندلس المسلمة إلى قواعد الأندلس الذاهبة ، التى دخلت فى حوزة النصارى وتدجن أهلها ، فبدا بها شعاع ضئيل من النبوغ الأدبى القديم ، وظهر فيها بعض الشعراء الموهوبين ، بالرغم من مضى أكثر من قرن على خضوعها لحكم اسبانيا النصرانية . فمثلا نجد بين كتاب بلنسية وشعرائها يومئذ ، الفقيه أبا جعفر بن عبد الملك العذرى ، ومما كتبه لابن الخطيب فى بعض الشئون :

إنى بمجدك لم أزل مستيقناً أن لا يهدم بالتغير ما بنى
إذ أنت أعظم ماجد يعزى له صنع وأكرم من عفا عمن جنى

وكتب له أيضاً :

إن كان دهر قد أساء وجارا فذمام مجدك لا يضيع جارا
فلأنت أعظم ملجأ ينجى إذا ما الدهر أنجد موعداً وأغارا (٢)

---

(١) راجع هذه الموشحة بأكملها فى نفح الطيب ج ٤ ص ١٩٨ وما بعدها .

(٢) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٤٢٦ .

وكان الوزير ابن زَمرك ، تلميذ ابن الخطيب وخلفه فى الوزارة ، أعظم شخصية تزعمت من بعده الحركة الأدبية بالأندلس . وهو محمد بن يوسف بن محمد الصريحى الشهير بأبى عبد الله بن زمرك ، أصله من شرقى الأندلس ، ونزحت أسرته إلى غرناطة . واستقرت بربض البيازين حى غرناطة الشمالى . وبه ولد أبو عبدالله سنة ٧٣٣ هـ (١٣٣٣ م) ودرس دراسة حسنة فى غرناطة وفاس ، وخدم حيناً فى بلاط السلطان أبى سالم المرينى . ولما نفى السلطان الغنى بالله إلى المغرب، اتصل به ابن زمرك وانقطع إليه . ثم عاد حين استرد ملكه، فولاه كتابة السر وغمره بعطفه . وظهر ابن زمرك يومئذ ببارع أدبه ، وروعة نظمه ونثره ؛ وينوه ابن الخطيب فى الإحاطة بذكائه وخلاله، وتفوقه فى الدرس والأدب، ويصفه بالعبارات الآتية : « شعلة من شعل الذكاء ، تكاد تحتدم جوانبه ، كثير الرقة ، فكه ، غزل ، مع حياء وحشمة ... ثاقب الذهن ، أصيل الحفظ ، ظاهر النبل ، بعيد مدى الإدراك » ثم يصف شعره بأنه « مترام إلى هدف الإجادة ، كلف بالمعانى البديعة ، والألفاظ الصقيلة ، غزير المادة » .

وعمل ابن زَمرك فى كتابة السر فى كنف ابن الخطيب وتحت رعايته . ولكنه كان ضالعاً مع خصومه ، فلما انقضت العاصفة على ابن الخطيب وأصابته المحنة، كان ابن زمرك فى طليعة أعدائه الساعين إلى هلاكه . وقد خلفه فى الوزارة عقب فراره ، وهو الذى تولى مهمة السعى لدى بلاط فاس فى محاكمته وإعدامه حسبما أسلفنا .

واستمر ابن زمرك على حظوته ونفوذه أعواماً طويلة ، ولكنه كان لطغيانه وغطرسته وحدة لسانه ، يثير حوله كثيراً من البغض والخصومة . وفى أواخر عهد الغنى بالله فقد حظوته ونفوذه ، واعتقل ونفى خارج غرناطة ؛ ولكنه عاد بعد وفاته إلى الحضرة . وفى بداية عهد السلطان محمد بن يوسف الثانى ، أعيد إلى الوزارة ، فأساء السيرة ، واشتد عيثه وطغيانه ، وكثر خصومه . وفى ذات ليلة من أواخر سنة ٧٩٧ هـ (١٣٩٥م) دهمه فى منزله جماعة من المتآمرين ، فقتلوه وولديه وخدمه شر قتلة . وينوه المقرى بما فى ذلك من عبر الدهر ، إذ كان ابن زمرك هو الساعى إلى مقتل أستاذه ابن الخطيب ، فكان أن دارت عليه الدائرة ، وقتل مثله ولكن بصورة أقسى وأشنع(١) .

(١) نفح الطيب ج ٤ ص ٢٨٦ — ٢٩٠ ، وينقل إلينا المقرى ترجمة ابن زمرك عن كتاب معاصره الأمير اسماعيل بن الأحمر ، وينقل إلينا فى أزهار الرياض كثيراً من موشحاته (ج٢ص١٧٧

ولابن زَمرك شعر كثير جيد نقل إلينا المقرى منه قصائد وموشحات عديدة ، فمن شعره قوله يمتدح سلطان الأندلس الغنى بالله فى سنة ٧٦٥ هـ :

لعل الصبا إن صافحت روض نعمان ... تؤدى أمان القلب عن ظبية البان
وماذا على الأرواح وهى طليقة ... لو احتملت أنفاسها حاجة العانى
وما حال من يستودع الريح سره ... وبطاهما وهى النوم بكتمان
وكالطيف أستقريه فى سنة الكرى ... وهل تنقع الأحلام غلة ظمآن
إمام أعاد الملك بعد ذهابه ... إعادة لا تأبى الحسام ولا وانى
فغادر أطلال الضلال دوارسا ... وجدد للإسلام أرفع بنيان
وشيدها والمجد يشهد دولة ... محافلها تزاهى بيمن وإيمان

ومن قوله من قصيدة طويلة يصف فيها دار الملك (الحمراء) :

فكم فيه للأبصار من متنزه ... تجد به نفس الحليم الأمانيا
وتهوى النجوم الزهر لو ثبتت به ... ولم تك فى أفق السماء جواريا
به البهو قد حاز البهاء وقد غدا ... به القصر آفاق السماء مباهيا
وكم حلة قد جللت بحليها ... من الوشى تنسى السابرى اليمانيا
وكم من قسى فى ذرة ترفعت ... على عمد بالنور باتت حواليا
فتحسبها الأفلاك دارت قسيها ... تظل عمود الصبح إذ بات باديا
سوارى قد جاءت بكل غريبة ... فطارت بها الأمثال تجرى سواريا
بل المرمر المجلو قد شف نوره ... فيجلو من الظلماء ما كان داجيا
به البحر دفاع العباب تخاله ... إذا ما انبرى وفد النسيم مباريا
إذا ما جلت أيد الصبا متن صفحة ... أرتنا دروعاً آكسبتنا الأباديا

ومن قوله يشيد بأعمال الأميرين سعد ونصر ، ولدى السلطان ، فى ميدان الجهاد :

يا آل نصر أنتم سُرج الهدى ... فى كل خطب قد تجهم مظلم
الفاتحون لكل صعب مقفل ... والفارجون لكل خطب مبهم
والباسمون إذا الكماة عوابس ... والمقدمون على السواد الأعظم
أبناء أنصار النبى وحزبه ... وذوى السوابق والجوار الأعظم

ومن قوله فى الغزل :

= وما بعدها) . وقد أورد المستشرق بروكلمان (ج٢ص٢٢٩) تاريخ مقتله فى سنة ٧٩٥ هـ (١٣٩٣م) ولكن رواية ابن الأحمر هى الأرجح .

قيـادى قد تملكه الغـــرام ووجـدى لا يطاق ولا يرام
ودمعى دونه صوب الغوادى وشجوى فوق ما يشكو الحمام
إذا ما الوجد لم يبرح فؤادى على الدنيا وساكنها السلام

ولابن زمرك موشحات كثيرة رائعة ، ومنها موشحته الشهيرة فى الإشادة بغرناطة ومحاسنها إذ يقول :

نسيم غرناطة عليـل لكنه يبرئ العليل
وروضها زهره بليـل ورشـفه ينقع الغليل
سقى بنجد ربا المصلى مباكراً روضه الغمام سقى بنجد ربا المصـلى
تبسم الزهر فى الكمام والروض بالحسن قد تجلى وجرد النهر عن حسام
ودوحها ظله ظليـل يحسن فى ربعه المقيل
والبرق والجو مستطيل يلعب بالصارم الصقيل
عقيلة تاجهـا السبيكة تطل بالمركب المنيف كأنهـا فوقه مليكة
كرسيها جنة العريف تطلع من عسجد سبيكة شموسها كلما تطيف
أبدعك الخالق الجميل يا منظراً كله جميـل
قلبى إلى حسنه يميل وقلبنا قد صبا جميل(١)

ونكتفى بما تقدم فى الاقتباس من شعر الوزير ابن زمرك . ويلوح لنا أنه قد يتفوق فى شاعريته على أستاذه ابن الخطيب ، وأن إنتاجه الشعرى ولاسيما فى الموشحات قد يتفوق على إنتاج أستاذه ، على أنه لا ريب أنه يقصر عن مجاراة ابن الخطيب ، فى كثير من نواحى التفكير والإنتاج الأخرى .

* * *

وظهر من أعلام تلك المدرسة الزاهرة ، إلى جانب ابن الخطيب وابن زمرك ، عدة آخرون من الشعراء والكتاب ، منهم أبو سعيد فرج بن لب ؛ ولد سنة ٧٠١ هـ وتوفى سنة ٧٨٢ هـ (١٣٨٠ م) ، وكان من أشهر أساتذة المدرسة النصرية (جامعة غرناطة) ، وقد ولى خطابة الجامع الأعظم حيناً ، وكان فوق تضلعه فى الفقه شاعراً مجيداً ، وقد ترك لنا مجموعة من الفتاوى المشهورة ، وطائفة من الشعر الجيد ، ومن نظمه قوله :

---

(١) راجع ترجمة ابن زمرك وهى التى نقلها المقرى عن ابن الأحمر ، فى نفح الطيب ج ٤ ص ٨٧ وما بعدها ؛ وقد نقل إلينا المقرى كثيراً من قصائده وشعره (ج ٤ ص ٢٩٦ – ٣٥٤) .

خلوا للهوى من قلبي اليوم ما أبقى ... فما زال قلبي كله للهوى رقا
دعوا القلب فى لظى الوجد ناره ... فنار الهوى الكبرى وقلبي هو الأشقى
سلوا اليوم أهل الوجد ماذا به لقوا ... فكل الذى يلقون بعض الذى ألقى
فإن كان عبد يسأل العتق سيداً ... فلا تبغى من مالكى فى الهوى عتقا(١)

ومنهم القاضي أبو محمد بن عطية بن يحيي المحاربى كاتب الإنشاء ، وكان بارعاً فى النظم والنثر وخطيباً مفوهاً ؛ أصله من وادى آش وبها ولد سنة ٧٠٩ هـ ، وتولى القضاء بها . ووفد على غرناطة سنة ٧٥٦هـ ودرس على ابن الخطيب وغيره من أكابر الشيوخ ، وتولى الكتابة السلطانية حيناً . ومن شعره قوله :

ألا أيها الليل البطىء الكواكب ... متى ينجلى صبح بليل المآرب
وحتى متى أرعى النجوم مراقباً ... فمن طالع منها على إثر غارب
أحدث نفسى أن أرى الركب سائراً ... وذنبي يقصيني بأقصى المغارب
فلا فزت من نيل الأمانى بطائل ... ولا قمت فى حق الحبيب بواجب(٢)

ومنهم الأمير الأديب أبو الوليد اسماعيل بن يوسف بن محمد بن الأمير الرئيس أبى سعيد فرج أمير مالقة المعروف بالأمير ابن الأحمر ، وقد سبقت الإشارة إليه . وكان أديباً ضليعاً ، وقد تناول فى كتابه « نثير فرائد الجمان فى نظم فحول الزمان »(٣) ، أكابر الكتاب والشعراء فى القرن الثامن الهجرى ، وأفاض بنوع خاص فى ذكر ابن الخطيب وتلميذه ابن زمرك ، ونقل عنه المقرى فى كتابيه نفح الطيب وأزهار الرياض ، معظم ماكتب عن أدباء عصره ، ونقل عنه بالأخص كثيراً مما كتبه عن ابن زمرك حسبما بينا فى موضعه ، وللأمير ابن الأحمر كتاب آخر عنوانه « نثير الجمان فى شعر من نظمنى واياه الزمان » يحتوى على اثنى عشر بابا ، يتحدث فيها عن شعر ملوك بنى الأحمر ، وشعر ملوك بنى حفص ، وبنى مرين ، وبنى عبد الواد ، وعن شعر وزراء الأندلس وقضاتها وكتابها ، وكتاب وقضاة المغرب فى عصره(٤) . ولمع الأمير ابن الأحمر

---

(١) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٢٦٧ و ٢٦٨ .
(٢) نفح الطيب ج ٤ ص ٣٦٢ — ٣٦٥ .
(٣) وتوجد منه نسخة بدار الكتب المصرية تحفظ برقم ٧٩١٣ أدب .
(٤) وتوجد منه نسخة وحيدة مخطوطة بدار الكتب المصرية ناقصة الأول وتحفظ برقم ١٨٦٣ آداب اللغة العربية .

فى أواخر القرن الثامن ، وتوفى سنة ٨٠٧ هـ (١٤٠٤ م)[١] .

ومنهم أبو عبد الله الشريشى تلميذ ابن الخطيب ومساعده (أمينه) ،وكان مؤدباً لأبناء السلطان ، وهو الذى تولى نقل كتاب الإحاطة لابن الخطيب من مسوداته ، بتكليف منه لاشتغاله بشئون الوزارة ، فجاء فى ستة مجلدات ، وكان الشريشى فى الوقت نفسه من علماء القرآن والسنة[٢] .

ونستطيع أن نذكر إلى جانب هذه الجمهرة الممتازة من الشعراء والأدباء ، عدة من الفقهاء والمؤرخين ، منهم ابن فرحون برهان الدين ابراهيم بن على اليعمرى الأندلسى المتوفى سنة ٧٩٩ هـ (١٣٩٧ م) ، وكان فقيهاً ومؤرخاً ، ومن أشهر مؤلفاته كتاب « الديباج المذهب فى معرفة علماء أعيان المذهب » ، وهو تراجم طبقات المالكية . وقد طبع مراراً بالمغرب ومصر ، وكتاب « طبقات علماء العرب » ومنه نسخة بالإسكوريال[٣] .

ومنهم أبو الحسن على بن عبد الله بن محمد الجذامى المالقى النباهى ، ولد بمالقة سنة ٧١٣ هـ ودرس على أشياخها . ثم وفد على غرناطة ، وتولى القضاء ، ثم عين كاتباً بالديوان . وانتهى إلى ولاية قضاء الجماعة بغرناطة .ونشبت بينه وبين ابن الخطيب خصومة شديدة ، وتبادلا الطعن والهجاء اللاذع فى عدة رسائل ومقالات ، ولما نكب ابن الخطيب وغادر الأندلس ، كان النباهى فى مقدمة متهميه بالكفر والزندقة والساعين إلى هلاكه حسبما قدمنا . وتوفى فى أواخر القرن الثامن . ومن آثاره الباقية كتاب يسمى « بالإكليل فى تفضيل التخيل » وهو كتاب أدبى وضعه مؤلفه على لسان نخلة وكرمة . ويعرف أحياناً « بنزهة البصائر » وهو العنوان الذى تحمله نسخته الخطية الموجودة بمكتبة الإسكوريال . وقد وردت به نبذة حسنة عن تاريخ الدولة النصرية حتى عصر المؤلف[٤] . وكتاب « المرقبة العليا فيمن يستحق

---

(١) وللأمير ابن الأحمر أيضاً كتاب فى تاريخ بنى مرين عنوانه « النفحة النسرينية واللمحة المرينية » وهو كتاب صغير الحجم ومنه نسخة مخطوطة بالإسكوريال (رقم ١٧٦٩ الغزيرى) .

(٢) نفح الطيب ج ٤ ص ٧٥٧ .

(٣) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٢٩٨ و٢٩٩ ؛ وبروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٣ .

(٤) تحفظ هذه النسخة بمكتبة الإسكوريال برقم ١٦٥٣ الغزيرى . وهى قديمة وتحمل تاريخاً لقرمانها هو سنة ٧٨١ هـ (١٣٧٩ م) . وتوجد منه نسخة خطية أخرى بخزانة الرباط .

القضاء والفتيا » وهو تاريخ لقضاء الأندلس[1] .

ومنهم الفقيه أبو القاسم بن سلمون الكنانى الغرناطى قاضى الجماعة بغرناطة المتوفى سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٥ م) ، ومن آثاره كتاب « العقد المنظم للحكام فيما يجرى بين أيديهم من الوثائق والأحكام[2] ؛ وأبو عبد الله محمد بن على بن إسحق الرندى المتوفى سنة ٧٩٢ هـ (١٣٨٩ م) ، وكان من أقطاب التصوف ، وقد كتب كتاب « الرسائل الكبرى » و « غاية المواهب العلية بشرح الحكم العطائية »[3] .

وأما فى ميدان العلوم فلم نعثر على ما يدل على ازدهارها فى تلك الفترة ؛ على أننا نستطيع أن نذكر أن ابن الخطيب كان إلى جانب أدبه الممتاز ، عالماً بالطب والفلسفة ، وكان من تلاميذه الطبيب العالم ابن المهنا شارح ألفية ابن سينا ، وشرحه عليها من أقيم الشروح[4] .

---

(١) وقد قام على نشره الأستاذ ليڤى بروڤنسال ، ونشره بعنوان « تاريخ قضاة الأندلس » . (القاهرة سنة ١٩٤٨) . وراجع فى ترجمة النباهى الكتاب المشار إليه (المقدمة) ، وأزهار الرياض ج ٢ ص ٥ — ٧ . وراجع بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٢ .

(٢) بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٤ .

(٣) بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٥ .

(٤) راجع نفح الطيب ٤ ص ٧٥٦ .

الفصل الرابع

العصر الأخير والآثار الباقية

ركود الحركة الفكرية . الشعراء الذين ظهروا فى هذا العصر . القاضى أبو بكر بن عاصم، ولده أبو يحيى . بعض الكتاب والأدباء . الشريف العقيلى وزير أبى عبد الله . ماحدث بعد سقوط غرناطة . القضاء على اللغة العربية . الألخميادو لغة الموريسكيين السرية . كتاب الألخميادو . الأدب الموريسكى وخصائصه . نماذج من تراث الألخميادو . الشهاب الحجرى وابن غانم . محاولة اسبانيا القضاء على تراث الأندلس . إيداع الكتب العربية الباقية بقصر الإسكوريال . المجموعة العربية فى الإسكوريال . حجبها عن أعين الباحثين . معجم الغزيرى. انتفاع البحث الحديث بالآثار الأندلسية . الفن فى الأندلس . تطوره منذ القرن الرابع الهجرى . ازدهاره أيام الناصر وابنه المستنصر . تقدمه أيام الطوائف . ركوده أيام المرابطين والموحدين . الفن فى مملكة غرناطة . الموسيق الأندلسية . الآثار الأندلسية الباقية .

بدأت مملكة غرناطة منذ أوائل القرن التاسع الهجرى تستقبل عصرها الأخير ، وأخذ الاستقرار ، والسلم النسبى الذى تمتعت به حيناً فى أواخر القرن الثامن ، وأوائل القرن التاسع ، يتصرم شيئاً فشيئاً ، وأخذت من ذلك الحين تواجه طائفة من الثورات والانقلابات الداخلية المتوالية ، وتواجه فى الوقت نفسه طوالع الصراع الأخير بينها وبين اسبانيا النصرانية ، التى أخذت منذ منتصف القرن التاسع (القرن الخامس عشر الميلادى) توثق أواصر اتحادها ، وتستجمع قواها لإنزال ضربتها الأخيرة بعلوتها القديمة التالدة اسبانيا المسلمة .

وماكانت الحركة الفكرية لتزدهر فى مثل هذا الأفق الكدر ، ولذا نجد فى هذا العصر فراغاً ملحوظاً فى ميادين التفكير والأدب فى الأندلس المحتضرة ، ولا نعثر إلا بقلة من المفكرين والأدباء الذين ظهروا فى تلك الفترة متفرقين متباعدين .

وكان ممن ظهر فى ميدان التفكير والأدب فى تلك الفترة على بن عاصم شاعر السلطان يوسف الثانى وقد جمع له مجموعة شعرية فى سنة ٧٩٣ هـ (١٣٩١ م)[١]. والقاضى أبوبكر محمد بن عاصم القيسى الغرناطى ، وقد كان أعظم شخصية

---

(١) بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٥٩ .

ظهرت فى هذا الميدان فى مملكة غرناطة فى أوائل القرن التاسع الهجرى. ولد بغرناطة سنة ٧٦٠هـ (١٣٥٨ م) وتوفى بها سنة ٨٣٩ هـ (١٤٢٦ م) ، وبرع فى النحو والمنطق والبيان والفقه ، وتولى الوزارة للسلطان يوسف الثانى سنة ٧٩٣هـ (١٣٩١م) ثم ولى قضاء الجماعة بغرناطة ، وبرز فى النثر والنظم ، ووضع عدة قصائد وأراجيز ، تناول فيها بعض مسائل من علم الأصول ، والقراءات والفرائض والنحو وغيرها . وله كتاب « تحفة الأحكام فى نقط العقود والأحكام » . وهو مختصر فى الفقه ، وقد طبع بمصر وترجم إلى الفرنسية . وله أيضاً كتاب « حدائق الأزهار فى مستحسن الأجوبة والمضحكات والحكم والأمثال والحكايات والنوادر » كتبه للسلطان يوسف . ويعرف بابن الخطيب الثانى لبراعته وجودة نثره ونظمه(١).

وكذلك برع ولده العلامة الفقيه أبو يحيى بن عاصم فى النثر والنظم ، وتولى كأبيه منصب الكتابة والوزارة ، وكتب شرحاً على كتاب أبيه « تحفة الأحكام » وكتب رسالة فلسفية تاريخية عن أحوال غرناطة فى عصره ، وما دهاها من آثار التفرق والفتنة ، ووصف فيها أساليب السياسة الإسبانية ، فى الكيد والتفريق بين المسلمين ، أسماها « جنة الرضى فى التسليم لما قدر الله وقضى » . ونقل إلينا منها المقرى فى أزهار الرياض نبذاً عديدة تشهد بمقدرة صاحبها ، وعميق تفكيره ورائق أسلوبه(٢) .

وأبو الحسن سلام بن عبد الله الباهلى الإشبيلى ، وقد كتب سنة ٨٣٩ (١٤٢٥م) كتاب « الذخائر والأعلاق فى أدب النفوس ومكارم الأخلاق »(٣) .

ومنذ منتصف القرن التاسع الهجرى ، تضمحل الحركة الفكرية فى مملكة غرناطة شيئاً فشيئاً . ولاغرو فقد كانت غرناطة تخوض فى تلك الفترة بالذات ، مرحلة الصراع الأخير ، وكانت الحرب الأهلية تمزق أوصالها ، وخطر الفناء الداهم يبدو لها قوياً فى الأفق .

بيد أن شعاعاً أخيراً كان يبدو فى تلك الظلمات المدلهمة . فنرى فى أواخر

---

(١) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٨ و ٩ ؛ وبروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٤

(٢) راجع أزهار الرياض ج ١ ص ٥٠ وما بعدها ، وص ١٦٧ ومابعدها . وتوجد من هذه الرسالة نسخة خطية بالخزانة الملكية بالرباط .

(٣) بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٥٩ . وقد طبع الكتاب المشار إليه بالقاهرة سنة ١٩٢٨ .

القرن التاسع ، فى الوقت الذى كانت غرناطة تسلم فيه أنفاسها الأخيرة ، عدة من المفكرين والأدباء الذين يستحقون الذكر والتنويه .

وكان من هؤلاء القاضى أبو عبد الله محمد بن على بن محمد بن القاسم الأصبحى المعروف بابن الأزرق المتوفى سنة ٨٩٥ هـ (١٤٩٠ م) ، أصله من وادى آش ، وتولى قضاء الجماعة بغرناطة . وكان بارعاً فى النثر والنظم والتاريخ . ومن آثاره كتاب فى السياسة الملكية عنوانه : « الإبريز المسبوك فى كيفية أدب الملوك » (سنة ٨٣٨ هـ) . وكتاب « بدائع السلك فى طبائع الملك » لخص فيه كثيراً من آراء ابن خلدون فى مسائل الرياسة والملك وعلق عليها ، وأتى فى موضوعها بزيادات جديدة ، وقسمه إلى أربعة كتب ، الأول فى حقيقة الملك والخلافة وسائر أنواع الرياسة ، والكتاب الثانى فى أركان الملك وقواعد مبناه ضرورة وكمالا ، والثالث فيما يطالب به السلطان تيسيراً لأركان الملك وتأسيساً لقواعده ، والرابع فى عوائق الملك وعوارضه[1] . وله أيضاً كتاب « روضة الأعلام بمنزلة العربية من علوم الإسلام » . ولما ساءت الأحوال فى غرناطة وأشرفت على السقوط ، عبر البحر إلى تلمسان ، ثم ارتحل إلى المشرق ، ونزل بالقاهرة فى عصر السلطان الأشرف قايتباى ، واتصل به ، وحاول أن يستحث همته لتسيير جيش إلى الأندلس لاسترداد غرناطة[2] ؛ ومن شعره المؤثر حين نزل النصارى بمرج غرناطة :

مشوق بخيمات الأحبة مولع   تذكره نجد وتغريه لعلع
مواضعكم يا لائمين على الهوى   فلم يبق للسلوان فى القلب موضع
ومن لى بقلب تلتظى فيه زفرة   ومن لى بجفن تنهمى منه أدمع
رويدك فارقب للطائف موقعاً   وخل الذى من شره يتوقع
وصبراً فإن الصبر خير تميمة   ويا فوز من قد كان للصبر يرجع
وبت واثقاً باللطف من خير راحم   فألطافه من لمحة العين أسرع[3]

---

(١) بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٦ ؛ وأزهار الرياض ج ١ ص ٧١ ، وج ٣ ص ٣١٨ و ٣١٩ . وقد طبع كتاب الإبريز المسبوك بالجزائر . وتوجد من كتاب « بدائع السلك » نسختان خطيتان فى خزانة الرباط (المكتبة الجلاوية) ، إحداها قديمة كتبت فى سنة ٩٩٨ هـ ، والأخرى حديثة .

(٢) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ٤٩ — ٥١ .

(٣) أزهار الرياض ج ٣ ص ٣١٨ ، و ٣١٩ .

ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد الحداد الشهير بالوادى آشي ، وهو أيضاً من أهل وادى آش ، وكان أديباً بارعاً وله تعليقات كثيرة على أدباء عصره ، وقد غادر غرناطة قبيل سقوطها بقليل ونزل بتلمسان(١) .

وأبو الحسن على بن محمد القرشي البسطي ، وقد ولد فى بسطة ودرس فى غرناطة وتلمسان وتونس ، ورحل إلى المشرق وأدى فريضة الحج ، ثم استقر بعد عوده فى غرناطة . ولما اشتد ضغط النصارى على غرناطة عبر البحر إلى تلمسان ، وعاش هناك حيناً حتى توفى سنة ٨٩١ هـ (١٤٨٦ م) . وقد برع البسطى فى الرياضيات ووضع كتباً فى الحساب والجبر(٢) .

وأبو الحسن على بن قاسم بن محمد التجيبي الزقاق وقد درس فى غرناطة وفاس وتولى الخطابة فى غرناطة . ولما سقطت غرناطة فى يد النصارى ، عبر البحر إلى المغرب ، وتوفى سنة ٩١٢ هـ (١٥٠٦ م) . ومن آثاره كتاب « المنهج المنتخب إلى أصول المذهب » فى الفقه المالكى(٣) .

ومن أواخر الشعراء الذين ظهروا فى هذه الفترة ، فترة الانهيار الأخيرة ، شاعر من نوع خاص ، هو عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم القيسى . وقد ترك لنا ديوانا ، يضم قصائد عديدة تشير إلى بعض أحداث العصر مثل سقوط جبل طارق وحصار مالقة وسقوط أرشذونة وبلش وغيرهما من قواعد مملكة غرناطة ؛ ويستدل من بعض إشاراته إلى أنه قضى ردحا من الزمن فى أسر القشتاليين ؛ وهو يعترف لنا فى مقدمة ديوانه بأنه شعره « منحط من الدرجة المتوسطة » ، ولكنه مع ذلك مغتبط بنظمه وإنشاده . والظاهر أن عبد الكريم القيسى قد عاش حتى سقوط غرناطة أوقبله بقليل ، إذ يضم ديوانه قصيدة فى رثاء ابن الأزرق ، وهو قد توفى فى سنة ٨٩٥هـ ، والديوان فى جملته يلقى أضواء كثيرة على أحداث الصراع الأخير الذى انتهى بسقوط غرناطة ، وتشير قصائده إلى كثير من شخصيات العصر من قادة ، وكتاب ، وقضاة وغيرهم(٤) .

---

(١) راجع أزهار الرياض ج ١ ص ٥٥ و ٧١ .

(٢) بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٦ .

(٣) بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٥ .

(٤) توجد نسخة مخطوطة من هذا الديوان بخزانة الرباط رقم ١٩٨ق (مخطوطات الأوقاف) ، وهو يقع فى ١٥٣ صفحة من القطع المتوسط .

ومن نظم عبد الكريم المذكور قوله :

خليلى ما مثلى يقوم ذليلا ويحمل من ضيم الزمان ثقيلا
ويرضى بعيش يدال ببسطة تحدد من خطب الهموم جليلا
فلا تعذل فى رحيلى عنكما فإنى لما أنعى عزمت رحيلا

وقوله حينما اتصل به خبر سقوط جبل طارق فى يد الاسبان :

أوارى أوارى القلب مع شدة اللفح فتبكه عين دمعها داهم السفح
وأخفى الذى ألقى من الحزن والأسى وظاهر حالى الدهر يؤذن بالصفح
وأبدى من التقطب للفتح حالة تسوء صديقى فى مساء وفى صبح

على أن أعظم شخصية ظهرت فى تلك الفترة القاتمة فى ميدان التفكير والأدب هى شخصية الوزير والكاتب الشاعر أبى عبد الله محمد بن عبد الله العربى المعروف بالشريف العقيلى ، وزير أبى عبد الله محمد آخر ملوك الأندلس وكاتبه . وكان فوق تضلعه فى الفقه ، إمام عصره فى النثر والنظم ، وقد وصفه الوادى آشى بأنه « شاعر العصر ، مالك زمامى النظم والنثر » وبأنه « إمام هذه الصناعة ، وفارس حلبة القرطاس والبراعة ، وواسطة عقد البلاغة والبراعة » . ووصفه أيضاً بحق بأنه خاتمة أدباء الأندلس .

ومن شعره يمدح السلطان أبا عبد الله حينما ولاه منصب الكتابة قوله :

أوجه سعدى انحط عنه اللثام أم بدر أفق فض عنه الغمام
كأنما أقبس نور البهام ن وجه مولانا الإمام الهمام
ابن أبى الحسن الأسرى الذى قد كان للأملاك مسك الختام
ضرغام قد أنجب شبهاً له فى صدق بأس ومضاء اعتزام
دام له النصر الذى جاءه والسيف من ظلى أعاديه دام

ومنه قوله حينما نزل النصارى بمرج غرناطة :

بالطبل فى كل يوم وبالنفير نراع
وليس من بعد هذا وذاك إلا القراع
يارب خيرك يرجو من هيض منه الذراع
لا تسلبنى صبرا منه لقلبى ادراع

ولما سقطت غرناطة فى يد الإسبان ، عبر الشريف العقيلى البحر إلى المغرب مع سلطانه المنفى أبى عبد الله محمد ، وكان من أروع ما كتب رسالة الاعتذار ،

التي كتبها على لسان السلطان أبي عبد الله إلى سلطان المغرب ، وعنوانها « الروض العاطر الأنفاس فى التوسل إلى المولى الإمام سلطان فاس »[1] . ومهد لها بعد الديباجة بقصيدته الرائعة التي مطلعها :

مولى الملوك ملوك العرب والعجم رعيا لما مثله يرعى من الذمم
بك استجرنا ونعم الجار أنت لمن جار الزمان عليه جور منتقم

وقد سبق أن أتينا على ذكر هذه الرسالة المؤثرة الفريدة ، فى موضعها ، وأوردنا طرفاً من قصيدة العقيلي ، ومن أقواله التي يخاطب بها السلطان أبوعبد الله سلطان فاس مستجيراً به ، ملتجئاً إلى حمايته ، معتذراً إليه عما بدر منه .

وعبر البحر إلى المغرب قبيل سقوط غرناطة وبعده جمهرة من العلماء والأدباء ، هم البقية الباقية من مجتمع الأندلس الفكرى[2] . وقد آثروا مغادرة الوطن القديم على التعرض لفقد الحرية ، وامتهان الدين والكرامة القومية ، ومذلة العبودية ، فى ظل حكم يضطرم نحو الأمة المغلوبة بغضاً وتعصباً .

— ٢ —

وكان سقوط غرناطة فى يد اسبانيا النصرانية فى سنة ٨٩٧ هـ (١٤٩٢ م) ، نذيراً بانهيار صرح الأمة الأندلسية القومى والاجتماعى ، وتبدد تراثها الفكرى والأدبى ؛ وكانت اسبانيا النصرانية ترمى قبل كل شىء ، إلى القضاء على خواص الأمة المغلوبة الدينية والفكرية ، وعلى سائر الروابط الأدبية التى تربطها بماضيها المجيد ؛ وقد نجحت السياسة الإسبانية ، يدعمها طغيان الكنيسة وعسف ديوان التحقيق ، فى تحقيق هذه الغاية إلى أبعد حد ؛ فلم يمض على سقوط غرناطة نحو خمسين عاماً ، حتى استحالت بقية الأمة الأندلسية إلى شعب جديد ، يستبدل دينه القديم — الإسلام — بالنصرانية المفروضة ، ويتكلم القشتالية ، وتغيض البقية الباقية من خصائصه القديمة ، شيئاً فشيئاً ، تحت ضغط التشريعات والإجراءات التعسفية المرهقة .

وكانت الأمة الأندلسية خلال هذا الإستشهاد المحزن ، الذى فرض عليها ، تحاول بكل وسيلة أن تستبقى ماوسعت ، من تراثها الفكرى والروحى القديم ، فكان الموريكسيون بالرغم من دخولهم فى النصرانية ، يتعلقون سراً بدينهم القديم ، وكثير منهم يؤدون شعائر الإسلام خفية ، وديوان التحقيق من ورائهم يطاردهم

---

(١) نشر المقرى هذه الرسالة بأكملها فى نفح الطيب ج ١ ص ٦١٧ — ٦٢٨ ؛ وفى أزهار الرياض ج ١ ص ٧٢ — ١٠٢ .

(٢) راجع أزهار الرياض ج ١ ص ٧١ .

بمنتهى القسوة حسبما فصلنا فى موضعه . وكانوا يحافظون جهدهم على لغتهم العربية . ولكن السياسة الإسبانية المرهقة ، فطنت منذ الساعة الأولى إلى أهمية اللغة فى تدعيم الروح القومية ، فعولت على سحق العربية وكل آثارها ، وصدر منذ أيام الإمبراطور شارلكان فى سنة ١٥٢٦ ، أول قانون لتحريم التخاطب بالعربية على الموريسكيين ، ولكنه لم يطبق بشدة . وكانت العربية ما تزال حتى ذلك الوقت لغة لأدب يحتضر ، وكانت ما تزال لغة التعاقد والتعامل ، لا فى أنحاء مملكة غرناطة القديمة وحدها ، ولكن أيضاً فى مجتمعات المدجنين القاصية فى أراجون حسبما تدل عليه وثائق عثرنا عليها[1] . وكان يوجد ثمة بين الموريسكيين من ينظم بها الشعر . وقد أشرنا فيما تقدم إلى القصيدة التى أرسلها الموريكسيون إلى السلطان بايزيد الثانى يلتمسون فيها النجدة والغوث ، وهى قصيدة تنم بالرغم من ركاكتها عن روح شعرية مؤثرة . واستمر الموريسكيون عصراً آخر يوجهون رسائلهم العربية إلى مسلمى المغرب . وكانت السياسة الإسبانية تضيق ذرعاً بالعربية ، وتزداد منها توجساً . فعادت فى عهد فيليب الثانى لتتخذ خطوتها الحاسمة فى القضاء عليها . وصدر فى سنة ١٥٦٦ قانون جديد صارم يحرم على الموريسكيين التخاطب بالعربية أو التعامل بها على نحو ما فصلنا ، وطبق القانون بمنتهى الشدة . وكانت العربية قد أخذت تغيض شيئاً فشيئاً فى غمر العسف والاضطهاد ، فجاء القانون الجديد ضربة قاضية لمظاهرها الباقية . وفى هذا الوقت بالذات نشهد نفثات العربية الأخيرة لدى الموريسكيين فى بعض قصائدهم السرية الثورية . وفى لغة الخطاب الذى نشرناه فيما تقدم لمولاى عبد الله آخر زعماء الثورة الموريسكية ما يوضح لنا مدى الانحلال الذى انتهت إليه اللغة العربية فى ذلك العصر .

ولم تمض فترة قصيرة على تطبيق القانون الجديد بتحريم العربية نهائياً ، وفرض القشتالية كلغة للتخاطب والتعامل على الموريسكيين ، حتى اختفت المظاهر والآثار الأخيرة للعربية . ومع ذلك فقد وجد الموريسكيون فى القشتالية ذاتها متنفس تفكيرهم وأدبهم القديم ، فكانوا يكتبون القشتالية سراً بأحرف عربية ، وأسفر ذلك بمضى

---

(١) ومن ذلك وثيقة زواج بالعربية مؤرخة يوم الأحد ١٧ يوليه الموافق ١٠ رمضان سنة ٩٢٨ هـ (١٥٢٢ م) بين « الشب الكريم محمد خشان وبين المقدم القاضى ابراهم ذاعمر فى الثيبة الكريمة فاطمة بنت على سانته من ربض مسلمى منمدينة قلعة أيوب » ، وهى بخط عربى ردىء (مكتبة مدريد الوطنية بمجوعة الألخميادر رقم 4968 وثيقة نمرة ٩) .

الزمن عن خلق لغة جديدة اشتقت أصلا من القشتالية لغتهم المفروضة ، واختلطت بها ألفاظ عربية وأعجمية مختلفة من اللهجات المعاصرة والقديمة ، ولاسيما اللغة الرومانية . وكانت هذه اللغة الرومانية Lengua Romanica لغة المستعربين أيام الدولة الإسلامية ، وكانت معروفة ذائعة فى قرطبة وغيرها من الحواضر الأندلسية التى تقيم بها طوائف كبيرة من النصارى المستعربين ، وكان يتكلم بها بعض أكابر الصقالبة فى البلاط ، ويعرفها بعض العلماء المسلمين. وكان المسلمون الأندلسيون يستعملون أحياناً بعض عبارات من هذه اللغة الرومانية ، ولاسيا فى الكتابات العلمية ، ويسمونها فى كتبهم « باللطينية » ،(أعنى اللاتينية) ، وقد تسرب منها بمضى الزمن كثير من الألفاظ فى الزجل الأندلسى ، ولاسيا زجل ابن قزمان . وفى مملكة غرناطة ، كانت اللغة العربية الشعبية ، يتسرب إليها كثير من الألفاظ الرومانية والقشتالية[1] ، وهذه هى التى تسربت بالأخص فيما بعد إلى لغة الموريسكيين السرية ، التى لجأوا إلى ابتكارها حينما حرمت عليهم لغتهم الأصلية ، واحتفظوا لها بالأحرف العربية .

وتعرف هذه اللغة التى اتخذها الموريكسيون بالأخص متنفساً لدينهم القديم « بالألحميادو» Aljamiado ، وهو تحريف اسبانى لكلمة « الأعجمية » ، وقد لبثت زهاء قرنين سراً مطموراً حتى ظفر بعض العلماء الإسبان بمجموعة من مخطوطاتها فى أوائل القرن الماضى ، وعندئذ ظهرت عنها المعلومات الأولى . ويقول العلامة مننديث إى پلايو فى تعريفها ، بأنها هى اللغة الرومانية القشتالية Romana Castelaا تكتب بأحرف عربية . ويقول المستشرق ساڤدرا فى تعليل قيامها « إن الطابع الدينى الذى كان يفصل بين الموريسكيين وباقى الإسبان يطغى على إنتاجهم الأدبى ، وكأنما هو قرين طبيعى للمنتجات العربية ، فهم لكى يحتفظوا بجذوة حية من العقيدة المحمدية ، كتب العلماء والفقهاء ،كتباً « عما يجب أن يعتقده وأن يحفظه كل مسلم حسن الإيمان » عن صفات الله ، وعن بعض المسائل الفقهية ، وفقاً لمذهب مالك ، وكتبوا عن التاريخ المقدس ، والقصص الدينى ، وتعبير الرؤيا وغير ذلك »[2] .

---

(١) R. Menéndez Pidal : Origines del Espanol p. 418, 429 & 431

(٢) E. Saavedra : Discurso leido ante la Real Academia Espanola (Madrid 1878)

وهكذا كتب الموريكسيون القرآن سراً باللغة العربية ، مقروناً بشروح وتراجم ألخميادية ، وكتبوا سيرة الرسول والمدائح النبوية ، وقصص الأنبياء ، وبعض كتب الفقه والحديث بالألخميادو — وهو رسم لغتهم العزيزة — ، مع كتابة البسملة والآيات القرآنية دائماً خلال هذه النصوص السرية باللغة العربية ، ويلاحظ أن معظم كتب الألخميادو المذكورة تكتب بالشكل الكامل ، حتى يمكن قراءتها بطريقة صحيحة .

واستعمل الموريسكيون الألخميادو فى أدبهم ، وفى التعبير عن أفكارهم ومُثلهم فى النثر والنظم . ومن أشهر شعرائهم محمد ربدان Rabadán أو الراعى وقد كان حياً فى أوائل القرن السابع عشر ، وأصله من روطة خالون من أراجون . وله نظم كثير ، وقصائد قصصية ، وأخرى دينية . ومن آثاره فى القصص الدينى كتاب عن « هول يوم الحساب » و « قصة النبى منذ بدء الخليقة » وأغنيات دينية ، وأسماء الله الحسنى ، وكلها بالنظم . وشعره يمتاز بالجزالة والسهولة . ومن شعراء الموريسكيين أيضاً ابراهيم دى بلفاد ، وخوان ألفونسو ، ومنهم الشاعر محمد الخرطوشى ، وقد كان من أهل بيانة ، ومنهم أخيراً شاعر موريسكى مجهول ، عاش فى تونس فى أوائل القرن السابع عشر بعد النفى ، واشتهر بنقده لمسرحيات « لوبى دى ڤيجا » شاعر اسبانيا الأكبر .

ومن أشهر كتاب الألخميادو الكاتب الفقيـه المسمى « فتى أبيرالو » El Mancebo de Avéralo ، وهو مؤلف لكتب فى التفسير ، وتلخيص السنة ؛ وقد طاف بمعظم أنحاء اسبانيا ، وشهد مصائب قومه ووصفها ، وتلقى العلوم الإسلامية القديمة عن عالمتين بارعتين فى الشريعة هما « مسلمة أبده La Mora de Ubéda » ، و « مسلمة آبلة La Mora de Avila » ، وألف كذلك فى القصص الدينى .

وعنى الموريسكيون بنوع خاص بكتابة القصص وترجمته ، ومن آثارهم المعروفة فى ذلك كتاب « حديث القصر الذهبى » Alhadiz de Alcázar del Oro وكتاب الحروب ، و « حديث على والأربعين جارية » ، بيد أن أعظم كتبهم القصصية الحماسية هو كتاب « قصة الإسكندر ذى القرنين » ، والتنويه ببطولة الإسكندر يرجع إلى شخصيته ، ولأنه ذكر فى القرآن ، وأنه بعث لكى يحارب ملوك الأرض ويحطم الأصنام ويقتل عبادها .

ومن أشهر كتب الموريسكيين الألخميادية ، كتب المدائح النبوية والأدعية ،

الصفحتان الأوليان من كتاب فى « الأدعية النبوية » مكتوب بالألخميادو ، وفى نهايته بالعربية الركيكة أنه كتب سنة ٩٩٧ هـ (١٥٧٩ م) ، ومحفوظ بمكتبة مدريد الوطنية رقم ٥٣٠٦ .

والواقع أن كتابة المدائح النبوية باللغة القشتالية ترجع إلى عصر مبكر ، وقد كتبها المدجنون بهذه اللغة منذ القرن الثالث عشر ، وانتشرت بعد ذلك بين طوائف المدجنين فى مختلف مدن قشتالة وأراجون . ثم كتبها الموريسكيون بالألخميادو أو القشتالية العربية .

والظاهرة الواضحة فى الأدب الموريسكى ، هو أن كتاب الألخميادو كانوا يفكرون ويكتبون بالروح العربية ، وإن كان تعبيرهم عن ذلك يجرى بالقشتالية ، وأنهم كانوا يتأثرون فى الأسلوب بلهجات مقاطعاتهم المختلفة ، أكثر من تأثرهم بقواعد اللغة .

ويرى النقدة أن نثر كتاب الألخميادو أفضل من نظمهم ، وأنه نثر مطبوع خال من التكلف ، ومن الملحوظ فيه بنوع خاص تسرب الألفاظ العربية الصحيحة إليه من آن لآخر ، والأدب الموريسكى لا يتجه إلى مراعاة الرونق والتنميق ، ولكنه يرمى قبل كل شىء إلى تصوير التاريخ والتقاليد القومية فى إطار دينى . وبالرغم مما يغلب عليه من الضعف والركاكة بصفة عامة ، فإنه يصل أحياناً إلى مرتبة الطلاوة ، بل يصل أحياناً إلى مرتبة البلاغة . وأفضل مثل لذلك شعر ربدان[1] .

كما يرى البعض ، أنه وإن لم تكن للأدب الموريسكى ثروة من الجمال أو قيمة أدبية ذات شأن ، فإن له قيمة تاريخية واجتماعية هامة ، فى الكشف عن التقاليد والعادات ، وأنه قد ترك أثره فى اللغة الإسبانية ، وفى الشعر الإسبانى ، وفى الأفكار الدينية وغيرها .

بل وقد نوه غير واحد من الكتاب الإسبان ، بما كان عليه الأدب الموريسكى بالرغم من ضعفه وضآلة شأنه ، من شاعرية ، وشعور بالجمال ، وخيال ممتع ، وذوق سليم . ويعلق الدون برونات على اختفاء الموريسكيين واختفاء أدبهم بعبارات شعرية يقول فيها : « إن السياسة الإسبانية لم تكتف بنفى الموريسكيين ، وما ترتب عليه من نضوب حقولنا ومصانعنا وخزائننا ، ولم يقتصر الأمر على انتصار التعصب ، وبربرية ديوان التحقيق ، بل تعداه إلى اختفاء الشعر ، وشعور الجمال الموريسكى ، والأدب السليم الذى رفع سمعة تاريخنا » .

---

(١) راجع : **Menéndez y Pelayo : Historia de los Heterodoxes Espanoles** p. 345 - 349 ، وكذلك **E.Saavedra : ibid**

وراجع الموسوعة الإسبانية العامة تحت كلمة **Aljamia**

صفحتان من كتاب فى التفسير مكتوب بالألخميادو ومحفوظ بمكتبة مدريد الوطنية برقم ٥٢٥٢

ثم يقول : « إنه اختفى بطرد الموريسكيين ، الأدب المعطر ، والشاعرية الشعبية ، والخيال الممتع ، ومصدر الوحي الذى كانوا يمثلونه . وقد غاض باختفائهم من شعرنا هذا التلوين والفن والحيوية والإلهام والحماسة، التى كانت من خواصهم، وحل محلها الظلام فى الأفق الأدبى خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر »[١] .

وقد اطلعنا خلال إقامتنا بمدريد على كثير من الكتب والوثائق الألخميادية ولاسيما فى المكتبة الوطنية التى تحتفظ منها بطائفة كبيرة ، ومنها كتب صلوات وأدعية وفقه ، ومعظمها يفتتح بالبسملة والصلاة على النبى ، وقد لفت نظرنا بالأخص مخطوط منها ، وهو كتاب فى الصلاة والأدعية ، تدل عبارته الاختتامية على أن اللغة العربية كانت ما تزال بالرغم من تحريمها ومطاردتها ، تدرس وتكتب سراً حتى أواخر القرن السادس عشر ، وإليك نص العبارة المذكورة :

« أفرغ للعبد من الله تعالى المعترف بذنبه الراجى غفران ذنبه ، على بن محمد بن محمد شكار من بلاد مزماذيانى اليوم الآخر من جمادى الثانى يوما أربعة ولعشرين من شهر ماروس من يوم من ثلث منه عام ثمانية وتسعين تسع مائة من الحجرة النبى صلى الله عليه وسلم . ولعددا من المسيح منه عام وتسع وثمانين ألف وخمسمائة آمين آمين يارب العالمين . تمت بحمد الله وحسن عونه وكان الفراغة ثم صلاة العصر »[٢] .

واطلعنا كذلك على عدة من كتب الأدب الموريسكى ، ومنها قطعة مخطوطة من كتاب يوسم بأنه « قصيدة يوسف » ، وهو كتاب شعرى عن حياة يوسف لمؤلف مجهول[٣] .

وهناك أيضاً طائفة من الكتب الدينية ، ومنها كتب فى السيرة النبوية والتفسير والحديث والصلوات ، وعدد كبير من الوثائق الموريسكية المختلفة ، وكثير منها يفتتح بالبسملة ويتخللها ، اسم الله والصلاة على رسوله .

---

(١) **D. Pascual Boronat : Los Moriscos Espanoles y su Expulsión.** **p. 384, 386, & 389**

(٢) يحفظ هذا المخطوط بالمكتبة الوطنية بمدريد برقم **5306** بفهرس المخطوطات العربية .

(٣) يحفظ هذا المخطوط بالمكتبة الوطنية برقم **R. 247** . وتوجد من هذا الأثر الموريسكى أيضاً قطعة مخطوطة بمكتبة أكاديمية التاريخ بمجموعة جاينجوس ، وقد وضع العلامة المؤرخ الأستاذ مننديث بيدال عن هذا المؤلف كتاباً نقدياً نشر فيه النص الألخميادى مقروناً بتخريج اسبانى بعنوان : **La Poema de Yuçuf (Granada 1952)**

على أن هذه الآثار الدينية التى حاول الموريسكيون أن يدونوا فيها تعاليم الإسلام وسيرة النبي ، تحتوى فى أحيان كثيرة على بعض التعاليم النصرانية ، تمتزج بتعاليم الإسلام ، وتعرض فيها المثل الإسلامية أحياناً فى صور المثل النصرانية ، وقد يصور النبي العربى من بعض النواحى فى صور المسيح . ويرجع هذا المزيج الغريب إلى ظروف العصر ، وإلى ضغط المطاردة الدينية التى لبث الموريسكيون تحت روعها ، وإلى رهبة محاكم التحقيق التى استمرت فى عسفها ومطارداتها الدموية . بيد أن الآثار الدينية التى خلفها الموريسكيون تنم فى معظمها عن بغضهم للنصرانية ومثلها وتقاليدها ، مما يدل على أن تسرب التعاليم النصرانية إلى كتبهم لم يكن سوى نتيجة لظروف العصر التى باعدت قسراً بينهم وبين تعاليم دينهم الحقيقية .

وقد وجدت فى أواخر القرن السادس عشر بدير ساكرومونتى القريب من غرناطة ، ألواح من الرصاص عليها كتابات دينية باللاتينية والعربية ، تتحدث عن حياة المسيح والرسل ومريم ، وعن الإسلام وبعض قواعده ، وتمزج فيها التعاليم الإسلامية بالتعاليم المسيحية . وقد رأى بعض الباحثين أن هذه الألواح كتبها الموريسكيون ، وفيها يحاول علماؤهم أن يجدوا حلا وسطاً للتوفيق بين الدينين ، وأن يصنعوا مزيجاً معقولا من العقيدتين . وقد حملت هذه الألواح فيما بعد إلى رومة ، وترجم قسمها اللاتينى ، ثم حكم بأنها أوهام وخرافات وضعت لمسخ الدين المسيحى وهدمه[1] .

هذا ، ويوجد ثمة بعض الكتاب الموريسكيين ، الذين استطاعوا أن يغادروا اسبانيا فى أواخر العهد الموريسكى ، قبيل النفى بقليل ، وأن يكتبوا بالعربية لغة آبائهم وأجدادهم ، بعض الآثار التى انتهت إلينا ، ولدينا من هؤلاء مثلان بارزان، الأول ، هو باسمه الأندلسى ، محمد بن عبد الرفيع الحسينى الأندلسى الذى سبقت الإشارة إليه ، وقد هاجر قبل النفى إلى تونس ، وترك لنا بالعربية كتابه « الأنوار النبوية فى آباء خير البرية » ، وهو الذى اقتبسنا منه ، ما كتبه فى خاتمته عن أحوال إخوانه الموريسكيين ، وعن البواعث التى حملت اسبانيا على نفيهم[2] .

---

(١) Menéndez y Pelayo : Historia de los Heterodoxes Espanoles.p.364

(٢) وتوجد منه نسخة خطية بخزانة الرباط (المكتبة الكتانية رقم 1238) ، ومذكور فى نهايته أنه تم تحريره بتونس فى سادس شعبان سنة ١٠٤٤ هـ

والثانى هو حسبما يسمى نفسه باسمه الأندلسى ، أحمد بن القاسم بن أحمد الفقيه قاسم بن الشيخ الحجرى ، ويعرف بالشهاب الحجرى ، وكذلك بآفوقاى ، وهو موريسكى من أحواز غرناطة ، استطاع أن يغادر الأندلس فى سنة ١٠٠٧ هـ (١٥٩٨ م) ، أعنى قبل النفى بثلاثة عشر عاما . ويروى لنا الشهاب ، قصة فراره من اسبانيا فى خاتمة كتابه « العز والمنافع » الذى نتحدث عنه فيما بعد ، على النحو الآتى :

« وأقول اعلم أن أول ما تكلمت به ببلاد الأندلس ، كان بالعربية ، وكانت النصارى دمَّرهم الله ، تحكم فى من يجدوه يقرأ العربية ، فتعلمت القراءة الأعجمية للأخذ والاعطى ، ثم ألهمنى الله سبحانه أن أخرج من تلك البلاد إلى بلاد المسلمين لما تحققت أن الكفار ، كانوا فى الثغور يبحثون عن كل من يرد عليهم لعلهم يجدونه أندلسيا مخفيا ليحكموا فيه لأنهم كانوا منعوهم من الثغور ليلا يهربوا إلى بلاد المسلمين ، فجلست سنين ، نتعلم الكلام والأخذ فى كتبهم ليحسبوا أنى منهم إذ أمشى إلى بلادهم للخروج منها لبلاد الإسلام . ولما أن جئت إلى البلاد التى هى على حاشية البحر ، حيث هو الحرس الشديد ، وجلست بينهم فلم يشكوا فى بما رأوا منى من الكلام والحال والكتابة ، وجئت من بينهم إلى بلاد المسلمين ، وبهذه النية تعلمت وبلغت فى كتبهم . ولكل امرئ ما نوى . ثم رأيت أن بسبب التعليم انه كان بنية القرب من الله ببلاد المسلمين ، فتح لى بذلك العلم المنهى عنه ببيان الملوك المسدودة عن كثير من الناس » .

وقد اتصل الشهاب الحجرى ، عقب وصوله إلى المغرب ، بالسلطان أحمد المنصور ، ملك المغرب يومئذ ، واشتغل مترجماً للبلاط ، فى عهد المنصور وولده السلطان مولاى زيدان المتوفى سنة ١٠٣٧هـ (١٦٢٧ م) ، إذ كان يجيد الإسبانية إلى جانب العربية . واستعمله السلطان فوق ذلك للسفارة عنه فى بعض البلاد الأوربية ، ورحل الشهاب فى أواخر حياته إلى المشرق ، وأدى فريضة الحج . ولما عاد، نزل بتونس ، وقربه أميرها الداى مراد يومئذ . وهنالك توثقت أواصر الصداقة بينه وبين زميل موريسكى مهاجر يسمى باسمه الأندلسى الرئيس ابراهيم ابن أحمد بن غانم بن محمد بن زكريا الأندلسى . وكان الرئيس ابراهيم هذا فيما يبدو من زعماء الجند ، وقد ألف بالإسبانية (الأعجمية) كتابا فى فن الجهاد بالمدافع . فقام الشهاب الحجرى بترجمته إلى العربية ، وسماه « كتاب العز والرفعة

والمنافع للمجاهدين فى سبيل الله بالمدافع » ، ووصف نفسه فى صفحة العنوان بأنه « ترجمان سلاطين مراكش » . وقد انتهى هذا الكتاب الفريد إلينا ، وهو يحتوى على خمسين بابا فى وصف البارود ، والآلات الحربية القاذفة ، وتركيب المدافع واختلافها ، ووصف أدواتها ، وطرق تعميرها ، والرمى بها إلى غير ذلك . ويتخلل ذلك رسوم توضيحية لمختلف أجزاء المدفع[١] .

ويشير الشهاب فى كتابه المذكور إلى المقرى مؤرخ الأندلس ، وإلى كتابه الجامع « نفح الطيب » فى قوله : « وقد صح من كتب التواريخ التى جمعها العلامة الشيخ أحمد المقرى فى كتابه بمصر فى الكتاب الجامع للتواريخ على بلاد الأندلس أعادها الله إلى الإسلام » ، وقد عاش الرجلان فى نفس العصر . والظاهر أن الشهاب الحجرى قد لقى المقرى بمصر خلال مروره بها فى طريقه إلى الحج ، أو خلال العود منه ، وذلك فى نحو سنة ١٠٤٠ هـ (١٦٣١م) قبيل وفاة المقرى بقليل .

وقد كتب الشهاب الحجرى فوق ذلك كتابا آخر عنوانه « رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب » . والأحباب هنا فيما يبدو هم إخوانه المسلمون فيما وراء البحر فى عدوة المغرب ، ولكن هذه « الرحلة » لم تصلنا مع الأسف ، ولم يصل إلينا منها سوى شذور يسيرة جداً ، نقلها بعض الكتاب المغاربة المتأخرين ، وأكبر الظن أن رحلة الشهاب المفقودة كانت تحتوى على معلومات هامة ونفيسة عن أحوال مواطنيه العرب المتنصرين ، ولعل البحث يظفر بها يوما ما .

ومما يلفت النظر من أقوال الشهاب عن أحوال اسبانيا يومئذ ، ما نقله إلينا صاحب كتاب « نزهة الحادى » من الرحلة المذكورة ، قول الشهاب « إن جزيرة الأندلس ، استردادها من أيدى الكفار سهل ، واسترجاعها منهم قريب . ولما دخلت فى أيام المنصور مراكش ، وجدت عنده من الخيل نحوا من ستة وعشرين ألفاً ، فلو تحركت هذه لفتحتها ، ولاستولى عليها فى الحين »[٢] .

---

(١) توجد منه نسخة مخطوطة بخزانة الرباط تحفظ برقم ج 87 ، وتقع فى ٢٦١ صفحة كبيرة ، ومذكور فى صفحة العنوان أنه من تأليف الرئيس ابراهيم بن أحمد بن غانم بن محمد بن زكريا ، كتبه بالأعجمية ، وترجمه له بالعربية ترجمان سلاطين مراكش ، أحمد بن قاسم بن أحمد الحجرى الأندلسى » . وتوجد منه كذلك نسخة بالخزانة التيمورية بدار الكتب المصرية رقم ٩٧ فروسية . ونسخة أخرى بدار الكتب رقم ٧١ فنون حربية .

(٢) كتاب نزهة الحادى ص ٩٩ .

وأخيراً ، فقد وضع الشهاب أيضاً عقب عوده من الحج ، كتابا عنوانه «ناصر الدين على القوم الكافرين» يؤيد فيه رسالة الإسلام ، ويفند معتقدات النصارى.

— ٣ —

وقد أبدت السياسة الإسبانية اهتماماً خاصاً بالقضاء على تراث الأندلس الفكرى ، وبدأت بارتكاب فعلتها الشائنة فى سنة ١٤٩٩ م أعنى لأعوام قلائل من سقوط غرناطة ، فجمعت الكتب العربية ، وأحرقت بأمر الكردينال خمنيس حسبما فصلنا من قبل ، ولم تبق معاول التعصب والجهالة إلا على بقية صغيرة من الكتب العربية ، جمعت فيما بعد من مختلف الأنحاء ، وأودعت أيام فيليب الثانى فى قصر الإسكوريال على مقربة من مدريد ، وحجبت عن كل باحث ومتطلع . وفى أوائل القرن السابع عشر ، وقع حادث كان سبباً فى مضاعفة المجموعة العربية الإسبانية . ذلك أن السفن الإسبانية استطاعت أن تأسر مركباً مغربية لمولاى زيدان ملك المغرب ، كانت مشحونة بالكتب ومختلف التحف ، وبها ثلاثة آلاف سفر من كتب الدين والأدب والفلسفة وغيرها . وتضع الرواية الإسبانية تاريخ هذا الحادث فى سنة ١٦١٢ فى عصر فيليب الثالث ، وذلك حينما اشتد اضطراب العلائق بين اسبانيا والمملكة المغربية[1] . وقد حملت هذه المجموعة النفيسة من الكتب العربية إلى اسبانيا ، وأودعت قصر الإسكوريال ، إلى جانب بقية التراث الأندلسى التى كانت مودعة فيه منذ أيام فيليب الثانى . وكانت مجموعة مولاى زيدان المغربية تحتوى على عدد كبير من الكتب الأندلسية التى كثر استنساخها ، واقتناؤها بالمغرب ، بعد سقوط غرناطة .

ولبثت هذه المجموعة من المخطوطات العربية الأندلسية مودعة بمكتبة الإسكوريال الملكية حتى أواسط القرن السابع عشر ، وكانت تبلغ يومئذ عدة آلاف ، وكانت أغنى وأنفس مجموعة من نوعها بإسبانيا . ولكن محنة جديدة أصابت هذه البقية الباقية من تراث الأندلس . ففى سنة ١٦٧١ شبت النار فى الإسكوريال ، والتهمت معظم هذا الكنز الفريد ، ولم ينقذ منه سوى ألفين ، هى التى مازالت تثوى حتى اليوم فى أقبية مكتبة الإسكوريال التى يشرف عليها الآباء الأوغسطنيون . وكانت الحكومة الإسبانية أثناء هذه العصور تحرص على إخفاء الآثار العربية عن كل قارئ

---

(١) الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوى ج ٣ ص ١٢٨ ؛ وراجع ص ٣٩٢ من هذا الكتاب .

وباحث ، كأنما كانت تخشى أن تتسرب روح التفكير الإسلامى إلى تفكير اسبانيا النصرانية ، بعد أن بذلت لقتل هذا الروح كل وسيلة ممكنة . وكان الكتاب الإسبان أنفسهم ، تحملهم نزعة الدين والجنس ، يعرضون عن كل بحث وتنقيب فى هذه المصادر النفيسة ، التى تلقى أكبر ضوء على تاريخ اسبانيا المسلمة وحضارتها فى العصور الوسطى ، ويكتفون فى كتابة هذه المرحلة الطويلة الباهرة من تاريخ بلادهم ، بالرجوع إلى المصادر الإسبانية التى تفيض بالتحامل والتعصب وغمر الخرافات . ولم تفق الحكومة الإسبانية من جمودها ، ولم تفكر فى تنظيم تراث الأندلس الفكرى والتعريف به ، قبل أواسط القرن الثامن عشر ، فعندئذ انتدبت عالماً شرقياً يجمع بين الثقافتين الشرقية والغربية ، هو ميخائيل الغزيرى اللبنانى ، الذى يعرف فى الغرب باسم كازيرى Casiri ، وعهدت إليه بدرس الآثار العربية ، ووضع فهرس جامع لها . وكان الغزيرى بنشأته وثقافته الشرقية رجل المهمة ، فلبى دعوة الحكومة الإسبانية ، وعين فى سنة ١٧٤٩ مديراً لمكتبة الإسكوريال ، وأنفق هنالك بضعة أعوام يدرس المخطوطات العربية ويحققها ، ثم بدأ يوضع فهرسه الجامع الذى عهد إليه بوضعه . وفى سنة ١٧٦٠ صدر الجزء الأول من هذا الفهرس باللاتينية بعنوان Bibliotheca Arabico - Hispana Escurialensis «المكتبة العربية الإسبانية فى الإسكوريال» ؛ وصدره الغزيرى بمقدمة طويلة تحدث فيها عن قيمة هذه المخطوطات العربية وأهميتها ، وقسم هذه الآثار إلى عدة فنون ، وبدأ بكتب اللغة وعلومها ، ثم الشعر وأبوابه ، ثم الفلسفة وما يتعلق بها ، ثم الأخلاق فالطب والتاريخ الطبيعى ، فالرياضة والهندسة والفلك ، فالفقه وعلوم الدين والقرآن ، وهى تشمل أكبر مجموعة . ثم الآثار النصرانية . وتبلغ محتويات هذا الجزء الأول من الفهرس ١٦٢٨ مجلداً . وفى ١٧٧٠ ظهر الجزء الثانى من الفهرس ، محتوياً على كتب الجغرافيا والتاريخ ومنتهياً برقم ١٨٥١ ، وهو جملة ما أثبته الغزيرى فى فهرسه .

وكان أهم ما اتجهت إليه الأنظار بعد ظهور معجم الغزيرى ، هو التنقيب فى مجموعة الإسكوريال عن الروايات العربية المتعلقة بتاريخ اسبانيا المسلمة ، وسياسة الحكومات الإسلامية ، وخواص المجتمع الإسلامى ، فعنى طائفة من الباحثين الإسبان فى أواخر القرن الثامن عشر ومنهم أندريس وماسدى ، يبحث تاريخ العلوم والآداب العربية ، فأخرج أندريس كتابه عن «أصول الأدب» ، وأخرج

ماسدى مؤلفه عن « تاريخ اسبانيا والحضارة الإسبانية »[1]. ثم جاء العلامة كوندى فوضع لأول مرة تاريخاً لاسبانيا المسلمة[2]، يعتمد فيه على الروايات العربية، وظهر هذا المؤلف بين سنتى ١٨١٠ و ١٨١٢. وبالرغم من أن مؤلف كوندى يحتوى على كثير من الأخطاء التاريخية، فقد كان أول مجهود غربى من نوعه يعرض للغرب قضية العرب فى اسبانيا من الناحية العربية، وفيه يقف الغرب لأول مرة على وجهات النظر الأندلسية، وخواص النظم والسياسة الإسلامية. ويبدى كوندى فى كثير من المواطن حماسة فى الدفاع عن العرب، والإشادة بخلالهم ومواقفهم وحضارتهم، ويصدر فى بعض المواطن، أشد الأحكام على أمته وسياسة مواطنيه.

وأخذت المصادر العربية الأندلسية، تمثل من ذلك الحين فى كل بحث يتعلق بتاريخ الأندلس. وكان العلامة المستشرق الهولندى رينهارت دوزى أعظم باحث غربى، توفر على دراسة التاريخ الأندلسى، ودراسة مصادره العربية والغربية، وكتابه القيم « تاريخ المسلمين فى اسبانيا حتى فتح المرابطين »[3]، من أنفس ما كتب فى هذا الباب، وذلك بالرغم مما يبدو فيه من أن لآخر من تعليقات يطبعها التحامل. وتوالت بعد ذلك جهود الباحثين الغربيين فى دراسة تاريخ اسبانيا المسلمة وكتابته. وصدرت بعد كتاب دوزى خلال القرن الماضى فى هذ الموضوع، عدة كتب قيمة، إسبانية وإنجليزية وفرنسية وغيرها، يمتاز الكثير منها بدقة البحث وروح الإنصاف.

وقام المستشرق الفرنسى هارتفج ديرنبور فى أواخر القرن الماضى بدراسة جديدة للمجموعة الأندلسية بالإسكوريال، ووضع لها فهرساً جديداً بالفرنسية عنوانه: « المخطوطات العربية فى الإسكوريال» **Les Manuscrits Arabes de l'Escurial** نحا فيه نحو الغزيرى فى ترتيبه وترقيمه، وعثر على نحو مائة مخطوط أخرى لم يثبتها الغزيرى فى معجمه. بيد أنه لم يصدر من هذا الفهرس الجديد سوى جزئين يشتملان على كتب اللغة والبلاغة والشعر والأدب والفلسفة والأخلاق والسياسة. وأصدر الأستاذ ليڤى بروفنسال بعد وفاة ديرنبور جزءاً ثالثاً من هذا الفهرس مشتملا على

---

(١) **Historia critica de Espana y la Cultura espanola**

(٢) **Historia de la Dominación de los Arabes en Espana**

(٣) **Histoire des Musulmans d'Espagne jusqu'à la Conquête de l'Andalousie par les Almoravides**

كتب الدين والجغرافيا والتاريخ . ومازال هذا الفهرس الجديد لمجموعة الإسكوريال الأندلسية ، ينقصه استعراض كتب الطب والتاريخ الطبيعي والرياضة والفقه ، كما ينقصه ذكر الكتب التي غابت عن الغزيري وعددها نحو مائة كتاب .

وقد كان التنقيب في تراث الآثار الأندلسية ، والتعريف بها على هذا النحو ، فتحاً عظيماً في تاريخ اسبانيا المسلمة ، وتاريخ الحضارة الإسلامية . فقد كان الغرب حتى أواخر القرن الثامن عشر ، لا يعرف من هذا التاريخ سوى ما تعرضه الرواية الإسبانية من شذور مشوهة مغرضة ، وكانت مئات من الحقائق تغمرها حجب التعصب والتحامل ، فجاءت وثائق الإسكوريال تبدد هذه الحجب ، وتقدم الأدلة الساطعة على عظمة هذه الصفحة من تاريخ اسبانيا ، وتعرض لنا مئات الحقائق عن تفوق الحضارة الأندلسية ، ومبلغ ما وصلت اليه من الإزدهار والتقدم .

ومما هو جدير بالذكر أن ملوك المغرب بذلوا أكثر من محاولة لاسترداد الكتب العربية من اسبانيا ، وكان يحدوهم في ذلك شعور بأن هذا التراث الفكرى للأمة الأندلسية الشهيدة إنما هو تراثهم المشترك ، وأن المغرب هو الوارث الطبيعي لهذا التراث ، خصوصا وقد كان بين محتوياته مكتبة مولاى زيدان التي انتهبت في عرض البحر حسبما قدمنا . فى سنة ١١٠٢ هـ (١٦٩١ م) بعث مولاى اسماعيل عاهل المغرب العظيم ، وزيره الكاتب محمد بن عبد الوهاب الغسانى سفيراً إلى كارلوس الثانى ملك اسبانيا ، وكان من مهمته إلى جانب السعى فى تحرير الأسرى المغاربة ، أن يسعى فى استرداد الكتب العربية ، وقد نجح السفير فى تحقيق الشطر الأول من مهمته ، ولكنه لم ينجح فى تحقيق الشطر الثانى . وفى سنة ١١٧٩ هـ (١٧٦٥ م) أرسل مولاى محمد بن عبد الله سلطان المغرب ، كاتبه أحمد بن مهدى الغزّال ، سفيراً إلى كارلوس الثالث ملك اسبانيا ليضطلع بنفس المهمة المزدوجة ، أعنى العمل على تحرير الأسرى المغاربة ، واسترداد الكتب العربية ، ولكنه لم يحرز فى مهمته بشأن الكتب نجاحا يذكر ، وإن كان قد استطاع أن يحصل من الإسبان على قدر من الكتب العربية ليس بينها شىء من محتويات الإسكوريال (١).

---

(١) ترك لنا كل من هذين السفيرين كتابا عن مهمته : فكتب الوزير محمد بن عبدالوهاب كتابه المسمى « رحلة الوزير فى افتكاك الأسير » (تطوان ١٩٣٩) . وكتب الثانى أحمد الغزال كتابه « نتيجة الإجتهاد فى المهادنة والجهاد » (تطوان ١٩٤١) .

— ٤ —

بقى أن نتحدث عن الفن فى الأندلس، وسيكون حديثنا عن ذلك عاماً . ذلك أن الفن فى مملكة غرناطة آخر دول الإسلام بالأندلس ، لم يكن سوى المرحلة الأخيرة لسير الفن الأندلسى .

وقد نشأ الفن الإسلامى فى البداية نشأة متواضعة . ونريد بالفن هنا معناه الدقيق الخالص. فالتصوير والنحت والنقش والزخرفة والموسيقى والغناء وما إليها، مما ينعت فى عصرنا بالفنون الجميلة ، يقع تحت هذا المعنى . بيد أن هنالك معنى أوسع للفن فقد يشمل فنون الهندسة والعمارة وما إليها، ولا بأس من أن نعامله بهذا المعنى الأعم فى الوقت نفسه . وهذه النشأة المتواضعة للفن الإسلامى ترجع بالأخص إلى عوامل دينية . فقد نشأ الإسلام خصيم الوثنية ، يضطرم بغضاً لمظاهرها ورسومها ، وقد كان النحت والتصوير والنقوش الرمزية ، وقت ظهور الإسلام من مظاهر الوثنية ورسومها البارزة ، فكان الإسلام يخاصمها ويطاردها . ولم يشأ الإسلام أن يفسح صدره لهذه المظاهر والرسوم كما فعلت النصرانية، حيث اعتنقتها وشملتها برعايتها ، وازدانت بها كنائسها وهياكلها العظيمة منذ القرن الأول للميلاد . ثم غدت فيها بعد مثاراً للخلاف الطائفى ، واعتبرت رمزاً لعبادة الصور ، وثارت حولها تلك المناقشات والخصومات البيزنطية الشهيرة . بيد أن هذه الخصومة التى شهرها الإسلام فى عصره الأول على التماثيل والصور ، رموز الوثنية ومظاهرها ، لم تلبث أن خفت وطأتها منذ القرن الثانى للهجرة ، حينما قامت الإمبراطورية الإسلامية ، وأنشئت فى أرجائها الصروح الإسلامية العظيمة ، وبدت الخلافة فى عظمتها الدنيوية ، وأخذت بقسطها من الترف والبهاء والبذخ . عندئذ عنى الخلفاء بالفنون وازدانت قصورهم ومعاهدهم وحدائقهم ، بمظاهر الفن الرفيع ، واعتمد على الاقتباس بادئ بدء من تراث الفنون الفارسية واليونانية والرومانية ، والبيزنطية بنوع خاص ، واقتبس عرب الأندلس أيضاً من تراث الفن القوطى . ولم يمض بعيد حتى امتزج الاقتباس بالابتكار ، وبدا الفن الإسلامى فى مظاهره المستقلة . وبلغ منذ القرن الثالث للهجرة ، سواء فى بغداد أو قرطبة مستوى رفيعاً من الروعة والبهاء . وبرع المسلمون فى صنع الزخارف والنقوش والرسوم والصور الدقيقة ، وانتهوا فى الموسيقى إلى ذروة الافتنان والبراعة ، وازدهر الفن الإسلامى فى المشرق والمغرب أيما ازدهار .

وبلغ الفن الإسلامى فى الأندلس أوج ازدهاره فى القرن الرابع الهجرى. ويجب أن نلاحظ أن مسلمى الأندلس كانوا أسبق الأمم الإسلامية إلى صنع التماثيل والصور وقد زينوا قصورهم ومعاهدهم منذ القرن الثالث، بالتماثيل والصور والنقوش، التى تمثل الحيوان والنبات والطير . أما التماثيل والصور البشرية ، فكانت تلقى نوعاً من التحريم العام . وفى عصر عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ) خطا الفن الأندلسى خطوة أخرى ، فصنعت التماثيل والصور البشرية ، وزينت بها القصور والمعاهد الخلافية ، وكما أن عصر الناصر كان أعظم عصور الدولة الإسلامية فى الأندلس ، فكذلك كان أعظم عصور الفن الأندلسى .

وقد كان قصر قرطبة الكبير حتى عهد الناصر ، موضع العناية والرعاية من جميع أمراء بنى أمية ، وكان مجمع البهاء والرواء والفن . ولكن الناصر آثر أن ينشئ له ضاحية ملوكية جديدة ، تكون آية فى الفخامة والبهاء ، فأنشأ مدينة الزهراء وقصورها ومعاهدها الباهرة ، وأفاض عليها من ألوان البذخ والبهاء، وبدائع الفن والزخرف ، آيات رائعات . وكانت نقوش الزهراء ورسومها وتماثيلها ، أبدع ما أخرج الفن الإسلامى فى الأندلس . ولا يتسع المقام للإفاضة فى وصف عظمة الزهراء ، وروائعها الفنية ، فنحيل القارئ إلى ما أورده صاحب نفح الطيب فى هذا الشأن من مختلف الروايات والفصول[1] . ولكنا نخص بالذكر هنا مثلين رائعين من آيات الفن الباهر ، التى زينت بها قصور الزهراء ، فمن ذلك أسد عظيم الصورة بديع الصنعة شديد الروعة ، لم يشاهد أبهى منه فيما صنع الملوك الأوائل ، مطلى بالذهب ، وعيناه جوهرتان لهما ضوء ساطع ، قد أقيم على بحيرة قصر الناعورة، يجوز الماء إلى مؤخره من قناة تحمل إليه الماء العذب ، من جبل قرطبة على حنايا معقودة ، فيدفع الماء إلى البحيرة فى منظر رائع[2] . ومن ذلك الحوض البديع الذى جلبه الناصر لاستحمامه ، وأقيم عليه اثنا عشر تمثالا من الذهب الأحمر ، مرصعة بالدر النفيس مما صنع بدار الصناعة بقرطبة : أسد إلى جانبه غزال ثم تمساح ، يقابلها ثعبان وعقاب وفيل ، وفى الجانبين حمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك وحدأة ونسر ، كلها من ذهب مرصع بالجوهر النفيس ، وتخرج الماء من أفواهها[3] .

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٥ و٢٤٦ و٢٦٤ — ٢٦٦ ؛ وابن خلدون ج ٤ ص ١٤٤ ؛ وراجع Murphy : Mohamedan Empire in Spain. p. 167-174

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٤ .

(٣) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٤ .

وهنا أيضاً أعنى فى عصر الناصر ، نرى لأول مرة فيما يظهر ، تماثيل الإنسان وصوره تمثل فى الفن الأندلسى ، إلى جانب تماثيل الحيوان وصوره . فيروى أن الناصر أمر أن تنقش صورة جاريته وحظيته « الزهراء » على باب قصر الزهراء، وهذه الجارية فيما يروى هى التى حملته على بناء الزهراء وتسميتها باسمها[1] . وزينت أبهاء الزهراء بتماثيل وصور بشرية[2]. فكانت ظاهرة فنية جديدة .

يقول العلامة الأثرى الإسبانى الأستاذ مورينو مشيراً إلى عصر عبدالرحمن الناصر :

« جاء هذا الملك ، وقد دخل الشرق الإسلامى فى دور الانحطاط ، ودخل العهد البيزنطى بالعكس فى أسطع مراحله ، وعمل الخليفة الإسبانى ، وهو حليف القيصر اليونانى على إحياء الحضارة ، فعادت بفضله تزدهر فى جانبى البحر المتوسط ، وتولت قرطبة بقوتها الروحية زعامة العالم ، ووصلت اسبانيا المسلمة فى عهد الناصر إلى ذروة التماسك والتناسق الاجتماعى والرخاء ؛ وآل ذلك إلى ولده الحكم ، فاستعمله فى أعمال الحضارة ، وهكذا تحقق قيام بلاط جديد فى الزهراء الرائعة التى بدأت أطلالها الآن تبدو للعيان ، وبعد ذلك زيد المسجد الجامع ، وأسبغت عليه آيات الفخامة والروعة .

على أن الفن القرطبى يصل إلى ذروته فى طراز العقود المتشابكة المتقاطعة فى تشكيلات هندسية ، وهو ماتخدم نفس الأغراض التى تقوم بها العقود القوطية ، متقدمة عليها قرنين ، وخاضعة لمبدأ أساسى زخرفى ، ومنسقة مع طرازها القرطبى »[3] .

وبلغ الفن الأندلسى فى عصر الناصر وابنه الحكم المستنصر ، ذروة القوة والبهاء ، ومازالت اسبانيا النصرانية تحتفظ ببعض تحف فنية نادرة من تراث ذلك العصر ، نذكر منها وعل الزهراء الشهير ، وهو تمثال وعل من البرونز زين جسمه بالنقوش والزخارف العربية البديعة ، وتاج عمود من المرمر به زخارف دقيقة مدهشة ، وقد نقش عليه اسم الحكم المستنصر بالله واسم حاجبه ، وقد وجد كلاهما فى حفائر مدينة الزهراء ، وكلاهما يحفظ اليوم بمتحف قرطبة ، ومنها صندوق من العاج البديع نقشت عليه صور فرسان وأشخاص ووعول آية فى الدقة ، وذكر عليه اسم

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٥ .

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٥ و Murphy : ibid, p. 292

(٣) M. Gomez Morena : "La Civilización arabe y sus Monumentos en España" Art. en "Arquitectura" (Nov. 1919)

صاحبه وهو عبد الملك بن أبي عامر ولد الحاجب المنصور ، وتاريخ صنعه وهو سنة ٣٩٥ هـ (١٠٠٥ م) ، ويحفظ اليوم بمتحف كنيسة بنبلونة العظمى ، ويوجد فى مدينة جيرونة صندوق بديع الصنع من أيام الحكم الثانى ، وفى كتدرائية مدينة سمورة صندوق آخر يرجع إلى نفس العصر . ويوجد من تحف العهد الغرناطى كثير من النقوش والزخارف المرمرية التى تحفظ اليوم بمتحف غرناطة ؛ وفى متحف مدريد الوطنى مصباح برونزى رائع الصنع أصله من مصابيح مسجد الحمراء ؛ وتوجد فى متحف الحمراء جرة كبيرة من القيشانى الملون زينت بزخارف مذهبة رائعة ، وهى من مخلفات قصر الحمراء . هذا إلى طائفة كبيرة أخرى من التحف البرونزية والمعدنية والخزفية ، والبسط والأنسجة الأندلسية والموريسكية ، مبعثرة فى مختلف المتاحف الإسبانية . وقد أتيح لنا أن نشاهد معظم هذه التحف الفريدة ، وأن نتأمل روائعها[1] .

هذا وقد برع الأندلسيون فى الصناعات الفنية الدقيقة ، مثل صناعة الحلى الفائقة والتحف العاجية والجلدية ، ونافسوا فيها صناعة بيزنطية . وما زالت بعض المدن الأندلسية القديمة مثل قرطبة وطليطلة وغرناطة تحتفظ حتى اليوم فى بعض صناعاتها الدقيقة ، ببقية من هذه البراعة الفنية الأندلسية . فما زالت طليطلة تشتهر حتى يومنا بصناعة الأسلحة المزخرفة ، وتشتهر قرطبة بصناعة الجلود الدقيقة المزخرفة . وكانت غرناطة بالأخص تتفوق فى صنع الأقمشة الحريرية المذهبة ، والبسط الأنيقة ، والتحف البرونزية والزجاجية والأسلحة ، وكانت أنسجتها المطرزة بالذهب تخلب ألباب الشعوب الأوربية . وهى مازالت حتى اليوم تتفوق فى أصناف من الدانتلا الرائعة . وهذه الصناعات اليدوية الدقيقة مازالت متأثرة بجمال الزخرف الإسلامى أعظم تأثير . وكانت القصور والمعاهد العامة ، والمساجد الجامعة بالأندلس فى تلك العصور ، معرضاً لأبدع ما تمخض عنه الفن الرفيع يومئذ من صنوف الزخارف والرسوم والتحف الفنية . ومن ذلك أنه كان بجامع قرطبة تنور من نحاس أصفر يحمل ألف مصباح ، وقد زين بصور ونقوش رائعة ، يعجز عن وصفها القلم[2] . وقد امتازت المدرسة المحافظة بالتفوق فى نوع جديد

---

(١) نشرنا أوصاف هذه التحف الأثرية الأندلسية وصورها فى كتابنا الآثار الأندلسية الباقية فى اسبانيا والبرتغال — الطبعة الثانية . ص (٣٧ و٤٣ و١٨١ و٣٢٠ و٣٣٧ و ٣٥٥)

(٢) نفح الطيب ج ٣ ص ٢٤٥ .

من الزخارف ، يقوم على رسوم الشجر والأوراق والأغصان والأشكال المتماثلة المبتكرة ، دون الصور التى تمثل الإنسان والحيوان ؛ ذلك لأنها كانت تقوم على احترام التقاليد الدينية القديمة ، واشتهرت هذه المدرسة فى العصور الوسطى ، وكان لهـــا أثر عميق فى تطور الفن الأوربى ، وما زالت تعرف بالنماذج العربية (الأرابسك)[١].

وسطع الفن الأندلسى أيام الطوائف مدى حين ، ونثر ملوك الطوائف ولاسيما بنو عباد فى إشبيلية ، وبنو ذى النون فى طليطلة ، حولهم آيات من البذخ والترف والبهاء ، وأغدقوا على قصورهم ومعاهدهم بدائع الفن وروائعه . مما أفاض فى وصفه المؤرخون والكتاب والشعراء . وكان بنو عباد فى إشبيلية أعظم حماة للفنون والآداب . وكان قصر المأمون بن ذى النون ملك طليطلة آية رائعة من آيات الفن والبهاء ، وكان روشنه الشهير الذى بنى وسط بحيرة القصر ، من الزجاج الملون المزين بالنقوش الذهبية ، مستقى خصباً لخيال الشعراء ، وكانت حافة البحيرة مزدانة بصفوف من تماثيل الأسود التى تقذف الماء من أفواهها ، وهى لا تزال تقذف الماء ولاتفتر ، وتنظم لآلىء الحباب بعد ما نثر[٢] . وأنشأ المقتدر بالله أبو جعفر أحمد بن هود أمير سرقسطة فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى قصره الرائع المسمى « بقصر السرور » ، وكان أروع ما فيه بهوه العظيم الذى زينت جدرانه بالنقوش والتحف الذهبية البديعة والذى كان يسمى لذلك « بمجلس الذهب » . ولما سقطت سرقسطة فى يد النصارى شوهت معالم هذا القصر وأدخلت عليه تعلايلات وتغييرات عديدة قضت على محاسنه وبدائعه العربية . ومازال يقوم على موقعه السابق الصرح الذى يسمى اليوم بقصر الجعفرية Palacio Aljarafia . وقد اشتهر المقتدر بن هود ، فى التاريخ وفى الشعر ، بقصره الفخم ومجلسه الرائع ، ذى النقوش والتحف الذهبية البديعة وهو القائل فى وصفه[٣] :

قصر السرور ومجلس الذهب ... بكما بلغت نهاية الطرب
لو لم يحز ملكى خلافـــكما ... لكان لدى كفاية الأرب

---

(١) Murphy: ibid, p. 291·Aschbach: Geschichte der Omajaden in Spanien; B. II. p. 352.

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٧ و ٢٨٢ ؛ وقلائد العقيان للفتح بن خاقان ص ١٩٤ و ١٩٥ .

(٣) نفح الطيب ج ١ ص ٢٥٠ . وراجع كتابى « دول الطوائف » ص ٢٧٢ .

ولم يكن هذا الهوى الفنى قاصراً على الأمراء والكبراء ، فقد روى لنا المقرى أنه كان ببعض حمامات إشبيلية تمثال بديع الصنع ، قال فيه الشاعر :

ودمية مرمر تزهو بجيـــد   تناهى فى التورد والبياض
لهـا ولد ولم تعرف حليلا   ولا ألمت بأوجاع المخاض
ونعلم أنهـــا حجر ولكن   تتيمنا بألحـــاظ مراض

وفى عهد المرابطين والموحدين خبت دولة الفن الإسلامى فى الأندلس نوعاً ؛ ذلك لأن أولئك الغزاة البربر ، الذين كانوا يضطرمون بروح دينية محافظة ، لم يقدروا الفنون والآداب على نحو ماكانت أيام الخلفاء الأندلسيين . ومع ذلك ؛ فقد كان لدى الموحدين ، بالرغم من طابعهم الدينى المحافظ ، طموح فنى ، ظهر أثره أولا فى إقامة المنشآت الدفاعية العظيمة ، ثم ظهر فى إقامة المساجد والقصور ، سواء فى المغرب أو الأندلس . وقد كان قصر إشبيلية ، الذى أنشأه أبو يعقوب يوسف وجامع إشبيلية الأعظم ، ومنارته العظيمة التى أنشأها ولده الخليفة المنصور ، والتى مازالت قائمة إلى اليوم بعد أن حولت إلى برج لأجراس كنيسة إشبيلية العظمى ، التى أقيمت فوق موقع المسجد الجامع : كانت هذه المنشآت العظيمة عنواناً لعظمة الفنون والزخارف الإسلامية فى عصر الموحدين .

وازدهرت الفنون والآداب كرة أخرى فى مملكة غرناطة . وكان بنو الأحمر حماة كرماء للفنون . ونلاحظ أن الفن الأندلسى بلغ فى هذا العصر ذروة التحرر والافتنان أيضاً ، وتوسع الفنانون المسلمون فى تصميم المناظر والرسوم . ولم يقتصر الأمر على الصور والرسوم والتماثيل المفردة ، بل تعداه إلى المناظر المصورة ، وإلى المجموعات المنحوتة . وقد كانت مملكة غرناطة على صغر رقعتها ، وضعفها من الوجهتين العسكرية والسياسية ، تحدث من الناحية الحضارية والفنية فى قشتالة ، جارتها الكبيرة القوية ، أثرها العميق . يقول الأستاذ مورينو : « إنه منذ عهد سان فرناندو إلى عهد هنرى الرابع ، كان الكثير من عناصر حضارة قشتالة ، وهندستها المدنية ، وفنونها الزخرفية الدينية ، وكل ضروب الإناقة والمتعة فى الحياة — كانت كلها قائمة على الاقتباس من الأندلس »[1] . وما زالت حمراء غرناطة ، وما زالت أبهاؤها ومجالسها الرائعة ، تنبئ عما انتهت إليه آخر دول الإسلام فى الأندلس من البذخ والبهاء ، وعما بلغه الفن الأندلسى فى هذه المرحلة

(١) M. Gomez-Moreno : Arquitectura (Nov. 1919)

الأخيرة من حياة الإسلام فى اسبانيا ، من الدقة والافتنان . وسوف يبقى قصر الحمراء ، وما يحتويه من النقوش والزخارف والصور الفريدة ، رمزاً خالداً للعمارة الإسلامية ، ولروعة الفن الإسلامى فى الأندلس .

وقد كان لفنون العمارة الأندلسية فى مختلف عصورها أعمق الآثار داخل شبه الجزيرة الإسبانية ، فكانت القصور الملكية فى الممالك الإسبانية النصرانية ، نماذج من القصور الملكية الأندلسية ؛ وتطورت فيها مظاهر الحصون الرومانية القديمة ، وظهرت عليها مسحة أندلسية . وكان هذا التأثير أشد وأعمق فى حياة النبلاء القشتاليين ، وفى طراز مساكنهم المدنية ، فقد حل مكان المنزل المحزن الموحش ، المكون من غرف قليلة الضوء قليلة التهوية ، المنزل الذى تغمره أشعة الشمس ، والذى تطل الأروقة الداخلية على فنائه ، وفيه الماء الجارى ، وفى داخل جدرانه الأربعة تتذوق الحياة كاملة ، وتبدو عليه البسمة . وقد أسبغت هذه المنازل على اسبانيا طابعها الخاص[1]. وما زال طراز المنازل الأندلسية قائماً واضحاً فى مدن أندلسية قديمة مثل إشبيلية وغرناطة وشريش ، وهذا الطراز من المنازل تفضله الأرستقراطية بنوع خاص . بل لقد كان أثر الفن المعمارى الأندلسى قوياً فى الكنائس ذاتها ؛ فنى كثير من الكنائس الإسبانية والبرتغالية الأثرية ترى خطة المسجد ظاهرة فى عقودها وأروقتها . وقد أقيمت أبراج كثير من الكنائس الشهيرة على نمط المنارة الإسلامية ، واتخذت منارة الخيرالدا الشهيرة بإشبيلية نموذجاً لكثير من الأبراج فى كنائس اسبانيا الجنوبية . بل لقد تسرب تأثير الفن الإسلامى إلى الهياكل ذاتها ، فنرى مثلا مصلى دير « الهوبلجاس » أو الدير الملكى فى مدينة برغش ، وقد صنعت على الطراز الإسلامى ، وعليها قبة عربية مقرنصة الزخارف . ولما تضاءلت رقعة اسبانيا المسلمة ، وسقطت معظم القواعد الأندلسية فى يد الإسبان ، لبث المدجنون عصوراً ينقلون الفنون الإسلامية إلى صروح اسبانيا النصرانية ، وكانت غرناطة ترسل العرفاء إلى قشتالة ليقوموا بإصلاح الصروح الإسلامية القديمة فى المدن الأندلسية القديمة التى استولت عليها قشتالة .

نعرض بعد ذلك لناحية أخرى من الفن الإسلامى فى الأندلس هى الموسيقى . وقد كان للموسيقى بين فنون الحضارة الإسلامية أيما شأن ، وكان ازدهارها بالأخص فى بغداد وقرطبة ، حيث بلغت حضارة الإسلام ذروة العظمة والنضج .

---

(١) M. Gomez-Moreno : Arquitectura (Nov. 1919)

وكان ازدهارها فى عصر مبكر جداً منذ أواخر القرن الثانى للهجرة ، فى ظل الدولة العباسية الفتية . وكان أول من كتب عن الموسيقى من المسلمين ، الكندى والفارابى ، وقد ترجمت كتبهما إلى اللاتينية منذ القرن الحادى عشر الميلادى . ويبدو أثر الموسيقى الشرقية واضحاً فى الكتابات الموسيقية اللاتينية ؛ وفضلا عن الكتابة ، فقد كانت الطرائق والمعارف الموسيقية المشرقية تنقل إلى الغرب عن طريق السماع والاتصال الشخصى ؛ وينطبق ذلك بنوع خاص على اسبانيا المسلمة ، حيث ازدهرت الموسيقى ، وتنوعت طرائقها منذ القرن التاسع الميلادى . وكانت الأندلس قد تلقت منذ أوائل هذا القرن قبساً من النهضة الموسيقية المشرقية ، فنزح زرياب الموسيقى غلام الموصليين[1] أساطين الموسيقى والغناء لهذا العهد ، إلى الأندلس فى عصر عبد الرحمن بن عبد الحكم (أوائل القرن الثالث) ، فاستقبله بنفسه وبالغ فى إكرامه ، وأغدق عليه العطف والبذل . وكان زرياب موسيقياً عظيما ومغنياً ساحراً ، فذاع فنه فى الأندلس والمغرب ، وأنشأ بالأندلس مدرسة موسيقية وغنائية باهرة ، استطال نشاطها وأثرها حتى عصر الطوائف ، وازدهرت أيام الطوائف فى إشبيلية فى ظل بنى عباد بنوع خاص[2] . وسطع فى مملكة غرناطة قبس من هذه النهضة ، وظهر أثر الموسيقى الأندلسية فى تطور الموسيقى والغناء ، فى قشتالة وغيرها من أنحاء اسبانيا فى عصر مبكر ، ثم انتقل هذا الأثر إلى أوربا ، واشتهرت الموسيقى الأندلسية فى غرب أوربا فى العصور الوسطى ، وكان لها أثرها فى تطور الموسيقى الغربية . ويقول لنا الأستاذ موريو إن الأغانى الأصلية للموسيقى الحديثة ، كانت اقتباساً أندلسياً ، وانها كانت فى الأصل تكتب بلغة « الرومانش » اللاتينية التى كانت تغلب فى اللهجة الشعبية الأندلسية ، ومع أنه لم يبق لنا حتى اليوم شىء من هذا الشعر الرومانشى ، فإن آثاره تكثر فى أزجال شاعر قرطبى هو « ابن قزمان »[3] . وبرع المسلمون فى العزف على كثير من الآلات الموسيقية المعروفة حتى اليوم ، واخترعوا الكثير منها ولاسيما « القيثارة » التى كانوا يعتبرونها أجمل الآلات الموسيقية . وكان للموسيقى الأندلسية أثر كبير فى تطور الموسيقى الإسبانية القديمة ، وما يزال كثير من الأوضاع

---

(١) ابراهيم الموصلى وولده إسحاق وولده حماد .

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ص ٣٥٧ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ١٠٩ وما بعدها .

(٣) M.Gomez-Moreno : Arquitectura (Nov: 1919)

والتقاليد الموسيقية الأندلسية ، تمثل مثولا قوياً فى فنون الموسيقى والرقص والغناء الإسبانية الحديثة[1] .

وقد كانت الأمة الأندلسية أمة مرهفة الشعور والحس ، تعشق الفن الجميل ، وتحب الحياة الناعمة المترفة ، وتجنح إلى المرح والطرب. وقد وصف لنا ابن الخطيب لمحة من هذا الترف ، الذى كان عنواناً لحياة الأمة الأندلسية فى عصورها الأخيرة ، وذكر لنا كيف كان الشعب يعشق الغناء والموسيقى ، وكيف كانت غرناطة تموج بالمقاهى الغنائية التى يؤمها الشعب من سائر الطبقات[2]. وقد اشتهر الرقص الأندلسى بجماله وافتنانه فى مجتمعات العصور الوسطى ، وما زال شعب غرناطة المرح الطروب مقبلا خلال كفاحه الطويل ، على حياته المترفة الناعمة ، حتى أصبح العدو على الأبواب .

وللأندلسيين آثار قيمة فى الموسيقى العلمية والعملية . وفى مكتبة الإسكوريال مخطوط عربى نفيس للفيلسوف أبى نصر الفارابى عن الموسيقى وعناصرها ومبادئها وأوضاعها وأنغامها، وكذلك عن الآلات الموسيقية المختلفة وأشكالها وتراكيبها[3]. وهو دليل على ما بلغه المسلمون فى هذا الفن من الرسوخ والابتكار .

وقد يرى بعض الباحثين الغربيين أن الأندلسيين تلقوا معظم تراثهم الفنى ، عن الفن النصرانى . وفى هذا الرأى مبالغة ، فقد اقتبس الأندلسيون من فنون القوط والفرنج والبيزنطيين والبنادقة ، ولكنهم كانوا مبتكرين أيضاً ، وكانوا منشئين لفن إسلامى محض ، بما أسبغوه عليه من ألوان الإفتنان الرائع التى اختصوا بها ، وتميز بها تراثهم الفنى مدى الأحقاب .

— ٥ —

هذا . وقد غاضت اليوم من الأندلس كل مظاهرها القديمة ، وأصبحت سائر القواعد الأندلسية القديمة اليوم ، مدناً اسبانية نصرانية ، وقد اختفت معظم الصروح والآثار الأندلسية ، ولم تبق منها اليوم سوى بقية صغيرة ، متناثرة هنا وهناك ؛ وإذا تركنا جامع قرطبة (وهو اليوم كنيسة قرطبة العظمى) ، وحمراء

---

(١) Murphy : ibid ; p. 296 ، وهذا ما يستطيع أن يلاحظه كل من زار اسبانيا وشهد حفلاتها الموسيقية والغنائية .

(٢) راجع الإحاطة ج ١ ص ١٤٢ و١٤٣ .

(٣) وعنوانه « اسطقسات علم الموسيقى » (معجم الغزيرى ج ١ ص ٣٤٧) .

غرناطة ، ومنار إشبيلية (وهو اليوم برج الأجراس لكنيستها العظمى) ، إذا تركنا هذه الصروح الأندلسية العظيمة الباقية جانباً ، كان معظم الصروح والآثار الأندلسية التى قدر لها أن تنجو من أحداث الزمن ، يتمثل فى بضعة أنواع معينة من المنشآت الأثرية يمكن حصرها فيما يلى :

أولا — القصبات الأندلسية ، والقصبة هى القلعة وملحقاتها ، وكانت تبنى عادة فوق أعلى ربوة تشرف على المدينة ، وتستعمل للسيطرة عليها والدفاع عنها ، كما تستعمل مقراً للأمير أو الحاكم ، ويلحق بها عادة قصر ومسجد . والقصبة هى أكثر الآثار الأندلسية ذيوعاً ، ولا تكاد تخلو قاعدة أندلسية قديمة حتى اليوم من القصبة أو بعض أطلالها ؛ وتوجد أشهر القصبات الأندلسية اليوم فى مالقة وألمرية وجبل طارق وشاطبة وبطليوس وماردة باسبانيا ، وشلب وأشبونة وشنترة وشنترين بالبرتغال .

ثانياً — القصور ، وهى الكلمة التى حرف الإسبان مفردها إلى كلمة Alcázar أى القصر . وتوجد فى طليطلة وإشبيلية وغرناطة ، وإطلاق هذه الكلمة الإسبانية على صرح من الصروح الأثرية ، يفيد فى الحال أنه يرجع إلى أصل أندلسى أو أنه أنشئ على أنقاض قصر أندلسى ، كما هو الشأن فى قصر إشبيلية Alcázar de Sevilla .

ثالثا — القناطر الأندلسية ، وتوجد منها نماذج فى طليطلة ، وقرطبة ، ورندة ، وغرناطة .

كذلك يوجد كثير من بقايا الأسوار والأبواب والحمامات الأندلسية القديمة ، والأطلال التى تركت إلى جانب بعض الكنائس ، التى أقيمت فوق أنقاض المساجد القديمة ، من منارات حولت إلى أبراج للأجراس ، ومن عقود أو أسوار أومشارف دارسة . كما يوجد عدد عديد من الذخائر والتحف واللوحات الأندلسية المبعثرة هنا وهنالك ، فى بعض الكنائس والمتاحف الإسبانية ، وهذا كله إلى ما خلفه الفن الأندلسى من أثر خالد ، فى طراز كثير من الصروح الإسبانية التاريخية ، من كنائس وقصور وأبواب وعقود ، وفى زخارفها ونقوشها ، وما خلفه فن المدجنين الذى اشتق من الفن الأندلسى ، من الآثار الظاهرة ، فى طراز كثير من الصروح التى أنشئت فى مختلف المدن الإسبانية ، منذ القرن الثالث عشر إلى القرن السادس عشر وذلك حسبما أشرنا من قبل .

على أن هذه البقية الباقية من الآثار الأندلسية تمثل بالرغم من قلتها ، العصور والأطوار المختلفة للفن الأندلسى ، ومنها نستطيع أن نقف على خصائص كل عصر وأطواره . وليس هنا مقام التحدث عن هذه الآثار ، فقد أفردنا لذلك مؤلفاً خاصاً ، تناولنا الحديث فيه عن الآثار الأندلسية الباقية فى سائر قواعد الأندلس القديمة[1] ، ولكنا نود أن نسجل هذه الحقيقة ، التى يشعر بها السائح المتجول ، كما يشعر بها العالم الباحث ، وهى أن هذه الآثار والأطلال الصامتة ، كلها تشهد بما كان لهذا الشعب الأندلسى الذكى النبيل ، من قدم راسخ فى ميدان العلوم والفنون ، وكلها تبدو بما يتجلى فيها من روعة أثرية ، ومن براعة علمية وفنية ، عنواناً لحضارة عظيمة .

---

(١) هو كتاب « الآثار الأندلسية الباقية فى اسبانيا والبرتغال » (القاهرة سنة ١٩٥٦ و١٩٦١) .

ثبت المراجع

– ١ –

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقرى (القاهرة وبولاق) .
أزهار الرياض فى أخبار عياض للمقرى (القاهرة) .
تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر (بولاق) .
التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً (لجنة التأليف والترجمة القاهرة ١٩٥١) .
الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة لابن بسام (القسم الثالث مخطوط أكاديمية التاريخ بمدريد) .
الإحاطة فى أخبار غرناطة لابن الخطيب (ج ١ و٢ القاهرة سنة ١٣١٩هـ) .
الإحاطة فى أخبار غرناطة لابن الخطيب (ج ١ القاهرة سنة ١٩٥٦) .
اللمحة البدرية فى تاريخ الدولة النصرية لابن الخطيب (القاهرة ١٣٤٧ هـ) .
الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية (تونس ١٣٣٧ هـ) .
أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر المنشور بعناية المستشرق ميللر (جوتنجن سنة ١٨٦٣) .
(نبذة العصر فى أخبار ملوك بنى نصر) المنشور بعناية معهد فرانكو – (العرائش سنة ١٩٤٠) .
تاريخ قضاة الأندلس لأبى الحسن النباهى المنشور بعناية الأستاذ ليڤى بروڤنسال (القاهرة ١٩٤٨) .
قلائد العقيان للفتح بن خاقان (القاهرة ١٢٨٤ هـ) .
صلة الصلة لأبى جعفر بن الزبير المنشور بعناية الأستاذ ليڤى بروڤنسال
تكملة الصلة لابن الأبار (المكتبة الأندلسية) .
الحلة السيراء لابن الأبار المنشور بعناية العلامة دوزى (ليدن سنة ١٨٥١) .
تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين لأشباخ وترجمة محمد عبد الله عنان (القاهرة ١٩٥٨) .

الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية لمؤلف مجهول (الجزائر سنة ١٩٢٠) .
نزهة الحادى بأخبار ملوك القرن الحادى لأبى عبد الله محمد اليفرنى (طبع فاس) .
بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد للوزير يحيى بن خلدون المنشور بعناية الأستاذ الفرد بل (طبع الجزائر سنة ١٩٠٣ و ١٩١٠) .
الإستقصاء لأخبار دول المغرب الاقصى للسلاوى (القاهرة) .
المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس لابن دينار (تونس) .
الخلاصة النقية فى أمراء إفريقية لأبى عبد الله الباجى المسعودى (تونس) .
مختصر تاريخ تطوان للسيد محمد داود .
مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح لأبى عبد الله محمد أبوجندار (الرباط ١٣٤٥ هـ) .
رحلة الوزير فى افتكاك الأسير للوزير محمد بن عبد الوهاب الغسانى (العرائش ١٩٤٠) .
غزوات عروج وخير الدين (الجزائر سنة ١٩٣٤) .
وثائق عربية غرناطية من القرن التاسع الهجرى للأستاذ سيكودى لوثينا (المنشور بعناية المعهد المصرى بمدريد ١٩٦١) .
السلوك فى دول الملوك للمقريزى (لجنة التأليف والترجمة القاهرة) .
صبح الأعشى للقلقشندى (القاهرة) .
الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع للسخاوى (القاهرة) .
فوات الوفيات لابن شاكر الكتبى (بولاق) .
تاريخ ابن إياس المسمى بدائع الزهور (بولاق) .
الروض المعطار لأبى عبدالله الحميرى المنشور بعناية الأستاذ ل. بروفنسال (القاهرة).
معجم البلدان لياقوت الحموى (القاهرة) .
رحلة ابن بطوطة (القاهرة) .

مصادر مخطوطة

ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب لابن الخطيب (الإسكوريال ١٨٣٥ الغزيرى) ؛ وكناسة الدكان (رقم ١٧١٢) ؛ ونفاضة الجراب (رقم ١٧٥٥) وغيرها من آثاره المخطوطة بالإسكوريال .

ديوان ابن الخطيب المسمى « الصبب والجهام والماضى والكهام » (خزانة جامع القرويين بفاس) .

أسنى المتاجر فى بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر وما يترتب على ذلك من العقوبات والزواجر (الإسكوريال رقم ١٧٥٨ الغزيرى).

التكملة لابن عبد الملك المراكشى (الإسكوريال رقم ١٦٨٢ والرباط) .

الإكليل فى تفضيل النخيل (أو نزهة البصائر) لأبى الحسن النباهى (الإسكوريال رقم ١٦٥٣ الغزيرى) .

الياقوتة الحلية فى الذرية السعيدية المرينية المباركة العبدالحقية (مكتبة مدريد الوطنية) .

النفحة النسرينية واللمحة المرينية ، للأمير إسماعيل بن الأحمر (الإسكوريال ١٧٦٩ الغزيرى) .

الأنوار النبوية فى آباء خير البرية لمحمد بن عبد الرفيع الأندلسى الموريسكى المحفوظ بخزانة الرباط (المكتبة الكتانية) برقم 1238

كتاب العز والرفعة والمنافع للمجاهدين فى سبيل الله بالمدافع للرئيس ابن غانم الأندلسى الموريسكى ، وترجمة الشهاب الحجرى الموريسكى ومحفوظ بخزانة الرباط برقم ج 87 .

الروض الباسم فى حوادث العمر والتراجم لعبد الباسط بن خليل الحنفى المصرى (مكتبة الفاتيكان رقم ٧٢٨ و٧٢٩ .Borg) .

نثير الجمان فى شعر من نظمنى وإياه الزمان للأمير اسماعيل بن الأحمر (دار الكتب المصرية رقم ١٨٦٣ آداب اللغة العربية) .

— ٢ —

R. Dozy : Histoire dès Musulmans d'Espagne jusqu'à la conquête
» des Almoravides (Lévy-Provençal 1932).
» : Recherches sur l'Histoire et Littérature de l'Espagne pendant le moyen-âge.
» : Supplément aux Dictionnaires Arabes.

Lévy-Provençal : L'Espagne Musulmane au Xème Siècle.

De Marlès : Histoire de la Domination des Arabes et des Maures en Espagne et Portugal (redigé sur l'Histoire de M. Joseph Condé).

P. Gayangos : Mohamedan Dynasties in Spain.
(وهو ترجمة القسم التاريخي من كتاب نفح الطيب مع تعليقات وهوامش)

W. Prescott : History of Ferdinand and Isabella the Catholic (London, Sonnenschein).
» : History of the Reign of Philip the Second (London 1855).

Scott : The Moorish Empire in Europe.

H. Ch. Lea : History of the Inquisition in Spain.
» » : History of the Moriscos of Spain; their Conversion and Expulsion (London 1901).

Owen Jones & Jules Goury : The Alhambra (London 1844).

W. Irving : A Chronicle of the Conquest of Granada (Everyman's).

Murphy : Mohamedan Empire in Spain.

Lane-Poole : The Barbary Corsairs.
» » : The Moors in Spain.

C. Brockelmann : Geschichte der arabischen Litteratur.

M. Casiri : Bibliotheca Arabico-Hispana Escurialensis.

F.J. Simonet : Descripción del Reino de Granada (Granada 1872).
» » : El Cardinal Ximénez de Cisneros y los Manuscritos : Arábigo-Granadinos.

Isidro de las Cagigas : Los Mudéjares (Madrid 1940).

Prieto y Vives : De como debió nacer el Reino de Granada.

R. y. de Linares : Escrituras Arabes pertenecientes al Archivo de Nuestra Senora del Pilar de Zaragoza (en Homenaje a F. Codera, Zaragoza 1904).

A. G. Palencia : Los Mozárabes de Toledo en los Siglos XII 8 XIII (Madrid 1926-1930).

A.G. Palencia : Moros y Cristianos en España Medieval (Madrid 1945)
P. Boigues : Apuntes sobre las Escrituras Mozárabes Toledanas.
Alarcón y Santón y R. G. de Linares : Los Documentos Arabes diplomaticos del Archivo de la Corona de Aragón.
J. Condé : Historia de la Dominación de los Arabes en Espana.
Lafuente Alcántara : Historia de Granada (Granada 1904).
Luis del Marmol Carvajal : Historia del Rebelión y Castigo de los Moriscos de Granada.
Hernando de Baeza : Las Cosas de Granada (ed. por M. Müller, Göttingen 1863).
M. Gaspar y Remiro : Documentos Arabes de la Corte Nazari de Granada.
» » » » : Entrada de los Reyes Católicos en Granada al Tiempo de su Rendición (Revista de Centro de Estudios Hist. de Granada).
Documentos Inéditos para la Historia de Espana.
M. Garrido Atienza : Las Capitulaciónes para la Entrega de Granada (Granada 1910).
P. Martiri de Angleria : Legatio Babylonico (Una Embajada de los Reyes Católicos a Egipto).
M. Gomez-Moreno : El Arte en Espana.
A. Llorente : Historia Critica de la Inquisición de España (Madrid 1817)
M. Alarcón : Misceláneo de Estudios y Textos Arabes(Madrid 1915)
M. Danvila y Collado : La Expulsión de los Moriscos Españoles (Madrid 1889)
Florecio Janer : Condición Social de los Moriscos de Espana (Madrid 1857).
Modesto Lafuente : Historia General de España (Madrid 1882).
D. Felipe Picatosti : Estudios sobre la Grandeza y Decadencia de Espana (Madrid 1887).
M. Menéndez y Pelayo : Historia de los Heterodoxes Españoles.
D. Pascual Boronat : Los Moriscos Espanoles y su Expulsión.
R. Menéndez Pidal : Origines del Español.
F. Saavedra : Discurso leido ante la Real Academia Espanola (Madrid 1878).
Al-Andalus (Revista de las Escuelas de Estudios Arabes de Madrid y Granada).

فهرست الموضوعات

مأســاة الموريسكيين

أو العرب المتنصرين

الكتاب الثالث

مراحل الإضطهاد والتنصير

الكتاب الرابع

نهــاية النهــاية

الكتاب الخامس

نظم الحكم والحياة الإجتماعية والفكرية فى مملكة غرناطة

فهرست الخرائط والصور والوثائق

الصــــور

الوثائق

فهرست البلدان والأماكن

— ا —

ب — ث

ج — ح

د — ز

ف — ك

فهرست القبائل والطوائف والدول

فهرست الأعـــلام

— ا —

ب — خ

د — ز

THE END OF THE MOORISH EMPIRE

IN SPAIN

AND THE HISTORY OF THE MORISCOS

By

MOHAMED ABDULLA ENAN

Author of " Moorish Empire in Spain " " The Petty Kingdoms " " The Age of the Almoravides and Almohades " " Los Monumentos Moros en Espana y Portugal " etc.

Lajnat - ul - Taalif Press

Cairo — 1966

